

## ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٩﴾

نعرف أن مجرد الابتلاء ليس شرا ، ولكن الشر هو أن تسقط في الابتلاء ، فكل ابتلاء هو اختبار وامتحان ، ولم يقل أحد : إن الامتحانات شر ، إنها تصير شرا من وجهة نظر الذي لم يتحمل مشاق العمل للوصول إلى النجاح ، أما الذي بذل الجهد وفاز بالمركز الأول ، فالامتحانات خير بالنسبة له ، إذن فقوله الحق : « ولنبلونكم » أي سنضع لكم امتحانا يصفى البطولة للمعينة الجديدة .

والحق سبحانه قد ذكر لنا قبل هذه الآية قمة الابتلاءات : وهي أن ينال الإنسان الاستشهاد في سبيل الله ، وذكر ثواب الشهيد ، وهو البقاء على هيئة من الحياة عند ربه ، وكان ذلك مقدمة للابتلاءات الأقل ، فقمة الابتلاء - في حدود إدراكنا - هي فقد الحياة ، وأراد الحق أن يعطي المؤمنين مناعة فيما دون الحياة ، مناعة من الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات . وكل ما دون حياة الفرد هو أمر ترقى بالنسبة لفقد الحياة نفسها ، فمن لم يفقد حياته ، فسأق له ابتلاءات فيما دون حياته وهي ابتلاءات الخوف والجوع ونقص الأموال ، ونقص في عدد الإخوة المؤمنين ، وكذلك نقص في الثمرات ، وكل هذه أشياء يجربها الإنسان ، ويأتى التكليف ليطالب من المؤمن أن يترك بعضها عما يحب ، وتلك الابتلاءات تدخل في نطاق بقاء التكليف .

وأول تلك الابتلاءات هو الخوف ، والخوف هو انزعاج النفس وعدم اطمئنانها من توقع شيء ضار ، فالنفس لها ملكات متعددة ، وعندما يصيبها الخوف ، فهي تعاني من عدم الانسجام ، والخوف حور لا ضرورة له ، لأنك إذا كنت تريد أن تؤمن نفسك من أمر يخيفك ، فأنت تحتاج إلى أن تحمى بأسبابك لتعوق هذا الذي يخيفك ، أما إن استسلمت للانزعاج ، فلن تستطيع مواجهة الأمر المخيف بكل

ملكائك ، لأنك ستواجهه ببعض من الملكات الخائرة المضطربة . بينما أنت تحتاج إلى استقرار الملكات النفسية ساعة الخوف ؛ حتى تستطيع أن تحم نفسك بما يؤمنك من هذا الخوف . أما إن زاد انزعاجك عن الحد ، فأنت بذلك تكون قد أضعت مصدر الخوف على نفسك ؛ لأنك لن تواجه الأمر بجميع قواك . ولا بجميع تفكيرك .

إذن فالذي يخاف من الخوف ؛ نقول له : أنت مُعين لمصدر الخوف على نفسك ، وعرفك وانزعاجك لن يمنع الخوف ، ولذلك لا بد لك من أن تشغل بما يمنع الأمر المخوف ، ودع الأمر للخوف إلى أن يقع ، فلا تعيش في قرعته قبل أن يأتبك ، فأففة الناس أنهم يعيشون في المصائب قبل وقوعها ، وهم بذلك يطيلون على أنفسهم أمد المصائب . إن المصيبة قد تأتي - مثلاً - بعد شهر ، فلهذا تطيل من عمر المصيبة بالتوجس منها والرهبة من مواجهتها ؟ إنك لو تركتها إلى أن تقع ، تكون قد قصرت مسافتها . ولك أن تعرف أن الحق سبحانه وتعالى ساعة تأن المصيبة فهو برحمته يتزل معها اللطف ، فكأنك إن عشت في المصيبة قبل أن تقع ، فأنت تعيش في المصيبة وحدها معزولة عن اللطف المصاحب لها ، لكن لو ظنلت صابراً محتسباً قادراً على مواجهة أي أمر صعب ، فأنت لن تعيش في المصيبة بدون اللطف .

لقد كانت الدعوة إلى الله بالإسلام مازالت وليدة ، لذلك كان لابد من إعداد القادة المؤمنة إعداداً قوياً ، وكان الخوف متوقعاً ، لأن خصوم الدعوة يكدون لها ويؤبسون ، وهذا هو الابتلاء . وما المراد من المؤمن حين يواجه ابتلاء الخوف ؟ إن عليه أن يجعل من الخوف فريسة لاستكمال الأسباب التي تمنع وقوع الأمر المخوف ، فإن صنع ذلك يكون قد نجح في هذا الابتلاء .

وتأتي إلى الابتلاء الثاني في هذه الآية الكريمة ، وهو الجوع . إن الجوع شهوة غالبة إلى الطعام ، وهو ضروري لاستبقاء الحياة ، ومن رحمة الحق سبحانه وتعالى بالإنسان أن ضمن له في ذاته غذاء يدخره من وقت رعايته لينضمه وقت شدته . فالإنسان يحتفظ بالغذاء الزائد على صورة شحم ولحم ، وحين يجهز ولا يجد طعاماً ، فهو يأخذ من هذا الشحم ، فإذا انتهى الشحم ، فهو يأخذ من اللحم ، وإذا انتهى اللحم ،

ياخذ الجسم غذاءه من العظم ، من أجل أن يستبقى الإنسان الحياة .

والإنسان مكون من أجهزة متعددة ، وسيد هذه الأجهزة المخ ، ومادامت الحياة موجودة في خلايا المخ فإن كل شيء فيك جاهز له مل ، لكن إذا ماتت هذه الخلايا ، انتهى كل شيء ، وذلك هو السبب في أن يقال : إن فلان مات ثم أعطوه دواء معيناً فعادت إليه الحياة . إنهم يتناسون الحقيقة العلمية المؤكدة ، وهي أن الحياة لا تغادر الإنسان إلا إذا توقف المخ عن العمل ، ولذلك فهناك إنسان قد يتوقف قلبه فيما يحلّه الأطباء بصدمة كهربية تعيد تشغيل القلب ، أو يشقون الصدر لتدليك القلب . لكن إذا ماتت خلايا المخ فهذا هو الموت . فأجهزة الجسم كلها في خدمة ذلك السيد وهو المخ .

ومن العجيب أنك تجد سيد الإنسان - وهو المخ - في قمته ، والحيوانات كذلك معها في قمته . أما النبات فيسبغ في جذوره ، فالورق يذبل أولاً ، ثم تحف الاغصان الرفيعة ، ثم الجذع ، ويحف الجذر في النهاية عندما لا يأتيه بعض الماء ، وعندما يأتي بعض الماء إلى الجذور في الوقت المناسب فهي تعود إلى الاخضرار ، وتنمو وتعود إليها الحياة ، وكذلك المخ في الإنسان ، فساعة ينهي الإنسان مخزونه من شحمه ومن لحمه ويتغذى على العظام ، فلنأفاده يأتي من إيصال الغذاء إلى المخ . ولذلك قالت المرأة العربية التي لم تكن تعرف التشريح : « نحن مرت علينا ستون سنة أذايت الشحم ، وستة تحقّت اللحم ، وستة عت العظم » .

ويجب أن نفهم أن الجوع يُحسّ لنا كل رزق في الحياة ، فإني إن كنت جوعان صار كل طعام شهياً ، والذي يرغب الناس على إعداد ألوان مختلفة من الأطعمة ، إنما هو عدم الجوع ، فالإنسان يريد أن يشهى لنفسه ليأكل ، لكنه لو كان جوعان لكفاه أي طعام ، ولذلك قالوا : « طعام الجائع هنيء وفراش المتعب وطن » . فساعة يكون الإنسان متعباً فهو ينام على أرض خشنة ، ويستغرق في النوم ، وإن لم يكن الإنسان متعباً ، فهو يظل يتقلب في الفراش حتى ولو كان من الديباج .

إذن فابتلاء الجوع هو أن نصير على الضروري من الطعام الذي بقيم لك

الحياة ، وأنت تأكله كوقود لحركة الحياة ، ولا تأكله التذاذا ، وحين يقتات الإنسان ليضمن لنفسه وقود الحياة فأى طعام يكفيه . ولذلك شرع الله الصوم لتصبر على أذى الجوع ، لأن المؤمنين قد تضطربهم معركة ما لأن يعيشوا فيها ساعات طويلة دون طعام ، فإن لم يكونوا مدربين على تحمل قسط من الجوع فسيخفون ويتمبون .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعد المؤمن إعدادا كافيا كاملا ، فالؤمن يواجه الخوف فيستعد ، ويواجه الجوع فيأخذ من قوت الحياة بفكر الضرورة .

ولذلك نجد أن المجتمعات تواجه متاعب الاقتصاد بالتكشف ، ولكن بعض المجتمعات لا تستطيع ذلك ، فتجد الناس في تلك المجتمعات لا تتكشف ، ولهذا نقول لمن يعيش حياة الترف : أنت لا تعد نفسك الإعداد اللازم لمواجهة تقنيات الزمن .

وأقول كما قال إبراهيم بن أدهم :

وإذا خلا شيء على تركته فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

إن أى شيء إذا غلا سعره ، لا يشتريه ، ويتركه ، فيكون أرخص شيء ، لأنه إن يدفع فيه مالا ليشتريه .

وأما الأبناء الثالث وهو نفس الأموال فمصدره أن المؤمنين سينشغلون عن حياتهم بأمر الدعوة ، وإذا ما شغلوا عن حركة الحياة لمواجهة العدو فسيضطرون إلى التضحية بحركة الحياة التي تنتج المال ولذلك تنقص الأموال ، لأن حركتهم في الحياة توجهت إلى مقاومة خصوم الله . وكذلك سيواجهون العدو مقاتلين ، وقد يستشهد منهم عدد . وأخيرا يواجهون نفس الثمرات ، والثمرات هي الغاية من كل عمل .

والحق سبحانه وتعالى حين يعدنا هذا الإعداد ، فإذا نجحنا فيه تكون لنا البشرية ، لأننا صبرنا على كل هذه المنغصات : صبر على الخوف ، وصبر على



الجوع ، وصبر على نقص الأموال ، وصبر على نقص الأنفس ، وصبر على نقص الثمرات .

إذن فالهم أن ينجح المؤمن في كل هذه الابتلاءات : حتى يواجه الحياة صليبا ،  
ويواجه الحياة قويا . ويعلم أن الحياة صعب ، ولا يشغله المعبر عن الغاية ،  
ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾ ﴿١٥٧﴾

والمصيبة هي الأمر الذي ينال الإنسان منه المشقة والألم ، وهي مأخوذة من إصابة الهدف . والمؤمن يستقبل المصيبة والثقا أنها على قدر إيلامها بكون الثواب عليها ، ولذلك عندما فرح الكفار بما يصيب المسلمين في بعض المعارك ، أنزل الله ذلك القول الحق للمؤمنين :

﴿قُلْ لِيُحْيِيَنَا اللَّهُ نَكُتُبُكُمْ﴾

(من الآية ١٥ سورة التوبة)

أى قولنا أيها المؤمنون هؤلاء الحمقى من الكافرين، إنه لن يحدث لنا إلا ما كتبته

وحيثما نتأمل قوله الحق : « ما كتب الله لنا ، أى أن المسألة ستكون لحسابنا ، وسنأخذ عليها حسن الثواب من الله ، ولم يقل الحق : كتب الله علينا ولاها لو كانت كذلك لكان معناها أنها جزاء وعقاب من الله .

وأي أمر يهيب الإنسان ، إما أن يكون له دخل فيه ، وعند ذلك لا يصح أن

يجزع لأنه هو الذي جاء بالأمر المؤلم لنفسه ، وإما أن تكون نصية لا دخل له بها ، وحدثت له من غيره مثلاً ، وعند ذلك عليه أن يبحث عن سببها : أعدلاً أم ظلماً ؟ إن كانت عدلاً فهي قد جبرت الذنب ، وإن كانت ظلماً فسوف يقتصر الله له ممن ظلمه . وعلى هذا فالمؤمن في كلتا الحالتين رابح .

إذن فالمؤمن يستقبل كل مصيبة متوقفاً أن يأتي له منها خير . وعلى كل مؤمن أن يقيم نفسه تقيماً حقيقياً ، « هل لي على الله حق ؟ أنا مملوك لله وليس لي حق عنده ، فما يجزيه على فهو يجزيه في ملكه هو » . ومن لا يصحبه ذلك فليتاب على أي مصيبة ، ويقول لها : « لا تصيبي » ، ولن تستطيع دواء أي مصيبة . ومادامنا لا نستطيع أن نمنع وقوع المصائب والأحداث ، فلتقبلها - كمؤمنين - لأن الحق سبحانه وتعالى يريد بنسبتنا إليه أن يعزنا ويكرمنا . إنه يدعونا أن نقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون » . إنا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى الله ونقبل ما حدث لنا . ولا بد لنا هنا أن نأثّر بمثال - والله المثل الأعلى - هل رأيت إنساناً يفسد ملكه ؟ أبداً .

إن صاحب الملك يعمل كل ما يؤدي إلى الإصلاح في ملكه ، وإن رأى الناس في ظاهر الأمر أنه فساد ، فما بالنا بالله سبحانه وتعالى ونحن ملك له ، وهو سبحانه لا يعرض ملكه أبداً للضرر ، وإنما يقيمه على الحكمة والصلاح .

« إنا لله وإنا إليه راجعون » أي نحن مملوكون لله ، ونحن راجعون إليه ، وحتى إن كان في مصائب الدنيا ظلم لنا وقع علينا من إنسان، فسوف نأخذ ثواب ما ظلمنا فيه عند الرجوع إلى الله ، إذن نحن لله ابتداء بالملكية ، ونحن لله نهاية في المرجع ، وهو سبحانه ملك القوسين : الابتداء والانتها ، ولذلك علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أي مصيبة تصيب الإنسان أن يسترجع : أي أن يقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون » . وزادنا أيضاً أن نقول : « اللهم اجزني في مصيبي واخلف لي خيراً منها » ، إنك إذا ما قلتها عند أي مصيبة نصيبك فلا بد أن تعبد فيها بأن بعداً غيراً منها ، وحتى إن نسي الإنسان أن يقول ذلك عند وقوع المصيبة ، ثم تذكرها وقاها فله جزاؤها ، كأنه قالها ساعة المصيبة .

وهناك قصة عن أم سلمة رضي الله عنها : حين مات أبو سلمة زوجها - وكان ملء السمع والبصر - وجزعت عليه أم سلمة ، فقيل لها قولي : ما علمنا رسول الله صل الله عليه وسلم ، قالت : وما علمكم ؟ قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم اجزني في مصيبي واخلف لي خيرا منها ، فقالت ما قيل لها ، فإذا بها بعد انقضاء عدتها يذهب إليها النبي مخاطبا ، فقيل لها : أوجد غير من ابن سلمة أم لم يوجد ؟ قالت : ما كنت لأتسامي - أي أتوقع - مثل هذا المرقف .

فإذن ، كل مصيبة يتعرض لها الإنسان يجب أن يقول عندها : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم اجزني في مصيبي واخلف لي خيرا منها<sup>(١)</sup> .

وماذا يكون حال الذين يقولون هذا الدعاء ؟ ها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ  
وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (١٥٧)

فلنتظر إلى غاية الغايات التي يدرينا الله عليها لتحمل الدعوة ، ولنحمي منهج الحق ، ولنهدم دولة المبطلين ، هذه غاية ، لكنها ليست الغاية النهائية ، فالغاية النهائية أننا نفعل ذلك لناخذ رحمت الله وبركاته في الآخرة .

إذن ، فالغاية النهائية في كل إيمان وفي كل عمل هي ابتغاء مرضاة الله ورحمته . وكما قال المرحوم الشيخ سيد قطب رحمه الله عليه : إياك أن يشغلك عن صلوات الله ومحباته وبركاته شيء ولو انتصار العقيدة نفسه .

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم وأوله : « ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون . »

كان انتصار العقيدة وسيلة لتعال بها الصلوات والرحمة من ربك ، فكل شيء ما عدا ذلك وسيلة تسلم إلى غاية ، وغاية المؤمن أن يكون من الذين يشملهم قول الله :

﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (١٥٧)

( سورة البقرة )

ونحن نعرف أن الصلاة في اللغة هي الدعاء ، للتاس صلاة ، وللملائكة صلاة ، ولله صلاة ، فهو القائل :

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكَ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾

( من الآية ٤٣ سورة الاحزاب )

وكلنا نعيش برحمت الله ، حتى الكافر يعيش على الأرض برحمة الله ، وبأخذ أسباب حياته برحمة الله ، والنعم والخبرات التي يعيش عليها تأتيه بسبب رحمة الله ، والمؤمن يأخذ نعم الدنيا برحمة الله ويزيد الله له بالبركة والاطمئنان ، والاطمئنان نعمة كبرى ، فمن يعيش في هذه الحياة وهو مطمئن إلى غاية أفضل من هذه الحياة ، فهذا لون عظيم من الاطمئنان .

فالصلاة من الله عطاء الرحمة والبركة .

والصلاة من الملائكة استغفار .

والصلاة من المؤمنين دعاء .

والدعاء حين تدعوه لمحمد صلى الله عليه وسلم بالخير وبالرحمة وبالبركة هو دعاء لك ، لماذا ؟ لأن كل منزلة ينالها رسول الله عائدة لامته وللعالم أجمع .

فمن الذي يشفع عند الله في يوم الحشر ليعجل الله بالفصل بين الخلاق ؟ . إنه

رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إنّ ، فكل خير يناله رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خير  
لامته ، فإذا دعوت له فكانك تدعو لنفسك . إنك عندما تصلّي عليه  
مرة يصلّي الله عليك عشراً .

أليس في ذلك خير لك ؟

﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (١٥٧)

(سورة البقرة)

والمهتدون هم الذين التزموا الطريق الموصل للغاية، والغاية هي  
صلوات من ربهم ورحمة، وأنت الآن تتمتع بنعم الله بأسباب الله ،  
وعند الله في الآخرة سوف تتمتع بإذن الله بنعم الله وبقاء الله .

بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ

فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ

بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٥٨)

والصفا والمروة جبلان صغيران ، يعرفهما الذين زاروا الأماكن  
المقدسة ، والذين لم يذهبوا : أسأل الله أن يروهما عين اليقين ، وحين  
يرونها يكون هذا علم اليقين . وهذان الجبلان كانت سيدتنا هاجر  
أم إسماعيل قد ترديدت بينهما لتطلب الماء لولدها ، بعد أن تركهما  
إبراهيم عند بيت الله الحرام .

وبالله عليك، فبماذا تفكر امرأة عندما يتركها زوجها مع رضيعها في مكان

لا طعام فيه ولا ماء ؟

هنا قالت هاجر قولتها المشهورة :  
- إلى من نكلنا ؟ الله أمرك بذلك ؟

فقال سيدنا إبراهيم : نعم . فقالت : إذن لن يضيعنا ، لقد استغنت بالخلاق من المخاوف ، ولم تنطق مثل هذا القول إلا بوحى من المسبب ، وهذه أول قضية إيمانية مع ملاحظة الأرضية الإيمانية التي وجدت عليها ، حينما دعا إبراهيم عليه السلام ربه قائلا :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْأَشْرَمِ رَبَّنَا لِيُقْبِرَ أَهْلُ الْمَوْلَاةِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

وإذا قرأت « غير ذي زرع » فاعلم أنه غير ذي ماء ، فحيث يوجد الماء ؛ يوجد الزرع ، فإلّا هو الأصل الأصل في استبقاء الحياة ، وعندما يغيب الماء عن أم ووليدها ، فماذا يكون حالها ؟

لقد عطش ولدها وأرادت أن تبحث عن نبع ماء أو طير ينزل في مكان لتعلم أن فيه ماء ، أو ترى قافلة تسير ومعها ماء ؛ لذلك خرجت إلى أهل مكان وتركت الوادي ، وصعدت إلى أعلى جبل الصفا فلم تجد شيئا ، فنظرت إلى الجهة الأخرى ؛ إلى المروة ، وصعدت عليها فلم تجد شيئا . وظلت تتردد بين الصفا والمروة سبعة أشواط . ولنا أن تصور حالتها ، امرأة في مثل منها ، وفي مثل وحدتها ، وفي مثل عدم وجود ماء عندها ، ولا بد أنها عطشت كما عطش وليدها ، وعندما بلغ منها الجهد ، انتهت محاولاتها ، وعادت إلى حيث يوجد الوليد .

ولو أن سمعها بين الصفا والمروة أجدى ، قرأت ماء . قلنا : إن السعى وحده قد جاء لها بالماء ، لكنها هي التي قالت من قبل : « إذن لن يضيعنا » . وهي بهذا القول قد ارتبطت بالمسبب لا بالسبب ، فلو أنه أعطاهما بالسبب المباشر وهو بحثها عن

الماء لما كان عبدا حجة على صدقها في قولها . « إذن لن يضيئها » ويريد الحق أن ينتهي سعيها سبع مرات بلا نتيجة ، ونعود إلى وليدها ، فتجد الماء عند قدم الوليد . وهكذا صدقت هاجر في يضيئها ، عندما وثقت أن الله لن يضيئها ، وأراد الله أن يقول لها . نعم لن أضيئك ، وليس سعيك ، ولكن بقد طمعت الرضيع ، يضرب بها الأرض ، فينتج منها الماء . وضرب الوليد للأرض بقدمه سبب غير فاعل في العادة ، لكن الله أراد سببا حتى يستبقى السبية ولو لم تؤد إلى الغرض .

وحين وجدت هاجر الماء عند قدم رضيعها أيقنت حق أن الله لم يضيئها . وظل السعي شعيرة من شعائر الحج إلى بيت الله الحرام ، استدامة للإيمان المرء بالمسبب وعدم إهماله للمسبب ، وحق يفل الإنسان عن كل عمل وهو يؤمن بالمسبب . ولذلك يجب أن يفرق بين التوكل والتوكل . إن التوكل عمل قلب وليس من جوارح ، والتوكل تعطيل عمل جوارح . ليس في الإسلام توكل ، إنما الجوارح تعمل والقلوب تتوكل . هكذا كان توكل هاجر ، لقد حملت وتوكلت عن الله ، فمؤقها الله بما تريد بأهون الأسباب ، وهي جرعة قدم الوليد للأرض ، وبقيت تلك المسألة شعيرة من شعائر الحج وهي سعة أشواط بين الصفا والمروة .

وعندما عمل الناس عن عبادة الله ، ودخلت عبدة الأصنام في الجزيرة العربية ، أوجدوا عن جبل الصفا صفا أسموه « إساف » وعلى المروة صفا أسموه « نائلة » . وكانوا يترددون بين إساف ونائلة ، لا بين الصفا والمروة ، لقد نقلوا العبادة من حالصية التوحيد إلى شائبة الوثنية

فلما جاء الإسلام أراد الله ألا يوجه المسلمين في صلاتهم إلى البيت المحرم إلا بعد أن يطهر البيت ويجعله خالصا لله ، فلما ذهب بعض المؤمنين إلى الكعبة فخرجوا أن يسعروا بين الصفا والمروة ، لأن « إساف » و « نائلة » فوق الحبلين ، فكأنهم أرادوا أن يقطعوا كل صلتهم بعبادات جاهلية ، واستكبر إيمانهم أن يترددوا بين « إساف » و « نائلة » ، فأنزل الله قوله الحق .

« إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن

يطوف بها ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم ، ، أى لا تخرجوا في هذا الأمر ،  
لأنكم ستسعون بين الصفا والمروة ، لا بين إساف ومائلة كما كان يفعل المشركون  
الوثنيون ، إنك فالعمل هنا كان بالنية .

لقد كانت نية السعى الأولى عند حاجر هي الإيمان بالله والأحد بالأسباب ، لكن  
الوثنية قللت قيمة الإيمان إلى حضيض الكفر ، وكان لابد أن يستعيد المسلمون نية  
الإيمان الأولى عند زيارة البيت المحرم بالسعى بين الصفا والمروة ، فمن في الإسلام  
بوصح لأمر الأمر ، قال بنا : « قبلوا الحجر الأسود » ، وفي الوقت نفسه أمرا أن  
يرجم الحجر الذي يرمز إلى إبليس ، هكذا تكون العبرة بالنية ، وليس بشكل  
العمل ، وتكون العبرة في إطاعة أمر الله . وكان الحق بهذه الآية يقو للمؤمنين :  
إن المشركين عبدوا « إسافا » ومائلة » ، لكن أنتم اطرحوا المسألة من بالكم ،  
وادمروا إلى الصفا والمروة ، فالصفا والمروة من شعائر الله ، وليتا من شعائر  
الموثنية ، ولكن ضلال المشركين هو الذي خلغ عليهما الوثنية في إساف وفي مائلة  
لقد أراد الوثنيون بوصح « إساف » على الصفا « ومائلة » على المروة أن يأخذوا صفة  
التفديس للأوثان ، فلو أن الصفا والمروة من المقدسات سابقا لما وضعا عليهما  
أحجرهم وما جاءوا بأصنامهم ليضعوها على الكعبة ، هذا دليل على أن قداسة هذه  
الاماكن أسبق من أصنامهم ، لقد هموا وثنتهم بوضع « إساف » و « مائلة » على  
الصفا والمروة .

وبعد أن بين الحق للمؤمنين أن الصفا والمروة من شعائر الله ، يسه على أن المكين  
- ساكن المكان - لا يجس المكان ، بدليل أن الإيمان عندما يُثَبِّت له العتبة ، كسر  
الأصنام وأرلها من الكعبة وأصبح البيت طهرا ، وعندما كان المؤمنون يخرجون  
عن أن يعملوا فعلا من أعمال الخاطئية طمأنهم الحق سبحانه وتعالى ، وقال لهم  
« إن الصفا والمروة من شعائر الله »

وكلمة « صفا » معناها الحجر الأملس ، وأصبح كذلك من كثرة الملاسين له على  
مر الزمان ، وقيل إن الصفا مسومة إلى أصصفاء آدم . وقيل إن المروة مسوبة  
إلى المرأة التي هي حواء ، لكنه كلام يقا لا متوقف عنده كثيرا ، لأنه علم لا يصح



وجهل لا يضر، فالهم بالنسبة لنا أنه مكان ترددت بينه هاتين وهى  
تطلب الماء لابنها ، إن الحق جعل السعى بينهما من شعائر الله ،  
والشعائر هى معالم العبادة ، وتعلق دأباً على المعالم المكانية ، ويقال ،  
هذ مطاف ، وهذا مسعى ، وهذا مرمى الجمرات ، وهذا المشعر الحرام .

إن كلمة «المشعر» تعنى المكان الذى له عبادة مخصوصة ، وبما أن  
الصفاء والمرورة مكانان ، فقد جاء وصفهما بأيهما « من شعائر الله » ،  
« فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » كان الحج  
والعمرة لهما شئ يجعلهما فى مقام الفرصية ولهما شئ آخر يجعلهما  
فى مقام التطوع ، فإذن أدى المسلم الحج والعمرة مرة يكون قد أدى  
الفرض ، وهذا لا يمنع من أن تكرر الحج والعمرة هو تطوع مقبول  
بإذن الله ، له شكر من الله

وساعة نقول « لا جناح عليك أن تفعل كذا » ، فمعنى ذلك أنك إن  
فعلت فلا إثم عليك ، لكن ليس خطأ فى أن تفعل ، وليس فرضاً فى أن  
تفعل ، وهذا ما جعل بعض الناس يقولون إن السعى بين الصفاء والمرورة  
ليس ركناً من أركان الحج ، ونقول لهؤلاء هذه آية جاءت لسبب ، وهو  
أنهم كانوا يتخرجون من الطواف فى مكان يطوف فيه المشركون ، فقال  
لهم ، « فلا جناح عليه أن يطوف بهما »

إن نفى الجناح لا يعنى أنك إن لم تفعل يصح ، لا ، إنه سبحانه يريد  
على حالة كانوا يتخرجون منها ، وتولى تعالى « يطوف بهما »  
يستدعى منا وقفة ، إن الحاج أو المعتمر يسعى بين الصفاء والمرورة ،  
فماذا وصف الحق هذا السعى بـ «يطوف بهما» ؟

لكى تعرف ذلك لابد أن نوضح معنى « طاف » و « جال » و « دار » .  
إن « طاف » تعنى « دار حول الشئ » ، فما هى الدائرة التى بين الصفاء  
والمرورة ، حتى يسميها الحق طوافاً ؟ إن الدائر حول اندائرة يبدأ من أى  
نقطة منها كبداية ، لتكون تلك النقطة نهاية ، فكل طواف حول دائرة تجد  
فيه أن كل بداية فيها تعتبر نهاية ، وكل نهاية تعتبر بداية ، وأى حركة  
من وإلى شئ واحد يصنع دائرة

وصحيح أن من يسعى بين الصفا والمروة لا يدور ، ولكنه سينصب من الصفا إلى المروة ثم ينصب عائداً إلى الصفا ، ثم منها إلى المروة ، وهكذا يصير الأمر طوافاً . ومثال آخر من حياتنا اليومية ، إن الشرطي الذي يطوف لحراسة الشوارع والمنازل بالليل ، قد يلف المدينة كلها ، ويمكن أن يلف شارعاً واحداً هو مكان حراسته ، هذا الدوران في الشارع من أوله إلى آخره عدة مرات يسمى طوافاً بينها ، وهكذا نفهم معنى « يطوف سبعا » أى يمشى بينها عدة مرات من بداية إلى نهاية .

وهكذا نجد أن السعى بين الصفا والمروة هو جزء من شعائر الحج والعمرة . ويحد أن الفرصة في الحج والعمرة أماميه ، والتطوع بتكرار الحج والعمرة هو خير ، ومن تطوع حجاً فإن الله شاكر عليم « وهذا القول يقتضى أن نفهم أن الشاكر أصابته نعمة من المشكور ، فما الذى أصاب الحق هنا من تكرار الحج ؟ .

إن المؤمن عندما يؤدي ما اقترضه الله عليه فهو يؤدي المرض « لكن عندما يزيد بالطريق حبا في انك داته فهذه زيادة يشكره الله عليها ، إذن فالشكر من الله عرو وجل يفيد أن نعمة مستجيء ، والحق سبحانه وتعالى حين يفترض على عبد كذا من المروض يلتزم العبد بذلك ، فإذا راد العبد من جنس ما اقترضه الله عليه ، فقد دل ذلك على حبه وعشقه للتكليف من الله ، وإذا ما أحب وعشق التكليف من الله بدون أن يطلبه الله منه ويلزمه به بل حبه إليه ، فهو يستحق أن يشكره الله عليه ، وشكر الله للعبد هو عطاء بلا نهاية .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ وَاهْتَدَىٰ مِنْ

بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ

وَيَلْعَنُهُمُ النَّاسُ ﴿١٥١﴾

والحق سبحانه حين يعرض هذه القضية ، يبين لنا موقف الجزء من الدين يكتمون ما أنزل الله ، لقد كنتم بعض من أهل الكتاب اليات التي أنزلها الله في الكتاب الذي معهم ، بينات تثبت صدق محمد صلى الله عليه وسلم في نبوته ، وهذا الكتاب سيورث شرورا ، وكلنا نال العالم شر من كتابهم فسلعتمهم ، واللحن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله

والحق سبحانه وتعالى يبه المؤمنين بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن هذا الجزء من الطرد ومن اللحن ليس مقصورا على هؤلاء ، وإنما يستحب ويشمل كل من يكتنم ما أنزل الله من اليات ، إذ ذلك فيه واقع مما حدث من أهل الكتاب ، وفيه - أيضا - تحذير للذين يؤمنون بالإسلام أن يكتنموا بيات الله ، وإلا صاروا إلى ما صار إليه هؤلاء ، وهو اللحن

وكلمة اللحن وردت في القرآن إحدى وأربعين مرة ، وساعة تأتي للعذاب تكون للطرد والإبعاد بعصب ، وهو الخلود في النار ، وساعة يكون الطرد إبعاد تأديب ، فلا يوجد بعصب ، لأن المؤدب لا يغضب على من يؤدبه ، وإنما يغضب لمن يؤدبه

وعندما يحدث الطرد من بعد عصب ، فذلك دليل على أنه ليس من بعد ذلك رجعة ، فالإنسان إذا ترك شيء صامت ليعذب به كالسر ، يقول نفسه : « ربما جاء من يرق ليحالي ويعطف علي فيخرجني من النار » ، إنه يقول ذلك لنفسه . لأن الذي يعذب به صامت لا عاطفة له ، لكن ما المخرج إذا كانت اللعنة من الله والملائكة والناس ؟ كما يقول الحق في آية أخرى .

﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاءُكُمْ لَأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَلْمَنُوا بِهَا وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ٢٧ ﴾

(سورة آل عمران)

ويضح لنا هنا أن لعنة الله تكون في الدنيا وفي الآخرة ، ويلعنهم اللاعنون من الناس ، وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنها فيها نجد أن اللعنة أشمل ، لأن

« اللاعنوں » تضم الناس وغير الناس من اكائنات الأخرى . كأن بكل من في الوجود يشترك في لعنهم ، وعلى سبيل المثال ، إذا حبس الله الماء عن قوم لعصياتهم ، فالنبات يلعنهم لأنه حُرِمَ من الماء ، وتلعنهم الحيوانات لأنها حُرِمَت من الماء ، وتلعنهم الأمكنة لأنهم حالقوا ما عليه الأمكنة من التسبيح لله . أما لعنة الآخرة حيث لا رى لنبات أو حيوان ، فسيكون اللعن لهم صادرا من الله ولللائكة والناس أجمعين . والناس هم ينو آدم إلى أن تقوم الساعة ، وهؤلاء منهم كافر ومنهم مؤمن . كيف . إذن - يوجد اللعن ممن كفر مع أن هو أيضا ملعون ؟

نقول . نحن في الدنيا نجد من يخذع غيره في دين الله ، وهناك من يتخذع ، فإذا ما انجلت الأمور في الآخرة ، وانفصح الحادعون ، وأسقط في يد المخذوعين ، فهنا يتبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، يتبرأ الحادع من المخذوع ، ويتبرأ المخذوع من الحادع ، وكلما دخلت أمة من المخذوعين إلى النار لعنت الأمة التي خدعتها ، وكلما دخلت أمة خادعة إلى النار فإنها تلعن الذين استسلموا للحديعة ، يتبادلون اللعن . يقول الحق

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾

(من الآية ١٦٦ سورة البقرة)

ويقول أيضا :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ آخَتَهَا ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الاعراف)

إذن ، فاللعنة موجودة بين الكافرين بعضهم لبعض ، كما هي موجودة في الدنيا أيضا ، فإذین يكفرون بمنهج الله ويتحرمون ويظلمون ، هؤلاء يتلقون اللعنة من أهل منهج الله ، ويتلقون اللعنة من المظلومين منهم ، ثم يأتي لهم موقف آخر ، يأتي بهم من يظلمهم ، فيلعنونه ويلعنهم ، وهكذا يلعنهم الناس أجمعون

واللعن بطرد وهصب ورجر يختلف عن اللعن النافسي الذي يأخذ صيغة الإبعاد ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المتخلفين في غزوة تبوك ، وعزوة تبوك كانوا يسمونها غزوة العسرة ، لأنها جاءت في مشقة من كل جهتها ، لبعد المكان بين تبوك والمدينة ، ومشقة أخرى من نقص الدواب التي تحمل المقاتلين ، فقد كان كل عشرة من المقاتلين يتناوبون هي فاية واحدة ، ومشقة وعسرة في الراد ، حتى أنهم كانوا يأكلون الثمر بخرقه ، وكانوا<sup>(١)</sup> يأكلون اللحم والدهن والإعالة الزينة ، وعسرة في الماء حتى أنهم كانوا يذبحون العير ليشربوا من فرثه وكرشه الماء ، وعسرة في الحلو القاطط الشديد الحرارة ، كانت كل الظروف صعبة وقاسية وتحم ألا يخرج للغزوة إلا الصالح في يقينه .

لقد كانت تلك لغزوة اختبروا وابتلاء للإيمانية في نفوس الناس . ولذلك فإن بعضهم استسلم لحديث النسر في أن يظن بالمدينة ، وقال واحد منهم : « أظن ظليل وراحة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في القبط ؟ » والله لا يكون هذا أبداً ، ثم قام ونبع جيش المؤمنين ، وآخر عنده بستان فيه خلل وثمار ، فنظر إلى بستانه وقال : « ألب الذي صنعني أن أكون في ركاب رسول الله ؟ ! » والله لا تكون منكى بعد الآن ، وأنت لله في سبيل الله ، وثالث جلس في بيته وأملمه زوجته الجميلة وحوله أشجار وزروع ، فقال : « أجلس في ظل ورطب وماء وامرأة حسناء ورسول الله في حارة القبط ، والله لا يكون هذا أبداً ، ولعلني حصانه إلى الصحراء لينضم لجيش المسلمين .

وعندما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم متحصراً اعتذر له من لم يشركوه رحله النصر بأنهم كانوا لا يملكون وسائل الحرب من دواب ودروع وسيوف ومال ، فقبل رسول الله علايتهم وبرك سرايرهم لله ، إلا ثلاثة صلبوا وقالوا : « يا رسول الله ما كنا أغنى ما ساءعنا عن الذهب معك فعدنا عدة الحرب والدواب » .

( ١ ) إن هذا أمر سجد الأديب تدرج العرض الخاصة في الجيوش ، إهم يومئذهم وديريهم على كمال وثوب ما يجدونه من طعام أو شراب يجمع حياتهم ، إذ قد يحدث ما يمنع إمدادهم بالطعام أو الشراب ، وذلك استبقاء لحياتهم وبقاها من نوطاتهم

لقد أمر رسول الله الناس ألا يكلموهم ولا يتعاملوا معهم ، واستكان أئمان منهم وظلا في بيوتهم ، وهما هلال بن أمية ، ومرارة بن الريج ، أما كعب بن مالك فكان يخرج ويلقي الناس فلا يكلمه أحد ، ويذهب للصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسارق النظر إلى النبي وسلم عليه ، لكن رسول الله لا يرد ، ويغض طرفه ويغض عنه ، حتى أن كعباً يقول : « فأنظر هل حرك رسول الله شفتيه برد السلام أم لا ؟ »

لماذا كل ذلك ؟ لقد أرادها النبي صلى الله عليه وسلم وسيلة لإصلاح لكعبة إبعاد التأديب وضاعت الدنيا عن الثلاثة ، وذهب كعب إلى ابن عمه أبي قتادة وتلقى عنده الحناط ، لأنه يعلم أنه لو طرق الباب فلن يفتح له . ورغم مسلم الحناط إلا أن ابن العم أعرض عنه ، فقال راجياً : أشدك الله ، أشدك الله ، أشدك الله ، كل ذلك وابن عمه لا يرد عليه ، ثم قال له : « تعلم أني أحب رسول الله » . فلم يرد عليه ابن العم وظل يتوسل سائلاً عن موعد العفو ، فقال أبو قتادة : « الله ورسوله أعلم » .

فيما مضت أرمعون ليلة على هذا الإبعاد ، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يَضُمُّ التأديب فيطلب من الرجال الثلاثة - من خلال رسول أوسله إليهم - ألا يفروا مساءهم لقد دخل العزل ، في دائرة جديدة هي دائرة المجتمع الحاضر حيث الرجل وامرأته ، فقال كعب لرسول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أطلق زوجتي » ؟ . قال الرسول : « بل لا تقربها » . وقال قوم لكعب : اذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فتندهب امرأتك لتستأذنه في أن تظلي معك لتخدمك ؛ فقد استأذنت امرأة هلال بن أمية رسول الله ؛ فاذن لها أن تخدم زوجها . فقال كعب : والله لا أفعل ، لأن امرأة هلال حينما ذهبت إلى رسول الله قال لها : « لا يقربتك » فقالت : « يا رسول الله والله إن هلالاً ما به حركة لشيء » فاذن لها أن تظلي لتخدمه لكن رجل شاب وأخاف أن استأذن رسول الله فلا يخطئ هذا الحق

هكذا كان إبعاد التأديب ، وليس بالطرد الكامل من حظيرة الإيمان ، بدليل أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل من يتلقون النافيت أهلاً لأوامر بلقيها عليهم ،  
ثم جاءت ابشرى بالإفراج بعد عشرة أيام هنلما أنزل الحق قوله .

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَبَرُوا حَقِّيْ إِنْ صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ  
عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَطَلَبُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ  
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١١٨ ﴾

( سورة التوبة )

وهكذا لم يقبل الحق الباب بل جعله مفتوحاً أمام الإنسان ، حتى لمن كمر ، وحق  
لمن كتم ، فلا يظن أن سائق كمره أو كتمانته أو ترانجيه عن بصرة الحق سيخلق أمامه  
الباب ، أو يحول بينه وبين ربه ، لذلك يقول الحق :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ  
أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١١٩ ﴾

أى أعلنوا التوبة وهى أمر ذاتى ، وأصلحوا بمقدار ما أفسدوا ، وبيّنوا للناس  
بمقدار ما كتموا ، إذن شرط التوبة أن يعود كل حق لصاحبه ، فالذى كتم شيئاً  
عليه أن يبينه ، فالكتمان لا يؤثر فقط فى العلاقة بين العبد والرب ، ولكنه يضر  
العباد ، والحق سبحانه عيى يفتح باب التوبة للعبد يقول :

﴿ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾

( من الآية ١١٨ سورة التوبة )

ومادة « تَاب » تعني الرجوع إلى الله ، فمتنما يتوب العبد فهو يعود إلى ربه طائفاً  
المحفرة من العصيان والذنب ، وعندما يتوب الله على عبد ، فذلك يعني أن الله قبل  
توبته ، فبعد أن كان مقدراً له أن يُعَذَّب فإن الله يعفوه عنه فلا يُعَذِّبُهُ ، إذن فالنوبة  
كلها رجوع إلى الله ، وحين تُقدم لتوبة من الله على التوبة من العبد في قوله : « تَاب  
عليهم ليتوبوا » ، فمعنى ذلك أن الحق شرع التوبة وقبها ليفتح باب الرجوع إليه ،  
فهناك ثلاث مراحل للتوبة .

- المرحلة الأولى . هي أن الله شرع التوبة .
- المرحلة الثانية : هي أن يتوب العبد
- المرحلة الثالثة : أن يقبل الله التوبة .
- وكلها تعني الرجوع عن المصيبة والذنب .

إذن فأى ساء يذنب دينا لا بد أن يصلح هذا الذنب من جنس ما فعل ، فإن فعل  
ذنبا سرا فيكتمه أن يتوب سرا ، أما إن كسر حدود الله علنا ، فنقول له . لا يستقيم  
أبد أن تعصى الله علن أمام الناس ونكون أسوة سيئة لأناس تجعلهم يتعجرون  
ويكسرون حدود الله ثم تتوب بهك وبين الله سرا ، لا بد أن تكون توبتك علنا ،  
ولذلك فالمثل العامى يقول : « تضربى فى شارع ونصالحى فى حارة »

إن الذى يكسر حدا من حدود الله أمام الناس نقول له لا بد أن تعلن توبتك  
أمام الناس جميعا ، ولذلك نحن ندأ الحدود بالشبهات ، لكن الذى يتباهى بأنه  
ارتكب الذنب لا يتركه ، مثلا الذى شهد عليه أربعة بأنه ارتكب دينا من الكبائر  
كالزنى ، لقد ظل يفعل الذنب باشتتار إلى أن شهد عليه أربعة ، هل يعقل أن نقول  
له . ندأها بالشبهات ؟ لا هو كسر الحد عدنا فوجب معاقبته بإقامة الحد

وأما الذين تأنوا وأصلحوا ما أفسدوه وبنوا للناس ما كتموه فجزاؤهم توبة من  
الله .

ومن لطف الله بالإنسان أن شرع التوبة حتى يشر الناس بالذنب ، وجعلها من



فعل الثالث ؛ ومن فعل قابل التوبة ، وهو الله سبحانه فقال « تَابُوا » و « أَتُوبُ » ، كل ذلك حتى لا يستشعر الإنسان عندما يرتكب ذبا ويتوب أيها مسألة مستعصية ، إلى الحق يقول - « فَأَرْثُكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَابُ الرَّحِيمُ » إنه سبحانه يتوب على من تاب عن الذنب ويتوب عن المذنبين جميعا ، فهو تعالى « تَوَابٌ » وهي كلمة تعني المبالغة في العفوة ويقول الحق بعد ذلك

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

إنهم الذين أسروا على عدم التوبة فكان جزاؤهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ويضيف سبحانه

﴿ حَلِيلِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُطْرَقُونَ ﴾

وساعة يأن الحق في عذاب الكافرين ويتكلم من النار عذابا وعن الرمان حدودا ثم يُعَفِّدُ الْخُلُودَ بِالْأَبَدِيَّةِ ، فمنهم تعرف بذلك أن هناك عذابا في النار ، وخلودا فيها ، وأبدية - ولأن رحمه الله سقت عطشه في التنين العذب ، لم يذكر الخلود في النار أبدا إلا في سورة الحن ، قال :

﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴾

( من الآية ٢٢ سورة النور )

ومادام فيه عقيد ، فإن كل مطلق من التأييد يحمل عليه ، ويكون الحق لم يأت بكلمة «أبدأ» عند ذكر العذاب ، فهذا دليل على أن رحمة سبقت غضبه حتى في تنفيذ العذاب ، وهناك إشكال يرد في سطحية الفهم فحين يقول الحق :

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ لَكُمْ نَفْسٌ إِلَّا رِجْزُهُمْ فَبِهِمْ شَقٌّ رَمِيدٌ ﴿١٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ قَسَالٌ لِّمَّا يُرِيدُ ﴿١٨﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا مِنِّي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّحْذُورٌ ﴿١٩﴾﴾

(سورة مود)

فإن الحق يتحدث عن يوم الحشر ، وعن الشر شعيرهم وسعيرهم ، فالذين شقوا في النار لهم فيها زفير وشهيق ، ولنا أن تتحول صورة لتنفس داخل النار وسط جوها المكفهر باللهب إن الإنسان يتنفس بوسروح بالهواء ، فكيف يأخذه من النار ؟ إن في ذلك عذاباً عظيماً . وأهل النار خالدون فيها مادامت السماوات والأرض .

ويتساءل السطحون : إن الله يصنع الذين شقوا في النار مادامت السماوات والأرض ، ويقول القول نفسه عن الذين سعدوا بالجنة . ونقول لهم السماوات والأرض الآن ، تختلف عن السماوات والأرض في الآخرة ، إن السماوات والأرض في الدنيا هي أسباب ومعاش ، أما في الآخرة فمن لا تأكل بالأسباب ، إنما بالمسب ، نحن نحيا في الآخرة بكلمة «كن» ، ولا نعيش بأسباب الحرث والروع والمطر إن الحق يبدد السماوات والأرض في اليوم الآخر ، واقرأ إن شئت قول الحق

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾

(من الآية ٤٨ سورة إبراهيم)

ومن هذا القول نفهم أن المقصود هو السماوات والأرض المبدلة . ونلاحظ أن الحق جاء في أمر خلود الأشفياء بالحسنة فقال : « إلا ما شاء ربك » ، فكأن خلود الأشفياء في النار تنقذه وتضع نهاية له مشيئة الله لأن الأشفياء ليسوا هم الكفار فحسب ، بل منهم بعض المؤمنين العصاة . وهؤلاء المؤمنون العصاة الأشفياء سيدخلون النار على قدر خطيئتهم من المعاصي ، وساعة تقوم الساعة ويأتى الجزاء يدخلون النار ويأخذون جزاءهم ، لكن بعد أحد الجزاء يخرجون ، إذن ، فبتهى الخلود من آخر الزمن ، فيكون المعنى : « إلا ما شاء ربك » أن يستمروا في النار إلى وقت محدد .

أم بالنسبة للجنة فالاستثناء يكون من البدء ، لماذا ؟ لأن المؤمن الذى عصى الله لم يدخل الجنة من البداية ، وإنما سيقتضى فترة في النار ثم يدخل الجنة ، إذن فالخلود في الجنة بالنسبة له قد نقص من أوليته . أما الشقى فالخلود في النار نقص من بعده . إذن « إلا ما شاء ربك » ؛ تعنى أن المؤمن المعاصي لم يدخل الجنة من بدء الأحرار . إذن « إلا » هنا جاء لاستثناء الزمن من أونه بالنسبة للسعداء ، أو لاستثناء الزمن من آخره بالنسبة للعصاة الأشفياء . ولذلك لا نجد تناقص ذلك التناقص الذى تصعبه سطحية لفهم

لما قوله الحق : « لا يخفف عنهم العذاب » فهو أن الإنسان عندما يُعَذَّب بشيء فإن تكرار العذاب عليه ربما يجعله يألف العذاب ، لكن الواقع يقول إن العذاب يشتد عليه ، فالمخفيف لا علاقة له بالرسم ، وقوله الحق : « ولا هم يظنون » نعرف منه أن الإنظار هو الإسهال ، والمعنى أنهم لا يؤخرون عن عذابهم ، أو لا يظنون بمعنى لا يُنظر إليهم . وهك آية تفيد هذا المعنى في قوله تعالى .

﴿ وَلَا يُعَذِّبُهُمْ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْبَيْعَةِ وَلَا يُذَكِّرُهُمْ ﴾

( من الآية ٧٧ سورة آل عمران )

لأن النظر يعطى شيئاً من الحنان ، ولماذا قال : لا يظنون ؟ لأنك قد تتجه ناحيته فتظن أنه قد قصد ، بتلقائية . ولكن النظرة لا تتج عطفاً عليه ، وهو سبحانه

لا ينظر إليهم أساساً ، لأن النظرة قد توحى بلون من الشفقة ، بذلك تكون  
لا ينظرون ، أى لا يُنظر إليهم أبداً ، فكانهم أهملوا إهمالاً تاماً  
ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾

وتلك هي قضية الحق الأساسية ، وه الحكم ، يعنى أن المعبود إله واحد ، فلو وقع  
أن الإله الحق موجود قبل أن يوجد الكفر

وه لا إله إلا هو ، هذه قضية ثانية ، لأن غلبة الناس هي التي جعلت بعضاً من  
نقوس الناس تلصقت إلى آلهة أخرى .

وقوله الحق أنه سبحانه . إله واحد ، أى ليس له ثان ، والفارق بين « واحد »  
و « أحد » هو أن « واحد » تعنى ليس له ثان ، و « أحد » يعنى ليس مركباً ولا مكوناً  
من أجزاء ، ولذلك ناهى لا يمكن أن يصح بأنه « كُلٌّ » أو « كُلٌّ » لأن « كل » يقابلها  
« جزء » ، و « كل » يقابلها « جزئى » ، و « كل » هو أن يجتمع من أجزاء . والله  
متفرد بالوحدانية ، وسبحانه امتزج عن كل شيء . وله المثل الأعلى ، وأصرب هذا المثل  
للتقريب لا للتنبيه ، إن الكرسي « كل » مكون من حنوب ومسامير وغراء وطلاء ،  
فهل يمكن أن نطلق على الحنوب أنه « كرسي » ، أو على المسامير أو على الغراء أو على  
الطلاء ؟ لا إذن كل جزء لا يطلق على « الكل » ، بل الكل ينشأ من اجتماع  
الأجزاء .

و « الكل » يُطلق على أشياء كثيرة ؛ لكن كل شيء منها يحقق الكل ، فكلمة  
« إنسان » نقول عنها « كل » ؛ جريئاتها محمد وزيد ويكر وعمر وشالد ، فنقول :

ريد إنسان ، وهو قول صحيح ، ونقول عمر إنسان وذلك قول صحيح .

والله سبحانه وتعالى لا هو «كل» ، لأنه واحد ، ولا هو «كل» لأنه أحد .

إن القضية الأساسية في الدين هي «واحكم إله واحد لا إله إلا هو» والقرآن لا ينفي ويقول : «لا إله إلا هو» إلا حين توجد حيلة تعطى الألوهية لغير الله ، أو تعطى الألوهية لله ولشركاء معه ، إن القرآن ينفي ذلك ويقول : «لا إله إلا هو الرحمن الرحيم» وليس هناك شيء غير الله إلا نعمة من سبحانه أو منعم عليه .

إن ما دون الله إما نعمة وإما منعم عليه بالنعمة ، وبذلك كلها يقع الرحمن ، ومنع الرحيم ، وما دام كل شيء ماعدا الله إما نعمة وإما منعم عليه فلا توصف النعمة بأنها إله ، ولا يقال في المنعم عليه : إله ، لأن المنعم عليه معناه أن غيره أفاض عليه نعمه ، لأن النعمة موهوبة ، والمنعم عليه موهوب إليه ، فإذا كانت هبة أو موهوبة إليه فلا يصح أن تكون لها ، لكن الدين يلتفتون إنما يفتنون في الأسباب ، وأحق سبحانه وتعالى هو المسبب لكل الأسباب .

وبعد ذلك يلفتنا الحق سبحانه إلى خدمة هذه القضية فبدعونا أن ننظر في الكون ونأمل في النعمة الموهوبة لنا ، وبعد ذلك فأت يا من أعظم الله عليه هذه النعمة إن وجدت أحدا يدعيها لنفسه فأعطها وتركها له وأسبب المنعم إلى موجدده وهو الله ، ولما أن تشرك في نعمة الله أحدا غيره ، لأن الله يقول : في الحديث القدسي .

«أما أعنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيري تركه وشركه»<sup>(١)</sup>

ويلفتنا الحق إلى الكون ، ويقول

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ  
وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ  
مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا  
مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ  
بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَسِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٦﴾

إن الله سبحانه برحمته خلق الإنسان منعياً عليه ، وخلق كل ما في الكون نعمة  
له ، وبلغنا إلى الدليل على هذه القضية بالكون نفسه . ويحدد مظاهر في الكون م  
يدع أحد أنه خلفها وأوجدتها ، فإذا ما جاء الناس الدين لا يؤمنون بالإله الواحد  
يرحزون الألوهية إلى سواء نفوسهم هذا الكون العجيب الذي يتمثل في الأرض  
ويتمثل في السماء ، ويتمثل في اختلاف الليل والنهار ، ويتمثل في الفلك التي تجرى  
في البحر ، ويتمثل في ما أنزل الله من السماء من ماء ، ويتمثل في السحاب المسخر  
بين السماء والأرض ، كل هذه الآيات - أي الأمور العجيبة - . تلعت إلى أن  
موجدتها أعظم منها .

إنه سبحانه يريد أن ينبه العقل على أن يستقبل نعمة الوجود في دأته وفي الكون  
المسخر له ليستنبط من هذه الآيات العجيبة صدق الله في قوله . « وإحكم إله  
واحد » ، لأنه ليس من المعقول أن يخلق غير الله كل ذلك الخلق ثم يترك عنه ،  
فضلاً عن أن أحداً لم يدع أنه خلقها ، وما دام لم يدع أحد ذلك ، وأنت أيها الإنسان  
لم تخلقها ، ورغم الكفر والعناد لم يدع أحد هذه انقضية قط ، إذن سيظل الملك لله  
وحده إلى أن يقول أحد: أنا لي الملك ، ولم يوجد إلى الآن من يجرؤ على هذه الكلمة ،  
وهذا دليل على أن الله واحد أحد . إن الحق سبحانه يقول .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٧)

(سورة علقم)

لماذا ؟ لان الناس من الأرض قد خلّفوا ، وما في الأرض عاشوا ، فالأصل هو أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، فالناس أبناء الأرض ، واقتنائهم منها وبقاء حياتهم عليها . ومن المعقول أن الحق سبحانه قد خلق ما يخلق منه الإنسان قبل أن يخلق الإنسان ، وحتى يعيش ذلك الإنسان أمد الله بجس ما خلق منه . واذكروا جيدا أننا قلنا إن الله حين يعرض قضية الخلق للإنسان ؛ فهو سبحانه يعرضها عرضا فيه مناعة ضد أي قضية أخرى تناقضها . ولذلك يقول لنا إن خلق السموات والأرض وحلفتكم هو أمر غيبى ، ومبدأ أمر غيبيا فلا رأتى له ولا شاهد له إلا الذى خلقه ، فخذوا علم الخلق منه ، ولذلك قال سبحانه وتعالى

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ

عَصَا ۝ (٥٨) ﴾

(سورة الكهف)

فيجب أن نحذر هؤلاء المضللين الذين يحاولون إضلالات بفضايا ليست حقيقية ، فالخلق قد علم ألا بأنه سيوجد قوم يقولون : إن السماء والأرض حقتا بطريقه كذا ، والإنسان خلق بأسلوب كذا ، وعندما سمع هؤلاء نقول : هؤلاء هم المضللون ، وقد نبهنا الله ألا إيهام .

إذن ، فوجود المضللين هو عين الدليل على صدق الله ، هؤلاء الذين قلوا الأرض كانت جزءا من الشمس وانفصلت عنها ، والإنسان أصله قرد ، لأنه لو لم يوجد مضللون لقلنا : « أين باب ما قلت عنهم إسم مضللون ؟ » .

وحينما يعرض الله سبحانه وتعالى أنه خلقت من الأرض ؛ وجعل اقتنائها منها ، فإن العلم بأن - حتى من الكافرين بالله - ليزيد هذه القضية . فحينما خللوا الإنسان ؛ وجلبوه مكونا من ستة عشر عنصرا ، وخللوا الطين الذى يأق منه الزرع

والخصوية . نوجدوه ستة عشر عنصرا أيضا تطابق مع عناصر الإنسان ، ألوهيا  
الأكسجين وآخرها المنجنيز . وعلى ذلك فالخلق عندما يقول : أنا خلقت الإنسان . من  
طين . نقول له . صدقت يا رب فقد جعلت اقتيننا عما يخرج من الطين .

إذن فمسألة خلق السماوات والأرض يجب أن يبدأ منها التعجب ، وأنت أيها  
الإنسان يجب أن تفطن إلى ما خلقت لك لتستدل على خالقك . ولتؤمن ولتشهد أنه إله  
واحد ، وإن حاول أحد إضلالك وقال لك : هناك إله آخر ، فقل : لا إله إلا هو  
سبحانه

وحين يتكلم الحق عن الانسان فهو سبحانه يتكلم عن مكين في الكون ، وهذا  
المكين في الكون يحتاج إلى شئيين . إلى زمان ، وإلى مكان . والمكان للإنسان هو  
الأرض التي يسير عليها والمساء التي تظلمه ، والزمان هو ما يشأ من الليل وما يشأ  
من النهار ، ولذلك يريد الحق سبحانه أن يعطينا العبرة في اختلاف الليل والنهار .  
ومعنى اختلاف الليل والنهار أن كلا منهما يأتي خلف الآخر ، النهار يأتي خلف  
الليل ، والليل يأتي خلف النهار .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ظِلْفَةً لِّمَن يَشَاءُ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ سُكُورًا ۚ ﴾ (١٦)

( سورة الفرقان )

فاختلاف الليل والنهار يعني ألا يكون النهار سرمدًا أي ثابتًا لا ينقطع ، ولا يكون  
الليل كذلك سرمدًا ، ولذلك فإن هناك آيات أخرى يمتن فيها الحق عيب هذه  
العمة فيقول .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَن لَّهِ غَيْرُ اللَّهِ بِأَنبِيكُم  
بِهِبَاءُ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۚ ﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ





« واصنع الفلك بأعيننا » . يعنى يصنع سفينة واحدة أما الفلك الذى تجرى فيه كل الفلك . وكيف يكون جريان الفلك فى الماء آية ؟ . إن الإنسان يدرك أن الماء لو لم يكن على هذه السبيلة ، لما استطاعت المراكب أو الفلك الإبحار فوقه ، بل لابد أن يكون الماء سائلا حتى تستطيع أن تجرى فوقها للفلك ، وقبل اختراع آلات البخار كانت هذه الفلك تجرى فى البحر بقوة الرياح ، لهذا ؟ لأن المائية تنقسم قسمين

● مائية أمهر .

● ومائية بملر .

ومياه الأمهر تجرى دائما من أعلى إلى أسفل بحية المصب ، ولذلك من المعقول أن نسلم جريان اسفينة فيها إلى مجرى الماء ، ولكن إذا كنا نريد أن نسيرها عكس جريان الماء ، فلا بد من الريح ليساعدنا على ذلك . ونحن نأخذ كلمة الريح على أنها الهواء ولكن الريح هى القوة ، لأن الله سبحانه يقول :

﴿ وَلَا تَسْعَوْا فَغُشَّيْنَاكُمْ رِيحًا غُمُومًا ﴾

( من الآية ٤٦ سورة الأنعام )

يعنى فونكم ، أى أن النراع إنما يتبع عبه تبيد القوة ، وكانت الريح قوة ظاهرة ، وعندما توصل الإنسان إلى اختراع آلة البخار وتم تشغيل السفن به ، استغنى الإنسان عن تشغيل السفن بالريح . وهكذا يعرف أن كلمة « الريح » تؤخذ على أنها الرياح ، وتؤخذ أيضا على أنها مطلق القوة ، وتؤخذ ثالثا على معنى الرائحة .

والقرآن يوضح لنا ذلك ، فعند استخدام معنى الريح كمطلق القوة نجد القرآن يقول :

﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِرِ الرِّيحَ فَيَظْلِمَنَّ رَوَاكِهِ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾

( من الآية ٣٣ سورة الشورى )

أى أن الله حين يشاء يعطل القوة المحركة لأى شيء فهو سبحانه يفعل لما عن  
معنى الريح كرائحة فنجس نجده في قوله الحق :

﴿لَمَّا صَلَّتْ الصَّيْرِ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾

( من الآية ٩١ سورة يوسف )

إن يعقوب والد يوسف عليهما السلام كان يملك حاسة شم قوية ، فعندما خرجت  
القافلة من مصر ، قال والده ، إى أشم رائحة يوسف ، وى الريح نحن نسمع من  
يقول « سأنضم من علان ولا أجعل له ريحة فى الأرض » ، ويفصد أنه لن يجمل به  
أثرا فى الأرض ، وإذا استخدم ها كلمة الرائحة ؟ لقد ثبت حديثا فقط أن  
الرائحة هى أبقى الآثار بالنسبة إلى الكائن الحى ، بدليل أن لديهم عندهم حاسة  
الشم قوية من الكائنات كالكلاب البوليسية يستدلون برائحة الجاني عن مكان  
وجوده ، كأن الجاني يترك أثرا لرائحته فى مكان الجريمة ، وكل ما هو مطلوب أن  
يوجد من له حاسة شم قوية ليستدل عليه

والحق سبحانه وتعالى أعطانا العقل ، ولكل أنى لبعض منا ولعبر العاقل  
ما لا نستطيع أعليتنا أن نصل إليه ، وأصبح الكلب الذى هو حيوان يسم أعجم  
يستدل على أشياء لا نستطيع نحن أن نستدل عليها ، لأنه لا يزال فى عالم الحس  
فقط ، بينما الإنسان أحد حاسا من عالم حس وحاسا من العقل

وقوله الحق : « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، فهل  
يمنى هذا القول أن الماء فى السماء ؟ لا ، إن الماء أصله فى الأرض ، لكن ماء  
الأرض الثابت لا ينع لربنا ولا لرى ررع إنه ملح أجاج مر ، والذى يوجد على  
الأرض منه هو مخرون فقط ، ولذلك وضع الله له المواد الكيميائية التى تجعله لا يفسد  
ولا تتغير صفاته وطبيعته ، ثم تتسع رقعة ماء على قدر اليابس ثلاث مرات ،  
لماذا ؟ لأن الله يريد أن تتسع صفة الماء اتساعا يجعل للبحر مصادر كبيرة واسعة ،  
هذا البحر هو عملية التطهير الإلهى

إن أنزال الماء من السماء هو الذي نراه على هيئة المطر ، لكن نسبق نزوله مراحل متعلقة هي بحر وتكثيف وتلقيح الرياح للسحاب وغيرها . وتلك المراحل المتعددة اهتدينا إليها مؤخرًا ، بدليل أننا حاولنا تقيد هذه الدورة ، بأن سحر الماء المالح وتكثفه لنستخرج ماء مقطرًا ، لكن ذلك له تكاليفه المالية العالية ، فكوب واحد من الماء المقطر يستغرق وقتًا ويستلزم جهدًا وتكاليف بينا المعمل الإلهي يدر لنا ماء عذبا لا يحصر لكمياته ، إن هذا المعمل يعمل ونحن لا ندري .

إن الدورة المائية تبدأ بصعود البحار من الماء ، وبعد ذلك يصادف منطقة باردة فيترسب ماء عذبا . ومن دقة الخالق الحكيم سبحانه أن جعل منسوب الماء العذب دائما أعلى من منسوب الماء المالح ، فلو كان منسوب المالح أعلى من العذب فيسقط على وجهه ، ولا نجد ماء نشربه ، لكن الخالق الحكيم جعل منسوب المياه العذبة في الأنهار أعلى من ماء البحار والمحيطات حتى ينساب الماء من النهر إلى البحر ؛ وذلك لا يسب ضررا .

فالخلق سبحانه وتعالى يعلمنا أنه أنزل من السماء ماء ، كيف يرسل هذا الماء ؟ هذا ما عرفناه مؤخرًا ، وبالماء العذب يحيى الله لأرض بعد موتها ، رماح الموت ؟ إن الموت هو هباب الحركة ، كذلك الأرض عندما تجف فلا تنقى لها حركة ، ونحن لا نستطيع سحواها أن ندرك حركة الأرض أثناء نمو النبات ، لكن الله عز وجل يؤكد ذلك في قوله :

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾

( من الآية ٥ سورة الحج )

فالأرض عندما يرسل عليها المطر تستبج فترها ، وتطفو تلك القشرة على سطح الأرض ، ثم ماذا يحدث ؟

﴿ وَأَنْسَتْ مِنْ كُلِّ ذِّكْرٍ بَهِج ﴾

( من الآية ٥ سورة الحج )

وهذا هو معنى قوله تعالى « فالحيا به الأرض بعد موتها » ثم نصص الآية « وبث فيها من كل دابة » أى نشر فيها كل ما يدب على الأرض ، و« تصريف الرياح » ومعنى التصريف هو التحويل والتغيير ، أى توجيه الرياح إلى مواج مختلفة سواء إلى الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب ، وهذا الاختلاف لم يجعل للهواء مساراً رتيباً ، وعندما تتأمل عملية الاستطراق في الهواء نجد أنها تعطى اعتدالاً مزاجياً للهواء ، فمرة يأتي من ناحية حارة ، ليهب على المناطق الباردة ، ومرة يأتي من المناطق الباردة ، فيهب على المناطق الحارة ، وهذا التصريف نعمة من نعم الله ، فلو كانت الرياح ثابتة لصارت مرهقة للبشر

وبعض سمع عن أسماء الرياح مثل الصبا والدابور ، وريح الشمال ، وريح الجنوب ، والكباء ، والرعرج ، والصرصر ، وساعة نسمع كلمة « رباح » بصيغة الجمع ، فنعلم أنها للتخفيف ، وإن جاءت « ربيع » بصيغة المفرد فنعلم أنها ربيع عظيم صارة . مثل قوله الحق : « بريح صرصر عاتية » ، لكن هذه الصاعدة كسرتم أية واحدة في قوله تعالى :

﴿ وَيَجِيئُ يَوْمَ رِيحٌ طَيِّبَةٌ ﴾

( من الآية ٢٢ سورة يونس )

لماذا ؟ لأن الريح لو احتلقت على السعة لكانت كارثة ، فكان لابد أن تأتي الرياح إلى السعة من اتجاه واحد ، ولذلك لم يترك الله كلمة « ربيع » مطقة ، وإنما وضعها بألف ربيع طيبه . وفي قول آخر يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ وَفَرِحُوا بِهَا حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ رِيحٌ مُّصِيفَةٌ ﴾

( من الآية ٢٢ سورة يونس )

إله سبحانه يلفتنا إلى قدرته ، حتى لا يعتقد أحد أن الله خلق الخلق ومعلق لهم قابول ثم تحمل عن حكمهم ، لا ، إله سبحانه هو ما يرال قيوم السماوات والأرض وله مطلق القدرة

## « والسحاب المسحر بين السماء والأرض »

والتسحير معناه حمل الشيء على حركة مطلوبة منه لا اختيار له فيها ، والله يسحر السحاب لأنه يريد أن يمطر هنا ، فيأتي مسخر الريح فيسوقه إلى حيث يريد الله ، وأنت قد تتجمع بمطر ينزل من سحابة في غير مكانك ، ونحن نتفع - في مصر - بماء النيل رغم أن المطر ينزل في جنوب السودان ، وفي هضاب الحبشة ، ولو اقتصرنا على الماء الذي ينزل من مياه مصر لكنا قد هلكنا عطشا ، وهذا يؤكد معنى قوله تعالى .

﴿ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا بِقَالَا سُقْنَهٗ يَلَيْلَ مَيْتٍ قَارِلًا يَدِ الْأَعْمَاءِ ﴾

( من الآية ٥٧ سورة الأعراف )

إن السحاب يسير مسحراً إلى غاية مطلوبة منه ولا إرادة له فيها . ونعني الحق الآية بقوله: « لايات لقوم يعقلون » أي أنها عجائب لقوم يعقلون . وحين يقول الحق: « لقوم يعقلون » فكأنه به الملكة المعركة العاقلة في الإنسان . وحين يخاطبك مخاطب ، ويبه بك الملكة العاقلة ، فاعلم أن ما يجبر به ينتهي عقلك إليه بمجرد أن تفكر ، وإلا لو لم يكن الأمر كذلك ، ما كانت هناك ضرورة أن يذكر لك كلمه العقل

والقرآن الكريم دائماً يقول: « يتفكرون » ، « يعقلون » ، « يتدبرون » ، « يتذكرون » وكل ذلك معناه أنهم لو فكروا ، ولو عقلوا ، ولو تدبروا ، ولو تذكروا ، لانتهوا إلى الحقيقة التي يريد بها الله . والحق سبحانه وتعالى به المسلم دائماً لأن مستقبل الأمور بعقله وتفكره وتدبره ويتذكره ، لأنه سبحانه يعلم أن لإنسان إذا فكر أو عقل أو يذكر أو تدبر فسوف ينتهي إلى ذات القضية



المؤمن يحب ربه في السراء والضراء ، وعلى ذلك يكون الذين آمنوا أشد حبا لله ،  
لأنهم لا يسوفونه ، لا في الرخاء ولا في الشدة ، لكن الكافرين لا يعرفون الله الحق إلا  
في الشدائد ، فإذا مرت المسألة فإنهم يسلكون كما يصف القرآن سلوك كل كافر  
منهم :

﴿ مَرْغَابًا لَا يَدْعُكَ فِيهِ شُرَكَائُكَ ﴾

( من الآية ١٢ سورة يونس )

﴿ وَجَعَلَ اللَّهُ تِلْكَ الْقِيلَةَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا لِمَنِ الْكَافِرُونَ وَقَدِ احْتَمَبِ  
النَّارَ ﴾

( من الآية ٨ سورة الزمر )

إنهم يسون الله ، ويعودون إلى تقديس الأنداد المزيمة ، وهم بذلك يظلمون  
أنفسهم ، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد  
العذاب ، ، ويغاجوا هؤلاء المشركون بأمر عجيب لم يكن في حسابهم ، هم آمنوا  
بأنداد ويأتون يوم القيامة ليروا تلك الأنداد وهي وقود للنار تعذبهم ، ولو لم تأت  
معهم حجارة الأصنام التي كانوا يعبدونها لقالوا : « إن الحجارة تشجعون من هذا  
العذاب » . وهذا هو الحق سبحانه يبين لهم : أن الحجارة ليست معكم في العذاب  
بمطلق ، بل هي وقود النار التي تعذبون بها ، مصداقا لقوله تعالى

﴿ إِنَّا نَكِّرُ لِمَن يَعْبُدُ مِنْ ذَوِّ اللَّهِ فَصَصَ جَهَنَّمَ ﴾

( من الآية ٩٨ سورة الأنبياء )

وكذلك قوله الحق عن النار :



## ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة النقرة)

وبذلك ينقطع عن الكافرين المشركين كل أمل في أن تقدمهم آلهتهم المزيفة ، إذ يرون العذاب ، أى يرون العذاب حق اليقين ، وقد سبق أن أخبروا به ، لكنهم لم يؤمنوا باليوم الآخر ؛ لكن لو صدقوا بيوم القيامة وآمنوا لكفاهم أن يروا العذاب عين اليقين ، ويختم الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله ، « أن اقرة الله جميعا وأن الله شديد العذاب ، أى أنهم ساعة يرون العذاب حق اليقين سيبركون عندها أن القوة لله وأنه شديد العذاب .

ثم يبين لحق سبحانه وتعالى ماذا سيكون حالهم عندما يرون العذاب ، فيقول

﴿ إِذْ نَبَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا  
الْعَذَابَ وَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾

إن كل من زين الكفر والعصيان لغيره سيقترأ من كل من زين لهم معصية الله والشرك به ، حتى الشيطان ، العمدة في إغوائهم سيقترأ منهم ، وسيقول ساعتها

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا آتَا بِصُغُرِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

فلن يستطيع الشيطان أن ينقذ أحدا من المشركين ، ولن يصرخ فياق له المشركون لإنقاذه ، وإن صرح المشركون ؛ فلن يأتى لهم الشيطان لينقذهم ، وسيترأ كل منهم من الآخر ، وسيترأ الكافرون من كل من زين لهم الشرك بالله ، أو سيتول الكافرون لمن زينوا لهم الشرك بالله . نحن أبرياء منكم ولا علاقة لنا بكم . وجاءت الآية بالذين اتبعوا أولا لأهلهم المفتون فيهم ، ثم جاءت بالذين اتبعوا من بعد ذلك ، لأنهم يرون العذاب وتتقطع بهم الأسباب ، وأصبحت كل نفس بما كسبت رهينة ، والشيطان نفسه يعترف بأنه لم يكن صاحب سلطان إلا بأذن دعاهم ، فمن استجاب له ، جرى به إلى هذا المصير ، والسلطان إما أن يكون سلطان حجة ، وإما سلطان قهر ، ولم يكن للشيطان سلطان قهر على الكافرين ، ولم يكن له إلا عمل واحد بلا سلطان ، وهو أن دعاهم إلى الشرك بالله ، فاستجابوا له . فإذا يحدث عندما تتقطع بهم الأسباب ؟ إن الحق سبحانه يقول

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَن لَّمَّا كَرَّةً فَتَتَّبَرَأَ مِنْهُمُ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾

إن تبرؤ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا لن ينفعهم ، وعندهم أن تكون لهم كربة - أى عودة - ليتبرأوا منهم لن يجدى ، ويرىهم الله أعمالهم - التى صفت - حسرات عليهم . ولا تكون الحسرة إلا إذا أصيب الإنسان بحصية لا مأسى من العجلة بها ، وما هم بخارجين من النار . أى لن ينفعهم ندمهم على ما سبق من أعمالهم السيئة ، ولن يجدى هذا الندم في إخراجهم من النار . ويقول الحق من بعد ذلك

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ أِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَّالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا  
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

إن من رحمة الله عز وجل على عبده أنه لم يقصر الخطاب على الدين أموا ؛ وإنما وسع الدائرة لتشمل المؤمنين وغيرهم ؛ فقال : « يا أيها الناس » فكانه خلق ما في الأرض جميعا لناس جميعا ، وهذا ما قلنا عنه إنه عطاء الربوبية لكل أبشر ، من آمن منهم ومن لم يؤمن ، فهو سبحانه خلق كل الخلق ، مؤمنهم وكافرهم ، وما دام قد خلقهم واستدعاهم إلى الوجود فهو يوجه الخطاب لهم جميعا ؛ مؤمنهم وكافرهم ؛ وكان الخطاب يقول للكافرين : حق ولو لم تؤمنوا بالله ، فخذوا من المؤمنين الأشياء الحلال واستعملوها لأنها تعيدكم في دياركم ؛ وإن لم تؤمنوا بالله ، لأن من مصلحتكم أن تأكلوا الحلال الطيب ، فالله لم يحرم إلا كل صر ، ولم يحلل إلا كل طيب

ها موقف يفهمه كثير من الدين أسروا على أنفسهم ، ويحبون أن تكون قضية الدين وقضية التحريم وقضية التحليل ، قصصا كاذبة ؛ لأنه لا يحقهم أمام أنفسهم إلا أن يجدوا أشياء يكذبون بها الدين ، لأنهم لم يستطيعوا أن يحملوا أنفسهم على مطلوبات الله ، فلم يستطيعوا ذلك لم يجدوا متفدا لهم إلا أن يقولوا : إن قصايا الدين كاذبة ؛ بها التحليل والتحريم لهم يقولون : لماذا الله قد حرم شيئا ؛ فلماذا حلفه في الكون ؟

كأنهم يعتقدون أن كل مخلوق في الأرض قد خلق ليؤكل ، وما علموا أن لكل مخلوق في الأرض مهمة ، فهم الآن يسكنون الحيات والثعابين ليستخلصوا منها لسموم ؛ حتى يقتنوا بها الميكروبات التي تقتل الإنسان ، وكانوا قبل اكتشاف فائدة السم في الثعابين يتساءلون : وما فائدة خلق مثل هذه الثعابين ؟ فلما أحوجهم الله وأحاجهم إلى أن يستفيدوا بها في الثعابين من سم ؛ ليجمعوه علاجا أدركوا

حكمة الله من خلق هذه الأنواع ، لقد خلقها لئلا تفسد ، وإنما لم يخلقها .

فأنت إذا رأيت شيئاً محرماً لا تقبل لماذا خلقه الله ، لأنك لا تعرف ما هي مهمته ، فليست مهمة كل مخلوق أن يأكله الإنسان ، إنما لكل مخلوق مهمة قد لا يشعر بأدائها في الكون .

وهذه مسألة تستعملها نحن في دوات نفوسنا ، على سبيل المثال ، عندما يأتي الصيغ ونحشى على ملابسنا الصوفية من الحشرات ، فمما لها بما يقتل الحشرات ، وهو « النفتالين » ، ونحذر أباهما من عدم الاقتراب منه وأكله إن « النفتالين » لا يؤكل ، ولكنه مفيد في قتل الحشرات الضارة كذلك « المبيك » شربه وبضعه في رجاجة في المنزل لتطهر به أي مكان ملوث ،

ونحذر الأطفال منه لأنه صار هم ، ولكنه نافع في تطهير المنزل من الحشرات ، وكذلك المخلوقات التي لا نعرف حكمة خلقها ، لقد خلقها الله لمهمة خاصة بها ، فلا تنقل شيئاً من مهمته إلى مهمة أخرى

وإذا كان الإنسان لم يدرك حتى الآن فائدة بعض المخلوقات ، فما أكثر ما يجهل ، وهو يكشف كل يوم سر من أسرار مخلوقات الله .

وعلى سبيل المثال ، كانوا ينظرون إلى نوع من السمك لا يتجاوز حجمه عقلة الأصبع ، ولا يكبر أبداً ، ويختاروا في فائدته ، وعندما ذهبنا للسعودية ورأينا الأماكن التي تأخذ منها الماء الذي قد يفسد ، ووجدنا هذا النوع من السمك بكثرة ، فسألناهم عن حقيقة هذا السمك ، فقالوا : إنه لا يكبر ويظل على هذا الحجم ، ومهمته تنقية المياه في الأماكن التي لا يعود الإنسان بتنقيتها . وجربنا حقيقة ما قالوا ، فأنقينا بعضاً من علبات الطعام ، فوجدنا هذه الأسماك تخرج من حيث لا ندري وتنقى هذه البقايا ، ولا تتركها حتى تنبها .

هكذا يخلق الحي القيوم مخلوقات لتعطي مخلوقات أخرى ، هو سبحانه بقول للإنسان : لا تأكل هذا وكل ذاك : الحكمة قد لا نعرفها

مثال آخر ، الطائر المعروف بأبي قردان صديق للعلاج ، كانت وظيفته في الحياة أن

يأكل الحشرات والديدان عند رى الأرض ، ومنذ أن احتسى هذا الطائر نتائج المبيدات ؛ استفحل خطر الديدان على الزرع وبخاصة قودة العطن . إنها معدلة لطية مركبة تركيبا دقيقا . وكذلك الذباب ، يتساعل بعض الناس « ما حكمة وجوده في الحياة ؟ » وهم لا يعرفون أن الدباب يؤدي للإنسان دورا هاما هو أكل المادورات وما بها من أمراض ، ولو نحصى الناس بالنظافة لما جاءهم الدباب .

إذن ، فكل شيء في الوجود مرتب ترتيبا دقيقا ، إنه ترتيب خالق عليم حكيم . ومادام الحكيم هو الذى خلق ؛ فلا يعترض أحد ويقول لماذا خلق كذا وكذا ؟ ، لأن لكل مخلوق دورا يؤديه في الكون .

ولذلك يبه الخالق الناس - مؤمنهم وكافرهم - بأن يأكلوا الحلال الطيب من الأرض ، وهو يقول للكافر : أنت إن فعلت الأمور ؛ لوحدت أن كل ما أمرتك به هو لصالحك ، وحق لو لم تؤمن فأنا أدلتك على ما ينفع ، فلا تأكل إلا الحلال الطيب ، وانظر إلى المؤمنين بماذا سُمح لهم من طعام وكل مثلهم وقد أثبت الواقع والتاريخ ؛ أن الكافرين يلجأون إلى منهج الله في بعض الأقضية ؛ ليحلوا مشاكل حياتهم ، لا بدع الله كدعهم ، ولكن بأوامر الله كنظام ، فلما كان عند الكافرين بالله حكمة حتى فيما يتعلق بشئون دينهم ؛ لأحدوا ما أمر الله به المؤمنين واتبعوه .

والثال على ذلك ؛ عندما يحرم الحق سبحانه وتعالى لحم الميتة ، أى التى ماتت ولم تدبح ، إن لحمها ضار بالصحة ، لأن أوعية الدم في الحيوان وفي كل كائن حي هي وعاءان ؛ إما أوردة وإما شرايين ، والدم قبل أن يذهب إلى الكلى أو الرئة يكون دما فاسدا ، ومنه عندما تدبح الحيوان يسيل منه الدم الفاسد ويخرج ، ويصير اللحم حائضا ، لكن الحيوان الذى لم يدبح ؛ لم يدك ، يعنى لم يُظهر من فساد الدم ، وهو ضار للإنسان

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول « يا أيها الناس » فكأنه يدعو غير المؤمنين لو عقلتم ، لوجب أن تمنعوا إلى حياتكم ألا تأكلوا إلا حلالا أحله الله للمؤمنين « ولا تتبعوا خطوات الشيطان » أى لا تسيروا وراء الشيطان ، فالخطوة هي المسافة بين القدمين عند المشي ، أى بين الفضل والعلة ، ولا نأكلوا الشيطان قائمكم ، لأن

الشيطان هدايته لكم مسبقة ، ويجب أن تحذروا بسوء الظن فيه ؛ فهو الذي عصى  
ربه ، ولا يصح أن يطاع في أى أمر ، فإنه لكم عدو مبين ، وعداوة الشيطان  
للإنسان قديمة من أيام آدم . ويقول الحق عن أوامر الشيطان :

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ  
وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴾ ١٣٩

والسوء هو كل ذنب لا حد فيه ، مثل العيبة أو النعيمة ، والفحشاء هي كل ذنب  
فيه حد وبه عقوبة . والشيطان يأمركم أن تقولوا عن الله ما نجهلون .  
ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا أَمَلُ سَبِّحُ مَا أَلْفِينَا عَلَيْهِ  
ءَابَاءَهُ مَا أَكَلْنَا مِنْهُ لَنَنْفِقَ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُونَ ﴾ ١٤٠

وهذه الآية تعالج قضية خطيرة من المجتمع الإسلامي ، قضية تقليد الناس

لعادات أماتهم . والتقليد هو نشأة طبيعية في الإنسان ، لأن الإنسان حين يخرج للوجود تبدأ طاقة الحياة ؛ فهذه الطاقة تريد أن تتحرك ، وحركتها تأتي دائما ومن ما ترى من حركة السابق لها ، فالطفل الصغير لا يعرف أن هذه تتناول أشياء إلا إذا رأى في البيئة المحيطة به إنسانا يفعل ذلك ، وحين يريد الطفل أن يتحرك ، فهو يقلد حركة الذين حوله ، ولذلك تجد الأطفال دائما يقلدون آبائهم في معظم حركاتهم ، وحين يوجد الأطفال مع أجيال متعاقبة تمثل أجيالاً مختلفة ، فإن الطفل الصغير يقلد في حركته ابتدائية حليطا من حركات هذه الأجيال ، فهو يقلد جده ، ويقلد جده ، ويقلد أمه وأمه ، وإخوانه ؛ فتنشأ حركات مختلطة تمثل الأجيال كلها

ولذلك فاندماج الطفل في أسرة مكونة من أمه وأجداد ، تمثل في الإنسان طبيعة الحياة لتتصل بمسار الحركة في الأرض وبمنهج السماء ، لأن الطفل حين يعيش مع أبيه فقط ، قد يجد مشغولا في حركة الحياة التي ربما شدته من قيم الحياة أو عن مسج السماء ، لكنه حين يرى أبا لأبيه ، هو جده قد فرغ من حركة الحياة ، وانحج إلى منهج القيم ، لأنه قريب عهد فيما يظن ببقاء الله ، فإن كان لا يصل في شبابه فهو يصل الآن ، وإن كان لا يفعل الطاعات سابقا ؛ أصبح جعلها الآن ، وهكذا يرى الطفل حركة الحياة الخائفة في الدب والذئب عليها من أبيه ، ويحد الإقبال على القيم والعبادات من جده ، ولذلك نجد ربما عاون جده على الطاعة ؛ فساعة يسمع الطفل المؤذن يقول : « الله أكبر » ، فهو يعرف أن جده يريد أن يصل ، فيذهب هو ويأتي بالسجادة وفرشها جده ؛ ويقف مقلدا جده ، وإن كانت نكتا ، فمن بعدها تقلد أمها أو جده وتضع العطاء على رأسها لتصل ، إذن ، فاندماج الأجيال يعطي الخبر من المركبين ، حركة مادية الحياة وحركة قيم منهج السماء ، ولذلك تمتن نحن عليا قائلًا :

﴿ وَحَقْلَ لَكُمْ مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ سَيِّئَ وَحَدَّةٌ ﴾

( من الآية ٧٢ سورة النحل )

إذن ، فتقليد الأجيال اللاحقة للأجيال السابقة أمر تقتضيه طبيعة الوجود وحين يدعو الله أساس أن يتبعوا ما ينزل عن الرسل فهو ينهائهم أن يتبعوا تقليد

الآباء في كل حركاتهم ، لأنه قد تكون حركة الآباء قد احتلت بالمعلة عن المنهج أو بنسيان المنهج ، لذلك يدعوننا ويأمرونا سبحانه : أن نخلع عن هذه الأنشاء ونضع ما أنزل الله ، ولا نبط إلى مستوى الأرض ، لأن عاديت ومنهج الأرض قد تنغير ، ولكن منهج السماء دائما لا يتغير ، فاتبعوا ما أنزل الله .

والناس حين يحتجون يقولون : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا . وذلك قضية نبرية في الوجود ، ولو كان ذلك حقا وصداقا ، ومطابقا للواقع ، لما كرر الله الرسالات بعد أن علم آدم كل المنهج الذي يريد ، لأننا لو كنا نتبع ما ألقينا عليه آباءنا . لكن أسماء آدم مستمعون ما كان يفعله آدم ، وآباء أبناء آدم يتبعون آباءهم ، وهكذا يظل منهج السماء موجوداً متوراً فلا تغير فيه

إذن فما الذي اقتضى أن يتغير منهج السماء ؟  
إن هذا دليل على أن الناس قد عبروا بالمنهج ، ولذلك فقولهم : « نتبع ما ألقينا عليه آباءنا » هي قضية مكشوبة ، لأنهم لو اتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم ، لظل منهج الله في الأرض مضمناً غير متأثر بفعله الناس ولا متأثراً بانحرافات أهل الأرض عن منهج السماء . وهو تبرير يكشف أن ما وجدوا عليه آباءهم يوافق أهواءهم .

وقوله الحق : « اتبعوا » أي اجعلوا ما أنزل عليكم من السماء متبعوا وكونوا تابعين لهذا المنهج ؛ لا تابعين لسواه ، لأن ما سوى منهج السماء هو منهج من صالحة أهل الأرض ، وهو منهج غير مأمون ، وقولهم : « ما ألقينا عليه آباءنا » أي ما وجدنا عليه آباءنا ، وما نفتحت عليه عيوننا فرجدها حركة تختلج وتفتلج

والحق يبين هم أن هذا كلام خاطئ ، وكلام تبريري وأنتم غير صادقين فيه ، وعدم الصديق يتضح في أنكم لو كنتم متبعين لمنهج السماء ، لما تغير المنهج ، هذا أولا ، أما ثانياً ، فأنتم في كثير من الأشياء تحتلون عن آباءكم ، فحين تكون للآباء شخصية وذاتية فإننا نجد الأبناء حريصين على الاختلاف ، ويحد أجيالا متفسحة ، فالأب يريد شيئا والابن يريد شيئا آخر ، لذلك لا يصح أن يقولوا : بل نتبع ما ألقينا عليه آباءنا ، لأنه لو صح ذلك لما اختلف منهج الله على لأرض لكن المنهج اختلف لدخول أهواء البشر ، ومع ذلك ترى بعضا من الخلاف في ملوك الآباء عن الآباء ، ونقبل ذلك ونقول : هذا بحكم تغير واختلاف الأجيال ، أي أن الآباء أصبحت



لهم ذاتية ولذلك فالقول بانواع الأبياء كذب لا يمثل الواقع

واحق سبحانه وتعالى يرد على هذه القضية لأنها قضية تبريرية لا دليل لها من صدق ، ولا برهان لها من واقع . ويقول سبحانه . « أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيك ولا يهتدون » أي لم يتبعوا ما وجدوا عليه آباؤهم حتى ولو كان آباؤهم لا يعقلون ولا يهتدون ؟ .

إذن ، الرد جاء من ناحيتين ، من ناحية العقل ، ومن ناحية الاعتداء ، وكل من العقل والاعتداء منى عن الآباء في هذه الآية ، فأسم تسعونهم اتباعا بلا تفكير ، اتباعا أعمى . والإنسان لا يطيع طاعة عمياء إلا لمن يتيقن صدق بصيرته النافذة المطلقة ، وهذه لا يمكن أن تتأق من شر إلى شر ، فاطاعة المطلقة لا تصح أن تكون لشيء إلا لتهج السماء ، وحين تكون طاعة عمياء لمن تثق بصره الشافي الكافي الحكيم ، فهي طاعة مبصرة وبصيرة في آن واحد . لأنك تحصى نفسك من خطأ بصرك ، وخطأ بصيرتك ، وتلتزم في التبعة بمن تعتقد أن بصره وبصيرته لا عطلان أبدا ، عندها لا تكون طاعة عمياء .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يبينهم إلى أنه لا يصح أن تقولوا إنكم تسعون « وجدتم عليه آباءكم » لأنه يجوز أن يكون آباؤكم لا يعقلون ، ويجوز أن يكونوا غير مهتدين . لو كان آباؤكم لهم عقل أو لهم اعتد ، عند ذلك يكون اتباعكم لهم أمرا سليما ، لا لأنكم اتبعتم آباءكم ، ولكن لأنكم اتبعتم المعقول والهدى

وهكذا نجد أن قضية التقليد هي أمر مرعوم ، لأنك لا تفقد مسدويث أبدا ، ولكنك تسع من تعتقد أنه أحكم منك ، ومادام مسويا لك فلا يصح أن تعتد في كبر حركة . بل يجب أن تعرض الحركة على دهنك ، ولذلك فتكليف الله لمسه لا يثبت إلا بعد اكتمال العقل بالبلوغ . فهو سبحانه لا يأخذ العقل على عرة قبل أن يوضح ، بل لا يكلف الله عبدا إلا إذا أصبح عقله ، ولا يكلفه إن لم يوجد له عقلا ، ولا يكلفه إن لم تكن قوته وراء عقله ، فإن كان الإنسان سليم القوة والعقل فإن تكليفه يكون تاما ، مسجانه لا يكلف إلا صاحب العقل الناصح والذي بدبه قدرة تمكنه من تعيد ما أهدي « عقله ، أي غير مكره

فالذي يكلف الإنسان بمقتضى هذه الأنبياء هو عالم أن لعقل إن وجد ما يصح بلا إكراه فلا بد أن يمتد إلى قضية الحق

إن الحق سبحانه لم يكلف الإنسان إلا بعد أن تكتمل كل ملكات نفسه ، لأن  
أخر فئكة تتكون في الإنسان هي ملكة الغريزة ، أي أن يكون صالحا للإنجاب ،  
وصالحا لأن تمتد به الحياة . ولما من قبل إن الثمرة التي تأكلها لا تصبح ثمرة شهية  
ناضجة إلا بعد أن تؤدي مهمتها الأولى ، مهمتها ليست في أن تأكلها الإنسان  
فقط . إنما أن توجد منها بذرة صالحة لامتداد الحياة ، وعندما توجد البذرة يكون أكل  
الثمرة صالحا ، كذلك الإنسان ؛ لا يكون صالحا لامتداد الحياة إلا بعد البلوغ أو في  
سن البلوغ ، وسبحانه وتعالى جعل لهذه الغريزة سعارا ؛ لأن الحياة التي ستأتي من  
خلالها لها تبعات أولاد ومشقات ، فلم يربطها الله بهذه اللذة لا تصرف عنها كثير من  
الناس ، لكنه سبحانه يربطها باللذة حتى يوجد امتداد الحياة بدافع صيف وقوى من  
الإنسان

فالحق سبحانه لا يفجئ الإنسان بتكليف إلا بعد أن يُعده إعدادا كاملا ، لأنه  
لو كلفه قبل أن يصبح غريزيا ، وقبل أن تصبح له قدرة على استبقاء النوع ، لقال  
الإنسان : إن الله كلمني قبل أن يوجد في ذلك ، عندئذ لا يكون التعاقد الإيمان  
صحيحا .

ولذلك يؤخر الحق تكليفه لعباده حتى يكتمل لهم نضج العقل ونضج الغريزة  
معا ، وحتى يدخل الإنسان في التكليف بكل مسؤولياته ، وبكل غرائزه ،  
وأنفعالاته ؛ حتى إذا تعاقد إيمانيا ؛ فإن عليه أن يلتزم بتعاقد

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يُربِّي في الإنسان ذاتية من نور أن يصبح  
صالحا لاستبقاء النوع في غيره ، وما دامت قد أصبحت له ذاتية مكتملة ، فالحق يريد  
أن يُبني عنه التسمية لغيره . عند ذلك لا يقول أحد : « أعمل مثل فعل أبي » لكن  
هناك من قالوا « تتبع ما ألفينا عليه آباءنا » . لهذا يتبعون آباءهم في المنهج  
الباطل ، ولا يتبعونهم في باقى أمور الدنيا ، وفي الملابس ، وفي الأكل ، وفي كل  
مناحي الحياة ؟ .

إذن فلا شيء قد جعلهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم إلا لأنهم وجدوا فيه ما يوافق هواهم ، بدليل أنهم استلخوا عن تبعيتهم لأبائهم في أشياء وأوها في سلوك الآباء وخالفهم فيها ، وماداموا قد خالفوهم في أشياء كثيرة ، فلماذا يتبعونهم في الدين الزائف ؟ .

إن الله يريد أن يخلص الإنسان من إسهار هذا الاتباع ، ويلفت العباد . تعقلوا يا من أصبحت لكم داتية ، ويعلم كل منكم أنه بنضح العقل يجب أن يصل إلى الهداية إلى الخالق الواحد الأحد ، فإن كنت قد التحمت بآتيك في أول الأمر لأنه يقولك وعندك ، فهذا الأب هو مجرد سبب أراد الله لك ، ولكن الله هو خالقك ، وهو الذي أنزل المنهج الذي يجب أن تلتزم به لتتغير حياتك إلى نهار ونخير . وهو سبحانه يقول :

﴿ وَأَخْضَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ مِنْ وَالِدِهِ شَيْعًا ﴾

( من الآية ٢٣ سورة المائدة )

إن الحق سبحانه وتعالى يفصل لنا هذا الأمر بدقة ، فإذا كان الآباء لا يعقلون ، لهذا من موقف الآباء ؟ . إن عن الأبناء أن يصلحوا أنفسهم بمنهج الحق وقد وردت في سورة المائدة آية أخرى بامعنى نفس ولكن بخلاف في النقط ، بها في سورة البقرة يقول الحق . « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أمر الله » . وفي آية سورة المائدة يقول الحق

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدَ عَلَيْهِ

« بَاءً أَوْ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ شَيْعًا وَلَا يَتَّبِعُونَ ﴾ (١٥)

( سورة المائدة )

وبين الآيتين اتقاق واختلاف ، لقوله الحق هنا « اتبعوا ما أمر الله » وهي تعنى أن نؤمن الظن وأن نطق بمنهج الله . وآية سورة المائدة « تعالوا إلى ما أمر الله وإلى الرسول » هذا هو الخلاف الأول

والخلاص الثاني في الآيتين هو في جوابهم على كلام الحق ، ففي هذه السورة - سورة البقرة - قالوا : « بل نتبع ما آتينا عليه آبائنا » وهذا القول به مؤخذ لهم . لكنهم في سورة المائدة قالوا : « حسا ما وجدنا عليه آباءنا » ، وهذه تعني أنهم اكتفوا بما عندهم ، وبقوا اتباع منج السماء ، وهذا الموقف أقوى وأشد نهيًا ، لذلك نجد أن الحق لم يخاطبهم في هذه الآية بـ « اتبعوا » بل قال لهم : « تعالوا » أي ارتفعوا من حضيض ما عندكم إلى الإيمان بمنج السماء . وما دمتم قد قلتم : حسنا بلء الصم ؛ فهذا يعني أنكم اكتفيتم بما أنتم عليه .

وكلمة « حسنا » فيها بحث لطيف ؛ لأن من يقول هذه الكلمة قد حسب كلامه واكتفى ، وكلمة الحساب تدل على لدقة ، والحساب يفيد العدد والأرقام فقولهم : « حسنا » تعني أنهم حسوا الأمر واكتفوا به ونجد كل ورود لهذه الكلمة في القرآن بعيد أنها مرة تأتي لحساب الرقم المادي ، ومرة تأتي لحساب الإدراك الطيفي فالحق يقول :

﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾

( سورة العنكبوت )

ومعناها . هل ظن الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟ . هذه حساب ليس بالرقم ، وإنما حساب بالفكر ، والحساب بالفكر يمكن أن يفتنى ، ولذلك نسميه <sup>الظن</sup> والحق سبحانه يقول -

﴿ الْحَسْبُ لَكُمْ اللَّهُمَّا خَلَقْنَاكُمْ هُنَا وَأَتْرَكُوا إِلَيْبَ لَا تَرْجِعُونَ ﴾

( سورة المؤمنون )

إذن ، فكلمة « حسب » تأتي مرة بمعنى الشيء المحسوب والمعدود ، ومرة تأتي في

المعنويات ، وتعرنها بالفعل ، فإذا قلت : حَسَبَ يَحْسِبُ ، فالمعنى  
عدَّ وإذا قلت : حَسِبَ يَحْسِبُ ، فهي للظن .

وفيه ماضٍ وفيه مضارع ، إن كنت تريد العدد الرقمي الذي  
لا يختلف فيه أحد تقول : « حَسِبَ بفتح السين في الماضي وبكسرها  
في المضارع يَحْسِبُ » وإن أردت بها حسابان الطن الذي يحدث فيه  
خل تقول : « حَسَبَ » بالكسر ، والمضارع « يَحْسَبُ » بالفتح .

وعندما يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن حساب الآخرة ، فمعنى  
ذلك أنه شيء محسوب ، يكن إذا بولع في المحسوب يكون حساباً .  
وكما تقول « غفر غفرًا » و « شكر شكرًا » . يمكن أن تقول : « غفر  
غفرانًا » و « شكر شكرانًا » . كذلك « حسب حسابًا » والحسابان  
هو الحساب الدقيق جداً الذي لا يخطئ أبداً .

وبذلك يأتي الحق سبحانه وتعالى بكلمة « حسابان » في الأمور  
الدقيقة التي خلقت بقدر ونظام دقيق ، إن اختلف فيها شيء يحدث خلل  
في الكون ، فيقول

﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝  
الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝﴾ (سورة الرحمن)

أي أن الكون يسير بنظام دقيق جداً ؛ لا يخل أبداً ، لأنه لو حدث  
أدنى خلل في أداء الشمس والقمر لوظيفتهما ، فنظام الكون يفسد  
لذلك لم يقل الحق : « الشمس والقمر بحساب » ، وإنما قال « بحسبان »  
وبعد ذلك فيه فرق بين « الحسابان » و « المحسوب بالحسابان » ، والحق  
سبحانه وتعالى حينما يقول

﴿فَاللَّيْلِ إِذَا سَجَّاهُ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ۝﴾

( من الآية ٩٦ سورة الأنعام )

لم يقل . بحسبان ، لأنها هي في ذاتها حسنة وليست محسوبة ، أي أن حسابها إلى .

وتأتي الكلمة بصورة أخرى في سورة الكهف في قوله تعالى :

﴿وَيُرْسِلْ عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الكهف)

المعنى هنا شيء لعقاب على قدر الظلم . فإما هذه هي مادة الحساب وقولهم «حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا» في ظاهرها أبلغ من قوهم . «نتع ما ألفينا عليه آباءنا» لكن كل من اللغتين مناسب للسياق الذي جاء فيه . «اتبعوا» يناسبها «نتع ما ألفينا» وقوله تعالى «ولما قيل لهم تعالوا» يناسبها قوهم : «حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا» ، يعني كالهما ما عندنا ولا نريد شيئاً غيره .

ومن هنا نفهم لماذا جاء الحق في آية البقرة بقوله : «اتبعوا» ، وفي آية المائدة : «تعالوا» ، وجاء جوابهم في سورة البقرة : «بل نتع» ، وفي سورة المائدة : «حسبنا»

وهناك خلاف ثالث في الآيتين : فهي آية البقرة قال : «أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً» . وفي آية المائدة قال : «أو لو كان آباؤهم لا يعقلون» . الخلاف في «لا يعقلون» و «لا يعلمون» .

وما الفرق بين «يعقلون» و «يعلمون» ؟

إن «يعقلون» تعني ما يشأ عن فكرهم وتبصرهم للأمور ، لكن هناك أناس لا يعرفون كيف يعقلون ، ولذلك يأخذون القضايا مسلماً بها كعلم من غيرهم الذي عقل

إذن عاينى يعلم أقل منزلة من الذى يعقل ، لأن الذى عقل هو إنسان قد استبط ، وأما الذى علم فقد أخذ علم غيره وعلى سبيل المثال ، فالأمر الذى أخذ حكمها من الأحكام هو قد علمه من غيره ، لكنه لم يتعقله ، إذن نفى العلم عن

شخص أبلغ من نفي التمثل ؛ لأن معنى « لا يعلم » أى أنه ليس لديه شيء من علم غيره أو علمه .

وعندما يقول الحق سبحانه : « لا يعقلون شيئا » فمعنى ذلك أنه من المحتمل أن يعلموا ، لكن عندما يقول : « لا يعلمون » فمعناه أنهم لا يعقلون ولا يعلمون ، وهذا يأسد دهم . فعندما قالوا : « بل نسمع » فكان وصفهم به لا يعقلون . وعندما قالوا : « حسبا » وصفهم بأنهم « لا يعلمون » كالحبوانات غلما .

مخلص ، سبق أن هناك ثلاث ملحوظات على الآيتين .  
في الآية الأولى قال : « اتبعوا » ، وكان الرد منهم « نسمع ما ألقيا » والرد عن الرد « لو لو كان أبائهم لا يعقلون شيئا » .

وفي الآية الثانية قال : « تعالوا » ، وكان الرد منهم « حسبا » ، فكان الرد عليهم « لو لو كان أبائهم لا يعلمون شيئا » .

وهكذا يرى أن كلا من الآيتين منسجمة ، ولا يقول أحد : إن آية جاءت بأسلوب ، والأخرى بأسلوب آخر ، فكل آية جاءت على أسلوبها يتطلبها معنى الأبلغ ، فكل آية في القرآن منسجمة كليتها مع جملها ومع سياقها

وقوله تعالى : « وإذا قيل لهم : منية للمفعول ليتصن كل قول جاء عن لسان أى رسول من الله من هذه الرسائل ، فهي ليست قضية اليوم فقط إنما هي قضية قبلت من قبل ذلك إن المعنى هو : إذا قيل لهم من أى رسول ، اتبعوا ما أنزل الله قالوا : « بل نسمع ما ألقينا عليه آباءنا أو لو كان أبائهم لا يعقلون شيئا ولا يتدون »

ويختم الحق الآية في سورة البقرة بقوله : « ولا يتدون » . وكذلك كان ختام آية المائدة : « ولا يتدون » . فنعلم أن هدى السماء لا يختلف بين عقل وعلم ، فالأول جاءت معه قوله تعالى : « لو لو كان أبائهم لا يعقلون شيئا ولا يتدون » ، والثانية جاءت في ختام قوله تعالى : « أو لو كان أبائهم لا يعلمون شيئا ولا يتدون » وذلك للدلالة على أن هدى السماء لا يختلف بين من يعقلون ومن يعلمون .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ  
إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بِكُمْ عَنْهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٧١)

والذي ينعق هو الذي يُصَوِّتُ ويصرح لبهائم ، وهو الراعى ، إذن ، لفكلمة  
ينعق أعطتنا صورة راع يرعى بهائم . ودى هذا الصباح من الراعى ليلفت الماشية  
الرعية لسير خلفه ، وهو لا يقول لها ما يريد أن تفعله ، وإنما ينهها بالصوت إلى  
ما يريد ، ويسير أمامها لسير خلفه إلى المرعى أو إلى بىع الماء ، فالنداء لفئة ودعاء  
فقط ، لكن ما يراد من الدعاء بصير أمرا حركيا تراه الماشية فكان الماشية للرعية  
لا تنهم من الراعى إلا النداء والدعاء ، إنما دعاء ونداء لماذا ؟ فهى لا تعرف الهدف  
منه ، إلا بأن يسلك الراعى أمامها بما يرشدها وهكذا نفهم أن هناك « راعيا » ،  
ودعاشية » ، وه صوتا من الراعى ، وهو مجرد دعاء ونداء .

مقابل هؤلاء الثلاثة فى قضيتنا هو الرسول حين يدعو فيكون هو « الراعى » ويدعو  
من ؟ ، يدعو « الرعية » الذين هم الناس  
ومعنا يدعو الرعية ؟ أيتها فقط لثانيه ، أم يادى لثانيه ويأمرها بأشياء ؟  
إنه يأمرها باتباع منهج لسياد .  
وهذا هو العارف بين الراعى فى الماشية والراعى فى الأدميين

بعدما باتى لرسول ويقول : « يا قوم إني لكم رسول ، وإن لكم مدين » ، فهذا  
هو الدعاء ، ومصمون ذلكم الدعاء هو « اعبدوا الله »

« انظروا فى السماوات والأرض » ، « افعلوا كذا من أوامر وانتهوا عن تلك  
النواهي » ، هذا ما يريد الرسول



إذن فأرسلوا يشترك مع الراعي في الدعاء والنداء ، وهم اشتركوا مع المربي في أنهم لم يفهموا إلا الدعاء والنداء فقط ، وفي الاستجابة هم و صم بكم عسى ، فالمدعو به لم يسمعه ، وكانهم اشتركوا مع الحيوان في أنهم لا يستمعون إلا للدعاء والنداء ، إنما المدعو به ومضمون النداء هم لا يفقهونه ولا يفهمونه . وبكم لا يطقون بمطلوب الدعوة وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وليس عندهم عقل يدير حركة العيون لينظروا في منكوته السموات والأرض لينظروا لهم وجه الحق في هذه المسألة

إذن فمثل الذين كفروا بالرسول كمثل الناقة مع الراعي ، فهم لا يسمعون إلا مجرد الدعاء ، كما أن الناقة تسمع الراعي ولا تعقل ، مع الفرق ، لأن الدواب ليس مطلوباً منها أن ترد على من يناديها ، ولا تسمع غير ذلك من مدعو به لذا كان الكافرون شر المواب

وقول الحق : صم أي مصابون بالصمم ، وهو : صمع الأذن من أداء مهمتها وه بكم أي مصابون بأفة نصيب اللسان ، فتمنع من أداء مهمته ، إلا أن السبب في الصمم سبب إحمى ، لأن هناك شيئاً قد صد بعد السمع فلا يسمع ، وسبب الصمم فهم بكم ، والكم هو عجز اللسان عن الكلام ، لأن الإنسان إذا لم يسمع فهو كمن يتكلم ، ولذلك فإن الإنسان إذا وُجد في بيئة عربية فهو يتكلم اللغة العربية ، وإذا شأ الإنسان في بيئة إنجليزية فهو يتكلم لغة إنجليزية . وهب أنت قد شئت في بيئة تتكلم العربية ثم لم تسمع كلمة من كلماتها هل تتكلم بها ؟ لا إذن فاللسان يطلق بما تسمعه الأذن ، فإذا سمع الأذن لا يتكلم اللسان والصمم يسبق السمع ، ولذلك فالكم هو أفة سلبية ، ونجد أن اللسان يتحرك ويصوت أصواتاً لا مدلول لها ولا مفهوم . فهل يفهم من قوله تعالى عسى : صم أي مصابون بالصمم ؟ لا إن الحق يقول لقد جعلت الأذن لتسمع السمع بعد فكأنها معطلة لا تسمع شيئاً . وكذلك اللسان أوجده ليتكلم الكلام البعيد ، بحيث من لا يتكلم به كأنه أكم ، والعقل أوجده ليحكم به ، فإذا لم يفكر يفكر سلبياً منطقياً ، فكان صاحبه لا عقل له . فالأصم حقيقة خير من الذي يملك حاسة السمع ولا يفهم بها ، لأن الأصم له عذره ، والأكم كذلك ، والمحزون أيضا له عذره ، فليت هؤلاء الكفار كبر كذلك ، لقد صموا أذانهم عن سماع الدعوة ، وهم بكم عن النطق بما يسجيهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وهم عسى عن

النظر في آيات الكون ، فلو أن عندهم بصرا نظروا في الكون كما قال الله تعالى .

﴿إِذْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَلَقَ النَّاسَ وَالنَّجَّاتِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾

﴿الأنبياء﴾

(سورة آل عمران)

فلو أنهم نظروا في خلق السماوات والأرض ؛ لاحتدوا بفطرتهم إلى أن لهذا الوجود المنظم المحكم صانعا قد صممه ، لكنهم لا يعقلون ، لأن عملية العقل تشأ بعد أن تسمح ، وبعد اكتمال الحواس ، ولذلك فالإنسان في تكوينه الأول حركي حسي ، يرى وسمع ويتذوق ثم تتكون عنده من بعد ذلك القضايا المعنوية . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾

﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

وهذا خطاب من الله للذين آمنوا بأن يأكلوا من الطيبات ، وقد سبق في الآية ١٦٨ خطاب مماثل في الموضوع نفسه ؛ ولكن للناس جميعا وهو قوله تعالى . « يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا » . وقبلنا : إن الحق سبحانه وتعالى ساعا يحاطب الناس جميعا ، فهو يلفتهم إلى قضية الإيمان ، ولكن حين يحاطب المؤمنين فهو يعطيهم أحكام الإيمان ، فإله لا يكلف بحكم إلا من آمن به ، أما من لم يؤمن به ، فلا يكلفه بأي حكم ، لأن الإيمان التزام . وما دمت قد التزمت بأنه إله حكيم ؛ فخذ منه أحكام دينك .

وعدل الله اقتضى ألا يكلف إلا من يؤمن ، وهذا هل خلاف مألوف للبشر ، لأن تكليفات القادة من البشر للبشر تكون لمن يرضى بقيادتهم ومن لم يرض ، وإذا كان للقائد من أسرفه ، فإنه يستخدمها لإرغام من يوجدون تحت ولايته على تنفيذ ما يقول .

وخطاب الله للمؤمنين هنا جاء بقوله : « كلوا من طيبات ماورعناكم » ، ذلك أن المؤمن يتيقن تماما بأن الله هو الخالق وهو الذي يرزق . ويدل الآية الكريمة بقوله : « واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون » ، فشكر العبد المؤمن للرب الخالق واجب ، مادام العبد المؤمن يختص الله بالعبادة . ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ  
وَمَا أُهْلَ بِهِ إِلَّا لِلَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ ذَلِكَ  
فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٧٢)

ونجد أن استخدام « الموت » يأتي في كلمات موع ، « مَيْت » و « مَيْتة » ، و « مَيْتة » ومثال ذلك ما يقول الحق :

﴿ فَسُفِّتْهُ إِلَى الْيَمِّ مَيِّتٌ ﴾

( من الآية ٩ سورة النمل )

و «الميت» بتشديد الياء هو مَنْ ينتهى أمره إلى الموت وإن كان حياً ،  
فكل واحد منا يقال له أنت ميت ، أى مصيره إلى الموت ، ولذلك يخاطب  
الله رسوله

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠)

( سورة الزمر )

إن ، فكلمة « مَيِّت » معناها أنك ستموت ، رغم أنك الآن حى .  
لكن عندما نقول « مَيِّت » ، بتشكين الياء ، فمعناها مات بالفعل ،  
وفى الشعر العربى جاء  
وما الميت إلا من إلى القبر يُحمل .

والحق سبحانه وتعالى يقول «إنما حرم عليكم الميتة والدم» ،  
ولم قال «الميتة» بتشديد الياء، لقلنا إن كل شيء سيموت يصير محرماً ،  
لكن كلام الله هنا عن الميتة - بالياء الساكنة - وهى الميتة بالفعل ، وهى  
التي خرجت روحها حقاً ، لأنه فيه خروج اروح إزهاقاً بمعنى أن تذبحه  
فيموت ! لكن هناك مخلوقات تموت حتف أنفها ، وساعة تقوت الحيوانات  
حتف أنفها تُحتبس فيها خلاصة الاغذية لتي تناولتها وهى الموجودة  
بالدم؛ وهذا الدم فيه أشياء ضارة كثيرة ، ففى الدم مواد ضارة فاسدة  
استخلصتها أجهزة الجسم وهى حى ، وكانت فى طريقها إلى الخروج منه ،  
فإننا ما نبحثاه : سال كل الدم الفاسد والسليم ، ولأن جزء المفسدة مقدم  
على جلب المصلحة ، فإننا نضحى بالدم السليم مع الدم الفاسد . وهذا الدم  
يختزنه الجسم عندما يموت ، وتظل بداخله الاشياء الضارة فيصبح اللحم  
مملوءاً بالمواد الضارة التى تصيب الإنسان بالأمراض ونظرة بسيطة إلى  
دجاجتين ، إحدهما مذبوحة أريق دمه ، والأخرى منخفقة أى لم يرق  
دمها . فإننا نجد اختلافاً ظاهراً فى اللون ، حتى لو قمنا بطهى هذه وتلك  
فسنجد اختلافاً فى الطعم ، سنجد طعم الدجاجة المذبوحة مقبولاً ، وسنجد  
طعم الدجاجة الميتة غير مقبول، وكان الذين لا يؤمنون ببإله أو بمتهج  
يقومون بذبح الحيوانات قبل أكلها ، لماذا ؟ لقد هدتهم تجاربهم إلى أن هذه  
عملية فيها مصلحة ، وإن لم يعرفوا طريقة الذبح الإسلامية

وحين يحرم الله الميتة ، فليس هناك أحد منا مطالب أن يجيب عن الله : لماذا حرم الميتة ؟ ، لأنه يكفي أن الله قال : إنها حرام ، ومادام الذي رزقك قال لك : لا تأكل هذه ، فقد أخرجها من رزقية العمية المباشرة ، ولو لم يكن فيها ضرر نعلمه ، هو سبحانه قد قال : لا تأكلها ، فلا تأكلها ، لأنه هو الذي رزق ، وهو الذي خلقك ، وهو الذي يأمرك بالآلا تأكلها ، وليس من حفتك بعد ذلك أن تسأل لماذا حرمها على ؟ .

وهب أنت لم تهتد إلى حكمة التحريم ، ولم تعرف الأذى الذي يصيب الإنسان من أكل الميتة ؟ هل كان الناس يقعون عند الأمر حتى تيدوه هلكة ، أم كانوا يتهدون أوامر الله فلا تفكرون ؟ لقد استمع المؤمنون لأوامر الحق وهدوها دون تردد .

إذن ، مهتام الله بمخاطبنا ، فيقتضي حيثة الإيمان يجب أن نتقبل عنه الحكم ، وعة قبول الحكم هي صدوره من الذي حكم . أما أن نعرف عنه الحكم ، فهذه عملية أساس للعقل ، ونطمئن على أن الله لم يكلفنا بأمر إلا وفيه نفع لنا ، والمؤمن لا يصبح أن يجعل إيمانه رهناً بمعرفة العلة .

إن الحزن يقول : « إنما حرم عليكم الميتة » والآية صريحة في أن كل ميتة حرام ، ومادامت ميتة فقد كان فيها حياة وروح ثم خرجت ، لكننا نأكل لسمك وهو ميت ، وذلك تخصيص من آية لعموم القرآن ، فقد قال صلى الله عليه وسلم

« أحل لكم ميتاد السمك والجراد ، ودمان ، الكبد والطحال » (١) .

لماذا هذا الاستثناء في التحليل ؟ لأن للعرف في تحديد ألقاظ الشارع مدحلاً ، فإذا حصلت ألا تأكل لحمها وأكلت سمكاً فهل تحمت ؟ لا تحمت ، ويميك صادقة : رغم أن الله وصف السمك بأنه لحم طري ، إلا أن العرف ساعاً يطلق اللحم لم يدخل فيه السمك

إذن ، قالعرف له اعتبار ، لذلك فالزغشري صاحب الكشاف يقول في هذه المسألة : « لو حلفت ألا تأكل اللحم وأكمت السمك فإجماع العلماء على أنك لم تحمت

في يمينك . وضرب مثلا آخر فقال : لو حملت بأن تركب دابة ، والكافر قد أسماه الله دابة فقال : « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا » فهل يجوز ركوب الكافر ؟ لا يجوز فكان مفتضى لآية أنه يصح لك أن تركبه وعلق على ذلك قائلا : صحيح أن الدابة هي كل ما يمشي على الأرض ، إلا أنه العرف حصصا بدوات الأربع

هنا كان للعرف مدخل في مسائل التحليل والتحريم . بل قال قائل إن الله حرم الميتة ، والسمك والخراد ميتة فهذا ماكنها ؟ بره عليه . إن العرف جرى على أن السمك والخراد ليسا لحم ، بدليل قولهم : « إذا كثرت الخرد أرحص اللحم » ، وذلك يعني أن الخرد ليس من اللحم

أما بالنسبة للسمك ، فالسمك لم يكن كالميتة التي حرمها الله لأن الميتة المحرمة هي كل ما يذبح ويذبح منه ، والسمك لا يذبح سائلة له أي لا دم له . والخراد أيضا لا دم فيه ، إذن ، فتحليل أكله وهو ميت إنما جاء بسبب عدم وجود نفس سائلة يترتب عليها انتقال ما يهر من داخله إلى الإنسان ، وكذلك الكبد والطحال أيضا ليس بدم ، فالدم له سيولة ، والكبد والطحال لحم معجمد مسامك ، خلاصة دم تكون منه عضو الكبد وعضو الطحال

إذن ، السنة لها دور بيان في التحليل والتحريم ، وقوله الحق : « إنما حرم عليكم ميتة والدم » يعني أنه سبحانه قد حرمها لأجل بقاء الدم في الميتة وعدم ميلانه ، ومن باب أولى : كان تحريم الدم أمرا واحداً وحرم الحق « لحم الخنزير » وقسا إن علة الإقبال على الحكم هو أمر الله به ، فإذا أثبت الرمس صدق القضية الإيمانية في التحليل ، عندك موضوع يؤكد عملية الإيمان ، لكن لو انتظروا وأجلا تنعبد حكم الله حتى تأكد من علة التحريم ، لكنا يؤمن بالعلماء ولاكتشافات العلمية قبل أن يؤمن بالله . لانا إن انتظروا حتى يقول العلماء كمنهم : فقد احتجنا بالعلماء آمن علينا من الله . وهل يوجد مخلوق آمن على مخلوق من الخلق ؟

إن ذلك مستحيل . إذن فالؤمن من يأخذ كل حكم صادر من الله ، وهو متيقن أن الله لا يأمره إلا بشيء نافع له ، وفي الحقيقة فالشيء الصار غير صارف ذاته ، فقد ينفع في أشياء أخرى ويضر هذا المثل . والله المثل الأعلى . فأت ساعة تعاقب أبك بأمر من الأمور ، فتحرمه من المصروف أو تحرمه من أكله شبيه ، فإن ذلك العقاب ليس ضاراً في ذاته ، إنما إغرائك إياه بما يحب ويطلب ، مع سيرة في

طريق لا ترتضيه ، هو دعوة للابن أن يستمر في فعل ما لا ترتضيه (إد عدم تربية الابن بالثواب والعقاب هو أمر ضار ولذلك تقول لئدين يريدون أن يوجدوا علة لكل مُحَرَّم ، أنتم لم تعطوا إلى تحريم التأديب ، فهلك تحريم الأمر لأنه ضار ، وهناك تحريم لأمر آخر لأنك تريد أن تحرمه تأديباً به ، وأنت لا يصح منك أن تجعل عملية التأديب في الصيم دون عممية الإصلاح في المادة البدنية . والحق سبحانه وتعالى أرحم بخلقه من الأب بابه ، وهو قد حرم بعضاً من طيبات الحياة على بني إسرائيل للتأديب ، فقال عز وجل :

﴿ فَيُظْلَمُ مِّنَ الَّذِينَ عَادُوا عَرْمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحْضَتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

فالحق حرم عليهم الطيبات كتأديب لهم على ظلمهم لأنفسهم إذ ، ساعة ترى تحريماً فلا تنظر إلى تحريم الشيء لضرر ، لكن انظر أيضاً إلى أن هناك تحريماً من أجل التأديب ، لأن إبادة بعض من الطيبات هؤلاء مع كونهم مخالفين للمنع هو إعراف لهم بأن يكونوا مخالفين دائي ، طائفين لأنفسهم .

فالحق قد منع ما يضر الإنسان في نفسه ، ومنع أيضاً بعضاً من الطيبات على بعض المخالفين كتأديب لهم وباشية لتحريم التحذير ، فقد شاءت إرادة الله عز وجل أن يكشف لخلق سر التحريم ، فثبت العلماء أن هناك أمراً في التحذير لم تكن معروفة قبل ذلك ، وتبين لهم خطورتها مثل الدودة الشريطية ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد كشف لهم سراً واحداً هو الدودة الشريطية ، فربما هناك أسرار أخرى أخطر من الدودة الشريطية

ويحرم الحق أيضاً ، وما أهل به لغير الله ، والإهلال هو رفع الصوت ، ولذلك يقال : هلل أي رفع صوته بلا إله إلا الله ، ويسمى الإهلال هلالاً ؛ لأن ساعة براه نهل ونقول : الله أكبر ، ربي وربك الله ، وساعة يولد الولد ، ويخرج من بطن أمه يسبه إلى حياته وإلى طائفة وجوده بعد أن كان ملتجئاً بذاتية أمه فهو بصريح ، إنه يبدأ حياته بالصراخ ، ولذلك فالذين يتظرون مولد الطفل عندما يستمعون لصراخه يعلمون

ولذلك يقول لشاعر .

لما تودد الدنيا به من صروفها      يكون نكاه اطفال ساعة يولد

كان الوليد بفيل على شيء فيه نكد ، ولا يلتفت إلى ما في اتساع الدنيا ورعد  
لعيش فيها . ولا هما بكبه وإنما لأوسع عما كان فيه وأرعد ٩ . فكان صرحه الوليد  
هي صرخة الانتقال من رحم الأم إلى مواجهة الحياة

كانت حياة الطفل في بطن أمه رتيبة وعداؤه من الحمل السري ، لكنه ساعة  
ينفصل من أمه تنقطع صلته بهيكله تحسب العناء في رحم الأم ، وفقد المدد العدائي  
في لحظة حروجه من بطن أمه ولم يأت مدد الرضاعة بعد ، فالرضاعة من مدد الدنيا ،  
ولا يأخذها الطفل إلا إذا أخذ أقل نسبة من الهواء ليدير الرئة ، ولذلك يحرص  
الأطباء في أن يبرل الوليد من جهة رأسه دائماً ، لأنه لو برل من ناحية رجليه ورأسه  
ما زال بالداسل . فإن أمه تكون محبوسة في بطن أمه ، ويكاد يموت ، ولذلك  
يكشفون الآن عن الأم ليُعرفوا وضع الجنين ، ويقوم الطبيب بإجراء الجراحة  
لفيصرية حرقها عن حياة الوليد . وأول شيء يقوم به الطبيب بعد ميلاد الطفل هو  
أن يسلك مساق الهواء إلى أمه ، وبعد ذلك يعالج بقية الأعضاء

إنها صرخة العريضة ، تماماً مثل ما سهر أمه عن رجاء موعد رضعته فهو يصرخ .  
وهكذا تعرف أن الإهلال هو رفع الصوت ، وقوله الحق : وما أهل به لغير الله ،  
بمعنى هو رفع الصوت لحظة الدبح ، والدبح نوعان : دبح لنفك لتأكل ويأكل  
غيرك ، ودبح هربى لله . وما أهل به لله ، هو دبح هربى لله ، أما : وما أهل به لغير  
الله ، فهو الدبح للمعدة للإنسان فقط ، وبغريباً إلى أصنامهم وأوثانهم وما يعبدونه من  
دور الله

وما دام الله هو الذي أعطى الحيوانات وسحرها لما من أجل أن يأكلها ؛ فعينا أن  
تذكر اسمهم ، وأن يكون الهربى لله وحده هي القصد الأول . ولذلك فاعوذون  
يتقربون ويأكلون ، أما الكفار فيأكلون ولا يتقربون لله وإنما يدسحون ويتقربون إلى  
لهنهم

والحق سبحانه وتعالى حينما شرع ، فتشريعه يصعب الاحتلالات ، وليس كالشرع  
من الشر الدين تصطرهم أحداث الحياة بعد الشريعة إلى أن يغفروا ما شرعوا ؛ لأنه



حدثت أفضية بعد تطبيق التشريع لم تكن في باهم ساعة شرعوا ، وذلك لقصور علمهم عما يحدث في الكون من القضايا التي تضطربهم وتلجثهم إلى أن يعدلوا القانون . فتعديل أى قانون بشرى معناه حدوث أفضية لا يوجد لها تكيف في القانون عند التطبيق ؛ فهناك المشرعون إلى تعديل القانون ، ليضعوا فيه ما يتسع هذه الأفضية .

ولكن الحق سبحانه وتعالى ساعة فس . فهو يفس نفسه بحمل في طياته كل ما يمكن أن يستجد من أفضية دون حاجة إلى تعديل . ولأن الإسلام جاء منهاجاً عالمياً ولا منهج للسياة بعده ، لذلك كان متصمناً كافة الاحتمالات . فقد كان من المعقول تعديل التفسيات عندما كانت الرسل تتوالى . لكن عندما حتم الله رسالات السياء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، كان لابد أن تكون التشريعات التي أقرها الله على رسوله تحمل في ذاتها صيغيات تكفل ذلك

إذن ، فالضرورات التي اقتضت المشرع الوصوى أن يعدل قانوناً عقل عن جزئياته ساعة وصحة الأول ، مثل هذه الأمور لا توجد في تشريعات السياء ، لأن الله يعلم الأفضية التي تجيء .

وهب أن الضرورة التي تستلزم التعديل لم تكن موجودة ، وبعد ذلك حدث ضرورات ، أمكن الحق يثبت خلقه لأنه قال لا تأكلوا من ثمره حتى يصير من ثمره الحثاية ؟ صحيح الميتة مستصر ، وإنما المحمصة والمخاضة سميحت ، فمإذا لا نتحمل أكل ما يصير بدلاً من أن نمتنع عن الأكل سموت من الحرم ؟

إذن فهي عدالة الحق التي قالت : « من اضطر غير بدغ ولا عباد فلا إثم عليه » فالاضطرار له شرط هو « غير باع ولا عدا » . وغير باع يعنى غير متجاوز الحد . فمأخذ على قدر حاجته الضرورية ، مثلاً ، لا يقول إن الله أحل الميتة لمثل ما أنا عليه من الاضطراب ويلاً بطنه منها ، لا ، إن عليه أن يأخذ على قدر استبقاء الحياه ولا يظن أن ذلك يصبح حلالاً ؛ بل يقول إن هذا حرام أبيح للاضطراب

وأيضاً لابد أن نلاحظ قيمة الحيوان المتعلقة بالآخرين ، هب أن إنساناً يملك مسجان ماء لا يكفيه إلا ليروى خلقه ، وبعد ذلك جاء شخص آخر مضطر ومضى وصره ليأخذ منه هذا العجان يقول لهذا المعتدى . لا تعبد لأن بملكية سقاء .

فإن اتسعت لكم كمية الماء معاً فأملأ وسهلاً ، وإن لم تتسع ، فصاحب الملكية أولى بالماء ، ولا يقول هذا الآخر : « أنا مضطر لأن أخلف منه » ، إن اضطراره سيدفع عنه المضرة ويوقعها في غيره .

إذن ، فالمقاييس عند الضرورة تظل كما هي ، فلا بد من احترام الحق والسبق ، ولا يصح أن تتجاوز بالضرورة قدرها ، هذا معنى قوله . « من صطر غير باع ولا عاد فلا إثم عليه » ، وقوله الحق : « فلا إثم عليه » يدل على أن المسألة فيها إثم أناحه الله عز وجل للضرورة ؛ وذلك حتى لا يحلها تحميلاً دائماً ، فإذا ما زادت الضرورة عُذنا إلى أصل الحكم .

ونختم الحق الآية بقوله . « إن الله غفور رحيم » وتساءل ما علاقة « غفور رحيم » بهذه الآية ؟ إن المغفرة والرحمة تقتضيان ذنباً ، وما سبق كله هو قول الحق وتشريعه . وتحريم الميتة إلا عند الضرورة هو كلام الحق . والمضطر حين يأخذ منها على قدر الضرورة إنما هو إباحة من الحق ، فلا ذنب - إذن - يقتضي تدويل الآية بقوله . « إن الله غفور رحيم » ؟ .

ونقول : إذا كان الله يعفر مع الذنب ، أملاً يعفر مع الضرورة التي شرع لها الحكم ، إن المطلق يقول إن الله يعفر الذنب الذي يحدث بلا مناسبة تستدعيه ، أملاً يعفر للمضطر الذي أجبرته الظروف على أكل الميتة ؟ إن الله عفوري الأصل ؛ أفلا يعفر لمن أعطاه رحمة ؟ إذن فهو عفوري رحيم ، ولن يكتب على المضطر ذنباً من جراء اضطراره . إن رحمة الله التي تعفر للعاصي التي اجراً على الحق بلا مناسبة ، هو سبحانه الذي كتب للمعصية لمن اضطر وكسر قاعدة الحريم عند الاضطرار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

إن الحق سبحانه وتعالى ينزل بواسطة رسله على خلقه ليحكم المنهج حركة الحياة للناس وعلى الناس ، إنه يحكم للناس أي لمصالحهم ، ويحكم على الناس إن فوتوا المصالح ، لأن الذي يفوت مصلحة سواء عنده ، لا بد أن يلحظ أن غيره سيوفت عليه مصلحة عنه .

إذن ، فمن الإنصاف في التشريع أن نجعل له وعليه ، فكل « تكليف عليه » يقابله « تكليف له » ، لأنه إن كان له حق ، فحقه واجب على سواء ، ومادام حقه واجباً على ما سواء ، فلزم أن يكون حق غيره واجباً عليه ، وإلا فمن أين يأخذ صاحب الحق حقه ؟

والحق سبحانه وتعالى حين ينزل المنهج يبلغه الرسل ويحمله أولو العلم ، ليبلغه للناس . فالذين يكتُمون ما أنزل الله إنما يصادمون منهج السماء . ومصادمة منهج السماء من خلق الله لا تتأتى إلا من إنسان يريد أن يستمتع بباطل الحياة ؛ ليأكل حق الناس . فحين يكتُمون ما أنزل الله ، فقد أصبحوا عوائق لمنهج الله الذي جاء ليبيطر كل حركة الحياة .

وما ينفعهم في ذلك ؟ . لا بد أن يوجد مع لهم ، هذا الفخ هم هو الثمن القليل ،  
مثل « الرشا » ، أو الأشياء التي كانوا يأخذونها من أتباعهم ليضعوها أحكام الله على  
مقتضى شهوات الناس .

فإنه يبين لهم : أن الشيء لا يضمن إلا بضمن من يعلم حقيقته ، وأنتم تثمنون  
منهج الله ، ولا يصح أن يضمن منهج الله إلا الله . ولذلك يجب أن يكون الثمن  
الذي وضعه الله تطبيق المنهج ثمنا مربحاً مقنعاً لكم ، فإن أخذتم ثمنا على كتاب  
منهج الله وأرضيتم الناس بضمين يوافي أهواءهم وشهواتهم ، فقد خسرتهم في  
الصيغة ؛ لأن ذلك الثمن مهما علا بالتقدير الشري ، فهو ثمن قليل وعمره قصير .

والأثماني حاجة تبدأ من أول شيء يتعلق بحياة الإنسان هو قوام حياته من مأكلاً  
ومشرب ، لذلك قال الله سبحانه وتعالى - « أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار »  
وإذا كانوا يأكلون في بطونهم ناراً فكيف يكون استيعاب النار لكل تلك البطون ؟

لأن المؤمن كما قال الرسول يأكل في معنى واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء ،  
أي أن الكافر لا يأكل إلا قليلاً ما الطعام ؛ فهو يريد أن يتلذذ به دائماً حتى يضيق بطنه  
بما يدخل فيه . لكن المؤمن يأخذ من الطعام بقدر قوام الحياة ، فيسبغ الخلق محمد  
بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بقول في الحديث الشريف :

« حسب ابن آدم لقيات يقمن أوده »<sup>(١)</sup>

إذن فالأكل عند المؤمن هو مقومات الحياة وكوقود للحركة ، ولكن الكافر يأخذ  
الأكل كأنه متعة دانية . والحق يقول - « أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار » يعني  
كما أرادوا أصلاً بطونهم شهوة رذيلة ، فكذلك يجعل الله العذاب لهم من حسن  
ما فعلوه بالثمن القليل الذي أخذوه ، فهم أخذوا ليملاؤوا بطونهم من حيث  
ما أخذوا وسيملاً الله بطونهم ناراً ، جراء وفاقاً لما فعلوا ، وهذا لون من العقاب  
المادي يشبه لون آخر من العقاب هو « ولا يكلمهم الله » أي أن الحق يتصرف عنهم  
يوم لا أسس للخلق إلا بوجه الحق .

ونحن حين نقرأ كلمة « لا يكلم فلان فلاناً » نستشعر منها الغضب ، لأن الكلام في البشر هو وسيلة الأنس ، فإذا ما امتنع إنسان عن كلام إنسان ، فكأنه يخفقه ويكرهه . إذن « لا يكلمهم الله » معناها أنه يخفهم ، وحسبك بصدود الله من خلقه عقاباً وعذاباً لقد والاهم بالنعمة وبعد ذلك يهد عنهم ، ويقول قاتل : كيف نقرأ هنا أن الحق لا يكلمهم ، وهو سبحانه القاتل :

﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٥٠﴾ رَبِّنا اُنْجِسْنا مِنْها وَإِنَّ عُدُنَا فَإِنَّا ظالِمُونَ ﴿١٥١﴾ قُلْ اَحْسِنُوا فِيْها وَلَا تُكَلِّمُوْنَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

( سورة المزمل )

نقول : صحيح أنه سبحانه يقول لهم : « لا تكلمون » ولكن الكلام حين ينفي من الله فالمقصود به هو كلام الخنازير وكلام الرحمة وكلام الإيثار واللفظ ، أما كلام العقوبة فهو اللعنة . إذن « لا يكلمهم الله » أي لا يكلمهم الحق وصلاً للأنس . ولذلك حين يؤس الله بعض خلقه يطيل معهم الكلام . ومثال ذلك عندما جاء موسى لميثاق ربه ، ماذا قال الله له ؟

قل عر وجل .

﴿ وَمَا تَلَّكَ رَبُّكَ مِنْ شَيْءٍ يُنْمِرُ ﴾

( سورة طه )

فهل معنى هذا السؤال أن الله يستمعهم من موسى عما يله ؟ . إنه سؤال الإيثار في الكلام حتى يتعلم موسى من دوامة المهابة .

وضرباً مثلاً لذلك - وفيه المثل الأعلى - حينما يذهب شخص إلى بيت صديقه ليزوره ، فيأخذ منه الصغير ومعه لعبة ، فيقول الصغير للطفل : ما الذي معك ؟ إن الضيف يرى اللعبة في يد الطفل ، لكن كلامه مع الطفل هو للإيثار . وعندما جاء

كلام الله بالإنسان موسى قال له :

﴿ وَمَا تِلْكَ بَيِّنَاتُ يَوْمَئِذٍ ﴾ (١٧)

(سورة طه)

كان يكفى موسى أن يقول : عصا ، وقتتهى إجابته عن السؤال ، ولو قال موسى : عصا ، لكان ذلك منه عدم استيعاب لتقدير إنسان الله له بالكلام ، لكن سيدنا موسى عليه السلام انتهز سؤال الله له لطيل الإنسان بالله فيقول :

﴿ قَالَ مِىْ عَصَاىَ اَتَوَكَّلُ عَلَيْهَا وَاَهْلُى رَاسًا عَلٰى غَیْسٍ وَّلِىْ فِیْهَا مَعْرِبٌ اٰخَرٰی ﴾ (١٨)

(سورة طه)

تأمل التطويل في إجابة موسى : إن كلمة « هى » زائدة ، وه أتوكأ عليها « زائدة أى غير محتاج إليها في إفادة المعنى ، وه أهش بها على غمى « تطويل أكثر » وه لى فيها مارب آخرى « رغبة منه في إطالة الحديث أكثر .

إذن فكلام الله والظفر إلى سحابه أحصل التعم الذى بنعم الله بها على المؤمنين يوم القيامة

فإذا كان الله سبحانه من الكافرين وسائل لتكريم المادى فلا يكلمهم ، فهذه مسألة صحيحة « لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يركبهم ولم عذاب ألوم » وبعد أن يحرمهم من الكلام والاستئناس بحضرته ، ولا يطهرهم من الخبائث التى ارتكبوها ، ولا يجعلهم أهلاً لقربه ، بعد ذلك يعذبهم عذاباً شديداً ، كأن فيه عذاباً سابقاً ، ثم بأن العذاب الأشد ، لأنهم لا بد أن يلاقوا عذاباً مضاعفاً ، لأنهم كسروا ميثاق الله من خلق الله ، فتسبوا في إضلال الخلق ، فعليهم وزر ضلالهم وأوزار فوق أوزارهم لأنهم أضلوا سواهم .

ومسألة كلام الله للناس أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال :

« ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يذكّرهم ولا ينظر إليهم وهم عذاب أليم :  
شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر »<sup>(١)</sup>

ما سر حرمان هؤلاء من كلام الله وتركته والنظر إليهم ؟ إن الشيخ الزان يرتكب  
إثماً ، لا ضرورة له لأنه لا يمان من سفار المرافقة والملك الذي يكذب ، إنما  
يكذب على قوم هم وحيته ، والكلب خوف من احتق ، فممن يخاف الملك إذا كان  
الأس تحت حكمه ؟. وعائل الأسرة عندما يصيبه الكبر وهو فقير ، يسبب له هذا  
الكبر الكثير من المتاعب ويضيق عليه سبل الرخاء وسبل العيش ويجعله في شقاء من  
العيلة ، فإن أراد أحد مساعدته فيكون الكبر والإستعلاء على الناس حائلاً بينه  
وبين مساعدته ، وهذا هو معنى « لا يكلمهم ولا يذكّرهم » ، في معنى « لا ينظر  
إليهم » ؟ إن النظر شرك العطف ، ولذلك يقطع الحق عنهم باب الرحمة والعطف من  
الأصل ، وهو النظر إليهم ، ويُدبّل الحق الآية الكريمة بقوله : « ولهم عذاب أليم »  
أي مؤلم ، وعندما تسمع صبيحة « فعيل » فتحى تأخذها بمعنى فاعل أو مفعول ،  
لذلك نفهم « أليم » على أنه مؤلم .

ثم يقول الحق :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الصَّلَاةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابِ  
بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾<sup>(١٧٥)</sup>

يذكر الله لـ حقيقة الحكم عليهم ، ولماذا لا يكلمهم ، ولماذا لا يذكّرهم ، ولماذا  
يكون لهم في الآخرة عذاب أليم ؟ إنهم قد بدلوا الصلوة بالهدى ، والعذاب

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه رواتان عن أبي هريرة رضي الله عنه .

بالمغفرة . وعندما ترى فظاعة العقاب فلا تستهوله ، ولكن انظر إلى فظاعة الجرم . إن الناس حين يصلون الجريمة عن العقاب لهم يعطفون عن المجرم ، لأنهم لا يرون المجرم إلا حالة عقابه ومحامته ونسوا جرمته ، ولذلك فساعة ترى عقوبة ما وتستعظمها ، فعليك استحضار الجرم الذي أوجب تلك العقوبة . ولذلك نجد الناس غالباً ما يعطفون على كل المجرمين الذين يحاكمون وتصدر عليهم عقوبات صارمة ، لأن الجريمة مرّ عليها وقت طويل ، ولم نرها ، وأثارها وتبعاتها إنتهت . ولم يبق إلا المجرم ، فيعطفون عليه ، ولذلك فمن الخطأ أن تطول الإجراءات في المحاكمات ، بل لابد من محاكمة المجرم من فور وقوع الجريمة وهي ساخنة ، حتى لا يعطف عليه الجمهور ، لأن تعطيف قلب الجمهور عليه يجعل العقوبة قاسية .

« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، وعرفوا أن « البلاء » تدخل على المتروك ، فاضلالة هما أخذت وترك الهدى ، واستبدلوا المذهب بالمعصية ، وماداموا قد أخذوا الضلالة بدلاً من الهدى ، والعذاب بدلاً من المغفرة ، فالمدانة أن يأخذوا العذاب الأليم .

وبعد ذلك يقول الحق : « فما أصبرهم على النار » هذا تبشيع للعقاب حتى يُنفّر منه الناس . ويريد منا الله أن نتصعب ، كيف يجوز للصلال أن يترك الهدى ويأخذ الضلال ، وبعد ذلك تكون النتيجة أن يأخذ العذاب ويترك المغفرة . فما الذي يعطيه الأمل في أن يصبر على النار ؟ ، هل عنده صبر إلى هذا الحد يجعله يقبل على الدنيب الذي يدفعه إلى النار ؟ وما الذي جعله يصبر على هذا المذاب ؟ أعدته قوة نصبره على النار ؟ وما هذه القوة ؟ .

وكان الحق يقول أنت غير مدرك لما ينتظر من الخزاء وإلا ما الذي يصبرك على هذه النار ؟ ربك تنهاني في طغيانك وضلالك ، وتسمى أن البدر سيكون من نصيبك ، فإذا كنت متيقناً أن النار من نصيبك ، فكيف أخذت أماناً من صبرك على النار . قلندر أمر لا يصبر عليه إنسان أبداً .



ويقول الحق بعد ذلك -

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ  
اٰخْتَلَفُوْا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيْدٍ ﴾

وذلك إشارة إلى ما تقدم ، وما تقدم هو الضلالة التي أحطوها وتركوا الهدى ،  
والعذاب الذي أحضروه بدلاً من المغفرة ، ونار يمدنون فيها ، وقد صرخوا عليها ، إنها  
ثلاثة أشياء ملتحية ، العذاب ، والضلالة ، والنار

فالضلال هو السبب الأصل في العذاب ، وإذا قال الله : عاقبتهم بكذا لأنهم  
صلوا ، فذلك صحيح ، وإذا قال فعلت فيهم ذلك لأنهم استحقوا العذاب ، فهو  
صالح ، والعذاب كحكم عام يكون بالنار .

إذن ، عندما يقول الحق ، النار أو بالعذاب أو بالضلال فمرجعها جميع واحد ،  
يقال عنه . « ذلك » . « ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق » والذي يغير الكتاب  
ويكتمه إنما يكره الحق « وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد » . إنها  
هوة واسعة يسقطون فيها ، فالشقاق في القيم المسيحية السبئية هو هوة كبيرة ، ولو  
كان الخلاف في أمور مادية لأمكن للبشر أن يتحملوها فيما بينهم ، ولكانت مسألة  
سهلة . ولكن الخلاف في أمر قيمي لا يقدر الشر على أن يصلحوه فيما بينهم ، من  
هنا فإن شقة الخلاف واسعة ، ولا يقوى على حلها إلا الله ، ولذلك قال سبحانه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ  
 الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ  
 وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ  
 وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ  
 الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا  
 وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالْقَسَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ  
 صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

وعندما جاء الأمر من الحق سبحانه وتعالى بتحويل القبلة إلى الكعبة واتجاه المسلمين في صلواتهم إليها بعد أن كانوا يصلون ووجههم إلى بيت المقدس ، عند ذلك حدثت بلبلة ، وصار لكل أتباع ملة قبلة خاصة فالمسلمون يتجهون إلى الكعبة ، واليهود يتجهون إلى بيت المقدس ، والنصارى يتجهون إلى المشرق .

وهذه الآية تؤكد أن الخلاف ليس في مسألة اتجاه الصلاة ، وقبل تحويل القبلة كان كل من يصل يتجه إلى مَنجته ، وتغيير لمُتجه ليس فيه مشقة .

والحق سبحانه وتعالى يقول لهم . لا تجعلوا أمر الاتجاه إلى الكعبة هو كل البر ؛ لأن هذا الأمر لا مشقة فيه ؛ فلا مشقة في توجه المسلمين إلى الكعبة بعد أن كانوا متوجهين إلى بيت المقدس ، إنما المسألة هي امتثال لأمر الأمر ، فالبر إذن ليس في

الأمور السهلة التي لا مشقة فيها ، وإنما في الخير الواسع الكثير ، ويشمل الإيمان ، ويشمل التقوى ، ويشمل الصدق ، ويشمل الطاعة ، ويشمل لإحسان ، وكل وجه الخير تدخل في كلمة « البر » . فالبر معناه كبير واسع ، وما دام معناه متسعاً هكذا فكل ناحية من محتاج إلى مشقة .

وانظروا إلى المطلوب البر ، ومتعلقات البر التي تتطلب منكم المشقة ، ولا تختلفوا في المسألة السهلة السيرة التي لا يوجد فيها أدنى تعب مثل مسألة تغيير الجملة القليلة ، فإن كنتم تعتقدون أن ذلك هو البر يقول لكم : لا ، البر له مسؤوليات تختلف ، إن متعلق البر هو أن يُختبر صدق الإيمان ، ويظهر الإثبات لمطلوب الله على الراحة ، ويتطلب من المؤمن أن يقل على الطاعة وإن شقت عليه ، ويتطلب أن يمتنع المسلم عن المعاصي ، وأن يعرف أن للمعاصي لذه عاجلة ، لكن عقابها كبير ، كل ذلك هو من مطلوبات البر والإيمان ، فلا تجعلوا مسألة التوجه إلى الكعبة أو إلى بيت المقدس ، أو إلى المشرق هو المشكلة ، لأن وجهكم ستولى إلى جهة ما وإن لم تؤمنوا . والبر كما نعلم هو الخير الواسع الذي يشمل كل وجه أجمال في الكون . يقول الحق : « ولكن البر من آمن » .

ولماذا جعل الله الحديث عن البر حديثاً عن ذات مجسدة ، برغم أن البر معنى ؟ . إن الحق مجسد المعنى وهو لبر في ذات العبد الذي آمن لأنه سبحانه حينما يريد أن يؤكد معنى من المعاني يجعل الذات مجسدة فيه . وعلى سبيل المثال - وفيه المثل الأعلى - عندما نقول : « فلان عادل » ، أي نحن نصفه بما يحقق للمسمع أنه رجل يعرف العدل . ولكن عندما نقول : « فلان عدل » فكانه هو العدل ذاته ، وكذلك عندما نقول : « فلان صادق » فمعنى ذلك أنه صاحب ذات اتصفت بالصدق ، ومن الممكن للذات أن تنفصل عن الصديق يوماً ، ولكن حين نقول : « فلان صدق » فمعنى ذلك أن الصدق قد امتزج به فلا يحل عنه أبداً ، أو أن الحق يريد أن يقول لنا : لكن صاحب البر هو من آمن بالله ، أو يقول : « ولكن البر هو بر من آمن بالله » ، أو أن الإخبار بالذات « من آمن » عن الصفة « البر » دليل على امتزاج الذات في الصفة امتزاجاً لا تتحل عنه أبداً فكان البر قد تجسد فيهم

وكل هذه الأقوال يتسع لها النص انقرآني الكريم .

والحق يقول « ولكن البر من أمر بالله » هذه بداية الإيمان ، ويأتى بعد ذلك نهاية الإيمان وهو ضرورة الإيمان به اليوم الآخر ، إن بداية القوس هي الإيمان بالله وطرفه الأخير الإيمان باليوم الآخر .

وهو يتساءل . وكيف يأتى الإيمان باليوم الآخر ؟

يقول . يأتى الإيمان باليوم الآخر بأن تؤمن بالله ثم تؤمن بما يحرك به الله ، فلا تقل . أن جعلتها في صنف واحد ، بل الإيمان بالله أولاً ، وبعد ذلك الإيمان بما أخبر به الله ، وقد أخبر سبحانه أن هناك يوماً آخر ، صدقت ما أخبر به وتأتى مسألة الإيمان بالملائكة فيقول الحق : « والملائكة » فكيف تؤمن بحق من خلق الله لا نراه ؟

إننا مادامنا قد آمنا بالقمة ، وهي الإيمان بالله ، والله أخبرنا بأن هناك ملائكة ، وحتى لو كان وجود الملائكة عيباً فنحن نؤمن بها ؛ لأن الذى أخبر به هو الله ، وكذلك تؤمن بالحق رغم أننا لا نراه ، وكل ما يتعلق بالعبيات هو إخبار من أمت به ؛ لذلك تؤمن بها .

والمسائل الإيمانية كلها عيبية ، ولا نقول في الأمر الحسى . « إني أمت به » ، وإما نقول « أمت » في الأمر العيبي ، لأنه أمر عيبى لا تأتى به الحواس والإدراكات ، وتريد أن تجعله عقيدة ، والعقيدة هي أمر يمتد فلا ينحل أبداً ، ولأنه أمر عيبى مرء يتصل به ؛ لأنه لو كان أمراً مشهوداً لما غفل عنه الإنسان أبداً ؛ لأن مشهدياته ستجعلك تتذكره ، إنما هو أمر عيبى ، ويسمى عقيدة ، أى أمراً معقوداً لا يحس أبداً

والقمة العقيدية هي أن تؤمن بالله ، ثم تؤمن بما يحرك به الله من عبيات لا دليل لك عليها إلا أن الله قال بها ، فإن رأيت في متعلقات الإيمان أمراً عيباً فاعلم أن

الحياة في الإيمان منفكة ، لأنه سيأتي ذكر الملائكة واليوم الآخر وكلاهما غيب ، وبعد ذلك سيذكر الكتاب والنبين ، وهما محسوسان

صحيح أن الكتاب أمر محسوس والنبين كذلك ، لكننا لم نحس أن الله أنزل الكتاب ، وأن الله بعث النبيين . ونحن لم نكن هل قيد الحياة وقت نزول الكتاب ولا وقت بعث النبي ، وجاء إيماننا لأننا صدقنا أن الله أنزل وحيا على محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا الوحي نزل بالكتاب ، وأن الله اختار محمدا صلى الله عليه وسلم ليكون مبلغا لهذا الوحي ، وكل هذه أمور غيبية لم نرها

والنبيات هي أرضية الحركة الإيمانية ؛ لو أساس الإيمان .

وبعد ذلك تنتقل الآية من الحديث عن الأمر العقدي ، لتبين لنا أن الغير مكون من أمور عقدية هي أساس لأمر حركية ، والأمور الحركية هي المفضودة من كل تدين . فالحق سبحانه لا يعبه أن يؤمن به أحد ، ولا يعبه أن تؤمن بملائكته ، وكنه ورسله ، لكن الأمر الذي يريده الله هو أن ننظم حركة الحياة في الأرض بمنهج الله ، ولذلك ينتقل الحديث إلى الأمر المادي فيقول : « آتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ » كأن الإنسان قد ملك المال وبعد ذلك « آتَاهُ » . وعندما تقول : « آتَيْتُ » فهي تعني أعطيت ، وهي تختلف عن « آتَيْتُ » التي تعني « جئت » .

وما هو المال ؟ إن المال هو كل ما يتمول إلا أننا نصرفه إلى شيء يمكن أن يأتي بكل متمول وأمعيه بالنقد . وأصبحت له العلية ؛ لأننا مشترى بالعدد كل شيء ، لكن المعنى الأصلي للمال هو كل ما يتمول ، وكيف يحىء المال بك أوى أو لاي إنسان ؟ . أخرج أحد منا من بطى أمه وهو يملك شيئا ؟ . لا .

إن ما يملكه الإنسان يأتي إما من متحرك في الحياة قبلك إن كان والدك أو جدك ، وإما من حركتك أنت .

إنذا لا يقال : « آتَى الْمَالَ » إلا إذا ثبتت له حركة ذاتية يصير بها متمولا ، أو ورت

عن مفعول ، والمفعول هو الذي يتحرك في الحياة حركة قد تكون لنفسه ، وإن اتسعت حركته فستكون لأشياءه ، وإن اتسعت أكثر فستكون لأحفاده .

والحق يقول : « وآتى المال على سبه » وكلمة الحب مصدر ، والمصدر أحيانا يضاف إلى فاعله ، وأحيانا يضاف إلى المفعول الواقع عليه ، مثلا كلمة « ضرب » نحن نقول : ضرب زيد عمرًا ، وهكذا نجد صاوبا هو : « زيد » ومضروبا هو « عمر » . وإذا قيل : « أعجبنى ضربُ زيدٍ » . إن قلت : « لعمر » عرفنا الضارب والمضروب ، وإن سكنت عند قولك : « أعجبنى ضرب زيد » فهي تحمل معنيين ، الضرب الصادر من زيد ، أو الضرب الواقع على زيد . فمادة تأتي بالمصدر ويضاف إلى شيء فيصح أن يضاف إلى فاعله وأن يضاف إلى مفعوله .

« وآتى المال على سبه » يمكن أن نفهمها على أكثر من معنى . يمكننا أن نفهمها على أنه يعطى المال وهو يحب المال ، ويحتمل أن نفهمها على أنه يؤتى المال لأنه يحب أن يعطى مما يحب من المال عملا بقول الله تعالى : « لئن تئالوا البر حتى تنفقوا ما تنحبوا » . . . وهي تحتمل المعنيين . ويمكن أن تُضَعَّد المعنى فيصير « وآتى المال على حب الإتياء أى الإعطاء » أى يُحِبُّ الإعطاء وترتاج نفسه للإعطاء ، ومن الممكن تصعيدا تصعيدا آخر يشمل كل ما سبق فيصبح المعنى : « وآتى المال على حب الله الذى شرع له ذلك » وكل هذه المعاني محتملة

والحق يقول :

﴿ وَيُعْطِیْمُونَ أَلْعَمَامَ عَنْ حَبِّهِ مَسْكِينًا وَیَتِیْمًا وَأَمْسِرًا ۝٨ ﴾

( سورة الإنسان )

ويقول سبحانه أيضا :

﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۝٩ ﴾

( من الآية ٩٢ سورة آل عمران )

وتعطينا كل هذه الآيات وضوح الفرق بين المنكية ، وبين حب المملوك ، فمن الممكن أن تكون لديك أشياء كثيرة أنت مالكها ، ولكن ليس كل ما تملكه نجية ، فمعنا تؤمن المال فمن المحتمل أن تكون قد نزعته من ملكيتك وأنت لا نجية . وبذلك أخرجه من ملكيتك فقط ، وإما أن تكون مجا للشئ الذى تعطيه لغيرك ، وبذلك تكون قد أخرجه من ملكيتك ، ومن حيث له

وإما أن يكون المال الذى فى يدك مجرد أداة لك ولغيرك وليس له مكانة فى قلبك ، ولذلك يقول الشاعر :

لا أبالى تسوفير مالى لدهرى  
منقذ فيه فى رجاء وبأس  
إن يكن فى يمنى وليس بظلى  
فهو ملكى وليس بملك نفسى

إن قوله الحق : « أتى مال على حبه » تعطينا إما منزلة إخراجهم من الملك وإما منزلة إخراجهم من القلب الذى يحبه . ولذلك يعيب الحق على جماعة من الناس يريدون العمل على طاعة الله ، لكنهم لا ينفقون له إلا ما يكرهون ويقول الله فى حقهم « ويجعلون لله ما يكرهون » .

ولكن لمن يكون ذلك المال الذى ينطبق عليه القول : « وأن المال على حبه » ؟

إنه ، له ، قوى القربى ، ألا ترون إنسانا له حركة فى الحياة قد اتسعت لنفسه ، ثم يرى قرياءه الذين لا يقتلون على الحركة محتاجين ، كيف تكون حالة نفسه إذن ؟ . لابد أن تكون نفسية متعبة ، لأن المفروض فى الإنسان المؤمن أن يجعل كل الناس قريبا ، وتذكر فى هذا المقام قصة معاوية عندما كان أميراً للمسلمين ، ودخل عليه الحاجب وهو يقول يا أمير المؤمنين رجل بالباب يدعى أنه « أخوك » ، فقال معاوية : أبلغ بك الأمر ألا تعرف إخواني ؟ أدخله .

فما دخل الرجل قال له معاوية . اى اخوتى انت ؟  
قال : اخوك من آدم .  
فلذا قال معاوية : ؟ .  
قال : رحم مقطوعة ، والله لاكونن اول من وصلها . واكرمه

فهذا كان الانسان لا يستطيع ان يصل غرباء من الناس كافة ، الا يستطيع ان  
يصل خاصة اقربه ؟ . كيف يستطيع المؤمن - إذن - نعيم الحياة وهو يجد اقربه  
محتاجين ، حتى لو نظرا بعيدا عن الدين والانسانية ، الا تستحق المسألة ان يجود  
الإنسان بما عنده على أهله ؟ .

ولى دائرة الإيمان حين يجعل الله حركة الحياة في التكامل دوائر ، فهو سبحانه يريد  
أن يوزع خبر المجتمع على المجتمع ؛ لأنه سبحانه حينما أراد استبقاء النوع شرع لنا  
طهر الانتقاء بين الرجل والمرأة بعقد علي وشهود ، لماذا ؟ . لأن الثمرة من الروح  
على الأساء التي ستأتي بقطاع جديد من البشر في الكون ، وهذا القطع لابد أن يكون  
محسوبا على الرجل أسم الناس ، وإن لم يرع لرجل في أسائه حق الله بلمه الناس على  
ذلك لأنهم أبناءه

ولذلك عندما نرى شخصا يحصى زواجه ، كأن يتزوج زواجا عرف مثلا نقول له  
أنت تريد أن تأخذ بشرة منك ثم تذكرها ، فإني أبناء عبر محسوبي عليك . ولذلك  
فليس على ثقة من أن كل مشرد في الأرض نراه هو نتيجة لخطيئة إمام معلة ، وما  
لا يقدروا على إعلانها رجل لم يتحمل مسئولية علاقته بالمرأة ، ولا جعل رجل ولدا  
محسوبا له ، لا إذا تشككت في سبه إليه ، وهذا ما يجعله ينكر سبه

إذن فعملية الطهر التي أرادها الله سبحانه وتعالى في الانتقاءات بين الرجل  
والمرأة ، إنما أرادها سبحانه لأنه يشرع لبقاء أجيال جديدة ، يشأ منها مجتمع  
المستقبل ، وقيل أن يوجد هؤلاء الأبناء لابد أن يكون هم وصيد وأساس يتحملهم ،  
فجعل الله لنا الأولاد والأحماد ، ويوصى الله الأبناء على الوالدين قبل ذلك ، ثم



### تتسع الدائرة للقرباة القريبة

وہات واحدًا واصنع لہ ہمدہ الدائرة ، وہات آخر واصنع لہ لدائرة نسمہا ، وثالثًا واصنع لہ دائرہ ، واصنع إحصاء للقادرین وحدد ذواتہم العائلیہ ، ستجد کل إنسان فی الکوڈ یدخل فی دائرة من ہمدہ الدوائر ، فإن رأیت حوجاً ما علم أن مرکز الدائرة قد تحلی عن محیط الدائرة

واللہ سبحانہ وتعالی یقول . « وآتی المال علی حبہ ذوی القربی » ، تأمل - إذن - الحث علی البر لئلا أنزل ما جاء فیہ من إثناء ذوی القربی ، لأن لہم مكانة خاصة ، وعدم یؤتی کل ما قرباء ویحملہم علی فائض مالہ وفائض حركتہ قل یوجد محتاج ، وإذا وجد المحتاج فسبكون نورا یسیراً ، وتتسع لہ الزكاة الواجبة

أو كما قال بعض العلماء : المقصود بذوی القربی هم قری رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم ، یقولون فلك ، لأن فی القرآن آية تقول :

﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَیْہِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فی الْقُرْبَىٰ ﴾ (٢٣)

( سورة الشوری )

### ولما قری رسول اللہ ؟

لأنہم لیس لہم حق فی الزكاة ، حتی یرا السلخ عن اللہ من ای نفع یعود علیہ ، أو یعود علی آلہ ، لذلک منع اللہ عنہم ای حق فی الزكاة . وكان اللہ یرید أن یقول لنا ، لا یصح أن نعملوا الناس الذین رفعہم اللہ وكرمہم عن أخذ الزكاة التي یأخذہا ای فقیر مكم یمتحنین من أخذ کل شیء ، فلا بد أن تتحفوہم اقرب لکم بحيث لا تجعلوہم محتاجین .

وعلی فرض أن الآية ترید قرباناً یقول : « النبی أولى بالمؤمنین من انفسہم » ، فقرباء وآلہ أولى من قرباننا وأهلنا

وبعد ذلك جاء الله بقوله : « واليتامى » ، ونعرف أن اليتيم هو من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال . واليتيم في الإنسان غير اليتيم في الحيوان ؛ فاليتيم في الحيوان هو من فقد أمه ، ولكن اليتيم في الإنسان هو من فقد أباه . واليتيم لا يكون له وصي إلا إذا كان عنده شيء من مال ، عندئذ يكون هناك وصي لإدارة أمور اليتيم . ولذلك جاء الحق بالأمر بإعطاء المال على حبه لليتامى ، ولم يقل : « لذوى اليتامى » . وربما كان هناك يتيم صانع لا يتقدم أحد للوصاية عليه ، وليس عنده ما يستحق الوصاية ؛ لذلك فعلياً أن يؤق اليتيم من مال الله حتى يدخل في صفات البر ، أو يعطى للوصى على اليتيم لينفق عليه إن كان له وصي .

وكذلك يؤق المال للمساكين ، والمساكين مأخوذة من السكون ، وهو الإنسان الذي لا قدره به عن الحركة ، كان استخدامهم وقته في الحياة معاً من الحركة

واختلف الفقهاء حول من هو الفقير ، ومن هو السكين ، قل بعضهم : إن الفقير هو من لا يملك شيئاً ، والمساكين يملك ما لا يكفيه ، أى يملك شيئاً دون ما يحتاجه ، وقال البعض الآخر : إن الفقير هو الذي يملك ما هو دون حاجته ، والمساكين من لا يملك

وعلى كل حال فقد شاعت حكمة الله عز وجل أن يجعل للفقير نصيباً من البر وللمساكين أيضاً نصيباً كالآخر ، والخلاف بين العلماء لا يؤدي إلى مع أحدهما من المال ، لأن كلاً منهما - المسكين والفقير - يستحق من مال الله وعلى ذلك فالخلاف لا طائل من ورائه

وكذلك نرى المال لابن السبيل ، والسبيل هو الطريق ، وابن السبيل هو ابن الطريق ، وحادة ما ينسب للإنسان إلى مكانه أو إلى بلده ، فإذا قيل ابن السبيل ، فذلك يعني أنه ليس له مكان يأوي إليه إلا الطريق ، فهو رجل متقطع ، وقد يكون ابن سبيل ذا مال في مكانه ، إلا أن الطريق قطعه عن ماله ويأهده بين ما يملك ، أو يكون ذا مال ومرفق منه ماله ، فهو متقطع

ولماذا جعل الله نصيباً من البر لاس السبيل ؟ . لقد جعل الله نصيباً من المال لأبي السبيل حتى يفهم المؤمن أن تكافئه الإيمان متعب إلى بيته وجوده ، فحين يوجد في مكان ويستقل إلى مكان آخر يكون في بيته إيمانية متكافئة

ونؤتي المال أيضاً للسائلين أي الذين يضعون أنفسهم موضع السؤال ، أعط من يسألك ولو كان على فرس : لأنك لا تعرف لماذا يسأل ، إن بعضاً من الناس يرددون الشح فيقولون : إن كثيراً من السائلين هم قوم عثرافون للسؤال ، ويقول لهم : مدام قد سأل انتهت المسألة ، وعمدتنا في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

« أعطوا السائل وإن جاء على ظهر فرس »<sup>(١)</sup>

ومدام قد عرض نفسه للسؤال فاعطه ولا تردد

قد تظن أنه يحمل حقية مبتكة بالخيز ، أو يخفى المال بعيداً . وأقول قد يكون عنده حيز لكنه لا يكمي أولاده ، وقد يخفى المال الذي لا يكميه ، ولو نحس شيئاً من إعطائه ، فلأن تحطى في العطاء ، خير من أن نصيب في المنع .

ونؤتي المال أيضاً لمن هم « في الرقاب » وكلمة « رقية » تطلق في الأصل اللغوي على أصل العنق ، وليس على العنق نفسه . وتطلق كلمة الرقية على ابذات كلها ، أي الإنسان في حد ذاته ، لماذا ؟ لأن حياة الإنسان يمكن أن تملكها من الرقية ، تستطيع أن تمسك إنسان من رقبته وتتحكم فيه وتضعط عليه ضبعطاً تمنع تنمسه إلى أن يموت ، لذلك تطلق الرقية ويراد بها الشخص ذاته ، وفي ذلك يقول القرآن :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَةُ ۚ ۝ فَكَ رَقِي ۝ ﴾

( سورة البقرة )

أي هك الأسير ، إذن « في الرقاب » تعني فك أسر العبد ، ويمكن لصاحب الر أن

يشترى العبيد ويعتقهم ، أو يسهم في فك رقابهم لذلك لون من ألوان تصفية الرق ،  
وفي تصفية الرق هالك شيء اسمه التدبير ، وشيء اسمه المكاتب

هيب أن عبداً يخدمك وبعد ذلك ترى أنه أنخص في خدمتك ، فتمنح لإحلامه في  
خدمتك مدة طويلة قررت أن تذكره بعد موتك ، أي تعطيه حريته فيصبح حراً بعد  
موتك ، فكانت علقه عبوديته على مدى حياتك ، وبعد انتهاء حياتك يصبح مسيراً  
أي حراً ، ولا يدخل في تركتك ، ولا يورث

وقد تكاتبه على مال فتقول له يا عبد أنا أكتبك على مائة جيه ، وأطلق حركتك  
لتصرف أنت وتصرف في الحياة وتكسب وتأت لي بمائة جيه ، ثم أطلق صراحك ،  
وفي هذه الحالة فإن على أهل البر أن يعاونوا هذا المكاتب بزيادة مال الكتابة حتى يفتك  
رهته من الأسر

ومن البر أيضاً إقامة الصلاة ، كأن المعنى . « ولكن البر من أسر الله واليوم الآخر  
وأقام الصلاة ، ويعرف أن معنى إقامة الصلاة هي أداء الصلاة في أوقاتها على الوجه  
المطلوب شرهاً

ومن البر أن تؤتي الزكاة ، فكان كل ما سبق « وقى المال على جبه دوى القرى  
واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين في الرقاب » لا علاقة لها بالزكاة ، إن كل  
ذلك هو بر آخر غير المطلوب للزكاة ، لأن الزكاة لو كانت تدخل فيها سبق لما كان الله  
كررها في الآية .

هذه أوجه البر التي ذكرتها الآية من إيتاء دوى القرى واليتامى والمساكين وابن  
السبيل والسائلين وفي الرقاب وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكل ذلك لمن أراد أن  
يدخل في مقام الإحسان ، فمقام الإحسان كما نعرف هو أن تلم نفسك شيء لم  
يعرضه الله عليك ، إنما تحس أنت بفرح الله بك ورحمته منك فيقبله الله منك

ولذلك عندما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل في المال حق غير الزكاة ؟ ذكر هذه الآية

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا رُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَاتَى السَّبِيلَ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْمَالِ أُوْتِيَتْ الَّذِينَ سَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾

( من سورة البقرة )

إذن ، فذلك أوجه البر المطلوبة ، والزكاة أيضاً مطلوبة . ففي مصرف الزكاة لا يوجد ذو القربى ولا ليتامى صحيح أن في مصارف الزكاة إعطاء المسكين وابن سبيل لكن في البر هناك أشياء غير موجودة في الزكاة ، فكأنك إن أردت أن تفتح لنفسك باب البر مع الله ، فوسع دائرة الإنفاق ، وستجد أن البر قد أخذ حيزاً كبيراً من الإنفاق ، لأن المنفق مستخلف من الله ، فانه هو الذي استدعى الإنسان إلى الوجود ، وما دام هو المستدعى إلى الوجود فهو سبحانه مكلف بإطعامه ، وأنت إذا أنفقت على المحتاج الذي استدعاه الله للوجود ، فإنك تتوعد إلى الله بمساعدة المحتاجين من خلقه دون أن يلزمك به الله ، وبذلك يقول الله عز وجل .

﴿مَنْ قَدْ آتَى الْبَرَّ قَرْضُ اللَّهِ قَرْتٌ حَسَنًا قَرْضًا كَثِيرَةً﴾

( من الآية ٢٤٥ سورة البقرة )

إذا كان هو سبحانه الذي أعطى المال ، فكيف يقول : أقرضني ؟ . نعم ، لانه سبحانه لا يرجع فيما وهبه لك من نعمة المال ، إن المال الذي لك هو هبة من الله ، ولكن إن احتلجه أخ مسم ، فهو لا يقول لك : أعطه من عندك أو اقرضه من

عندك ، ، إنما يقول لك : « أقرضني يا ، لأن أنا الذي أوجدته في الكون ورزقه مطلوب مني ، فكأنك حين تعطيه تقرض الله ، وهذا معنى قوله « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً » . إنه سبحانه وتعالى يتحصل بالنعمة ثم يسألك أن تعرضه هو .

ولنضرب على ذلك مثلاً من أمر الدنيا - وسبحانه وتعالى مزه عن كل مثل وله المثل الأعلى - هب أنك محتاج وفي ضائقة مالية ، وعندك أولاد ولهم مبالغ مدخرة مما كنت تعطيه من مال فتفقون لهم أقرضوني ما معكم من مال ؟ وسأرده لكم عندما نمر الضائقة . كأنك لم ترحع في هبك وما أعطيه لهم من مال ، إنما اقترضته منهم ، كذلك يفعل الله سبحانه وتعالى

وكذلك لنا عبرة وعظة من السيدة فاطمة رضي الله عنها عندما دخل عليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مرآها بمسكة بدينهم ، والدينهم يعنونه الصدا وأخذت تجلوه ، فسألتها أبوها : ما تصنعين يا فاطمة ؟ قالت : أحلو درهما قال لماذا ؟ قالت : لأن نريت أن اتصدق به ، قال : وما دمت تصدقين به فهذا تجليه ؟ قالت : لأن أعلم أنه يقع في يد الله قبل أن يقع في يد المحتاج

ومن البر أيضاً أن يعي الإنسان بالعهد ، فالحق يقول : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » وما معنى العهد ؟ إن هناك عهداً ، وهناك عقد . والعهد يوجد من طرفين تعامدا على كذا ، لكن قد يستطيع أحدهما العطف ولا يستطيع الآخر الرد . والعقد يوجد بين طرفين أيضاً ، أحدهما يعطي ويأخذ ، والآخر يعطي ويأخذ .

ومن البر أن تكون من « الصابرين في الساء والضراء » . ولنا أن نلاحظ أن خلق جاء بـ « الموفون بعهدهم » مرفوعة لأنها معطوفة على خبر لكن البر ، فلماذا جاء « بالصابرين » منصوبة ؟ فهذا يعني كسر الإعراب ؟ إن الأذن العربية اعتادت على النطق السليم الفصيح فإذا كان الكلام من بليغ نقول : لم يكسر الإعراب هنا ، لا لينبهني إلى أن شيئاً يجب أن يفهم ، لأن الذي يتكلم بليغ ومادام بليغاً وقال قبلها .

« والموفون » ثم قال « والصابرين » فلابد أن يكون هناك سبب ، ما هو السبب ؟

إن كل ما سبق عطية الوصول إليه هو الصبر ، إيتاء المال على حبه دورى القرب  
و . و . ولذلك أريد الله أن يسهل إن مريه الصبر فكسر عنده لإعرا ب ، وكسر  
الإعرا ب يقتضى أن تلقى له بعمل يناسبه فجاء قوله تعالى : « والصابرين » وكأن  
معناها : وأحص الصابرين ، وأمدح الصابرين .

إذن كسر لإعرا ب هنا غرضه تيسر الأذان إلى أن شيئا جديداً استحق أن يختلف  
عنده الإعرا ب . لأن لصبر هو عطية كل هذه الأعمال ، فالتقى يقدر في الصبر على  
نفسه بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة . وإيتاء المال على حبه هو الذى فاز وطفق ، إذن  
كل ذلك امتحان للصبر . ومن هنا خص الله « الصابرين » بإعرا ب بخلاف حتى نعمهم  
أنه منصوب على المدح ، أو عن الاحتصاص

ولماذا خص الله الصابرين بالمدح ؟

لأن التكليفات كلها تعطى مشعات عن النفس ، ولا يستطيع تحمل هذه المشعات  
إلا من يقدر على الصبر . ومادام قد قدر على الصبر فكل ذلك يهون . ومن هنا خص  
الله الصبر بهذه الميزة

والمهم أن الآية جاءت بالصابرين بعد « والموفون » حتى تكون النقة ملحوظة  
ومتينة ، بأن الإعرا ب فيها سبق « والصابرين » تقديرى معطوف أى هو معطوف على  
خير « ولكن البر من آمن بالله » . فجاءت « والموفون » مرفوعة بفهم أنها معطوفة  
على خير « ولكن » . ثم جاء ما بعدها « والصابرين » منصوبة ، حتى تلاحظ العرى  
بين النصين ، ولو جاءت مرفوعة مثل ما قبلها فرمما مرت علينا ولم نلاحظها .  
« والصابرين في البأساء والضراء » البأساء هو البؤس والفقر ، وهذا في الأحوال ،  
يقول - فلان حاله بائس « والضراء » هى الأم والوجع والمرض ، وهى تصيب  
البدن والجسد « وحين البأس » أى حين الحرب عندما يلتقى المقاتل بالعدو ويصبر  
ويصعد ليقابل .

إذن صفة الصبر تناولت ثلاثة أمور . في البأساء ، أي في الفقر ، وفي المرض ، وفي الحرب مع العدو ، صابر في كل هذه الأمور .

وبذلك جاء في الحديث الشريف .

« ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يُشاكها »<sup>(١)</sup>

ويقول الحق عن الذين دخلوا إلى رحاب البر : « أولئك الذين صدقوا » فمن آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وآتى السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا » .

ماذا تعنى صدقوا ؟ الصدق هو مطابقة اسببة الكلامية للواقع العلى . وأولئك صدقوا فى إعلان إيمانهم ، وواقع حركتهم فى الحياة ، وصدق قولهم « لا إله إلا الله محمد رسول الله »

إذن فصلق إيمانك منوقف على أن تكون حركة حياتك مناسبة لمقتضيات إيمانك . فإن آمنت وأسلمت وجاءت حركة حياتك مناقضة لإعلان إسلامك ، بقول . آمنت غير صادق ، ولكن إذا وجدت صفات الإيمان فى إنسان نقول له . لقد صدقت فى إيمانك ، لأن حركة حياتك انسجمت مع واقعك الإيماني . وما أكثر الناس الذين يقولون ولا يفعلون ، وهم مسوون إلى الإسلام بالكلام

وما نتيجة صدق المؤمنين ؟ يحينا الحق برصعهم « أولئك هم المتقون » وساعة تسمع كلمة « متقون » أو « اتقوا » فذلك يعنى أنهم جعلوا وقاية بيهم وبين شيء . ولا يطلب منك أن تجعل وقاية بينك وبين شيء إلا إن كنت لا تتحمل هذا الشيء



ومثل ذلك قوله تعالى .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَرَأُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

أى اجعلوا بينكم وبين النار حاجزاً وقلنا إن من العجب أن كلمة « اتقوا » تأتي إلى الشيء الذي هو « اتقوا النار » وتأتي إلى « اتقوا الله » ، كيف يكون التقوى في متناقضين ؟

نعم . لأن معنى اتقوا النار ، أى اجعلوا بينكم وبينها وقية ، وهل النار فاعلة بذاتها أم يتسلط الله لها على العاصي ؟ إنها فاعلة بتسليط الله لها على العاصي . إن اتقوا الله معناها اتقوا متعلق صفات الجلال من الله . لأن له صفات جمال وصفات جلال ، فاجعلوا بينكم وبين صفات الجلال من الله وقاية ، لأنكم لا تتحملون غضب الله ، ولا قهر الله ، ولا بطش الله ، فاجعلوا بينكم وبين صفات جلاله وقاية ، ومن آثار صفات جلاله النار فالسالة متساوية ولا تناقض فيها .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ

عَلَيْكُمْ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ وَالْحَرْبِ وَالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى

يَا لَأَنْتَى فَمَنْ عَفَى لِمَنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَإِيسَاءٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ

إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى

بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٤٨﴾

وساعة ينادي الله « يا أيها الذين آمنوا » فهذا الداء هو حبشية الحكم الذي سيأتي ، ومعنى هذا القول . أن لم أكلمكم اقتحاما على إرادتكم ؛ أو على اختياركم ، وإنما كلمتكم لأنكم دخلتم إلى من باب الإيمان في ، وما دمت قد آمنتم في فاسمعوا مني التكليف .

قاله لم يكلف من لم يؤمن به ، وما دام الله لا يكلف إلا من آمن به فلماذا يكلف به جعلك شريكا في العقد ، فإن كتب عليك شيئا فأنت شريك في الكتابة ، لأنك لو لم تؤمن لما كتب ، فكأن الصيغة انعقدت ، وما دامت الصيغة قد انعقدت فأنت شريك في التكليف ، ولذلك يقول الله : « كتب » بضم الكاف . ولم يقل « كتب » بفتح الكاف . ونلاحظ الفرق جليا في الأشياء التي للإنسان دخل فيها ، فهو سبحانه يقول .

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعِيبَنَّ آدَامَ وَنُوحًا ﴾

( من الآية ٢٦ سورة المجادلة )

إنه سبحانه ما الذي كتب ، لأنه لا شريك له . عندما نقرا « كتب عليكم » فافهم أن فيها إلزاما ومشقة ، وهي على عكس « كتب لكم » مثل قوله تعالى

﴿ قُلْ إِنِّي صَبَّأْتُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لِيَ ﴾

( من الآية ٥١ سورة التوبة )

إن « كتب لنا » تشعرنا أن شيء لمصلحتنا . وفي ظاهر الأمر يبدو أن الفصاح مكتوب عليك ، وساعة يكتب عليك الفصاح وأنت قاتل فيكون ولي المقتول مكتوبا له الفصاح ، إذن كل « عليك » مغايبها « لك » ، وأنت عرصة أن تكون قاتلا أو مقتولا . فإن كنت مقتولا فالله كتب لك . وإن كنت قاتلا فقد كتب الله عليك لأن الذي « لي » لا بد أن يكون « على » عبرى ، والذي « على » لا بد أن يكون « لعبرى » . فالشريع لا يُشرع لعرد واحد وإنما يشرع للناس أجمعين .

عندما يقول . « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ » ، ثم يقول في الآية التي بعدها . « وَلَكُمْ فِي الْقِتَالِ حَيَاةٌ » ، فهو سبحانه قد جاء بـ « لَكُمْ » ، و « عَلَيْكُمْ » ، « عَلَيْكُمْ » للقتال ، و « لَكُمْ » لولي المقتول فالشرع عدل لأنه لم يأت لأحد على حساب أحد ، والعقود دائماً تراعى مصلحة الطرفين . « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ فِي الْقَتْلِ حُرّاً بِالْحُرِّ » .

من هو الحر ؟ الحر ضد العبد وهو غير مملوك الرقبة ، والحر من كل شيء هو أكرم ما فيه ، ويقال . حر بلال يعني أكرم ما في المال . و « الحر » في الإنسان هو من لا يحكم رقبته أحد . و « الحر » من البقر هو ما يؤكل غير ناضج ، أي غير مطبوخ على النار . كالمستق واللوز .

والحق سبحانه يقول : « الحر بالحر » ، وظاهر النص أن الحر لا يُقتل بالعبد . لأنه سبحانه يقول . « الحر بالحر وللعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » ، لكن ماذا يحدث لو أن عبداً قتل حرّاً ، أو قتلت امرأة رجلاً ، هل تقتلها أم لا ؟

إن الحق يضع لمسألة الثأر الضوابط ، وهو سبحانه لم يُشرع أن الحر لا يُقتل إلا بالحر ، وإنما مقصد الآية أن الحر يُقتل إن قتل حرّاً ، والعبد يُقتل إن قتل عبداً ، والأنثى مقابل الأنثى ، هــ هو إتمام المعادلة ، فجزاء انقِتل من جنس ما قتل ، لا أن يتعداه القتل إلى من هو أفضل منه . إن الحق سبحانه وتعالى يواجه بذلك التشريع في القصاص قصبه كانت قائمة بين القبائل ، حيث كان هناك قتل للانتقام والثأر .

ففي الزمن الجاهل كانت إذا شنت معركة بين قبيلتين ، فمن الطبيعي أن يوجد قتل وضحايا لهذا الانسفال ، فإذا قُتل عبد من قبيلة أصرّت القبيلة التي تملك هذا العبد أن تُصعد الثأر فتأخذ به حرّاً ، وكذلك إذا قُتل في تلك الحرب أنثى ، فإن قبيلتها تُصعد الثأر فتأخذ بها ذكراً .

والحق سبحانه وتعالى أراد أن يحسم قضية الثأر حسماً تدريجياً ، لذلك جاء بهذا

الامر بالحر بالحر والعبد بالعبد والانسى بالانسى . . إذن ، فالحق هنا يواجه قضية تصعيدية في الأخذ بالثأر ، ويضع متهجاً يحسم هذه المغالاة في الثأر

وفي صعيد مصر ، مازلتنا نعانى الغفلة في تطبيق شريعة الله ، فحين يقتل رجل من قوم فهم لا يثأرون من العاقل ، وإنما يذهبون إلى أكثر رأس في عائلة القاتل ليقتلوه ، فالذين يأخذون الثأر يريدون النكاية الأشد ، وقد يجعلون مائة المقتول عشرة من العائلة الأخرى ، وقد يمثلون بجثثهم ليتشفوا ، وكل ذلك غير ملائم للقصاص وفي أمام الحاخامية كانوا يغالون في الثأر ، والحق سبحانه وتعالى يبلغ البشرية جمعا بأن هذه المغالاة في الثأر تجعل نيران العداوة لا تخدم أبداً ، لذلك ، فالحق يرد أمر الثأر إلى هذه الأدنى ، فإذا قتلت قبيلة عبداً فلا يصح أن تُصعد القبيلة الأخرى الامر فناخذ بالعبد حراً

إذن ، فالحق يشرح أمراً يخمس تلك الحروب الجماعية القديمة ، وما كان يحدث فيها من قتل جماعي ، وما ينتج عنها بعد ذلك من مغالاة في الثأر ، وهذا هو التشريع التدريجي ، وقضى سبحانه أن يرد أمر الثأر إلى الحد الأدنى منه ، فإذا قتلت قبيلة عبداً فلا يصح أن تُصعد القبيلة الأخرى لثأر بأن تقتل حراً . والحق يشرح بعد ذلك أن القاتل في الأحوال العادية يتم القصاص منه بالقتل له أو بالدية . فقد جاءت آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿رَكِبْنَا عَلَيْهِمْ فَأَيُّ الْفُسْ وَالْعَيْنِ بِالْعَمَى وَالْأَنْفِ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنِ بِالْأُذُنِ وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحُ فِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١٥)﴾

(سورة المائدة)

وهكذا يصبح القصاص في قتل النفس يتم بنفس أخرى ، فلا تفرقة بين العبد أو الحر أو الانسى ، بل مطلق نفس بمطلق نفس . وما هو ذا الحق سبحانه وتعالى يواجه

بمقتضى تشريع القصاص قضية يريد أن يميت فيها لدد الثار وحقن الحقد . فساعة  
تسمع كلمة قصاص وقتل ، فمضى ذلك أن النفس مشحونة بالبعضاء والكراهية ،  
ويريد أن يصفى الضغن والحقد الثارى من نفوس المؤمنين . إن الحق جل وعلا  
يعطى لولى الدم الحق أن يقتل أو أن يعفو ، وحين يعطى الله لولى الدم الحق فى  
أن يقتل ، فإن أمر حياة القاتل يصبح بيد ولى الدم ، فإن عفا ولى الدم لا يكون  
العفو بتقوى ، وإنما بساحة نفس ، وهكذا يمتص الحق الغضب والغيط .

وبعد ذلك يرقق الله قلب ولى الدم فيقول : « فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع  
بالمعروف وأداء إليه بإحسان ،

وإذا بأملنا قوله . « فمن عفى له من أخيه » فلنلاحظ النقل من عليان الدم إلى  
العفو . ثم المسألة فى التحنن ، كأنه يقول : لا تنس الأخوة الإيمانية « فمن عفى له  
من أخيه شيء فاتباع بالمعروف » .

وساعة يقول الحق كلمة « أح » فانظر هل هذا الأح اشرك فى الأب ؟ مثل قوله  
تعالى : « وجاء إخوة يوسف » . ثم يرتقى بالسبب الإيماني إلى مرسة الأخوة  
الإيمانية ، « ففؤ : « غا المؤمنون إخوة » ، يعنى إياكم أن تجمعوا التقاء السبب المادى  
دون لتقائكم فى القيم العقائدية .

والأصل فى الأح أن يشترك فى الأب مثل « وجاء إخوة يوسف » ، فإن كانوا  
إخوة من غير الأب يسمهم إخواناً ، فإن ارتقوا فى الإيمان يسمهم إخوة . وعندما  
وصفهم بأنهم إخوان قال : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين  
قلوبكم فأصبحتم بنعمة إخوانا » . لقد كانت بينهم حروب وبعضاء وشقاق ، لم  
يصفهم بأنهم إخوة ، لأنهم لارالوا فى الشقاء ، فوصفهم بأنهم إخوان ، وبعد أن  
يختصر الإيمان فى نفوسهم يصبحون إخوة .

ولننظر فى غزوة بدر ، هاهو ذا مصعب بن عمير ، كان فقى قریش المدلل والمنعم  
الذى كانت تخرج منه رائحة العطر وملابسه من حرير ، كان ذلك قبل إسلامه ،

وتغير كل ذلك عندما دخل في الإسلام ، فقد أخرجته الإيمان من هذا النعيم إلى يؤس المؤمنين الأولين لدرجة أنه كان يلبس جلد حيوان ويراه رسول الله في هذا الصلح فيقول : « انظروا كيف فعل الإيمان بصاحبكم » .

وعندما جاهدت معركة بدر التقى مع أخيه « أبي عزيز » الذي ظل على دين قريش ، والتقى الإثنان في المعركة ، مصعب في معسكر المؤمنين ، وأبو عزيز في جيش المشركين . وأثناء المعركة رأى أحباء أبي عزيز أسيراً مع أبي اليسر وهو من الأعداء ؛ فالتفت مصعب إلى أبي اليسر ، وقال : يا أبا اليسر أشدد على أسيرك فإن أمه عنده مستعديه بمال كثير .

فالتفت إليه أبو عزيز وقال : يا أخي أهله وصاتك بأهلك ؟ قال مصعب لا لست أخي وإنما أخي هذا . وأشار إلى أبي اليسر . لقد انتهى نسب لدم وأصبح نسب الإيمان هو الأصل ، وأصبح مصعب أخاً لأبي اليسر في الإيمان ، وانقطعت صلته بشقيقه في النسب لأنه ظل مشركاً .

وقوله تعالى « فمن عفى له من أخيه شيء » كأنه يبحث ولي الدم على أن يعفو ولا يسي أخوة الإيمان . صحيح أنه ولي للمقتول ؛ لأنه من لحمه ونسبه ، ولكن الله أراد أن يجعل أخوة الإيمان فوق أخوة الدم . « فمن عفى له من أخيه شيء » عاتق بالمعروف » .

وقد أورد الحق الأخوة هنا لترقيق المشاعر ، ليسه أهل القاتل والمقتل معاً أن القتل لا يعنى أن الأخوة الإيمانية انتهت ، لا . إن على المؤمنين أن يضموا في اعتبارهم أن أخوة الإيمان قد تمتاز وربطتها . وحين يتذكر أولياء الدم أخوة الإيمان ، فإن العفو يصبح قريباً من نفوسهم . ولنا أن نلاحظ أن الحق يرفعنا إلى مراتب المتسامي ، فيذكرنا أن عفو واحد من أولياء الدم يفتحي أن تسود قصة العفو ، فلا يقتل القاتل

وبعد ذلك لننظر إلى دقة الحق في تصفية غضب القلوب حين يضع الدية مكان

القصاص بالقتل . إن الدية التي سيأخذها أولياء الدم من القتيل قد تكون مؤجلة .  
الآداء ، فقد يقدّر القتيل أو أهله على الآداء العاجل ، لذلك فعلى ائدى يتحمل الدية  
أن يؤديها ، وعلى أهل القتيل أن يتقبلوا ذلك بالمعروف ، وأن تؤدى الدية من أهل  
القاتل أو من القتيل نفسه بإحسان .

وقوله الحق : « عسى به من أحبه شيء » ، « شيء » تدل على أن أولياء المقتول إن  
عما واحد منهم فهو عمرو شيء واحد ، وليس له أن يقتصر بعد ذلك ، وتنتهى المسألة  
ويحق الدم ، ولم يرد الله أن يضع نصا بتحريم القصاص ، ولكن أراد أن يعطى ولى  
الدم الحق أن يقتل ، وحين يصبح به الحق في أن يقتل ، فقد أصبح المسألة في  
يده ، فإن عما ، تصبح حياة القتيل ثمرة من ثمرات إحسانه ، وإن عاش القتيل ،  
لا يترك هذا في نفس صاحب الدم بقاء ، بل إن القتيل سيحب إليه لأنه  
أحسن إليه ووجه حياته .

لكن لو ظل النصر على قصاص أهل القتيل من القتال فقط ولم يتمدد إلى العبر  
نظمت العقدة في القلب

والثارات الموجودة في المجتمعات المعاصرة بها أن لم تكن ولى دم من  
القتيل ، بدليل أنه إذا ما قدر قاتل عن نفسه وذهب إلى أهل القتيل وحل عليهم  
بيتهم ، وبالف في طلب العفو منهم ، وأخذ كفه معه وقال لهم : جئكم لتفتصروا  
مى ، وهذا كفى مى فاصنعوا بى ما شئتم ، لم يحدث قط أن أهل قتيل غدروا  
بقاتل ، بل المألوف والعناد أن يعفوا عنه ، لماذا ؟

لأنهم تمكنوا منه وأصبحت حياته بين أيديهم ، وفي العادة تنقلب العداوة إلى  
مودة . يظل القتيل مدبنا بحياته لئدى عمو عنه . والذين يعرفون ذلك من أماء  
القتيل يرون أن حياة أبيهم هبة وهبها لهم أولياء القتيل وأقرباؤه ، يرون أن عمو أهل  
القتيل هو الذى نجد حياة قريبهم ، وهكذا تسع الدائرة ، وتنقلب المسألة من عداوة  
إلى ود .

﴿ أَذْقِعَ يَأْتِي مِي أَحْسَرُ فَمَاذَا أَلْدِي يَيْكَ وَيَيْسَرُ عَدُوَّةُ كَانَهُ وَلِيَّ حَمِيمٍ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة نساء)

ولم يشرع الله القصاص لأصحت المسألة فوصى لكنه يشرعه ، ثم يُلطف  
لجعلن أمر إساءه القصاص فضلاً من ولي الدم ويحب لنا ويقول : « فس عُنِي له من  
أخيه يشوه فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان »

وهل من المفعول أن تكون الدية إحساناً ؟ لتتذكر أن القتائل هنا هو الله ، وكلامه  
قرآن ، والدقة في القرآن بلا حدود . بل الحق يتنه إلى أن أولياء الدم إذا ما قبلوا  
الدية ؛ فمعنى ذلك أن أهل القتل قد أسقطوا القصاص عن القتال ؛ وأنهم وهبوه  
حق الحياة ، لذلك فإن هذا الأمر يجب أن يُرد بشحية أو مكرومة أحسن عنه .

كان الحق لا يريد من أولياء الدم أن يرهقوا القتال أو أهله في الانتصاء ، كما يريد  
أن يؤدي القتال أو أهله الدية بأسلوب يرتفع إلى مرتبة العفو الذي ناله القتال . وفي  
ذلك الأمر تخفيف عما جاء بالتوراة ؛ ففي التوراة لم تكن هناك دية يقتدى القتال بها  
نفسه ، بل كان القصاص في التوراة بأسلوب واحد هو قتل إنسان مقابل إنسان  
آخر . وفي الإنجيل لا دية ولا قتل . لأن هناك مبدأ أراد أن يتسامى به أتباع عيسى  
عليه السلام على اليهود الذين اعمسوا في المادية . لقد جاء عيسى عليه السلام  
رسولاً إلى بني إسرائيل لعله يستل من قلوبهم المادية ، فجاء بمبدأ . « من صمعتك  
على حدك الأيمن فأدير له الأيسر »

ولكن لإسلام قد جاء دياً عاماً جامعاً شاملاً ، فيشير في النفس التامى ، ويضع  
الحقوق في نصائها ، فأتبقى القصاص ، وترك للفصل مجالاً . بذلك يقول الحق عن  
الدية : « ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فس اعتدي بعد ذلك فله عذاب أليم » .  
وماوجه لاعتداء بعد تقرير الدية والعفو ؟

كان بعض من أهل القتال إذا قُتل منهم واحد يشيعون أنهم عفووا وصفحوا وقبلوا



الدية حتى إذا حرج القاتل من محبه مطمئناً ، عندئذ يقتلوه . والحق بقول أن هذا الأمر هو اعتداء ، ومن يعتدي بعد أن يُسقط حق القتل ويأخذ الدية فله عذاب أليم . وحكم الله هنا في العذاب الأليم ، بفهمه على أن المعتدي يقتل من أعلى العمومه لا يقلل منه دية ويستحق القتل عقاباً ، ولا يرفع الله عنه عذاب الدية أو الآخرة .

إن الحق يرفع العذاب والعذاب عن القاتل إذا قبل الفصاص وبغذ فيه ، أو إذا عصى عنه إلى الدية وأدامها . ولكن الحق لا يعبل سوى استخدام العرص التي أعطاها الحق للمخلوق ليرتعموا في علاقاتهم . إن الحق لا يقلل أن يتسر أهل قتيل وراء العموم ، ليقيموا القاتل بعد أن أعلنوا لعمومه فذلك عبث بما أراد الحق منبها بين العباد

ولذلك يقول الحق

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَكْمَةٌ يَأُولَى الْأَنْفِ  
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

وهنا نلاحظ أن لسو العرف يأتي مرة فيقول « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم » . ويأتي هذا يقول لسو العرف « ولكم في القصاص » .

لتشريع الدقيق المحكم يأتي مواجبات وبحقوق ، فلا واحد بعينه هو ، ولا هو بعينه أحب ، وحتى يعرف سمر التشريع مطلوب من كل مؤمن أن ينظر إلى ما يجب عب من تكاليف ، ويعرفه بما به من حقوق ، ولنسوف يكشف المؤمن أنه في صوء صحيح لله قد بال مطلق العدالة .

إن المشرع هو الله ، وهو رب الناس جميعاً ، ولذلك فلا يوجد واحد من المؤمنين أولى بالله من المؤمنين الآخرين . إن التكليف الإيماني يمنح العلم ، ويميد الحق ، ويحيى ويصون للإنسان المال والعرض . ومن عادة الإنسان أن يجادل في حقوقه ويريد لها كاملة ، ويحاول أن يقلل من واجباته ، ولكن الإنسان المؤمن هو الذي يعطي الواجب تماماً فذاك حقوقه تامة ، لذلك يقول الحق :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٧٩)

( سورة البقرة )

إن القصاص مكتوب على القاتل والمقتول وولى الدم . فإذا علم القاتل أن الله قد قرر القصاص فإن هذا يعرض عليه أن يسلم نفسه ، وعلى أهله ألا يخسروا شيئاً عن أمين الناس . لأن القاتل عليه أن يتحمل مسئولية ما فعل ، وحين يجد القاتل نفسه مدموراً بمجتمع مؤمن يرفض القتل فإنه يرتدع ولا يقتل ، إذن ففي القصاص حياة ؛ لأن الذي يرغب في أن يقتل يمكنه أن يرتدع عندما يعرف أن هناك من سيقصص منه ، وأن هناك من لا يقلل الداراة عليه .

ونأتى بعد ذلك بلدين يتشدقون ويقولون : إن القصاص وحشية وهدار لأذية الإنسان ، ونسألهم : لماذا أخذتكم الغيرة لأن إنساناً بقصص من بحق وقد قتل غيره بالباطل ؟ ما الذي يحزنك عليه ؟

إن العقوبة حين شرعها الله لم يشرعها لتقع ، وإنما شرعها لمنع . ونحن حين نقصص من القاتل نحصى سائر أفراد المجتمع من أن يوجد بينهم قاتل لا يحترم حياة الآخرين ، وفي الوقت نفسه نحصى هذا القومصوى من نفسه ؛ لأنه سيفكر ألف مرة قبل أن يرتكب جريمة

إذن ، فالقصاص من القاتل عبرة لميره ، وحماية لسائر أفراد المجتمع وبذلك يقول الحق سبحانه : ١ ولكم في القصاص حياة ٢ . إن الحق يريد أن يحذرننا أن تأخذوا الأريحية الكاذبة ، والإنسانية الرضاء ، والعطف الأحمق . فنقول : تمنع القصاص .

كيف نعصب لمعاقبة قاتل بحق ، ولا نتحرك لمقتل بريء ؟ إن الحق حين شرع  
القصاص كأنه يقول : ياك نقتل أحداً لأنك ستقتل إن قتلته ، وفي ذلك عصمه  
لهوس الدس من القتل . إن في تشريع القصاص اسقاء لحياتكم ؛ لأنكم حين  
تعرفون أنكم عندما تقتلون بريئاً وستقتلون بعلتكم فسوف تمسعون عن قتل ،  
فكانكم حمتهم دماءكم . وذلك هو التشريع العالى العادل

وإن بقصاص حياة ، لأن كل واحد عليه القصاص ، وكل واحد له القصاص ،  
به لتشريع لدى يذهب أصحاب العقول وفي الآلات الدين يعرفون الجوهر المراد  
من الأشياء والأحكام ، أما غير ذوي الآلات فهم الذين يخلطون في الأمور دون أن يعرفوا  
جوهر منها ، فلولا القصاص لما رتدع أحد ، ولولا القصاص لفرقت البشرية في  
الوحشية . إن حكمة من يقين العقوبة ألا تقع الجريمة ويدلث يمكن أن تتوارى  
اجريمة مع العقوبة ويسوارن الحق مع الواجب .

بالمندبر لأمر الكون نجد أن الموازن في هذه تبدأ على سبيل المثال في انسيوت  
لخاصية يأتي من وجود هويتين عظميين كلناهما تحتى الأخرى وكتناهما مختلف مع  
الأخرى ، وفي هذا اختلاف حياة لعمهم من الشعوب ، لأنها لو اتفقت على الباطل  
لتهدمت أركان دولتيها ، وكان في ذلك دمار العالم ، واستعباد لبقية الشعوب

وإذا كان كل نظام من نظم انعالم يحمل بلاخر الحقد والكراهية والبعضاء ويريد  
أن يسيطر بظلمه لكنه بجنى قوة نظام الآخر ، هذا يجد في ذلك الخوف المتبادل  
حماية لحياة الآخرين ، وفرصة للمؤمنين أن يأخذوا بأسباب الرضى العلمى لينضموا  
للديار أسنوباً لأنها بحياة الإنسان على الأرض في ضوء مهب الله . وعندما حدثت  
اندثار لقوة من القوى هي الاتحاد السوفيتى ، فإن الولايات المتحدة بحثت الآن عن  
بعض لها ؛ لأنها تعلم أن أحياء دون يقص في مستوى قوتها ، قد يجري الصغار  
عليها

إن الخوف من العقوبة هو الذى يصنع التوازن بين مستكرات العالم ، والخوف  
من العقوبة هو الذى يصنع التوازن في الأفراد أيضاً

إن عدل الرحمن هو الذي فرض علينا أن نتعامل مع الجريمة بالعقاب عليها وأن  
يشاهد هذا العقاب آخرون ليرتدعوا

فها هو ذا الحق في جريمة الرى على سبيل المثال يؤكد ضرورة أن يشاهد العقاب  
طاعة من الناس ليرتدعوا إن التشديد مطلوب في التحرر لدفع في أمر حدوث  
الرى ، لأن عدم دقة التحرر يصيب الناس بالقلق ويسبب الرساك وشكا في  
الأسباب ، والتشديد جاء أيضاً في العقوبة في قول الحق

﴿الرَّايَةُ وَالرَّايُّ فَأَحْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا بِمَنْةٍ جَدِّدٍ وَلَا تُأْخِذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينٍ  
أَلَّهِ إِنَّكُمْ تَكُونُونَ بِلَهِّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَنْهَدُ عَنْهُمَا عَذَابَهُمْ عَذَابَةً مِّنْ أَعْمَارٍ مِّمَّنْ ۖ﴾

سورة النور

إن الذي يجزىء على حقوق الناس بغيره أيضاً على حقوق الله ، ولذلك  
مقتضى إثبات الإيمان هو إرضاء الله لا إرضاء الناس وفي ربه العقاب بالمعتدى  
خضوع لمسح الله ، وفي رؤية هذا العاص من قبل الآخرين هو شر لعبرة أن  
المعتدى بال عقاباً ، ولعلك شرع الحق عقاب والعلانية فيه ليستقر النور في  
النفس الشريفة

وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه ومعاني ليدلح قضية اجتماعية أخرى ، إن الحق بعد  
أن عالج قضية إرهاب الحياة ينقل به إلى قضية أخرى من أخص الحياة ، إنها قضية  
الموت الطبيعي . كأن الحق بعد أن أوضح لنا علاج قضية موت باحثة يريد أن  
يوضح لنا بعضاً من متعلقات الموت حتماً من غير سبب مرهق للروح إن الحق بعد  
في الآية القديمة بعضاً من الأمور المتصلة بالموت يحقق النور الاقتصادي في  
المجتمع كما حقق بالآية السابقة التوازن العقابي وجمالي في المجتمع بقوله الحق

## ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٨)

والحق كما أوضحت من قبل لا يقتحم على العباد أمورهم ولكنه يعرض عليهم أمر الإيمان به ، فإن أمروا بهذا الإيمان يقتضي المرافقة عن منهجه ، ولذلك فالمؤمن يشترك بحقيقته في الإيمان بما كتب الله عليه . إن المؤمن هو من ارتضى الله إلهاً ومشرعاً ، فحين يكتب الله على المؤمن أمراً ، فإذ من قد اشترك في كتابه هذا الأمر بمجرد إعلانه للإيمان . أما الكافر بالحق فلم يفتحهم الله عليه اختياره للكفر ، لذلك لم يكتب عليه الحق إلا أمراً واحداً هو العذاب في الآخرة .

فالله لا يكلف إلا من أمر به وأحبه وأمر بكل صفات الجلال والكمال فيه . ولذلك فالتكليف الإيماني شرف حصص به الله المحبين المؤمنين به ، ولو سلم الكفار إلى أن الله أهمهم لأهم لم يؤمنوا به لساوموا إلى الإيمان ، ولرأوا اعتزاز كل مؤمن بتكليف الله له . إن المؤمن يرى التكليف خضوعاً لمشيئة الله . والخصوع لمشيئة الله يعنى الحب . ومادام الحب قد قام بين العبد والرب فإن الحق يريد أن يديم هذا الحب ، لذلك كانت التكاليف هي مواصلة لمحب بين العبد والرب .

إن العبد يحب الرب بالإيمان ، والرب يحب العبد بالتكليف ، والتكليف مرتبة أعلى من إيمان العبد ، فإيمان العبد بالله لا يمنع الله ، ولكن تكاليف الله للعبد يتصاع بها العبد . إن المؤمن عليه أن يفتن إلى عزة التكليف من الله ، فليس التكليف دلاً يرله الحق بعباده المؤمنين ، إنما هو عزة يريد بها الله لعباده المؤمنين ، هكذا قول الحق : « كتب عليكم » إنها أمر مشترك بين العبد والرب . إن الكتابة هنا أمر مشترك بين الحق الذي أنزل التكليف وبين العبد الذي أمر بالتكليف .

والحق يورد هنا أمراً يخص الوصية فيقول سبحانه .

﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلرَّحِمَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ  
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (١١١)

( سورة البقرة )

وهنا نجد شرطين : الشرط الأول : يبدأ بـ « إذا » وهي للأمر المتحقق وهو حدوث المص ، والموت أمر حتمي بالنسبة لكل عبد ، لذلك جاء الحق بهذا الأمر بشرط هو « إذا » ، فهي أداة لشرط وطرف لحدث . والموت هو أمر محقق إلا أن أحداً لا يعرف ميعاده .

والشرط الثاني يبدأ بـ « إن » وهي أداة شرط نقولها في الأمر الذي يشمل الشك ، فقد يترك الإنسان بعد موت ثروة وقد لا يترك شيئاً ، ولذلك فإن الحق يأمر لعبد بالوصية حبراً له لماذا ؟ لأن الحق يريد أن يشرع للاستطراق الجبى ، فعند أن يوصى الحق عبده بأن يصربوا في الحياة صرباً يوسع رزقهم لينسج لهم ، ويمض عن حاجتهم ، فهذا القائن هو الخير ، والخير في هذا المجال يختلف من إنسان لآخر ومن زمن لآخر .

بعدما كان يترك العبد عشرة حبهات في الزمن القديم كان لهذا المبلغ قيمة ، أما عندما يترك عبد آخر ألف جنيه في هذه الأيام فقد تكون عسوية عند البعض بأنها قليل من الخير ، إذن ماخير يفتر في كل أمر برمانه ، ولذلك لم يربطه الله بوقم . إننا في مصر - مثلاً - كنا نصرف الجنيه الورقى بجنيه من الذهب ويمض منه قرشان ونصف قرش ، أما الآن فالجنيه الذهبى يساوى أكثر من مائتين وخمسين جنيهاً ؛ لأن رصيد الجنيه المصرى في الزمن القديم كان عالياً . أما الآن فالقند المتداول قد عاق الرصيد الذهبى ، لذلك صار الجنيه الذهبى أعلى بكثير جداً من الجنيه الورقى .

ولأن الإله الحق يريد بالناس الخير لم يحدد قدر الخير أو قيمته ، وعندما يحضر الموت الإنسان الذى عنده قائن من الخير لا بد أن يوصى من هذا الخير ولنا أن

نلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نبى عن انتظار لحظة الموت ليقول الإنسان وصيته ، أو ليبلغ أسرته بالديون التي عليه ، لأن الإنسان لحظة الموت قد لا يفكر في مثل هذه الأمور . ولذلك فعليا أن نعمهم أن الحق ينسحب إلى أن يكتب الإنسان ماله وما عليه في أثناء حياته . فيقول ويكتب وصيته التي تنفذ من بعد حياته يقول المؤمن : إذا حضرني الموت فلوالدى كذا وللأقربين كذا

لبي أن المؤمن مأمور بأن يكتب وصيته وهو صحيح ، ولا ينتظر وقت حدوث الموت ليقول هذه الوصية . والحق يوصى بالخير لمن ؟ للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على التقين . والحق يعلم عن عاده أنهم يلتفتون إلى أبنائهم وقد يحملون الوالدين ، لأن الناس تنظر إلى الآباء والأمهات كمودعين للحياة ، على الرغم من أن الوالدين هما سبب إجماد الأبناء في الحياة ، لذلك يوصى الحق عباده المؤمنين بأن يخصصوا نصيباً من الخير للآباء والأمهات وأيضاً للأقارب . وهو سبحانه يريد أن يحمي ضعيفي هما : الوالدان والأقرباء .

وقد جاء هذا الحكم قبل شريع الميراث ، فأساس قبل تشريع الميراث كانوا يعطون كل ما يملكون لأولادهم ، فأراد الله أن يخرجهم من إعطاء أولادهم كل شيء وحرمان الوالدين والأقربين . وقد حدد الله من بعد ذلك نصيب الوالدين في الميراث ، أما الأقربون فقد ترك الحق لعباده تقرير أمرهم في الوصية . وقد يكون الوالدين من الكفار ، لذلك لا يرثان من الابن ، ولكن الحق يقول :

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنَةً إِنَّهُمَا عَلَى وَجْهِ وَصْنٍ لِّكَ فَإِنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْ لَدَيْكَ إِلَىٰ أَن مَصِيرٌ ۝١١﴾ وَإِنْ حَسَدَكَ عَلَيْ أَن تَشْرِكَ بِي مَا تَسِيَ لَكَ بِهِ ، عِلْمٌ فَلَا تُطْمَئِنُّ وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۚ وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَن أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ۚ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٢﴾

إن الحق يذكر عباده بمفضله عليهم ، وأيضاً بفضل الوالدين ، ولكن إن كان الوالدان مشركين بالله فلا طاعة لهما في هذا الشرك ، ولكن هناك الأمر بمصاحبتها في الحياة بالمعروف واتباع طريق المؤمنين الحاملين للمنهج الحق . لذلك فالإنسان المؤمن يستطيع أن يوصي بشيء من الخير في وصيته للأبوين حتى ولو كانا من الكافرين ، ونحن نعرف أن حدود الوصية هي ثلث ما يملكه الإنسان والباقي للميراث الشرعي أما إذ كانا من المؤمنين فنحن نتبع الحديث لنبي الكريم : « لا وصية لوارث »<sup>(١)</sup> .

وفي الوصية يسجل إذن الأقرباء الضعفاء غير الوارثين ، هذا هو المقصود من الاستطرق الاجتماعي . والحق حين ينييه عباده إلى الوصية في أثناء الحياة بالأقربين الضعفاء ، يريد أن يدرك العباد أن عليهم مسئولية تجاه هؤلاء . ومن الخير أن يحملي الإنسان في الحياة ويضرب في الأرض ويسعى للورق الحلال ويترك وراثته أغنياء بدلاً من أن يكونوا حالة على أحد .

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : « جاء النبي صلى الله عليه وسلم يوحى ، وأنا بمكة ، قال : يرسم الله بن حفراء ، قلت : يا رسول الله أوصني بما لي كنه ؟ قال : لا . قلت : فالشطر ؟ قال : لا . قلت : الثلث ؟ قال : فالثلث ، والثلث كثير ، إنك إن تدع ورثتك لأغنياء خير من أن تدعهم عائلة يتكففون الناس »<sup>(٢)</sup> . وإذا ررق الله الإنسان بالعمل خيراً كثيراً فليترك أيها الإنسان أن تقصر هذا الخير عن من يرثك .

لماذا ؟ لأنك إن قصرت شيئاً على من يرثك فقد تصادف في حياتك من لا يرث وله شبهة القربى منك ، وهو في حاجة إلى من يساعده على أمر معاشه فإذا لم تساعده يحقد عليك وعلى كل نعمة وهبها الله لك ، ولكن حين يعلم هذا القريب أن النعمة التي وهبها الله لك قد ياله بها شيء ولو بالوصية وليس بالتقنين الإرثي هذا القريب يملأ لفرح بالنعمة التي وهبها الله لك .

(١) رواه البيهقي في سننه والديلمي في تاريخه

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد والسنائي



ولذلك قال الحق :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ  
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٨١)

( من سورة البقرة )

إن الحق يريد أن يلفت العباد إلى الأقرباء غير الوارثين بعد أن أدخل الآباء والأمهات في الميراث . إن الإنسان حين يكون قريباً لميت ترك خيراً ، وخص الميت هذا القريب ببعض من الخير في الوصية ، هذا القريب تمثل به بالخير معه فيتعلم ألا يحبس الخير عن الضعفاء ، وهكذا يستطرق الحب وتقوم وشائج المودة .

والحق يفترض - وهو الأعلّم بنفسه عباده - أن الموصي قد لا يكون على حق والوارث قد يكون على حق ، لذلك احتاط التشريع لهذه الحالة ؛ لأن الموصي له حين يأخذ حظه من الرصية سينقص من نصيب الوارث ، ولذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعصم الأطراف كلها ، إنه يحصى الذي وصى ، والموصى له ، والوارث ومن هنا يقول الحق

﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ  
عَلَى الَّذِينَ يَبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٨٢)

وبحق يعرف أنه في زمن نزول لقرآن كانت الرصية شائعة ، ولم تكن لكتابة منتشرة ، ولذلك أتى الحق بالجانب المشترك في الموصي والموصى له والوارث وهو جانب القول ؛ فقد كان القول هو الأداة الواضحة في ذلك الزمن القديم ، ولم تكن هناك وسائل معاصرة كالشهر العقارى لتوثيق الوصية ، لذلك كان تبديل وصية الميت

إنها هي الذي يُبدل فيها .

إن الموصي قد برئت ذمته ، أما ذمة الموصي له والوارث فهي التي تستحق أن تنتبه إلى أن الله يعلم حصدا الصلور وهو السميع العليم . ويريد الحق أن يصلح علاقه بين الوارث والموصي له ، لذلك يقول الحق :

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ  
بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

إن الحق يريد العدل للجميع فإذا كانت الوصية زائفة عن العدل وعن الصراط المستقيم وكان فيها حرمان للمفقر وزيادة في ثراء لعن أو ترك للأقربين ، فهذا ضياع للاستعراق الذي أراده الله ، وإذا جاء من يسعى في سبيل الخير ليرد الوصية للمصواب فلا إثم عليه في التعبير الذي يحدثه في الوصية ليدلها على الوجه الصحيح لها الذي يرضيه الله ؛ لأن الله غفور رحيم .

وقد يخاف الإنسان من صاحب الوصية أن يكون جنفاً ، والجنف يفسر بأنه الخيف والخور ، وقد يخلق الله الإنسان بجنف أي على هيئة يكون جانب منه أوطى من الجانب الآخر ، ونحن نعرف من علماء التشريع أن كل نصف في الإنسان يختلف عن النصف الآخر وقد يكون ذلك واضحاً في بعض الخلق ، وقد لا يكون واضحاً إلا للمسقق الفاحص .

والإنسان ند لا يكون له خيار في أن يكون أجنف ، ولكن الإثم يأتي باختيار الإنسان . أي أن يعلم الإنسان القنب ومع ذلك يرتكبه - إذن فمن خاف من موصٍ جنفاً أي جفياً وظلماً من غير تعمد فهذا أمر لا خيار للموصي فيه ، فإصلاح ذلك الخيف والظلم فيه غير للموصي . أما إذا كان صاحب الوصية قد تعمد أن يكون أثماً

فإصلاح ذلك الإثم أمر واجب . وهذه هي دقة التشريع القرآن الذي يشهد كل ملكات الإنسان لتلقى العدل الكامل

والحق عالج قضية التشريع للشر في أمر المصالح باستثماره كل ملكات الخير في الإنسان حين قال : « فمن عصى له من أحبه شيء فإنياع بالمعروف » . إنه ليس تشريعاً حافياً كتشريع البشر . إنه تشريع من الخالق الرحيم العليم بحبايا الشر . ويستثير الحق في لبشر كل بوارع الخير ، ويعالج كذلك قضية تبديل الوصية التي وصى بها الميت نفسه ، فمن خالف الوصية التي ألقبب عل عدانة فله عقاب .

أما الذي يتدخل لإصلاح أمر الوصية بما يحقق الحجة للميت من الحيف أي الحيف غير المقصود وبكده يسبب ألماً ، أو يصلح من أمر وصية فيها إثم فهذا أمر يريد الله ولا إثم فيه ويحقق الله به السعادة والرحمة . وهكذا يعلم الحق أن الذي يسمح أو يقرأ وصية فلا بد أن يقيسها على منطق الحق والعدل وتشريع الله ، فإن كان فيه ملاحظة فلا بد أن يراجع صلاحها . ول أن نلاحظ أن الحق قد عبر عن إحساس الإنسان بالخوف من وقوع الظلم بغير قصد أو بقصد حين قال : « فمن خاف من موصي جماً أو إثمياً فاصبح بينهم فلا إثم عليه إن الله عفوف رحيم »

إن كلمة « خاف » عندما تأتي في هذا الموضع تدل على الوحشة الإيمانية في نفوس المسلمين . إن المؤمن الذي يتصدى لإصلاح من هذا النوع قد يكون غير واثق ، ولا هو من الموصي هم ، ولا هو الموصى ، إنما هو مجرد شاهد ، وهذه الشهادة تجعله يسعى إلى التكامل الإيمان ، فكل نصيب من المؤمن إنما لمس كل المؤمنين ، فإن حدث حيف فهذا يشع الخوف في المؤمن لأن نتيجته قد تصيب غيره من المؤمنين ولو بغير قصد ، وهكذا يرى الوحشة الإيمانية . إن الإيمان يرحح المؤمنين بعضهم بعضاً حتى يصبروا كالحسد الواحد إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى

ولهذا فعندما يتدخل المؤمن الذي لا مصلحة مباشرة له في أمر الإرث أو الوصية ليصلح من هذا الأمر فإن الحق يشبهه بحير الحزاء

والحق سبحانه قال : « فمن خاف من موصى جنباً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله عفوور رحيم » ، وهذا القول يلفتنا إلى أن الإنسان إذا ما عزم على اتخاذ أمر في مسألة الوصية فعليه أن يستشير من حوله ، وأن يستقبل كل مشورة من أهل العلم والحكمة ، وذلك حتى لا تنشأ الصعائن بعد أن يبرم أمر الوصية إبراماً نهائياً أي بعد وفاته ، والحق قد وضع الاحتمالات اللازمة للإصلاح أمر الوصية إن جاءها ما يورث المشاكل ؛ لأن الحق يريد أن يتكاتف المؤمنون في وحدة إيمانية ، لذلك فلا بد من معالجة الانحراف بالوفاية منه وقبل أن يقع . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مثل القائم عن حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الدين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم يؤذ من فوقنا فإن لم يركبهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجواً جميعاً » (١) .

والحديث الشريف يضرب المثل على ضرورة السارر والنواصي بين المؤمنين حماية لهم . فهؤلاء قوم اقتسموا سفينة بالقرعة ، والاستهام هو قرعة لا هوى لها ، وسكن بعضهم أسفل السفينة حسب ما جاء من نتيجة الاستهام ، وسكن بعضهم أعلى السفينة . لكن لذين سكنوا أسفل السفينة أرادوا بعضاً من الماء ، واقترح بعضهم أن يخرقوا السفينة لمحصل على الماء ، وبرروا ذلك بأن مثل هذا الأمر لن يؤدي من يسكن في النصف الأعلى من السفينة ، ولرأسهم فعلوا ذلك ، ولم يمنهم الدين يسكنون في النصف الأعلى من السفينة لخرقوا جميعاً ، لكن لو تدخّل الدين يسكنون في النصف الأعلى من السفينة لخرقوا المرق ، وكذلك حدود الله ، فعل المؤمنين أن يتكاتفوا بالنواصي في تصديقها ، فلا يقول أحد : « إن ما يحدث من الآخرين لا شأن لي به » لأن أمر المسلمين بهم كل مسلم ، ولذلك جاءت آية قال فيها سيدنا أبو بكر رضي الله عنه : « هناك آية تقرأوها على غير وجهها » أي تفهمونها على غير معناها والآية هي قول الحق :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةَ الْأُنثِيِّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاسَةً رَاعِلُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ  
الْعِقَابِ ﴾ (٢٠)

(سورة النمل)

ويقول شيخنا «حسين مخلوف» مفتي الديار المصرية الأسبق في شرح هذه الآية «أى احذروا ابتلاء الله في حق قد تنزل بكم، نعم المنيء وعمرهم، كالبلاء والقحط والعلاء، وتسلب الحيازة وغير ذلك، والمراد تحذير من الدنوب التي هي أسباب الابتلاء، كقرار المكورات والبدع والرضا بها، والمداومة في الأمر بالمعروف، واختراق الكلمة في الحق، وبعطية الحدود، وفشو المصطفى، ونحو ذلك وفيما رواه البخاري عندما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ويل للعرب من شر نذ أقرب...» فقبل له: «أهلك وبب الصالحون؟» قال: «نعم إذا كثرت الخيبت» (١).

هذه فلا يعتقد مسلم أنه غير مسئول عن انفساد لدى يستشري في المجتمع، بل عليه أن يحذر وأن يسه. ولذلك نجد أن حكمة الحق قد فرضت عليه على العاقلة، أى على أهل القائل، لأهم قد يرون هذا القاتل وهو يجارس الفساد ابتداء، فم يردعه أحد منهم، لكنهم لو صربوا على يده من البداية لما جاءهم الحرم يدفع إليه، لذلك فعلمت نسمع قول الله عز وجل: «فمن حاد من موصل حنك» إياك أن تقول: لا شأن لي بهذا الأمر لا، إن الأمر بحصص وعليك أن تحاول الإصلاح بين الموصي له، وبين الورثة. وقوله الحق: «فلا إثم عليه» يعنى عدم إدخاله في دائره الدين يبدلون القول والتي تناولتها بالخواطر قبل هذه الآية، بل لث ثواب على تدخلك؟ فأت لم تبدل حق بباطل، بل تخرج باطلاً لتؤسس حقاً، وبدلت تطلب قلب الوارث على ما يقص منه، وتقيم ميراث العدل بالصيعة، وتسحق نفسه لقبيل الوصية بعد تعديلها في برصى شريعة الله. إن الله يريد إقامة ميراث العدل وأن يأكد الاستطراق الصمائي بين المؤمنين فلا تورث الوصية شروراً

ويقول الحق بعد ذلك

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُنتُمْ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا  
كُنتُمْ عَلَى آذَانِكُمْ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٢)

والحق سبحانه يبدأ هذه الآية التكرية بتزجيء الحكم الصادر بالتكليف القادم وهو الصيام فكأنه يقول « يا من آمنتم بي واحسمون لقد كنت عليكم الصيام » وعندما يأتي الحكم من امت به فأنت تثق به بحصك تكليف تأتي منه فائدة لك وأصرت هذا المثل - وقد مثل الأعلى - مع أنك تُحاطب ابنك في أمر فيه مشقة ، لكن نتائج مفيدة ، فأنت لا تقول له « يا بني افعل كذا » لكك تقول له « يا بني افعل كذا » وكأنك تقول له « يا صغيري لا تأخذ العمل الذي أكله لك به بما فيه من مشقة بمقاييس عقلك غير الناصح ، ولكن حد هذا التكليف بمقاييس عقل وتجربة والدك »

والمؤمنون يأخذون حصص الحق فهم بـ « يا أيها الذين آمنوا » بمقاييس المحبة لكل ما يأتي منه سبحانه من تكليف حتى وإن كان فيه مشقة ، والمؤمنون يقبلون للإيمان إنما يكونون مع الحق في التعاقد الإيمان ، وهو سبحانه لم يكتب الصيام على من لا يؤمن به ، لأنه لا يدخل في دائرة التعاقد الإيمان وسيلقى سعيراً والصيام هو كون من الإحسان ، لأن معنى « صام » هو « أمسك » والحق يقول

﴿فَمَا تَرَىٰ مِنَ الْبَشَرِ خَلْقًا قَصُوفًا ۖ فِي تَدَارُثٍ لِّلرَّحْمٰنِ صَوْمًا فَلَمَّا كَمِثَّ الْيَوْمَ ۖ أَنِيسًا ۖ﴾

(من الآية ٢٦ سورة مريم)

وهذا إمساك عن الكلام إدا الصوم : معناه الإمساك ، لكن الصوم الشرعي يعنى الصوم عن شهوات البطن والفرج من الفجر وحتى العروب . ومبدأ

لصوم لا يحفظ من زمن إلى آخر ، فقد كان الصيام الركن التمدني موجود ، في  
لديانات السابقة على الإسلام ، لكنه كان إما إمساكا مطلقا عن لطعام واحد  
إمساكا عن أنواع معينة من الطعام كصيام المصريين ، فالصيام إذا هو مباح لتربية  
الإنسان في الأديان ، وإن حثت الأيام عددا ، وإن احتلت كفيه الصور وبديل  
الحق الآية الكريمة بقوله « لعلكم تتقون » ويعرف أن معنى التقوى هو أن تجعل  
بيد وبين صعاب الجلال وقاية ، وأن نتمى بطش الله ، ونشقى النار وهي من آثار  
صعاب الجلال ، وبوجه الحق ، لعلكم تتقون ، أي أن هذب وبشدد سلوكك  
مستند من المعاصي ، والمعاصي في النفس إنما تنشأ من شره ماديتها بل امر ما  
وإصيام كذا منهم بصعب شره المادية وحدها وتسلطها في الحسد ، ولذلك يقول حسن  
الله عليه وسلم لأشب المراهقين وغيره

« يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليه أخص بالصوم وأخص  
للزجر ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »

وكأن الصوم يشد شره المادية في الجسم الشاب ، وإن تقليل لطعام يعنى تقليل  
وقود المادة ، فيقل السعار الذي يدفع الإنسان لارتكاب المعاصي والصيام في  
رمضان يعطى الإنسان الاستقامة لمدة شهر ، ويلاحظ الإنسان حلاوة الاستقامة  
فيصبر بها بعد رمضان ، والحق لا يطلب من الاستقامة في رمضان فقط ، إنما هو  
سبحانه قد اصطفى رمضان كرم تدرج فيه على الاستقامة لتشجيع من بعد ذلك في  
كل حياتك ، لأن اصطفاء الله لرمضان أو اصطفاء الله لمكان أو لإنسان ليس لتدليل  
الرمضان ، ولا لتدليل المكان ، ولا لتدليل الإنسان ، وما يريد الله من اصطفائه  
لرسول أن يشيع أثر اصطفاء الرسول في كل الناس ، ولذلك نجد ترويج الرسل ملك  
بالشفقة والتمب ، وهذا دليل على أن مشقة الرسالة تتحملها الرسول ونعها يقع عليه  
هو ، والله لم يصطفه ليدلله ، وإنما اصطفاءه ليحمله أسوة

وكذلك يصطفى الله من الزمان أياما لا تدللها عن بقية الأرمه ، ولكن لانه  
سبحانه وتعالى يريد أن يشيع اصطفاء هذا الزمان في كل الأرمه ، كاصطفائه لأيام

رمضان ، والحق سبحانه وتعالى يصطفى الأمكنة ليشيع اصطفاؤها في كل الأمكنة .  
وعندما سمع من يقول : « ررت مكة والمدينة ودقت حلالة الشفافية والإشراف والتوير ، وسيت كل شيء » إن من يقول ذلك يظن أنه يمدح المكان ، ويسبي أن المكان يفرح عندما يشيع اصطفاؤه في بقية الأمكنة ، فأنت إذا ذهبت إلى مكة لتزور البيت الحرام ، وإذا ذهبت إلى المدينة لتزور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليأذا لا تتذكر في كل الأمكنة أن الله موجود في كل الوجود ، وأن قيامك بأركان الإسلام وسلوك لإسلام هو تقرب من الله ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم

صحيح إن بعدك وأنت في حوار بيت الله ، يتمير بالدقة وحسن البية كمالك وأنت في حوار بيت الله وفي حصره رسول الله تستحي أن تعمل معصية رساله تسمع « الله أكبر » تهضر للصلاة وتخشع ، ولا تؤدي أحداً ، إذن لماذا لا يشيع هذا السلوك منك في كل وقت وفي كل مكان ؟ إنك تستطيع أن مستحضر اليه التقديري في أي مكان ، وتستجد الصفاء النفسي العالي .

إذن فحين يصطفى الله زماناً أو مكاناً أو يصطفى إنساناً إنما يساء الحق سبحانه وتعالى أن يشيع اصطفاؤه للإنسان في كل البس ، واصطفاء المكان في كل الأمكنة ، واصطفاء الزمان في كل الأزمنة ، ولذلك أتعجب عندما أحد الناس تستقبل رمضان بالتسبيح وبآيات القرآن وبعد أن ينتهي رمضان يسود ذلك . وأقول هل جاء رمضان ليحرس لنا الدين ، أم أن رمضان يحيى ليدرسنا على أن نمشي بحق الصفاء في كل الأزمنة ؟

وقوله الحق « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » يدلنا على أن المسلمين ليسوا مدعى مسألة الصوم ، بل سبقهم أناس من قبل إلى الصيام وإن اجتمعت شكلية الصوم وساعة يقول الحق « كتب عليكم الصيام » فهذا تقرير للمبدأ ، مبدأ الصوم ، ومفضل الحق سبحانه المبدأ من بعد ذلك فيقول .



﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ  
مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ  
يُطَبِّقُونَ دِفْءًا مِنْ طَعَامِ مُسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ  
لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ١٨٥

وكلمة «أياماً» تدل على الزمن وتأتي مجملة . وقوله الحق عن  
تلك الايام . إنها «معدودات» يعنى انها ايام قليلة ومعروفة . ومن  
بعد ذلك يوضح الحق لنا مدة الصيام فيقول :

﴿ شَهْرٌ

رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ  
وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ  
فَلْيَصُومْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ  
أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ  
الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا  
هَدَنَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ١٨٥

[إن المدة الصيام هي شهر رمضان ، ولانه سبحانه للعليم بالضرورات التي تطرأ

على هذا التكليف فهو يشرع هذه الضرورات ، وتشرع الله لرحمة الضرورة إعلام لنا بأنه لا يصح مطلقاً لأى إنسان أن يخرج عن إطار الضرورة التى شرعها الله ، بعض من الذين يتفلسفون من الطغيان يحبون أن يزينا لأنفسهم الضرورات التى ييج هم الخروج عن شرع الله ، ويقولون الواحد منهم

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

( من الآية ٢٨٦ سورة البقرة )

ونقول إنك تهمهم وتحدد الوسع على قدر عقبك ثم تقبس التكليف عليه ، برغم أن الذى خلقك هو الذى يكلف ويعلم أنك تسع التكليف ، وهو سبحانه لا يكلف إلا بما فى وسعك ؛ دليل أن المشرع سبحانه يعطى الرحمة عندما يكون التكليف ليس فى الوسع . وليرحمة الحق وهو يقول : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعليه من أيام أخر » ، وكلمة « مريضاً » كلمة عامة ، وأنت فيها حجة على نفسك وبأمر طيب مسلم حادق يقول لك : « إن صحت فأتت تتعب » وأمر من مشفته مرمية فى بعض الأحيان ، ولذلك نرى القندية بإطعام مسكين

وكذلك يرخص الله لك عندما تكون « على سفر » . وكلمة « سفر » هذه مأخوذة من المادة التى تعيد الظهور والانكشاف ، ومثال ذلك قولنا : « أسمر الصبح » وكلمة « سفر » تعيد الانتقال من مكان تقيم فيه إلى مكان جديد ، وكأنك كذا مشيت خطوة تنكشف لك أشياء جديدة ، والمكان الذى تنتقل إليه هو جديد بالنسبة لك ، حتى ولو كنت قد اعتدت أن تسافر إليه . لأنه يصير فى كل مرة جديداً لما يشأ عنه من ظروف عدم استقرار فى الزمن . صحيح أن شيئاً من المسى والشورغ لم يتغير ، ولكن الذى يتغير هو الظروف التى تقابلها ، وصحيح أن ظروف السفر فى زمان قد اختلفت عن السفر فى قديم الزمان

إن المشقة فى الانتقال قديماً كانت عالية ، ولكن لنفاز سفر الامس مع سفر اليوم من ناحية الإقامة . مستجد أن سفر الآن بإقامة الآن فيه مشقه ، ومن العجب أن الذين يناقشون هذه الرحمة يناقشونها لسمعوا الرحمة ، ويقولون هم : اعلما أن

تشريع الله للرخص يلقها إلى حكم شرعى مطلوب ؛ وفى ذلك يروى ل جابر  
ابن عبد الله رضى الله عنه قال . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فمرأى  
زحاما ورجلا قد ظلل عليه فقال : « هذا » فقالوا : صائم فقال : « ليس من البر  
الصوم فى السفر »<sup>(١)</sup> .

وعندما نقرأ النص القرآنى نجد يقول : « فمن كان منكم مريضا أو على سفر ،  
فعدة من أيام أخر ، أى أب مجرد وجود فى السفر يقتضى المطر والقضاء فى أيام أخر ،  
ومعنى ذلك أن الله لا يقل بك الصيام ، صحيح أنه سبحانه لم يقل لك . « فطر »  
ولكن مجرد أن تكون مريضا مريضا مؤقتا أو مسافرا فعليك الصوم فى عدة أيام أخر  
وأنت لم تشرع لنفسك

ولنا فى رسول الله أسوة حسنة فقد نهى عن صوم يوم عيد المطر ، لأن عيد المطر  
سُمى كذلك ، لأنه يحقق بهجة المشاركة بنهاية لصوم واجتياز الاحتياز ، فلا يصح  
فيه الصوم ، والصوم فى أول أيام العيد إثم ، لكن الصوم فى ثلث أيام العيد جائز ،  
لحديث محمد بن حريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن  
صيام يومين : يوم الفطر ويوم الأضحي »<sup>(٢)</sup> .

وقد يقول قائل . ولكن الصيام فى رمضان يختلف عن الصوم فى أيام أخر ، لأن  
رمضان هو الشهر الذى أنزل فيه القرآن وأقول . إن الصوم هو الذى يتشرف  
بمحبه فى شهر القرآن ، ثم إن لدى أول القرآن وفرص الصوم فى رمضان هو  
سبحانه الذى وهب الترخيص بالمطر للمريض أو المسافر ونقله إلى أيام أخر فى غير  
رمضان ، وسبحانه لا يعجز عن أن يحل الأيام لأخر نفسها التجليات الصفائية التى  
يهبها للعبد الصائم فى رمضان . إن الحق سبحانه حين شرع الصوم فى رمضان إنما  
أراد أن يثبى الرمس الصيق - رَمَسَ رمضان - فى الرمس التسع وهو مدار لعام . ونحن  
نصرم رمضان فى الصيف ونصومه فى الشتاء وفى الخريف والربيع ، إذن رمضان يمر  
على كل العام

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الصوم

(٢) رواه مسلم

ويصوم الحق : « وعلى الذين يطغونه فدية طعام مسكين » والطلوع هو القدرة ،  
 فيطبقونه أى يدخل فى قدرتهم ومن قولهم ، والعديّة هى إطعام مسكين  
 ويسأل الإنسان : كيف يطيق الإنسان الصوم ثم يؤخذ به بالفطر مقابل فدية  
 هى إطعام مسكين ؟ وأقول : إن هذه الآية دلت على أن فريضة الصوم قد جاءت  
 متدرج ، كما تدرج الحق فى قضية الميراث ، فجعل الأمر بالوصية ، وبعد ذلك نقلها  
 إلى الثابت بالتوريث ؛ كذلك أراد الله أن يخرج أمة محمد صلى الله عليه وسلم من  
 دائرة أنهم لا يصومون إلى أن يصوموا صياماً يَخِيْرُهُمْ فيه لأنهم كانوا لا يصومون ثم  
 جاء الأمر بعد ذلك بصيام لا حيار فيه ، فكان الصوم قد قُرِصَ أولاً باختيار ، وبعد  
 أن اعتاد المسلمون وألغوا الصوم جاء القول الحق : « فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ »  
 وفى هذه الآية لم يذكر الحق الصدقة أو غيرها ، إذن كانت فرصة الصوم أولاً  
 اختيارية بقوله الحق : « وعلى الذين يطغونه فدية طعام مسكين » ، ثم جاء القرار  
 الارتفاعى ، فصار لصوم فريضة محددة المدة وهى شهر رمضان ، شهر رمضان الذى  
 أنزل فيه القرآن هدى للناس وبيات من الهدى والفرقان فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ  
 فَلْيَصُمْهُ وبذلك انتهت مسألة الفدية بالنسبة لمن يطيق الصوم ، أما الذى لا يطيق  
 أصلاً بأن يكون مريضاً أو شيخاً ، فإن قال الأعباء المسلمون : إن هذا مَرَصٌ لا  
 يُرجى شفاؤه ، نقول له : أنت لى تصوم إيماناً آخر وحليك أن تمضى  
 لقد جاء تشريع الصوم تدرجياً كتكثير من التشريعات التى تتعلق بنقل المكلفين  
 من إلف العادات ، كالخمر مثلاً واليسر والميراث ، وهذه أمور أراد الله أن يتدرج  
 فيها ويقول قائل : ما دام فرض الصيام كان اختيارياً فلماذا قال الحق بعد الحديث  
 عن العديّة : « فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ » ؟  
 وأقول : عندما كان الصوم اختيارياً كان لابد أيضاً من فتح باب الخير والاحتماد  
 فيه ، فَمَنْ صَامَ وَأَطْعَمَ مَسْكِينًا بهذا أمر مقبول منه ، وَمَنْ صَامَ وَأَطْعَمَ مَسْكِينَيْنِ ،  
 بذلك أمر أكثر قبولاً وَمَنْ يَدْخُلْ مَعَ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ حِسَابٍ يُؤْتِيهِ اللَّهُ مِنْ غَيْرِ حِسَابٍ ،  
 وَمَنْ يَدْخُلْ عَلَى اللَّهِ بِحِسَابٍ ، يعطيه الحق بحساب ، وقول الحق : « رَأَى تَصُومُوا ،  
 خَيْرٌ لَكُمْ » هو خطوة فى الطريق لتأكيد فرضية الصيام ، وقد تأكد ذلك الفرض بقوله  
 الحق : « فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ » ولم يأت فى هذه الآية بقوله : « وَأَنْ

نصوموا خير لكم ، لأن المألة قد انتقلت من الاختيار إلى المرحى

إذن فالصيام هو صهي لتربية الإنسان ، وكان موجود قبل أن يبعث الحق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم دخل الصوم على المسلمين اختياريا في البداية ، ثم فريضة من بعد ذلك . وقد شرع الله الصوم في الإسلام بداية بأيام معدودة ثم شرح لنا الأيام المعدودة بشهر رمضان .

والذي يطمئن إليه خاطري أن الله بدأ مشروعية الصوم بالأيام المعدودة ، ثلاثة أيام من كل شهر وهو اليوم العاشر والعشرون ، والثلاثون من أيام الشهر ، كانت تلك هي الأيام المعدودة التي شرع الله فيها أن نصوم ؛ وكان الإنسان محيرا في تلك الأيام المعدودة . إن كان مطبقا للصوم أن يصوم أو أن يفترى ، أما حين شرع الله الصوم في رمضان فقد أصبح الصوم فريضة تعبدية وركنا من أركان الإسلام ، وبعد ذلك جاءنا الاستثناء للمريض والمسافر

إذن لن أن ملحظ أن الصوم في الإسلام كان على مرحلتين المرحلة الأولى . أن الله سبحانه وتعالى شرع صيام أيام معدودة ، وقد شرحنا أحكامها ، والمرحلة الثانية هي تشريع الصوم في زمن محدود . شهر رمضان ، ولعلها الذين ذهبوا إلى جوار رفض إنقطاع المريض وإنقطاع المسافر لأنهم لم يربحوا أن يردوا حكمة الله في التشريع ، أقول لهم . إن الحق سبحانه وتعالى حين يرحص لابد أن تكون له حكمة أصل من مستوى تمكيننا ، وأن الذي يؤكد هذا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « من كان منكم مريضا أو على سفر » .

الحكم هنا هو الصوم عدة أيام آخر ، ولم يقل فمن أفطر فعليه عدة من أيام آخر ، أي أن صوم المريض والمسافر قد انتقل إلى وقت الإقامة بعد السفر ، والشقاء من المرض ، فالذين قالوا من العلماء : هي رخصة ، إن شاء الإنسان فعلها وإن شاء تركها ، لابد أن يفكر في انصر القرآن « فمن كان منكم مريضا أو على سفر » ، فأفطر ، « عدة من أيام آخر » ونقول : « لا يحتاج إلى تأويل في النص أولي في المهم مما يحتاج إلى تأويل ، وليكن أدبنا في التعبير ليس أدب ذوق ، بل أدب طاعة ؛ لأن الطاعة فوق الأدب .

إذن فالدين يقولون هذا لا يلحظون أن الله يريد أن يخفف عن ، ثم ما السبب فيما  
أن مهم أن الحق سبحانه وتعالى أراد للمريض والمسافر رحمة وأصحه ، فجعل  
صيام أي منها في هذه من الأيام الأخر . فإن صام في رمضان وهو مريض أو عن سفر  
فليس له صيام ، أي أن صيامه لا يعتد به ولا يقبل منه ، وهذا ما أوتى به ، ولكن  
علينا أن ندخل في اعتبارنا أن المراد من المرض والسفر ها ، هو ما يخرج مجموع  
مكبات الإنسان عن سوتها

وما معنى كلمة « شهر » التي جاءت في قوله : « فمن شهد منكم الشهر  
فليصمه » ؟ إن كلمة « شهر » مأخوذة من الإعلام والإظهار ، وما زنا مستخدمها  
في الصفقات فنقول مثلاً : لقد سجلنا البيع في « أشهر العقارى » أى بحر تعلّم  
الشهر العقارى بوجود صفقة ، حتى لا يأتى بعد ذلك وجود صفقة على صفقة ،  
فكلمة « شهر » معناها الإعلام والإظهار ، وسميت الفترة الزمنية « شهراً » لماذا ؟  
لأن لها علامة تظهرها ، ونحن نعرف أننا لا نستطيع أن نعرف الشهر عن طريق  
الشمس ، فالشمس هي سنة لمعرفة تحديد اليوم ، فاليوم من مشرق الشمس إلى  
مشرق آخر وله ليل ونهار

ولكن الشمس ليست فيها علامة مميزة سطحية ظاهرة وأصحه لتحديد لنا بدء  
الشهر ، إنما لقصر هو الذى يحدد تلك السمة والعلامة بالهلال الذى يأتى في أول  
الشهر ، ويظهر هكذا كالمرجول القديم ، إذن فالهلال جاء لتمييز الشهر ،  
والشمس لتمييز لنهار ، ونحن نحتاج لهما معاً في تحديد الزمن

إن الحق سبحانه وتعالى يربط الأعمال العبادية بآيات كونية ظاهرة التي هي  
الهلال ، وبعد ذلك تأخذ من الشمس اليوم فقط ؛ لأن الهلال لا يعطيك اليوم ،  
فكان ظهور الهلال على شكل خاص بعدما يأتى المحاق وينتهي ، فمبدأ الهلال بداية  
علام وإعلان في طهار أن الشهر قد بدأ ، ولذلك تبدأ العبادات منذ الليلة الأولى في  
رمضان ؛ لأن العلامة - الهلال - مرتبطة بالليل ، فنحن نستطلع الهلال في المغرب ،  
لأن رأياه على شهر رمضان بدأ ، ولم تختلف هذه المسألة لأن النهار لا يسبق الليل ،  
إلا في عبادة واحدة وهي الوقوف معرفة ، فالليل الذى يحى ، بعدها هو الملاحق بيوم  
عرفة .

وكلمة « رمضان » مأخوذة من مادة ( الراء - الميم - الصاد ) ، وكلها تدل على

الحرارة وتدل على الفيض « ورمض الإنسان » أى حر جوفه من شدة عطش ،  
وه لرمضاء ، أى الرمل الحار ، وعندما يقال « رمضت الماشية » أى أب احر أصاب  
حمها فلم تعد تقوى أن تضع رجلها على الأرض ، يدل لرمضان مأخوذ من احر ومن  
الفيض ، وكأن الناس حينئذ أرادوا أن يصنعوا أسماء للشهور جاءت التسمية لرمضان في  
وقت كان حاراً ، فسموه رمضان كي أنهم ساعة سمو مثلاً « ربيع الأول و ربيع  
الأخر » كان الزمن صففاً مع وجود الربيع ، وعندما سمو محادى الأولى ومحادى  
الأخرة ، كان الماء يجمد في هذه الأيام

فكانهم لاحظوا الأوصاف في الشهور ساعة التسمية ، ثم در الرمن العربى  
الخاص المحدد بالشهور القمرية في الرمن العام للشمس ، فجاء رمضان في صيف ،  
وجاء في خريف ، لكن ساعة السمية كان الوقت حاراً

وهب أن إنسان جاءه ولد حيل الشكل ، فسماه « جيللاً » وبعد ذلك مرض  
والعياد يافقه يمرض الجدرى فشوه وجهه ، فيكون الاسم قد لوحظ ساعة التسمية ،  
وإن طرأ عليه في بعد ذلك ما ينافى هذه التسمية ، وكان الحق سبحانه وعالى حينها  
هياً ليعنون البشرية الواضحة للألفاظ أن يضعوا لهذا الشهر ذلك الاسم ، دل على  
المشقة التي تعترى الصائم في شهر رمضان ، وبعد ذلك يعطى له سبحانه منزلة تؤكد  
ثابته سمي ، إنه الشهر لدى أول فيه القرآن ، والقرآن إنما جاء منهج هداية للقيم ،  
والصوم امتناع عن الأقنيات ، فمنزلة الشهر الكريم أنه يرى ليدن ويرى النفس ،  
فناسب أن يوجد التشريع في تربية البدن وتربية القيم مع الرمن الذى جاء فيه القرآن  
بالقيم ، « شهر رمضان الذى أول فيه القرآن » وإذا سمعت « أول فيه القرآن »  
فانهم أن هناك كلمات « أول » و « برل » و « برل » ، فإذا سمعت كلمة « أول »  
فجدها مسبوقة إلى الله دائماً :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾

( سورة القدر )

أما في كلمة « برل » فهو سبحانه يقول .

﴿ تَرَىٰ فِي الرُّوحِ الْأَمِيرِ ﴾

( سورة الشعراء )

وقال الحق :

### ﴿ نَزَّلَ الْمَلَكُ ﴾

( من الآية ٤ سورة القدر )

إذن فكلمة « أنزل » مقصورة على الله ، إنما كلمة « نَزَّلَ » تأتي من الملائكة ، وه « نَزَّلَ » تأتي من الروح الأمين الذي هو « جبريل » ، فكان كلمة « أنزل » بهيئة التعلية ، عدت القرآن من وجوده مسطوراً في اللوح المحفوظ إلى أن يور إلى الوجود الإنساني بياض مهمته .

وكلمة « نَزَّلَ » وه « نَزَّلَ » نفههما أن الحق أنزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى أنبياء الدنيا ماسباً للأحداث ومناسباً للظروف ، فكان الإبرال في رمضان جاء مرة واحدة ، والناس الذين يهاجئوننا يقولون كيف نقولون : إله رمضان أنزل به القرآن مع أنكم تشيعون القرآن في كل زمن ، فيزل هنا وينزل هناك وقد بون في مله الرسالة المحمدية ؟

نقول هم : نحن لم نقل إنه « نزل » ولكننا قلنا « أنزل » ، فأترك تعدي من الجيم الأعلى إلى أن يياشر مهمته في الوجود وحين يياشر مهمته في الوجود يزل من « النجم » - يعني لوسط القرآن - موافقاً للأحداث الأرضي ليحيى الحكم وقت حاجته ، فيستقر في الأرض ، إنما لو جاءها القرآن مكتملاً مرة واحدة لقد يجوز أن يكون علماً الحكم ولا يعرفه ، لكن حين لا يجيء الحكم إلا ساعة يحتاجه ، فهو يستقر في موسنا

وأصرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - أنت مثلاً ترهب أن تُجهر صيدلية للطوارئ في المنزل ، وأنت تصع بها كل ما يخص الطوارئ التي تتحللها ، ومن الحائر أن يكون عندك الدواء لكذلك لسبب في حاجة له ، أم ساعة تحتاج الدواء وتذهب لتصرف تذكرة الطبيب من الصيدلية ، عندك لا يحدث لسبب ولا اختلاط ، وكذلك حين يريد الله حكماً من الأحكام ليعالج قضية من قضايا الوجود فهو لا يتظر حتى يزل فيه حكم من الملأ الأعلى من اللوح المحفوظ ، إنما الحكم موجود في السماء الدنيا ، يقول للملائكة : تنزلوا به ، وجبريل ينزل في أي وقت شاء له الحق أن



يرون من أوقات البعثة المحمدية ، أو الوقت الذي أراد الله سبحانه وتعالى أن يوجد فيه الحكم الذي يغطي قضية من القضايا

إذا فحيما يوجد من يريد أن يشككنا نقول له لا  
نحر ملك لغة عربية دقيقة ، وعدنا عرق بين « أنزل » و « نزل » و « نزل »  
ولذلك فكلمة « نزل » تأتي للكتاب ، وتأتي للدار بالكتاب يقول تعالى

﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ١٦٦ ﴾

(سورة الشعراء)

ونقول سبحانه .

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ ١٦٧ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأعراف)

وكان بعض من اشركوا قد ساءلوا : لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة ؟ وانظر  
إلى الدقة في الهيئة التي أراد الله بها نزول القرآن فقد قال الحق

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ ١٦٨ ﴾

فَوَاقِدَ ١٦٩ وَدَرَجَاتٍ ١٧٠

(سورة الفرقان)

وعندما نتأمل قول الحق « كذلك » فهي تعني أنه سبحانه أنزل القرآن على الهيئة  
التي نزل بها لروما لتثبيت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ولو نزل  
مرة واحدة لكان تكليفا واحدا ، وأحداث الدعوة ضقت وكل لحظة تحتاج إلى تثبيت  
محبي يأتي الحديث ينزل نعم قرآن فيعطى به الحق تثبيتا للذي صلى الله عليه وسلم ،  
وأصرب مثلا بسيطا - والله المثل الأعلى والمرء عن كل شئيه - أن بها لك يريد حلة

جديدة التحضرها له مرة واحدة ، فتصادفه فرحة واحدة ، أم تحضر له في يوم ربطة العتق واليوم الذي يليه تحضر له انقيص الجديده ، ثم تحضر له « ابتلة » ٤ ، إذن نكل شيء يأتي له ونع وفرحة .

ولحق ينزل القرآن سبحانه إذا ؟ « لنبت به فؤادك » ومعنى « لنبت به فؤادك » أي أنك ستعرض لمنصبات شتى ، وهذه المنصبات الشتى كل منها يحتاج إلى ترتيب عليك وتهدئة لك ، فإن القسط القرأى ليضل ذلك ويسير أمامك الطريق . « كذلك لنبت به فؤادك ورتلناه ترتيباً » أي لم نأت به مرة واحدة بل جعلناه مرتباً على حسب ما يقتضيه من أحداث حتى يتم العمل بكل قسط ، ويضمه المؤمن ثم تأتي بقسط آخر . وللمحظ دقة الحق في قوه عن القرآن :

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾

(سورة الفرقان)

إن الكفار هم اعتراضات ، ويحتاجون إلى أمثلة ، فلو أنه نزل بجملة واحدة لأهدرت هذه القضية ، وكذلك حين يسأل المؤمنون يعول القرآن : يستوبك عن كد وعس كذا ، ولو شاء الله أن يسر القرآن دفعة واحدة ، فكيف كان يعطى هذه المسألة ؟ ما داموا سوب يسألون فليستظر حتى يسألوا ثم تاتي الإجابة بعد ذلك .

إذن فهذا هو معنى « أنزل » أي أنه أنزل من النوح المحفوظ ، ليأشر مهمته في الوجود ، وبعد ذلك نزل به جبريل ، أو تنزل به الملائكة على حسب الأحداث التي جاء القرآن ليغطيها

ويقول الحق : « أنزل فيه القرآن هدى للناس » . ونعرف أن كلمة « هدى » معناها - الشيء الموصل للغاية بأقصر طريق ، فحين تضع إشارات في الطريق الملتبس ، فمعنى ذلك أننا نريد للناس أن يصل إلى الطريق بأيسر جهد ، و« هدى » تدل على علامات لتتدى بها يضعها الخالق سبحانه ، لأنه لو تركها للخلق ليضعوها لاختلعت الأهواء ، وعلى فرض أنها مسلم بأنهم لا هوى لهم ويلتمسون الحق . وعقولهم ناصجة ، مسلم بكل ذلك ، ونتركهم كي يضعوا العالم ، وتساءل وماذا عن الذي يضع تلك العلامات ، وماذا يتدى ؟

إذن فلا بد أن يوجد له هدى من قبل أن يكون له عقل يفكر به ، كما أن الذى يصح هذا الهدى لا بد ألا يتفجع به ، وعلى ذلك فانه سبحانه أعنى الأغنياء عن الخلق ولن يتفجع بأى شيء من العباد ، أما البشر فلو وضعوا « هدى » فالراضع سيستفجع به ، ورأينا ذلك رأى العين ، والذى يريد أن يأخذ مال الأغنياء ويعتق بخرع المذهب الشيوعى ، والذى يريد أن يمتنع عرق العير يضع مذهب لرأسمالية ، مذهب نابغة من الهوى ، ولا يمكن أن يبرأ أحد من فلاسفة المذاهب نفسه من الهوى . الرأسمالى يفتر ميعيل هوى نفسه ، الشيوعى يميل لنفسه ، ونحن نريد من يشرع لنا دون أن يتنصع بما شرع ، ولا يوجد من تتطابق معه هذه المواصفات إلا الحق سبحانه وتعالى فهو الذى بشر فقط ، وهو الذى بشر لعائلة الخلق فقط

والذى يدل ذلك على ذلك أنك تجد تشريعات البشر نأتى لتفحص شريعات أخرى ، لأن الشرع على فرض أهم عالمون فقد يغيب عنهم أشياء كثيرة ، برغم أن الذى يضع التشريع يحاول أن يضع أمامه كل التصورات المستقبلية ، ولذلك نعد استعديلات تجري دائما على التشريعات الشريعة ، لأن الشرع غلب عنه وقت التشريع حكم لم يكن فى بآله ، وأحداث الحياة جاءت فلفتته إليه ، فبقول : التشريع فيه نقص ولم يعد ثلاثى ، نعدله

إذن فنحن نريد فى من يصنع الهدى والمنهج الذى يسير عليه الناس بجانب عدم الانتزع بالمنهج لا بد أيضا أن يكون عالما بكل الحريات التى قد يأتى بها المستقبل ، وهذا لا يأتى إلا فى إله عليهم حكيم ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا آسَافَ فَتَضُرُّوْكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ ﴾<sup>٤</sup>

( من الآية ١٥٣ سورة الانعام )

ستمعون السبل ، هذا له هوى ، وهذا له هوى ، فتوجد القوايين الوصعية التى تبددنا كل فى الأرض ، لأننا نتبع أهواءنا التى تتغير ولا تتبع منهج من ليس له نفع فى هذه المسألة ، ولذلك أقول : اعطونا جيذاً إن أن الهدى الحق الذى لا اعرض عليه هو هدى الله ، « هدى للناس وبيات من الهدى والفرقان » . والفرقان فى جملة « هدى » والفرقان هو أن يضع فارقاً فى أمور يلبس فيها الحق بالباطل ، فيأتى التنزيل الحكيم ليفرق بين الحق والباطل .

ويقول الحق ، « فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر  
فعدة من أيام أخر » ، وحين نجد تعقيباً على قضية فافهم أن من شهد منكم الشهر  
فليصمه ولا بد أن تفكر من شهد الشهر فليصمه إن كان غير مريض ، وإن كان غير  
مسافر ، لابد من هذا مادام الحق قد جاء بالحكم .

وه شاهد ، هذه تنقسم قسمين « فمن شهد » أي من حضر الشهر وأدركه وهو  
غير مريض وغير مسافر أي مقيم ، « ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر  
يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ونريد أن نعهم النص بمقابلة من يستقبل  
الكلام من إله حكيم ، إن قول الله : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »

تعقيب على ماذا \* تعقيب على أنه أعمى المريض وأعمى المسافر من الصيام ،  
فكان الله يريد بكم اليسر ، فكأنك لو حاولت ذلك لأردت الله معسر لا يسيراً والله  
لا يمكن أن يكون كذلك ، بل أنت الذي تكون معسراً على نفسك ، دون أن تكون  
له عذرة عندك ، ولا تريد أن تكون أسوأ فلا تفطر أمام الناس ، والترم يقول الله  
« فعدة من أيام أخر » لأنك لو جئحت إلى ذلك لجعلت الحكم في إطلاق التعسير ،  
فقول لك لا ، إن الله يريد بكم اليسر ، فهل أنت مع لصادة أم أنت مع المعسرة ؟  
أنت مع المعسرة بطبيعة الإيمان .

ومثال آخر نجد في حياتنا هناك من يأتي ليؤذن ثم بعد الأذان يجهر بقول  
« انصلاص والسلام عليك يا سيدى يا رسول الله » يقول ، إن هذا حب لرسول الله .  
لكن هل أنت تحب الرسول إلا بما شرع ؟ به قد قال : ( إذا سمعتم النداء فقولوا  
مثلما يقول المؤذن ثم صلوا على ) (١) فقد سمح الرسول صلى الله عليه وسلم لمن يريد  
ولم يسمع أن يصل عليه في السر ، لا أن يأتي بصوت الأذان الأصيل وينهقه لأذن  
الأصيلة ويصل على النبي ، لأن الناس قد يحتلظ عليها ، وقد يفهم بعضهم أن ذلك  
من أصول الأذان إني أقول لمن يفعل ذلك : يا أحمق ، ألا توجد صلاة مقبولة على  
النبي إلا المجهور بها ؟ لا ، إن لث أن تصل على النبي ، لكن في سر

وكذلك إن جاء من يفطر في رمضان لأنه مريض أو على سفر ، يقول له : استر ، حتى لا تكون أسوة سيئة ، لأن الناس لا تعرف أنك مريض أو على سفر ، استركي لا يقول الناس : إن مسلماً أفطر . ويقول الحق : « ولتكمّلوا العدة » فمما لها كي لا تعونكم أيام من الصيام

انظروا إلى دقة الأداء القرآني في قوله : « ولتكبّروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكّرون » . إن العبادة التي فهم أن فيها مشقة هي الصيام وبعد ذلك تكبّرون الله ، لأن الحق سبحانه عالم أن عبده حين ينصاع لحكم إرادته الله وفيه مشقة عليه مثل الصوم ويتحمّله ، وعندما يشعر بأنه قد انتهى منه فإنه سبحانه عالم بأن العبد سيجد في نفسه إشفاقاً يستحق أن يشكر الله الذي كفه بالصوم ووفقه إلى أدائه ، لأن معنى « ولتكبّروا الله » ، يعني أن تقول « الله أكبر » وأن تشكّره على العادة التي كنت تعتقد أنها تضيق ، لكنك وجدت فيها تجليات وإشراقات ، فتقول : الله أكبر من كل ذلك ، الله أكبر ، لأن حين يمنح يعطى حتى في المنع ، فأنت تأخذ مقومات حياة ويعطيك في رمضان ما هو أكثر من مقومات الحياة وهو الإشراقات التي تنبئ لك ، وتفوق حلاوة التكليف وإن كان قد قوب عليك الاستمتاع بعملة فإنه أعطاك نعمة أكثر منها .

وبعد ذلك فالنسق القرآني ليس سناً من صنع بشر ، فنحن نجد أن نسق البشر يقسم الكتاب أبواباً وفصولاً ومواد كلها مع بعضها ، ويُفصل كل باب بمصولة ومواده ، وبعد ذلك ينتقل لباب آخر ، لكن الله لا يريد الذين أبواباً ، وإنما يريد الذين وحدة متكاملة في بناء ذلك الإنسان ، فهنا بعد قوله : « ولتكبّروا الله » يد « ولعلكم تشكّرون » ومعنى ذلك أنكم سترون ما يجعلكم تنطقون بـ « الله أكبر » ، لأن الله أسدى إليكم مهلاً ، وساعة يوحد الصفاء بين « العابد » وهو الإنسان و « المعبود » وهو الرب ، وثيق العابد بأن المعبود لم يكلمه إلا بما يعود عليه بالخير ، هت يحسن العبد طنه بربه ، ويلجأ إليه في كل شيء ، ويسأله عن كل شيء ، ولذلك جاء هنا قول الحق :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ  
دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا  
بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦)

وعلمت قد نقت حلالة ما أعطاك الحق من إشرافات صفائية في الصيام فانت  
ستجبه إلى شكره سبحانه ، وهذا ياسب أن يرد عليك الحق فيقول : « وإذا سألك  
عبادي عني إني قريب » ولحظ أن « إذا » جاءت ، ولم تأت « إن » فالحق يؤكد لك  
أنك بعدما ترى هذه حلالة شكر الله ؛ لأنه سبحانه يقول في الحديث القدسي :

« ثلاثة لا ترد دعوتهم ، الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم ،  
يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء » ويقول الرب : وعزق لأنصرك ولو  
بعد حين <sup>(١)</sup> .

فيأدام سبحانه مسجيب الدعوة ، وأنت قد تكون من العامة لا إمامة لك ،  
وكذلك لست مظلوما ، إذن تنق دعوه الصائم . وعندما نقرأ في كتاب الله كلمة  
« سأل » نجد أن مادة السؤال بالنسبة للقرآن وردت وفي حواشيها « قل »

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾

( من الآية ٢١٩ سورة البقرة )

وقوله

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُحْكَمُ قُلْ أَعْمَرُوا﴾

( من الآية ٢١٩ سورة البقرة )

(١) هذا الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجه والإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة

وقوله :

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُغْفِرُونَ قُلْ مَا أَعْلَمُ مِنْ خَيْرٍ﴾

(من الآية ٢١٥ سورة البقرة)

وكل «يسألك» يأتي في حوينا «قل» إلا ية واحدة جاءت فيها «قل»  
بالفاء ، وهي قول الحق .

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْغَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي﴾

(من الآية ١٠٥ سورة طه)

انظر إلى السقة لأدائية . الأولى «قل» ، وهذه «قل» ، فكان «يسألك» عن  
الخمر والميسر : يؤكد أن السؤال قد وقع بالفعل ، ولكن قوله : «يسألك» عن  
الغالب ، فالسؤال هذا ستعرض له ، فكان الله أجاب عن أسئلة وقعت بالفعل  
مقال . «قل» ، والسؤال الذي سبق من بعد ذلك جاء وجاءت إجابته : «قل»  
أي أعطاه جواباً مسبقاً ، إذن غلبه هرق بين جواب عن سؤال جديد ، وبين جواب  
عن سؤال سوف يحدث ، لذلك على أن أحداً لم يماجيء الله سؤال ، «يسألك»  
عن الغالب قل يسفها رب نسفاً

لكن نحن الآن أمام آية جاء فيها سؤال وكانت الإجابة مباشرة : «وإذا سألك  
عبدى عني» فلم يقل : «قل» أي قريب ، لأن قوله «قل» هو عملية تطيل  
القرب ، ويريد الله أن يخلص القرب في الجواب عن السؤال بدون وساطة ، وإذا  
سألك عبدى عني فأقرب . لقد جعل الله الجواب منه لعباده مباشرة ، وإن كان  
الذى سيبلى الجواب هو رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهذه ها قصة : لقد سألو  
رسول الله : «أقرب ربك منا» أم بعد فباديه ؟

لأن عادة البعيد أن ينادى ، أما القريب فيتأخى ، ولكن بين هم القرب ، حذف  
كلمة «قل» ، فجاء قول الحق : «وإذا سألك عبدى عني فأقرب» وما تائدة ذلك

القرب ؟ إن الحق يقول . «أجيب دعوة الداع إذا دعاه» ولكن ما الشروط اللازمة لذلك ؟

لقد قال الحق . «وإذا سألك عبادي» ونعرف أن فيه غرماً بين «عبيد» و«عباد» ، صحيح أن مفرد كل منهما «عبد» ، لكن هناك «عبيد» و«عباد» ، وكل من في الأرض عبيد لله ، ولكن ليس كل من في الأرض عبداً لله ، لماذا ؟

لأن العبد هم الذين يقهرون في الوجود كعبدهم بأشياء ، وهناك من يختارون التمرد على الحق ، لقد أخذوا اختيارهم تمرداً ، لكن لعبد هم الذين اختاروا الانقياد لله في كل الأمور . إسم مفقود مع الجميع في أن واحداً لا يتحكم من يترك ، ولا متى يموت ، ولا كيف يوجد ، لكن العباد يختارون بأن الأمر الذي جعل الله لهم فيه اختياراً قالوا : صحيح يارب أنت جعلت لنا الاختيار ، وقد احترنا منهجت ، ولم تترك هواناً ليحكم فينا ، أنت قلت سبحانه «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ونحن قلنا التكليف منك يارب

ولا يقول لك ربك : «افعل» إلا إذا كنت صالحاً لتفعل ولعدم الفعل . ولا يقول لك «لا تفعل» إلا إذا كنت صالحاً لهذه وهذه إذن بكلمة «افعل» و«لا تفعل» تدخل في الأمور الاختيارية ، والحق قد قال «افعل» و«لا تفعل» ثم ترك أشياء لا يقول لك فيها «افعل» و«لا تفعل» ، فتكون حراً في أن تفعلها أو لا تفعلها ، سمها «مطقة الاختيار المباح» ، فهناك اختيار فيد بالتكليف ب«افعل» ولا تفعل ، واختيار متى لك أن تفعله أو لا تفعله ولا يترتب عليه ضرر ، فالذي أحد الاختيار وقال يارب أنت وهنتي الاختيار ، وبكى تركت لك يا واهب الاختيار أن توجه هذا الاختيار كما تحب ، يا سائرل عن اختياري ، وما تقول . «افعل» سافعله ، والذي تقول لي «لا تفعله» لن أفعله

إذن فالعباد هم الذين أخذوا منطقة الاختيار ، وسموها لمن خلق فيهم الاختيار ، وقالوا : «الله» وإن كنت مختاراً إلا أنني أمتك على نفسي . إن العباد هم الذين ردوا أمر الاختيار إلى من وهب الاختيار ويضعهم الحق يقول



﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوًّا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا  
﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ لِرَبِّهِمْ مُحَمَّدًا وَقِيَمًا ۝﴾

(سورة الفرقان)

هؤلاء هم عباد الرحمن ، ولدنك يقول الحق للشيطان في شأنهم :

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الحجر)

إدع للشيطان سلطان على مطلق عبده ، لأنه يدخل عليهم من باب الاختيار ،  
ولم تأت كلمة « عبادي » لغير هؤلاء ، إلا حين تقوم الساعة ، ويحاسب الحق الدين  
أصلوا العباد يقول

﴿أَنْتُمْ أَتَلَّيْتُمْ عِبَادِي﴾

(من الآية ١٧ سورة الفرقان)

ساعة تقوم الساعة لا يوجد لاختيار ويصير الكل عبداً ، حتى الكفرة لم يعد لهم  
اختيار ، وحين يقول الحق : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة  
الداع إذا دعان » فالعباد الذين التزموا الله بالمعج الإيمان لن يسألوا الله إلا بشيء  
لا ينافي مع الإيمان وتكاليفه

والحق يقول : « فليستحيوا لي » ، لأن الدعاء يطلب حوائجاً ، وما دمت تعذب  
إجابة الدعاء فتأديب مع ربك ، بهر سبحانه قد دعاك إلى مهجة فاستجب له إن كنت  
تحب أن يستجيب الله لك « فليستحيوا لي » ، وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه وتعالى  
في كلمة « الداع » ولا يتركها مطلقة ، يقول : « إذا دعان » فكأن كلمة « دعا »  
تأتي ويدعو بها الإنسان ، وربما اتجه بالدعوة إلى غير القادر على الإجابة ، ومثال ذلك  
قول الحق :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أُمَثَلُوا...﴾ (١١٤)

( سورة الأعراف )

وقوله الحق .

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ...﴾ (١١٤)

( سورة فاطر )

فكان الله قد يأخذ صفه يدعو بها غير موهل للإجابة ، ولحق ها قال  
« أجيب دعوة الداع إذا دعان » أما إذا ذهب مدعا غير قادر على الوفاء ، فالله ليس  
مستولاً عن إجابة دعوته

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلم أن الإنسان يدعو بالخير لنفسه ، وأنت  
لا تستطيع أن تحدد هذا الخير ، لأنك قد تنظر إلى شيء على أنه الخير وهو شر ،  
وما دمت تدعو فأنت تنظر أن ذلك هو الخير ، إذن مملحظية الأصل في الدعاء هي  
أنك تحب الخير ، ولكنك قد تحظى الطريق إلى فهم الخير أو الوسيلة إلى الخير ،  
أنت تحب الخير لا جدال ، لذلك تكون إجابة ربك إلى دعائك هي أن يمع إجابة  
دعوتك إن كانت لا تصادف الخير بالنسبة لك ، ولذلك يجب ألا تفهم أنك حين  
لا تجاب دعوتك كما رجوت وطبعت أن الله لم يستجب لك فتقول ماذا لم  
يستجب الله لي ؟ لا لقد استجاب لك ، ولكنه بمعنى أنك حق الدعوة أو ما تجهل  
بأنه شر لك . فالذي تلهوه هو حكيم ، فيقول « أنا سأهيك الخير ، والخير الذي  
أعلمه أنا فوق الخير الذي تعلمه أنت ، ولذلك فمن الخير لك ألا تجاب إلى هذه  
الدعوة » .

واضرب هذا بلل - والله المثل الأعلى - قد يطلب منك ابنك الصغير أن  
تشتري له مسدساً ، وهو يظن أن مسألة اسئس خير ، لكك تؤخر طلبة وتقول  
له فيما بعد سأشتري لك المسدس إن شاء الله ، وتعامل ولا تأتيه بالمسدس ، فهل  
هم صبيحتك بالمسدس له على وفق ما رأى هو مع للخير عنه ؟

إن منعك للمسبب عنه فيه عائدة وحماية وخير للابن

إذن ، فماخير يكون دائماً على مقدار الحكمة في تناول الأمور ، وأنت تجمع المسبب عن ابنك ، لأنك قلدت أنه طفل ويلهسو مع رفاقه وقد يتعرض لأشياء تخرجه عن طوره وقد يتسبب في أن يوديه أحد ، وقد يؤدي هو أحداً يمثل هذا المسبب

وكذلك يكون حظك من الدعاء لا يُستجاب لأب ذلك قد يرمقك أنت وخلق سبحانه وتعالى يقول

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ١١١ ﴾

( سورة الإسراء )

ولذلك يقول سبحانه :

﴿ سَأَرْبِّكُمْ أَيَّامٍ فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ ١٢٧ ﴾

( سورة الأنبياء )

والعلماء يقولون إن الدعاء إن قصد به الذلة والعبودية يكون جميلاً ، أما الإجابة فهي إرادة الله ، وأنت إن قلدت حظك من الدعاء في الإجابة عليه فأنت لا تقدر الأمر . إن حظك من الدعاء هو العبادة والذلة لله ، لأنك لا تدعو إلا إذا أصعبت أن أمسياتك كبشر لا تقدر على هذه ، ولذلك سألت مَنْ يقدر عليها ، وسألت مَنْ يملك ، ولذلك يقول الله في الحديث القدسي

« مَنْ سَأَلَنِي عَنْ مَسْأَلَةٍ أَعْطَيْتُهُ أَحْضَرْتُ لَهَا مَا أَعْطَى السَّائِلِينَ »<sup>(١)</sup>

وستعلم ما حلّمه رسول الله لعائشة أم المؤمنين لقد سألت رسول الله إذا صادقت

ليلة القدر فقالت : إني أفركتني هذه الليلة بماذا أدعو ؟

انظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد علم أم المؤمنين عائشة أن تدعو بمقاييس الخير لواسع ، فقال لها : « قولي : اللهم إنيك تحب العفو فاعف عني »<sup>(١)</sup>

ولا يوجد جمال أحسن من العفو ، ولا يوجد خير أحسن من العفو ، فلا أقول : أعطني ، أعطني ؛ لأن هذا قد ينطبق عليه قول الحق ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ (١١)

( سورة الإسراء )

فترى يقول : لقد دعوت ربي فلم يستجب لي ، تقول له : لا تكن قليل النظرة فمن الخير لك أنك لا تجاب إلى ما طلبت ، والله يعطيك الخير في الوقت الذي يريه

وبعد ذلك يترك الحق لبعض قضايا الوجود في اجتماع أن يهيئ إلى شيء ثم يتبين لك منه الخير ، لنعلم أن بعض إجابته عنك كان هو عين الخير ، ولذلك فإن الدعاء له شروط ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يدهونا إلى لطيب من الرزق .

فقد جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة قوله : « ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أخبر يمد يده إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام وملبسه حرام وعُدِي به لحرام فأتى يستجاب له »<sup>(٢)</sup> . إن الرسول يكشف أمامنا كيف يفسد جهاز الإنسان الذي يدهو ، لذلك نعلم إجابة الدعوة إما لأن جهاز الدعوة جهاز فاسد ، وإما لأنك دعوت شيء تظن أن فيه الخير لك لكن الله يعلم أنه ليس كذلك ، ولهذا يأخذ بيدك إلى مجال حكمته ، وينزع عنك الأمر الذي يحصل لك الشر

وشيء آخر ، قد يحجب عنك الإجابة ، لأنه إن أعطاك ما تحب فقد أعطاك في خير الدنيا الفانية ، وهو يحبك فيبقى لك الإجابة إلى خير الباقية ، وهذه ارتقاعات

(١) مغلط لترمذي ، وقيل حديث حسن صحيح ، وأخرجه الحاكم في مستدركه ، وقال صحيح على شرط

الشيخين

(٢) رواه مسلم في صحيحه

لا يتألمها إلا الخاصة ، وهناك لرفاهات أخرى تتمثل في أنه ما دام الدعاء فيه ذلة وخضوع ، فقد يطبق الله عليك ما جاء في الحديث القدسي : « يتزل الله تعالى في السماء الدنيا فيقول : مَنْ يدعوني فأستجيب له أو يسألني فأعطيه ؟ ثم يقول : مَنْ يقرض غير عديم ولا ظلوم »<sup>(١)</sup>

ولأن الإنسان مرتبط بمسائل يحبها ، فما دامت لم تأت فهو يقول دائماً يا رب . وهذا الدعاء يحب الله أن يسمعه من مثل هذا العبد ، فيقول إن من عبدي من أحب دعاءهم فأنا أبتليهم ليقولوا يا رب إن الإنسان المؤمن لا يجعل حظه من الدعاء أن يجاب ، إنما حظه من الدعاء ما قال الحق : ﴿ قُلْ مَا يَهْتَمُّ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ .. ﴾ (٧٧)

( سورة المرقان )

إن معنى الربوبية والربوبية أن تقول دائماً . « يا رب » وأصرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - الأب قد يعطي ابته مصروف اليد كل شهر ، والابن يأخذ مصروف اليد الشهري ويغيب طوال الشهر ولا يحرص على رؤية والده . لكن الأب حين يعطي مصروف اليد كل يوم ، فالابن ينتظر والده ، وعندما يتأخر الوالد قليلاً ، فإن الابن يقف لينتظر والده على الباب ، لقد ربط الأب ابته بالحاجة ليأمن برؤياه .

واحق سبحانه يضح شرطاً للاستجابة للدعاء ، وهو أن يستحيب العبد لله سبحانه وتعالى فيد دعاه إليه . عندئذ سيكون العبد أهلاً للدعاء ، ولذلك قال الحق في الحديث القدسي . « مَنْ شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته الفصل ما أعطى السائلين »<sup>(٢)</sup>

ومثال ذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار ، قال به جبريل . ألك حاجة ؟ لم يشف أن له حاجة ، فلا يوجد استكبار على البلوى ، ولكنه قال

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي

(٢) رواه البخاري في تاريخه

لجبريل . أما إليك فلا ، صحيح أن له حاجة إنما ليست لجبريل ، لأنه يعلم جيداً أن  
سجاته من النار المطبوعة على أن تحرق وقد ألقى فيها ، هي عملية ليست لخلق أن  
يتحكم فيها ولكنها قدرة لا يملكها إلا من خلق النار . فقال لجبريل : أما إليك فلا ،  
وعلمه بحال يغنى عن سؤالي . لذلك جاء الأمر من الحق :

﴿ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝ ﴾

(سورة الأنبياء)

ولنتعلم من الإمام على كرم الله وجهه حين دخل عليه إنسان يمجده وهو مريض  
فوجدته يتأوه ، فقال له . أتأوه وأنت أبو الحسن قال : أنا لا أشجع على الله

إذن فقله : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان  
فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي » تعني ضرورة الاستجابة للمنتجع ، « وليؤمنوا بي » أي أن  
يؤمنوا به سبحانه لهذا حكما . وليس كل من يسأل يستجاب له بسؤاله نفسه ؛ لأن  
الأكومية تقتضي الحكمة التي تعطي كل صاحب دعوة خيراً يناسب الداعي ،  
لا بمقاييسه هو ولكن بمقاييس من يجيب الدعوة

وبديل الحق الآية بقوله : « لعلهم يرشدون » فما معنى « يرشدون » ؟ إنه يعني  
الوصول إلى طريق الخير وإلى طريق الصواب . وهذه الآية جاءت بعد آية « شهر  
رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس » كي نبين لنا أن الصفائية في الصيام  
تعمل الصائم أهلاً للدعاء ؛ وقد لا يكون حظك من هذا الدعاء الإجابة ، وإنما  
يكون حظك في العبادة ، ولكن يبين لنا الحق بعض الكليقات الإلهية للبشر فهو  
يأتي هذه الآية التي يبين بها ما يحل لنا في رمضان

يقول الحق .

﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لَبَاسُكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَأَسْأَلُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْآيِلِ وَلَا تَبَشِّرُوهُمْ وَأَسْمِعُوا كَقَوْنٍ فِي الْمَسْجِدِ يَذَّكَّرُ حُدُودَ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

بعد أن أورد لنا الحق آداب الدعاء ومرحها وأدخلها في الصوم ، يشرح لنا سبحانه داب التعامل بين الزوجين في أثناء الصيام ، ويأتى هذا التداخل والامتزاج بين الموصوعات المحتففة في القرآن لنعمهم منه أن الدين وحده متكافئة تحاطب كل الملكات الإنسانية ، ولا يريد سبحانه أب تظهر أو تطفى ملكة عن ملكة أبدا .

يقول الحق : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » وساعة تسمع « أحل لكم » فكأن ما يأتى بالتحليل كان محرما من قبل . والذي أحله الله في هذا القول كان المحرم عيه في الصيام ، لأن الصيام إمساك بالنهار عن شهوة البطن وشهوة الفرج ، فكأنه قبل أن نزل هذه الآية كان الرفث إلى النساء في ليل الصيام محرما ، فقد كان الصيام في بدايه إمساك عن الطعام من قبل الفجر إلى لحظة الغروب ، ولا اقتراب بين الزوجين في الليل أو النهار فكان الرفث في ليلة الصيام محرما وكان يحرم

عليهم الطعام والشراب بعد صلاة العشاء وبعد النوم حتى يفطروا .

وجاء رجل وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ذهبت فلم أجد أهلي قد أعدوا لي طعاما ، ففتمت ، فاستيقظت يا رسول الله فعلمت أني لا أقدر أن أكل ولذلك فأنا أعاني من التعب ، ففعل الله مسألتين : المسألة الأولى هي : الرفث إلى لسان في الليل ، والمسألة الثانية قوله الحق : « وكنوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » أي كلوا واشربوا إلى الصبح حتى ولو حصل سقم نوم ، وهذه رخصة جديدة لكل المسلمين مثلها مثل الرخصة الأولى اني جاءت للمسافر أو المريض ، كانت الرخصة الأولى بحصر من مشقة الصوم على المسافر أو المريض ، أما الرخصة الجديدة فهي عامة لكل مسلم وهي تعميق المفهوم احكم .

وقد ترك الحق هذا الترخيص مؤجلا بعض الشيء لكي يدرك كل مسلم مدى التخفيف ، لأنه قد سبق له أن تعرض إلى زلة المحالفة ، ورفعها الله عنه ، وانظر للآية القرآنية وهي تقول : « من يأس لكم وأنتم لباس من علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم » .

كلمة « تختانون أنفسكم » هذه تعني أن الإنسان لم يفو على الصوم كل الوقت عن شهوة الفرج ، فعندما تركك تخان نفسك ، ثم أنزل لك الترخيص ، ها تشعر بفضل الله عليك

إذن بعض الرخص التي يرحص الله لعباده في التكليف . رخصه تأتي مع التشريع ، ورخصة تحببية تأتي بعد أن يحى التشريع ، ليه الحق أنه لو لم يفعل ذلك لتعرضتم للحياة والمخرج « علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم » وانظر الشجاعة في أن عمر رضى الله عنه ، يذهب إلى النبي ويقول له : أما يا رسول الله ذهبت كما يذهب تشاب ، والذي جاع أيضا يقول لرسول الله عليه الصلاة والسلام : إنه جاع ، وجاء التشريع لباس كل المواقف ، فمعك نهاراً عن شهوة البطن والفرج ، وليلاً أحل الله لنا شهوة النفس والمرح ، وهذا التخفيف إنما جاء بعد وقوع لاحيان ليدلنا على رحمة الله في أنه قدو طرف الإنسان ، « أحل لكم ليلة



الصيام الرث إلى سائرهم ، و الرث ، هو الاستمتاع بالمرأة ، سواء كان مقدمات أو جماعاً . « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا عملية التحام الرجل والمرأة بكلمة الله ، و « اللباس » هو الذي يوضع على الجسم للستر ، فكأن المرأة لباس للرجل والرجل لباس للمرأة واللباس أول مدلولاته ستر العورة . فكأن الرجل لباس للمرأة أى يستر عورتها ، والمرأة تستر عورته ، فكانت عملية تبادليه ، فهذا يحدث فى الواقع فهما يلتفان فى ثوب واحد ، ولذلك يقول : « بأشروهن » أى هات البشرة على البشرة .

إذن ، فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا أن المرأة لباس سائر للرجل ، والرجل لباس سائر للمرأة ، ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يظل هذا اللباس مستراً بحيث لا يفصح شيئاً من الزوجين عند الآخرين . ولذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام يحدث بين الرجل وأهله شيئاً بالليل وبعد ذلك تقول به المرأة نهائياً ، أو تقول به لرجل ، فهذا الشيء محكوم بقضية الستر المتبادل .

« هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » . وما دام هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، يكون من رحمة التشريع بالإسكان وقد قسم الرجل والمرأة لباس واحد وبعد ذلك يطلب منهما أن يمتعا عن النواص .

إذن ، فقوله : « تحتلون أنفسكم » كان مسألة حتمية طبيعية ، ولذلك قال الحق بعدها : « فات عليكم » ومعنى « باب عليكم » هو إخبار من الله بأنه تاب ، وحين يخبر الله بأنه تاب ، أى شرع لهم التوبة ، والتوبة كما نعرف تأتى على ثلاث مراحل . يشرع الله التوبة أولاً ، ثم تتوب أنت ثانياً ، ثم يقبل الله التوبة ثالثاً ، « وعما عنكم » لأنه ما دام قد جعل هذه العملية لحكمة إيراد سمو التشريع فى التخفيف ، فيكون المقصد أن تقع هنا وأن يكون العمود منه . سبحانه .

ويقول الحق : « فالآن بأشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم » فلم يشأ أن يترك المباشرة على عبادها ، فقل : أنت فى المباشرة لابد أن تتذكر ما كتبه الله ، وما كتبه الله

هو الإعفاء بهذا اللغز والإحجاب ، فانواة تقصد إعفاء الرجل حتى لا تمتد عينه إلى امرأة أخرى ، وهو يقصد أيضاً بهذه العملية أن يعفها حتى لا تنظر إلى غيره ، والله يريد الإعفاء في تلك المسألة لينشأ الطفل من هذا اللقاء على أرض صبة من الطهر والنقاء .

وحق لا يشكك الرجل في يصنع منه هم أبائوه ، والحق سبحانه يريد طهارة الإنسان ، فكل سئل يجب أن يكون محسباً عن من استمتع ، وبعد الاستمتاع ، عليه أن يتحمل البعة ، فلا يصح لمسلم أن يستمتع ويتحمل سواء تبعه ذلك ، فالمسلم يأخذ كل أمر بحقه . « فالآن باشروهم وابتعوا ما كتب الله لكم » أي ما كتب الله من أن الرواح للإعفاء والإحجاب . وفي ذلك طهارة لكل أفراد المجتمع ولذلك قال صلى الله عليه وسلم .

« وفي يصح أحدكم صدقة قالوا يا رسول الله أي أن أحداً شهوته ويكون له أجر ؟ قال : أريتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وذر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » (١)

ويتبع الحق : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخط الأبيض من الخط الأسود » أي إلى أن يتضح لكم العجر الصادق وكان هناك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أديان للمجر ، كان بلال يؤذن بليل ، أي وما زال الليل موجوداً ، وكان ابن أم مكتوم يؤذن في اللحظة الأولى من العجر ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإن سمعتم أذان ابن أم مكتوم فأمسكو » . لكن أحد الصحابة وهو عدى بن حاتم قال : أنا جعلت بجوارى حيطاً أبيض وحيطاً أسود ، وأظن أكل حتى أتين الحيط الأبيض من الخط الأسود فقال له : إنك لمريض الفقا ( أي قليل المعطة ) فالمراد هنا بياض النهار وسواد الليل .

ويتابع الحق : « ثم أتحموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد » . لقد كانوا يفهمون أن لمباشرة في الليل حسب ما شرع الله لا تفسد

الصوم . ولكن كان لابد من وضع آداب لسلوك داخل المسجد أو لأداب منه الاعتكاف التي سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم في العشر الأواخر من رمضان هذا أوضح الحق أن خلال المباشرة بين الرجل وروحته هو لعبير المعتكف وفي غير ليل رمضان أما يعتكف في المسجد فذلك الأمر لا يحل له ، ومعنى الاعتكاف هو أن تحصر حركتك في رمى ما عن وجودك في مكان ما ، ولذلك يقولون : خلال معتكف هذه الأيام : أي حبس حركته في رمى ما في مكان ما ، وليس معنى ذلك أن الاعتكاف معصور على العشر الأواخر من رمضان فقط ، ولكن للمسلم أن يعتكف في بيت الله في أي وقت

واحتسب العبد في الاعتكاف ، بعضهم اشترط أن يكون المرء صائماً حين يعتكف ، واشترطوا أيضاً أن يكون الاعتكاف لمدة معينة ، وأن يكون للمسجد ، وقالوا : إن أردت الاعتكاف ، فاحصر حركتك في مكان هو بيت الله

وكثير من العلماء يقولون : إنك إذا دخلت المسجد تأخذ ثواب الاعتكاف مادمت قد سويت سنة الاعتكاف ؛ بشرط ألا تتكلم في أي أمر من أمور الدنيا ؛ لأنك حدثت من حركتك لمصلحة في الأرض إلى بيت الله في تلك اللحظة ، فحصل لحطائك لله ، ولذلك حينما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يشد صائغته في المسجد ، أي شيك قد صاع منه - فقال له : « لا ردها الله عليك فإن المسجد لم ينس لهذا »<sup>(١)</sup>

لماذا ؟ لأن المسجد مكان للعبادة ، ولذلك أقول لمن يحدثني في المسجد بأي شيء يتعلق بحركة الحياة : « أشتر شئ لم تنفع » ؛ لأنك دخلت المسجد للعبادة فقط ، إن لحظة دخولك المسجد هي لحظة جئت فيها لتقرب من ربك وتناجيه ، وتعيش في حضن عنابته ، فلماذا تأتي بالدنيا معك ؟ ولكن لما في أحد الصحابة قدوة حسنة ؛ كان يقول : كما نخلع أمر الدنيا مع نعالنا ، وراود صحابي آخر فقال له : ورد يا أحمى أما سرك أقدارنا مع نعالنا .

نظر إلى الدقة ، إن الصحابي المتبع لا يخلع الدنيا مع نعله فقط على باب المسجد ، ولكن يخلع أيضاً قدره في الدنيا ، فيمكن أن تأخذك الدنيا ساعات اليوم

الكثيرة ، والمسجد لن يأخذ منك إلا الوقت القليل ، فصح فدرك مع بعلتك شوارع المسجد ، ودخل بلا قدر إلا قدر إيمانك بالله واجلس في المكان الذي تجده تعالى ، فلا تتخط الرقاب تتصل إلى مكان معين في المسجد . فأنت تدخل عبودية لله وقد يأتي مجلسك بجانب من يخدمك ، والصغير يقعد بجانب الكبير ، ولا تلحظ لك قدراً إلا فدرك عند الله .

إن لشي صلى الله عليه وسلم كان يجلس حيث ينتهي به المجلس أي عندما يجد مكاناً له ، وهذا خلاف زماناً حيث يحجز إنساناً مكاناً لإنسان آخر بالسجادة ، وقد يدخل إنسان ليتخطى الرقاب ، ويخس في الصف الأول وهو لا يعلم أن الله قد صف الصفوف قبل أن يأتي هو إلى المسجد وما دمت مشترك أفدونا فلا تقل أين سأجلس ويجوار من ؟ بين اجلس حيث ينتهي بك المجلس ولا تتخطى الرقاب . وانو الاعتكاف ولا تتكلم في أي أمر من أمور الدنيا حتى لا تدخل في دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم دالا يبارك الله لك في الصلاة التي تشدها وتطلبها .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان ، فهل معنى ذلك أن الاعتكاف لا يصح إلا في المساجد ؟ لا ، إن الاعتكاف يصح في أي مكان ، ولكن الاعتكاف بالمسجد هو الاعتكاف الكامل لأنك تأخذ فيه بالزمان والمكان معاً .

« ولا تبأثروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها » ومعنى الحد « هو الماصل المانع من اختلاط شيء بشيء » وحدود الله هي محرمه . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

« ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كراح يرمى حول الحمى يوشك أن يواقع » ألا إن لكل منك حمى ، ألا وإن حمى الله تعالى في أرضه محاربه <sup>(١)</sup> . إذن ، فالمحارم هي التي يضع الله لها حداً فلا نتعداه . ولك أن تلحظ أنه ساعدت ينهي

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن النعمان بن بشير وهو هنا جزء من الحديث

الله عن شيء فهو يقول : « فلا تقربوه » وساعة يأمر بأمر يقول سبحانه : « فلا تعتسوها » . وفي ذلك رحمة من الله بك أيها المكلف .

فلا تجعل أمر أنك تأنيك وأنت في معصيتك ؛ فقد تكون جملة ، صحيح أنك لا تتوى أن تفعل أي شيء ، لكن عليك ألا تقرب أسباب لنوامي ، ومثال ذلك تحريم الخمر لقد أمر الحق ما جتنب أي ألا تقرب حتى مكان الخمر ؛ لأن الاقتراب قد يُرَبِّح لك أمر احتسابها ؛ إذن فنكني تمتع نصحت من تلك المحرمات فعليك ألا تقرب النوامي . وفي الأوامر عليك ألا تتعداها

وبديل الحق الآية بقوله : « كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » . والآيات هي المعائب ، وكل آية هي شيء عجيب لافت ، لذلك نقول : هذه آية في الخس ، وتلك آية في الجهاك ، وقد نطلق الآية أيضا عن السمة ؛ لأن السمة أو العلامة هي التي تلتفتنا إلى الشيء ، فيكون ما جاء بالآية دخلا في معنى قوله الحق : « تلك حبود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله بانه للناس لعلهم يتقون » .

ولقد أوضحت هذه الآية والآيات السابقة عنها ، تشريعات الصيام والاستثناء من التشريع رهنا للحظر ودعما للعشقة بعد أن تقع ، وكل ذلك ليستوفى التشريع كل مطبوعات الله من المشرع له . وحين يأخذ كل إنسان ذلك البيان الوافي من ربه ويسيطر به على حركة حياته في صوء منهج الله يكون قد نفى والتوى - كما يعلم - ليت للدار هط ، ولكها انتهاء نكل مشاكل الحياة ؛ فالذي يجعل الحياة بيئة بالمشاكل هو أنا يأخذ بالقوانين التي بسببها لا نعسا ونعمل بها ، ولكن إذا أخذنا تفقيس الله لنا بمعنى ذلك أنه نتمى مشاكل . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾

( من الآية ١٧٤ سورة طه )

أي أن حياته تمتلئ بالهموم والمشاكل ، لأن يحالف منهج الله وإذا لم تشا المشاكل مع المحالقات يقال الناس : حالنا منهج الله وقلحا ، لذلك كان لابد أن نوحده المشاكل لتسهل أن منهج الله يجب أن يسيطر . وحين يتمسك الناس بمنهج

الله ، لن تأتى لهم المشاكل يخذ الله .

وانظر إلى دقة الأداء القرآني في ترتيب الأحكام بعضها على بعض ، فالإنسان المخنوق لله في الأرض المسحرة له بكل ما فيها ، له حياة يجب أن يحافظ عليها وتبقى الحياة ببقاء الرزق في الاقتنيات من مأكّل ومشرب ، وكذلك يبقى النوع الإنسان بالتزواج . وتكلم الله في رزق الاقتنيات ، فجعله للناس جميعاً عندما قال :

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلًّا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا مَطْبُوعًا ﴾

( من الآية ١٦٨ سورة البقرة )

وتكلم سبحانه مخاطباً المؤمنين في شأن هذا الرزق ، فقال :

﴿ يَتَأْتِيهَا الْبُيُوتُ آمِنًا مَكُودًا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾

( من الآية ١٧٢ سورة البقرة )

وبعد ذلك شاء الله أن يديم على المؤمنين به قضية التكليف محرم عليهم الطعام والشراب والسكاح في أيام رمضان ، وهي حلال في غير رمضان ، وأحلها الله في ليل رمضان . ود كان قد برّش أن كل حركة في الحياة هدفها بقاء الحياة ، وإذا كان بناء الحياة سويها على الطعام ، وهو أمر ضروري لكل إنسان ، وإذا كانت الحياة تمتد وتتوالى باستمرار النوع ، فيبلغ الرجل ويصبح ويصير أهلاً للإحصان ، وتبلغ المرأة وتصبح ويصير أهلاً للحمل ، وإذا كانت كل المسائل السابقة لازمة للجميع ، فلا بد من تشريع يظم كل ذلك

إن التشريع يسمح لك أن تأكل مما غلت ، أو تأكل مما لا مالك له ، كنبات الأرض غير المملوكة لأحد ، إلا أنك قبل أن تأكل لابد أن تنظر في الطعام لتعرف هل هو مما أحل الله أم لا ؟ ولتشريع لا يسمح لك أن تأكل من سلب الأرض المملوكة لميرك . وعزم عليك أن تصطاد حيوانات مملوكة لميرك ، فالتشريع يحترم الجهد

الذى تحرك به مالك الأرض يزرع النبات أو يربي الحيوان ، فلا تقل : إن ذلك النبات في الأرض وأنا أكل منه ، أو أن ذلك حيوان موجود أمامي وأنا اصطدته .

إن الحق يصعب التشريع لينظم الحركة في المال المملوك للغير بعد أن نعلم الحركة في المال غير المملوك ولطعم غير المملوك ، فإذا سبقك إلى المال غير المملوك أو الطعام غير المملوك إنسان ، أو تحرك إنسان يحرك في الوجود فاستبط مالاً حشرت هناك نصبة أخرى لا تتعلق بذات المأكول ، ولكن بملكه المأكول ، فقد بين الله سبحانه أن كل عمليات اقتناث في الحياه عملية لا يمكن أن تستقل بها أب ، فلا بد من احتلاط حركة الآخرين معه ، فانت لا تأكل إلا بما يكون في أيديهم ، وهم لا يأكلون إلا بما يكون في يدك

فالعلاج مثلاً يدر البذر ، ولكنه يحتاج إلى اصصاع الذي يصنع له العنفس ، ويصنع له المحراث ، ويصنع له الساقية ، والذي يصنع ذلك يحتاج إلى من يعلمه ، ويحصر له المواد الخام ، إذن فلو سلسلت الأشياء التي توصلك إلى الطعام لوجدت حركات انكون كلها تخدم هذه المسألة وهكذا نجد أن الأكل من المال المتداول أمر شائع بين البشر ، ويريد الله أن يصبطه بنظام فقال سبحانه

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى  
الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ  
بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

ومادامت أموالى فلماذا لا أكلها؟ إن الأمر هنا لجميع ، ولأموال مصابه للجميع ، فلماذا ساعة يكون ملكا لي ، فهو في الوقت نفسه يكون مالاً ينفع به الغير

إن، فهو أمر شائع عند الجميع ، لكن ما الذى يحكم حركة تدوئه ؟ إن الذى يحكم حركة تدوئه هو الحق الثابت الذى لا يتغير ، ولا يحكمه الباطل . وما معنى الباطل ، والحق ؟ إن الباطل هو الزائل ، وهو الذى لا يدوم ، وهو للذهاب . والحق هو الثابت الذى لا يتغير فلا تاكل بالباطل ، أى لا تاكل مما يملكه غيرك إلا بحق أثبتته الله بحكم فلا تسرق ، ولا تفتصب ، ولا تخطف ، ولا تترتش ، ولا تكن خائفاً فى الأمانة التى أنت مركل بها ، فكل ذلك إن حدث تكن قد أكلت المال بالباطل .

وحين تاكل بالباطل فلن تستطيع أنت شخصياً أن تعفى غيرك مما أبحته لنفسك ، وسياكل غيرك بالباطل أيضاً . وما يربى تاكل بالباطل وغيرك ياكل بالباطل ، هنا يصير الناس جميعاً نهباً للناس جميعاً . لكن حين يُحكّم الإنسان بقضية الحق، فأنت لا تأخذ إلا بالحق ، ويجب على الغير ألا يعطيك إلا بالحق ، وبذلك تخضع حركة الحياة كلها لقانون ينظم الحق الثابت الذى لا يتغير ، لماذا ؟ لأن الباطل قد يكرى له علو ، لكن ليس به استقرار ، فالحق سبحانه وتعالى يقول .

﴿أمرل من السماء ماء فأنالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رأبها ومما يُوقدون عليه فى النار أبغضاً حلوة أو مراع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الربد فيذهب جفأً وأما ما يندع الناس فهمك في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال (١٧)﴾

وساعة ترى مطراً يبرل فى مسيل وواد ، فأنت تجد هذا المطر قد كنس كل القش والقادورات وجرفها فطفت فوق الماء وبها رغو ، وكذلك فأنت عندما تدخل الحديد فى النار تجده يسيل ويخرج منه الخبث ويطفو الخبث فوق السطح ، وهكذا نجد أن طفو الشيء وعلوه على السطح لا يعنى أنه حق ، إنه سبحانه يعطينا من الأمور المخصصة ما نستطيع أن نميز من خلاله الأمور المعنوية . وهكذا ترى أن الباطل قد يطفو ويعلو



إلا أنه لا يدوم ، بل ينتهي ، والمثل العالمي يقول : « يعود ويعود » .

إن الله يريد أن تكون حركة حياتنا بطيئة شريفة ، حركة كريمة فلا يدخل في بطنك إلا ما عرفت من أحله ، وتأخذ كل إنسان حقه . وقل أب يفكر الإنسان في أن يأكل عليه أن يتحرك ليأكل ، لا أن ينتظر ثمرة حركة الآخرين ، لماذا ؟ لأن هذا الكسل يشيع للمرضى في الحياة . وحين يرى إنساناً لا يعمل ويعيش في راحة ويأكل من عمل غيره فإن هذا الإنسان يصبح مثلاً يجتدي به الآخرون فيقع الناس جميعاً بالسكون عن الحركة ويعيشون عالة على الآخرين . وتترتب على ذلك توقف حركة الحياة ، وهذا باطل رائل ، وبه تنهى ثمار حركة المحرك ، وهذا يجرع الكل .

إن الحق يريد للإنسان أن يتحرك ليشبع حاجته من طعام وشراب وملوى . وبذلك تسمر دورة الحياة ، به سبحانه يريد أن يقسم لنا شرف الحركة في الحياة بمعنى أن تكون لك حركة في كل شيء تنتفع به ، لأن حركتك لن يقتصر نفعها عليك ، ولكنها سلسلة متداخلة من الحركات المختلفة ، وحين تشيع أنت شرف الحركة فالكمل سيتحرك مع هذا الشرف ، لكن الباطل يتحقق بعكس ذلك ، فبت حين تأكل من حركة الآخرين تشيع المرضى في الكون

وعلى هذا فالحركة الخلال لا يمكن فيها أن تتحرك فقط ، ولكن يجب أن تنظر إلى شرف الحركة ألا تكون في الباطل ، لأن الذي يسرق إنما يتحرك في سرقته ، وبكر حركته في غير شرف وهي حركة حرام . إذن كل مسروق في الوجود ينتج عنه حركة باطلة ، وكذلك الغصب ، والتدليس ، والعش ، وعدم الأمانة في العمل ، والخيانة في الوديعة ، وإنكار الأمانة ، كل ذلك باطل ، وكل حركة في غير ما شرع الله باطل ، حتى المعونة عن حركة في غير ما شرع الله ، كل ذلك باطل

ويقول لنا الحق سبحانه : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » أي بياكم ن تأكلوها بالباطل ثم تدلوا بها إلى الحكام ليجزوا لكم أب هذا الباطل هو حين لكم فهناك أناس كثيرون يرون في فعل الحاكِم مبرراً لأن يفعلوا مثله . وهذا امر حاصي : « لأن كل إنسان مشغول عن حركته

لا تقل إن الحاكم قد شرع أعمالاً وتلقى عليه نعمة أفعالك ؛ ومثال ذلك تلك الأشياء التي يقول عليها إنها مومن جميلة من رقص وعناء وخلاعة ، هن إباحة الحكومات هـ وعدم منعها لها هل ذلك يجعلها حلالاً ؟ لا ؛ لأن هناك فرقاً بين الديانة المدنية والديانة الربانية . ولذلك تجد أن الفساد إنما يشأ في الحياة من مثل هذا السلوك

إن الذين يشتغلون بعمل لا يقره الله فهم يأكلون أموالهم بالباطل ، ويدخلون في بطون أودهم الأبرياء مالا باطلاً ، وعن الذين يأكلون من مثل هذه الأشياء أن يتسوها جيداً إن أن الذي يوعهم ، إنما أدخل عليهم أشياء من هذا الحرام والباطل ، وعندهم أن يذكروا ربهم وأن يقولوا : لا نأكل من هذا المصدر ؛ لأنه مصدر حرام وباطل . ونحن قد حققنا الله وهو سبحانه متكامل برزقنا

ونأصمح كثيراً عن يقولون : إن هذه الأعمال الباطنة أصبحت مسائل حياة ، تربت الحياة عليها ولم يعد يستطيع الاستعناء عنها . وأقول لهم : لا ، إن عليكم أن تربيو حياتكم من جديد على عمل حلال ، وإذا أصبر واحد على أن يعمل عملاً غير حلال ليصير من هو تحته ، فعل المعال أن يعف منه مرقها يرد ، ويصر على ألا يأكل من باطل

وتصوروا ماذا يحدث عندما يرفض ابن أن يأكل من عمل أمه التي ترقص مثلاً أو تبيع ، أو عمل والده إذا علم أنه يعمل بالباطل ؟ المسألة ستكون قاسية على الأب أو الأم نفسيهما

إن الذين يقولون : إن هذا رزقنا ولا رزق لنا سواه ، أقول لهم : إن الله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب ، ولا يعلى إنسان أن عمله هو الذي سيرزقه ، إنما يرزقه الله بسبب هذا العمل . فإن استغل من عمل باطل إلى عمل آخر حلال فلن يصن الله عليه بعمل حق ورزق حلال ليقفاته منه .

وقد عالج الحق سبحانه وتعالى هذه القضية حيناً أراد أن يحرم بيت الله في مكة

على اشركين ، لقد كان هنالك اقدس يعيشون على ما يأتي به  
المشركون في موسم الحج ، وكان اهل مكة يبيعون في هذا الموسم  
الاقتصادي كل شيء للمشركين الذين يأتون للبيت ، وحين يحرم الله  
على المشرك ان يذهب إلى البيت الحرام فعادوا يكون موقف هؤلاء :

ان اول ما يخطر على البال هو الظن القاتل : « من اين  
يعيشون ؟ » ولنتأمل القضية التي يريد الله ان ترسخ في نفس كل  
مؤمن قال الحق :

﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾

(من الآية ٢٨ من سورة التوبة)

ثم يأتي القضية التي تشغل بال الناس فيقول

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾

(من الآية ٢٨ من سورة التوبة)

وهكذا نرى ان هذه القضية لم تشغف على الله فلا يقول احد ان  
العمل الباطل الحرام هو مصدر رزقي ، وان أستطيع العيش لو تركته  
سواء كان تلحيناً او عزفاً او تأليفاً للأغاني الخليفة ، او الرقص ، او  
تحت تائب نقول له لا ، لا تجعل هذا مصدراً لرزقك والله يقول  
لك : « وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » رأت عندما  
تتقى الله ، فهو سبحانه يجعل لك مخرجاً « ومن يتق الله يجعل له  
مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » ، وعليك ان تترك كل عمل  
فيه معصية لله وانظر إلى يد الله الممدودة بك بخيره .

إن، فقول الله « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ » تنبيه للناس  
ألا يدخلوا في بطونهم ويطؤون من يقولون إلا مالا من حق ، ومالا  
بسرقة شريفة ، نضيقة ، رليكن سند المؤمن دائماً قول الحق

﴿وَمَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ يُجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ﴾ (٣)

(سورة العلق)

ونأ أن نعرف أن مَنْ أَكَلَ بَاطِلٍ جاع بحق ، أي أن الله يثليه بمرض يجعله لا يأكل من الحلال الطيب ، فتجد إنساناً يمتلك أموالاً ويستطيع أن يأكل من كل ما في الكون من مطعم ومشرب ، ولكن الأطباء يحرمون عليه الأكل من أطعمته متعددة لأن أكلها يزل وخطر على صحته ، وتكون لنعمة أسامة وملك يديه ، ولكنه لا يستطيع أن يأكل منها بحق . وفي الوقت نفسه يستمتع بالنعمة أولاده وحدهم رعاشيته وكل مَنْ يمولهم ، مثل هذا الإنسان يقول له لا بد أنك أخذت شيئاً بالباطل فحرمك الله من الحق

ومن هنا نقول « مَنْ أَكَلَ بَاطِلٍ جاع بحق » . وكذلك نقول : « مَنْ اسْتَعْلَ وسيلة في باطل أراد الله قسحها بحق » ، فالذي ظلم الناس بفوته وبمعضلاته المفتولة لا بد أن يأتي عليه يوم يصبح ضعيفاً

والمرأة التي تهز وسطها برشاقة لا بد أن يأتي عليها يوم يتيسر وسطها فلا تصبح قادرة على الحركة ، والتي تخايل الناس بجمال عيوبها في اليمن والشمال لا بد أن يأتيها يوم ونعمى فلا ترى أحداً ، ويصر الناس من دماستها .

إن كل مَنْ أَكَلَ بَاطِلٍ سيجوع بحق ، وكل مَنْ اسْتَعْلَ وسيلة بباطل أراد الله قسحها بحق ، واكتب قائمة أمامك لِمَنْ تعرفهم ، واستعرض حياة كل مَنْ اسْتَعْلَ شيئاً مما خلقه الله في إشاعة انحرافه ما أو جملة وسيلة لباطل لا بد أن يريه الله باطلاً فيه .

وأنا أريد الناس أن يعملوا قائمة لكل المحرفين عن منهج الله ، ويتأملوا مسيرة حياتهم ، وكل منا يعرف جيرانه وزملاءه من أين يأكلون ؟ ومن أين يكتسبون ؟ ليتأمل حياتهم ويعرف أحوال الحلال والحرام ويجعل حياتهم عبرة له ولأولاده ، كيف كانوا؟ وإلى أي شيء أصبحوا ؟ ثم ينظر حوائيم هؤلاء كيف وصلت .

ومن حينئذ لولا الهامس بقولهم . تداركوا أمر أنفسكم فليس نخدعوا الله في أنكم  
تجمعون المال الحرام ، وبعد ذلك تخرجون منه الصدقات ، إن الله ليس يقبل منكم  
عملكم هذا ، لأن الله طيب لا يقبل إلا الطيب .

ونحن نسمع عن كثير من المحرفين في الحياة يذهبون للحج ، ويقبضون مساجد  
ويتصدقون ، وكل ذلك مآموال مصيرها حرام ، ولولا نقول إن الله غني عن  
عبادتكم ، وعن صدقاتكم الحرام ، ونصحهم بأن الله لا يتظر منكم بناء بيوت له  
من حرام أو اتصدق على عباده من مال مكتسب بغير حلال ، لكنه سبحانه يريد  
مكم استقامة على المسج .

وحين نكمل الآية نجد فيها عجباً ، يقول الله عز وجل : « ولا تأكلوا أموالكم  
بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام » لقد ذكر الحق الحكام في الآية ، لأن الحكام هو  
الذي يقس ويعطي مشروعية للماك ولو كان باطلاً ، وقوله سبحانه : « تدلوا » مأخوذة  
من « أدلى » ، ونحن ندلي الدلو لرفع الماء من البئر ، دلاء « أي أخرج الدلو ، أما  
« أدلى » فمعناها « أنزل الدلو » ولذلك في قصة الشيطان الذي يعوى الإنسان  
قال الحق :

﴿ فَتَنَّهُمَا بِعُرْوَةٍ فَلَمَّا ذَاقَا شَجِرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ﴾

(مر الأ ٢٢ سورة الأعراف)

« وتدلوا بها إلى الحكام » أي ترشوا لحكام لتأكلوا مريقاً من أموال الناس  
الباطل ، ومن العجيب أن هذا النص بعينه هو نص الرشوة والرشوة مأخوذة من  
الرشاء ، والرشاء هو الخيل الذي يعلق فيه الدلو ، فأدلى ودلاً في الرشوة . وماذا  
يلتصق بها إلى الحكام ؟ إسم يفعلون ذلك حتى يعطيهم لحكام التشريع لتتفق لأكل  
أموال الناس بالباطل ، وذلك عندما يكون محكومين بقوانين لبشر ، لكن حينما يكون  
محكومين بقوانين الله فالحكام لا يبيح مثل هذا العمل

ولذلك وصح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا ابداً فقال : « إنما أنا بشر وإنه  
يأتيني الخصم فلعل معصكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحب إليه صادق فأنصلي له

بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليركها» (١) . إن الذي يقول ذلك هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المعصوم ، إنه يحذر من أن يحاول أحد أن يبالغ في قوة الحججة ليأخذ بها حياً ليس له

إذن فحين يُقن الفساد فذلك نتيجة أن الأحكام يقر ذلك ، ويأخذ الإنسان بحكم الأحكام كأمر عائى ، مثال ذلك : بعض من الأحكام لم يجرموا الربا ، ويتعامل به الناس بدعوى أن الحكومات تحمله ، فلا حرج عليهم . ومثل هذا الفهم غير صحيح ؛ لأن الحكومات لا يصح أن تحمل ما حرمه الله ، وإن حدث ذلك فعلى المؤمن أن يحتاط وأن يعرف أنه والأحكام محكومون بقانون إلهى ، وإن لم تقس الحكومات الحلال من أجل سلطتها الرسمية فعلى المؤمن ألا يجرح عن تعاليم دسه

وإذا نظرنا إلى أى فساد فى الكون ، فى أى مظهر من مظاهر الفساد فسجد أن سببه هو أكل المال بالباطل ، ولذلك لم يترك الحق سبحانه وتعالى تلك المسائل عاتية ، وإنما جعلها من الأشياء المشاهدة . وأنت إن أردت أن تعرف خلق أى عصر ، واستقامته الدينية وأمانته فى تصريف الحركة فاطر إلى المعيار فى أى عصر من لعصور ، نظر إلى المبادئ ومن حلالها تستطيع أن تقيم أخلاق العصر . إنك إن نظرت إلى عمليه النساء الآن تجد فيها استعمال المال ، وعدم أمانة المبدأ ، وحبنة العامل ، وكل هذه الخواص تراها فى المعيار . لتتظر مثلاً إلى مجمع التحرير ولسترجع دريح سائنه ، ولنعرفه بمبنى هيئة البريد أو دار القضاء العالى وما سى فى عهدهم

ولنظر إلى المبنى والإشاعات التى يسمع عنها رتهار فوق سكاتها وسقارها بمبنى هيئة البريد أو دار القضاء العالى ، سجد أن المبنى القديمة قامت على الدمة والأمانة ، أما المبنى الذى تنهار على سكاتها فى زماننا أو تعالى من تلف وصلات الصرف الصحى فيها ، تلك المبنى قامت على عش الممول الشره الطامع ، والمهندس المدلس الذى صمم أو أشرف على البناء أو الذى سبهم لى وأمر صلاحته ، ومرور بالعامل الخائن ، وتكون النتيجة أصحاب أرباء لا دس هم ، يهار عليهم المبنى

ويخرجون حثيثاً من تحت الأعراس ، إن كان ذلك منه أكل لما بالظلم ، ولقد نظر  
الشاعر أحمد شوقي في هذه المسألة ، وجعل الأحلاق والسدس من سادس قصيد  
اليس يعبر بيان يوم إذا احتلأهم كتب حرب

والله اعلم بغير الله أن بعد سحلا محفوظ لكل عي : هو سادس ، وتحت في هذه  
السجل اسم كذا ، « مهدي من يدى اشرف على سادس ، وكذا من اسم عمن السدس ،  
اعمال ينصب ، ولا عي ، لصحية ويكهر سادس وكذا عي : يدى سادس في  
سادس ، ويحفظ كل ذلك في مدح حامس سادس ، وعدم عدي في سادس ، سادس  
سولاه ، كل في تحفصة ومحاسنهم على ما قصروا منه من عمل ، ولا عي : روح  
سادس سادس سادس ، فكل سادس به راحة في هذه الحية ، عنه لا يصح على  
نصيب عه

وحب ما أحد سادس ، بطور ، حتى لا يتقدم أحد على دور الآخر ، وقد جاء  
ذلك في « الطانور » من الساعة السبعة صباحاً وأحد دور ، وجاء آخر متحرراً بعد  
النام ، سرح ثم قضى جميع مصالحه وذهب للجمعية ووجد نصيب طويلاً ، فطر  
حياته إلى شخص يحظى هذا « الصدر » ، واعطاء ملء من المال سهل به قضاء  
حاجته مثل هذا لأبنا بعدى عن حقوق كل الواجب في « الصدر »

وقد يقول : أن أحدثت شيئاً يأخذون ، يقول له : لا ، بعد أحدثت وعن غيرك ،  
ولا يصح أن تار حر الناس وأحد حو الشخص الذى وقف في « الطانور » من  
سبعة صباحاً ، حقتك من سط برهيك ، فلا تعبد على وقت الأحرار الذين هم  
صعب من كذا أو كذا

إن خير قول : « ولا تأكلوا أموالكم بكم باسطل ويدلوا ب : إن الحكيم تأكلوا  
فريق من مؤان الناس للإثم وأنهم يعمون » ، والفريق هو الجماعة المعروفة من  
جماعة أكثر عباداً ، وقد ، انقصت حكمة صعبة عن أناس هذه الجماعة تسمى  
مرفق

والإثم الأصل فيه - ولو لم يكن هناك ديس - أن تفعل ما تُعاب عليه وتُؤثم، وكذلك تُعاب عليه وتُؤثم من ناحية الدين ، وفوق ذلك تُعاقب في الآخرة وما هو مقياس الحق والباطل ؟ إن المقياس الذي ينبغيك من الباطل هو أن تقبل لنفسك ما تقبله للطرف الآخر في أية صفقة أو معاملة ؛ لأنك لا ترضى لنفسك إلا ما تعلم أنه فيه نفعاً لك .

ثم يتقل الحق سبحانه وتعالى إلى قضية يعالج فيها أمراً واجه الدعوة الإسلامية، والدعوة الإسلامية إنما جاءت لتضع المؤمنين بالله من واقع في الحياة كان كنه أو أعليه باطلاً ، ولكنهم اعتادوه وألغوه أو استفاد أناس من ذلك الباطل ، ذلك أن الباطل لا يسمو إلا إذا كان هناك من يستفيدون منه . وجاء الإسلام ليخلص الناس من هذه الأشياء الباطلة فالحق لم يشأ أن يعلمنا أن كل أحوال الناس عارضة في الشروع ، بل كانت هناك أمور أقرها الإسلام كما هي فالإسلام لم يغير لمجرد التعبير ، ولكنه واجه الأمور الغريبة بالحياة التي لا يستفيد منها إلا أهل الباطل .

مثال ذلك كان العرف السائد في الدنيا أنها مائة من الإبل يدفعها أهل القتال ، وقد أبغها الإسلام كم هي . وحينما استقبل المسلمون الإيمان بالله ، مهم قد استقبلوا أحكامه وأرادوا أن يبنوا حياتهم على نظام إسلامي جديد طاهر ، حتى الشيء الذي كانوا يسمونه في الجاهلية كانوا يسألون عن حكمه ؛ لأنهم لا يريدون أن يصنعوه على عادة ما كان يصنع ، بل على بركة القريب إلى الله بالامثال ، إذن بهم عنقوا التكليف ، وعلسوا أن الله لم يكلفهم إلا بالنافع ، وعندما تقرأ ديسالونث ؛ في القرآن فاعلم أنها من هذا النوع . مثل ذلك قوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ .. ﴾ (٢١٩)

( سورة البقرة )

وقوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحْمُورِ قُلْ هُوَ أَذَى .. ﴾ (٢٢٢)

( سورة البقرة )



وقوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ .. (١٧) ﴾

( سورة البقرة )

وقوله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَفْقَرْتُ مِن خَيْرٍ فَلَوْلَا الدِّينُ  
وَالْأَقْرَبِينَ .. (٢١٥) ﴾

( سورة البقرة )

وقوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ .. (٨٢) ﴾

( سورة الكهف )

وقوله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ .. (٦) ﴾

( سورة الأنفال )

إذن ، فكل سؤال معناه أنهم أرادوا أن يبنوا حياتهم على نظام إسلامي ، حتى  
الشيء الذي لم يغيره الإسلام أرادوا أن يعرفوه ويصنعوه على أنه حكم الإسلام لا  
على حكم العادة .

والسؤال الذي نحن بصدده بماليج قصبة كربة . وعدمه يسأل المسلمون عن  
فضية كربة فذلك دليل على أنهم التفتوا إلى كون الله تماًناً دينياً آخر ، لقد وجدوا  
الشمس تشرق كل يوم ولا تتغير . أما القمر الذي يطلع في الليل فهو الذي يتغير ، إنه  
يبدأ في أول الشهر صغيراً ثم يكبر حتى يصبح بديراً ، وبعد ذلك يبدأ في التناقص  
حتى يعود إلى ما كان عليه ، لقد فلت نظرهم ما يحدث للقمر ولا يحدث من  
الشمس ، فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم ، أو أن بعضاً من اليهود أرادوا إحراج  
المسلمين ، فقالوا لهم : « اسألوا رسولكم عن الهلال كيف يبدأ صغيراً ثم يكبر حتى

يصير بداراً ثم يعود لدورته مرة أخرى حتى يغرب ليلين لا برء فيهما ، وهذا السؤال سجدته القرآن هي قوله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ

عَنِ الْهَلَكَةِ فِى الْمَوَاقِيتِ لِلنَّاسِ وَالْحَيِجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهِمْ كَأُولَئِكَ أَلِىَّ مِنْ أَتَقَى  
وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ  
تُقْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

لاهة جمع هلال ، وسمى هلالاً لأن الإنسان ساعة يراه يهل ، أى يرفع صوته بالتهليل . ويجب الحق سبحانه وتعالى الجواب الذى يحمل كل التفاصيل عن القمر ، وهو الكوكب الذى حصص لشاظات العقل حتى يكشغفه ، والغرب القدامى لم يكونوا يعلمون شيئاً عن ذلك القمر ، ولكنهم كانوا يورحون به ، وعلمهم به لم يرد على حدود انتفاعهم به . ولم يصلوا إلى الترف العقلى الذى يتأملون به آيات الله فى الكون ، فكل آيات الكون يُتَمَع بها ثم يشط العقل بعد ذلك ، فتعرب السب ، وعد لا ينشط العقل ، فتظل الفائدة هي العائدة

وأراد الحق سبحانه أن يفتأ لبدا مهم ، وهو أن يعلمنا كيف نستفيد من الآيات الكونية مثل القمر ، لا يكفى ظهوره واحتضاره ، وتغير حجمه ، لأن هذه لن يتسع لها العقل ، بل نستفيد منه كمحطات ، ونستخدمه لقياس الزمن . فإذا كنا ونحن نعيش فى القرن العشرين ، لم يعرف العلماء سبباً لظواهر القمر ، فكيف كان حال الذين سألوا عنها منذ أربعة عشر قرناً ؟

قال العلماء المعاصرون فى تفسيراتهم مثلاً ، إن الشمس مثل حجم الأرض مليون

وربع مبيون مرة ، والقمر أصغر من الأرض ، وعندما تأتي الأرض بين الشمس والقمر برعم حجم الشمس المائل فإن الأرض تمحجب جزءاً من القمر ، هذا الجزء المحجوب بقدر تدوير القمر المحجوب من الأرض ويصبح هذا الجزء من القمر مظلماً .

إن القمر وجوده ثابت لكن الأرض عندما توجد بينه وبين الشمس فهي التي تمحجب عنه ضوء الشمس ، ويكبر حجم نوره كلما تزحزحت الأرض بعيداً عنه وعندما تنزاح الأرض بعيداً عنه كمية يعبر في السماء بداراً كاملاً ، ثم تعود الأرض بعد ذلك لتمحجب عنه جزءاً من الشمس ، ويرداد ذلك يوماً بعد يوم ، فيقص ضوء الشمس انعكاس عليه تبعاً لذلك ، ههنا تدريجياً حتى تأتي الأرض بينه وبين الشمس فلا يظهر منه شيء .

وعن بحر إنما عندما لا يرى القمر لا في ليل ولا في النهار برعم أنه موجود في مكانه ، يقول إنه مستور في ظل الأرض ، لذلك لا نراه وهذه لظاهرة لا تحدث لشمس لأن جرم الشمس كبير جداً وعندما يحدث فإن الأثر يكون قليلاً ، يسمى بالكسوف .

وعندما انتهت الحرب لتكون قلوباً ما بان الحلال يصبح هكذا ثم يكرر حتى يصير ندراً ، فقال الحق عز وجل « قل هي موافيت للناس ولحق » إسمهم هم يسألون عن الأهنة ودورها ، فقص الله عليهم حيل تفكيرهم وأعطاهم الخلاصة والسيعة ، فقال « قل هي موافيت للناس ولحق » إن هذا الأمر هو لدى يستطيع العقل في ذلك الرمان أن يعرفه ، أما ما وراء ذلك فانظروا حتى يكشف الرمن عنه ، وجهكم به لا يقتل من بكمكم .

قد كنت كل إحاة لأي سؤال في ذلك الرمان تحتوي على ما يتسع العقل لإدراكه ساعة الشريعة ، أما بنية الإجابة فالحق يتركها للرمن ولا يعطيا إلا ما يعيد الشريعة ، مثال ذلك : كانوا قديماً يقولون : لأرض كرة وأنت ل العنم أمه كذلك ، ورأيها بالآقمار الصاعية وستهت القصبة

وعندما سأل العرب عن الأهلة أخبرنا لحق بأنها موقيت ، وأبواقيت جمع ميقات ، والميقات من ابوقت ، والوقت هو الزمن ، ونعرف أن كل حدث من الأحداث يحتاج إلى زمن وإلى مكان . إذن فالزمن والمكان مرتبطان بالحدث ، فلا يوجد زمان ولا مكان إلا إذا وجد حدث

والذى يعنى : كيف كان الزمن قبل أن يخلق الله الخلق ؟ نقول له الزمن وجد للحدث وهو المحلقات والله قديم ، وبما دام الله قديماً وليس حادث فلا زمن ولا مكان ، لا تقل متى ولا أين ، لأن متى وأين مخلوقة وكيف يعرف لوقت ؟ نحن نعرف ابوقت بأنه مقدار من الزمن ، لمقدار من الحركة ولمقدار من الفعل

وأين المكان في هذا لتعريف ؟ إن الزمان يتحكم أحياناً في المكان ، فيكون الزمان هو الأصل ، والمكان طارىء عليه ، ومرة أخرى يكون المكان هو الأصل ، والزمان هو الطارىء عليه ، ومرة ثالثة يتلارم الاثنان الزمان والمكان .

ونحن في مصر إذا أردنا الخج فإننا بدأ الإحرام عند رابع ، ونسمى رابع ميقات أهل مصر أى هي المكان الذى لا يتجاوزه من مر عليه إلا وهو محرم

إذن فالميقات قد أطلق على مكان هو رابع ، ومن فور وصول الإنسان لمصرى إن رابع بنيه لحج محرم ، سواء كان الوقت صباحاً أو ظهراً أو عصرًا أو مغرباً

ولكن عندما بدأ في الصوم فإن الزمن يصبح هو الأصل في صومك في أى مكان يذهب إليه ، إن الزمان هو الذى يحدد مواعيد الصوم ، في طسأ أو لندن أو في طركيو ، وهكذا يعرف كيف يكون الزمن ميقاتاً .

إذن مرة يكون الزمن هو المنحكم في الميقات والمكان طارىء عليه ، ومرة يكون المكان هو الذى يتحكم في الميقات ، ولزمن طارىء عليه ، ومرة يتحكم الزمان والمكان معاً في الفعل مثل يوم عرفة

وهكذا نعرف معنى « موافقت للناس » ، متحن بالهلال نعرف بدء شهر رمضان ، نعرف به عيد الفطر ، وكذلك موسم الحج وهذه امرأة ، والأشهر الحرم ، إن كل هذه الأمور إنما نعرفها بالمواقيت . وشاء الحق أن يجعل الهلال هو أسلوب تعريف تلك الأمور وحمل الشمس لتدلنا على اليوم فقط ، وإن كان لها عمل آخر في البروج التي يتعلق بها حالة الطقس والجو ، والزراعة ، ولذلك قال :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. ﴾ (٥٠)

( سورة يونس )

وانظر إلى اندفة قى الأدب وكيف يشرح الحق للإنسان ماهية النور ، وماهية الضوء . إن الشمس مضيئة بذاتها ، أما القمر فهو منير ؛ لأن ضوءه من غيره ؛ فهو مثل قطعة الحجر اللامعة التي تنعكس عليها أشعة الشمس فتعطيها نوراً . إن القمر منير بضوء غيره ، ولذلك يقول الحق في آية أخرى :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ (٦١)

( سورة الفرقان )

والسراج قى هذه الآية هو الشمس التي فيها حرارة ، وجعلها الحق ذات بروج ، أما القمر فله مازل وهو منير بضوء غيره ؛ وفي ذلك يقول الحق :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ عَتَاوَلٍ لِّيَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّ وَالْحِسَابِ .. ﴾ (٥١)

( سورة يونس )

إذن ، فعدد السنين وحسابها يأتي من القمر ، وفي زماننا إذا أردوا أن يضبطوا المعايير لزمنية فهم يقيمونها بحساب القمر ؛ فقد وجدوا أن الحساب بالقمر أصعب من الحساب بالشمس ؛ فالحساب بالشمس يحتل يوماً كل عدد من السنين

ولننهم العرق بين منازل القمر وبروج الشمس . إن البروج هي أسماء من اللغة السريانية ، وهو . برج الحمل ، والثور ، والجوراء ، والسرطان ، والعذراء ، والأسد ، والبيان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والفلو ، والحوت ، وعددها اثنا عشر برجاً هذه هي أبراج الشمس ، ويتعلق بها مواعيد الرزق والطقس والجو ، ويجب أن نفهم أن الله في البروج أسراراً ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى جعلها قسماً حين يقول . « والسما ذات البروج » .

ولذلك نجد أن التوقيت في الشمس لا يختلف ، فالشهور التي تأتي في الرد ، والتي تأتي في الحر هي هي ، وكذلك التي تأتي في الخريف ، والربيع ، وبين السنة الشمسية والسنة القمرية أحد عشر يوماً ، والسنة القمرية هي التي تستخدم في التحديد التاريخي للشهور العربية ونعرف بداية كل شهر بالهلال

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾

( من الآية ٢٦ سورة التوبة )

ولذلك كانت تكاليف العبادة محسوبة بالفرس حتى تسير المنازل القمرية في البروج الشمسية ، هيأت التكليف في كل جو وحقق من أحوال السنة ، فلا تصوم رمضان في صيف دائم ، ولا في شتاء دائم ، ولكن يقبّل الله مواعيد العبادات على سائر أيام السنة ، والذين يعيشون في المناطق المارة مثلاً لو كان الحج ثابتاً في موسم الصيف لما استطاعوا أن يؤدوا الفريضة ، ولكن يدور موسم الحج في سائر الشهور فعندما يأتي الحج في لشتاء يسر لهم مهمة أداء الفريضة في متاح قريب من متاح بلادهم

وهكذا نجد أن حكمة الله اقتضت أن تدور مواعيد العبادات على سائر أيام السنة حتى يستطيع كل الناس حسب ظروفهم المادية أن يؤدوا العبادات بلا مشقة . إذن فالمنازل شائعة في البروج ، وهذا سبب قول بعض العلماء إن ليلة القدر تمر دائره في كل ليالي السنة ، وذلك حسب سياحة المنازل في البروج

إذن فهناك بروج للشمس . ومنازل للقمر ، ومواقع للسحور ، ومواقع الحجوم

هي التي يقسم بها الله سبحانه في قوله :

﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ الْجُجُومِ ٧٦ وَإِنِّي لَأَقْسَمُ لَوَ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٧ ﴾

( سورة الرقعة )

ولعل وقت يأتي يكشف الله فيه للمشيرة أثر مواقع الججوم على حياة الخلق وذلك عندما تنهيا النفوس لذلك وتقدر العقول على استيعابه . إذن كل شيء في الكون له نظام . للشمس بروج ، وللقمر منازل ، وللججوم مواقع . وكل أسرار الكون ونواميسه ونظامه في هذه المخلوقات . وقد أعطانا الله من أسرار الأهلّة أمها مواقيت للناس والحج . وعندما تكلم سبحانه عن الحج أراد أن يعطينا حكماً متعلّقة به ، فقد كانت هناك مسائل من العرب تعرف بالحجس ، هؤلاء الحجس كانوا متشككين في دينهم ومتحسسين به ، ومنهم كانت قريش ، وكنانة ، وحنعم ، وحشم ، وبوصعصاع بن عامر . وكان إذا حج الفرد من هؤلاء لا يدخل بيته من الباب ؛ لأنه أشعث أغبر من أثر أداء مناسك الحج . ويحذرون أن يدخل بيته على غير عادته . بذلك كان يدخل من ظهر البيت ، وكان ذلك تشديداً مهم ، لم يرد الله أن يشرعه حتى لا يطلع على شيء يكرهه في روجه أو أهله . وأراد سبحانه عندما ذكر مناسك الحج في القرآن أن يبقى المناسك من هذه العادة المألوفة عند العرب فقال .

« وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون » أي لا تجعلوا المسائل شكلية ، فنحن نريد أصل البر وهو الشيء الحسن النافع

ولملاحظ أن كلمة « البر » في هذه الآية جاءت مرفوعة ، لأن موقعها من الإعراب هو « اسم ليس » وهي تختلف عن كلمة « البر » التي جاءت من قبل في قوله تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمعرب » اتقى جاءت منصوبة ، لأن موقعها من الإعراب هو « خبر مقدم ليس » . حاول المستشرقون أن يأخذوا هذا الاختلاف في الرفع والنصب على القرن الكريم . ويقول لهم أنتم قليلو العظمة والمعرفة باللغة العربية . فإذا فعل لكم ؟ يصح أن يجعل الخبر مبتدأ فنقول

« زيد مجتهد » ، هذا إذا كنا نعلم زيدا ومجهل صفته ، فجعلنا زيدا مبتدأ ، ومجتهداً خبراً لكن إذا كنا نعرف إنسانا مجتهداً ولا نعرف من هو ؛ فإننا نقول : « المجتهد زيد » .

إذن قسرة يكون الاسم معروفاً لك فتلحق به الوصف ، ومرة نجعل الاسم وبعرف الوصف فتلحق لاسم بالوصف . وهذا سر اختلاف الرفع والنصب في كلمة « البر » في كل من الآيتين . ونقول للمستشرقين : إن لكل كلمة في القرآن بريئاً ومعنى ، فلا تناولوا القرآن بالجهل ، ثم تثيروا الإشكالات التي لا تقلل من قيمة الكتاب ولكنها تكشف جهلكم

ثم ما هو « البر » ؟ قد إن البر هو الشيء الحسن النافع ، ولو ترك الله لنا تحديد البر ، لأخيلت قسرة كل ما عن فهم الحسن والنافع باختلاف عقولنا ؛ فأت ترى هذا « حسناً » ؛ وذاك يرى شيئاً آخر ، وثالث يرى عكس ما رآه ، بذلك يخلع الله يد من بيان معنى البر ، ويحدد ما سبحانه مواصفات الحسن النافع ، فما من واحد يحرف ويحيل إلى شيء إلا وهو يعتقد أنه هو لحسن النافع ، ولذلك يقول الحق : « ولكن البر من اتقى واتوا النبوت من أربابها »

إن هذا يدلنا على أن كل غاية لها طريق يوصل إليها ، فذهب إلى الغاية من الطريق الذي يوصل إليها وينبع الحق قوله عن البر « واتقوا الله لعلكم تفلحون » . لاتزال كلمة اتقوى هي الشائعة في هذه السورة ، وكل حكم يعفيه السبب من تشريعه وهو التقوى

ويعرف أن معنى اتقوى هو أن تنفى معصيات الحياة ، ومشكلاتها لأن بدوهم مهيج الله وساعه ترى مهيج الله وتطفئه فأنت تقيت إشكالات ، أم من يعرض عن تقوى الله فإن الحق يقول عن مصيره

﴿ فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَاكَّةٌ ﴾



وبعد ذلك ينتقل الحق إلى قضية أخرى ، وهذه القضية الأخرى هي التي تميز  
الامة الإسلامية بخصوصية فريدة ؛ لأنه سبحانه قد أوجد وعطر هذه الأمة على منهاج  
قويم لم تغفر به أمة من قبل ، وهذه الخصوصية هي أن الله قد آمن أمة محمد على أن  
تؤدب الخارجين على منهج الله ؛ فحديثاً كانت السماء هي التي تؤدب هؤلاء الخارجين  
عن المنهج كان الرسول يشرح ويبغ المنهج ، فإن حاله اناس تتدخل السماء  
وتعاقبهم ، إما بصاعقة ، وإما بعداب ، وإما بفيضان ، وإما بأي وسيلة ولم يكن  
الرسول متكلمين بحمل وقسر الناس على المنهج . وحين سأل بو إسرائيل ربه أن  
يقاتلوا ، ثم يكن فتألم من أجل الدين مصداقاً للآية الكريمة .

﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءَنَا ﴾

علة القتال - إذن - أنهم أخرجوا من بيوتهم وأجبروا على ترك أولادهم ، بهم  
عندما سألوا لقتال لم يسألوه للدفاع عن العقيدة ، وإنما لأنهم أخرجوا من ديارهم  
وأولادهم .

أما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فهي التي أمها الله على أن تكون في يدها الميزان ، وليس هذا الميزان ميزان تسلط ، وای هو ميزان محمي كرامة الإنسان بأن يصور له حرية اختياره بفعل الذي حمله الله ، فلا إكراه في الإيمان بالله . وقد شرع الله القتال لأمة محمد لا ليعرضه ديب ، ولكن ليحمي أحياءه في أن تختار الدين الذي ترضيه وهو يمنع سدود الظلم التي تحول دون أن تكون حراً مختاراً في أن نقبل التكليف

ولذلك والذين يحاولون أن ينصقروا بالإسلام جهة أنه انتشر بالسيوف يقول لهم :

إن حججهم ساقطة واهية ، وكذلك قولهم : إن الإسلام عندما يعرض الجزية فكانه جاء لحماية الاموال ، نقول لهؤلاء : جزية على من ؟ جزية على غير المؤمن ، وما دام قد فُرغت عليه جزية ، فمعنى ذلك أنه أباح له أن يكون غير مؤمن ، لو كان الإسلام يكره للناس على اعتناقه لما كان هناك من يأخذ عليه جزية . إذن ، فالإسلام لم يكرهه ، وإنما حسمه من القوة التي تسيطر عليه حتى لا يكرهه أحد على ترك دين ، وهو حر بعد ذلك في أن يسلم أو لا يسلم . وكان الذين يتصدقون بالإسلام يدفعون عنه ، فسماهم قد ارتدت إليهم .

وهنا تساؤل قد يثور : إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا كانت حروب المسلمين ؟ نقول : إن حروب الإسلام كانت مواجهة الذين يعرضون العقائد الباطلة على غيرهم . وجاء للإسلام ليقول لهؤلاء : ارفعوا أيديكم عن الناس واجعلوهم أحراراً في أن يختاروا الدين المناسب . لماذا تركهم الإسلام أحراراً ؟ لأنه واثق أن الإنسان مادام على حريته في أن يختار فلا يمكن أن يجد إلا الحق واضحاً في الإسلام ولذلك فكثير من الناس الذين يقرأون قوله تعالى :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦) ﴾

( سورة البقرة )

لا يعطون إلى أن العلة واضحة في قوله - سبحانه - من الآية نفسها : قد تبين الرشد من الغي ، إذن ، فالمسألة واضحة لماذا نكره الناس وقد وضع أمامهم الحق والباطل ؟ نحن فقط نصح الذين يعرضون عقائدهم الباطلة على الناس ، فأتى تستطيع أن نكره القسالب ، لكن لا نستطيع أن نكره القلب ونحن نريد أن ينبع الإيمان من القلب ، ولهذا يقول الحق سبحانه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ نَعَلَّكَ بِأَخِي نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢) إِنْ شَأْنُنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّ أَعْيَانُهُمْ لَهَا حَافِينَ (٤) ﴾

( سورة الشعراء )

إن الله لا يريد أعناناً ، لو كان يريد أعناناً لما استطاع أحد أن يخرج عن قلبه

- سبحانه - من يريد الله أن يبتلي به شخصاً أو موتاً، فلن ينجو من قدره . إن الحق يريد إيمان قلوب لا رضوخ قلوب . فالذي يحبر الآخرين على الإيمان بالكرباج لن يتبعه أحد ، وهو نفسه غير مؤمن بما يفرضه على الناس ولو كان مؤمناً به لما فرضه على الناس بالقسر . إنهم سيقتلونه عن طواعية واختيار عندما يتبين لهم أنه الحق المناسب لصلاح حياتهم .

ونحن نلتفت حولنا فنجد أن النظم والحكومات التي تفرض مبادئها بالسوط والقهر تتساقط تباعاً ، فعندما تتخطى هذه الحكومات عن السوط والبطش، فإن الشعوب تتخطى عن تلك الأفكار ، والقرآن هنا يعالج هذه المسألة عندما يتحدث عن القتال وتشريع القتال ، الأمر الذي اختص به الحق أمة الإسلام ، وهو سبحانه لم يأذن بالقتال خلال فترة الدعوة المكية التي استمرت ثلاثة عشر عاماً ، ثم أذن به بعد الهجرة إلى المدينة ، وقد كان من الضروري أن يتأخر أمر القتال ، لأن الحق أراد أولاً أن يلتفت المسلمون إلى اتباع المنهج حتى يكونوا لغيرهم قدوة ، ويروا فيهم أسوة حسنة ، لذلك قال الحق

﴿ فَاعْمُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وقال سبحانه أيضاً .

﴿ وَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَ لِمُنَافِقِينَ وَ دَعْ أَذَاهُمْ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأحزاب)

لماذا كل هذا التدرج ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى علم أن الدعوة للإسلام ستدخل البيوت العربية ، فسيصم البيت الواحد كافراً بالله ومؤمناً بالله ، وهو أنه سبحانه وتعالى شرع القتال من البداية لصلار في كل بيت معركة

ثم إن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن تلك القبائل العربية بها كثير من خفة وطيش وسفه ، وكانوا يقتتلون لأتفه الأسباب ، فمن أجل ناقة صربها كليب يسهم في ضررها فمساتت اشتملت الحرب أربعين سنة وفي ذلك يقول الشاعر عند الحفيظة

والغصب :

لوم إذا أشر أبدي - ساجده لهم -

طاروا إليه زوالهاات ورحلانا

والثاني يقول

لا يسألون أحلام حين يندبهم

في التائبات على ما قال برهان

أى أنهم لا يسألون أحلامهم : « لماذا نحارب ؟ » ، وإنما يحاربون بلا سبب ولا سبب ، فالحمية الرعاء تدفعهم لقتال بلا سبب وفي مقابل ذلك كانت عندهم محبة للحق ، فعندهم يرون شخصاً قد ظلمه غيره ، تأخذهم النخوة ، ويأخذون على يد الظالم ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يهيج فيهم النخوة حين يرون الضعفاء من المسلمين مستضعفين ، وقد حرلهم بعض من القوم في شعب أبى طالب وجرحوهم وقاطعوهم حتى اجتمع الخمسة العظام في مكة وقالوا : « كيف نقبل أن نأكل وشرب ونأتى نساءنا وبنو هاشم وبنو المطلب محصورون في الشعب لا يأكلون ولا يشربون ولا يتبايعون » .

لقد كانوا كفاراً ، ويرغم ذلك وقنوا موقفاً عظيماً وقالوا : هاتوا الصحيفة التي يعاهد فيها على أن تقاطع بنو هاشم وبنو المطلب ونقطعها ، وانفخوا على ذلك . وكانوا خمسة من سادات مكة هم : هشام بن عمرو ، وزهير بن أبى أمية ، وأبو البحتري بن هاشم ، وزبيعة ابن الأسود ، والمطعم بن عدي . وكانوا قادة النخوة التي ألهت مقاطعة المسلمين . هكذا نرى أن العرب كانوا يتسمون بالحمية الرعاء وتقاتلها النخوة في الحق

ويعلم الحق سبحانه وتعالى أن تقل أمة العرب عما اجتادته ليس أمراً سهلاً ، لذلك أشجعهم برفق الهوادة . والذين يقولون : لماذا لم يحارب المسلمون أعداءهم من أول وهلة ولماذا لم يقتلوا صناديد الكفر في مكة ؟

بقول لم : إن كثيراً من الذين كنتم ترون قتالهم في بداية الدعوة لإسلامية هم الذين نشروا راية الإسلام من بعد ذلك ، ومثال ذلك خالد بن الوليد ، الذي كان قائداً مغواراً في صفوف المشركين ، وقاتل المسلمين في أول حياته ، ثم هداه الله للإسلام وأصبح سيف الله المسلول ، ماذا لو قتل هذا القائد العدو على أيدي المسلمين ؟ كان مثل هذا الفعل سيتسبب في حرمان المسلمين من موهبته ، تلك الموهبة التي أسهمت في معظم الفترحات الإسلامية في الشام والعراق .

إذن شاءت حكمة الله أن يستبقى أمثال خالد وهم خصوم للإسلام في بدء الدعوة لأن الله قد أعد لهم دوراً يخدمون به الإسلام . والذين نالوا من الإسلام أولاً هم الذين ستبقى عندهم الحرارة حتى يعملوا عملاً يعمر الله لهم به ما قد سبق

انظر إلى عكرمة بن أبي جهل كان شوكة في ظهر المسلمين في بداية الدعوة ، ثم أسلم وأبلى بلاء حسناً ، ولما أصيب في موقعة اليرموك وأوشكت روحه أن تصعد إلى خالقها نظر إلى قائده خالد بن الوليد وقال : أهذه ميتة تُرضى عنى رسول الله ؟ . كأنه كان يعلم أن رسول الله كان قد غضب عليه قبل أن يسلم .

وعمر بن العاص داعية للمسلمين الذي لولاه ما أفتحت مصر . فقد كسب بدهائه أهل مصر فامتنعوا عن قتاله ، وبأظهرهم بعد ذلك حتى استل حقتهم على المسلمين . وأبان لهم أن رسول الله قال موصياتهم «استوصوا بالقبطيين خير لأنهم رحما وذمة » وفوق هذا فقد أرسه النبي ﷺ إلى بعض العرب يستقرهم إلى الإسلام .

إذن فمن رحمة الله أنه لم يشأ تشريع القتال من البداية ، وإلا لكانا فقدنا كثيراً من قادة الإسلام العظام الذين حملوا رواء الدعوة لإسلامية فيما بعد . وكل إنسان استنقذ الإسلام وهو خصم وعدو للإسلام ، قدر الله له بعد الإسلام دوراً يحلم به الدين الخاتم .

من هنا معهم الحكمة من تأخير القتال في الإسلام ، لأن الله أراد أن يحصن ويحتبر ، ألا يدخل هذا الدين (لا من يتحمل متاعب هذا الدين ، ومشاقه لأنه

سيكون مأموناً على مجد أمة، وعلى منهج سماء، وتلك أمور لا يصلح لها أي واحد من الناس .

وقد كان من الممكن أن ينصر الله دينه من أول وهلة دون تدخل من المسلمين، وكان معنى ذلك أن الناس سيتسارون في الإيمان أولهم وآخرهم، ولكن شامت إرادته سبحانه وتعالى أن يجعل لهذا الدين رجالاً يفدونه بأرواحهم وأموالهم ليألوا الشهادة ويرتفعوا إلى مصاف السيِّين . لذلك جاء الأمر بالقتال متأخراً وباتدرج . لقد جاء الأمر بالقتال في أول مرحلة بقول الله تعالى :

﴿ وَفَنِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَقْتَدُوا  
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُقْتَدِينَ ﴾ (١٦)

وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ اشتاق هو وصحابته إلى البيت الحرام، وأرادوا أن يعتصموا، فجاءوا في ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة . وأرادوا أن يزفوا العمرة فلما ذهبوا وكنوا في مكان كان اسمه الخديبة، ووقفت أمامهم قريش وقالت : لا يمكن أن يدخل محمد وأصحابه مكة .

وقامت مفاوضات بين الطرفين . ورضى رسول الله ﷺ أن يرجع هذا العام على أن يأتي في العام القادم . وتخلي لهم مكة ثلاثة أيام في شهر ذي القعدة .

وكان رسول الله ﷺ قد بشر أصحابه بأنهم سيدخلون المسجد الحرام محلقين ومقصرين ، وشاع ذلك الخبر، وفرح به المسلمون وسعدوا، ثم فوجئوا بمفاوضات رسول الله ﷺ ورجوعه على بعد نحو عشرين كيلو متراً من مكة وحزن أصحابه . حتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه غضب وقال للنبي ﷺ :

ألمست رسول الله؟ ألبست على الحق؟ فرد عليه سيدنا أبي بكر قاتلاً: الزم عرzk يا عمر إنا لرسول الله .

وقد أظهرت هذه الواقعة موقفاً لأم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، وهو موقف يعبر عن الخُنان والرحمة والمشورة اللينة الهيئة. فحينما دخل عليها رسول الله وقال لها: هلك المسلمون يا أم سلمة، أمرتهم فلم يمتثلوا.

فانظر إلى مهمة الزوجة عندما يعود إليها زوجها مهموماً، ها تجلى وظيفتها في السكن، قالت أم سلمة: أهدرهم يا رسول الله! إنهم مكرويون كانت نفوسهم مشتتة لأن بدخلوا بيت الله الحرام محلّقين ومقصّرين، ثم حرّموا منها وهم على بعد أميال منها، أعمد إلى ما أمرك الله فاصبره ولا تكلم أحداً، فإن رأوك فعلت، علموا أن ذلك عزيمة.

وأخذ رسول الله بصبيحة أم سلمة، وصنع ما أمره به الله، وتبعه كل المسلمين، وانتهت المسألة. وقبل أن يرجعوا للمدينة لم يشأ الله أن يطيل على الذين انتعدوا الموقف حتى لا يظل اشترخ في نفوس المؤمنين. وتلك عملية نفسية شاقة، لذلك لم يطل الله عليهم السب، وجاء بالعلة قاتلاً لهم: ما يحزنكم في أن ترجعوا إلى المدينة، أنتم لكم إخوان مؤمنون في مكة وقد أخفوا إيمانهم وهم مندسرون بين الكفر، فلو أنكم دخلتم، وتائلوكم، مستقائلون الجميع مؤمنين وكافرين، فتقتلون إخواناً لكم، فلو كان هؤلاء الإخوان المؤمنون متميزين في جانب من مكة لأذنت لكم بقتال المشركين، كما تريدون. وقرأ قول الله تعالى:

﴿هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مِنْهُمْ حُلَّةٌ وَتَوَلَّوْا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ يَعْلَمُوا أَن تَقْتُلُوهُمْ فَتَقِيَهُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةً بِقَرْنٍ عُلِمَ لِدَخْلِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ نِسَاءٍ نَزَّهْتُنَّ لَعْنَتِنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٧٥﴾﴾ [التفتح]

بعد نزول الآية عرف المسلمون أن الامتناع كان لعلة والحكمة ، فلما جاءوا غي العام التالي قال الله لهم :

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ ... ﴾ (١١٤) [البقرة]

وكان الحق يطعنهم ، فالذين صدوكم في ذى القعدة من ذلك العام ستقاتلوهم وستدخلون في ذى القعدة من العام القادم . وخاف المسلمون إن جاءوا في العام المقبل أن تنقض قریش العهد وتقاتلهم ، ونزل قول الحق :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْسِدُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١١٥) [البقرة]

وعندما ننأمل قوله تعالى : «وقاتلوا في سبيل الله» فينبغي أن نلاحظ أن الحق سبحانه يؤكد على كلمة «في سبيل الله» لأنه يريد أن يضع حداً لجبروت البشر ، ولا بد أن تكون سبب القتال في سبيل الله لا أن يكون القتال بسبب الاستعلاء والجبروت والطغيان فلا قتال من أجل الحية ، أو المال أو لضمان سرق اقتصادي ، وإنما القتال لإعلاء كلمة الله ، ونصرة دين الله . هذا هو غرض القتال في الاسلام .

«وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» والحق ينهى عن الاعتداء ، أى لا يقاتل مسلم من لم يقاتله ولا يعتدى .

وعب أن قریشا هي التي قاتمت ، ولكن اناساً كالنساء والصبيان والعجزة لم يقاتلوا المسلمين مع أنهم في جانب من قاتل ، لذلك لا يجوز قتالهم ، نعم على قدر الفعل يكون رد الفعل . لماذا؟ لأن في قتال النساء والعجزة اعتداء ، وهو سبحانه لا يحب المعتدين . لكن قتال المؤمنين إنما يكون لرد العدوان لا بداية عدوان .



ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوكُمُ فِيهِ فَإِن قَتَلُوكُمُ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (١٦١)

وبحسب نسمع كلمة « ثقافة » ، وكلمة « ثقاف » ، والثقافة هي  
يسر التعلم ، أو أن تلم بطرف من الأشياء المتعددة ، وبذلك يصبح  
فلان مثقفاً أى لديه كم من المعلومات ، ويعرف بعض اشياء عن كل  
شيء ، ثم ينخصص فى فرع من فروع المعرفة فيعرف كل شيء عن  
شيء واحد .

كل هذه المعانى مأخوذة من الامور المحسنة ، والتثقيف عند العرب  
هو تقويم الفحص ، فقد كان العرب يأخذون أغصان الشجر ليجعلوها  
رماحاً وعصياً ، والغصن قد يكون معوجاً أو به نقرة ، فكان العربى  
يثقفه ، أى يزيل زوائده واعوجاجه ، ثم يأتى بالثقاف وهو قطعة من  
الحديد المعقوف ليقوم بها المعوج من الأغصان كما يفعل عامل التسليح  
بجديد البناء .

كان المُنْتَفٍ هو الذى يعدل من شيء معوج فى الكون ، فهو  
يعرب هذه وتلك ، وأصبح لنا تقويم سليم . وهكذا نجد أن معانى  
اللغة والفاظها مشتقة من المحسنت التى أماننا وقوله « ثقفتهم »  
أى « وجبتهم » ، ثقفت الشيء أى ربيته .

والحق يقول .

﴿فَإِنَّا تَلَوْنَاهُمْ فِي أَلْحَابٍ فَشَرَّفَ بِهِمُ﴾ (من الآية ٥٧ سورة الانفال)

أى «شردهم حيث نجدهم . ويقول الحق : «وانزلوهم حيث ثقفتموهم» أى لا تقولوا إنهم أخرجوكم من هنا ، وإنما أخرجوهم من حيث أخرجوكم ، أى من أى مكان أنتم فيه ، وعند ذلك لن تكونوا معتدين . وقوله تعالى : «وأخرجوهم من حيث أخرجوكم» يذكرنا بمنطق مشابه هو آية أخرى منها قوله تعالى :

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ... (٩٢٦)﴾ [الحج]

وقوله تعالى :

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا... (٤٠)﴾ [الشورى]

وعندما نبحث فى ثنايا هذه النصوص (وجزاء سيئة سيئة مثلها) فقد يرد هذا الحائطرة أخذت حتى من أساء إلى ، وانضمت منه بعمل مماثل العمل الذى فعله معى ، هل يقال : إنى فعلت سيئة؟

وحتى نفهم المسألة نقول : الحق سبحانه وتعالى يأتى فى بعض الأحيان بلفظ «المشاكلة» وهى ذكر الشئ يلفظ غيره لوقوعه فى صحتهم ، ومثل ذلك قوله (ومكررا ومكر الله) ، إن الله لا يمكر ، وإنما اللفظ جاء للمشاكلة . أو أن اللفظ الكريم قد جاء فى استيفاء حقت بكلمة «سيئة مثلها» لينتهك إلى أن استيفاء حقت بمثل ما صبح بك يعتبر سيئة إذا ما وازناه بالصفح والعفو عن المسىء ، يشير إلى ذلك سبحانه فى نهاية هذه الآية بقوله : «فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين» ويمثل ذلك كان ختام الآية السابقة «ولئن صبرتهم لهم خير لصابرين» .

ويقول الحق . «والعنة أشد من القتل» . والفتنة مأخوذة من الأمر الحسى ، فصائع الذهب يأخذ قطعة الذهب فيضعها فى النار فتصهر ، فإذا ما كان يشوبها معدن غريب عن الذهب فهو يخرج ويبقى الذهب خالصا ، فكان الفتنة ابتلاء واختبار ، وقد فعل المشركون ما هو أسوأ من القتل ، فقد حاولوا من قبل ان يقتلوا المؤمنين فى دينهم بالتعليب ، فخرج المؤمنون فرادى بدينهم

والحق يأمر المسلمين في قتالهم مع أهل الشرك أن يراعوا حرمة البيت الحرام ،  
فلا يتكبروا بالقتال إلا إذا قاتلهم أهل الشرك .

ومكثا عهد أن أول أمر بالقتال إنما جاء لصد العدوان ، وأراد الحق سبحانه  
وتعالى أن يسقط من أيدي حصوم الإسلام ورقة قد يلعبون بها مع المسلمين ، فهم  
يعلمون أن المؤمنين بالإسلام سيحترمون الأشهر الحرم ويحترمون المكان الحرام  
ويحترمون الأحرام فلا يقاتلون ؛ وربما أغرى ذلك حصوم الإسلام ألا يقاتلوا  
المسلمين ، لا في الأشهر الحرم ، ويظنون أن المسلمين قد يتهيئون أن يقاتلهم ، فأراد  
الحق سبحانه وتعالى أن يشرع لهم ما يناسب مثل هذا الأمر فأذن لهم في القتال ،  
فإن قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام ، وإن قاتلوكم في المكان  
الحرام فقاتلوهم في المكان الحرام ، وإن قاتلوكم وأنتم حرم فقاتلوهم ؛ لأن الحرمات  
قصاص .

إذن أسقط الحق الورقة من أيدي الكافرين . إن الحق سبحانه وتعالى يعلل ذلك  
بأنه وإن كان القتال في الشهر الحرام وفي المكان الحرام وفي حال الإحرام صعباً  
وشديداً ، فالفتنة في دين الله أشد من القتل ، لأن الفتنة إنما جاءت لتفسد على الناس  
دينهم ، صحيح أنها لا تعوق الناس عن أن يتدينوا ، ولكنها تفتن الذين تدينوا ، وقد  
حاولوا إجبار المسلمين الأوائل بالتعذيب حتى يرتدوا عن الدين ، وكان ذلك أشد من  
القتل لأنها فتنة في الدين .

إن الله هو الذي شرع الشهر الحرام ، فكيف يُقتل المؤمنون من دين الله ويُحملون  
على الشرك به ثم يقولون بعد ذلك إننا في الشهر الحرام ؟ إن الشهر الحرام لم يكن  
حراماً إلا لأن الله هو الذي حرّمه ، فالفتنة في الله شرك وهو أشد من أن نقاتل في  
الشهر الحرام ، ولذلك فلا داعي أن ينحرج أحد من القتال في الشهر الحرام عندما  
يقتل في دينه . وحيث نعلم أن القتال إنما جاء دفاعاً .

وبعد ذلك هل يطل القتال دفاعاً كما يريد حصوم الإسلام أن يجعلوه دفاعاً  
عمن آمن فقط ؟ أو كما يريد الذين يحاولون أن يدفعوا عن الإسلام أنه دين قتال

ويقولون : لا ، الإسلام إنما جاء بقتال لدفاع فقط نقول لهؤلاء : قتال الدفاع عَمَّن ؟ هل دفاع عَمَّن آمن فقط ؟ أم من مطلق إنسان نريد أن ندفع عنه ما يؤثر في اختيار دينه ؟

هو دفاع أيضاً ، ومنسببه دفاعاً ، ولكنه دفاع عَمَّن آمن ، ندفع عنه مَن يعتدي عليه ، وأيضاً عَمَّن لم يؤمن ندفع عنه مَن يؤثر عليه في اختيار دينه لنحسم له اختياره ، لا لنحمله على الدين ، ولكن لجعله حراً في الاختيار ، فالقوى التي تفرض على الناس ديناً مزيجها من الطريق ، وبعثت دعوة الإسلام ، فَمَن وقف أمام هذه الدعوة نجاربه ، لأنه يفسد على الناس اختيار دينهم ، رمى هذا أيضاً دفاع .

« ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه » لأنكم أحري وأجدر أن تحترموا تحريم الله للمسجد الحرام ، لكن إذا هم احتلوا على القتال في المسجد الحرام فقد أباح سبحانه لكم أيها المسلمون أن تقاتلوهم عند المسجد الحرام ما داموا قد قاتلوكم فيه « فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم » . وما أسمى هذا الدين .

إننا لا نؤاخذهم بعد أن انتهوا إلى الإيمان بما قدمت أيديهم من الاجترار على أهل الإيمان ما داموا قد آمنوا ، ولذلك ترى عمر بن الخطاب وقد مر على قاتل أخيه زيد بن الخطاب : وأشار رجل وقال . هذا قاتل زيد . فقال عمر . وماذا أصنع به وقد أسلم ؟ لقد عصم الإسلام دمه .

لقد انتهت المسألة بإسلامه ، فالإيمان بالله أمر على المؤمن من دمه ومن نفسه ، وحين يؤمن فقد انتهت الخصومة . وهذا وحش قاتل حمزة ، يقاومه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل ما يصنعه رسول الله هو أن يزوي وجهه عنه ، لكنه لا يقتله ولا يثأر منه . وهند زوجة أبي سفيان التي أكلت كبدة حمزة ، أسلمت وانتهت مسئلتها بإسلامها . إذن ، فالإسلام ليس دين حقد ولا ثأر ولا تصفية حسابات ، فإذا كان الدم يغلي في مواجهة الكفر ، فإن إيمان الكافر بالإسلام يعطيه السلامة ، هذا هو الدين .

﴿ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [١١٤]

أى مادموأ قد كموا عما يصنعون من الفتنة بالدعوة والشرك بالله ورُجروا بالدين الأمر فانزجروا عن الكفر، بعدها لا شيء لنا عندهم؛ لأن الله غفور رحيم، فلا يصح أن يشيع فى نفوسنا الحق على ما فعلوه بنا قديما، بل نحسب ذلك عند الله، وما داموا قد آمنوا فذلك يكفينا. والحق سبحانه وتعالى بعد أن أعطانا مراحل القتال ودوافعه قال،

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [١١٧]

وعرفنا أن الفتنة ابتلاء واحتبار والحق يقول:

﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [المنكوث]

إن الحق يختبر الإيمان بالفتنة، ويرى الدين يعلنون الإيمان هل يصيرون على ما فيه من ابتلاء أم لا؟ فلو كان دخول الإسلام لا يترتب عليه دخول فى حرب أو قتال ولا يترتب عليه استشهاد بعض المؤمنين لكان الأمر معرويا لكثير من الناس بالدخول فى الإسلام، لكن الله جعل لهم الفتنة فى أن يهزموا ويُقتل منهم عدد من الشهداء، وذلك حتى لا يدخل الدين، لا الصفوة التى تحمل كرامة الدعوة، وتتولى حماية الأرض من المصاد، فلابد أن يكون المؤمنين هم خلاصة الناس.

لذلك قال سبحانه: « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ». معنى أن يكون الدين لله، أى تحرجوهم من ديانة أنفسهم أو من الديانات التى فرضها الضغيان عليهم، وعندما نأخذهم من ديانات الطغيان، ومن الديانات التى زينها الناس إلى ديانات الخالق فهذه مسألة حسنة بالنسبة لهم، وتلك مهمة سامية. كأنك بهذه

المهمة السامية تريد أن ترشد العقل الإنساني وتصرفه وتنبهه من أن يدين لمساره إلى أن يدين لمن خلقه . وعلى صاحب مثل هذا العقل أن يشكر من يوجهه إلى هذا الصواب . ولذلك يجى الحق سبحانه وتعالى هذه الحقيقة فيقول على لسان الرسول :

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝٥٧ ﴾

[الفرقان]

فكأننا لو نظرنا إلى عمل الرسول بالنسبة إلينا بمنظار الاقتصاد لوجب أن يكون له أجر ، لأنه يقدم المفعة لنا ، ويرغم ما قدمه من منفعة فهو لا يأخذ أجرًا ، لأنه زاهد في الأجر فإنه يعلم أن الأجر من المساوى له قليل مهما عظم وهو يريد الأجر ممن خلقه ، وهذا طمع في الأعلى ، لأنه لا يعطى الأجر على الإيمان إلا الله سبحانه وتعالى ، وهو الذى يعطى بلا حدود .

ويختتم الحق هذه الآية الكريمة بقوله : «فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين» أى أنهم إذا انتهوا إلى عدم قتلكم ، فأنتم لن تعتدوا عليهم ، بل ستردون عدوان الظالم منهم . والظالم حين يعتدى يظن أنه لن يقدر عليه أحد ، والحق يطلب منا أن نقول له : بل نقدر عليك ، ونعتدى عليك بمثل ما اعتديت علينا ويعطينا الحق حية ذلك فيقول :

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشُّهُرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ مَّنْ عَصَىٰ اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَئِيْلَ الْكَافِرِينَ ۝١١١﴾

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٢﴾

والمقصود هو أنه إذا ما قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام، فإذا ما اعتدوا على حرمة زمان فالفصاص يكون في زمان مثله، وإن اعتدوا في حرمة مكان يكن الفصاص بحرمة مكان مثله، وإذا كان الاعتداء بحرمة إهرام، يكون الرد بحرمة إهرام مثله، لأن الفصاص هو أن تأخذ للمظلوم مثل ما فعل الظالم

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يخفف وقع الأمر على المؤمنين الذين رُبوا عام الحديبية في ذي القعدة سنة ست من الهجرة وأعادهم المشركون إلى المدينة، ماقتص الله منهم بأن أعادهم في ذي القعدة في العام القابل في السنة السابعة من الهجرة، فإن كانوا قد منعوا في الشهر الحرام فقد أراد الله أن يعودوا لزيارة البيت في الشهر الحرام في الزمان نفسه

وقوله الحق: «والحرمات قصاص» يقتضى منا أن نسال كيف يكون ذلك؟ وما هو الشيء الحرام؟ إن الشيء الحرام هو ما يُحظر هتكه، والشيء الحلال هو المطلق والمأذون فيه فهل يعنى ذلك أن الذى يقوم بعمل حرام نفتص منه بفعل مماثل؟

هو إذا زنى رجل بامرأة نقول له نفتص منك بالزنى فيك؟ لا إن القصاص في الحرمة لا يكون إلا في المأذون به وكذلك إذا سرق منى إنسان مالا وليس لدى بيعة، لكنى مقتنع بأنه هو الذى سرق من أقتص منه بأن أسرق منه؟ لا، إن القصاص إنما يكون في الأمر المعروف الواضح، أما الأمر المختفى فلا يمكن أن نفتص منه بمثل ما فعل.

لكن هب أن أحد الأقارب ممن تحب نفقتهم عليك وامتنعت أنت عن النفقة على هذا الإنسان، وهذا أمر محرم عليك، وما دام الأمر عالياً، فله أن يأخذ من مالك فيأكل وتكون المسألة قصاصاً وهب أن زوجتك تشتكى من بخلك وتقصيرك، كما

اشتكت هند روجه أبى سفيان لرسول الله ﷺ من بخل زوجها فقال لها:  
خذنى من ماله بالمعروف ما يكفيك وولدىك .

ومثال آخر ، هب أن ضيفا بمنزلك ورفضت أن تكرمه ، وانتهر عرصة بعدك عن  
المكان الذى يجلس فيه ثم تناول شينا وأكله . لا يكون تعديا عليك ما لم يكن  
داخلا فى محرم آخر ، وبعد ذلك يترك الحق لولى الأمر تنظيم هذه الأمور حتى لا  
تصير المسائل إلى الموضى .

وقوله الحق : «من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» يدعونا  
إلى البقطة حتى لا يحدثا أحد ويدعى الإيمان وهو يريد الانتقام . ويجب أن  
نتمش قول الشاعر .

إن عادت العقرب علينا لها

وكانت النمل لها حاضرة

ويحتتم الحق الآية الكريمة بقوله : «واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين» أى لا  
تظنوا أن الله ملككم فيهم شيئا ، بل أنتم وهم مملوكون جميعا لله . ويقول الحق من  
بعد ذلك :

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ  
وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٦٥)

وهذه الآية جاءت بعد آيات القتال ، ومعناها : أعدو أنفسكم للقتال فى سبيل  
الله .

وقوله الحق : «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» تقتضى منا أن نعرف أن كلمة



«تهلكة» على وزن تَفْعُلُهُ ولا نغير لها في اللغة العربية إلا هذا اللفظ، لا يوجد على وزن تَفْعُلُهُ في اللغة العربية سوى كلمة «تهلكة»، والتهلكة هي الهلاك، والهلاك هو خروج شيء عن حال إصلاح بحيث لا يُدرى أين يذهب، ومثال ذلك هلاك الإنسان يكون بخروج روحه. والحق يقول:

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ..﴾ (١٧) [الأنعام]

قالهلاك ضد الحياة، وعلى الإنسان أن يعرف أن الحياة ليست هي الحسن والحركة التي رآها، إنما حياة كل شيء بحسب معين فحياة الحيوان لها قانونها وحياة النبات لها قانونها، وحياة الجماد لها قانونها، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى جعل «يهلك» أمام «يحيى» وهو سبحانه القائل:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ..﴾ (٥٨) [القمر]

فلست نحن فقط الذين يهلكون، ولا الحيوانات، ولا النباتات وإنما كل شيء بما فيه الجماد، كأن الجماد يهلك مثلنا، ومادام يهلك فله حياة ولكن ليست مثل حيوان، وإنما حياة بقاونه هو، فكل شيء مخلوق لمهمة يؤديها، فهدفه هي حياته.

وقوله الحق: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» يكشف لنا بعض من روائع الأداء البياني في القرآن، ففي الجملة الواحدة تعطيك الشيء ومقابل الشيء وهذا أمر لا محذور في أساليب البشر؛ فالحق في هذه الآية يقول لنا: «أنفقوا في سبيل الله» أي أنفقوا في الجهاد، كما يقول بعدها: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» لماذا؟ لأن الإنفاق هو إخراج المال إلى العبر الذي يؤدي لك مهمة تفقد في الإعداد لسبيل الله، كصناعة الأسلحة أو الإمدادات التموينية، أو تجهيز مبانٍ وحصون، هذه أوجه إنفاق المال.

واحق يقول: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» وكلمة «ألقى» تفيد أن هناك شيئاً عالياً وشيئاً أسفل منه، فكان الله يقول: لا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة، وهل سيلقى الواحد ما يقفه إلى التهلكة، أو أن يلقى نفسه في التهلكة بين عدوه؟ لا، إن اليد المقلولة عن الإمساك في سبيل الله هي التي تلقى بصاحبها إلى التهلكة؛ لأنه إن أسمع عن ذلك اجتراً العدو عليه، وما دام العدو قد اجتراً على المؤمنين فسوف يعتهم في ذنبهم، وإذا قتلهم في ذنبهم فقد هلكوا. إذن فلا استعداد للحرب أنقى للحرب، وعندما يراك العدو قوياً فهو يهابك ويتراجع عن قتالك.

والحق سبحانه كما يريد ما في شريع القتال أن يقاتل. يأمره أن يزن أمر القتال ورأياً دقيقاً بحسب، فلا تأخذنا الأريحية الاكلية ولا الحمية الرعاء، فيكون المعنى: ولا تقبلوا على القتال إلا إن كان غالب الظن أنكم ستنتصرون، فحزم الإقدام قد يطلب منك أن تقيس الأمور بدقة، فلشجاعة قد تفتنى منك أن تحجم وتنتع عن القتال في بعض الأحيان، لتنتصر من بعد ذلك ساعة يكمل الإعداد له.

والمعنى الأول يجعلك تنعق في سبيل الله ولا تلقى بيدك إلى التهلكة بترك القتال والمعنى الثاني أي لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بأن تقبلوا على القتال بلا داع أو بلا إعداد كاف. إن الحق يريد من المؤمنين أن يزنوا المسائل ورأياً يجعلهم لا يتركون الجهاد فيهلكوا؛ لأن حصصهم سيجترى عليهم، ولا يحبهم في أن يلقوا بأيديهم إلى القتال لمجرد الرغبة في القتال دون الاستعداد له. وهذا هو الحرم الإيماني، إنها جملة واحدة أعطتنا عدة معان.

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله: «احسنوا إن الله يحب المحسنين» الحق يقول: «واحسنوا». والإحسان كما علما رسول الله ﷺ: «أن تعبد الله - أي تطيع أوامره - كأنك تراه، فمن لم تكن تراه فإنه يراك»<sup>(١)</sup>.

مشكلة الناس هذه الأيام أنهم يتشبهوا بـ «فيلانه يراك»، فعملوا الدوائر التليفزيونية المضمقة في المحلات الكبرى حتى تتم مراقبة سهر العمل في أرجاء المحل، هذه فعل البشر. لكن انظر إلى تسامى الإيمان، إنه بأمرك أنت أن ترى الله،

فلا تؤد العمل لداء شكلياً يرفع عنك العتب ، بل عليك أن تؤدى العمل بقصد  
الإحسان في العمل

والإحسان في كل شيء هو إتقانه إتقاناً بحيث يصنع الإنسان لغيره ما يحب أن  
يصنعه غيره له ، ولو تعامل الناس على هذا الأساس لامتارت كل الصناعات ، لكن  
إذا ساء انبغش فانت تبغش غيرك ، وغيرك يبغشك ، وبعد ذلك كنا نحار بالشكوى ،  
وعيننا إذاً أن نحسن في كل شيء مثلاً نحسن في الإعناق ، ولن نحسن في الإهراق  
إلا إذا أحسنا في الكدح الذي يأتي بشجرة ما نفق ، لأن الكدح ثمرته مال ، ولا إهراق  
إلا بمال ، فتخرج من عائد كدحك لتصرفه في المناسب من الأمور

ودائرة الإحسان لا تقتصر على القتال فقط ، فالأمر هنا علم ، ولا تعتقد به أسرى  
روية من روى الدين جاءت لتحل محل حرية من حريات الحياة ، إنما كل راية من  
روايا الدين جاءت لتحل محل حرية الحياة ، فالإحسان إذا كان بالمال فهذا يقتضي  
أن يحسن الإنسان الحركة في الأرض ، ويعمل عملاً يكفيه ويكفى من يعمل ، ثم  
يعرض لديه ما يحسن به .

إذا لم يتوافر المال ، فعليك أن تحسن سجاهاك ونشجع لغيرك ، راحا عند قومه  
الإسلام أي جعل له قيمة ، فمن صاحب إحاء أن يشجع سجاهاه يساعد أصحاب  
الحقوق في الحصول على حقوقهم ، وعلى الوجه أيضاً أن يأخذ الصعيق في حواره  
ويحميه من عسف وظلم الغوى ، وعليه سجاهاه أن يقيم العدل في البيئة التي يعيش  
فيها

والوجهة تعني أن يكون للإنسان احترام أو ورن أو تقدير ، وهذه الأشياء لها  
مستويات في إحسان الشخص ، لا يأخذها بلا مس ، إنما سقتها عمل جعل له  
وجهة عند الناس فالناس في العادة لا يحترمون إلا من يكون له لون من المفضل  
عليهم ، فكأنه احترام مدفوع الثمن ، وليس احتراماً مجانيّاً . وقد يكون الإحسان  
بالعلم أو بفضل القوة ، بإعانة الصعيق . أو بإكساب الخبرة للآخرين . أو  
بتفريغ كربة عن مسلم .

إذن وجوه الإحسان في الأشياء كثيرة، وكلها تستخدم قضية الإيمان. وعندما يرى الكافر المؤمنين وكل واحد منهم يحسن عمله فإن ذلك يقويه بالإيمان. وإذا سألنا: ما الذي زهد دينا المعاصرة في دينا؟ فسوف نجد أن العالم ينظر إلى دين الله من خلال حركة المسلمين. وهي حركة غير إسلامية في غالبيتها. صحيح أن بعضاً من عقلاء العرب وفلاسفته لا يأخذون الدين من حركة المسلمين، وهذا منتهى العدالة منهم لأنه ربما كان بعض المسلمين غير ملتزم بدينه، فلا يأخذ أحد الإسلام منه مجرد أنه مسلم.

وأتباع الديانات الأخرى يعرفون أن هناك أفعالا حرمها دينهم. ومادام هناك أفعال جرمها الدين وسن لها عقوبة فذلك دليل على أنها قد تقع، فأت عندما ترى شخصاً يتسبب إلى الإسلام ويسرق، هل تقول: إن المسلمين لصومس لا. إن عيبك أن تنظر إلى تشريعات الإسلام هل جرمت السارق أو لم تجرمه؟ فلا تقولن أحد: انظر إلى حال المسلمين. ولكن لننظر إلى قوانين الإسلام. لأن الله قلل على الشر أن يقوموا بالأفعال حسنها وسيئها، ولذلك أتاب على العمل الصالح وعاقب على العمل السيء.

والعقلاء والمفكرون يأخذون الدين من مبادئ الدين نفسه، ولا يأخذونه من سلوك الناس، فقد يجوز أن تقع عين المراقب على مخالف في مسألة يحرمها الدين. فلا تأخذ الفعل الخاطئ على أنه لا إسلام، وإنما تأخذ على أنه خارج على الإسلام.

وساعة يرانا العالم مسحون في كل شيء فنحن نعطيهم الأسوة التي كان عليها أجدادنا، وجعلت الإسلام منذ ذلك المد الخرافي الأسطوري حتى وصل في نصف قرن إلى آخر الدنيا في الشرق، وإلى آخرها في العرب، وبعد ذلك ينحصر سياسيا عن الأرض، ولكن يظل كدين، ويقى من الإسلام هذا اسظام الذي يجذب له الناس إن الإسلام له مناعة في خميرته الدانية إنه يحمل مقومات بقائه وصلاحيته، وهو الذي يجذب غير المسلمين له فيؤمنون به، وليس المسلمون هم الذين يجذبون الناس للإسلام.

ولذلك أقول لو أن التمثيل السيلس للأمم الإسلامية في البلاد غير الإسلامية

المحضرة قد أخذ يبدىء الإسلام لكان أسوة حسنة . وانظر إلى عاصمة واحدة من عواصم الدول الغربية تجد فيها أكثر من ثلاث وستين سفارة إسلامية ، وكل سفارة يعمل فيها جهاز يزيد على العشرين ، هب أن هؤلاء كانوا أسوة إسلامية في السلوك والمعاملات في عاصمة غير إسلامية ، حيث يجد أهل ذلك البلد جالية إسلامية ملتزمة ولم تفتنهم زخارف الدنيا ، لا يشربون الخمر ، ولا يراقصون ، ولا يترددون على الأماكن البثة السامة ، ولا تخرج نسائهم ، بالله ألا يلفت النظر سلوك هؤلاء ؟

لكن ما يحدث - للأسف - هو أن أهل الغرب - على باطلهم - غلبوا بنى الإسلام - على حقهم - وأخذتهم إلى تحملهم ، وهذا الاتباع الأعمى يجعل العربيين يقولون : لو كان في الإسلام منة لحفظ آباءه من الوقوع فيما وقعنا فيه .

إذن الإحسان من المسلمين أكبر دعاية ودعوة إلى دين الإسلام . إن الحق يقول : « إن الله يحب المحسنين » ، وأحب كما نعرفه هو ميل قلب المحب إلى المحبوب ، وذلك الأمر يكون بالنسبة للبشر ، لكن بالنسبة للحق هو تودد الخالق بالرحمة والكرامة على المخلوق ، وألحق سبحانه وتعالى بحب من عباده أن يكونوا على خلقه ، فكيف أن الله أحسن كل شيء خلقه « الذي أحسن كل شيء خلقه » يريد من عباده وقد تنفصل عليهم بالعقل المفكر فيخضع ، وبانطاعات فيسرر التمكين إلى حسن يريد الحق ما أن يكون والدنا في كل عمل أن نعمته : حتى نكون متعلقين بأخلاق الله ، فتشيع كلمة « الله » هذا اللفظ الكريم الذي يستقبل به الإنسان كل جميل في أي صنعة ، فيقول : « الله »

إذن تشيع كلمة « الله » نعمة في الوجود تعيقاً على كل شيء حسن ، حتى الذي لا يؤمن بذلك الإله يقول أيضاً : « الله » ، كأن القسرة التي فطر الله الناس عليها تنطق بأن كل حسن يجب أن يُسبب إلى الله سواء كان الله هو الذي فعل مباشرة كالأمسيات والكوبيات والثوابيس ، أو خلق الذي فعل الحسن ، فكل الأمور تؤول إلى الله

ولم علم الذين لا يحسنون أعمالهم بمذا يحرمون الوجود لتحسروا على أنفسهم،

وليتمهم يحرمون الوجود من كلمة «الله»، ولكنهم يجعلون مكان «الله» كلمة خبيثة  
فيشيعون القبح في الوجود، وحين يشيع القبح في الوجود يكون الإنسان في  
عمومه هو الخاسر.

فقول الله: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» تشجيع لكل من يلى عملاً أن يحسنه  
ليكون على أخلاق الله. وبعد ذلك يقول الحق:

﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ  
وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ عَلَى بُطْحِ الْهَدْيِ يَحْلِفُهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا  
أَوْ يَدٌ أَوْ ذِي مِرْيَةٍ مِنْ رَأْسِهِ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُضَاعِدَ أَوْ ضَلَّ فَمَا  
أَسْهَرْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ  
يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ  
كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ  
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

والنسق القرآني نسق عجيب، فأنتم تذكرون أنه تكلم عن الصيام ورمضان  
يأتي قبل أشهر الحج، فكان طبيعياً أن يتكلم عن الحج بعد أن تكلم عن رمضان  
وعن الأضحية وعن جعل الأضحية مواقبت للناس والحج كما أن هناك شيئاً آخر  
يستدعي أن يتكلم في الحج وهو الكلام عن القتال في الأشهر الحرم، وعن البيت  
الحرام فقد قال سبحانه.

﴿ وَلَا تُقْبِلُوهُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَتِلُ فِيهِ <sup>ط</sup> ﴾

(من الآية ١٩١ سورة البقرة)

إذن والكلام عن الحج يأتي في سياق الطغيان . وحين يقول الله : « وأتموا الحج والعمرة لله » نفهم منه أن الأمر بإتمام الشيء لا يكون إلا إذا جاء الأمر بمرحلي هذا العنصر ، فكانت بدأت في العمل بعد التشريع به ، ويرتد منك سخافة ألا تحج فقط ، ولكن يريد منك أن تتعمق وتجعله ناقلاً مستوياً لكل متطلبات الشرع .

وساعة يقول الحق : « وأتموا الحج والعمرة » لقائل أن يقول : إن الحج شيء والعمرة شيء آخر ، بدليل عطفها عليه ، وللعطف يقتضي المعايرة كما يقتضي المشاركة ، فإن وجدت مشاركة ولم توجد معايرة فلا يصح العطف ، بل لابد أن يوجد مشاركة ومعايرة . والمشاركة بين الحج والعمرة أن كليهما سبك وحده ، وأما المعايرة فهي أن للحج زمناً محصوراً ويشترط فيه الوقوف بعرفة ، وأما العمرة فلا زمن لها ولا رقعة فيها بعرفة

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول في مشروعية الحج

﴿ وَفِيهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا <sup>ط</sup> ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

ولم يأتي في تلك الآية بذكر العمرة ، ربما يعرف أن الحج شيء والعمرة شيء آخر ، والمفروض علينا هو الحج . ولعلنا أقول دائماً لابد لنا أن نأخذ القرآن حمته واحدة ، وبأن بكل الآيات التي تتعلق بالموضوع لفهم المقصود تماماً ، حين يقول الحق في قرآنه أبيض : « وأتموا الحج والعمرة لله » يعرف من ذلك أن العمرة غير الحج ، وحين نقرأ قول الله في سورة براءة :

﴿ وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ﴾

(من الآية ٣ سورة التوبة)

نعرف أن هناك حجاً أكبر، وحجاً ثانياً كبيراً . ولذلك فآية «ولله على الناس حج البيت» جاءت بالبيت المحرم، وهو القدر المشترك في الحج والعمرة . ويعرف أن الحج الأكبر هو الحج الذي يقف فيه المسلم بعرفة؛ لأن الرَّمُوسَ عَقَّه قال: «الحج عرفة»<sup>(١)</sup>. وهو الحج الأكبر؛ لأن الحشد على عرفة يكون كبيراً، وهو يأتي في زمن مخصوص ويُشترط فيه الوقوف بعرفة.

إذن قوله تعالى: «ولله على الناس حج البيت» الحج هو القصد إلى مُعَظَم وهو «حج البيت»، أما العمرة فهي الحج الكبير وزمانها شائع في كل السنة، والقاصدون للبيت يتوزعون على العام كله . وذلك قد ثبت بالتشريع بقوله سبحانه: «ولله على الناس حج البيت». وما دام جاء بالأمر المشترك في قوله. حج لبيت فهو يريد الحج الأكبر والحج الكبير.

والحق سبحانه وتعالى يخاطب عباده ويعلم أن بعض الناس سيقبلون على العبادات إقبالاً شكلياً، وقد يعملون على العبادة لأغراض أخرى غير العبادة، فكان لا بد أن يبين القصد من الحج والعمرة، وأن المطلوب هو تمامهما، ولا بد أن يكون القصد به لا شيء آخر، لا ليقال «الحاج فلان»، أو ليشترى سلعة رخيصة ويبيعها بأعلى من ثمنها بعد عودته .

ونحن نعلم أن الحج هو العبادة الوحيدة التي يستمر اقتراؤها بماعليها، فمثلاً لا يقال: «المصلى فلان» ولا «المركبى فلان»، فإن كان الحاج حريصاً على هذا اللقب، وهو دافعه من وراء عبادته فلا بد ألا يخرج بعبادته عن غرضها المشروعة من أجله، إن الحق يقول: «واتموا الحج والعمرة لله». وكلمة «لله» تحذرننا من قضايا متعددة، فما هي هذه القضايا؟

إن المسلم عندما يريد أن يحج لله فلا يصح أن يحج إلا بحال شرع الله وسائله . كثير من الناس حين يسمعون الحديث الشريف .



«من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»<sup>(١)</sup>

يعتقدون أن الإنسان له أن يرتكب ما يشاء من معاصي ومظالم ، ثم يظن أن حجة واحدة تُسقط عنه كل ذنوبه ، نقول لهؤلاء : أولاً ، لا بد أن تكون الحجة لله

وثانياً : أن تكون من مال حلال ، ومادامت لله ومن مال حلال فلا بد أن نعرف ماهي الذنوب التي تسقط عنه بعد الحج ، فليست كل الذنوب تسقط ، وإنما الذنوب المتعلقة بالله سبحانه وتعالى ؛ لأن الذنوب المتعلقة بالله أنت لم تغلم الله به ، لكن ظلمت نفسك ، ولكن الذنوب المتعلقة بالشر فيه إساءة لهم أو انتقاص من حقوقهم ، وبالتالي فإن ظلم العباد لا يسقط ؛ لا يرد حقوق العباد .

ونعرف أن العمرة هي قصد البيت الحرام في مطلق زمان من العام ، والحج قصد البيت في خصوص زمان من العام ، ويقول بعض العلماء : إن هذا تكليف وذلك تكليف ، فهل يجوز أدائهما معاً ، أم كل تكليف يؤدي بمفرده عن الآخر ؟

وبعضهم تناول ملحظيات العسل والحسن ، فالذي يقول : إن الإفراد بالحج أحسن ، فذلك لأنه خص كل نسك بسفرة ، والذي يقول : يؤديهما معاً ويحرم بالحج والعمرة معاً يحرم واحد ، فيذهب أولاً ويأتي بنسك العمرة ، ثم يظل على إحرامه إلى أن يخرج إلى الحج ، وفي هذه الحالة يكون قد قرن الأمرين معاً ؛ أي أداهما بإحرام واحد وهذا ما يفضل به بعض من العلماء ؛ لأن الله علم أن العبد قد أدى تسكين بإحرام واحد ، وهناك إنسان متمتع أي يؤدي العمرة ، ثم يتحلل منها ، وبعد ذلك يأتي قبل الحج ليحرم بالحج ، وهذا اسمه التمتع ، وهو متمتع لأنه تحلل من الإحرام ، ومن العلماء من يقول : إن التمتع أحسن لأنه فصل بين أمرين بما أخرجه عن العادة ، أحرم ثم تحلل ثم أحرم .

إذن كل عالم له ملحظ ، فكان الله لا يريد أن يهبط على خلقه في أداء نسك على أي لون من الألوان وقد احتاط المشرع سبحانه وتعالى عند التكليف ،

(١) رواه البخاري والسنن وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة

واحترم كل الظروف سواء كانت الظروف التي قد تقع من غير عزم وهو القدريات، أو تقع من عزم، وهي التي لها أسباب أخرى فقال: «إن أحصرتم فما استيسر من الهدى»

وأحصرتم تعني مُنَعْتَمٌ . وهناك «حصر» وهي للقدريات، وهناك «أحصر» وتكون بفعل فاعل مثل تدخل العدو كما حصر رسول الله ﷺ في عام الحديبية، وقيل له لا تدخل مكة هذا العام، لذلك فالحق سبحانه وتعالى يخفف عنا وكأنه يقول لنا: أنا لا أهدر تهيق العباد، ولا نيتهم ولا استعدادهم ولا إحرامهم؛ فإن أحصروا «لما استيسر من الهدى» والهدى هو ما يتم ذبحه تقرباً إلى الله، وكفارة عما حدث.

ثم يقول بعد ذلك: «ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله» أي إلى أن يبلغ المكان المخصص لذلك، هذا إن كنت سائق الهدى، أما إن لم تكن سائق الهدى فليس ضرورياً أن تلبسه، ويكفي أن تكلف أحداً يذبحه لك، وقوله الحق: «فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما تيسر من الهدى» تعني أنه يصح أن يذبح الإنسان الهدى قبل عرفة، ويصح أن يؤخره ليوم النحر، ويصح أن يذبحه بعد ذلك كله.

«فما استيسر من الهدى» تعني أيضاً إن كان الحصول على الهدى سهلاً، سواء لسهولة دفع ثمنه، أو لسهولة شرائه، فقد توجد الأثمان ولا يوجد المثلث. «والهدى» هو ما يُهدى للحرم، أو ما يهدي الإنسان إلى طريق الرشاد. والمعنى مأخوذ من الهدى، وهو العاية الموصلة للمطلوب.

وقوله تعالى: «ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله» فمن كان مكم مريضاً أو به أذى من رأسه فهدية» فالمرء الذي لا يستطيع أن يذبح الهدى وحده أذى من راسة كالصحابي الذي كان في رأسه قمل، وكان يسبب له الماء، فقال له رسول الله: «احلق رأسك وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو أنسك بشاة»<sup>(١)</sup> إنها تشريعات متعاقبة وكل تشريع له مناسبة، فكما شرع لمن أحصر ما استيسر

من الهدى ، كذلك شرع لمن حلق رأسه لمريض أو كان به أدى من رأسه ، شرع له ثلاثة أشياء : صيام أو صدقة أو نكاح

والتأمل لهذه الأشياء الثلاثة يجد أنها مرتبة ترتيباً تصاعدياً . فالصيام هو أمر لا يتعدى النفع المباشر فيه إلى الغير ، والصدقة عبادة يتعدى النفع فيها للغير ، ولكن بقدر محدود لأنها إطعام ستة أفراد مثلاً ، والنكاح هو دبيعة ، وحمها يتنفع به جمع كبير من الناس .

فانظر إلى الترقى في نفع ، إما صوم ثلاثة أيام ، وإما إطعام ستة مساكين ، وإما دبح دبيعة أى شاة . إن هذا يصعد من الأصعب للأقوى كل بحسب طاقته ومقدرته

ولحق سبحانه وتعالى ساعة بشرع كمعارف معينة يحدث من أجل مراعاة العمليات المطلوبة في الحج ، والحاجة لطرف رحمة المسلم ، فأباح له في حالة التمتع مثلاً أن يقسم الصوم إلى مرحلتين . ثلاثة أيام في الحج ، وسبعة إذا رجعت . إنه الترقى في التشريعات ، واختيار لأيسر الذي يجعل المؤمن يفرح من المارق الذي هو فيه

« فمن كان منكم مريضاً أو به أدى من رأسه فدية من صيام أو صدقة أو نكاح فإذا أمنتهم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعت » .

وكلمة « فمن م محذوف معناها أنه لا يجزئك ، وهذا الذي لا يملك تقول له لا تفعل كما يفعل كثير من الناس قبل أن يظفروا ، (إن بعضهم يذهب للسوق ويشترى الهدايا ، وبعد ذلك ساعة وجوب الهدى عليه تقول : ليس معي ولدك صاصوم . هنا تقول له : ألم تكن تمنى تلك الهدايا يصلح لشراء الهدى ؟

إنه لأمر غريب أن نجد الحاج يشتري هدايا لا حصر لها ، ساعات وأجهزة كهربائية ومثلها حقائبه ، ثم يقول لا أجدها ما اشتري به الهدى . أليس ذلك غشاً

وخداعاً؟ إن من يفعل ذلك يعيش نفسه.

إذن قوله تعالى: «فمن لم يجد» يعني لا يجد حقاً، لا من تنعد أمواله في الهدايا، ثم يصبح صفر اليدين، ولذلك فالذين يحسون أداء النسك لا يشترون هداياهم إلا بعد تمام أداء المطلوب في النسك، وإن بقي معهم مال اشتروا على قدر ما معهم.

والذين يفتقون أموالهم في شراء الهدايا ثم يأتون عند «لما استيسر من الهدي» ويقولون ليس معنا ثمن الهدى ومنصوم، الغريب أنهم لا يتذكرون الصوم إلا عند عودتهم، ألم يكن الأفضل للواحد منهم أن يصوم من البداية، من لحظة أن يعرف أنه لا يملك ثمن الهدى ويدخل في الإحرام للعمرة؟

إن المفروض أن يبدأ في صوم الثلاثة أيام حتى يكون عنده مسبقاً وليس لاحقاً، وبعض العلماء أباح صوم أيام الشريق، وأيام الشريق الثلاثة هي التي تلي يوم العيد لأنهم كانوا «يشرقون اللحم» أي يسطونه في الشمس ليجف ويقدد. وبعد ذلك عندما ينتهي من أداء المناسك إما أن يصوم السبعة الأيام في الطريق وهو عائد، أو عندما يصل لمكة، إن له أن يختار ما يسهل «فمن لم يجد» صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة» ومعروف أن «ثلاثة» أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة» ومعروف أن «سبعة» تساوي «عشرة»، وذلك حتى لا يظن الناس أن المقصود إما صوم ثلاثة أيام وإما سبعة أيام، لذلك قال: «عشرة كاملة» حتى لا يلتبس الفهم.

وربما أراد الحق سبحانه وتعالى أن ينها إلى أن الصائم سيصوم عشرة أيام فهي كاملة بالنسبة لأداء النسك. وليس الدابع بأفضل من الصائم، لماذا لم يجد ثمن الهدى وصام عشرة الأيام، فله الأجر والثواب كمن وجد وذبح. فإياك أن تظن أن الصيام قد ينقص الأجر أو هو أقل من الذبح.

ويقول الحق: «ذلك لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام». وهذا التشريع مقصود به من لم يكن أهله مقيمين بمكة. ونعرف أن حدود المسجد الحرام هي اثنا عشر ميلاً، والمقيم داخل هذه المسافة لا يلزمه ذبح ولا صوم، لماذا؟ بعض العلماء

قال لأن المقيمين حول المسجد الحرام طوافهم دائم فيفنيهم عن العمرة، فإن حج لا يدخل لى هذا التشريع .

ويختتم الحق هذه الآية بقوله : « واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب » . كيف يقول الحق : إنه شديد العقاب في التيسيرات التي شرعها ؟ أي . إياكم أن تغشوا في هذه التيسيرات ، فليس من المعقول أو من الملقب أن تدلس شيئاً فيها ، لذلك حذرنا سبحانه من الغش في هذه المناسك بقوله « واعلموا أن الله شديد العقاب »

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾

ولنا أن نلاحظ أن الحق قال في الصوم « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » ولم يذكر شهور الحج شوالاً وذا القعدة وعشرة من ذي الحجة كما ذكر رمضان ، لأن التشريع في رمضان خاص به فلا بد أن يعين زمنه ، لكن الحج كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام ، ويعلمون شهوره وكل شيء عنه ، فالأمر غير محتاج لذكر أسماء الشهور الخاصة به ، والشهور المعلومة هي : شوال وذا القعدة وعشرة أيام من ذي الحجة وتنتهي بوقفه عرفات وبأيام منى ، وشهر الحج لا يستغرق منه سوى عشرة أيام . ومع ذلك ضمه لشوال وذا القعدة ، لأن بعض الشهر يدخل في الشهر

وكلمة : معلومات ، تعطيا للحكمة من عدم ذكر أسماء شهور الحج ، لأنها كانت معلومة عندهم

« فمن فرض فيهن حج » والعرض ليس من الإنساإ إنما العرض من الله الذي فرض الحج ركنا ، وأنت إن ألزمت به نفسك نية وفعلاً ، وشرعت ونويت الحج في الزمن المخصوص للحج تكون قد فرضت على نفسك الحج لهذا الموسم الذي تختاره وهو ملزم لك . وقوله سبحانه : « فرض » يدل على أنك تلزم بالحج وإن كان مندوباً . أى غير معروض .

« فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج » . ورفث للساد ، وللعين . وللجوارح الأخرى رفث ، كلها تلتقى في عملية الجماع ومقدماته ، ورفث اللسان في الحج أن يذكر مسألة الجماع . ورفث العين أن ينظر إلى المرأة بشهوة . فالرفث هو كل ما يتأتى مقدمة للجماع ، أو هو الجماع أو ما يتصل به بالكلمة أو بالنظرة ، أو بالفعل

والرفث وإن أبيع في غير الحج فهو محرم في الحج ، أما الصوق فهو محرم في الحج وفي غير الحج ، فكان الله ينيه إلى أنه وإن حاز أن يحدث من المسلم فسوق في غير الحج ، فليس من الأدب أن يكون المسلم في بيت الله ويحدث ذلك الفسوق منه ، إن الصوق محرم في كل وقت ، والحق به ما المرف على نفسه ، وعليه أن يتذكر إن كان قد فسق بعيداً عن بيت الله فليستح أن يعصى الله في بيت الله ؛ فالذهاب إلى بيت الله بمعنى تكفير الذنوب عن نفسه ، فهل يُعقل أن يرتكب فيه ذنباً ؟ لا بد أن يستحي أيها المسلم وأن يتق الله ، واعلم أن هذا المكان هو المكان الوحيد الذي يحاسب فيه على مجرد الإرادة

يقول الله عز وجل

﴿ وَمَنْ يَرْدْ بِهِ فِي الْحِلَالِ يُطْلَبْ يَدُّهُ مِنْ عَذَابِ إِلَهِ ﴾

( من الآية ٢٥ سورة الحج )

إنّ الرّفث حلال في مواضع ، لكنّه تحرّم في البيت الحرام ، ولكنّ الفسوق ممّتنع في كلّ وقت ، وامتناعه أشدّ في البيت الحرام .

والجدل وإن كان مباحاً في غير الحج فلا يصح أن يوجد في الحج . وإن كان يعرف أن مرتبة الجدال دون مرتبة الفسوق ، ودون مرتبة العصيان ، والرسول قل : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » لم يفعل : « ولم يجادل » إن بشرية الرسول تراعى ظروف المسلمين ، فمن لمحتمل أن يصدر جدال من الحاج نتيجة فعل استناره ، فكان عدم ذكر الجدال في الحديث فسحة للمؤمن ولكن لا يصح أن ينهّي عنها

والجدل ممكّن في غير الحج بدليل .

﴿ وَجَدْتُمْ يَأْتِي بِمِثْلِهِ ﴾

( من الآية ١٦٥ سورة النحل )

إنما الحج لا جدال فيه .

والجدل هو أن يلف كل واحد من الطرفين على الآخر ليطوقه بالحجة ثم انظر إلى تقدير الحق لظروف البشر وعواطف البشر والاعتزاز بها والتفكير لأمر واقع معترف به ، فالحج يخرج الإنسان من وطنه ومن مكان أهله ، ومن ماله ، ومن ألف واعتاد من حياة . وعين يخرج الإنسان هذا الخروج فقد تصبّق أخلاق الناس : لأهمّ جميعاً يعيشون عبثاً غير طبيعية ؛ فهناك من ينام في غرفة مشتركة مع ناس لا يعرفهم ، وهناك أسرة تمام في شقة مشتركة ليس فيها إلا دورة مياه واحدة ، ومن لحائر أن يرغب أحد الأفراد في قضاء حاجته في وقت قضاء حاجة شخص آخر ، ونحن تكون هذه المسألة موجودة لا رأى لإسان ، ولذلك يقال : « لا رأى لحاقن » أي لا رأى لمحصور أي لمن يريد قضاء حاجته من بول ، وكذلك الشأن في لحاقب وهو الذي يحبس عائلته لأنها مائة لحل توازن الإنسان

إذن والحياة في الحج غير طبيعية ، وظروف الناس غير طبيعية ، لذلك يحدونا الحق من الدخول في جدل ، لأنه ربما كان الضيق من تغيير نظام الحياة سبباً في إساءة معاملة الآخرين ، والحق يريد أن يمنع هذا الصيق من أن يؤثر في علاقتنا بالآخرين . وقد أثبتت التجربة أن من يذهبون للحج في جماعة إما أن يعمدوا متحايين جداً ، وإما أعداء الله .

ولذلك يطلب إلينا الحق أن يصبر كل إنسان على ما يراه من عادات غيره في أثناء الحج ، وليحتسب خروجه عن عاداته وعن رتبة أموره وعن أنسه بأهله يحتسب ذلك عند الله ، وليشتغل بأنس الله ، وليتحمل في جانب كل شيء ، ويكفى أنه في بيت الله وفي هيافته .

والحق سبحانه وتعالى يقول : «وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى» . بعد أن نهان الحق بقوله : «فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج» وتلك أمور سلبية وهي أفعال على الإنسان أن يمنع عنها ، وهنا يتبع الحق الأفعال السلبية بالأمر بالأفعال الإيجابية ، أفعال الخير التي يعلمها الله .

إن الله يريد أن نجتمع في العبادة بين أمرين ، سلب وإيجاب ، سلب ما قال عن الرفث والفسوق والجدال ، ويريد أن نوجب ونوجد فعلاً . «وما تفعلوا من خير يعلمه الله» وما هو ذلك الخير ؟ إنها الأمور المقابلة للمسائل المنهى عنها ، فإذا كان الإنسان لا يرفث في الحج فمطلوب منه أن يعف في كلامه وفي نظراته وفي أسلوبه وفي علاقته بأمراته الحلال له . فيمتنع عنها ما دام محرماً ويُطلب منه أن يفعل ما يقابل الفسوق ، من بر وخير .

وفي الجدال نجد أن مقابله هو الكلام بالرفق والأدب واللين وبحلاوة الأسلوب وبالمعطف على الناس ، هذا هو المقصود بقوله : «وما تفعلوا من خير



يعلمه الله. وكلمة من هي قوله «من خير» للابتداء، كأن الله سبحانه وتعالى يريد منك أن تمنع خيراً وهو سبحانه يرى أقل شيء من الخير؛ ولذلك قال: «يعلمه الله». فكانه خير لا يراه أحد؛ فالخير الطاهر يراه كل الناس؛ والتعبير «يعلمه الله» أي الخير مهما صغر، ومهما قل فإن الله يعلمه، وكثير من الخيرات تكون هواجس بالنية، ويجارى الله على الخير بالجزاء الذي يناسبه.

وقوله الحق: «وتزودوا» والراد: هو ما يأخذه المسافر ليتقوى به على سفره، وكان هذا أمراً مألوفاً عند العرب قديماً؛ لأن المكان الذي يذهبون إليه ليس فيه طعام. وكل هذه الظروف تغيرت الآن، وكذلك تغيرت عادات الناس التي كانت تذهب إلى هناك. كانت الناس قديماً تذهب إلى الحج ومعها أكفانها، ومعها ملح طعامها، ومعها الخيط والإبرة، فلم يكن في مكة والمدينة ما يكفى للناس؛ وأصبح الناس يذهبون الآن إلى هناك ليأتوا بكُماليات الحساء، وأصبحت لا نجد غرابة في أن هللنا جاء من الحج ومعهم كذا وكذا. كأن الحق سبحانه وتعالى جعل من كل ذلك إيذانا بأنه أخبر قديماً يوم كان الواحدى غير دى زرع فقال:

﴿يَجْنِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ...﴾ (٥٧) [النصص]

وانظر إلى دقة الأداء القرآنى في قوله: «يجبى» ومعناها يؤخذ بالقوة وليس باختيار من يذهب به، فكان من يذهب بالثمرات بكل ألوانها إلى هناك مرغم أن يذهب بها، وهو زرع من عند الله، وليس من يد الناس.

وهذا تصديق لقوله تعالى:

﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ...﴾ (٥٧) [إبراهيم]

وقوله الحق: «وتزودوا» مأخوذة - كما عرفنا - من الزيادة، والزاد هو طعام المسافر، ومن يدخر شيئاً لسفر فهو فائض وزائد عن استهلاك قامته، ويأخذه حتى يكفيه مثونة السؤال أو الاستشراف إلى السؤال؛ لأن الحج ذلة عبودية، وذلة العبودية يريد ما الله له وحده. فمن لا يكون عنده مثونة سفره مرعياً يذل للشخص آخر، ويطلب منه أن يعطيه طعاماً، والله لا يريد من الحاج أن يذل لأحد، ولذلك

يطلب منه أن يتزود بقدر حاجته حتى يكفى نفسه ، وتظل ذاته سليمة لربه ، فلا يسأل غير ربه ، ولا يستشرف للسؤال من الخلق ، ومن يسأل أو يستشرف فقد أخذ شيئاً من ذاته المفروض أن تكون خالصة في هذه المرحلة لله وهو يوجهها للناس ، والله يريد لها خالصة

وإن لم يعط الناس السائل والمستشرف للسؤال فربما سرق أو يهب قدر حاجته ، وتتحوّل رحلته من قصد البر إلى الشر . وكان بعض أهل اليمن يخرجون إلى الحج بلا زاد ويقولون : نحن متوكلون ، أذهب إلى بيت الله ولا يصعماً ؟ ثم تضطربهم الظروف لأن يسرقوا ، وهذا سبب وجود الهب والسرقة في الحج إن إلحاح الجوع قد يدفع الإنسان لأن يهب ويسرق ليسد حاجته

ومن هنا أراد الحق سبحانه وتعالى أن يقطع على النفس البشرية هذا لشراً فقال : « وتزودوا » إنه أمر من الله بالتزود في هذه الرحلة التي ينقطع فيها الإنسان عن ماله وعن أهله وعن أحبائه وعن معارفه ، ويقول سبحانه : « فإن خير لزاد التقوى » ويعرف أن الزاد هو ما تبقى به نفسك من الجوع والعطش ، وإذا كان التزود فيه خير لاستبقاء حياتك العائنة ، فما بالك بالحياة الأبدية التي لا ماء فيها ، إلا تحتاج إلى زاد أكبر ؟ فكان الزاد في الرحلة الثانية يعلمك أن سرود للرحلة العاقبة .

إذن فقله : « فإن خير للزاد التقوى » يشمل زاد الدنيا والآخرة ، والله سبحانه وتعالى يذكرنا بالأمور المحسنة وينقلنا منها إلى الأمور المعنوية ، ولكن إذا نظرت بعمق وصدق وحقق وجدت الأمور المعنوية أقوى من الأمور للحسية ولذلك نلاحظ في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي مَوَازِينَكُمْ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الاعراف)

هذا أمر حسي ويفيدنا ويزيدنا سبحانه « ريشاً » إنه - سبحانه - لا يورى السوء فقط ، وإنما زاد الأمر إلى الكماليات التي يتزين بها ، وهذه الكماليات هي الريش ، أي ما يتزين به الإنسان ثم قال الحق

## ﴿وَلَيْسَ اتَّقَوِيْ ذَلِكَ يُغَيِّرُ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الاحزاب)

اى انعت عليكم باللباس والريش ، ولكن هناك ما هو خير منها وهو لباس التقوى . فان كنت تعتقد في اللباس الحسن انه ستر عورتك ووقاك حراً ويردنا وتزييت بالريش منه ما هم ان هذا امر حسي ، ولكن الامر الافضل هو لباس التقوى ، لماذا ؟ لان مفسوح الاحرة شر من مفسوح الدنيا .

اذن فقله : « وترودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا اولى الالباب » . يعنى ان الحق يريد منك ان تزود للرحلة راداً يملك عن السؤال والاستشراف او النهب او العصب ، واحذر ان يدخل فيه شيء مما حرم الله ، ولكن تزودك في دائرة « واتقون يا اولى الالباب » اى يا اصحاب العقول ، ولا ينبه الله الناس الى ما هم من عقل الا وهو يريد منهم ان يحكموا عقولهم في القضية ، لانه جل شأنه يريد منك ان تحكم عقلك ، فان حكمت عقلك في القضية سيكون حكم العقل في صف امر الله

ولما كان الله - سبحانه - بسعة لطفه ورحمته - يريد في هذه الشعرة المقدسة والرحلة المباركة ان يتعاون الناس ، اذن لخدمة من الحجاج ان تقوم على خدمة الآخرين تيسيراً لهم . ومن العجيب ان الذين يقومون بخدمة الحجاج يرحمهم الله لهم في الحج ان ينصروا قبل غيرهم ؟ لان تلك مصلحة ضرورية . فها ان الناس جميعاً امتنعوا عن خدمة بعضهم بعضاً فمن الذى يقوم بمصالح الناس ؟ اذن لابد ان يذهب اناس وحظهم العمل لخدمة الحجاج ، والله - سبحانه - تعالى - بين ذلك ووضحه بقوله .

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُحَاحٌ اَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَاِذَا اَفْضَيْتُمْ مِنْ عَرَفَتِ

فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْرِقِ الْخَرَاءِ  
وَأَذْكُرُوا كَمَا هَدَيْنَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ  
قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾

« ليس عليكم جناح » أى لا إثم عليكم ولا حرج « أن تستعوا فضلاً من ربكم » أى أن تتكسبوا في الحجاج وهو نست عبادى ، والمكسب الذى يأتى به هو فضل من الله . وقد كانوا يقولون : فيه « حاج » ، وفيه « داج » ، واحدة بالحاء وواحدة بالدا ، « فالداج » هو الذى يذهب إلى الأراضى المقدمة للتجارة فقط ، ونقول له : لا مانع أن تذهب لتتجج وتتاجر ، لأنك سيمر أمراً ، لأننا إن منعناه فمن الذى يقوم بأمر الحجيج ؟

ولمّا قال الحق : « تبتغوا فضلاً من ربكم » ولم يقل رزقاً ؟ لقد أوضح الحق في الآية التى قبلها . ألا تذهبوا إلّا ومعكم زادكم . إذن أنت لا تريد زاداً بعملك هذا ، أى لا تذهب إلى الحج لتأكل من التجارة ، إنما تذهب ومعك زادك وما نأتى به هو زائد عن حاجتك ويكون فضلاً من الله سبحانه وتعالى ، وهو جل شأنه يريد منك ألا يكون في عملك المباح حرج ، فتسعى الجتناح عنه ، فأنت قد جئت ومعك الأكل والشرب وبكعبك أن تأخذ الرزق المعقول ، فلا يكون فيه شائبة ظلم كالاستغلال لحاجة الحجيج ، لذلك أسماه « فضلاً » ، يعنى أمراً زائداً على الحاجة .

وكل انشاء الرزق وابتغاء الفضل لا يصح أن يغيب عن ذهن متبغى الرزق والفضل ، فكله من عند الله . إياك أن تقول : قوة أسباب ، وإياك أن تقول : ذكاء أو احتياط ، فلا شيء من ذلك كله ، لأن الرزق كله من الله هو فضل من الله ولا ضرر عليك أن تبتغى الفضل من الرب ، لأنه هو الخالق وهو المربي . ونحن مربيون له ، فلا غصاصة أن تطلب الفضل من الله .

ثم يقول الحق بعد ذلك : « فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر

الحرام ، وأنت حينئذ لئلا كاساً عن آخرها فهي تفيض بالزائد على جوانبها ، إذن فالفاضل معناه شيء افترق عن الموجود للزيادة .

قوله : « فلماذا افضتكم من عرفات » تدل على أن الله قد حكم بأن عرفات مستملى . وكل من يخرج منها كأنه فائض عن العدد المحدد لها . وهذا حكم من الله في الحج . وأنت إذا ما شهدت المشهد - كتبه الله للمسلمين جميعاً . إن شاء الله - ستري هذه المسألة ، فكان إناء قد امتلأ ، وذلك يفيض منه ولا تدري من أين يأتي الحجيح ولا إلى أين يذهبون . ومن ينظر من يطوفون بالبيت يظن أنهم كتل مشربة ، وكذلك إذا فاض الحجيح في ماء يوم عرفة يغبل إليك عندما تنظر إليهم أنه لا فارق بينهم ، ولذلك يقال : سالت عليه شعاب الحى كأنها سيل .

وقال الشاعر :

فسالت عليه شعاب الحى حين دعا

أصحاب يوجوه كالذنانير

وقال آخر :

ولما قضينا من منى كل حاجة

ومشع بالأركان من هو ماسح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا

وسالت بأعناق الطر الأباطح

أى كأنه سيل متدفق ، هكذا تماماً تكون الإفاضة من عرفات . وعندما تتأمل الناس المتوجهين إلى « مزدلفة » تتعجب أين كان كل هذا الجمع ؟ ترى الوديان يسير فيها الناس والمركبات كأنهم السيل ولا تستطيع أن تفرق شخصاً من مجموعة ، وفي موقف الحجيح إفاضتان : إفاضة من عرفات ، ثم إفاضة ثانية بيتها الآية التى بعدها يقول - سبحانه - :

## ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٨)

وعرفات تنطقها بمنطوقين : مرة نفول « عرفات » كما وردت في هذه الآية ، ومرة تنطقها « عرفة » كما في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الحج عرفة »<sup>(١)</sup> وعرفات جمع ، وعرفة مفرد .

هذه الكلمة أصبحت عبأ عن المكان الفسيح الذي يجتمع فيه الحجاج في التاسع من ذي الحجة ، ولا نلظ أنها جبل ، فإذا سمعت « جبل عرفات » كما يقول الناس فافهم أن المقصود هو الجبل المنسوب إلى عرفات . وليست عرفات في ذاتها ، ولذلك نجد أناساً كثيرين يظنون أنهم إن لم يصعدوا الجبل المسمى بجبل الرحمة الذي عند الصخرات التي وقف عليها رسول الله في حجة الوداع فكأن الإنسان منهم لم يحج . نفول لهم : لا ، الوقوف يكون في الوادي ، والجبل الجاور للوادي أسميناه جبل عرفات ، فالجبل هو المنسوب لعرفات وليس الوادي هو المنسوب للجبل .

وأصل كلمة عرفة وردت فيها أقوال كثيرة . وهناك فرق بين الاسم يكون وصفاً ثم بصيراً اسماً . ويبين أن يكون علماً من أول الأمر . وقلنا إنه إذا سميت العلم من أول الأمر فلا ضرورة أن يكون فيه معنى اللفظ ، فقد نسمى واحداً شقيقاً به سعيداً ، ونسمى زنجة به قمر ، وهذا لا يسمى « وصفاً » وإنما يسمى علماً إلا أن الناس حين يسمون يتماثلون بالأصل ، يقال : اسمي ابني « سعيداً » تماؤلاً بأن يكون « سعيداً » ، وعندما تكون بنتاً فقد نعطيتها اسماً مخالفاً لحالها ، فقد تكون دمية ونسميها « جميلة » تماؤلاً بالاسم ، هنا يكون أحد العلم للتعاؤل . والعرب عندما كانوا يسمون الأسماء كانوا يتماثلون بها . مثلاً كانوا يسمون « صحراً » ليشابهوا به أمام الأعداء . ويسمون « كلباً » حتى لا يبرؤ عليه أحد .

وقيل لعرب : إنكم تحسون أسماء عبيدكم فتضويون « سعيداً » و « سعداً »  
و « فضلاً » ، وتسمون أسماء أبنائكم : تسمونهم : « مرة » ، « كلباً » ، « صخراً »  
قال العرب : نعم ، لأننا نسمى أبناءنا لأعدائنا ليكونوا في نحورهم ، ونسمى عبيدنا  
لنا . وكلمة « عرقة » هي الآن علم على مكان ، لكن سبب تسميتها فيه خلاف :  
قيل : لأن آدم هبط في مكان وجوه هبطت في مكان ، وظل كلاهما يبحث عن الآخر  
حتى تلاقيا في هذا المكان ، فسمى « عرقة » .

والحديث عن آدم وجواه يقتضينا أن نحث عن سبب تفرقها الذي جعل كلا منهما  
يبحث عن الآخر ، إذا كان الله عز وجل خلقها ليكونا زوجين فلهذا فرقها ؟ . ذلك  
أن تصور حال آدم وهو مخلوق في عالم غريب واسع بمفرده ، وينظر حوله فلا يجد  
بشراً مثله ، بله ألا يشتاق للإنسان يؤنس وحدته ؟ .

وماذا يكون حاله عندما يرى إنساناً ؟ . لاشك أنه سيقابله باشتياق شديد من  
أجل هذا فرق الله بينهما وجعل كلا منهما يبحث عن إنسان يؤنس وحدته ، ولو ظل  
كل منهما بجوار الآخر فرما كان الأمر عادياً . وهكذا أراد الله لكل من آدم وجواه أن  
يشتاق كل منهما للآخر ، فابعدهما عن بعضهما ثم تلاقيا بعد طول بقاء ،  
فكان الشوق للقاء . وبعد اللقاء تأى المودة والرحمة والألفة والسكن ، وهو مطلوب  
الحياة الزوجية . وهناك قول آخر بخصوص تسمية عرفت : إن سيدا آدم قالت له  
للملائكة وهو في ذلك المكان : اعرف ديك رقب إلى ربك فقال .

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

( من الآية ٢٣ سورة الأعراف )

ليكون بذلك قد عرف زلته وعرف كيف يتوب . أو حينما أراد الله أن يعلم  
إبراهيم عليه السلام ، وهو الذي دعا ربه أن يجعل أفئدة الناس وقلوبهم تميل ونهى  
هذا المكان . إن إبراهيم رأى في المنام أن يذبح ابنه . وتلك مسألة شاقة من ثلاثة  
وجوه : المشقة الأولى أنها رقيا وليست رحيا . والمشقة الثانية أنه ابنه الوحيد ،  
والمشقة الثالثة أنه هو الذي سبذبه .

إنها ثلاث مشقات صعب ، وليس من المعقول أن تمر هذه المسألة على ابن الأنبياء يسر وسهولة ، بل لابد أنه تحدث فيها كثيراً بينه وبين نفسه ، هل هي رؤيا أم ماذا ؟ . ومن هنا سُمي اليوم الذى قبل يوم عرفة بيوم الترويه . وعندما تأكد سيدنا إبراهيم بأن رؤيا الأنبياء حق عرف أنه لابد أن يبعد ما رأى . والمكان الذى عرف به حقيقة الرؤيا سُمي عرفة . أو أنه حين جاءت له الرؤيا بذبح ابنه فالشيطان لم يدع مثل هذه الفرصة تمر ، وكان لابد أن يدخل ليوسوس لإبراهيم . أليس هو الفائل

﴿ لَا تَقْعُدَنَّ عَنْهُمْ سُرَّتُكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

( من الآية ١٦ سورة الأعراف )

فعندما تمثل الشيطان لإبراهيم رحمه بالخصي سبعا في المرة الأولى ، ثم علوته مرة أخرى فرجه سبعا ، وجاءه في الثالث فرجه سبعا ، بعدها لم يأت له ثابته ، فعمرى إبراهيم مخافه أن يلاحقه ، ولذلك سُمي المكان بالمزدلفة ، والمزدلف هو المسرع ، ويسمى « ذا المجاز » أى أنه اجتاز المزدلفة ، ويكون قد عرف المسألة عند عرفة

أو أن جبريل كان يعرفه المناسك في هذا المكان ، فيقول له : عرفت ؟ فرد إبراهيم . « عرفت » . أو أن الإنسان يعرف فيها ربه في آخر ما شرع له من أركان ، فكل ما عرف الأركان . هذا عرف ، وذلك عرف ، وثالث ، ورابع ، وهكذا فيكون كلنا . عرفات ، ويصبح المكان عبودية لله . اشترك فيها جميع الحجاج .

« فإذا أمضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام » . والمشعر الحرام في مزدلفة : « فاذكروا الله » معناها أن الله يَسِّرْ لكم هذه الرحلة الشاقة ، وجاء بكم آمين وقاصدين بيت الله الحرام ، ثم تعبدون مفعولاً لكم ، وهي مسألة تستحق أن تذكروا الله بالشكر والعرفان .

« واذكروه كما هداكم » ، لأن هدايته لكم وتعليمكم أقصر طريق يوصل إلى الخير هو نعمة من الله لحملته ، والتمية يجب أن يَرَدَّ عليها ، فكما هداكم اذكروه . « وإن كنتم من قبله لمن الضالين » ، لأنهم ظلالاً حجوا كثيراً ، في الجاهلية ، فأنتم كنتم تحجون بضلال ، والآن تحجون بهدى . « ثم أفوضوا من حيث أفاض اللس » .



قوله : « ثم » تدل على أنه لا بد من الوقوف بعرة أو المبيت في مزدلفة ؛ لأن « ثم » تدل على التبعية ببطء والتعقيب بشمهل

إذن قوله : « ثم أفيضوا » حجة لمن قال : إنه لا بد من المبيت في مزدلفة . وهذه الآية نزلت لأن قريشاً كانت ترى نفسها أهل الحرم فلا يُطالبون أبداً بما يُطالب به سائر الناس ، ولذلك لا يلهيهم مع الناس إلى عرفات ، والله يريد بالحج المساواة بين الناس ، ولذلك قال النبي في حجه ابوداع : « كلكم أبو آدم وأدم خلق من تراب ، ليستهم قوم يمتخرون بأبائهم أو يسيرون أمون على الله من الجعلان »<sup>(١)</sup> فلا بد أن يسبح الله مسلك قريش فقال : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » يعني لا تحجز لكم ولا تفرقة بين المسلمين

وبعض المفسرين يقول : إن معنى « من حيث أفاض الناس » المقصود به من حيث أفاض إبراهيم ، بمعنى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد رسم مسلك الحج كلها بعد أن علمها الله له ، فالناس وإن كانوا جمعاً إلا أن المراد بكلمة « الناس » هو إبراهيم ولا يستعرب أن يكون معنى : « الناس » هو « إبراهيم » لأن الله وصفه بأنه « أمه » . وكلمة الناس تطلق عن الإنسان الذي يجمع خصائص متعددة ؛ ولذلك قال الله عز وجل عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة النساء)

لقد وصف الحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس والرجل الذي ذهب للمؤمنين بفقرهم باستعداد المشركين لقتالهم نزل فيه قوله تعالى : « الذين قال لهم الناس : إنه إنسان واحد ومع ذلك وصفه الله بالناس ، كآله تشبيهه للمسلمين يكون جمع كل صفات الخير في الناس .

« واستمعوا لله إن الله غفور رحيم » إن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن بني آدم

لا يمكن لهم أن يراعوا حقوقه كما يجب أن تراعى ، فلا بد أن تفلت منهم أشياء ، وهو سبحانه وتعالى يعلم ذلك ، لأنه خالقهم ، فالمرهم - جلّت حكمته - أن يستغفروه ، ليكفروا عن سيئاتهم

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ  
آبَاءَكُمْ أَوْ أَشْكَدَ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن  
يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن  
خَلَقٍ ۚ ﴾

ويعرف أن « قضى » تأتي بمعان متعددة ، والعمدة في هذه المعاني فصل الأمر بالحكمة ، قد يفصل الأمر بحكمة لأنه فرع منه أداء « فإذا قضيتم » أى إذا فرغتم من مناسككم ، هذه واحدة . وقد يكون لأنك فصلت الأمر بحبر يقيى مثل قوله الحق

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَهًا ﴾

( من الآية ٢٢ سورة الإسراء )

وقد يكون « قضى » بمعنى حكم حكماً لازماً كما تقول . قضى القاضي . إذن فكلها تلور حول معنى : فصل بحكمة . « فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله » . أى إذا فرغتم من مناسككم ، والمناسك هي الأماكن لعبادة ما ، معارف مكان للموقف ، ومزدلفة ، مكان للمشعر الحرام يبيت فيه الحجاج وهى « مسك للمبيت أيضاً ، إذن كل مكان فيه عبادة يسمى « منسكاً »

وقوله سبحانه : « فاذكروا الله » أى فلا يزال ذكر الله دائماً وارداً في الآيات ، كأنك

حين تُوفَّق إلى أداء شيء إليك أن نعتز ، بل اذكر ذلك الذي شرع لك ثم وفِّعك وأحاثك . وكأن الحق يريد أن يضع نهاية لما تعودت عليه العرب في ذلك الزمان ، فهدى كانوا يحجون ، فلذا ما اجتمعت الميائل في مي ، كانت كل قبيلة تقف بشايرها أو بحطيتها ليعدد مآثره ومآثر آبائه ، وما كان لهم من معاصر في الجاهلية ، ويحملون الذبائح ، ويحملون الحملات ، ويطعمون الطعام ، ويفعلون غير ذلك من العبادات ، فلراد الله سبحانه وتعالى أن ينهي قبيهم هذه العادة التي هي التماثر بالآباء وبأعمالهم فقال . « فاذكروا الله كذكركم آباءكم » والذكر معناه توجيه الفكر إلى شيء غير موجود ساعة تلى به ، ولا يمكن أن يذكر الإنسان من أحداث الماضي إلا الحدث الذي له الأثر السافع فيه ، وعلى مقدار الأثر السافع يكون الذكر .

وكانوا قديما يطعمون الطعام ، والذي يطعم الطعام يؤدي مهمة في مثل هذه البلاد البدائية - أي البدوية - وكان من المبالغة في الخصائص أن بعضهم كالطعم بن عدي مثلاً كانت له جمعة يحكى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يستظل بها ساعة الحجير . والجمعة هي الرعاء الذي يوضع فيه الطعام ، تتأمل الجمعة كيف تكون ؟!

ويحملون الحملات ، بمعنى أنه إذا قامت قبيلة على قبيلة وقتلت منها خلقاً كثيراً يطلع منهم ذو الحسب وذو المرومة وذو الشهامة وذو السجدة فيحمل كل هذه الآثار في ماله والذبيات هي التي يطلع بدفعها أهل الشهامة منهم إذا ما قتل قاتل قبيلة ، ولا يقدر على أن يعطى دينه ، وكانت كل تلك الأفعال هي المخاير .

أراد الحق سبحانه وتعالى أن يردهم إلى كل شيء إلى ذاته ، فقال لهم : أنتم تذكرون آباءكم ، لأنهم كانوا يفعلون كذا وكذا ، وآباؤكم يفعلون بآبائهم ، انقلوها وسلسلوها إلى خالق كل الآباء وكل البشر ، فكل ما يجري من خير على يد الآباء مرده إلى الله ، فإن ذكركم آباءكم لما قسموه من خير ، فذكروا من أمدهم بذلك الحجير .

وهو يريد منهم أن يذكروا الله كذكركم آباءهم ، أو أشد ذكراً ، لأن كل كائن إنما يستحق من الذكر على مقدار ما قدم من الخير ، ولن نجد كل الخير إلا الله ، إذن لا بد أن نذكر الله .

وأيضاً فإن الإسلام أراد أن ينسى التفاحر بالآباء لجعل الفخر ذاتياً في نفس المؤمن ، أى فخر من عمل جليل نابع وحاصل من الشخص نفسه ؛ ولذلك يقولون في أمثال هؤلاء الذين يفخرون بأسلافهم إنهم : « عظاميون » أى مسويون إلى عهد صنعه من صاروا عظاماً تصعبها القبور ، والله يريدنا أن نكون دائيين في معاصرينا ، أى أن نفخر بما فعل نحن ، لا بما فعل آباؤنا ، فالآباء أقصوا إلى ما قدموا ، ويريد الله أن يأخذ الإنسان ذاتية إيجابية تكبمية . ومن يريد أن يعتخر فليعتخر نفسه ، ولذلك يقول الشاعر .

لا تكبروا عظامي فخورة  
ماضيهم عامر في حاضر حرب  
لا يمنع الحسب اسودوث من قدم  
إلا قوى همة عاروا على الحرب  
والعسود من مشر إن لم يلد ثمرأ  
عنوه مهيا كما أملاً من الخطب

فالتبت الذي ليس له ثمرة ، يعتز به الناس مجرد حطب ، ويريد الحق أن يبه و المؤمن ذاتية تفعل ، وليس ذاتية تفخر بأنه كان وكن ، بل على كل إنسان أن يقدم ما يقتخر به :

ليس الحق من يقول كان أب  
إن الحق من يقول هأنذا

وعندما كان العرب يتفاخر بعضهم حل بعض يقول أحدهم للآخر : يا أخى أنت تفخر على ماذا ؟

فيرد عليه الثانى : افتخر عليك بأبائى وأجدادى .  
فيرد الأول : اذكر جيداً أن مجد أبائك انتهى بك ، ومجد أبائى بدأ بى ، ولماذا لا أجعل لأبائى الفخر بأنهم أنجسون ؟  
وفى ذلك يقول أحدهم :

قالوا أنوالصقر من شيان قلت لهم  
كلا لعمري ولكن منه شيان  
وكم أب قد علا بين ذرا شرف  
كما علت رسول الله صديق

وما دام القوم يفتخرون بحى منهم ، فهم يلتحمون بمن يعطيهم المدد ليكونوا شيئا  
باقيا ومؤثرا في الوجود ، وليس بذلك الشيء المحدود المتمثل في أنه يطعم الطعام ،  
ويحمل الحملات ويؤدي الديات ، وإنما يكون بحمل رسالة الإنسانية العلية

« فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا » لأن ذكركم الله سيوصلكم بالمدد  
منه ، ويعطيكم المعونة لتكونوا أهلا لقيادة حركة الحياة في الأرض ، فتطلبوا فيها  
الأمس والسلام والرحمة والعدل ، وهذا هو ما يجب أن يكون عجلا للفجر .

وبعد ذلك يلحقنا الحق فيما يأتي إلى أن الإنسان إذا ما فهمي المناسك كان أهلا لأن  
يصرع إلى الله ، ويسأل الله بما يجب أن يسأله ، والسؤال لله يختلف باختلاف  
حمة السائلين ، وكانوا لا يسألون الله إلا قائلين . يارب أعطني إبلا ، يارب أعطني  
غنيا ، يارب أعطني بقرأ ، يارب أعطني حائطا . أي بستانا . يارب كما أعطيت أبي  
أعطني .

ولم يكن في باهم إلا الأمور المادية ، وأراد الله أن يجعلهم يرتفعون بالمسألة لله ،  
وأن يضعونها إلى شيء أعظم وأبقى وأنفع ، ومن هنا تأتي للزينة الإيمانية ، فإذا كنتم  
مستألفون الله متاعا من متاع الدنيا فما العارق بينكم وبين أهل الجاهلية ؟

ذلك ما فهمه من قول الله عز وجل في ختام هذه الآية : « فمن الناس من يقول  
ربنا آتانا في الدنيا وما ليه في الآخرة من خلاق » . فالعبد حين يؤدي مناسكه لله يجد  
نفسه أهلا لأن يسأل الله ، وماضت قد وجدت نفسك أهلا لأن تسأل الله فاسأل الله .  
بخير باق : لأن الإنسان إنما يصمد حاجته إلى المستول حل مقدار مكانة المستول  
ومنزلة ، فقد تذهب لشخص نطلب منه عشرة قروش ، وقد تذهب لآخر أغنى من

الأول فنقول له : أعطني جميعها ، وثالث : تطلب منه عشرة جنیهات ، إنك تطلب على قدر حمة كل منهم في الإجابة على سؤالك

إذن مادام العباد بعد أداء المناسك في موقف سؤال الله فليضعوا مسألتهم لله وليطلبوا منه انعام أبداً ، ولا يحطوا بالسؤال إلى الأمور الدنيوية الفانية البهتة . فمس الناس من يقول ربما آتانا في الدنيا وما له في الآخر من خلاق : إن العبد قد لا يريد من دعائه لله إلا الدنيا ، ولا حظ ولا نصيب له في الآخر ، ومثل هذا الإنسان يكون ساقط الحمة ؛ لأنه طلب شيئاً في الدنيا الفانية ، ويريد الله أن تصعد همته الإيمانية ، وبذلك يتبعها بقوله الحق .

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً  
وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾

ولماذا لم ننس الدنيا هنا ؟ لأنها من المزرعة للآخرة . وقوله سبحانه . « آتانا في الدنيا حسنة » ، اختلف فيها العلماء ؛ بعضهم ضيقها وقال : إن حسنة الدنيا هي المودة الصالحة . وقال عن حسنة الآخرة إنها الجنة . ومنهم من قال : إن حسنة الدنيا هي العلم ؛ لأن عليه يتبين العمل ، وفي حسنة الآخرة قال : إنها المغفرة ؛ لأنها أم المطلب

ومن استعراض أقوال العلماء نجدهم يتفقون على أن حسنة الآخرة هي ما يؤدي إلى الجنة مغفرة ورحمة ، لكنهم اختلفوا في حسنة الدنيا . أقول : لماذا لا نجعل حسنة الدنيا أعم وأشمل فنقول : يارب أعطنا كل ما يُجسُّ الدنيا عندك لعبدك

ويزيل الحق هذه الآية بقوله : « وقنا عذاب النار » وسبحانه وتعالى حين يمتن على عباده يمتن عليهم بأن زحزحهم عن النار وأدخلهم الجنة ، كأن مجرد الزحزحة عن

النار نعيم ، فإذا ما أدخل الجنة بعد الزحزحة من النار فكأنه أنعم على الإنسان بنعمتين ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾

( من الآية ٧١ سورة مريم )

ومعناها أن كل إنسان سيرى النار إما وهو في طريقه للجنة ، فيقول : الحمد لله ، الإيمان أنجاني من هذه النار وعذابها . فهو عندما يرى النار وشاعة منظرها يحمده الله على نعمة الإسلام . لقي أنجته من النار . فإذا ما دخل الجنة ورأى نعيمها يحمده الله مرة ثانية . وكذلك يرى النار من هو من أهل الأعراف أى لا في النار ولا في الجنة ، يقول الحق :

﴿ كَمَنْ زُحِرَ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ قَادَ ﴾

( من الآية ١٨٥ سورة آل عمران )

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

والنصيب هو الحظ ، وأما « مما كسبوا » فنعرف من قبل أن فيه « كس » وفيه « اكتساب » . والاكْتِسَاب فيه افتعال ، إنما الكسب هو أمر عادي ، ولذلك نجد أن الاكتساب لا يكون إلا في الشر ، كان الذي يفعل الشر يتكلف فيه ، لكن من يفعل الخير فلذلك أمر طبيعي من الإنسان . والمقصود بـ « مما كسبوا » هنا هو الكسب من استيفاء أعمالهم التي فعلوها في الحج إحراماً ، وتلبية ، وطوافاً ، وسعيّاً ، وذهاباً إلى « منى » ، وذهاباً إلى « عرفات » ووقوفاً بها ، وإفاضة إلى « مزدلفة » ، وربما للجبار في « منى » ، وطواف إفاضة ، وكل هذا كسب للإنسان الذي نال شرف الحج .

وعندما نقراً : « والله سريع الحساب » فلتعلم أن السرعة هي أن يقل الزمن عن الحدث ، فبدلاً من أن يأخذ الحدث منك ساعة ، قد تنبيه في نصف ساعة ، وكل حدث له زمن ، والحدث حين يكون له زمن ونريد أن تقلل زمن الحدث فلا بد أن تسرع فيه حتى تنجزه في أقل وقت . وتقليل الزمن يقتضي سرعة الحركة في الفعل ، وذلك في الأعمال العلاجية التي تحتاج مُعالجة ، وعملاً من الإنسان ، لكن سبحانه يفعل بسرعة كُنْ ، ولا يحتاج عمله إلى علاج ، وبالتالي لا يحتاج إلى زمن ، إذن فهو سريع الحساب ، لأنه لا يحتاج إلى زمن ، ولأنه لا يشغله شأن عن شأن ، وهذا هو الفرق بين قدرة الواحد سبحانه وقدره المحدث ، لأن الحادث عندما يؤدي عملاً ، فهذا العمل يشغله عن غيره من الأعمال ، فلا يستطيع أن يؤدي عمليتين في وقت واحد ، لكن الواحد الأحد لا يشغله فعل عن فعل ، وبالتالي يفعل ما يريد وقتها يريد ولكل من يريد .

ولذلك سئل الإمام علي بن أبي طالب : كيف يحاسب الله الخلائق جميعاً في لحظة واحدة ؟ . فقال : « كما يرزقهم في ساعة واحدة » . فهو سبحانه الذي يرزقهم ، وكما يرزقهم يحاسبهم . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ  
وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

ونلاحظ أن ذكر الله أمر شائع في جميع المناسك ، وفي أيام معدودات أي في أيام التشريق . في اليوم التاسع تكون في عرفة وليلة العشر نبيت فيها بـ « مزدلفة » ، ثم بعد ذلك نفطر من حيث أفاض الناس ، يذهب لرمي جرة العفة ، وبعضنا يذهب ليطوف طواف الإفاضة وينهي مناسكه ، أو قد يذهب لهدب ويتحلل التحلل



الأصغر ، إن لم يكن معه امرأة ، وإن طاف فهو يتحلل التحلل الأكبر . أما الأيام  
المعدودات أى أيام التشريق فهي الأيام الثلاثة بعد يوم النحر وقد سميت بذلك  
نسبة إلى الشروق ، والشروق خاص بالشمس ، كانوا قديماً إذا ما ذبحوا ذبائحهم  
أدخلوا اللحم وشرقوه ، أى عرضوه لمطلع الشمس كلون من الحفظ ، ومن هنا  
سميت هذه الأيام بأيام التشريق . وعندما نسمع قوله : « فى أيام معدودات » نفهم  
منها أنها فوق يومين .

وبعد ذلك يقول الحق : « فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم  
عليه لمن اتقى » . قول الحق سبحانه وتعالى : « فى أيام معدودات » ثم قوله : « فمن  
تعجل فى يومين » يدل على أن كلمة « أيام » تطلق على الجمع وهو الأكثر من يومين ،  
أى ثلاثة أيام ، لكن الحق سبحانه وتعالى جعل للقيام بيومين حكم القيام بالثلاثة ،  
فإن تعجلت فى يومين فلا إثم عليك ومن قضى ثلاثة أيام فلا إثم عليه كيف يكون  
ذلك ؟

لأن المسألة ليست زمناً ، ولكنها استحضار نية تعبدية ، فقد تجلس ثلاثة أيام  
وأنت غير مستحضر النية التعبدية ، لذلك قال سبحانه . « لمن اتقى » ، فلياك أن  
تقارن الأعمال بزمها ، وإنما هى بإخلاص الية والتقوى فيها .

وبديل الحق الآية بالقول الكريم : « واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تمشرون »  
وقد جاء سبحانه وتعالى بكلمة « تمشرون » لتناسب رحمة الحج ، لأنه كما حشركم  
هذا الحشر وأنتم لكم اختيار ، هو سبحانه القادر أن يحشركم وليس لكم اختيار .  
فإذا كنت قد ذهبت باختيارك إلى هذا الحشر البشرى الكبير فالحج فاعرف أن الذى  
كلفك بأن تذهب باختيارك لتشارك فى هذا الأجتماع الحاشد هو القادر على أن يأق  
بك وقد سلب منك الاختيار . ويقول الحق من بعد ذلك :

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ۚ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٦٤﴾  
وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ  
الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٦٥﴾

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يضع أمامنا قضية وجودية ، وهذه القضية الوجودية هي أن كل عمل له ظاهري وله باطن . ومن الجائز أن تتغير الظاهر وتبدل على الناس في الباطن ، فإذا كان الناس لهم مع بعضهم ظاهر وباطن . فمن مصلحة الإنسان أن يتنصت هو والناس جميعاً إلى عالم يعرف فيه كل إنسان أن هناك إلهاً حكيمياً يعرف كل شيء عنا جميعاً

فإذا كان عندك شيء لا أعلمه ، وأنا عندي شيء أنت لا تعلمه كيف تدير مصالحنا ؟ ولذلك فمن ضروريات حياتنا أن نؤمن معاً بإله يطلع على سرائرنا جميعاً ، وهذا ما يجعلنا نلزم الأدب . ولذلك قيل : « إن غميت على قضاء الأرض فلن تعمى على قضاء السماء » .

إذن قضاء السماء وعلم الله بالغيب مسألة يجب أن نحكمه عليها ، لأنه هو الذي سبحانه كل واحد منا من غيره . وعندما ستر الله غيبنا فذلك نعمة يجب أن نشكره عليها ، لأن النفوس متقلبة . فلو علمت ما في نفسي عندي في لحظة قد لا يسرك وقد لا تساء أبداً ويظل رأيك فيّ سيئاً ، لكن الظنون والآراء تمر عندي وعندك وتنتهي . ولو أطلع كل منا على غيب الآخر لكانت الحياة مرهقة ، والقول المأثور يذكر ذلك . « لو تكاشفتهم ما تدافعتهم » .

إذن فمن رحمة الله ومن أكبر نعمه على خلقه أن ستر غيب خلقه عن خلقه . والحق يجدرنا من قال فيهم : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا » أي الذين يظهرون من غير خلاف ما يظنون من شر ، ولذلك صور الشاعر هذه المسألة فقال :

على الذم" يتنا جميعي وحالنا  
من الخوف حال المجتمعين على الحمد

أى لو تكاشفنا لقلنا كلنا ذمًا ، إنما كلنا مداحون حين يلقي بعضنا بعضا كل يقول  
بلسانه ما ليس في قلبه . و « يعجبك قوله » فهل الممدوح أن يعجبك القول ؟ لا ،  
يعجبني القول ولكن في غير الحياة الدنيا ، فالقول الذى يعجب هو ما يتعلق بأمر  
الحياة الآخرة الباقية ليضمن لنا الخير عند من يملك كل الخير

وكفى بالذى يسمع من مداح له مدحاً ، والممدوح نفسه يُضمر في قلبه كرهاً له ،  
وكفى بذلك شهادة تفعيل للممدوح ، بأنه يقول بينه وبين نفسه : « إن الممدوح  
خير ؛ لأن أمدحه وهو مصدق مدحى له » . إن الله سبحانه وتعالى ينهى إلى  
ضرورة أن يكون المسلم يقظاً وفطناً ، ومن يقول لنا كلاماً يعجبنا في الحياة الدنيا  
نتهمه بأن كلامه ليس حسناً ، لأن غير الكلام هو ما يكون في الأمر الباقى .

ولذلك عندما أرسل خليفة المسلمين للإمام جعفر الصادق يقول له : - لماذا  
لا تنفشاننا - أى لا تزورنا - كما يفتشنا الناس ؟ فكتب الإمام جعفر الصادق للخليفة  
يقول : لما بعد فليس هنلى من الدنيا ما أعطف عليه ، وليس هنلك من الآخرة  
ما أرفجوك له . وكأنه يريد أن يقول له اتركنا وحالنا ؛ أنت محتاج لمن يجلس معك  
وعندك ، وأنت لا تعلم أن أول أناس لهم رأى بيبىء فيك هم من يمدحونك .

« ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا » وهذه الآية نزلت في الأخنس  
ابن شريق الثقفى واسمه أبى ولقب بالأخنس لأنه خنس ورجع يوم بدر فلم يقاتل  
المسلمين مع قريش واحتلرهم بأن العير قد نجت من المسلمين وعادت إليهم ،  
وكان ساعة يقابل رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر إسلامه ويلين القول للرسول  
ويدعى أنه يحبه، ولكنه بعد أن خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بزورع  
ونمر لقوم من المسلمين فاحرق الزورع وقتل النمر . والآية وإن نزلت في الأخنس  
فهي تشمل كل منافق .

« ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام » لا تقولوا : « الله يشهد » ، وإنما

هَاتُوا شُهَدَاءَكُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ عَلَى صِدْقِ قَوْلِكُمْ ؛ لَأَنْ مَعْنَى « اللَّهُ يَشْهَدُ » هُوَ إِخْبَارٌ مِنْكَ بِأَنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ لَكَ وَأَنْتَ كَاذِبٌ فِي هَذِهِ ، وَتُرِيدُ أَنْ تُضَيِّقَ الْمُصَدِّقِينَ عَلَى كَذِبِكَ بِإِقْحَامِ اللَّهِ فِي الْمَسْأَلَةِ .

وَسَاعَةَ نَسْمَعُ وَاحِدًا يَقُولُ لَكَ : أَشْهَدُ اللَّهَ عَلَى أَنِّي كَذَّابٌ ، فَقُلْ لَهُ هَذَا إِخْبَارٌ مِنْكَ بِأَنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ ، وَأَنْتَ قَدْ تَكْذَبَ فِي هَذَا الْخَبَرِ ، أَنَا أَفْضَلُ أَنْ يَشْهَدَ اثْنَانِ مِنَ الْبَشَرِ وَلَا نَقْصَمُ اللَّهَ فِي هَذِهِ الشَّهَادَةِ . « وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُ الْخِصْمِ » وَالْأَلَدُ الْخِصْمُ هُوَ الْقَاسِي فِي مَعْصِيَتِهِ ، وَيُقَالُ : مَا لَنْ عِنْدَهُ لَدَى أَيِّ لَهْ مَقِي فِي عَصِيَّتِهِ ، وَيَجَادِلُ بِالْبَاطِلِ . وَلِذَلِكَ يَقُولُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ أَبْغَضَ الرَّجُلَانِ إِلَى اللَّهِ هُوَ الْأَلَدُ الْخِصْمُ »<sup>(١)</sup>

يَعْنِي الْمَجَادِلُ بِالْبَاطِلِ الَّذِي عِنْدَهُ قَسْوَةٌ فِي الْمَعْصِيَةِ ، فَهُوَ عَاصِرٌ وَلَهُ الْوَقْتُ لِنَفْسِهِ قَاسِيٌ فِي مَعْصِيَتِهِ وَلِهَذَا هُوَ أَلَدُ الْخِصْمِ ؟ لَأَنَّ الَّذِي يَجَابِهَكَ بِالْأَمْرِ بِجَعْلِكَ تَحْتَاطُ لَهُ ، أَمَّا الَّذِي يَقَابِلُكَ بِتَفَاقٍ فَهُوَ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَخْذَعَكَ ، وَهَذَا عَنِيفٌ فِي الْخِصْمَةِ ، فَالْخِصْمُ الْوَاضِحُ الْفَصْلُ لِأَنَّهُ يَوَاجِهُكَ بِمَا فِي بَاطِنِهِ ، تَكُنْ إِذَا جَابِهْتَ الَّذِي يُطْلَى خِصْمَتُهُ وَيُظْهَرُ مَجِبَتُهُ بِكَوْنِ قَاسِيٍّ عَلَيْكَ فِي خِصْمَتِهِ ؛ لِأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخْذَعَكَ وَيُبَيِّنَ لَكَ .

« وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا » وَ « تَوَلَّى » : انْصَرَفَ أَيُّ يَقُولُ لَكَ مَا يَعْجَبُكَ ، فَإِذَا تَوَلَّى عَنْكَ نَقَلَ الْمَسْأَلَةَ إِلَى الْحَقِيقَةِ بِإِظْهَارِ مَا كَانَ يَخْفِيهِ ، وَيَحْتَمِلُ الْمَعْنَى أَنَّهُ إِذَا تَوَلَّى شَيْئًا آخَرَ ، مِنَ الْوَلَايَةِ ، نَفْسِيهِ « تَوَلَّى » مِنَ التَّوَلَّى وَهُوَ الْانْصِرَافُ وَالْإِعْرَاضُ ، وَفِيهِ « تَوَلَّى » مِنَ الْوَلَايَةِ .

« وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ » كَانَتْ الْأَرْضُ تَدْرُسُ تَدْحُلُ الْبَشَرَ مَخْلُوقَةً عَلَى هَيْئَةِ الْفَصْلَاحِ ، وَالْفَسَادُ أَمْرٌ طَوِيلٌ مِنَ الْبَشَرِ وَتَعْرِفُ أَنَّ الْفَسَادَ لَمْ يَطْرَأْ عَلَى أَمْرِ إِلَّا وَلِلْإِنْسَانِ فِيهِ دَخَلٌ

(١) رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ ، وَمَعْنَى « الْأَلَدُ الْخِصْمُ » الْأَلَدُ فِي خِصْمَتِهِ .

لماذا اشتكىنا أزمة قوت ولم يشتك أزمة هواء ؟ لأن الهواء لا تدخل للإنسان فيه ،  
ويمقدار تدخل الإنسان يكون الفساد . لقد تدخلنا قليلاً في المياه فجاء في ذلك  
فساد ، فلم نحس بقلها في مواسير جيدة فوصلت لنا ملوثة ، أورد عليها الكلور أو  
نقص . ويقدر ما يكون التدخل يكون الإفساد ، أما في الزمن القديم فقد كان  
الإنسان يذهب إلى مصدر الماء المباشر في الآبار ويأخذ الماء الطبيعي الذي خلقه الله  
بلا تدخل من الإنسان ولم يكن تلوث أو غيره

إذن على مقدار وجود الإنسان في حركة الحياة عبر المرشدة بالإيمان بالله ينشأ  
الفساد ، ولذلك كان لابد له من منهج سبيل للإنسان . والكائنات غير الإنسان  
ليس لها منهج وهي مخلوقة بالخريرة وتؤدي مهمتها فقط ، فالدابة لم تمتنع يوماً عن  
ركوبك عليها ، ولم تمتنع أن تحمل عليها أثقالك ، أو تستعين بها في الحرث ، أو  
الري ، حتى عندما تنسحبها لا تمتنع عليك ، لماذا ؟ لأنها مخلوقة بالخريرة التي تؤدي بها  
الحركة النافعة بدون اختيار منها . وإذا امتعت في وقت فإنما يكون ذلك لأمر طارئ  
كمرض مثلاً .

لكن الذي له اختيار لابد أن يكون له منهج يقود له . فإفعل هذا ولا تفعل ذلك .  
فإن استقام مع المنهج في « افعل » و « لا تفعل » سارت حياته بشكل متوازن ، لكن  
إذا لم يستقم تعبد الحياة وهذا ما يعمه من قوله تعالى : « وإذا تولى سعى في  
الأرض ليفسد فيها » ، كأن الإفساد هو الذي يحتاج إلى عمل ، اترك الطبيعة  
والمخلوقات كي هي تجدها تعمل في انصباط وكمال عن ما يرام .

إذن فالفساد طارئ من الإنسان الذي يجيء بلا منهج لأنه « إذا تولى سعى في  
الأرض يفسد فيها » فكان الأصل في الأرض وما فيها جاء على هيئة الصلاح ، فإن لم  
تزد الصالح صلاحاً فلا تحاول أن تفسده . قال تعالى

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْهُدَىٰ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١٥٨﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ  
الْمُفْسِدُونَ وَتَكْرَرُ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

ومن هنا معهم أنهم ظنوا أن الأرض تحتاج إلى حركتهم لإصلاحها ، يرغم أن الأرض بدون حركتهم صالحة ، لأنهم لا يشعرون بمنهج الله .

إذن هذه الآية نفسها أنها أن الإنسان إذا « نوى » بمعنى رجع أو تولى ولاية معنى في الأرض يفسد فيها ، فكان الفساد في الأرض أمر طاريء ويحتاج من معنى الإنسان على غير منهج من الله . وما دام بالإنسان اختيار فيجب أن يكون له منهج أعلى منه يصور ذلك الاختيار ، لأن لم يكن له منهج وسار على هواه لهدم مفسد لا محالة

ونظر إلى غياب الذي يفسد في الأرض ، هل يظن أنه هو وحده الذي سيستعيد في الأرض ، فلباح لعمرك أن يفسد في الأرض لغيره ؟ إنه يسى الخليفة ، فكما يفسد لغيره ، فغيره يفسد له ، فمن الخاسر ؟ كلنا مستخسر إذن

﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۚ ٢٥٥ ﴾

( سورة البقرة )

والحراث له معنيان . ممره يظلم على الررع ، وممره يظلم على النساء ، المعنى الأول ورد في قوله تعالى :

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَمَمٌ الْقَوْمَ ۚ ٧٨ ﴾

( سورة الانبياء )

فالحراث في الآية معناه : الزرع ، والورع ناتج من إثارة الأرض وإماحتها وعملك يا أيها الإنسان أن تهيج الأرض وتثيرها ، وتأنى بالسبل الذي خلقه الله في الأرض التي خلقها الله ، وتسقيها بالماء الذي خلقه الله ، وتكسر في الهواء الذي خلقه الله ، ولذلك يلفتنا وينبهنا الحق - سبحانه - فيقول

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ۚ (٢٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٢٤) ﴾

( سورة الواقعة )

والعنى الثانى : يُطلق الحرث على المرأة فى قوله تعالى :

﴿ نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٢٢٣ سورة البقرة)

وإذا كان حرث الررع هدفه إيجاد البسات فكذلك المرأة حتى تلد الأولاد ويقول سبحانه وتعالى

﴿ فَأَنْتُمْ حَرْثُكُمْ أَنْ تَشْتُمُ ﴾

(من الآية ٢٢٣ سورة البقرة)

واراد المتحللون الإباحيون أن يُطلقوا إتيان المرأة فى جميع جسدها ، ويقول لهم لاحظوا قوله « حرثكم » والحرث محل الإنبات ، فالإتيان يكون فى محل الإنبات فقط ، لا تنهيهما نسيب وإنما عن تخصيص . ويتابع الحق وصف الذى يقول القول الحسن ، ولكنه يسمى فى الارض بالفساد فيقول : « ويهلك الحرث والنسل » والنسل هو الأبناء والذرية

ويذيل الحق الآية : « والله لا يجب الفساد » أى أن الحق يريد منكم أن لم تدخلوا بباطنة الله التى خلفها لكم فكراً وعطاء ، فعل الأتلى اتركوا المسألة كما خلقها الله ، لأن الله لا يجب أن تفصلوا فيما خلقه صلحاً فى ذاته

وما سبق فى هذه الآية هو مجرد صورة من صور استقبال الدعوة الإسلامية فى أول عهدها ، من الدين كانوا يناقضون واقعها القوي ، فيأتون بأقوال تعجب ، وبأفعال تعجب من يوافق . ويعرف أن التناق كان دليلاً على قوة المسلمين ، ولذلك لم يشأ التناق فى مكة ، وإنما نشأ فى المدينة . فقد قال الحق .

﴿ وَمِنْ أَمَلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْأَمَلِ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة التوبة)

وربما يتساءل بساكن : وكيف تظهر هذه الظاهرة في البيئة الإيمانية القوية في المدينة ؟ ونقول : لأن الإسلام في مكة كان ضعيفاً ، والضعيف لا يناقشه أحد ، والإسلام في المدينة أصبح قوياً ، والقوى هو الذي يناقشه الناس .

إذن ، فوجود النعان في البيت كان ظاهرة صحيحة تدل على أن الإيمان أصبح قوياً بحيث يدعيه مَنْ ليس عنده إسلام . وهؤلاء كانوا يقولون قولاً حسناً جميلاً ، وقد يسمعون أمام مَنْ يافقونه فعلاً يُعجب مَنْ يراهم أو يسمعونهم ، ولكنهم لا يثبتون على الحق ، فإذا ما تولوا ، أي اختفوا عن أنظار مَنْ يافقونه رجعوا إلى أصلهم الكفري ، أو إذا اتسوا على شيء فهم يسعون في الأرض فساداً

والآية هنا تعرض لشيء يدل على فطنة المؤمنين ، إن الآية فضحت مَنْ تناق وكان الأنسبي عمدة في النفاق ، ومضجحة لما نق بهذه الصورة ، تدل على أن وراء محمد صلى الله عليه وسلم رواد المؤمنين بمحمد ، رباً يخبرهم بمن يفلس عليهم ، وأيضا يبههم لضرورة أن تكون لهم فطنة بدليل قول الحق

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِصْرَةُ ﴾

بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْعِهَادُ ﴿٥٦﴾

ولا يقال له اتق الله إلا إذا كان قد عرف أنه منافق ، وما داموا قد قالوا له ذلك فقد دليل على أن طفتهم لم يجز عليها هذا النعان . ونفهم من هذه الآية أن المؤمن كئس فطن ، ولا بد أن ينظر إلى الأشياء بمقياس الحقيقة العقلية ، ولا يدع نفسه لاجرد الصفاء الرباني ليمليه النفسية ، بل يريد الله أن يكون لكل مؤمن ذاتية ركيابة .

« وإذا قيل له اتق الله » فكان المظهر الذي يفوق أو يفعل به ، ينافي التقوى ، لأنه قول معجب لا ينسجم مع باطن غير معجب ، صحيح أنه يصلح في الصف الأول ،



ويتحسس لقضايا الدين ، ويقول القول الجميل الذي يجب الـبى صلى الله عليه وسلم ويعجب المؤمنين ، لكنه ملوك وقول صابر ص بية فسلطة . ومعنى « اتق الله » أى ليكن ظاهرك موافقاً لباطنك ، فلا يكفى أن تقول قولاً يُعجب ، ولا يكفى أن تفعل فعلاً يروق الخير ، لأن الله يحب أن يكون القول منسجماً مع الفعل ، وأن يكون فعل الجوارح منسجماً مع نيات القلب .

إذن ، فالقائم لا بد أن تكون عنده فطنة ، ودكاء ، والمعية ، ويرى تصرفات المقابل ، فلا يأخذ بظاهر الأمر . ولا يعمد القول ولا الفعل ، إن لم يصادف فيه انسجام فليس مع انسجام نية . ولا يكتفى بأن يعرف ذلك ويرى لا بد أن يكون للمتأفق حقيقة ما يراه حتى يقصر على المتأفق أمد المتأفق ، لأنه عندما يقول له : « اتق الله » يفهم المتأفق أن معاقبه قد انكشف ، وتعلم بعد ذلك يرتدع عن التماق ، وفى ذلك رحمة من المؤمن بالمتأفق ، وكل من يرى ويطلع بذلكه نصفاً من أحد هنا يقول له : « اتق الله » فإمراد أن يوضح نفاذ ويقول له : « اتق الله » . فهذا قال له واحد . « اتق الله » وقال له آخر « اتق الله » ، وثالث ، ورابع ، فيعرف تماماً أن معاقبه قد انكشف ، ولم يعد كلامه يعجب الناس .

« وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم » ، وتقييد العزة بالإثم هنا يفيد أن العزة قد تكون بغير إثم ، وما دام الله قد قال « أخذته العزة بالإثم » ، فهناك إذن عزة بغير إثم نعم ، لأن العزة مطبوعة للمؤمن والله عز وجل حكم بالعزة لنفسه وللرسول وللمؤمنين .

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ۝ (٨) ﴾

( سورة المنافقون )

وهذه عزة بالحق وليست بالإثم . وما الفرق بين العزة بالحق وبين العزة بالإثم ؟ ولستم تحص القرآن الكريم لتعرف الفرق . ألم يقل سبحانه قرعون فيما حكاه الله عنهم :

﴿ بَعْرَةٌ قَرْعُونَ إِنَّا لَنَعْنُ الْعَائِلُونَ ۝ (٩) ﴾

( سورة الشعراء )

هذه عزة بالإثم والكذب . وكذلك قوله تعالى .

﴿بَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي ۝١﴾

( سورة ص )

وهي عزة كاذبة أيضا أما قوله عز وجل

﴿سَبَّحَنَ رَبُّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥﴾

( سورة الصافات )

فلذلك هي العزة الحقيقية ، إذن فالعزة هي القوة التي تُغلبُ ، ولا يُغلبها أحد . أما العزة بالإثم فهي أفة الكبرياء المقرونة بالنسب والمعصية . والحق سبحانه وتعالى يقول لكل من يريد هذا اللون من العزة بالإثم إن كانت عندك عزة دلت بقوى عليك أحد ، ولكن يا سحرة فرعون يا من قُلتُم بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ، أنتم الذين خُذتُم سُجُوداً لموسى وقُلتُم .

﴿عَمَّا يَرْبِ الْعَالَمِينَ ۝١٦﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ۝١٧﴾

( سورة الشعراء )

ولم تمنعكم عزة فرعون ، لأنها عزة بالإثم ، لقد جاءت العزة بالحق فغلبت العزة بالإثم . لذلك يبين لنا الحق سبحانه وتعالى أن العزة حتى لا تكون بالإثم ، يجب أن تكون على الكافر بالله ، وتكون ذلة على المؤمن بالله .

﴿أَذِلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ ۝١٨﴾

( من الآية ٥٤ سورة المائدة )

وكذلك قوله الحق

﴿لِيُذِلَّهُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمًا بَلِيِّغًا يَبَيِّنُ ۝٢٩﴾

( من الآية ٢٩ سورة النحل )

وهذه دليل العرة بالحق ، وعلامتها أنها ساعة تغلب تكون في منتهى الانكسار ولنا القدوة في سيدنا رسول الله ﷺ ، وهو الذي خرح من مكة لأنه لم يستطع أن يحمي الضعفاء من المؤمنين ، وبعد ذلك يعود إلى مكة فاتحاً بنصر الله ، ويدخل مكة ورأسه ينحني من التواضع لله حتى يكاد أن يمس قريوس سرج دابته ، تلك هي القوة ، وهي على عكس العزة بالإثم التي إن غلبت تطفئ ، إنما العرة بالحق إن غلبت تتواضع

«وإذا قيل له اتق الله أخلفه العرة بالإثم» أي أن الأنفة والكبرياء مقرونة بالإثم ، والإثم هو الخلف للمأمورة من الحق سبحانه وتعالى ، «فحسبه جهنم ولبئس المهاد» . أي عرة هذه التي تقود في النهاية إلى النار؟ إنها ليست عرة ، ولكنها ذلة ، فلا خير في عمل بعده النار ، ولا شر في بعده الخنة . فإن أردت أن تكون عزيزاً فتأمل عاقبتك وإلى أين ستذهب؟

«وحب» أي يكفيه هذا فضيحة لعرقته بالإثم ، وأما كلمة «مهاد» فمعناها شيء مهذوم وموطأ ، أي مريح في الخنوس والسير والإقامة . ولذلك يسمون فراش الطفل المهذوم . وهل المهاد بهذه الصورة يناسب العذاب؟ نعم يتناسب تماماً ؛ لأن الذي يجلس في المهاد لا إرادة له في أن يخرج منه ، كالطفل علاقة له في أن يغادر فراشه . إذن فهو قد فقد إرادته وسيطرته على إبعاضه . فإن كان المهاد بهذه الصورة في النار فهو لبئس مهاد هذا لون من الناس وفي المقابل يعطيان سبحانه . لوياً آخر من الناس فيقول سبحانه -

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ  
مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٤٧)

والله سبحانه تعالى ساعه يستعمل كلمة « بشرى » يجب أن نلاحظ أيها من  
الأفعال التي تستخدم في الشيء ومقابلة ، ف« بشرى » يعنى أيضا « باع » . إذن  
كلمة « بشرى » لها معنيان ، واقرأ إن شئت في سورة يوسف قوله تعالى :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ [سورة يوسف]

أي باعوه بثمانٍ رخيصٍ وتأتى أيضا بمعنى اشترى ، والشاعر العربى القديم عنتره  
ابن شداد يقول : فخاص عمارها وشرى وباعا ،

إذن « بشرى » لغة ، تُسعمل في معنيين : إما أن تكون بمعنى « باع » ، وإما أن تكون  
بمعنى « اشترى » ، والسياق وانقرية هما اللذان يحددان المعنى المقصود منها فقول  
عنتره : « شرى وباع » نفهم أن المقصود من « شرى » هنا هو « اشترى » لأنها مقابل  
« باع » ، وقوله تعالى :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ [سورة يوسف]

يوضحه بيان الآية بأنهم باعوه وهذا من عظمة اللثة العربية ، إنها لغة تريد  
أناساً يستقلون اللفظ سقلا ، ويجعون السياق يتحكم في فهمهم بالمعنى .

ومن الناس من يشترى نفسه ونفهم « بشرى » هنا بمعنى يبيع نفسه ، والذي يبيع  
نفسه هو الذي يفقدها بمقابل والإسان عندما يفقد نفسه فهو يضحى بها ، وعندها  
تكون النصحية ابتداء مرضاة الله فهي شهادة في سبيله عز وجل ، كأنه باع نفسه  
وأخذ مقابلها مرضاة الله .

ومثل ذلك قوله تعالى

﴿ وَاللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ ﴾

إن الحق يعطيهم الجنة مقابل أنفسهم وأموالهم . إذن فقوله : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » يعنى باع نفسه وأخذ الجنة مقابلها ، هذا إذا كان معنى « يشرى » هو باع .

وماذا يكون المعنى إذا كانت بمعنى اشترى ؟ ها نفهم أنه اشترى نفسه بمعنى أنه صبحى بكل شيء فى سبيل أن تسلم نفسه الإيمانية . ومن العجيب أن هذه الآية قيل فى سبب نزولها ما يؤكد أنها محتمل المعنيين ، معنى « باع » ومعنى « اشترى » فيها هو ذا أبو يحيى الذى هو صهيب بن سنان الرومى كان فى مكة ، وقد كسر منه ، وأسلم وأراد أن يهاجر ، فقال له الكفار : لقد جئت مكة فقيراً وأوتاك إلى جوارنا وأنت الآن ذو مال كثير ، ونريد أن تهاجر بمالك .

فقال لهم : إذا خلعت بينكم وبين مالى أنتم تاركوني ؟

قالوا : نعم .

قال : تضمثون لى راحلة ونفقة إلى أن أذهب إلى المدينة ؟

قالوا : لك هذا .

إنه قد شرى نفسه بهذا السلوك واستبقاها إيماناً بثروته ، فلما ذهب إلى المدينة لقبه أبو بكر وعمر فقالا له : ربيع البيع يا أبا يحيى . قال وأربح الله كل تجارتكم .

وقال له سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا أن جبريل أخبره بقصصك ، ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : ربيع البيع أنا يحيى . إذن معنى الآية وفق هذه القصة . أنه اشترى نفسه بماله ، وسيبقى الآية يتفق مع المعنى نفسه . وهذه من فوائد الأداء القرآنى حيث اللفظ الواحد يحتمل معنيين متقابلين

ويمكن إذا كان المعنى أنه باعها فلذلك نعمة أخرى ، ففى غزوة بدر ، وهى أول غزوة فى الإسلام ، وكان صناديد قريش قد جمعوا أنفسهم لمحاربة المسلمين فى هذه الغزوة ، وتمكن المسلمون من قتل بعض هؤلاء الصناديد ، وأمسوا منهم كثيرين أيضاً ، وكان ممن قتلوا فى هذه الغزوة واحد من صناديد قريش هو أبو عقبة الخارث

ابن عامر والذي قتله هو صحابي اسمه حبيب بن عدي الأنصاري الأوسي ، وهو من قبيلة الأوس بالمدينة ، وبعد ذلك مكر بعض الكفار فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ قالوا : يا رسول الله ، إننا قد أسلمنا ، ونريد أن ترسل إلينا فوما ليعلموا بالإسلام . فأرسل لهم رسول الله ﷺ عشرة من أصحابه ليعلموهم القرآن ، فغدر الكافرون بهؤلاء العشرة فقتلواهم إلا حبيب بن عدي ، استطاع أن يفر بحياته ومعه صحابي آخر اسمه زيد بن الدثنة ، لكن حبيباً وقع في الأسر وعرف الذين أسروه أنه هو الذي قتل أبا عقبة الحارثي في غزوة بدر ، فباعوه لابن أبي عتبة لينقله مقابل أبيه ، فلم يشأ أن يقتله وإنما صلبه حياً ، فلما تركه مصلوباً على الخشبة ، قال رسول الله ﷺ وهو في المدينة : من يرون حبيباً عن خشبته وله لجة ؟

قال الزبير : أنا يا رسول الله .

وقال المقداد : وأنا معك يا رسول الله .

فذهبوا إلى مكة فوجدوا حبيباً على الخشبة وقد مات وحوله أربعون من قريش يحرسونه ، فاشتروا منهم عفتهم وذهبوا إلى الخشبة وانزعوا حبيباً وأخذوا ، فلما أفاق القوم لم يجدوا حبيباً فقاموا يتتبعون الأثر ليلحقوا بمن خطبوه ، فراهم الزبير ، فألقى حبيباً على الأرض ثم نظر إليه فإذا بالأرض تبتهل فسمى ببيع الأرض . وبعد ذلك التمت إليهم ونزع عنامته التي كان يتخفى وراءها وقال : أنا الزبير بن العوام ، أمي صفية بنت عبد المطلب ، وصاحبي المقداد ، فإن شتمت فاصلحكم يعني يقاشر كل منها بنفسه - وإن شتمت نزلتكم - يعني قاتلتكم - وإن شتمت فأنصرفوا ، فقالوا : أنصرف ، وأنصرفوا ، فلم ذهب الزبير والمقداد إلى رسول الله ﷺ بشروهم باللجة التي صار إليها حبيب .

إذن فقد باع حبيب نفسه باحتة . وعلى ذلك فإن ذهبت سبب نزول الآية إلى أبي يحيى صهيب بن سنان الرومي تكون «شري» بمعنى اشترى ، وإن ذهبت سبب النزول إلى حبيب فتكون بمعنى . باع وهكذا نجد أن اللفظ الواحد في القرآن الكريم يحتمل أكثر من واقع .

وخبيب بن عدي هذا قالت فيه ماوية ابنة الرجن الذي اشتراه ليعطيه لعمة ليقته  
مقابل آية ، قالت : والله لقد رأيت خبيبا يأكل قطعاً من العنب كراس الإنسان  
ووالله ما نرى مكة حائط - سنان - ولا عنب راناً هو رزق سانه الله له .  
ولما جاءوا ليقتلوه قال أنظروني أصلاً ركعتين . فصلى ركعتين ونظر إلى اليوم  
وقال : والله لو لا أنني أخاف أن تقولوا إنه زاد في الصلاة لكي نبطئ بقتله بزود  
وقال قبل أن يقتلوه . اللهم احصهم عدداً ، واقتلهم بدءاً ، ولا تبق منهم أحداً  
ثم هف وقال :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً

على أي في جب كان في الله مصرعي

وكان ذلك آخر ما قاله

ويقول الحق : « والله رموف بالعباد » وما العلفة بين ما سبق وبين رموف  
بالعباد ؟ ما دام الله رموفاً بالعباد فلم يشأ الله أن يجعل ذلك أمراً كلياً في كل مسلم ،  
ولما جعلها فلتات لتثبت صدق القضية الإيمانية ، لأنه لا يريد أن يضحي كل  
المسلمين بأنفسهم ، ولما يريد أن يستقي منا أناساً يحملون الدعوة  
ويعد أن عرض الحق سبحانه وتعالى أصناف الناس الذين يتقبلون الدعوة كفرأ  
وتفاقاً ، ومن يقابلهم عن يستعبلربها إيماناً حائصاً ، يادى جميع المؤمنين فقال

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَدْخُلُوا

فِي السِّلَاحِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٨﴾

تبدأ الآية بتداء الذين آمنوا بالله وكأنه يقول لهم : يا من أتمم بي استمعوا

الحديث . فلم يكلف الله من لم يؤمن به وإنما خاطب الذين أحبوه وامنوا به ،  
ومعادنوا قد آمنوا الله فلا بد أن يتجه كل مؤمن إلى من يحبه . لأن الله لن يعطيه  
إلا ما يسعده .

إذن سالتكليف من الله إسعاد لمن أحب ، يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم  
كافة ، وكلمة «في» تفيد الظرفية ، ومعنى الظرفية أن شيئاً يحتوي شيئاً مثال ذلك  
الكوب الذي يحتوي الماء فتقول : «الماء في الكوب» وكذلك المسجد يحتوي  
المصلين فتقول «المصلون في المسجد» .

والظرفية تدل على إحاطة الظرف بالمظروف ، ومدام الظرف قد أحاط بالمظروف  
إذن فلا جهة يفلت منها المظروف من الظرف ولذلك يعطينا الحق سبحانه وتعالى  
صورة التمكن من مسألة الظرفية عندما يقول .

﴿وَلَا صَبْرَ لِيْ خَدْرٍ آخِرٍ﴾

( من الآية ٦١ سورة ص )

إن نصلب دائماً يكون على شيء ، ونشاء الآية الكريمة أن يشرح لي كيف يمكن أن  
يكون الصلب ممكناً من المصلوب . فأتيت إذا أردت أن نصلب شيئاً على شيء فأتيت  
نربطه على المصلوب عليه ، هذا ما نالعت في ربطه كمالك أدحت المصلوب إذا  
لمصلوب عليه .

ومثل ذلك ، هات عمود كبريت وضعه على إصبعك ثم اربطه بحيط ربط جيد ،  
ستلاحظ أن العمود قد غامر في جلدك . والحق يقو : « ادخلوا في السلم كافة ،  
والسلم والسلم والسلام هو الإسلام ، فالمائة كنه واحدة : لأن السلم ضد الحرب ،  
والإسلام جاء ليهي الحرب بينك وبين الكوب الذي تعيش فيه بصاحك ولصالح  
الكوب ولتكون في سلام مع الله وفي سلام مع الكون ، وفي سلام مع الناس وفي  
سلام مع نفسك

قوله : « ادخلوا في السلم » معناه حتى يكتسبكم السلم إن الله هو الإله الخالق



لتكون ولابد أن تعيشوا في سلام معه ؛ لأنكم لا ترمون إلا به إلهاً واحداً . فبجب عليه أن يعيش مع الأرض والسماء والكون في سلام ؛ لأن الكون الخاضع المقهور المسحر الذي لا يملك أن يخرج عما رُسم به يعمل لخدمتك ولا يعاندك

والإنسان حين يكون طائعاً يُسرّ به كل شيء في لوجود ؛ لأن الوجود طائع ومُسّخ ، فساعة يجد الإنسان مُسبّحاً مثله يُسرّ به لأنه في سلام مع الكون . وأب في سلام مع نفسك ؛ لأن لك إرادة ، وهذه لإرادة قهر الله لها كل جوارحك ، والذي يريد من أن عضو يفعلك ذلك ، تكن هل يرضى أى عضو عما تأمره به ؟ تلك مسألة أخرى . مثلاً ، لساعتك يفعل بزدتك ، فتقول به : « لا إله إلا الله » وقال به غيراً من المشركين غير ذلك ، وأشركو مع الله بشراً وغير بشر يعبدونهم . وقال الملحون بالسهم والعباد بالله . « لا إله في الكون » ولم بعض اللسان أسداً من هؤلاء ، لأنه مقهور لإرادتهم

وتنتهى إرادة الإنسان على لسانه وعن جميع حوارجه يوم القيامة يشهد عليه كما تشهد عليه سائر أعضائه . الأرجل ، والأيدي ، والعبود ، والآذان ، وكل عضو يقر بما كان يفعل به . لأنه لا سيطرة للإنسان على تلك الأعاصير في هذا اليوم إنما لسيطرة كلها للمحلق الأعلى

« لمثل ذلك اليوم قه الواحد القهار » . والحق حين ينادى المؤمنين بأن يدخلوا في السلم كافة فلم يمتلأ أيّاف أن الحق سبحانه وتعالى يحاطب المسلمين ألا يأخذوا بعضاً من الدين ، ويتركوا بعض الآخر ، فيقول لهم : « حذوا الإسلام كله وطبقوه كاملاً » لأن الإسلام يمثل بقاء له أسس معلومة ، وقواعد واضحة ، فلا يحاول أحد أن يأخذ شيئاً من حكمه بعيداً عن حكم آخر ، وإلا لحدث الخلل

وعمل سبيل لثبات قد تجد خلافاً بين الروح ولروحه ، وقد يؤدي الخلاف إلى معارك وملاقات ، وبعد ذلك نجد من يتهم الإسلام بأنه أعطى الرجل سبباً مسلطاً على المرأة . ويقول لهم . ولماذا تنهون الإسلام ؟ هل دخلت على الزواج بمطلق الإسلام ؟ إن كنت قد دخلت على الزواج بمطلق الإسلام فتجد القواعد المنظمة

والتي تحفظ للمرأة كرامتها ، ولكن هناك مَنْ يدخل على الزواج بغير منطق الإسلام ، فلما وقع في الأزمة راح ينادي الإسلام . هل اختار الرجل مَنْ تشاركه حياته بمقياس الدين ؟ وهل وضع نُصب عييه شروط اختيار الزوجة الصالحة التي جاءت في الحديث الشريف :

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » (١) .

هل فضل الرجل ذات الدين على سواها ؟ أم فضل مقياساً آخر ؟ . وعندما جاء رجل ليخطب ابنة من أبيها هل وضع الأب مقياس الإسلام في الاعتبار عند موافقته على هذا الزواج ؟ هل فضلتُمْ مَنْ ترضون ديه وخلقه ؟ أم تركتم تلك القواعد أنتم تركت قواعد الإسلام ، فلماذا تلوم الإسلام عند سوء النتائج والمواقف ؟ إنك إن أردت أن محاسب فلا بد أن تأخذ كل أمورك بمقاييس الإسلام ، ثم تصرف بما يناسب الإسلام . إن كنت كذلك فالإسلام يحميك من كل شيء . فالإسلام يساند القوي في الكون ويساند القوي في انفس بحيث تعيش في سلام ولا تتعاند ، لأن كل ذلك يقابله الحرب . والحرب إنما تنشأ من تعاند اقوى ، فتتعاند قوى نفسك في حرب مع نفسك ، وتتعاند قوى البشر في حرب مع البشر ، وتتعاند قواك مع قوى الكون الاخرى ، فانت تعاند الطبيعة وتعاند مع الحق سبحانه وتعالى .

إذن ، فالتعاند ينشأ من الحرب ، والحرب لا تنشأ إلا إذا اختلفت الأهواء . وأهواء البشر لا يمكن أن تلتقي إلا عندما تكون محروسة بقيم من لا هوى له ، ولذلك يقول الله عز وجل :

﴿ وَلَوْ تَّبَعَ الْخَلْقُ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۖ ﴾ (٧٦)

( سورة المؤمنون )

لماذا؟. دعك من الكون الأصم حولك ، أو دعك من الكون الذي لا اختيار له  
في أن يفعل أو يفعل لك ، فهو فاعل أو معمل لك بدون اختياره ، ولكن انظر  
إلى البشر من حولك ، فما الذي يجعل هوى إنسان يسيطر على أهواء غيره ؟

ما الذي زاده ذلك الإنسان حتى تكون أنت تابعاً له ؟ أو يكون هو تابعاً لك ؟  
وفي قانون اتبعية لا يمكن إلا أن يكون التابع مؤمناً بأن المتبوع أعلى منه ، ولا يمكن  
لشئ أن توجد عنه هذه العفوية أبداً . لذلك لا بد للبشر جميعاً أن يكونوا تبعاً لقوة  
أمنوا بأنها فوقهم جميعاً . فحين نؤمن تدخل في السلم ، ولا يوجد تعاند بين أي قوة  
وقوة أخرى ، لأنك لست خاضعاً لك ، وأنت لست خاضعاً لي ، وأنا وأنت مسلمون  
لقوة أعلى مني ومنك ، ويشرط في القوة التي نتبعها طائعين ألا يكون لها مصدرة فيما  
تشرع

إن المشرعين من البشر يراعون مصالحهم حين يشرعون ، فمشرع الشيوعية يضع  
تشريعه ضد الرأسمالية ، ومشرع الرأسمالية يضع تشريعه ضد الشيوعية ، لكن عندما  
يكون المشرع غير متعصب بما يشرع ، فهذا هو تشريع الحق سبحانه وتعالى .

وحيث تدخل في الإسلام تدخل جميعاً لا يشد منا أحد ، ذلك معنى « ادخلوا في  
السلم كافة » ، هذا معنى وارد ، وهناك معنى آخر وارد أيها وهو ادخلوا في السلم  
أي الإسلام بجميع تكاليفه بحيث لا تتركوا تكليفاً يشد منكم .

وحيث يأتي المعنى الأول فلأننا لو لم ندخل في السلم جميعاً لشقى الدين المسلمون  
بالتدبير لا يُسلمون ، لأن الذي يُسلم سيهدد سلوكه بالنسبة للآخرين ، ويكون نفع  
المسلم لسواه ، ويشقى المسلم بعدم إسلام من لم يسلم ، فمن مصلحتنا جميعاً أن  
يكون جميعاً مسلمين والذين لا يسلكون هذه الحفظة يفسرون قول الله تعالى .

﴿ لَا يَصْرُفُكُمْ مَنْ ضَلَّ إِنَّا أَهْلَتُنَّكُمْ ﴾

( من الآية ١٠٥ سورة المائدة )

على غير ظاهرها ، فمن خسر هدايتكم أن يُصْرَفُوا من لم يؤمن بأن يؤمن ، لأن

مصلحتكم أن تسلموا جميعاً ، فإذا أسلمت أنت فسبعود إسلامك عن الغير ، لأن سلوكك سيصبح مستقيماً مهذباً ، والذي لم يسلم سيصبح سلوكه غير مستقيم وغير مهذب ، ومستشفى أنت به . إذن فمن مصلحتك أن تقضى وقتاً طويلاً وتحمل عاء كبيراً أن تدعو غيرك ليدخل في الإسلام . وإياك أن تقول . إن ذلك يضيع عليك فرص الحياة . لا إنه يضمن لك فرص الحياة ، ولن يضيع وقتك لأنك مسحى نفسك من شرور غير المسلم

واذكر جيداً أنه حين تكلمنا في فاتحة الكتاب قلنا . إن الله يعلمنا أن نقول « إياك نهد » فكلنا يارب معبدك ومسعد جميعنا بذلك ، واهدنا كلها يارب ، لأنك إن هديتني وحدي فسيسمع غيري هدايتك لي ، وأنا سوف أشقى بضلاله . فمن مصلحتنا جميعاً أن نكون مهديين جميعاً

هذا على معنى « ادخلوا في السلم كافة » أي جميعاً . أما معنى قوله تعالى : « لا يضرركم من قبل إذا اختلفتم » أي لا تتحملون أضرار ضلالهم إذا اختلفتم بايعواكم ونهيتهم عن المكر . أما المعنى الثاني فادخلوا في الإسلام بحيث لا يشذ منكم أحد ويأخذ شيئاً وبعبارة من الإسلام ويترك بعضها منه ، فأت تريد أن تنى حيلتك ورسول الله صلى الله عليه وسلم شرح أن للإسلام أساساً هي الأركان الخمسة ، وإياك أن تأخذ ثلاثة أركان وتترك ركنين ، لأن هدم الإسلام مبني على خمسة أركان .

وقد قال لي أحد المهندسين . إننا نستطيع أن نشيء بياناً على ثلاثة أركان أو على أربعة أو على خمسة . فقلت له . ولكن حين نجعل البيان على أربعة أركان ، ونوزع الأحال والأعمال على أربعة أسس ، هل يمكنك حينئذ أن نجعلها ثلاثة أركان فقط ؟ قال . لا

قلت . إذن فالبناء إنما ينشأ من البداية على الأسس التي نريدها ، ولذلك فأتب نوزع القوى على ثلاثة أو أربعة أو خمسة من البداية . والله سبحانه وتعالى شاء أن يجعل أسس لإسلام خمسة ، وبعد ذلك بينى الإسلام ، وحين بينى الإسلام فبينك أن

تأخذ لجنة من الإسلام دون لنة ، بل يؤخذ الإسلام كله ، فالمراد الواقع في العالم الإسلامي إنما هو مانع من التلغيفات التي تحدث في العالم المسلم . تلك التلغيفات التي تحاول أن تأخذ بعضاً من الإسلام وتترك بعضاً ، وهذا هو السبب في التعب والمرار ؛ لأن الإسلام لابد أن يؤخذ كله مرة واحدة . إذن « ادخلوا في السلم كافة » يعني إياكم أن تتركوا حكماً من الأحكام إلا الذي يتعب المتتبعين إلى الدين الآن أما يريد أن يلقح حياة إسلامية في بلاد تأخذ قوانينها من بلاد غير إسلامية

إذن حتى نتجس في حياتنا ، فلابد أن نأخذ الإسلام كله . وللأسف فإن كثيراً من حكماء البلاد المسلمة لا يأخذون من الإسلام إلا آخر قول الله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » إنهم يأخذون « أولى الأمر منكم » ويتركون « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » .

وأقول : لماذا تأخذون الأخيرة وتتركون ما قبلها ؟ إن الله لم يجعل لولي الأمر طاعة مستقلة بل قال : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر » ليدل على أن طاعة ولي الأمر من باطن طاعة الله وطاعة الرسول . فمن لا يريد تلغيفاً في الإسلام ، خذوه كاملاً ، تستريحوا أنتم ونسترخ نحن معكم

إن لحق سبحانه وتعالى يريد بدعوتك إلى دخول الإسلام أن يعصم الناس من فتنة اختلاف أهوائهم فحفظ ورفع عن حلقه ما يمكن أن يختلفوا فيه ، وتركهم أحراراً في أن يراولوا مهمة استنطاق أسرار الله في وجوده بالمعلم التجريبي كما يحسون ، فإن أرادوا رقباً فليقبلوا عقوبتهم المخلوقة لله ، في الكون المخلوق لله ، بالطاقة المخلوقة لله ، ليسعدوا أنفسهم ويدفعوها إلى الرقي ، وإن انتهى أحد منهم إلى قضية كونية ، واكتشف سرّاً من الأسرار في الكون فهو لن يقدم للناس جديداً في المسح ، وسيأخذ الناس هذا الجديد ولا يعارضونه .

إذن فمن الممكن أن يستبد العلماء بعضاً من أسرار قصص الكون المادية بواسطة العلم التجريبي ، وهي أمور سينفق عليها الناس ، ولكن البشر يمكن أن يختلفوا في الأمور السابعة من أهوائهم ؛ لأن لكل واحد هوى ، وكل واحد يريد أن يتبع هواه

ولا يتبع هوى الآخرين ، والحق سبحانه يريد أن يعصمت من الأهواء لذلك قال لنا  
« ادخلوا في السلم كافة » أى ادخلوا في كل صبور الإسلام . حتى لا يأتى تناقض  
لأهواء فى المجتمع .

وكن أبها المؤمن فى سب مع نفسك فلا يتناقض لسانك مع ما فى قلبك ، فلا  
تكن مؤمن اللسان كافر القلب . كن متسجماً مع نفسك حتى لا تعانى من صراع  
الملكات . وأيضاً كن دافعاً فى السلام مع الكون الذى نعيش فيه ، مع السماء ، مع  
لأرض ، مع الحبوب ، مع النبات . كن فى سلم مع كل تلك المخلوقات لأنها  
مخلوقة مسخرة طاعة لله ، فلا تشد أنت لتتغلبها وتسيطر عليها

كن متسجماً مع الزمن أيضاً ، لأن الزمن الذى يحدث فيه منك م يخالف  
منهج الله سيعتد هو والمكان ، وإذا أردت أن تشيع سلامك فى الكون فمليك كما  
عندك الرسول صلى الله عليه وسلم أن مسالم كل الكون ، وكان الرسول صلى الله  
عليه وسلم يشيع السلام فى الزمان والمكان ، وعلى سبيل المثال كان صلى الله عليه  
وسلم أكثر الناس صيماً فى شعبان ، ولما سأله الصحابة عن هذا أخبرهم أن شعبان  
شهر يجعله الناس لأنه بين رجب ، - وهو من الأشهر الحرم الأربعة - وبين رمضان ،  
فأحب أن يحيى ذلك الشهر الذى يغفل عنه الناس ، فكان رسول الله صلى الله عليه  
وسلم أراد أن يسعد الزمان بأن يشيع فيه لونا من العبادة فلا يجعله أقل من الأزمنة  
الأخرى

كذلك الامكنة تريد أن تسعد بك ، فكل الاماكن تسعد بذكر الله فيها والحق  
- سبحانه - بعد أن أمرنا جميعاً بالدخول فى السلم بأفعلن ولا تفعل ، حذرون من  
اتاع الشيطان لأنه هو الذى يعمل على إبعادنا عن منهج الله ، فقال جل شأنه .

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٢٨)

( سورة البقرة )

ولماذا لا تتبع خطوات الشيطان ؟ لأن عداوته للإنسان عناده صيفة ، وقف من

آدم هذا الموقف ، وبعد ذلك أقسم بعزة الله أن يعويكم جميعاً ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد حكى لنا القصة فكأنه أعطانا مناعة ، أى أن الشيطان لم يقاومتنا وإنما وصح الحق أمامنا قصة الشيطان مع آدم واضحة جلية ليعطينا المناعة ، بسبيل أننا حين نريد أن نصون أجسامنا نحمل لأنفسنا مناعة قبل أن يأتى المرض ، نطعم أنفسنا ضد شلل الاطفال ، ضد الكوبير ، ضد كذا ، وكذا ، فكأن الله سبحانه وتعالى يذكر قصة الشيطان مع آيها آدم ليقول لنا : لاحظوا أن عداوته مسبقة .

وما دام به محكم عداوة مسبقة قل ياخذكم على غرة : لأن الله نبهكم لذلك المسألة مع الحق الأول . والشيطان عندما يذكر في القرآن يرد به مرة عاصي الجن ، لأن طائع الخمر مثل طائع الشر تماماً ، ومرة يريد به شياطين الإنس . إذن من الجن شياطين ، ومن الإنس شياطين .

وحتى تستطيع أن تفرق بين ما يزينه الشيطان وبين ما تزيه لك نفسك ، فإن رأيت نفسك مصراً على معصية من دون واحد فاعلم أن السبب هو نفسك ، لأن النفس تريدك عاصياً من دون يشبع شغواً فيها فهي تصر عليه . إنسان يحب المال فتسلط عليه نفسه من جهة المال ، إنسان آخر يحب الجنس فتسلط عليه نفسه من جهة النساء ، وثالث يحب المخمر والمديح فتسلط عليه نفسه من جهة من يثاقفه . لكن الشيطان لا يصير على معصية يمينها ، فإن رآك قد امتعت عن معصية فهو يزين لك معصية أخرى ؟ لأنه يريدك عاصياً على أية جهة .

والحق يحذرننا : ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . وليس هناك عداوة أوضح من عداوة الشيطان بعد أن وقف من آدم وقال ما أورده الحق على لسانه :

﴿لَا غَرِبَ لَهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٤﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ٨٥﴾

( سورة من )

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ زَلَّ شَيْءٌ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ نَصْرُكُمْ الْبَيْتُ  
فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

والزَّلَّة هي المعصية ، وهي مأخوذة من « زال » ، وزال الشيء أى حرح عن استقامته ، فكان كل شيء له استقامة ، والخروج عنه يعتبر زللا ، والزَّلْزَل هو الذبوت والمعاصي التى تخالف بها المنهج المستقيم

« من بعد ما جاءكم البیت » إنه سبحانه يوضح لنا أنه لا عذر لكم مطلقا و ان تزلوا ، لأنى بیت لكم كل شيء ، ولم أنركم إلى عقولكم ، ومن المنظر ان تستعملوا عقولكم استعمالا صحيحا لتدبروا حركة الكون الذى استحلتكم فيه ، ومع ذلك ، إن أصبتكم العفلة فانا أرسل الرسل . ولذلك قال سبحانه .

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

( من الآية ١٥ سورة الإسراء )

لقد رحم الله الخلق بإرسال الرسل ليبينوا للإنسان الطريق الصحيح من الطريق المموج . وخلق سبحانه وتعالى يترك بعض الأشياء للبشر ليأتوا بفكر من عندهم ثم يرتضى الإسلام ما جاءوا به ليعلمنا أن العقل إذا ما كان طبيعيا ومسطقيا فهو قادر على أن يبتدى إلى الحكم بداته . وفى تاريخ الإسلام نجد أن سيدنا عمر قد رأى أشياء واقترح بعضها من الاقتراحات ، ووافق عليها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم يرس القرآن عن وفق ما قال عمر ، وقد يتساءل أحد قائلنا : ألم يكن النبی صلى الله عليه وسلم أولى ؟

نقول : لو كانت تلك الآراء قد جاءت من النبى صلى الله عليه وسلم لما كان فيها غرابة ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم معصوم ويوحى إليه ، لكن الله يريد أن يقول



لنا - إن العقل المطهرى عندما يصغر فهو يستطيع أن يتدبى للحكم الصحيح ، وإن لم يكن هناك حكم قد نزل من السماء . ولذلك تستعز أحكام سيد عمر عدداً كبيراً من المستشرقين ويقولون : أليس عندكم سوى عمر ؟ ماذا لا تقولون محمداً ؟

يقول لهم لقد تربى عمر في مدرسة النبي صلى الله عليه وسلم ، فما يقويه هو ، إنما قد أحده عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أقر عمر بذلك وقال : « ما عمر لولا الإسلام » ، ونحن نستشهد بعمر لأنه بشر وليس رسولاً ، ويسرى عليه ما يسرى على البشر ، فلا يوحى إليه ولم يكن معصوماً .

إذن كان الحق أراد أن يُقرب لنا العبرة على الاستعانة والمهم فنكون جميعاً عمر ، لأن عمر بالمعطره كان يتدبى إلى الصواب ، ويقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم « فعل كذا » ، فيرسل الوحي موافقاً لرأيه ، فكان الله لم يكلفنا شططاً ، إنما جاء تكليمه ليحمى العقول من أهواء النفس التي تطمس العقول ، فأنه الرأي الهوى ، ولولا وجود الأهواء لكانت الآراء كلها متعنة .

وقدما أعطوا لنا مثلاً بالمرأة التي جمعت الصيف وشتاء في ليلة واحدة ، فقد زوجت ابنها وابنتها ، وعاش الأربعة معها في حجرة واحدة ، ابنها معه زوجته ، وابنتها معها زوجها ، والمرأة معهم ، تنم نوماً قليلاً وتذهب لابنتها توصيها : « دفتى زوجت وأرصبه » فالحر بارد ، وتذهب لابنتها وتقول . « اسعدى عن زوجتك فالدنيا حر » .

إن المكان واحد ، والليل واحد ، لكن امرأة جمعت صيفاً وشتاء في وقت واحد والسبب هو هوى النفس والله - سبحانه - يبين لنا ذلك في قوله

﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَمَسَدَتْ السَّمَرَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ﴾

( من الآية ٦١ سورة المؤمنون )

إذن فالخلق سبحانه وتعالى بعضهم حين يُشرع لنا ، فالبشر يضيفون درعاً بتقنيات أنفسهم لأفهامهم ، فيحاولون أن يجمعوا من خطأ التقين الشرى ، فيفسوا أشياء

يعدلون بها ما عدهم ، ولو نظرت إلى ما عدلوه من قوانين لوحدهه تعديلا يلتقي مع الإسلام أو يقترب من الإسلام .

لقد سألوني في أمريكا : لماذا لم يظهر الإسلام فوق كل العقائد برغم أنكم تقولون : إن الله يقول في كتابه « ليظهره على الدين كله » ومع ذلك لم يظهر دينكم على كل الأديان ، ولم يزل كثير من الناس غير مسلمين سواء كانوا يهودا أو نصارى أو ملادين ؟

قلت . لرفضتم إلى قول الله « ولو كره الكافرون » و « لو كره المشركون » لذلك ذلك على أن ظهور لإسلام قد تم مع وجود كفار ، وظهوره مع وجود مشركين ، وإلا لو ظهر ولا شيء معه فممن يكره ؟ إن العبيدة التي يكرهها أهل الكفر هي التي تبرز وجود الإسلام . إذن « ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » يدل على أن ظهور الإسلام يعنى وجود كافر ووجود مشرك كلاهما سيكون موجودا وسيكرهان انتشار الدين

وعندما نرى أحداث الحياة تضطر البلاد العربية عندما يجنون خطأ تقبهم يحاولون أن يعدلوا في التقنيات فلا يجنون تعديلا إلا أن يذهبوا إلى أحكام الإسلام . لكنهم لم يذهبوا إليه كدين وإنما ذهبوا إليه كنظام ، إن رجوعهم إلى الإسلام لدليل وتأكيد على صحة وسلامة أحكام الإسلام ، لأنهم لو أخذوا تلك الأحكام كأحكام دين لقال غيرهم : قوم تعصبوا لدين آسوا به فتمدوا أحكامه . ولكنهم برغم كرههم للدين اضطروا لأن يأخذوا بتعاليمه ، فكانه لا حل عندهم إلا الأخذ بما ذهب إليه الإسلام

إذن قول الله « ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » قوة لنظام الإسلام ، لا لتؤم به وإنما تضطر أن تلجأ إليه ، وكانوا في إيطاليا - على سبيل المثال - يميون على الإسلام الطلاق ويعتبرونه انتقاصا لحقوق المرأة ، ولكن ظروف الحياة والمشكلات الأسرية اضطرتهم لإبحة الطلاق ، فهل قنوه لأن الإسلام قال به ؟ لا ، ولكن لأنهم وجدوا أن حل مشكلاتهم لا يأتي إلا منه .

وفي أمريكا عندما شوا حملة شعواء على تناول الخمر ، هل حاربوها لأن الإسلام حرمها ؟ لا ، ولكن لأن واقع الحياة الصحية طلب منهم ذلك . إذن « ولو كره الكافرون » ، « ولو كره المشركون » : معناه أنهم سيلجأون إلى نظام الإسلام ليحل قضاياهم . فإن لم يأخذوه كدين فسوف يأخذونه نظاما .

« فإن رثلتم من بعد ما جاءكم البتة فاعلموا أن الله عزيز حكيم » أي إياكم أن تظن أنكم يرثيكم أحدنم حظوظ أصكم من الله ، فإن مرجعكم إلى الله وهو عزيز وعزته سبحانه هي أنه يُعيب ولا يُعْلَب ، فهو يدبر أمورنا برحمة وحكمة . ويقول الحق بعد ذلك

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ السَّمَاءِ  
وَالْمَلَكُ وَفُصِيَ الْأُمُورُ إِلَى اللَّهِ تَرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

أي ماذا ينتظرون ؟ هل ينتظرون أن ندهمهم الأمور ويجدوا أنفسهم في كون وإن أحد رخره فهو ينحول إلى هشيم تدرره الرياح ، ويضرب الإنسان أمام لحظة الحساب

وقوله : « هل ينظرون » مأخوذة من النظر . والنظر هو طلب الإدراك لشيء مطلق . وطلب الإدراك لأي شيء بأي شيء يُسمى نظرا . ومثال ذلك أنا نقول لأي إنسان يتكلم في أي مسألة معنوية . اليس عندك نظر ؟ أي هل تمتلك قوة الإدراك أم لا ؟

إذن فالنظر هو طلب الإدراك لشيء ، فإن طلبت أن ترى وجه النظر بالعين ، وإن طلبت أن تعرف ونعلم : فهو النظر بالمكر وبالقلب . وأحيانا يُطلق النظر على المتأمل ، وهو طلب إدراك ما يتوقع .

وه هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله ، ، يعنى هل ينتظرون إلا أن تأتيهم الساعة وتفاجئهم في الزمن الخاص ؟ لأنها لن تفاجئ أحدا في الزمن العام ، فسوف يكون لها آيات صغرى وآيات كبرى ، ومعنى أن لها آيات صغرى وكبرى ، أن ذلك دليل على أن الله مهملنا لتدارك أنفسنا ، فلا يزال فالحا لب التوبة ، ما لم تطلع الشمس من مغربها

وسأعه سمع قوله تعالى : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله » بقول ما الذى يؤجل دخولهم في الإسلام كافة ؟ ما الذى ينتظرونه ؟ لماذا كأن تقول لشخص أمامك : ماذا تنتظر ؟ كذلك الحق يحثنا على الدخول في السلم كافة وإلا فماذا تنتظرون ؟

وه إلا أن يأتيهم الله في خلل من الغيام والملائكة ، ساعة تقول : « يأتيهم الله » أو وجاء ربك ، أو يأتي سبحانه يمثل في القرآن مما نعرفه في المخلوقين من الإتيان والمجيء ، وكالوجه واليد ، فلتأخذ في إطار « ليس كمثله شيء » ، فإنه موجود وأنت موجود ، فهل وجودك كوجوده ؟ لا .

إن الله حي وأنت حي ، أحياتك كحياته ؟ لا . والله سميع وأنت سميع ، أسمعت كسمعه ؟ لا . والله بصير وأنت بصير ، أبصرك كبصره ؟ لا . وما دمت تعتقد أن له صفات مثلها قبك ، فلتأخذها بالنسبة لله في إطار « ليس كمثله شيء » .

والذين يفسرون المقصود بوجه الله أنه دته ، ويبداه يعنى قدرته ، ويد الله فوق أيديهم ، ، يعنى قدرته فوق قدرتهم . بقولهم : لماذا هذه التصيرت ؟ إننا لو أخذناه كما قال الحق عن نفسه ولكن في إطار « ليس كمثله شيء » ، نكون قد سلمنا من الخطأ . . لا شبهاء بخلقته ، ولا عطلا نصا عن معناه .

ولذلك يقول المحققون إنك تؤمن بالله كما أعطاك صورة الإيمان به لكن في إطار لا يختلف عنه عمّا في أمه « ليس كمثله شيء » ، وإن أمكن أن تتصور أى شيء قريب على خلاف ما تتصور ، لأن ما خطر ببالك فإن الله سبحانه على خلاف ذلك ،

فقال الإنسان لا ينظر عليه إلا الصور المعلومة له ، ومادامت صوراً معلومة فهي في خلق الله وهو سبحانه لا يشبه خلقه .

إن ساعة يتحل الحق ، سيفاجي الذين تصوروا الله من أية صورة ، أنه سبحانه على غير ما تصوروا وسبأنبيهم الله بحقيقة لم تكن في رموسهم أبداً ، لأنه لو كانت صورة الحق في بال البشر لكان معنى ذلك أنهم أصبحوا قادرين على تصور ، وهو القادر لا ينصب مقصوراً عليه أبداً ، ومن عظمت أن العقل لا يستطيع أن يتصوره مادياً . ولذلك ضرب الله لنا مثلاً يقرب لنا المسألة ، فقال :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ لَعِزَّةَ الْفُلِّ ۚ أَفَلَا تَتَصَوَّرُونَ ۝١١﴾

( سورة لادريب )

إن الروح الموجودة في مملكة جسمنا والتي إذا خرجت من إنسان صار حية ، وعاد بعد ذلك إلى عناصر تتحل وأبحرة تتصاعد ، هذه الروح التي في داخل كل مما لم يستطيع أحد تصورهما ، أو تحديد مكانها أو شكلها ، هذه الروح المخلوقة لله لم يستطيع أن نتصورها ، فكيف نستطيع أن نتصور الخالق الأعظم ؟

« هل ينظرون إلا أن يأنهم الله ، يعني بما لم يكر في حسنهم هل يتطرون حتى يروا ذلك الكون المنسق البديع قد انقثر ، وانكون كله تبعثر ، والشمس كورت ، والنجوم انكسرت ، وكل شيء في الوجود تعبر ، وبعد ذلك يعاجلون بأنهم أمامهم . هذا ينتظرون ؟

إذن يجب أن يتفهموا العرصة قبل أن يأن ذلك الأمر ، وقبل أن يعلب العرصة من أيديهم ويهيئ أمد رجوعهم إلى الله . لماذا يسرعون في أن يدخلوا في اسلم كافة ؟ ما الذي ينتظرونه ؟ ايتظرون أن بتعبر الله ؟ أو أن يتعبر منهج الله ؟ إن ذلك لن يحدث

ونؤكد مرة أخرى أننا عندما نسمع شيئاً يتعلق بالحق فيما يكون مثله في الشر فلناخذ في إطار « ليس كمثل شيء » فكما أنك آمنت بأن الله ذاتاً لا كالذوات ،

فيجب أن نعم أن الله صعدت ليست كالصفات ، وأن الله أفعالاً ليست كالأفعال ، فلا تجعل ذات الله مخالفة لدوام الناس ؛ ثم تأمل في الصفات التي قال الله فيها عن نفسه وتعملها مثل صعدت الناس ، فإذا كان الله يحيى ، فلا تصور بحيث أنه سترك مكاناً إلى مكان ، فهو سبحانه يكون في مكان بما لا يحلوه عنه مكان ، تلك هي المظنة

فإذا قيل : « إلا أن بأنهم الله » فلا نظري أن إتيانه كإتيانك ؛ لأن ذاته ليست كذاتك ، ولأن ليس في اختلاف درجاتهم تخلف أفعالهم ، فإذا كان الناس يختلفون في الأفعال باختلاف منازلهم ، وفي الصفات باختلاف منازلهم ، فالحق مره عن كل شيء وكل تصور ، ولما حد كل شيء يتعلق به في إطاره ليس كمثله شيء ، فمفسر ربك يختلف عن فعلك . وإياك أن تحصى فعله بقانون فعلك ، لأن فعلك يحتاج إلى علاج وإن من يختلف باختلاف طافتك وباختلاف قدرتك ، والله لا يفعل الأشياء بعلاج بحيث تأخذ منه رماً ولكنه يقول : « كن فيكون » .

كان الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعطيا صورة عن الإيجار الذي لا دخل لاختيار البشر في أن يجعلوا فيه فيقول : ساعة يحيى الأمر انحلت كل قدرة لمحلوي عن ذلك الأمر وأصبح الأمر لله وحده .

ود في ظن من الفهم : « به شيء يظنك وفيه شيء تستظل به ، والشئ الذي يظنك لا يكون لك ولاية عليه في أن يظنك إلا أن ترى أين طله وتذهب إليه ، رشيء آخر تستطيع أنت التصرف به كالمظلة تصحبها في أي مكان تريد وكلمة « ظل » معناها أنها تستر عنك مصدر الضوء ؛ ولذلك حينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يصور لك ذلك قال :

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّجَاجٌ كَظُلٍّ دَعَوُا اللَّهَ ﴾

( من الآية ٣٢ سورة لقاد )

أي جاءهم المزعج الأكبر كالظلمة محيطاً بهم ، فكان الله يريد أن يجرها إلى الكون سيندثر كله وسياتييك الأمر المزعج ، الأمر المقصع ، والمؤمن كان يتوقعه ، وسيدخل

عليه برءاً وسلاماً ، لأنه ما آمن من أجله ، لكن الكافر سيصاب بالفرع الأكبر ، لأنه فوجيء بشيء لم يكن في حسابه .

وقارب بين مجيء الأمر لمن يؤمله ، وبين مجيء الأمر لمن لا يؤمله . إن الحق سبحانه وتعالى قال : ساعة نحى هذه الظلال والملائكة فقد قضى الأمر . وعندما نسمع « قضى الأمر » فاعلم أن المراد أن الفرصة أفلتت من أيدي الناس ، فمن لم يرجع إلى ربه قبل الآن فليست له فرصة أن يرجع . ومثال ذلك ما قاله الحق في قصة نوح

﴿ وَفُصِّلَ الْأَمْرُ وَأُنْتَوَتْ عَلَى الْجُرُودِ ﴾

( من الآية ٤٤ سورة هود )

أي انتهى كل شيء ، ولم يعد للناس قدرة على أن يرجعوا عما كانوا فيه ، فالحق يقول . ماذا تنتظرون ؟ هل تنتظرون حتى يأتيكم هذا اليوم ؟ لا بد أن تنهروا الفرصة لترجعوا إلى ربكم قبل أن تفت مسكم فرصة العودة « وإلى الله ترجع الأمور » ، ومرة ثانياً « إلى الله ترجع الأمور »

وفيه فرق بين « ترجع الأمور » بفتح التاء وبين « ترجع الأمور » بضم التاء فكان الأمور مندفعة بذاتها ، ومرة تساق إلى الله . إن الراجح سيرجع إلى ربه بنفسه ؛ لأنه داهب إلى الخير الذي ينتظره ، أما غير الراجح والذي كان لا يرجو لقاء ربه فسيرجع بالرغم عنه ، تأتي قوة أخرى ترجعه ، فمن لم يحى رعباً بأن رباً . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ سَلِّ بِنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْتَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَنْ يَبْدِلْ

نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾

فكان الله لم يجعل على بني إسرائيل ويريد منهم أن يقولوا على أنفسهم بما أكرمهم به الله من خير سابق ؛ فساعة تقول : « اسأل فلاناً عما فعلته معه » ، كأنك لا تأمر بالسؤال إلا عن ثقة ، وأنه لن يجد جواباً إلا ما يؤيد قولك . والحق يبلغ رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسأل بني إسرائيل عن الخير السابق الذي ظمروهم به وهو سبحانه عليهم أنهم لن يستطيعوا مع الله أن يتكلموا إلا بما يوافق القضية التي يقولها الحق وتصبح حجة عليهم

والحق سبحانه وتعالى يقول : « سل بني إسرائيل كم آتيناهم ، ساعة نسمع » كم « في مقام كهذا فافهم أنها كناية عن الإحباط عن الأمر الكثير بخلاف « كم » التي تريد بها الاستفهام . وأنت تقول : « كم فعلت كذا مع فلان » و « كم صنعت معه معروفات » و « كم تمأونت معه » و « كم أكرمت » لذلك بعدما تسمع « كم » هذه فاعرف أن مصداق الكمية الكبيرة التي يكفى بها على أن عددها لا يحصى .

« سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة » إن الحق يريد أن يضرب لنا مثلاً كمثل إنسان يأكل خبرك وينكر معروفك ، ويشكوك إلى نساء ، فرد أنت لم يقل لك الشكوى . سله ماذا قدمت له من جميل ، أنا لن أتكلم بل سأجعله هو يتكلم . وأنت لا تقول ذلك إلا وأنت على ثقة من أنه لا يستطيع أن يغير شيئاً .

ألم يخلق لهم السحر ؟ . ألم يجعل عصا موسى حية ؟ ألم يظللهم الله بالعصا ؟ ألم يعطهم الله المن والسلوى ؟ كل ذلك أعطاه الله لهم ؛ فلم يشكروا نعمة الله ، فحل عليهم غضبه ؛ أخذهم بالسنين والجوع وأخذهم بالقمل والضفادع والدم ، كل ذلك فعله الله معهم . وحين يقول الحق لرسوله : « سل بني إسرائيل » فليقول مصحح على أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهذا جارك واحد منهم فسله ، كم آية أعطاه الله لكم فأنكرونها ، وتلكاتم ونعمتم « كم آتيناهم من آية بينة » إل « كم » تدل على الكمية الكبيرة ، و « من آية » : معناها الأمر العجيب و « بينة » تعني الأمر الواضح الذي لا يمكن أن يفعل عنه أحد

« سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة » ومن يبدل نعمة الله من بعد ما حادثة



فإن الله شديد العقاب . وكيف يبدل الإنسان نعمة الله ؟ . إن نعمة الله حين تصيب خلقاً فالواجب عليهم أن يستقبلوها بالشكران ، ومعنى الشكران هو سببها إلى وهبها والاستحياء أن يعصوا من أنعم عليهم بها . فإذا استعمل الناس النعمة بغير ذلك فقد بذلت . ولذلك يقول الحق في آية أخرى : « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، وماداموا قد بدلوها كفراً ، يكون الكفر هو الذي جاء مكان الإيمان . إذن كان المطلوب أن يقابروا النعمة بالإيمان ، بالازدياد في الثواب إلى الله ، لكنهم بدلوا النعمة بالكفر .

« ومن بدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب » قد نفهم أن معنى شديد العقاب « هو أمر يتعلق بالآخرة ، ولعل أناساً يستبطنون الآخرة ، أو أناساً غير مؤمنين بالآخرة ، فلو كان الأمر بالمعقوب يقتصر على عقاب الآخرة لشقى الناس من لا يؤمنون بالآخرة . . أو يستبطنون لأن هؤلاء يعيشون في الأرض حسداً ؛ لأنهم لا يحرقون الآخرة ولا يؤمنون بها ، أو أنها لا تخطر ببالهم .

فالذي يؤمن بأن هناك آخرة تأتي وسيكون فيها حساب ، هو الذي سيكون سلوكه على مقتضى ذلك الإيمان . أما الذي لا يؤمن أن هناك يوماً آخر فالدنيا تنشفي به فإذا لم يجعل الله بلون من العقوبة للذين لا يؤمنون بالآخرة أو الذين يستبطنون الآخرة لشقى الناس هؤلاء الذين لا يؤمنون أو يستبطنون .

وكل جمعة لا تقبل على مسج الله ، ويدلون نعمة الله كفراً لا بد أن يكون الله بهم عقاب عاجل ، وذلك ليعلم الناس أن من لم يرتدع إيماناً وحقاً من الهمم الآخر عليه أن يرتدع مخافة أن يأتيه العقاب في الدنيا . فالعالم إذا علم أن ظناً مثله لقي عقابه وحسنه في الدنيا سيحاف أن يعظم ؛ وإن لم يكن مؤمناً بالآخرة ، لأنه سيناكد أن الحساب وقع لا محالة . وبذلك لا يؤجل الله العقاب كله إلى الآخرة ولكن يؤجل بعضها منه في الدنيا . ويقول الحق في الذين يبدلون نعمة الله كفراً :

﴿ وَاحْلُوا عَنْهُمْ ذُرِّيَّتَهُم بِالْأَنْوَارِ ۝ ٢٨ ۝ هُمْ يَصَلُّونَهَا وَيُشْنَ أَنْفُسَهُمْ ۝ ٢٩ ﴾

هذه عقوبة الآخرة ولن يتركهم الله في الدنيا دون أن يبالغ بعقاب

وحتى الذين يظلمون ويتسففون مع أنهم مسلمون لا يتركهم الله بلا عقاب في الدنيا حتى يأتيهم يوم القيامة بل لابد أن يجيء لهم من واقع ديالهم ما يخيف الناس من هذه الخوابيم حتى تستقيم حركة الحياة بين اناس جميعا ، والا فسيكون الشقاء واقعا على الناس من هؤلاء ومن الذين لا يؤمنون بعقاب الآخرة

وكان بعض الصالحين يقول : « اللهم إن القوم قد استبطأوا آخرتك وحرهم حلمك فخذهم أخذ عزيز مقتدر » ، لأنه سبحانه لو ترك عقابهم للأخرة لمسدور وكانوا فتنة لغيرهم من المؤمنين . ولذلك شاء الله أن يجعل في منهج الإيمان تجري وعقوبة تقع في الدنيا ، لماذا ؟ حتى لا يستشري فساد من يشك في أمر الآخرة . وشدة عقاب الله لا يجعلها في الآخرة فقط ، بل جعلها في الدنيا أيضا ، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ (٥١)

( سورة طه )

ثم يقول سبحانه وتعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٥٢)

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين واقع الإنسان في الكون ، هذا الواقع الذي يدل

عن أنه سيد ذلك الكون ، ومعنى ذلك أن كل الأجسام تخضع له وقد عرفنا أن الحمد يخدم السات ، والجهاد والبيات بخدمة الحيران ، والجهاد والبيات والحيوان يخدم الإنسان ، فالإنسان سيد هذه الأجسام .

وكان مقتضى العقل أن يبحث هذا السيد عن جس أعلى منه ، فكما كانت  
الاحساس التي دونه في خدمته ، فلا بد أن يكون هذا الجس الأعلى ياسب سيادته ،  
وكن يجد شيئا في الوجود أبدا أعلى من الجس الذي يتصب إليه ، لذلك كان  
المقروض أن يقول الإنسان أنا أريد جنس يهني عن نفسي ؛ فأما في أشد الاحتياج  
إليه . فهذا جاء الرسل وقالوا : إن الذي أعلى منك أيها الإنسان هو الله وليس كمثل  
شيء وتعالى عن كل الأحاس . كان يجب على الإنسان أن يقول : مرحبا ؛ لأن  
معرفة الله تحل له النعم . والرسل إنما جاءوا ليحلوا للإنسان لعزا يبحث عنه ، وكان  
على الإنسان أن يعرج بحىء الرسل ، وحسبوا أن الله عز وجل لا يريد خدمة  
عنه ، إن الإنسان هو الذي يحتاج لعبادة الله ليحر له الكائنات ، ويعنده يعمره .  
إدنا فالزمين بين أمرين : بين حلام له مسح وهو من دونه من الجهاد والساب  
والحيوان ، ومعط متعصل عليه مختار وهو أعلى منه . إنه هو الله .

فمن يأخذ واحدة ويترك واحدة فقد أخذ الأذى وترك الأعلی . فيقول له الحق  
أخذ الأعلی . فإذا كنت سعيداً بعبادة المخلوقات الأدنى منك ، وتحب أن تسترید منها  
فكيف لا تسترید من هو أعلى منك ؟ . إله الله

والحق عندما يقول : « زين للدين كمروا الحياة الدنيا » فهو يريد أن يبعث إلى أن مقاييس الكافرين مقاييس ماسطة مازلة ؛ لأن الذي زين لهم هو الأمر الأدنى . وسخية التقدير أن يأخذ الإنسان الأمر الأدنى ويضعه على الأعلى . وكلمة « زين » عندما تأتي في القرآن تكون مبيحة لما لم يسم فاعله مثل قوله تعالى

﴿ زِيَّيْنِ لَيْسَ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ الْإِسْوَ وَالْإِيمَانِ وَالْمُقَاتِلَةِ الْمُقَطَّرَةِ مِنَ الذَّهَبِ  
(وَأَنْعَمَةُ) ﴾

(عن الآية ٦٤ سورة آل عمران )

هناك « زين للناس » وفي آية البقرة التي نحن بصددھا « زين للدين كفروا » لماذا قال الحق هناك « زين للناس » ولماذا قال هنا : « زين للدين كفروا » ؟ لقد قال الحق ذلك لأن الذين كفروا ليس عندهم إلا الحياة الدنیا ، فالأعلى لا يؤمنون به ، ولكن في مسألة اناس عامة عندما يقول الله عز وجل : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنیا والله عنده حسن المآب » فهو سبحانه يقول للناس : حللوا الحياة على قدرها وزنت یعنی خست من الذي حسنها ؟ لقد حسنها الله عز وجل . فكيف تنسى الذي حسنها لك ، وجعلها حمية وجعلها تحت تصرفك ؟

كان يجب أن تأخذها وسيلة للإيمان بمن رزقك إياھا ، وكما ترى شيئاً جميلاً في الوجود تقول : « سبحانه الله » ، وترداد إيماناً بالله ، أما أن تأخذ المسألة وتعرھا عن خلقها فذلك هو المقياس النازل .

أو أن الله سبحانه وتعالى هو الذي زينها بأن جعل في الناس عرائر جميل إلى ما تعطيه هذه الحياة الدنیا ، وتقول : هل أعطى سبحانه العرائر ولم يعط سبحانه لتلبية هذه العرائر ؟ لا ، لقد أعطى العرائر وأعطى المنهج لتلبية العرائر ، فلا تأخذ هذه وتترك تلك . ولذلك يقول الحق

﴿ وَالْمَغِينَةُ الصَّلَاحَةُ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الكهف)

والحق عندما يقول : « زين للدين كفروا الحياة الدنیا » فهو يعرض من يعتقدون أنه لا حياة بعد هذه الحياة ، ويقول لهم : هذا مقياس نازل ، وميران غير دقيق ، ودليل على الحق ، لأنكم ذهبت إلى الأدنى وتركتم الأعلى . ومن العجيب أنكم فعلتم ذلك ثم يكون بينكم وبين من اختار الأعلى هذه المقارقات أنتم في الأدنى ، وتسفرون من الذين التفتوا إلى الأعلى ، إن الحق يقول : « ويسفرون من الذين آمنوا » . لماذا يسفرون منهم ؟

لأن الذين آمنوا ملتزمون ، ومادام الإنسان ملتزماً فسيحوق نفسه من حركات الوجود التي تأتيه من غير حل ، لكن هؤلاء قد انطلقوا بكل قواهم وملكاتهم إلى ما يزين لهم من الحياة .

لذلك تجد إنساناً يعيش في مستوى دخله الحلال ، ولا يملك إلا حطة واحدة «بدلة» ، وإنساناً آخر يسرق غيره ، فتجد الثاني الذي يعيش على أموال غيره حسن المظهر والهدام وعندما يلتقي الاثنان تجد الذي ينهب يسخر من الذي يعيش على الحلال ، لماذا ؟ لأنه يعتبر نفسه في مقياس أعلى منه ، يرى نفسه حسن الهدام و« الشياكة » فيحسم الحق هذه المسألة ويقول : «والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة» . لماذا يوم القيامة ، أليسوا فوقهم الآن ؟

إن الحق سبحانه وتعالى يتحدث عن المنظور المرتى للناس ، لأنهم لا ينظرون إلى الراحة النفسية وهي انسجام ملكات الإنسان حينما يذهب لهناء ، ولم يجرب على نمسه سقطه دنية ولا سقطه خلقية ، ولا يؤذي أحداً ، ولا يرتشي ، ولا ينم ولا يفتلب ، كيف يكون حاله عندما يستعرض أفعال يومه قبل نومه ؟ لابد أن يكون في سعادة لا تقدر بمال الدنيا .

ولذلك لم يدخل الله هذا الإحساس في القلونة ، وإنما أحمل المسألة التي لا يقدر عليها أحد «والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة» ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَصْحَكُونَ ۝٤٥ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَعَاضَرُونَ ۝٤٦ وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۝٤٧ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَسَّالُونَ ۝٤٨ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَٰمِضِينَ ۝٤٩﴾

(سورة المطففين)

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٦٦﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَسْطُرُونَ ﴿٦٧﴾  
هَلْ تُبْصِرُ الْغَافِلِينَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الطه)

أي هل نعرفنا أن نجازيهم ؟ نقول : نعم يارب . خصوصا أن ضحك الآخرة ليس بعده بكاء .

« وانفس اتقوا فوقهم يوم القيامة » ولنا لحظ أن الحق سبحانه وتعالى خالف الأسلوب في هذه الآية ، لقد كان المقروض أن يقول : « والذين آمنوا فوقهم » لكنه قال : « والذين اتقوا فوقهم » لأنه قد يؤخذ الإيمان على أنه اسم ، فقد شاع عنك أنك مؤمن ، فأنت بهذا الوصف لا يكفي لتصل به المرتبة السامية إلا إذا كانت أفعالك تؤدي بك إلى التقوى .

فلا نقل « أنا مؤمن » ونقول خيرك . « أنا مؤمن » ، ويصبح المؤمنون مليارا من البشر في العالم ، نقول هؤلاء . أنتم لن تأخذوا الإيمان بالاسم وإنما تأخذون الإيمان بالالتزام بمنهج السماء . ولذلك لم يقل الله : « والذين آمنوا فوقهم يوم القيامة » وإنما قال : « والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة » ليحذف الاسم عن الوصف . ويدل الحق الآية بانقول الكريم : « والله يرزق من يشاء بغير حساب » . ما هو الرزق ؟ الرزق عند القوم : هو كل ما ينتفع به ، فكل شيء ينتفع به هو رزق . وطبقا لهذا الشريف فاللصوص يعتبرون الحرام رزقا ، ولكنه رزق حرام

والناس يقصرون كلمة الرزق على شيء واحد يشعرون أنهم ذائقوه وهو المال . يقول لهم : لا ، إن الرزق هو كل ما ينتفع به ، فكل شيء يكون مجاله الانتفاع يدخل في الرزق : هلمك رزق ، وخلقك رزق ، وجاهت رزق ، وكل شيء ينتفع به هو رزق . ساعة نقول : إن كل ذلك رزق تأخذ من الله .

﴿ قَالِ الَّذِينَ فَضَّلُوا بِرَآءِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَنَكْتَ أَيَمَّتْهُمْ قُلُوبُ فِيهِ سَوَاءً ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النحل)



رُزْقُ أَكْثَرِ مَنَّهُ ؛ لَأنَّهُ لَا يَعْلَمُ حِكْمَةَ اللَّهِ فِيهَا . وَهَنَكَ أَناسٌ كَثِيرُونَ عِنْدَما يُعطِيهِمُ اللَّهُ نِعْمَةً يَقُولُونَ : « رَبِّنا اُكْرِمنا » ، وَعِنْدَما يُسْلِبُهُمُ النِّعْمَةَ يَقُولُونَ : « رَبِّنا اُهَانِنا » ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ سُبْحانَهُ وَتَعَالَى .

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذاً ما أَنتَلَّهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝  
وَأَمَّا إِذاً ما أَنتَلَّهُ فَقَدَرَهُ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَنِ ۝ ﴾

(سورة القصص)

كَلَّا . مَخطِئَةٌ أَنْتَ يا مَنْ اِعتَبَرْتَ النِّعْمَةَ إِكْراما مِنْ اللَّهِ ، وَأَنْتَ مَخطِئَةٌ أَيْضاً يا مَنْ اِعتَبَرْتَ سَلْبَ النِّعْمَةِ إِهانةً مِنْ اللَّهِ ؛ إِنْ النِّعْمَةُ لَا تُكُونُ إِكْراما مِنْ اللَّهِ إِلا إِذا وَفَّقَكَ اللَّهُ فِي حَسَنِ اِنتِصافٍ فِي هَذِهِ النِّعْمَةِ ، وَلَا تُكُونُ النِّعْمَةُ إِهانةً إِلا إِذا لَمْ يوفِّقَكَ اللَّهُ فِي أَداءِ حَقِّ النِّعْمَةِ ، وَحَقِّ النِّعْمَةِ فِي كُلِّ حالٍ يَكُونُ بِشُكْرِ المُنعمِ ، وَعدمِ اِلاشغالِ بِها عَمَّنْ رَزَقَكَ إِيَّاهَا .

وَنَحِبُ أَنْ نَقُومَ - أَيْضاً - أَنْ قَوْلَ اللَّهِ سُبْحانَهُ وَتَعَالَى : « وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ » يَتَسَبَّحُ عَمَلٍ مَعْنَى آخَرَ ، وَهُوَ أَنَّهُ - سُبْحانَهُ - لَا يَجِبُ أَنْ تُقَدَّرَ أَنْتَ بِرِزْقِكَ بِحِسابِ حَرَكَةِ عَمَلِكَ فَقَطْ ؛ فَحِسابُ حَرَكَةِ عَمَلِكَ قَدْ يَخطِئُ . مِثالُ ذَلِكَ الفَلاحُ الَّذِي يَزْرَعُ وَيَقْدِرُ رِزْقَهُ فِيمَا يَنْتِجُ مِنَ الأَرْضِ ، وَربَّما جِاءَتْ آفَةٌ تَذهبُ بِكُلِّ شَيْءٍ كَما نَلاحظُ وَنُشاهدُ ، وَيصِبحُ رِزْقُ الفَلاحِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ مِنْ مَكانٍ آخَرَ لَمْ يَدخُلْ فِي حِسابِهِ أَبَداً .

وَلِهذا فَإِنَّ عَمَلَ الإنسانِ أَنْ يَعمَلَ فِي الأسبابِ ، وَلَكنَّهُ لَا يَأخُذُ بِحِسابِها مِنَ الأسبابِ ، وَيَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ رِزْقُهُ ؛ لِأَنَّ الرِّزْقَ قَدْ يَأْتِي مِنْ طَرِيقٍ لَمْ يَدخُلْ فِي حِسابِكَ وَلَا فِي حِساباتِكَ ، وَقَالَ لُحَيٌّ فِي ذَلِكَ .

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ۝ وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

(مِنَ الأَنْبِياءِ ٢ ، ٣ سَورَةُ المَلائِكَةِ)



وبعد ذلك يقول لنا الحق سبحانه وتعالى في آية أخرى ما يوضح لنا ويبين قصيدة العقيدة وموكب الرسالات في الأرض ، بداية وتسللا وتناجعا في رس متعاقبين ،  
فالحق سبحانه وتعالى :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ  
وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ  
فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ  
مَا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا  
لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى  
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١٣﴾

ولفائل أن يقول : إذا كان الناس أمة واحدة ، وقد رتب الله بعث وإرسال أنبياء  
على كونهم أمة واحدة ، فمن أين إذن جاء الخلاف إلى حياة الناس ؟ ونقول : لابد  
أن نحمل هذه الآية للجملة على آية أخرى معصنة في قوله تعالى

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَبَوَّأْنَا لِكُلِّ مِشْقَاتٍ لِقَافٍ  
بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٤﴾

( سورة يونس )

لابد لنا إذن أن نأخذ هذه الآية في ظل آية سورة يونس ، فالحق سبحانه وتعالى  
ساعة يخاطب العقل لبشرى يريد أن يخاطبه سطيا يوفق فيه عقله وفكره حتى يستقبل

كلام الله بجماع تفكيره ، وأن يكون القرآن كله حاضراً في ذهنك ، ويخدم بعضه بعضاً

« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين » . فقبل بعث الله النبيين كان الناس أمة واحدة يتبعون آدم ، وقد بلغ الحق آدم المسيح بعد أن احتسب وهداه ، وعلم آدم أبناءه مسيح الله ، فظل الناس من أباؤه على إيمان بعقيدة واحدة ، ولم يشأ عندهم ما يوجب اختلاف أهوائهم ، فالعالم كان واحداً ، وكانت القلة السكانية فيه هي آدم وأولاده فقط ، وكان حبر العالم يتسع للموسحودين جميعاً . هذا لا تطاحن على شيء . ومن يريد شيئاً يأخذه ، وكانت الملكية مشاعة للجميع ، لأنه لم تكن هناك ملكية لأحد ، فمن يريد أن يبني بيتاً فله أن يبني ولو على عشرين فدماً ، ومن يريد أن يأكل فأكفه أو يأخذ ثمراً من أي بستان فله أن يأخذ ما يريد .

والمثال عن ذلك في حياتنا اليومية ، هناك رب الأسرة الذي يأتي بعشرين كيلو برتقالاً ويركها أمام أولاده ، وكل طفل يريد برتقالة أو أكثر فهو يأخذ ما يريد بلا حرج ، لكن لو اشترى رب البيت كيلو برتقالاً واحداً فكل طفل يأخذ برتقالة واحدة فقط .

إذن كان الناس أمة واحدة ، أي لم توجد الأصابع ، ولم يوجد حب الاستئثار بالمتاع مما يجعلهم يتنافسون . إذن فأساس الاختلاف هو الطمع في متاع الدنيا ، ومن هنا ينشأ طوي

وكان من المفروض في آدم عليه السلام بعد أن بلغه الله المسيح أن يعلمه لأولاده ، وأن يفضل أبنائه المسيح ، ولكن بعض أولاده تمرد على المسيح ، ونشأ حب الاستئثار من صيق استئثار والمتسع به ، ومن هنا نشأت الخلافات . ولنا في قصة هابيل وقابيل ما يوضح ذلك :

﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ مَاءً سَائِغًا فَادَمَ بِالْحَرْثِ إِذْ قَرَرَ قُرْنَا نَأْتِيهِمْ مِنْ أُخْدِهِمْ وَآوَلُ يَتَقَبَّلُ مِنَ الْآخِرِ قَالَ لَا قُنُوتُكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

( سورة النمل )

وتعرف أن آدم وحواء هما أصل الوجود ، حواء تلك توأمين في كل مرة ، ولزاد آدم أن يزوجهم فكيف تكون المزاوجة معهم جميعاً أبناءً وأبناءً عَصْر واحد ؟ وكل منهم يعرف أن الذي أمامه هو أخوه .

لقد واجه الشرع تلك المشكلة في ذلك الوقت ، واعتبر أن البعد هو بعد البطن ، أي أن الذي يولد مع أخيه في بطن واحد فهو أخوه ، أما الذي ولد بعده أو قبله فكانه ليس أخواً ، لذلك كان آدم وحواء يسادلان زواج الأبناء حسب اعتقاد الطوط ، وكان الفرص من هذا التباعد أن تكون المرأة وكلها أجنبية عن أخيها .

روى عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما : « أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى ، لأخر ، وأن هابيل أراد أن يتزوج أحب قبايل وكان أكبر من هابيل وأخت قابيل أحسن فلزاد قابيل أن يستأثر بها على أخيه ، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه لهاها فأبى ، فأمرهما أن يقربا قرباناً فقرب هابيل جذعة سبينة وكان صاحب ضم ، وقرب قابيل حرمة من روح من رضى ، ورضه منزلت ناراً فأكلت قربان هابيل ، وترك قربان هابيل ، فغضب وقال : لا تقتلك حتى لا تنكح أختي ، فقال : « إيها يتقبن الله من المتقين »

إذى ، كان ميلاد أول خلاف بين البشر حينما تنافس الثمان للاستئثار بمنفعة ما ، وكان هذا مثلاً واضحاً ما يمكن أن يحدث عندما تضيق المنافع عن الأطماع .

« كان الثمان أمة واحدة » لكنهم اختلفوا لحظة الاستئثار بالمنافع ، وأصبح لكل إنسان هوى . ولما شاء الله أن يجعل منهجه لأدم منهجاً دائماً إلى أن تقوم الساعة لبعض . لكنه سبحانه برحمته يعلم أنه خلقنا ، ويعلم أن يعقل مرة وسهو مرة ، ونلتزم مرة ونهمل مرة أخرى ، فشاء الله أن يواصل خلقه مواكب الرسل . ولذلك يأتي قوله الحق : « بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » . ومهمة « التبشير والإنذار » هي أن يتذكر الناس أن هناك جنة ونارا ، ولذلك يبشر كل رسول من آمن من قومه بالجنة ، وينذر من كفر من هؤلاء القوم بالنار . وبدكروا الحق سبحانه بأنه أشهدنا على أنفسنا على وحدانيته فقال :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأُتْبِعَهُمْ عَنِّي أَنْفُسَهُمْ أَلَمْ تَسْأَلْ رَبَّكَ قَالُوا بَيْنَ شَهِدَيْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَيْنِهِمْ أَفَتُهِنَّا بِمَعْمَلِ الْمُسْطَفِينَ ﴿١٧٣﴾﴾

(سورة الاحزاب)

يُغَيِّرُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ اسْتَحْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ رَزَقَهُمْ وَمَلِكُهُمْ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كَمَا أَنَّهُ فَطَرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ بَعَثَ أَنْ أُخْرِجَهُمْ إِلَى الوجودِ مِنْ آدَمَ حواءَ لِلحَقِّقِ الْأَوَّلِ وَهُوَ آدَمُ وَأَعْطَاهُ الْمَنَاحَ وَكَانَتِ الْأَهْوَاءُ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ ، فَطُلِيَ الْمَنَاحُ مَطْبِقًا بَيْنَ بَنِي آدَمَ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ تَعَدَّدَتِ الْأَهْوَاءُ ، وَتَعَدَّدَ لِأَهْوَاءِ إِمَّا يَشْتَأُ عَنْ لاسْتِثْنَاءِ بِالْمَنَاحِ ، وَدَلَّكَ بِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنْ اسْتِثْنَاءِ الْغَيْرِ ، فَغَشَا حُبَّ الدَّاتِ ، وَلَمَّا كَانَتِ الْمَنَاحُ لَا تَنَسَحُ لِأَطْلَاعِ النَّاسِ فَضَدَّ اسْتِثْنَاءُ حُبِّ الْاسْتِثْنَاءِ وَالتَّمَلُّكِ .

وَيَجِدُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ زَائِحَةً حِينَ تَتَوَافَرُ أَسْلَحُ وَتُغْشَى الْأَسْوَاقُ وَتُسْتَعْلَقُ أَنْ تُشْتَرَى أَيْ سَعَةً فِي أَيْ وَقْتٍ تَحْتَ ، وَتُعْجِزُهَا مُتَوَافِرَةٌ ، عِنْدَ ذَلِكَ لَا تَوْجِدُ أَرْمَةً ، لَكِنْ الْأَرْمَةُ تَنْشَأُ عِنْدَمَا تَقْلُ الْكَمِّيَّاتِ الْمَعْرُوضَةِ مِنَ السِّلْعِ عَنْ حَاجَةِ النَّاسِ ، فَيَتَكَالَبُ النَّاسُ عَلَى الْاسْتِثْنَاءِ بِهَا وَهَكَذَا يَعْرِفُ أَنَّ الْمُدَاقِعَ عِنْدَمَا تَوْجِدُ ، وَتَكُونُ دُونَ الْأَصْلَاحِ هَا تَتَوَلَّدُ الْمَشْكَالَاتُ

وَمِنْ رَحْمَةِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْخَلْقِ ، وَمِنْ قَلَمِ عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ يَضَعُفُ الْبَشَرِ أَمَامَ أَهْوَائِهِمْ وَأَمَامَ اسْتِثْنَائِهِمْ بِالْمَنَاحِ ، أَرْسَلَ الرُّسُلَ إِلَى الْبَشَرِ لِيُبَشِّرُوا وَلِيُنْذِرُوا وَأَيُّرِلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْخَوِ لِيُحْكَمَ بَيْنَ إِنْسَانٍ فِيمَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اِخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ، فَكَأَنَّ الْحَقَّ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَرْكَبَ الْبَشَرُ لِيُخْتَلَفُوا ، وَإِنَّمَا الْعَمَلَةُ مِنَ النَّاسِ هِيَ الَّتِي أَوْجَدَتْ هَذَا الْاِخْتِلَافَ . « مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بِمَا فِيهِمْ » وَمِنْ هَذَا الْقَوْلِ الْحَكِيمِ يَعْرِفُ أَنَّ الْاِخْتِلَافَ لَا يَشَأُ إِلَّا مِنْ إِرَادَةِ الْعَمَى ، وَالْبَعَى هُوَ أَنْ يُرِيدَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَأْخُذَ غَيْرَ حَقِّهِ . وَمَعَادِمُ كُلِّ

منا يريد أن يأخذ غير حقه فلا بد أن يشأ البعض .

« فهدى الله الذين آمنوا لما احتسبوا فيه من الحق بإفته » أى أن الله يهدى الذين آمنوا من كل قوم بالرسول الذى جاء مبشرا ومهدرا وحاملا صريح الحق ليحكم بين الناس فيما احتسبوا فيه . وبذلك يظل المنهج سائداً إلى أن تنصى فترة طويلة تعمل فيها النفوس ، وتبدأ من خلالها المطامع ويحدث الشياك لمنهج الله ، وتنشأ الأهواء ، فيرسل الله ليرسل ليعيدوا الناس إلى المنهج القويم ، ويستمر هذا الأمر حتى جاءت رسالة الإسلام حاتمة وبعث الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم للناس كافة . وبذلك ضمن لنا الحق سبحانه وتعالى ألا يشأ خلاف فى الأصل ؛ لأننا لو كنا سختلف فى أصل العقيدة لجرى علينا ما جرى على الأمم السابقة . هم احتسبوا فأرسل الله لهم رسلا مبشرين ومندرين ، لكن أهه محمد صلى الله عليه وسلم أراد الحق ما منهجا واصحها جميعا من الاختلاف فى أصل العقيدة . وإن اختلف الناس من أمه محمد صلى الله عليه وسلم فعليهم أن يسترشدوا بالمنهج الحق المشتمل فى القرآن والسنة

ويعرف أن من مميزات صلى الله عليه وسلم أنه خاتم الأنبياء بحق ، ولن نجد فى الموكب الرسمى رسولا أركل له الله أن يشئ حكما جديدا لم يزل فى كتاب الله إلا مبيداً محمداً صلى الله عليه وسلم . لقد أعطى الله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم التوفيق فى أن يشرع عن الله ، فى ظل عصمة الله له فقد قال سبحانه

﴿ وَمَا تَشْكُرُ الرُّسُولَ فَنُذِرُهُ وَمَا تَنْكُرُهُ فَآتَتْهُ ﴾

( من الآية ٧ سورة الحشر )

به أمر واصبح للمؤمنين بأن ياتمروا بأمر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، لأن ما يأمرهم به فيه الصلاح والخير ، وأن يسيئوا عما ينهاهم عنه ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم إنما ينهى عن الأمور التى ليس فيها خير لأمة المسلمين . ويأمر الحق جل وعلا جماعة المسلمين بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنها من طاعة الله ، فيقول جل وعلا

﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴾

( سورة النساء )

وهكذا ترى أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من طاعة الله ، ومن يعرض من طاعته فله العقاب في الآخرة . ويؤكد الحق سبحانه على طاعته وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول .

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾

( سورة آل عمران )

هكذا نعرف أن طاعة الرحمن تستوجب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم . إذن فقد فوض الله رسوله أن يُشرع للبشر . وهو - عليه الصلاة والسلام - ما يطلق عن الهوى .

وميزة أخرى لامة المسلمين هي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك لنا حق الاجتهاد في المسائل التي لم يأت فيها نص من القرآن ولا من السنة أو ورد فيها نص ولكنه يحتمل أكثر من معنى ، ومعنى ذلك أن الحق سبحانه قد آمن أمة محمد عليه الصلاة والسلام بأن تصل بالاجتهاد لما يحسم أى خلاف ، وأن أى اختلاف لن يصل إلى الجوهر . فلو علم الله ألا أننا سوف نختلف اختلافاً في صحيح العقيدة لكان قد أرسل لنا رسلاً

ونحن نجد كل الاختلافات بين طوائف المسلمين لا تخرج عن إطار فهم معصوص القرآن أو أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل مسلم يريد أن يسعى دليبه من الكتاب والسنة .

ومعنى ذلك أننا لم نترك الأصل ، ولكن كل ما يريد أن يأخذ الحكم الصحيح بل إننا نجد أن بعضاً من المسلمين الذين لم يجدوا دليلهم من القرآن والسنة قد حاولوا أن يضعوا حديثاً ينسبونه إلى رسول الله ليسوا عليه الحكم الذي يريدونه

وهؤلاء مأواهم النار ؛ لأنهم نهقوا بلسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقله الرسول الكريم لقد كذبوا عليه ، ومن كذب عليه متعمداً فلينبأ مفعله من النار .

إذن فكُلنا متى حول القرآن والسنة النبوية ، أين المشكلة إذن ؟ المشكلة هي أن يكون الناس أذكاء وعلى علم حتى يعرفوا هل المأخوذ من القرآن مقبول أو غير مقبول ؟ وهل الأحاديث المستند إليها بمقاييس الجرح والتعديل موجود أو لا ؟

إذن فحصول الاجتهاد والرأي عند أمة محمد صلى الله عليه وسلم جعلتهم مأمورين على كل شيء في المنهج وأن الخلاف فيما بينهم لم يصل إلى ما وصفت به لاسم اسابقة ، ولكن عليهم أن يتبها ويرتقوا حتى يميزوا الأمور التي تكون من غير معطيات القرآن ، ثم يريد قوم أن يحملوها على القرآن .

إن عليهم ألا يفسروا القرآن حسب أموائهم بل حسب ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم - حتى يكون مواهم تما لما جاء به - وحلينا أن نتبه إلى أن الله قد أمّن أمة محمد صلى الله عليه وسلم على القرآن وعلى رسالة الإسلام ، والقرآن ورسالة الإسلام لن يصيبها التعمير أو التحريف ، وكل ما هو مطلوب أن يكون المؤمنون أهل دقة وفطنة ، فإذا أراد إنسان أن يستغل أية سلطة زمنية أو أن يحج بحديث موضوع لبروج لباطله فعل المسلمين أن يكشفوا سوء مقصد هذا الإنسان

فنحن نفهم أن الله شاء بالإسلام حياة القيم ، كما شاء بالماء حياة الملائكة ، ولله حتى يظل ماء فلا بد أن يظل بلا طعم ولا لون ولا رائحة ، فإذا أردت أن تجعل له طعماً خرج من خاصيت ؛ ربما أصبح مشروباً أو عصيراً أو غير ذلك ، وقد يحب بعض الناس نوعاً من العصير ، لكن كل الناس يحبون الماء ؛ لأن به تَصِل الحياة ، فإذا رأيت ديناً قد تلون بجماعة أو بيئة أو بشكل فاعلم أن ذلك خارج عن مطلق الإسلام . وكل جماعة تريد أن تصبغ دين الله بلون إنما يخرجوه عن طبيعته الأصلية ، ولذلك نجد أمتنا في مصر قد صانت علوم الإسلام بالأهر الشريف وكل عالم من علماء الإسلام في أي بقعة من بفاق الأرض مدين للأهر الشريف . وسجد أنا بحب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن لا نجد عندنا منشيئاً واحداً ،

وفي الولت نفسه لا نجد واحداً يكره أبا بكر وعمر ، وهذا هو الإسلام الذي لا يتلون ، لأنه إسلام المطرة

﴿ صَبَّحَهُ اللَّهُ وَمَنْ لِحَسَنِ مِنَ اللَّهِ صَبَّحَهُ ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة البقرة)

فالدِّينَ يحاولون في أي زمان من الأزمنة أن يصيغوا الدين بشكل لو يطفوس أو بلون لو يرسوم أو هيئة خاصة نقول لهم : أنتم تريدون أن تخرجوا الإسلام عن عموميته المطرية التي أرادها الله له ، ولابد أن تفقوا عند حد المطرة الإسلامية ، ولا تلنوا الإسلام هذا التلون . وبذلك نحقق قول الله . « فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه » والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . ونعرف أن الهداية معناها الأمر الموصل للغاية ، ونحن نرد الهداية من الله سبحانه وتعالى فعلينا أن نفهم أن الهداية من الله ترد على معين : المعنى الأول هو الدلالة على الطريق الموصل ، والمعنى الثاني هو المعونة .

وصرت من قبل المثل بشرطى المرور الذي يدل على الطريق الموصل إلى الغاية التي تريدها ، فإن احترمت كلامه وتفدته فهو يعطى لك شيئاً من المعونة ، بأن يسير معك أو يوصلك إلى المكان الذي تريد . فما بالناس بالحق سبحانه وتعالى وله المثل الأعلى ؟ إنه يهدي الجميع بمعنى يهبطهم ، فالدين آمن به وأجروا يهديهم هداية أخرى ، وهي أن يعينهم على ما أقاموا نفوسهم فيه . وبعضنا يدخله العجب عندما يسمع قول الحق :

﴿ وَأَمَّا تِلْكَ الْأَمْثَلُ نَهَلَتْهُمْ فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى تَأَخَّتَهُمْ صَبَّحَهُ الْعَلَابِ

الْمُؤْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَحْنُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة صافات)

بعضنا يتعجب متسائلاً كيف يقول سبحانه : إنه هداهم ، ثم استحبوا العمى على الهدى ؟ ونقول : إن « هداهم » جاءت ها بمعنى « هلك » ، لكنهم استحبوا



العمى على الهدى ، أما الذين استجابوا لهداية الدلالة وأعلنوا فقد أحاسهم الله وأنجاهم ، لأهم عرفوا نقراء سبحانه

ونحن سمع بعض الناس يقولون : مادام الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم فما دنت الهدى لم يهتد ؟ نقول : إن الحق يهدي من شاء إلى صراط مستقيم ، أى يبين الطريق إلى الهداية ، فمن يأخذ هداية الدلالة يردّه الله بهداية المعونة ويسر له ذلك الأمر . ونحن نعلم أن الله تسمى الهداية عن رسوله صلى الله عليه وسلم في آية ، وأثبتها له في آية أخرى برغم أنه فعل واحد لماعل واحد . قال الحق بأفيا الهداية عن الرسول صلى الله عليه وسلم

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾

( من الآية ٥٦ سورة القصص )

والحق يذكر للرسول صلى الله عليه وسلم الهداية في موضع آخر فيقول له :

﴿ وَإِنَّكَ لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

( من الآية ٥٢ سورة الشورى )

ومن هنا نفهم أن الهداية نوعان : هداية الدلالة ، فهو « يهدي » أى يدل الناس على طريق الخير . وهناك هداية أخرى معنوية ، وهى من الله ولا دخل للرسول صلى الله عليه وسلم فيها ، وهى هداية المعونة .

إذن قوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » معناها : أملكك تذل على الصراط المستقيم ، ولكن الله هو الذى يعين على هذه الهداية . « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » فعليه أن نستحضر الآيات التى شاء الله أن يهدي فيها مؤمنا والأيدي آخر . ويقول الحق : سبحانه . :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

( من الآية ٢٦٤ سورة البقرة )

معنى ذلك أن الله لا يهدي إلا الذين آمنوا به . وهدايته للمؤمنين تكون بمعونتهم على الاستمرار في الهداية ، فالحق قد جاءته هداية الدلالة ولكن الحق يختص المؤمنين هداية المعونة . والحق يقول في ذلك

﴿ أَقْمِمْ أَفْسَسَ مَيْتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ لِّمَنْ أَسْسَ بِمَيْتِهِ عَلَىٰ شِعَارِهِ هَارٍ فَتَهَارَيْهِ فِي يَارِ جَهَنَّمَ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥٠ ﴾

(سورة التوبة)

إن الحق يوضح لنا المقارنة بين الذي يؤسس ببيان حياته على تقوى من الله استغناء الخير والجنة ، وهو الذي جاءته هداية الدلالة باتساعها ، فجاءته هداية المعونة من الله . وبين ذلك الذي يؤسس ببيان حياته على حرف واد متصدع آيل للسقوط بسقط به لبيان في نار جهنم ، إنه الذي جاءته هداية الدلالة فتجاهلها ، فلم تصله هداية المعونة . ذلك هو الظالم المناقض الذي يريد السوء بالمؤمنين . والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٥١ ﴾

(سورة التوبة)

إن الحق يبلغ رسوله أنه مهما استغفر للمنافقين الذين يطهرون الإسلام ، ويطلبون الكفر على يعمد الله لهم ، لماذا ؟ لأن هداية الدلالة قد جاءتهم فادعوا أنهم مؤمنون بها ، ولم تصلهم هداية المعونة ؛ لأنهم يكفرون بالله ورسوله ، والله لا يهدي مثل هؤلاء القوم الفاسقين الخارجين بقلوبهم عن منهج الله . وبعد ذلك يقول الحق .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ

الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ  
وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَوْتٌ  
نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٩١﴾

أى أظننتم أنكم تدخلون الجنة بدون ابتلاءات تحدث لكم ؟ إن الحق سبحانه ينفي هذا الظن ويقول : ليس الأمر كذلك ، بل لابد من تحمل تبعات الإيمان ، ولو كان الإيمان بالقول لكان الأمر سهلاً ، لكن الذى يَصْعُبُ الإيمان هو العمل ، أى هل العس عن منبج الإيمان . لقد استكبر بعض من الذين علموا بمحمداً صلى الله عليه وسلم أن يقولوا : « لا إله إلا الله » لأنهم فهموا مطلوبها ، لأن الأمر لو اقتصر على مجرد كلمة تقال بلا رصيد من عمل يؤيدها ، لكان أسهل عليهم أن يقولوها ، لكنهم كانوا لا يقولون إلا الكلمة بحقها ، ولذلك أيقنوا تمام أنهم لو قالوا : « لا إله إلا الله » لانتهت كل معتقداتهم السابقة ، لكنهم لم يقولوها ، لأنهم أبوا وامتنعوا عن القيام بحقها وأداء مطلوبها .

إن الحق يقول : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء » فإى العلاقة بين هذه الآية وما سبق من الآيات ؟ لقد كان الحديث عن نبي إسرائيل الذين حو أنهم يدخولون الجنة بدون أن يشلوا ، وصارت لهم أهواء يحرفون بها المنهج . أما أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فعليهم أن يستمدوا للابتلاء ، وأن يعرفوا كيف يتحملون الصعاب .

ونحن نعرف فى النحو أن هناك أدوات نفي وحزم . ومن أدوات النفي « لم » و « ما » ، فعندما نقول : « لم يحضر زيد » فهذا حديث فى الماضى ، ومن الجائز أن يحضر الآن . ولكن إذا قلت : « لا يحضر زيد » فالنفي مستمر حتى الآن ، أى أنه لم يأت حتى ساعة الكلام لكن حضوره وحيث متوقع . ولذلك يقول الحق :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْبَبْنَا وَسَّاءَ مَا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة النازعات)

وعندما سمع الأعراب ذلك قالوا بحمد الله ، فإزال هناك من أن تؤمن لقد أراد الله أن يكون الأعراب صادقين مع أنفسهم ، وقد برئت هذه الآية كما يقول بعض المفسرين في قوم من بني أسد ، جاءوا إلى المدينة في سنة جدب ، وأعلنوا لشهاده لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وكانوا يطلبون الصدقة ، ويحاولون أن يمنوا على الرسول صلى الله عليه وسلم بأنهم لم يقتلوه كما فعل غيرهم ، فجاءت هذه الآية لترشح أن الإيمان درجة أرفع من إظهار الإسلام لكن ذلك لا يعني أنهم سافهون ، ولذلك يوضح القرآن الكريم أن إظهار الإسلام لا يعني الإيمان ، لأن الإيمان عملية قلبية

لقد أعلنوا الخضوع لله ، وأرادوا أن يقوموا بأعمال المسلمين نفسها لكن ليس هذا هو كل الإيمان وهم قالوا « أمّا » فقال الحق لهم : لا لم تؤمنوا وكونوا صادقين مع أنفسكم بالإيمان عملية قلبية ، ولا يقال إنك أمت ، لأنها مسألة في قلبك ، ولكن قل أسلمت ، أي خضعت وفعلت مثلاً ببعض المؤمنين ، فمن فعلت ذلك عن إيمان أو غير إيمان ، إن ذلك موضوع آخر .

هنا تقول الآية : « أم حسبكم أن تدخلوا الجنة وما بأنكم مثل الذين حلوا من قبلكم » أي لا يمكن أن تدخلوا الجنة إلا إذا جاءكم من الانتلاء مثل من سبقكم من الأمم ولا بد أن تعلموا وأن تمحصوا بأسماء وصراء ، ومن يشت بعد ذلك فهو يستحق أن يدخل الجنة ، فلا تظنوا أنكم أمة متميزة عن غيركم في أمر الاختيار ، فأنتم لن تدخلوا الجنة بلا انتلاء ، بل على العكس سيكون لكم الانتلاء على قدر السجاء .

أنتم ستأخذون مكانة عالية في الأمم ولذلك لا بد أن يكون ابتلاؤكم على قدر مكانتكم ، فإن كنتم ذوي مكانة عالية وستحملون الرسالة الخاتمة وتناصحون في

الدنيا فلا بد أن يكون ابتلاؤكم على قدر عظمة مسئوليتكم ومهمتكم .

« ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا » إن قول الله: « ولما » يعيد بأن ما حدث لذين من قبلكم من ابتلاء عليهم سيقع على المؤمنين مثله

وعندما نتأمل قوله الحق . « وزلزلوا » فاست نكتشف خاصية فريدة في اللغة العربية . هذه الخاصية هي تعبير الصوت عن واقعية الحركة ، فكلمة « زلزلوا » أصلها زلزلة ، وهذه الكلمة لها مقطعان هما « زل ، زل » . و « زل » أي سقط عن مكانه ، أو وقع من مكانه ، والثانية لها المعنى نفسه أيضاً ، أي وقع من مكانه ، فالكلمة تعطينا معنى الوقوع المتكرر . وقوع أول ، ووقوع ثانٍ ، والوقوع الثاني ليس امتداداً للوقوع الأول ؛ ولكنه في اتجاه معاكس ، فلو كانت في اتجاه واحد لحادت رتبه ، إن الرلة الثانية تأتي عكس الرلة الأولى في الاتجاه ، فكأنها سقطت جهة ايسر مرة ، وجهة الشمال مرة أخرى

ومثل ذلك « الخلللة » أي حركة في اتجاهين معاكسين « خلل » الأولى جهة اليمين ، و « خلل » الثانية جهة اليسار ، وهذا تستمر الخلللة

وهكذا « الزلزلة » تحمل داخلها تعبير الاتجاه الذي يسمى في الحركة بالقصور الدائى . والمثال على ذلك هو ما يحدث للإنسان عندما يكون راكباً سيارة ، وبعد ذلك يأتى قائد السيارة فيحوقها بالكناح « العرامل » بقوة ، عندئذ يدفع الراكب للأمام مرة ، ثم للخلف مرة أخرى ، وربما تكسر رجاج السيارة الأمامى حسب قوة الاندفاع ؛ ما الذى تسبب في هذا الاندفاع ؟ إن السبب هو أن جسم الراكب كان مهياً لأن يسير للأمام ، والسائق أوقف السيارة والراكب لا زال مهياً للسير للأمام ، فهو يرتج ، وقد يصطدم بأجزاء السيارة الداخلية عند وقوفها فجأة . وعملية « الزلزلة » مثل ذلك تماماً ، فحينها يصاب الشيء بالارتجاج للأمام والخلف ، أو لليمين واليسار ، وى أى جهتين متعاكستين .

« وزلزلوا » يعنى أصابهم الفاجعة الكبرى ، الملهية ، المنكورة ، وهى لا تتكرر

على خط واحد ، إنما يتصل تكرارها ، فمرة يأخذها الإيمان ، ثم تأخذها المصائب والأحداث ، وتتكرر المسألة حتى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه : « متى نصر الله » ؟

ويأتى بعده القول : « ألا إن نصر الله قريب » فهل يتساءلون أولاً ، ثم يشيرون إلى رشدهم ويردون على أنفسهم « ألا إن نصر الله قريب » أم أن ذلك إيضاح بأن المسألة تتأرجح بين « متى نصر الله » وبين « ألا إن نصر الله قريب » ؟

لقد بلغ الموقف في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاختيار والابتلاء إلى القمة ، ومع ذلك واصل الرسول صلى الله عليه وسلم والذين معه الاستمسك بالإيمان . لقد عنتهم البأساء وأنصرام وزرلوا ، أي أصابهم رجفة عبيدة هزتهم ، حتى وصل الأمر من أثر هذه الهزة أن يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب .

إن مجيء الأسلوب بهذا الشكل « متى نصر الله » يعنى استبطاء مجيء النصر أولاً ، ثم التبشير من بعد ذلك في قوله الحق « ألا إن نصر الله قريب » ولم يكن ذلك للشك والارتياب فيه . وهذا الاستبطاء ، ثم التبشير كان من ضمن الرلولة الكبيرة ، فقد اختلطت الإنكار : أباس يقولون : « متى نصر الله » فلما بصوت آخر من المعركة يرد عليهم قائلاً : « ألا إن نصر الله قريب » .

وسباق الآية يقتضى أن الذين قالوا : « متى نصر الله » هم الصعبة ، وأن الذى قال « ألا إن نصر الله قريب » هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم يتقل الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك إلى قصيدة أخرى ، هذه لقضية شاعت في هذه الصورة وهى ظاهرة سؤال المؤمنين عن الأشياء ، وهى ظاهرة إيمانية صحيحة ، وكاد فى استطاعة المؤمنين ألا يسألوا عن أشياء لم يأت فيها تكليف إيماني خوفاً من أن يكون فى الإجابة عنها تشييد للحركة ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤلهم واختلافهم على

أنبيائهم ، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهىكم عن شيء فدعوه (١)

ورغم ذلك كانوا يسألون عن أدق تفاصيل الحياة ، وكسب هذه الظاهرة تؤكد أنهم عشفوا التكليف من الله ؛ فهم يريدون أن ييسر كل تصرفاتهم بناءً إسلامياً ، ويريدون أن يسألوا عن حكم الإسلام في كل عمل ليعملوا على أساسه يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ قَلِيلًا وَلَا دِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢٥)

والسؤال ورد من عمرو بن الحمزح ، وكان شيخاً كبيراً فقال يا رسول الله ، إن مالي كثير فمأدا أتصدق ، وعلى من أضع ؟ ولم يكن يسأل نفسه فقط ، بل كان يترجم عن مشاعر غيره أيضاً ، ولذلك جاءت الآية عامة لا تخص السائل وحده ولكنها تشمل كل المؤمنين

والسؤال عن «ماذا ينفقون» فكان الشيء المنفق هو الذي يسألون عنه ، والإنفاق - كما تعرف - يتطلب فعلاً هو الميعق ، والشيء المنفق - هو المال - ؛ ومنعفاً عليه . وهم قد سألوا عن ماذا ينفقون ، فكان أمر الإنفاق أمر تسلم به ، لكنهم يريدون أن يعرفوا ماذا ينفقون ؟ فيأتى السؤال على هذا الوجه ويحيط الجواب حاملاً الإجابة عن ذلك الوجه وعن مر رائد

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم والنسائي وابن ماجه والإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة

يقول الحق : « يسألونك ماذا ينفقون » هذا هو السؤال ، والجواب « قل ما أنفقتم من خير قبلوا الدين » . إن الظاهر السطحي يظن أن السؤال هو فقط عن ماذا ينفقون ؟ وأن الجواب جاء عن المنفق عليه . نقول : لا ، لما ذكرنا من قول الحق : إن الإنفاق يجب أن يكون من « خير » ، فاللهم المنفق منه لا بد أن يتصف بأنه جاء من مصدر خير .

وبعد ذلك راد وبين أنه ما دمتم تعتقدون أن الإنفاق واجب ، فعليكم أن تعلموا ما هو الشيء الذي تنفقونه ، ومن الذي يستحق أن يُنفقَ عليه . « قل ما أنفقتم من خير » . والخير هو الشيء الحسن النافع . والمنفق عليه هو دوائر الذي يُنفقُ لأن الله يريد أن يُحمل المؤمن دوائره الخاصة ، حتى تلحم الدوائر مع بعضها فيكون قد حمل المجتمع على كل المجتمع ، لأنه سبحانه حين يُحملي أسرته ووالديه والأقربين ، فهذه صيانة للأهل ، وكل واحد منا له والدان وأقربون ، وبإثرتي أنا تشمل والدي وأقاربي ، ثم تشيع في أمر آخر ، في اليتامى والمساكين

وهنا كل واحد واحسب دوائره من الوالدين والأقربين وما يكون حوله من اليتامى والمساكين ، فسجد ادوائر اهتمامك قد شملت كل المحتاجين ، ويكون المجتمع قد حمل بعضه بعضاً ، ولا يوجد بعد ذلك إلا العاجز عن العمل . وعرفنا أن السائل هو « عمرو بن الجموح » ، وكانت له قصة عجيبة ، كان أعرج ، والأعرج معذور من الله في الجهاد ، فليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج .

وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخرج في غزوة ، فجاءه عمرو بن الجموح وقال يا رسول الله لا تحرمني من الجهاد فلن أبتأى يعزمتني من الخروج لعرجتي . قال له النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله قد عذرك فيمن عذر . قال ولكني يا رسول الله أحب أن أقاتل بعرجتي الجنة .

هذا هو مَنْ سأل عن ماذا ينفقون ، فجاءت الإجابة من الحق : « قل ما أنفقتم من خير » أي ما أخرجتم من مال ، لأن الإنفاق يعني الإخراج . والخير هنا هو



المال ، والإنفاق يقتضى إخراج المال عن ملكية الإنسان ببيع أو هبة أو صدقة ، وأصل كلمة « الإنفاق » مأخوذة من « نفقت السوق » أى راجت ؛ لأن السوق تقوم على البضاعة ، وحينئذ تأن إلى السوق ولا تجد سلماً لذلك بمعنى أن السوق رائجة ، ولكن عندما تجد البضائع مكسدة بالسوق لذلك يعنى أن السوق لازالت قائمة

إذن معنى « نفقت أسواق » أى ذهبت كل البضائع كما تذهب الحياة من الدابة . فمتى تقول : نفقت الدابة ، أى ماتت . وأوجه الإنفاق بينها - سبحانه - قوله : « فللوالدين ، والأقربين واليأسى والمساكين وابن السبيل » . فهل كل يتيم محتاج ؟ ربما يكون اليتيم قد ورث المال لكن علينا أن نفهم أن المسألة ليست هى سد حاجة محتاج فقط ، ولكنها الوقوف بجانب ضعيف فى أى زاوية من روايا الصعب ؛ لأن السطع عندما يكون يتيماً ولديه مال ، ثم يراك تعطف عليه فهو يشعر أن أباه لم يموت ؛ لأن أبوته باقية فى إخوانه المؤمنين ، وبعد ذلك لا يشب على الحسد لأولاد آبائهم موجودون ، لكن حين يرى اليتيم كل أب مشغولاً بأبنائه عن أيتام مات أبوه ، هت يظهر فيه الحقد ، وتترى فيه عريضة الاعتراض على القدر ، يقول « دى أكور أب الذى مات والذى ؟ » ، ولكن حين يرى الناس جميعاً أيتام ، ويصلونه بالبسمة وأبوة والرحاب والمودة فلسوف يشعر أن من له أب واحد يتركه اليأس اعتياداً على وجود أبيه ، لكن حينما يموت أبوه فإن الناس تلتفت إليه بالمودة والمحبة ، ويترب عن ذلك أن تشيع المحبة فى المجتمع الإسلامى والألفة والرضا بقدر الله ، ولا يعترض أحد على وفاة أبيه ، فإن كان القدر قد أخذ أباه فقد ترك له أباه متعددين .

ولو علم الدين يرفضون المودة والعطف على اليتيم لأن والده ترك له ما يكميه ، لو علموا ما يترتب على هذا التعطف من نفع معنوى لتنافسوا على التعاطف معه ؛ فليست المسألة مسألة حاجة مادية ، وإنما هى حاجة معنوية

وأنا أقول دائماً : يجب أن نرى فى الشاة أن الله لا يأخذ أحداً من خلفه وفى الأرض حاجة إليه ؛ وارهبوا هذا الأمر ليس حولكم تجدوا واحداً وقد تولى ونزل أولاداً صغاراً يحزنون أهله ومعارفه ؛ لأنه ترك أولاده صغاراً ، ويسود الأمر من بعد ذلك ، وتغر فترة من الزمن ويصاحب الناس بأن أولاد ذلك الرجل قد صاروا سادة

الحى ، وكان والدهم كان يحسب على رزقهم ، فحينما انتهى الأب فتح الله عن الأبنة  
صنابير الرزق ، وذلك حتى لا يفتن إنسان فى سبب .

وبعد الإغراق على ليلتى نجد الإغراق يكون عن المساكين وابن السبيل ، وقد  
عرفنا أن المسكين هو المحتاج وابن السبيل هو المنقطع عن أهله وماله ويحتم الحزن  
هذه الآية بقوله : « وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » . إن الله يريد أن يرد الطمع  
البشرى إلى قضية هى : إياك أن تطلب جراً الخير الذى تفعله مع هؤلاء من أحد  
من الخلق ، ولكن اطلبه من الله ، وإياك أن تحاول أن يعلم الناس عنك أنك مُنفق  
على الأغارب واليتامى وابن السبيل ، لأن الذين يريدون أن يعلموا لا يقدرُونَ لك  
على جراً ، وعلمهم لئ يزيلك شيئاً ، وحسبك أن يعلم الله الذى أعطاك ، والذى  
أعطيت مما استحللتك فيه ابتغاء مرضاته . فحين ينفق الناس لمرصاة الناس ، ينفون  
من بعد تلك الكرامة والحمود فيكون من أعطى قد خسر ما أوفى ، ويستغنى الشر  
عن أبعده عليهم .

ولو أن الإنسان المسلم قصد بالإغراق وعمل الخير مرصاة الخلق الأعلى عز وجل  
لاستبقى ما أنفق من حسنة وثواب ليوم القيامة ، ولتسخر الله له قلوب من تصدق  
عليهم بالمحبة والوفاء بالمعروف ، وهذه عدالة من الله تتجلى فى أنه يفضل مع المرائين  
ذلك ؛ لأنهم يحطون وفى بهم أنهم أعطوا له ، ولو أعطوا الله لما أنكره إلا جليل  
العتاء . أنت أعطيت لمرضاته هو ، فكان الله يقول بك : سأتركك له ليجازيك  
ولهذا كان المتصدق فى السر من السبحة الذين يظلمهم الله فى خلقه يوم لا ظل إلا ظله  
لنهم :

« .. ورجل تصدق بصدقة فأحفاها حتى لا تعلم شأله ما تنفق بيمينه » (١) وهذا  
هو الأفضل فى صدقة التطوع ، وأما الركة الواجبة لإعلانها أفضل ، وكذلك الحال  
بالسبحة للصلاة فالعريضة تكون إعلانها أفضل ، والساقطة يكون إسراها أفضل .

لكن لو عملت وى بذلك الله مستجد أثر العطاء فى وفاء من أحد . فليأكم أن

تحاولوا ولوم طرف حتى أن يعلم الناس أنكم تفعلون الخير . وبعد ذلك يرجع الحق إلى نفسه سبق أن عالجها في قوله تعالى : « ولا يقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه » يرجع الحق إلى القتال فيتكلم عن المبدأ العام في القتال فيقول .

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٢﴾

إن كراهية القتال هي قضية قطعية يقولها الذي حلق الإنسان فهو سبحانه لا يدالج الأمر علاجاً سوفسطائياً ، معنى أن يقول . ومادا في القتال ؟ لا ، إن الخائف يقول . أعلم أن القتال مكروه . وحتى إذا ما أصابك فيه ما تكره فأت قد علمت أن الذي شرعه يُقدر ذلك ولوم بقل الحق إن القتال كره . بهم الناس أن الله يصورهم الأمر العسير يسيراً .

إن الله عز وجل يقول للذين آمنوا اعلفوا أنكم مقبلون على مشقات ، وعلى مناعب ، وعلى أن تتركوا أموالكم . وعلى أن تتركوا لدينكم وتشتنعكم . ولذلك بعد كبار الساسة الذين مرعوا في السياسة ونجحوا في قيادة مجتمعاتهم كانوا لا يحبون لشعوبهم أن تخوض المعارك إلا مضطرين . فإذا ما اضطروا فهم يوصحون لحدهم أنهم يدراون بالقتال ما هو أكثر شراً من القتال ، ومعنى ذلك أنهم بعشور النفس الإنسانية حتى تواجه الموقف بجباة قراها ، وبجميع ملكاتها ، وكل إرادتها

والحق سبحانه وتعالى يقول : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ » إنه سبحانه يقول لنا : أعلم أن القتال كره بكم ولكن أردت أن أشيع فيكم قضية ، هذه القضية هي ألا تحكموا في أمصايا الكبيرة في حدود علمكم ؛ لأن علمكم دائماً ناقص ، بل

حلوا القضايا من خلال علمي أنا ، لأنني قد أشرع مكرها ، ولكن يأتي منه الخير .  
وقد ترون حيا في شيء ويأتي منه الشر . ولذلك ينهنا الحق إلى أن كثيرا من الأمور  
المحبوبة عندما يأتي منها الشر ، فيقول الواحد منا : « كدت أتوقع الخير من هذا  
الأمر ، لكن الشر هو ما جاء منته » .

وهناك أمور أخرى يظن أن الشر يأتي منها ، لكنها تأتي بخير . ولذلك ينكر الحق  
فلتات في المجتمع حتى يتأكد الناس أن الله سبحانه وتعالى لا يجرى أمور الخير على  
مقتضيات ومقاييس علم العباد ، إنما يجرى الحكم على مقتضى ومقاييس وعلم رب  
العباد . وينظر إلى ما رواه الخبر مثلا للناس عن ذلك .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْلِهِ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَتِلْعَ جَمْعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِي حِمًى ۚ فَلَمَّا  
بَلَغَ جَمْعَ بَيْنَهُمَا نِسَاءَ جُورَتُهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ مَرَجًا ۚ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ  
لِقَتْلِهِ ۖ إِنِّي أَخَذْتُهَا مَا لَقَدْ لَيْبَاسٌ سَفَرِيًّا هَذَا مَصًّا ۚ ﴿١٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيَيْتَ  
إِلَى الصَّخْرَةِ فَلَمَّا نَسِبْتُ الْخُوبَ وَمَا أَسْتَيْبُهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ  
سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ مَجْمًا ۚ ﴿١٧﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْجِ ۚ فَأَرْسَلْنَا عَلَىٰ أَثَارِهِمَا قَصَصًا ۚ ﴿١٨﴾ ۝

( سورة الكهف )

إن موسى عليه السلام يسير مع فتاه إلى مجمع البحرين ، ويقال إنه ملتقى  
بحرين في جهة المشرق ، وكان معها طعام هو خوت مخلوح يأكلان منه ، لكن السفر  
والمشقة أساهما الخوب وانطلق الخوب بأية من آيات الله إلى البحر ، وعندما وصل  
موسى إلى مجمع البحرين طلب من فتاه أن يأتي بالطعام بعد طول التعب ، لكن الفتى  
يقول لموسى . إنه نسي الخوب ، ولم يسه إياه إلا الشيطان . وإن الخوب اتخذ طريقه  
إلى البحر ، فقال موسى إن هذا ما كنا نطلبه علامة على وصولنا إلى غابتنا وهي  
مجمع البحرين ، أي أمر الخوت وقصه هو الذي نطلب ، فإن الرجل الذي جثا من  
أجله هناك في هذا المكان ، وارتد موسى والعلام عن آثارهم مرة أخرى .

فما الذي يحدث ؟ يلتقى موسى عليه السلام بالعبد الصالح الخضر ، وهو ولي من أولياء الله ، عنده الله العلم الرباني الذي يهبه الله لعباده المتقين كثمرة للإخلاص والتقوى . ويطلب موسى عليه السلام من العبد الرباني سيدنا الخضر عليه السلام أن يتعلم منه بعض الرشد . لكن العبد الرباني الذي وهبه الله من العلم ما يفوق استيعاب القبرة البشرية يقول لموسى عليه السلام :

﴿ قُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ﴿٦٨﴾

( سورة الكهف )

لقد كان موسى على علم سابق بأن ضياع الصوت هو مسألة في ظاهرها شر لكن في باطنها خير ؛ لأن ذلك هو السبيل والعلامة التي يعرف بها موسى كيف يلتقى بالعبد الصالح . ويستمر السباق نفسه في قصة موسى والعبد الصالح ، قصة طاهرها الشر وباطنها الخير ، سواء في قصة السفينة التي خرقها أو الغلام الذي قتله ، أو الجدار الذي أقامه

لقد كان علم العبد الصالح علماً ربانياً ، لذلك أراد موسى أن يتعلم بعضاً من هذا العلم لكن العبد الصالح يبه موسى عليه السلام أن ما قد يراه هو فرق طاقة الصبر ؛ لأن الذي قد يراه موسى من أفعال إنما قد يرى فيها شراً ظاهراً ، لكن في باطنها كل الخير .

وقيل موسى عليه السلام أن يتبع موقف المتعلم بأدب مع العالم الذي وهبه الله العلم الرباني . ويشترط العبد الرباني على موسى ألا يسأله إلا بعد أن يحدثه العبد الرباني عن الأسباب . يلتقى موسى والعبد الرباني بسفينة فيمضيان عليها ، ويحرق العبد الرباني السفينة ، فيقول موسى :

﴿ أَخْرِقْهَا لِتَحْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ (٧١)

( سورة الكهف )

فيرد العبد الصالح .

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ نَسْطِيعُ مَعِيَ صَبْرًا ٧٦ ﴾

( سورة الكهف )

ويذكر موسى أنه وعد العبد الصالح بالصبر ، لكن ما الذي يفعله موسى وقد وجد العبد الصالح يفرق سفينة تحملهم في البحر ؟ إنه أمر شاق على النفس . لذلك يقول موسى .

﴿ قَالَ لَا تَأْخُذْ بَعِثْتُ لَمْ يَكُنْ لِي بَالٌ فِي شَيْءٍ ٧٧ ﴾

( سورة الكهف )

إن موسى يعود إلى وعده للعبد الصالح ، ويطلب منه فقط ألا يكلفه بأمور تفوق قدرته . وينطلق العبد الصالح ومعه موسى عليه السلام ، فيجد العبد الصالح غلاماً فيقتله ، فيقول موسى

﴿ أَتَمَلَّكَ نَفْسًا رِيَّةً يَمِيرُ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ٧٨ ﴾

( من الآية ٧٤ سورة الكهف )

ويذكر العبد الصالح موسى أنه لن يستطيع الصبر معه ، ويعتذر موسى عما لا يعلم . ويمر العبد الصالح ومعه موسى بقرية فطلبوا من أهل القرية الصباغة ، لكن أهل القرية يرفضون الصباغة ، ويجد العبد الصالح جداراً مائلاً يكاد يسقط فبدأ في بنائه ، فيقول موسى

﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ٧٩ ﴾

( من الآية ٧٧ سورة الكهف )

ويكون الفراق بين العبد الصالح وموسى . ويمر العبد الصالح موسى بما لم يعلمه ولم يصبر عليه . إن خرق السفينة كان لإيقاظ أصحابها من غفلتهم ، لأن هناك ملكاً كان يأخذ كل سفينة صالحة غصاً ، فأراد أن يعيدها ليركها الملك هؤلاء المساكين .

وقتل العلام كان رحمة بأبويه المؤمنين ، كان هذا الإبن سبباً لهما العليان والكفر ، وأرد الله أن يبدله خيراً منه  
وأن الجدار الذي أقامه كان فوق كنز ، وكان لستيمين من هذه القرية وكان والد العلامين صالحاً ، لذلك كان لابد من إعادة بناء الجدار حتى يبلغ الغلامان أشدهما ويستخرجا الكنز ويقول اميد الصالح عن كل هذه الأعمال .

واقرا قول الله سبحانه وتعالى  
﴿ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ آخِرِ ذَلِكَ قَآوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (A)

( سورة الكهف )

إن العبد الصالح لا يسب هذا العمل الريانى نفسه ، ولكن ينسبه إلى الخالق الذى علمه . إذن فالخلق يطلق بعضاً من فضايها الكون حتى لا يظن الإنسان أن الخير دائماً فيما يحب ، وأن الشر فيما يكره ، ولذلك يقول سبحانه : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » فإن كان القتال كرهاً لكم ، ففعل فيه خيراً لكم . وبما ذكر لكم نوضح أن هناك « كره » و « كره » . إن « الكره » يفتح الكاف هو الشيء المكروه الذى نُحمل « كره » على فعله ، أم « الكره » يضم الكاف فهو الشيء الشاق

وقد يكون الشيء مكروماً وهو غير شاق ، وقد يكون شاقاً ولكن خير مكروه . ولحق يقول : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » . وللاحظ أن الحق دائماً حينما يشرع فهو يقول : « كُتِبَ » ولا يقول : « كتبت » ذلك حتى يفهم أن الله لن يشرع إلا لمن آمن به ، فهو سبحانه لم يكتب على الكافر أى تكاليف ، وهل يكون من المنطقى أن يكلف الله من آمن به ويترك الكافر بلا تكليف ؟

نعم ، إنه أمر منطقي ، لأن التكليف خير ، وقد ينظر بعض الناس إلى التكليف من زاوية أنه مقيد ، نقول لهم : لو كان التكليف الإيمانى يقيد لكلف الله به الكافر ، ولكن الله لا يكلف إلا من يحبه ، إنه سبحانه لا يأمر إلا بالخير ، ثم إن الله لا يكلف إلا من آمن به ، لأن العبد المؤمن مع ربه فى عقد الإيمان

إذن فالله حين يقول : « كُتِبَ » فمعنى ذلك أنه سبحانه يقصد أنه لم يفتحكم على أحد حركة اختياره الموهوبة له ، والله سبحانه وتعالى قد ترك للناس حرية الاختيار في أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا . ومن آمن عن اختيار وطواعية فقد دخل مع الله في عقد إيمان ، ويمتضي هذا العقد كتب الله عليه التكاليف . ومن هذه التكاليف القتال ، يقال سبحانه : « كُتِبَ عليكم القتال » .

وقوله : « عليكم » يعنى أن القتال ساعة يكسب لا يسو من ظاهر أمره إلا المشقة ، مجاءت « عليكم » لتناسب الأمر . وبعد انتهاء القتال إذا انتصرنا فعلى نأخذ الخاتم ، وإذا انهزمنا واستشهدنا فلنا الجنة .

ويعبر الحق عن ظاهر الأمر في القتال فيقول عنه : « وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » . إنها قضية عامة كما قلنا . لذلك فعلينا أن نرد الأمر إلى من يعلمه ، « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » فكل أمر علينا أن نرده إلى حكمة الله الذي أجراه ، لأنه هو الذي يعلم .

وهناك قصة من التراث الإنساني تحكى قضية رجل من الصياد ، وكان الرجل يملك مكانا متصفا وفيه خيل كثيرة ، وكان من صسر الخيل حصان يجيه . وحدث أن هاجم ذلك الحصان في المراعى ولم يعد ، فعز على ، فجاء النمس ليعزوه في فقد الحصان ، فانتسم وقال لهم : « ومن أدراكم أن ذلك شر لتعزوني فيه ؟ »

وبعد مدة نوحى الرجل بالخواند ومعه قطع من الحياض يحرق حمله ، فلما رأى الناس ذلك جاءوا ليهشوه ، فقال لهم : « وما أدراكم أن ذلك خير ، فسكت الناس عن التهشة » وبعد ذلك جاء ابنه ليركب الخواند فاطلق به ، وسقط لولد من فوق الحصان فانكسرت ساقه ، فجاء الناس مرة أخرى ليواسوا الرجل فقال لهم : « ومن أدراكم أن ذلك شر ؟ »

وبعد ذلك قامت حرب فجمعت الحكومة كل شباب البلدة ليقاتلوا العدو ، وتركوا هذا الابن ، لأن ساقه مكسورة ، فجاءوا يهشونه ، فقال لهم : « ومن أدراكم



أن ذلك خير ؟ فطينا ألا نأخذ كل قضية بظاهرها ، إن كانت خيراً  
أو شراً ، ولكن علينا أن نأخذ كل قضية من قضايا الحياة في ضوء  
قول الحق .

﴿ لَكَيْلًا تَأْسُرُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الحديد)

والحق هو القائل : " والله يعلم وأنتم لا تعلمون " ، والله المثل  
الأعلى ، سبق لنا أن ضربنا المثل من قبل بالرجل العنود الذي يحب  
ولده الوحيد ويرجو بقاءه في الدنيا ، لذلك عندما يمرض الابن فالأب  
يعطيه الدواء المر ، وساعة يعطيه الجرعة بالابن يكره الدواء ولكنه خير  
له . بعد ذلك يتحدث الحق سبحانه وتعالى عن سؤال آخر يقول فيه

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ

الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ  
وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ  
عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُم  
حَتَّىٰ يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ  
مِنْكُم عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ  
أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ  
هُم فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٤﴾

والسؤال هنا ليس عن الشهر الحرام ؛ لأنه كان معروفاً عندهم من أيام الجاهلية ، ولكن السؤال عن القتال في الشهر الحرام ، مما جدوى لسؤال إذن ؟ إنه سؤال استفزازي ، والسؤال هنا قصة . ويعرف أن للسنة اثني عشر شهراً ، وقد جعل الله فيها أربعة أشهر حرم : شهر واحد مرد وهو رجب ، وثلاثة سرد ، وهي ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم . ومعنى أشهر حرم أي أن لقتال محرم فيها .

لقد علم الله كبرياء الخلق عن الخلق ، لذلك جعل الله خلقه سائراً يحمي كبرياءهم ، ومن هذه السس التي سنها الله هي حرمة القتال في الأشهر الحرم ، والأماكن الحرم . فيجوز في الحرب تضرر المحارب ، لكن كبرياءه أمام عدوه يحميه من وقف القتال ، فيستمر في الحرب مهما كان الشئ ، فيأتي الحق سبحانه وتعالى ويقول للمتحاربين : ارفعوا أيديكم في هذه الشهور لأن حرمت فيها القتال وربما كان المحاربون أنفسهم يتعمدون من أعياقهم أن يتدخل أحد ليوقف الحرب ، ولكن كبرياءهم يحميهم من التراجع ، وعندما يدخل حكم أسماء سيجد كل من الطرفين حجة ليرجع مع حفاظه على ماء الوجه . وكذلك جعل الله أماكن محرم ، يحرم فيها لقتال حتى يقول الناس إن الله هو الذي حرّمها ، وتكون لهم سائراً يحمي كبرياءهم

إذن فالحق سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان أراد أن يحمي الإنسان حتى يحقق الدماء ، فإذا ظل الناس ثلاثة أشهر بلا حرب ، ثم شهراً آخر ، فنعمو في هذه الفترة بالسلام والراحة والهدوء ، وربما يألفون السلام ، ولا يفكرون في الحرب مرة أخرى ، لكن لو استمرت الحرب بلا توقف لظل شعاع الحرب في نفوسهم ، وهذه هي ميزة الأشهر الحرم

والأشهر الحرم حُرِّم في الرمان والمكان ؛ لأن الرمان والمكان هما ظرف الأحداث ، فكل حدث يحتاج زماناً ومكاناً . وعندما يحرم الرمان ويحرم المكان فكل من طرق القتال يأخذ فرصة للهدوء .

إن الحق سبحانه وتعالى يعرض ما قضية أراد بها حصوم الإسلام من كمار قريش

واليهود أن يثيروها ؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل بعض سرايا للاستطلاع ، والسرية هي عند حدود من المقاتلين ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسل سرية على رأسها عبدالله بن جحش الأسدي ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسل معه ثمانية أفراد ، وجعله أمرا عليهم ، وأعطاه كتابا وأمره ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين ، وذلك حتى لا يعلم أحد أين تذهب السرية ، وفي ذلك احتياط في إحصاء الخمر .

فلما سارت السرية ليبتلي فتح عبدالله الكتاب وقرأه فإذا به : اذهب إلى « بطن نحلة » وهو مكان بين مكة والطائف واستطلع عير قريش ، ولا تذكره أحدا ممن معك على أن يسير مرعيا ، بمعنى أن يكون لكل فرد في السرية حرية الحركة ، فمن يفضل عدم السير في السرية فله هذا الحق .

وبينا هم في الطريق ضل بئر لسعد بن أبي وقاص وعقبة بن عذوان ، ودعا يستغيث عن البئر ، وبقي ستة مقاتلين مع عبدالله ، وذهب الستة إلى « بطن نحلة » فوجدوا « عمرو بن الحضرمي » ومعه ثلاثة على عير لقريش ، فدخلوا معهم في معركة ، وكان هذا اليوم في طلبهم هو آخر جهاد الأحرار ، لكن تبين لهم في بعد أنه أول رجب أي أنه أحد أيام شهر حرام

وقتل المسلمون ابن الحضرمي ، فقتله واقتله بن عبدالله من أصحاب عبدالله بن جحش ، وأسروا اثنين من معه ، وهو واحد ، فلما حدث هذا ، تبين لهم أنهم فعلوا ذلك في أول رجب ، عند ذلك اعتشروا أن قتالهم وغنائمهم مخالفة لحرمه شهر رجب

فونارت المسألة لحدا ورعا بين المسلمين قبل أن تحدث فيها عريش حيث قالوا : إن محمدا يدعى أنه يحترم المقدسات ويحترم الأشهر الحرم ، ومع ذلك قاتل في الأشهر الحرم ، وسفك دما ، وأخذ أموالا ، وأسرى الرجال فاعتنق رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الضالمة والأسرى حتى يمضل الله في القضية فزل حكم السماء في القضية بهذا القول الحكيم

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشُّهُرِ الْحَرَامِ فَقَالَ فِيهِ قُلُوفٌ لَهُ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ غَيْبَتٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢١٧)

(سورة البقرة)

بعض مُسَلِّمُونَ أَنَّ الْقِتَالَ فِي الشُّهُرِ الْحَرَامِ أَمْرٌ كَبِيرٌ وَلَكِنْ انْظُرُوا يَا كُفَّارَ قَرِيضٍ إِلَى مَا صَنَعْتُمْ مَعَ عِبَادِنَا وَقَارِنُوا بَيْنَ كَبَرِ هَذَا وَكَبَرِ ذَاكَ أَنْتُمْ تَقُولُونَ : إِنَّ الْقِتَالَ فِي الشُّهُرِ الْحَرَامِ مَسْأَلَةٌ كَبِيرَةٌ . وَلَكِنْ صَدَّكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرَكُمْ بِهِ . وَمَنْعَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . وَإِخْرَاجَ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْهَا أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْقِتَالِ فِي الشُّهُرِ الْحَرَامِ . مَلَا تَفْعَلُوا مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْقِتَالِ فِي الشُّهُرِ الْحَرَامِ ، ثُمَّ تَأْخُذُكُمْ الْغِيْرَةُ عَلَى الْحَرَمَاتِ .

فَكَانَ الْحَقُّ أَرَادَ أَنْ يَضَعَ قَضِيَّةً وَاضِحَةً فِي لَا تَأْخُذُوا مِنْ جَرِيئَاتِ الْقَدِيْنِ أَشْيَاءَ وَتَتَحَصَّنُوا فِيهَا خَلْفَ كَلِمَةِ حَقٍّ وَأَنْتُمْ تَرِيدُونَ الْبَاطِلَ قَالُوا قَعٍ يَعْزِضُ الْأَشْيَاءَ ، وَنَحْنُ نَقُولُ ، نَعَمْ إِنَّ الْقِتَالَ فِي الشُّهُرِ الْحَرَامِ كَبِيرٌ . وَلَكِنْ يَا كُفَّارَ قَرِيضٍ اْعْلَمُوا أَنَّ فِتْنَةَ الْمُؤْمِنِينَ فِي دِينِهِمْ وَصَدَّهُمْ عَنْ طَرِيقِ اللَّهِ ، وَكَفَرَكُمْ بِهِ - سَبْحَانَهُ - وَإِهْدَارَكُمْ حَرَمَةَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مَا تَصْنَعُونَ فِيهِ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ ، وَإِخْرَاجَكُمْ أَهْلَهُ مِنْهُ ، إِنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الْأَثَمَةَ هِيَ عِنْدَ اللَّهِ أَكْبَرُ جَرْمًا وَأَشَدُّ إِثْمًا مِنَ الْقِتَالِ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ لَا اسْتِرْدَادَ لِلْمُسْلِمِينَ بِعَظْمِ حَقِّهِمْ لَعْنِكُمْ

وَلِهَذَا يَرُدُّ الْحَقُّ سَهَامَ الْمُشْرِكِينَ فِي مَحْوَهِمْ ، وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ، أَيْ إِيَّاكُمْ أَنْ تَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ سَيَحْتَرِمُونَ الشُّهُرَ الْحَرَامَ وَلَا الْمَكَانَ الْحَرَامَ ، بَلْ « وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ ، أَيْ وَسَيَصْرُونَ ، وَيَدَاوِمُونَ عَلَى قِتَالِكُمْ

+

﴿مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِسْنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

وإذا قارنا بين الأيتين نجد أن الآية التي نحن مصنفه نحواطرها عنها قد ورد فيها قوله « ميت وهو كافر » وفي سورة المائدة لم يرد هذا وإنما ورد قوله « ومن يكفر بالإيمان فقد حط عمله » وقد اختلف العلماء في المسألة اختلافات حيلة . ولكنهم اتفقوا أولا على أن أي إنسان يرتد عن الإسلام ثم يموت مرتداً فقد حطت أعماله ولكن اختلافهم تركز فيها لو رجع وأنس مرة ثانية ، أي لم يميت وهو كافر ، بل رجع بأنس بعد رجائه ، فهل حط عمله أم لم يحط ؟

وللإمام الشافعي رأى يقول : إن الذي يرتد عن الدين تحبط أعماله إن مات على الكفر ، أما إن عاد وأسلم مرة أخرى فإن أعماله التي كانت قبل الارتداد تكون محسوبة له . والإمام أبو حنيفة له رأى يختلف فهو يقول . لا ، إن آية سورة المائدة ليس فيها « فيمت وهو كافر » وعليه فإننا نحملها على آية سورة البقرة التي ذكر فيها ذلك من باب حمل المطلق على المقيد ، وعلى ذلك فالذي يكفر بعد إيمانه عمله محط سواء رجع إلى الإيمان بعد ذلك أو لم يرجع ، فلا يحتسب له عمل .

این موضوع الخلاف آدن ؟ . هب أن إنساناً آمن وأدى فريضة الحج ثم لا قدر الله كفر وارتد ، ثم رجع فأس أنظّل له الحجة التي قام بها قبل الكفر أم يحبط ويطلب منه حج جديد ؟ هذه هي نقطة الخلاف . فالشأن يري أنه لا يحبط عمله مادام قد

رجع إلى الإيمان لأن الله قال : « فبعت وهو كافر » فمعنى ذلك أنه إن لم يمت على الكفر فإن عمله لا يحبط ولكن لا يأخذ ثواباً على ذلك الخبث الذي سبق له أن أداه ، لقد انتصت الإمام لشافعي رضي الله عنه إلى شيء قد يفعل به كثير من الناس ، وهو أن الخبث ركن من أركان الإسلام ، فالذي لا ينجح وهو قادر على الخبث فإله يعاقبه على تقصيره ، والذي نجح لا يعاقب ويأخذ ثواب فعله .

فكان الأعمال التي طلبها الحق سبحانه وتعالى إن لم تفعلها وكانت في استطاعتك عوقبت ، وإن فعلها بغير عملك بمرحلتين ، المرحلة الأولى هي ألا تعاقب ، والمرحلة الثانية هي أن تثاب على الفعل . فالشافعي قال : إن الشخص إذا فعل فعلاً يثاب عليه الإنسان ، ثم كفر ، ثم عاد إلى الإسلام فهو لا يعاقب ، ولكنه لا يثاب . أما الإمام أبو حنيفة فقد قال : إنه لا عبرة بعمله الذي سبق الردة ، مصداقاً لقوله تعالى « حبست أفعالهم » أي أبطلت ورائت ، وكأنها لم تكن .

إن القرآن استخدم هذا كلمة « حبط » ، وهي تستخدم تعبيراً عن الأمر المحسوس ، يقال : « حبست الماشية » أي أصابها مرض اسمه الحباط ، لأنها تأكل لونها من الطعام فتصح به ، وعندما تنبتخفق فقد تموت . والشيء عيبه انقلاصه وإسلامه يقول : « إن محمداً بك الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم »<sup>(١)</sup>

إنه صلى الله عليه وسلم يحسب من أن الخير قد يندس فيه شر ، مثلاً يتحدث في الربيع الذي يبت فيه من النبات الذي يعجب الماشية فتأكله فينتجها مرض الحباط ، فتصح ثم تموت ، أو « يلم » أي توشك أو تموت ، وكذلك الأعمال التي فعلها الكفار تصبح طاهرة مثل انتصاح البطر ، وكل هذه العمليات الباطلة مستحطت كما تحبط الماشية التي أكلت هذا اللون من الخضر ، ثم انتصحت فيظل المشاهد لها أنها سامة ، وبعد ذلك يفاجأ أنه مرض . لقد أعطانا الله من هذا القول المعنى المحسوس لتشابه الصورتين : فالماشية عندما تحبط تموت وكأنها غيب وسبب ، لكنه نمو غير طبيعي إنه ليس شجراً أو لحماً ، لكنه ورم ، كذلك عمل الذين كفروا ، عمل حباط ، وإن بدا أنهم قد قاموا بأعمال ضخمة في ظاهرها أنها طيبة وحسنة .

ويقول بعض الناس - وهل يفعل أن الكفار الذين صنعوا إنجازات قد استفادت منها البشرية ، هل من المعقول أن تصير أعيانهم إلى هذا المصير ؟ لقد اكتشفوا علاجاً لأمراض مستعصية وحققوا لآلام الناس ، وصنعوا آلات الربحية والنافعة . ويقول لأصحاب مثل هذا الرأي - مهلاً ، هناك قصية يجب أن نتفق عليها وهي أن الذي يعمل عملاً ، فهو يطلب الأجر من عمل له ، فهل كان هؤلاء يعملون وفي بالهم الله أم في بالهم الإنسانية والمجد والشهرة ؟ لقد أعطتهم الإنسانية المجد والشهرة ، وما داموا قد نالوا هذا الأجر في الدنيا فليس لهم أن ينتظروا أجراً في الآخرة - لذلك يقول الحق

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾  
 ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾  
 ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(سورة النور)

إن الكافر يظن أن أعماله صالحة نافعة لكنها في الآخرة كالسراب الذي يراه الإنسان في الصحراء فيطعمه ماء ، ويحمد نفسه في الآخرة أمام لحظة الحساب فيؤويه الله سبحانه بالعقاب ، وليس لهم من جراء إلا النار ، ويطبق عليهم ما يطبق على كل الكافرين بالله ، وهو أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

هذا وإن الحق سبحانه وتعالى يوضح حقيقة الأمر للمؤمنين به ويرسوه صلى الله عليه وسلم حتى يعطيهم مناعة إيمانية ضد آمال الكافرين في الإصرار بالمؤمنين ، فيعلم أنهم من يدحروا وسع حتى يردوكم عن دينكم ؛ لأن مهج الله دائماً لا تخيف إلا المظلمين ؛ فالإنسان السوي الذي يريد أن يعيش العالم في سلام وبأحد من الخير على قدر حركته في الوجود لا يرهقه سيانه مادي الإسلام ، إنما يرهق مادي الإسلام هؤلاء الذين يريدون أن يسرقوا عرق وكذ غيهم وهم يدلون كل الجهد ويستحدمون كافة الأساليب التي تصرف المسلمين عن دينهم ، ولكن هل يمكنهم الله من ذلك ؟ لا ؛ فلا يزال هناك أمل في الخير إن تمسك أمة الإسلام بالمسلك الحق .

إنه سبحانه يعطي المناعة للمؤمنين ، والمناعة - كما نعرف - هي أن تنقل للمسلم

ميكروب المرض بعد إضعافه ، وبذلك تأخذ أجهزة جسمه فرصة لأن تنصرف على هذا الميكروب ؛ لذلك قال الحق - ومن يرتدد منكم عن دينه همت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم - إن الخلاف الجوهرى بين المؤمن والكافر ، هو أن المؤمن إنما يعمل العمل الصالح وفى نيته أن المكافء هو الله ، وهو يتجه سيرة خالصة فى كل عمل ويأخذ بأسباب الله فى العلم ليتفهم به غيره من الناس ؛ فتكون الفائدة عميقة وعظيمة ، وعلى المؤمن أن يكون سباقاً إلى الاكتشاف والاختراع وبهذه العالم المسلم ، وأن يكون المؤمن العالم صارة تشع بعصوه الإيمان أمام الناس ، لا أن يتركه غيره من الكافرين يصلون إلى المكتشفات العلمية وهو متواكل كسلاف

إن على المؤمن أن يأخذ بأسباب الله فى الحياة ؛ لأن للإسلام هودين ودين ، وهو دين العلم والتفهم ، ويصنع لمن يعمل بمعجزة سعادة لديه وسعادة الآخرة وإذا كان المؤمن يستمتع بإنتاج يصنعه الكافر فعليه أن الكافر إنما أحرقه مسجوراً عن عمل له ، أما المؤمن فعليه يتفوق فى الصناعة والزراعة والعلم والاكتشاف فهو يأخذ الأجر فى الدنيا وفى الآخرة ؛ لأن الله يعطى من هو الله .

أما عمل الكافر فهو عمل من مسخر كالمطبخ والجهاد واسات والحيوان المسخرة لخدمة الإنسان . وإذا كان الله قد ميز المؤمن على الكافر بالأجر فى الدنيا وحسن الثواب فى الآخرة ، ألا يليق بالمؤمن أن يسبق الكافر فى تنمية المجتمع الإسلامى ، وأن يكون معمله صارة هداية لمن حوله ؟! ويقول الحق من بعد ذلك

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ  
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢٨)

إن الآية قد عدت ثلاثة أصناف ، الصنف الأول هم الذين آمنوا ، والصنف



الثاني هم الذين هاجروا ، والصف الثالث هم الذين جاهدوا . إن الدين مواءمة  
حالة لوجه الله ، وهاجروا لصرة الدين ، وجاهدوا من أجل أن تعلق كلمة  
الإسلام هؤلاء قد فعلوا كل ذلك وهم يرجون رحمة الله . ولقاتل أن يقول . أليست  
الرحمة مسألة متينة عندهم ؟

وبقول : ليس للعبد عند الله أمر متين ؛ لأنك قد لا تعلق إلى بعض دنيائك التي  
لم تحسن التوبة منها ، ولا التوبة عنها . وعليك أن تصح ذلك في باب دائها . وأن  
تتفر من استحضار نية الإخلاص لله في كل عمل تقوم به ؛ فقد تحمك نفسك  
بشيء قد يفسد عليك عملك ، وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد  
الخلق وسيد الموصولين يبرهم يقول : « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وعمل  
لا يبرع ودعاء لا يسمع »<sup>(١)</sup>

إن الرسول الكريم وهو سيد المحسنين في كل أعماله يعلمنا أن النص قد تحالط  
صاحبها بشيء يفسد الطاعة وعلى المسلم أن يظن في محل الرجاء والمؤمن الذي  
يثق في ربه لا يقول . إن على الله واجباً أن يعمل لي كذا ؛ لأن أصل عبادتك لله سن  
أن دفع ثمنها ، وما ناله من بعد ذلك هو فصل من الله عنك ، مدفوع ثمنها لك  
إيجاداً من عدم وإمداداً من عظم ، ومدفوع ثمنها بأن منعك الله بكل هذه الأشياء ،  
فلم تارنت بين ما طلبه الله منك . على فرض أنك لا تستعيد منه . فقد أقدمت بما قدم  
لك أولاً ، وكل خير يأتيك من بعد ذلك هو من فصل الله عنك ، والفصل يرحى  
ولا يتين

وعظمة الحق سبحانه وتعالى في أنك تدعوه خوفاً وطمعاً . ويقول هذا المثل - والله  
المثل الأعلى - إن من عظمتك أمام والدك أنك تجد لك أياً تحب منه ، وترغب أن  
يحقق لك بعضاً من أحلامك ، ولو اختلفت واحدة من الاثنين لاحتلت الأبوة  
والسوء .

كذلك عظمة الرب يُرغب ويُرهب . إن رعبت فيه ولم ترهبه فأنت ناقص

الإيمان ، وإن رهبت ولم ترعب وإيمانك ناصي أيضاً ، لذلك لا بد من تلازم  
الائتيمار : الرهبة والرغبة ولو تبصر الإنسان ما فرضه الله عليه من تكاليف إيمانية  
لوحد أنه يعبد من هذه التكاليف أضغاث مضاعفة فكل ما يجازى به الله عباده إنما  
هو انصاف ، وهو الزيادة وكل رزق للإنسان إنما هو محض الفصل ومحض  
الفصل يُرجى ولا يُنقن .

وما هو ذا الحق يقول

﴿ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُضُّعًا وَإِنَّهُ لَاحِبُّ الْمُتَّحِدِينَ ٥٥ ﴾ وَلَا تُقْبِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ  
إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ٥٦ ﴾

( سورة الأعراف )

إن الدنيا كلها مسخرة تحت قهر الرحمن ومشيته وسحبه ، وله تمام التصرف في  
كل الكائنات وهو الخالق الدائم ، لذلك فيدع الإنسان الله بحشوع وحضوع في  
السر والملاية ، والحق لا يحب من يعندي بالقول أو الرباء أو الإيذاء

إن الإيمان يجب أن يكون خالصاً لله ، فلا يقصد الإنسان الأرض بالشرك أو  
المعصية ، لأن الحق قد رشح اصبح الحق لصالح الدنيا وهو القرآن ، ورسالة رسول  
الله صلى الله عليه وسلم ، ورحمة الله قريبة من المطيعين لدنوى جل وعلا

إن عطمة الرب في أنه يُرغب ويُرهب ، إن رغبت فيه ولم ترهبه فعملك غير  
مقبول ، وإن رهبت ولم ترغب فعملك غير مقبول . إن لرعب والرهب مطلوبان  
معاً ، لذلك فالخوف المجاهد في سبيل الله يرجو رحمة الله .

والحق يقول : « أولئك يرحون رحمة الله » ، ما هي الرحمة ؟ الرحمة ألا تنل بالآلم  
من أول الأمر ، والحق سبحانه وتعالى يقول

﴿ وَسِرُّنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِمَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٥٧ ﴾

( من الآية ٨٢ سورة الإسراء )

لشيء هو أن تكون مصاباً بذا ، ويترك الله منه ، لكن الرحمة ، هي ألا يأتى الداء .  
أصلاً : والله معور رحيم .

والله سبحانه وتعالى يعلم عن عباده أن أحداً منهم قد لا يبرأ من أن يكون له  
دس ، فلو خافوا بالمعاصير المصروفة تمام ملوك يتعب الإنسان بها ، ولذلك أحب  
أن أقول - دائماً - مع إخوان هذا الدعاء : « اللهم بالفضل لا بالعدل وبالإحسان  
لا بالميراث وبالخير لا بالحساب » أى عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبإحسانك  
لا بالميراث ، لأن الميراث يتعب

ولقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن دخول الجنة لا يكون بالأعمال  
وحدتها ، ولكن بفضل الله ورحمته ومعرفته إن الرسول الكريم يقول

« لى يدخل أحدكم الجنة بعمه فقالوا : ولا ست يارسول الله ، قال : ولا انا  
حق يتعمد الله برحمته » (١) .

إذن فالمؤمن يرجو الله ولا يشترط على الله ، إن المؤمن ينتج بعمه حاله الله يرجو  
التفضل والمعصية والرحمة ، وكل ذلك من فضل الله ويأتى الحق لسؤال آخر

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ  
كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا  
وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ  
اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

والخمر - كما يعرف - مأخوذة من الستر ، ويقال : « دخل فلان في حمرة ، أى في أبهة من الأشجار ملتمة فاختبأ فيها » وهـ الخمار ، هو القناع الذى ترتديه المسلمة لستر رأسها ، وهو مأخوذ أيضا من نفس المادة وهـ غامره الأمر ، أى حالته . وكل هذه المعنى مأخوذة من عملية الستر وهـ الميسر ، مأخوذ من اليسر ؛ لأنه يظهر لمناس بمكاسب بسيرة ملائمة .

الخمر والميسر من الأمور التى كانت معروفة في الجاهلية . والإسلام حين جاء ليواجه نطقا جديدا واجه العقيدة بلا هوادة ، ولم يجابهها ويواجهها على مراحل بل أزالها من أول الأمر ، ورفق راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، ثم جاء الإسلام في الأمور التى تعتبر من العادات بهذا يوتها ، لأن الناس كانت تألفها ، لذلك أخذوا بشيء من الرفق والهوادة . وكان هذا من حكمة الشرع ، فلم يجعل الأحكام في أول الأمر عملية قسرية فقد يترتب عليها الخلل في المجتمع وفي الوجود كله ، وإنما أخذ الأمور بالهوادة

وإذا كانت الحمرة مأخوذة من الستر ، فإذا نستر ؟ إنها تستر العمل بدليل أن من يتعاطى بعيب عن وعبه . ولا يريد الله سبحانه وتعالى للإنسان الذى كرمه الله بالعمل أن يأتى للنقمة الذى كرمه به ويُسيّر به أمور الخلافة في الأرض ويستتره ويغيبه ، لأن من يفعل ذلك تكلم رد عن الله العنة التى أكرمه بها ، وهذا هو الحق .

ثم إن كل الذين يتعاطون الخمر يبررون فعلهم بأنهم يريدون أن يسبوا هموم الدنيا ، وسأل هؤلاء : وهل سبوا هموم يمنع مصادرهما ؟ لا ، ولذلك فالإسلام يطلب منك أن تعيش همومك لتواجهها بجماع عقلك ، فإذا كانت هناك هموم ومشكلات فالإسلام لا يريد منك أن تساهى ، لا ، بل لابد أن توظف عقلك في مواجهتها ، ومادام المطلوب منك أن تواجه المشكلات بعقلك فلا تلتزم لمركز إدارة الأمور الحياتية وهو العقل ، والذى يمينك على مواجهة المشكلات وتظهره بتعبه عن العمل

وهل النسيان يمنع المصائب ؟ إن الذى يمنع المصائب هو أن تحاول بجماع فكرك أن

تجد السبل للخروج منها ، فإذا كان الأمر ليس في استطاعتك فمن الحق أن تمكر به ؛ لأن الله يريد منك أن تربح عقلك في مثل هذه الأمور ، وإن كان الأمر له حل وفي استطاعتك حله ، فأت لتحتاج للعقل بكامل قوته .

والحق سبحانه وتعالى يرشدنا في هذه النقطة بحكمة الحكيم ، ويعطينا عطاءً بحكم نحن في الأمر قبل أن يطلب منا إنه - سبحانه - يمش علينا ويقول

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّحْلِ وَالْأَعْنَابِ تَقْذِرُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾

(س الآية ٦٧ سورة النحل)

فعندما ذكر الله «سَكْرًا» مر عليها بلا تعليق . وعندما قال : «ورقًا» وصفه بأنه «حَسَنًا» . فكان يجب أن نسه إلى أن الله يهتد لموقف الإسلام من الخمر ؛ فهو لم يصف «السكر» بلوى وصف ، وجعل للرق وصفًا هو الحسن ؛ فالناس عندما يستخرجون من هذه الثمرات سكرًا ، فهم قد أخرجوها عن الرزق الحسن ، لأن هناك فرقًا بين أن تأخذ من لعب خداء وبين أن تخمره فتفسده وتجعله سائرًا للعقل .

وبعد ذلك ههناك فرق بين تشريع ونصح . فعندما تنصح شخصًا فانت تقول له : سلكك على طريق الخير وأنت حرق أن تسير فيه أو لا تسير . وعندما تشرع وتنزع الحكم ، فأنت تلزم هذا الشخص أن ذلك لك بفعل الأمر ولا شيء سواه

والحق سبحانه وتعالى عندما قال «يسألونك عن الخمر والميسر» ، ذكر لنا المعائد وترك لنا الحكم عليها ، قال سبحانه مَبْهُغًا رسوله «قل فهما إثم كبير ومنافع للناس» ولولم يقل «ومنافع للناس» لاستغرب الناس وقالوا : نحن نأخذ من الخمر منافع ، ويكتسب منها ، ونسبى بها همومًا ، كانت هذه هي المنافع بالنسبة لهم ، لكن الحق يوضح أن إثمها أكبر من نفعها ، أي أن العائد من وراء تعاطيها أقل من الضرر الحاد منها ، وهذا تقييم عادل ، فلم تكن المسألة قد دخلت في نطاق التحريم ، لأنها مارالت في منطقة النصيح والإرشاد .

وقوله تعالى : «رأى فيها أكبر من نفعها» يجعل فيها نوعًا من الذنب ، لقد كان

التدرج في الحكم أمراً مطلوباً لأنه سبحانه يعالج أمراً يالف العادة ، فيمهد سبحانه ليخرجه عن العادة . والعادة شيء يقود إلى الاعتداء ؛ بحيث إذا مر وقت ولم يأت ما تفرقت عليه نفسيك ودمك يحدث لك اضطراب . وما دامت المسألة تقود إلى الاعتداء ، فالأفضل أن تسد الباب من أوله وتقمع الاعتداء .

لقد كانت بداية الحكم في أمر الخمر أن أحداً من المسلمين شرب الخمر قبل أن تحرم نهائياً ، وجاء ليصلي ، فقال : لا قبل بها الكافرون أعبد ما تعبدون ؛ ويعدها نزل نأديب الحق بقوله

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ٤٣ ﴾  
( سورة النساء )

وهي ذلك تدريب لمن اعتاد على الخمر ألا يقربها ؛ فالإنسان الذي يصلي صلوات عليه الحكم ألا يقرب الصلاة وهو سكران ، فحتى يمتنع إذن ؟ إنه يصح من نومه فلا يقرب الخمر حتى يصلي الصبح ، ويقرب الظهر فيستعد للصلاة ، ثم العصر بعد ذلك ، ويليه المغرب فالمساء ، أي لن يصبح عنده وقت لم يشرب في الأوقات التي ينتظر فيها الصلاة ، إذن فلا تصبح عنده فرصة إلا في آخر الليل ، فإذا جاء الليل يشرب له كأساً ثم يغط في نومه . ويكون الوقت الذي امتنع فيه عن الخمر أطول من الوقت الذي يتعاطى فيه الخمر .

ولما بدأ تعودهم على الخمر يترعزع ، حدثت بعض الخلافات والمشكلات التي دفعتهم لأن يطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوضح لهم حكماً فاصلاً في الخمر فنزل قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ نَعَلَكُمْ نُجُورًا ٩١ ﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ

## الصلوة فهل أنتم متبهون ﴿١١﴾

(سورة المائدة)

فقالوا : انتهينا يا رب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى أراد بتحريم الخمر أن يحفظ على الإنسان عقله ، لأن العقل هو مناط التكليف للإنسان ، وهو مناط الاختيار بين البدائل ، فأراد الحق أن يصون للإنسان تلك النعمة .

إن هدف الدين في المقام الأول سلامة الضرورات الخمس التي لا يستغنى عنها الإنسان سلامة النفس ، سلامة العرص ، سلامة المال ، سلامة العقل ، سلامة الدين وكل التشريعات تدور حول سلامة هذه الضرورات الخمس ، ولو نظرت إلى هذه الضرورات تجد أن الحفاظ عليها يبدأ من سلامة العقل ، فسلامة العقل تجعله يفكر في دينه ، سلامة العقل تجعله يفكر في حركة الحياة ، سلامة العقل تجعله يحتاط لصيانة العرص

إذن فالعقل هو أساس العملية التكليفية التي تدور حولها هذه المسألة ، والحق سبحانه وتعالى يريد ألا يخرس الإنسان عقله بأي شيء مسكر . حتى لا يحدث عدوان على هذه الضرورات الخمس .

وقد جمع الله في هذه الآية التي نحن بصدد غواطرها عنها بين الخمر والميسر ، وهو جن وعلا يريد أن يجمع غفلة الناس . فلمجد الميسر يتمثل في صورته البسيطة في اثنين يجلسان أمام بعضهما البعض ، وكل واحد منهما حريص على أن يأخذ ما في جيب الآخر ، فأى أخوة تبقى بين هؤلاء ؟ إن كلا منهما حريص على أن يهيد الآخر إلى منزله يخاوى الخيوط فأى أخوة تكون بين الاثنين ؟

ومن العجيب أنك ترى الدين يلعبون الميسر في صورة الأصحاب ، ويحرص كل منهما على لقاء الآخر ، فأى نخبة في هذه الصداقة ؟!

ومن العجيب أن يقر كل من الطرفين صاحبه على فعله ، يأخذ ماله وينفق على صداقته ، والمعجب الأكبر هو التدليس والسرقة بين الذين يتعبدون على لعب البسر . ولو لاحظت حياة هؤلاء الذين يلعبون الميسر تجدهم يتمنون ويبتغون بلا احتياط ولا يتفكرون أبداً بما يصل أيديهم من مال معها كان كثيراً ، لماذا ؟

لأن المال حين يُكسب بيسر ، يُصرف منه بلا احتياط ، هذا هو حال من يكسب ، أما بالنسبة للخاسر فتجده يعيش في الحسرة والألم على ما فقد ، وتعبه في فقر دائم ، ويري اضطراب إلى التصحبة بعرضه وشرقه ، إن لم يبيع ملابسه ، وأمر ما يملك ، ويحدث كل ذلك بأمان زائفة ، وآمال كاذبة يريب الشيطان للطرفين ، الذي كسب والذي خسر ، فالذي كسب يتمنى زيادة ما معه من مال أكثر وأكثر ، والذي خسر يأمل أن يسترد ما خسره ويكسب .

وعندما يتعمد الإنسان أن يكسب بدون حركة فكل شيء يهون عليه ، ويعتاد أن يعيش على الكسب السهل الرخيص ، وحين لا يجد من يستغنيه ليلعب معه ربما سرق أو اختلس . وهذا هو حال الذين يلعبون الميسر ؛ إثم أصحاب الرذائل في المجتمع ، فهم الذين يرتشون ويسرقون ويعربدون ، ولا أخلاق عندهم وليس لهم صاحب ولا صديق ، ويوتهم مهارة ، وأسرهم مفككة ، وعليهم اللعنة حتى في هيتهم وهندامهم .

ولذلك قال الحق : يسألوك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس وإثمها أكبر من نفعها . وما دام الإثم أكبر من النفع ، فقد رجح جانب الإثم . هذا في العملية الدنياه ، أما في العملية الهممية فقد قال سبحانه :

﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى ﴾

(من الآية ٤٣ سورة النساء)

وبعد ذلك أبى - سبحانه - المسألة فحما بقوله الحق :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِمَا أَخْمَرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنْصَابُ وَٱلْأَزْلَمُ بِحَسِّنِ مِنْ عَمَلٍ



الشَّيْطَانِ فَأَجْزِيْهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿٥٠﴾

(سورة التوبة)

ثم تمضي الآية إلى سؤال آخر هو : ويسألك ماذا ينفقون قل العفو إنه السؤال نفسه من عمرو بن الحمقوح وكان الخوارج عليه من قبل هو : قل ما أمعنتم من خير فلئولدين والأقربين واليتامى والمساكين وأس السبل ، وهذا جواب بشكل وصورة أخرى : قل العفو والعفو معناه الريادة وفي ذلك يقول الحق - سبحانه وتعالى - .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا أَخْلَنَّا إِلَيْهَا بِالْبَاسِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴾

﴿ ٥١ ﴾ ثُمَّ دَلَّاهُم مَّا كَانُوا لِيَنفِرُوا فَمَا هُمْ بِمُعِذِينَ لَآئِيهِمْ فَسُيِّرُوا بِهِمْ نَزَلَ أَوَّلَ الْآيَةِ لَعَلَّاهُم يَحْزَنُونَ

وَالضَّرَاءُ قَدْ أَخْلَنَهُمْ نَعْنَهُ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿ ٥٢ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الله - جلّت قدرته - يحذر ويحذر لعل الناس تتذكر وتعتز ، إنه - سبحانه - لم يرسل نبياً إلى قوم فقابلوه بالكذب والسكران إلا أخذهم وبأسلأهم بالعقر والنؤس والمرص والصر لعنهم يتوبون إلى ربهم ويدخلون له - سبحانه - ليرفع عنهم ما ابتلاهم به ، ثم لما لم يرجعوا ويقلعوا عما هم فيه من الكفر والفساد اختبرهم وامتحانهم بالهم ، بالخصب والثراء والعافية والرحاء حتى كثروا وزادت أموالهم وخيراتهم ، وقالوا - وهم في ظل تلك النعم - إن ما يصيبنا من سراء وضراء وحير وشر إنما هو سنة الكون ، وعادة الدهر ، فأسلأنا وأبأؤنا كان يحترصهم مثل ما يصيب ، ولما أصروا عن كفرهم باعتهم الله بالعذاب ، وأرسل بهم العقاب المفاجيء - قلهم الله بين الشدة والرحاء ، وعالجهم بالعسر والبسر ، حتى لا تكون لهم حجة على الله ، ولما ظهرت حجة طبعهم وأقاموا على باطلهم أخذهم الله أحد عزيز مقتدر - ولتأمل قوله تعالى في ذلك .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ آلِ نُوحٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَاسِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴾

﴿ ٥٣ ﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَاسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ ابْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿١٨﴾

(سورة الأنعام)

أى لم نجعل بعقبيهم بل تركناهم فتمادوا في المعصية حتى إذا فرحوا بما أوتوا من النعمة والثروة وكثرة لعدد ، أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ، أى يائسون من رحمة الله لو نادى من محسرون ، ولا ينفعهم اسدم حينئذ فقد فانت العرصة وسيتموها حل أنفسهم

إن الحق يزل هذا الأمر كمقابس وبه تكون العقلة صعبة ، إسم يتبادون معاقبهم الحق عقابا صاعقا ، كالدى يرفع كائنا في العشاء ثم يتركه ليهوى على الأرض ، والعصا بها يمكن أن يكون معنى أسم اؤدانو في لطنعيا ، وهالك معنى آخر للعصا ، فقد يأت بمعنى الترك :

﴿ قَمْنُ عَنِ لَدْرِمِنْ أَنْجِهْ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ١٧٤ سورة البقرة)

أى من ترك له أحوه شيئا فليأجده ، إذن فالعصا نارة يكون بمعنى الريادة ، ونارة أخرى يكون بمعنى الترك ، والحق ها بقول ، « ويسألونك ماذا يعقون قل اعصوا » أى أن الإتفاق إنما يكون من الرائد عن الحاجة ، فيكون معنى العصا هو الرائد أو المتروك ، وهكذا يرى أن العمو واحد في كلا الأمرين ، فلا تظن أن المعاني تتصارف ، لأن بها يتحقق المعنى المنصود في النهاية فالعفو هو الريادة ، والعمو أيضا يؤخذ بمعنى الصنع .

إذن فالإتفاق من الرائد عن الحاجة يحقق الصنع ويحقق الرقاعية في المجتمع . بالذى يزرع أرضا ويتبع ما يكفيه هو وعياله ويزيد ، فهل يترك ما يريد عن حاجته ليفسد أم ينفق منه على قربه أو جاره المحتاج ؟ أيها أقرب إلى العقل والمنطق ؟ وكان ذلك قبل أن يشرع الحق الزكاة بنظامها المعروف وما سر تبديلها من عفو إلى زكاة ؟

لأن الحق أراد أن يقدر حركة المتحرك ، فجعل حركته تخفف عنه ولا تثقل عليه  
لأن حركة المتحرك تنفع المتحرك ، أراد المتحرك أو لم يرد ، ولذلك نجد ، زكاة  
الركاو ، وهي الزكاة المفروضة على ما يوجد في باطن الأرض من ثروات كالمعادن  
النحاس والبتول وغيرها ، لقد جمع الحق نصيب تلك الزكاة عشرين في المائة ، أي  
الخمس بينا الذي يحرث الأرض ويبدد فيها الحب ويتركها حتى ينزل المطر فتضمو ،  
فمنها الزكاة هو العشر على ما أنتجت زراعته

وأما الذي يزرع على ماء الرى فعليه نصف العشر والذي يتاجر كل يوم ويتعب  
فبذهب للمتع يشتري منه ، ثم يوهب السلعة على البائع يشتريها ، هذا نقول له :  
عليك اثنين ونصف في المائة ( ٢,٥ ٪ ) فقط .

إذن فالزكاة متناصفة مع الحركة والجهد ، كان الحق يجمع الحركة الإسلامية من  
حق التقنين البشري . إن المتحرك القوي يدفعه الله ليريد من حركته يستمع  
المجتمع ، وأوكل الله للحاكم الذي يبيع منهج الإسلام أن يأخذ من الأثرياء ما يقيم  
به كرامة العفراء . إن يخل الأعياء بفصل الله عليهم ، ولم ينفقوا على الفقراء من  
رزق الله ، فالمنهج الحق يجمع المال من فساد الطمع ، ومن فساد الكسل ، ويريد  
الحياة مستقيمة وأمة للناس .

فالذي ينفق من ماله على أهله يجزا وهو امن . وكذلك من ينفق على أهله وتوابعه  
فتزداد دائرة الأمان ، وهكذا لقد حوى الله بالزكاة طموح البشر من حق التقنين من  
البشر ، فالمنفق من الشريأتى للمتحرك أكثر ويزيد عليه الأعياء ، نقول له : إن هذا  
المتحرك إن لم يقصد أن يجمع المجتمع فالمجتمع سيتضع بجهده بالرغم عنه ؛  
فالإنسان الذي يملك مالا يبقى الله حاطرا في باله ، يقول : « ماذا لو بنيت عمارة من  
عشرة أدوار ، وفي كل دور أربع شقق ، وبحسب كم تعطيه تلك العمارة من عائد كل  
شهر إن هذا الرجل لم يكن في باله إلا أن يبيع ، فتركه يفكر في الربح ، وعندما  
تراقب العائلة التي ستعود على المجتمع مة فسجد العائلة تعود على المجتمع من هذا  
العمل ، ولنا أن نحسب كم فردا سوف يعمل في بناء تلك العمارة الجديدة ؟ ابتداء  
من البنائين ومرورا بالتجارين والحدادين والمبشرين والسباكين وغيرهم

إن كل طبقات المجتمع الفقيرة تكون قد أفدت واستخادت من ما هذا لرجل قبل أن يدخل جيبه مليم واحد ؛ لقد ألقى الله في نفسه خاطراً ، فأخرج كل ما في جيبه ، وألقاه في جيوب الآخرين قبل أن توجد له عمارة . وهكذا يحسب الله حركة المتحرك لأن سره مستفيد سواء قصد إلى ذلك أو لم يقصد .

أما إذا قلنا له . سنأخذ ما يزيد على حاجتك قرراً فلا يد أن يقول لنفسه . « سأجعل حركتي على قدر حاجتي ولا أزيد إلا قليلاً » . والحق هو وجل لا يريد أن يشيع هذا المنطق بين الناس ، ولكن يريد لهم أن يحركوا في الحياة بجلدية والحلال ، وكلما تكاثرت حركتهم تقل الزكاة المفروضة عليهم ، لأن الحركة لا يستفيد منها صاحبها فقط ولكن يستفيد منها المجتمع ، فبعضه يسكن ، وآخر يروع ، وثالث يعمل ، وخير للإنسان أن يأكل من عمل يديه من أن يأكل من صدقات الناس وزكاتهم .

عن المقدم بن عبدكرب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده » ، وإن سئ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده <sup>(١)</sup>

ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْتَئْذِنُكَ عَنِ الَّتِي تَمْنَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ عَايَطُوهُمْ فَلَا يَخَوِّنُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنْ أَلَّ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

إن الحق يبدأ هذه الآية بقوله : « في الدنيا والآخرة » وكأنه يقول له . إياكم أن

تعتفروا أن كل تكليف من الله جراؤه في الآخرة فقط ، أبداً إن الحراء سيصحبكم في الدنيا أيضاً

وتأمل سيرة المستقيمين الملتزمين بمهج دينهم ومهج الأخلاق في حياتهم نجدهم قد أخذوا جزاءهم في الدنيا ربحاً وسعادة وأما حتى أنك تجد أساس تآكل كيف ربي فلان أولاده وكيف علمهم برحم أن مرتبه سيظ ؟

هم لا يعلمون أن يد الله معه بالبركة في كل حركات حياته فلا تظن أن الحراء متصور على الآخرة فقط ، بل يجعل الله بالحراء في الدنيا ، أما الآخرة فهي ريادة ، ويحي بأحد منوع الآخرة بفصل الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : ولا أنا إلا أن يتغمض الله برحمتي »<sup>(١)</sup>

وأحب أن يتأمل كل ما أخوان الناس مستقيمين في مهج الحياة ، ويرى كيف يعيشون وكيف يعفون على أولادهم ، ويأمل البشر والربا الذي يستعبد به ، وكيف تخلو حياتهم من المشاكل والعقد البقية

وكأنه سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أن كل ما جاء في المهج القويم ، إنما جاء ليظلم بها حركة الحياة ويخرجنا من أهواء السوس

ويقول بعد أن استكمل لحق الكلام عن الحج وهو الركن الخامس من أركان الإسلام ، بين لنا جميع من المجتمع . أما الصف الأول فهو الصف المنافق الذي لا ينسجم صفته مع واقع قلبه ونفسه

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلْفَصَامٌ ۚ وَإِذَا تَوَلَّى سَوَّى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ

(١) أخرجه الإمام البخاري ومسلم والإمام أحمد في مسنده والبيهقي وعندهم بروايات مختلفة

## وَالنَّمْلُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَصَادَ ﴿٢٥﴾

(سورة النمل)

ولبت هذا الصنف حين يتنه إلى ذلك يرتدع ويرجع ، لا ، إنه إذ قيل له من ناصح محب مشفق : اتق الله ، أخذته العزة بالإثم !! والصنف لأحرى المجتمع هو من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، ويشتمل ذلك في أنه إما أن يبيع نفسه في القتال ليكون شهيداً ، وإما أن يستبقها استئقاء يكون فيه الخير لمهج الله فقال سبحانه :

## ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْزِي نَفْسَهُ أَسْعَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَاصِينَ﴾

(سورة بقره)

ثم تكلم الحق عن الدحوى في السلم كافة ، والدحوى في السلم أى الإسلام يطلب ما أن يدحر جميعاً في كل أنواع السلم في الحياة ، ستم مع نفسك فلا تعارض ملكائك ، فلا تقول قولاً ينافى قلبك ، وسلم مع المجتمع الذى نعيش فيه ، وسلم مع الكون الذى يخدمك حمداً وهدى وحيواناً ، وسلم مع أمك الذى نعيش فيها ، فقال سبحانه

## ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْهَبُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَقْعُوزُوا حُفُوتِ الشُّبُطَيْنِ ۚ تَكُونُ لَكُمْ

عَٰوِثِينَ ﴿٢٨﴾﴾

(سورة بقره)

كل ذلك يدلنا على أن الحق حين خلق الخلق ، وضع لهم المنهج الذى يضمن لهم السلامة والأمن في كل أطوار هذه الحياة ، هو رُبَّ خيلا أو اضطراباً في الكون ، أو رأيت خوفاً أو قلقاً فاعلم أن مسجداً من مساهج الإسلام قد غُطِلَ وإحق سبحانه وتعالى حينما يأمرنا أن ندخل في السلم كافة فهو سبحانه يحدد لنا أن ريك من المنهج فإن الله عزير حكيم فلا يعليه أحد ، ولا يقدر عليه أحد ، فهو القادر انقوى الذى يجرى كل شئ بحكمة ، فلا تظنوا أنكم بذلك تسبون إلى الله بانزلال عن مسجحه ، وإنما تسبون إلى أنفسكم وإن أبناء حبيبكم ، لأن الله لا يعلب

ويسبها الحق سبحانه تنبيها آخر ، إنه يلتفتا إلى أننا لا نملك أمر الساعة ، فالساعة تأتي بمتة ومعاذة ، صالحة طاعة ، مرجية مرلولة . فاحذروا أن نصيبكم هذه الرجفة وأنتم في عملة عنها . وكل ذلك لدخل أيضا في السلام في اليوم الآخر ، وكان الحق سبحانه يلتفتنا إلى أن كلمات القرآن ليست مجرد كلمات نظرية ، ولكنها كلمات الحكيم الخبير التي حكمت تاريخ الأمم التي سبقت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم .

نكم من آيات أرسلها الحق إلى بني إسرائيل فتلكأوا وكان منهم ما كان ، وشقوا هم . وشقى هم المجتمع ، إذن فالكلام ليس كلاماً نظرياً . ويريد الله لنا أن ننظر بعمق إلى أمور الحياة ، وألا ننظر إلى سطحيات الأمور ، فيحب ألا نمدحنا ربه الحياة الدنيا عن الحياة الآخرة ؛ لأن الحياة الدنيا أمدها قصير ، وعلمنا أن نفيس عمر الدنيا بأعمالنا فيها ، وأعمالنا فيها قصيرة ؛ لأن ما من يموت كثيراً وما من يموت صغيراً

ويرى لنا الحق سبحانه أنه لم يترك خلقه مهملًا ، وإنما أرسل لهم رسلًا يبينون لهم منهج الله ، فكان الناس أمة واحدة مجتمعة على الحق إلى أن تحركت الأهواء في نفوسهم ، ومع ذلك رحمهم الله فلم يسلمهم إلى الأهواء ، بل استمر موكب الرسالات في البشر ، وكلما غلبتهم الأهواء وطم الفساد ، أرسل الحق برحمته رسولاً لينبه إلى أن جاء الرسول الخاتم الذي ميره الله بخنود متبحة ، وجعل القيم في أمة وصارت الأمة المحمدية هي حاملة أمانة حراسة المذهب الذي يصون حركة الحياة في الأرض ؛ لأن الحق سبحانه لم يأمس أمة سواها ، ولدئت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خدام الأسياء

ثم ينها الله من بعد ذلك إلى أن يهايه الإنسان إلى تعيم الله في الجنة لن يأن سهلاً يسوراً ، بل هو طريق محموف باللكاره ، فيحب أن تبهو أنفسكم رتروصوها وتدريبها على تحس هذه المكاره ، وتوطؤها على تحملها لتلك المشاق كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لجعت الجنة باللكاره وحفت اسار بالشهوات) (١)

ويعتني الحق من بعد ذلك عن خلقه أنه أملى للإنسان الخليقة في الأرض عقلاً يفكر به ، وطاقة تنفذ تخطيط العقل ، وكوناً مادياً أمام يتعامل معه في الحركة . فالعقل يخطط ، والطاقة تنفذ في المادة المخلوقة اسسيرة الله . إذن فكل أدوات الحركة موجودة لله ، وليس لك أيها الإنسان أن تخلق شيئاً فيها إلا أن توجه طاقات محدثة للعمل في مادة مخلوقة ، فأنت لا توجد شيء .

وبعد ذلك يطلب الحق منك أيها المسلم أن تحافظ على حركة الحياة ، بأن تقدر للعاجز عن هذه الحركة نصيباً من حركتك ، لذلك فعليك أن تتحرك في الحياة حركة تسعك ، وتوسع من تعول ، وتوسع العاجز عن الحركة . وبذلك تؤمن لنفسك كل عاجز عن الحركة بحركة المتحركين من إخوانه المؤمنين ، وهو سبحانه يطمئتك بأن إذا فعلت ذلك وأنت العاجز ، فهو - حل وعلا - يؤمك حين يطرا عليك العجز .

لقد جعل الله سبحانه حالة الحياة دولاً بين الناس ، فلا يوجد قوم قادرين دائماً ولا قوم عاجزون دائماً ، بل يجعل الحق من العاديين بالأمس عاجزين اليوم ، ومن العاجزين بالأمس قادرين اليوم ؛ حتى تتوزع الحركة في الوجود . وحتى يعلم كل ما أن الله يطلب منك حين تقدر ؛ ليعطيت حين تعجز . لذلك طلب ما أن نسق ، والنسقة على العبر لا تنال إلا بعد استيفاء الإنسان ضروريات حياته ، فكان الحق يقول لك : إن عليك أن تتحرك في الحياة حركة تسعك وتوسع أن نسق على من نعول ، وإلا لو تحركت حركة على قدرك فقد لا نجد ما نسقه .

وبعد ذلك يكلمنا سبحانه بأن كل مؤمن عليه أن يأخذ مسئولية الإنفاق على الدائرة القريبة منه ؛ لينحمل كل موجود في الحياة مسئولية قطاع من المجتمع مربوط به رباطاً شديداً ، كالوالدين والأقربين . وأن نجعل الضعفاء من الأيام مشاعاً على المجتمع مطلوبين من الجميع . سواء كانت تربطهم بنا قرابة أو لا تربطهم بهم قرابة ، لهم جميعاً أقرارنا ؛ لأن الله كلمنا بأن يرعاهم .

ولكن هل يمكن أن يستقر منهج الله دون أن يعاديه أحد ؟ طبعاً لا ؛ لذلك يشهدنا الحق إلى أننا نسجد أقواماً لا يسعدهم أن يعشق منهج الله في الوجود ؛ لأنهم



لا يعشون إلا على مظالم الناس ، هؤلاء قوم مسؤولهم أن يُطوّر صبح الله ، .  
 ملتبهوا هؤلاء ، ولذلك فرض الحق سبحانه القتال حتى تُنزع الغمة بالكفر من  
 لأرض ، لأن الكفر يعدد الآلهة في الكون وسيُتبع كل إنسان أهوى ، ويصبح إلهه  
 هو ، وتتعدد الآلهة بتعدد الأهواء ، ولذلك كتب الله على المؤمنين القتال وقال  
 « وهو كره لكم » ، كل ذلك ليضمن لنا الغاية التي يريد بها ، وهي الدخول في السلم  
 وإسلام الإسلام كافة . وبعد ذلك يطلب من ن يجاهد بأموالنا وأبصارنا وأن نجر  
 أوطاننا وأهلنا إن احتاجت إلى ذلك الحركة الإيمانية هذه

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَخَلَعُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ  
 وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾

(سورة البقرة)

ويلفتنا الحق بعد ذلك إلى منه جهاز التخطيط في الإنسان ليحميه ويجعله جهازاً  
 سليماً قادراً على التخطيط بصفاة وحكمة وقوة ، وهو لعقل ، ويلفتنا بضرورة أن نضع  
 عن العقل كل ما يحمره أي يستره عن الحركة تجمع عنه الخمر لماذا ؟ ليظل العقل كما  
 يريد الله أداة الاختيار بين البدائل .

ومادام العقل هو الذي يخطط لمصافه الموجودة في الإنسان لتعمل في هذه الموحدة  
 في الكون ، فيجب أن يظل هذا العقل المخطط سليماً ، فلا يمارس الإنسان أن يستره ،  
 ولا يقل أحد « إني أستره من مرط ريادة المشكلات » ، لا . لأن المشكلات لا تريد  
 عقلاً واحداً منك فقط ، ولكنها تريد عقليين ، فلا تأتي للعقل الواحد لتحميه بالخمر ،  
 فمواجهة المشكلات تقتضي أن نحفظ تفكيراً قوياً

وبعد ذلك يهدونا الحق أن نأخذ من حركة الآخرين بغير عرف وبغير جهد ،  
 فيهدونا من الميسر وهو الرزق السهل ، والتحذير من الميسر إنما جاء ليضمن لكل  
 إنسان أن يتحرك في الحياة حركة سليمة لا خداع فيها . وكان كل ما تقدم هو من  
 إشرافاته قوله الحق « في الدنيا والآخرة » ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه  
 وتعالى

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتِيمِ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا بِهِمْ فَاسْتَرْشِدُوا اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ يَهْتَدِ  
الْمُتَّقِينَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۚ وَالْوَسَاءُ مِنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكِيمُ ۝﴾

(من الآية ٢٢٠ سورة النجم)

ويعرف أن اليتامى قد لا يدخلون في دائرة المحتاحين بكن الله يسبها إلى أن المسألة في اليتيم ليست مسألة احتياج إلى الاقتيات ، ولكنه في حاجه إلى أن نعوضه بالتكافل الإيماني مما فقده من الأب ، وذلك يجمع عند الحقد على لأطفال الذين لم يمت آباؤهم وحين يجد اليتيم أن كل المؤمنين آباء له فيشعر بالتكافل الذي يعوضه حنان الأب ولا يعاني من نظرة الأسى التي ينظرها إلى أقرانه المتميزين عليه بوجود آباءهم ، وبذلك تخلع منه الحقد

وكان المسلمون القدامى يخلطون أموالهم بأموال اليتامى ليسهلوا على أنفسهم ، وعلى أمر حركة اليتيم مثوبة العمل ، فلو أن يتيم دخل تحت وصاية إنسان ، وأراد هذا الإنسان أن يجعل لليتيم القاصر حياة مستقلة وإدارة مستقلة ومسلك مستقلاً في الحياة لشق ذلك على نفس الرجل ، ولذلك أدن الله أن يخلط الوصي ماله بمل اليتيم ، وأن يجعل حركة هذا المال من حركة ماله ، بما لا يوجد عند الوصي مشقة . ولما نزل قوله تعالى -

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۝﴾

(من الآية ١٥٢ من سورة الأنعام)

وتخرج الناس ، وتساءلوا كيف يعاملون اليتيم خصوصاً أن الحق سبحانه وتعالى قال .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتِيمِ ظُلْمًا إِنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي طُغْيَانٍ نَارًا ۝﴾

(من الآية ١٠ سورة النساء)

وكف الناس أيديهم عن أمر اليتامى ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يسهل

الامر ، فأقول القول الحق : قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم إخوانكم ،  
والخلاطة تكون على أساس أن البناني إخوانكم واحذروا جيدا أن يكون في هذا  
الخلط شيء لا يكون فيه إصلاح لليتيم

وإياكم أن تهملوا أن الشكوى الاجتماعية تكفى الرضى في أن يكون مشرفاً على  
مدل اليتيم دون حساب ، لأن الله يعلم المفسد من المصلح فلا يحاول أحد أن يقول  
أمام الناس إنه قد فتح بيته لليتيم وإنه يرضى اليتيم بينما الأمر على غير ذلك ، لأن  
الله يعلم المفسد من المصلح

ويقول الحق : ولرشاء الله لأهنتكم ، والإعنات هو أن توقع غيرك وتدخله في أمر  
فيه مشقة، فلولا يح الله لكم مخالطهم لأصابتكم مشقة يسر الله للمؤمنين من الأوصياء  
أن يخالطوا البناني ، ومعنى المخالطة هو أن يؤخذ الرضى حركة اليتيم مع حركته ،  
وأن يوحد معاش اليتيم مع معاشه ، بدلاً من أن يكون لليتيم على سبيل المثال أدوات  
صعوم مستقلة ، وقد كان هذا هو الحاصل

وكان يمسك ما يبقى من الطعام ، فسم تكرر هناك وسائل صيانة وحفظ الأطعمة  
مثل التلحاحات ، وكان ذلك صرراً باليتيم ، وصرراً أيضاً عن يشرف عليه ، لكن  
حين قال : وإن تخالطوهم ، فكان ذلك يوفر للمشفقة على الأوصياء ، فالدخالة  
في المعاشرة التي لا يتعذر فيه التمييز .

وقد درسنا في طموحنا درساً بعنوان : الخلط والترح ، والخلط هو أن تخلط عن  
سبيل المثال حبوب القول مع حبوب العدس ، أو حبوب الأرز مع حبوب السمك

وعندما تأتي لتمييز صنف من آخر ، فانت تستطيع ذلك ، وتستطيع أن تفصل  
الصنفين بعضاً عن بعض بالفريال ، ولذلك فالدخالة تكون بين الحبوب  
ونحوها .

أما المزج فهو في السوائل . والحق سبحانه يرشدنا أن نحافظ النيام لا أن نمزج ما هم بمالنا ، لأن اليتيم سيصل يوماً إلى سن الرشد ، وسيكون على الوصي أن يسهل ماله عن مال اليتيم .

وتابع الحق . والله يعلم المفسد من المصلح ، لأن الوصي قد يدعى أمام الناس أنه يرضى حق اليتيم ، وأنه يقوم بمصاحبة ويحترم ماله ، لكن الأمر قد يختلف في البينة وهو سبحانه لم بكل الأمر إلى ظواهر فهم المجتمع لسلوك الوصي مع اليتيم وعن المحاطة ، بل بسب ذلك كنه إلى رفاقته سبحانه ، وذلك حتى يحتاط الإنسان ويعرف أن رقابة الله فوق كل رقابة ، ولو شاء الحق لأعبت الأوصياء وجعلهم يعملون لليتيم وحده ، ويفصلون بين حياة اليتيم وحياتهم ومعاشهم . وفي ذلك مشقة شديدة على النفس . وحتى نفهم معنى الفتى بدقة فلنقرأ قول الحق سبحانه .

﴿ لَمَّا جَاءَكَ رَسُولٌ مِّنْ أَمْصِكَزْ عَزِيْزٌ عَلَيْهِ مَافِيْمَ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِيْنَ رَافٍ ﴾

رَحِيْمٌ ﴿١٢٦﴾

(سورة التوبة)

لقد جاءكم أيها المؤمنون رسول منكم ، عزي ومن قريش يبلغكم رسالة الله سبحانه وتعالى بحرص عليكم كيلا تقعوا في مشقة أو تعيشوا في ضنك الكفر ، حريص على أن تكونوا من المهتدين . فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت من جس الملائكة ، ولكن جاء من جس الشر ، فلا يقول أحد ، إنه لا يصلح أمرة لي . إنه نشأ في مكة التي تعيش بها قريش ، وتاريخه معروف بقومه . بلبل أهم حلوه عليه أو الأوصاف المطلوبة والواجبة للرسالة وهي الأمانة ، فالحق جاء به من الشر وليس بشرب عليهم ، وبمجرد أن أخبر بالوصي وحد أباسا آمنوا به قبل أن يقرأ قرآنا ، وقبل أن يأتيهم بتحديد .

فحينما جاءه الملك جبريل عليه السلام في عار حراء ، فقال: اقرأ . قال : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، [ أي صمى وعصرى ، والحكمة فيه شعلة عن الالتفات لكون فيه حاصراً ] ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا

بقارىء فأحذق ففعلنى الثانية حتى بلغ من الجهد ثم أرسلنى وقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء . فأحذق الثالثة ففعلنى ثم أرسلنى فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجع فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال لها : « زملونى . زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : « لقد خشيت على نفسى » لكن خديجة رضى الله عنها بحسن استنباطها تقول : « كلا والله لا يخزيك الله أبدا إناك لنهل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق » (١)

إن خديجة رضوان الله عليها تستبط أن من فيه هذه الخصال إنما هو مهيأ للرسالة

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ حَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾

( من الآية ١٢٨ سورة النور )

أى محب لكم يشق عليه ويتعبه ما يشق عليكم ويتعبكم ؛ ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم مشغولا بآمته . ويروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « آمئى . آمئى . آمئى » .

والحق سبحانه وتعالى يحسم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشغول بآمته .

عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم « رب ابنى أصبلى كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى الآية » . وقال عيسى عليه السلام : « إن تعديهم فإني عبدك وإن تغفروهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ورفع يديه وقال اللهم آمئى آمئى وبكى فقال الله عز وجل : « يا جبريل اذهب إلى محمد وريك أعلمه صله ما يبكيك » فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إما سنرصيك وإما سنوذك (٢) .

(١) رواه البخارى باب كيف كان بدء الوحى

(٢) رواه مسلم

إننا عندما ننأى دقة الجواب السوى نعرف أن الرسول الكريم مشغول بأمه ، ولكنه ينظر إلى أمه على أنه أح لكل مؤمن . والأح قد يتغير على أخيه . لذلك لم يشأ الرسول الكريم أن يخرج أمر المسلمين من يد الله ورحمته وهو الخالق الكريم إلى أمره هو صلى الله عليه وسلم .

إن الرسول يعرف أن الله أرحم بخلقه من أى إنسان ، حتى الرسول نفسه . نقول ذلك في معرض حديثنا عن الميت الذى يمكن أن يصاحبه إنسان إن لم يبرح حق الله في مال اليتيم ؛ لأن الله عزير حكيم ، وهو الحق الذى يعيب ولا يعليه أحد . ويرى في قول الحق : « إن الله عزير حكيم » أن صفة العزة ماردة بصفة الحكمة

وبعد ذلك يدخل معنا الحق سبحانه وتعالى في مسألة جديدة لربطنا ليها لوجدناها أساس أى حركة في الحياة وفي المجتمع ، إنها مسألة الزواج . ويريد سبحانه أن يضمن الاستقرار والسعادة للنكاث الذى كرمه وجعله خليفة في الأرض ، وجعل كل الأجناس مسخرة لخدمته

إن الحق يريد أن يصدر ذلك نكاث عن يسوع مبهى واحد ، لأن الأهواء المتضاربة هي التي تفسد حركة الحياة ، فأراد أن يصدر المجموع الإنسان كله عن يسوع عقدي واحد ، وأراد أن يحمي ذلك اليسوع من أن يتغير بعدد التزعات والأهواء ، لذلك بيها الحق إلى هذا الوصف : به سبحانه يريد سلامة الوعد الذى سيوحد ذلك الإنسان ، من بعد الزواج ، فالروح يجب الإنسان وتتمتع الحياة بالنكاث . ولذلك لا بد من الدق في اختيار اليسوع الذى بأن منه السبل ، فهو سبحانه يقول

﴿ وَلَا تُشْكِرُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُشْكِرُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى

يُؤْمِنُوا وَلَمْ يَدْعُوا مِنْ خَيْرٍ مِنْ مُشْرِكِيهِمْ وَلَوْ أَعَجَبَكُمْ أُولَئِكَ  
يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ  
وَرَبِّينَا أَيُّهَا النَّاسُ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣١﴾

إن الحق يقول : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » ، وهذه « أول لبنة في بناء الأسرة وبنائها لمجتمع » ، لأنها لو لم تكن مؤمنة ، فهذا سوف يحدث ؟ إنها ستشرب على تربية الطفل لوليد إشراقا يناسب مع إشراقها ، وأنت مهمتك كتاب ومرب لئلا تنشأ إلا بعد مدة طويلة تكون فيها مسائل قد غرست في الوليد ، عليك أن يكون الرجل مومنا والمرأة مشركة ، لأن هذا يجعل نظام الأسرة معطل الأم مع الولد يؤثر في أوليات تكوينه إنه يؤثر في قيمه ، وتكوين أخلاقه . وهذا أمر يبدأ من لحظة أن يرى ويحس ، ولطف يقضي سوائه الأولى في حرص أمه ، وبعد ذلك يكبر ، فيكون في حرص أبيه ، فهذا كانت الأم مشركة والأب مؤمنا فإن الإيمان لن يلحظه إلا بعد أن يكون الشراك قد أخذ منه وتمكن وتسلط عليه .

ونعرف أن الطمولة في الإنسان هي أطول أعمار الطمولة في الكائنات كلها ، فهناك طمولة عمك ساعتين اثنتين مثل طمولة الدباب ، وهناك طمولة أخرى تستغرق شهرا ، وأطول طمولة إنما تكون في الإنسان ، لأن هذه الطمولة مناسبة للمهمة التي سيقوم بها الإنسان ، كل لطمولات التي عليها طمولات لها مهمة سهلة جد ، إنما الإنسان هو الذي ستأثر منه القيم ، لهذا كانت طمولة طويلة ؛ إنها تستمر حتى فترة بلوغ الحلم . والحلو هو التعامل

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَقِيمُوا كَمَا اسْتَقْدَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ  
بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾

فكان لطفل يظل طفلاً إلى أن يبلغ الحلم ، فكيف سة إذن مستمر على الطفل ؟ .  
وكم سة سوف يتقضى هذا الطفل من يسابيع الشرك إن كانت أمه مشركة ؟ إنها فترة  
طويلة لا يمكن له من بعد ذلك أن يكون مؤث غير مضطرب المنكث . وإن صلح  
مثل هذا الإنسان أن يكون مؤمناً فسيقوم إيمانه على القهر والقسر والولاية للأب ،  
وسيكون مثل هذا الإيمان عملية شككية ليست مرتكزة ولا معتمدة على أساس  
صادق

ونحن نعرف أن الثمرات التي نهم نحن بأكلها لا يكون مضجها إلا حين تنضج  
البذرة التي تكون بها شجرة جديدة ، وقبل ذلك تكون مجرد فاكهة فجة وليس لها  
طعم . وقد أراد الحق أن ينهنا إلى هذا الأمر ليحرص الإنسان على أن يستفي الثمرة  
إلى أن تنضج ويصير لها بذور .

إن المرأة لا تكون ثمرة طيبة إلا إذا نحتت مثلها ولداً صاحباً نافعاً ، يريد الحق  
للنساء أن يكون غير مضطرب الإيمان ، لذلك يقول : « ولا تنكحوا لمشركات حتى  
يؤمن » أي إياكم أن تتخذوا بالمعايير الخاطئة الباطلة ، وعمل كل منكم أن يأخذ حكم  
الله . « ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم » لأن أعجب الإنسان بالمرأة  
بصرف النظر عن الإيمان سيكون إعجاباً قصير العمر .

إن عمر الامتناع بالحبال الحسي للمرأة إن حمنا خطاته فلن يزيد مجموعته عن  
شهر من مجموع سنوات ازواج . فكل أسوء يتم لقاء قد يستمر دقائق وبعضه  
يدخل الحبال ، وهي القيمة هي المتحركة ، ونحن نجد المرأة حين تزوج ، ثم  
يظهر الحمل فلها تعاق من الفلق وكذلك أهلها

إن الرجل إن كان قد تزوجها للرئاسة والقسامة والقوام والعيب ، فهذا كله  
سيبرد ويهدأ بعد فترة ، ثم توجد مقاييس أخرى لاستبقاء الحياة ، وعندما يلتفت إليها  
الإنسان ولا يجدها فهو يعرف في الندم : لأنها لم تكن في ياله وقت أن اختار .

لذلك تريد المرأة أن تكون لنفسها بأن يكون عندما ولد لثري الرجل بها ، وحتى



يقول المجتمع : عليك أن تتحملها من أجل الأولاد ، فالرجل بعد الزواج يريد شيئاً آخرى غير القيم الحسية التي كانت ناشئة أولاً ، لذلك يحذرنا الله قائلاً : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » . وجاء قوله : « حتى يؤمن » لأن الإسلام يحب ما قبله ما دامت قد آمنت فقد انتهت المسألة .

وانظروا إلى دقة قوله سبحانه : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » ولأمة مؤمنة خير من مشركة ، أي إن الأمة المسلمة خير من حرة مشركة ، « ولو أعجبكم » لقد جاء قول الحق من بمقاييس الإعجاب الحسى . ليلفتنا إلى أننا لا يصح أن نهمل مقاييس خالدة وبأخذ مقاييس بائنة وزائلة

ثم يقول الحق : « ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا » وهذا هو التعبير في الخطاب وهو ليس متقابلاً فهو لم يخاطب المؤمنات ألا ينكحن المشركين ، إنما قال : « ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا » وتلك دقة في الأداء هنا ، لأن الرجل له الولاية في أن ينكح ، فيأمره بقوله له : لا تنكح ، لكن المرأة ليس لها ولاية أن تنكح نفسها . فتحن يعرف القاعدة الشرعية التي تقول : « لا نكاح إلا بولي » ، وهو لم يدرجه حديثه للنساء ، لأن المرأة تتحكم فيها عاطفتها لكن وليها ينظر للأمر من مجموعة زوايا أخرى تحكم المؤلف .

صحيح أننا نستاذن الفتاة البكر كي تضمن أن عاطفتها ليست مصدودة من هذا الزواج ، لكن الأب أو ولي الأمر الرجل يقيس المسائل بمقاييس أخرى ، فلم نتركنا للفتاة مقياسها لتهدم الزوج بمجرد هدوء العاطفة ، وساعة تأتي المقاييس العقلية الأخرى فلا تجد ذلك الزواج مناسباً لها فتفشل الحياة الزوجية . لذلك يطالبنا الإسلام أن نستشير المرأة ، كيلا غايتها بواحد نكرهه ، ولكن الذي يروجها إلى ذلك الرجل هو وليها ، لأن له المقاييس العقلية والاجتماعية والعقلية التي قد لا ننظر إليها الفتاة ، فقد يهرها في الشاب قوامه وحسن شكله وجاذبية حديثه ، لكن عندما تدخل المسألة في حركة الحياة ودوامتها قد تجد إنساناً غير جدير بها .

ولكن نكون للمسألة منجماً من عاطفة بنت ، وعقل أب ، وحرمة أم ، كان لابد من

استشارة الفتاة ، وأن يستير الأب رأى الأم ، ثم يقول الأب رايه أحيراً ، وكل زواج يأتي بهذا الأسلوب فهو رواج يخالفه التوفيق ، لأن المعايير كلها مشتركة ، لا يوجد معيار قد احتل ، فالأب يرى حكماً عن أساس موازنة الآسة ، أما إذا رفضت الفتاة وكانت معايير الأب صحيحة ، لكن الآسة ليس لها ثقل لهذا الرجل ، لذلك فلا يصح أن يتم هذا الزواج

وكثير من البريجات قد فشلت لأن لم يجد من يعطى منهج الله في الدخول إلى الزواج ، وحين لا يعطون منهج الله في الدخول إلى الزواج ثم يُقدِّلون بالفضل ، فهم بصريحون مناديين قواعد الإسلام لتقدمهم

وسألهم : وهل دخلتم الزواج على دين الله ؟ إنكم مادهم قد دخلتم الزواج بدارائكم المعزولة عن منهج الله فاشعلوا المسألة بأرائكم . فالدين ليس مسئلاً إلا حين يدخل بمقاييسه ، لكن أن ندخل على الزواج بغير مقاييس الله ثم نتردد من الله أو من القائمين على أمر الله أن يحلوا لك المشاكل فذلك ظلم منك لنفسك وللقائمين على أمر الله . وإن لم تحدث مثل هذه المشكلات لكما قد اتهمنا منهج الله . ولعلنا قد تركنا منهج الله وسعدنا في حياتنا . لذلك كان لابد أن تقع المشكلات

إذن يقول الحق سبحانه وتعالى : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » هذه قصة لها سبب ، لكن العبرة فيها بعموم موضوعها لا بخصوص سببها ، فقد كان لسبب فيها هو ما زعمى أنه كان هناك صحابي اسمه مرتد بن أبي مرتد العنوي بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين . وكان يهودي امرأة في الجاهلية اسمها « عناق » وكانت تحبه ، وسأعه بأنه أرادت أن تحلوه فقال لها : وبحك إن الإسلام قد حال بيننا ، فقالت له : تروحي ، فقال لها : أتروحك لكن بعد أن أسأمر وأستأذن النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما استأمره نزل قوله تعالى : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » ولأمة مؤسسة خير من مشركة ولو أعجبكم .

وقيل إن قوله تعالى : « ولأمة مؤسسة خير من مشركة ولو أعجبكم » نزلت في خيماء<sup>(١)</sup> وليمة سوداء كانت للجديدة بن اليهان ، فقال لها جدبعتيا خيماء قد ذكرت

(١) الخيماء : الخيماء في قصة الأنثى مع ارتفاع دليل في طرف الأنثى

في الملا الأعلى مع سوادك ودمامتك وأمر الله ذكرك في كتبه ، فأعنتها حديعة  
وتزوجها

ويتابع الحق فيقول : « ولا تكفروا المشركين حتى يؤمنوا ولصد مؤمن حرم من  
مشارك ولو أعجبكم » إن المقاييس واحدة في اختيار شريك الحياة ، إما الرعة في  
بناء الحياة الأسرية على أساس من الخير ، وغاية كل شيء هي التي تحدد قسمة ،  
وليس الوسيلة هي التي تحدد قيمة الشيء ، فقد تسير في سبيل وطيق حطرت وغاية  
فيها خير ، وقد تسير في سبيل مفرش بالورود والرياحين وغاية شر . ولذلك يقول  
الحق : « أوتيتك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس  
لعلهم يتذكرون » والذين يدعون إلى النار هم أهل الشرك أما الله فهو يدعو إلى  
الحياة ، والمغفرة تأتي بإذن الله أي تتيسر الله وتوفيقه . ويعرف جميعاً الحكمة التي قالها  
الإمام دعي : كرم الله وجهه لا خير في خير بعده النار ، ولا شر في شر بعده  
الجنة

وقوله الحق : « لعلهم يتذكرون » ترد كثيراً ، هذا التذكير ماذا يعمل ؟ إن نتذكر  
بشعرك بأن القضية كانت معلومة والمعملة هي التي طرأت ، لكن المعملة إذا نسيت  
إليها ، فهي تذكرك ما كنت قد سبته من قبل ، لكن إن طالت المعملة ، ونسي  
الأصل فهذه هي الظلمة ، التي تضمن بها المأثمة

إذن التذكر يشمل مراحل المرحلة الأولى أن تعرف إن لم تكن تعرف ، أو  
تعلم إن كنت تجهل ، والمرحلة الثانية هي أن تتذكر إن كنت ناسياً ، أو توائم بين  
ما تعلم وبين ما تعمل ، والتذكر يوحى لك بأن توائم ما بين معرفتك وسنوكك حتى  
لا تقع في الجهل ، والجهل معناه أن تعلم ما يناقض الحقيقة لقد أراد الله أن يهون  
الإنسان الذي احتار الإيمان عندما حرم عليه الزواج بواحدة من أهل الشرك

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن لمن جعله خليفة في الأرض عهده واحدة  
يصدر عنها السلوك الإسلامي ، لأن العقائد إن تورعت حسب الأهواء فستورع  
السنوك حسب الأهواء وحيث يتبع السنوك تتعاند حركة الحياة ولا تتساند

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يضمن وحدة العقيدة بدون مؤثر يؤثر فيها ؛ بشرط أن يسهل البنية الأولى للأسرة ألا ينكح مؤمن مشركة ، لأن المشركة في مثل هذه الحالة مقبولة حصانة العمل لمدة طويلة هي - كما قلنا - أطول أعمار العنقولة في الكائن الحي ولو كان الأب مؤمناً والأم مشركة فالأب سيكون مشغولاً بحركة الحياة فتتأصل عن طريق الأم معظم القيم التي تتناقض مع الإيمان .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أيضاً ألا تتزوج المؤمنة مشركاً ؛ لأنها بحكم رواجها من مشرك مستقلة إليه وإلى بيته لمشركة وإلى أسرته - وينشأ طفلها الوليد في بيئة شركية فتتأصل فيه الأنساب القيمة التي تتناقض مع الإيمان - ويريد الحق سبحانه وتعالى بهذه العناية ، أي بعدم رواج لمؤمن من مشركة ، وبعدم زواج المؤمنة من مشرك ، أن يحصى الخصاص الأول للطفولة - وحين يحصى الخصاص الأول للطفولة يكون اليسوع الأول الذي يصدر عنه بربية عقيدة الطفل سوماً واحداً ، فلا يتبدل بين عقائد متعددة . بذلك جاء قول الحق :

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ۚ وَلَآئِمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ  
وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ  
أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۚ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۚ وَبَيِّنَ الْبَشِيرَ  
وَالنَّارَ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ۝ ٢١٧ ﴾

( سورة البقرة )

كل ذلك حتى يضمن الحق البيئة التي ينشأ فيها الوليد الجديد . وعليها أن يفهم أن الحق سبحانه وتعالى رخص للمؤمنين في أن ينكحوا أهل الكتاب بقوله الحق

﴿ الْبَرَمَ أَجَلٌ لَّكُمْ أَطَّيَّبَتْ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ  
حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن

قِيلَ إِذَا تَبَيَّنُوا مِنْ أَجُورِهِمْ مُحْصِينَ عَمْرٍ مُسْتَعِينٌ وَلَا تَحْزَنْ لِقَدَرِ  
وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤١﴾

(سورة النحل)

وقد وقف العلماء من مسألة ترحيص الحق للمؤمنين في أن يتزوجوا من أهل الكتاب موقفين : الموقف الأول : هو موقف مانع ، لأن بعض العلماء رأى أن أهل الكتاب قد يحرفون في معتقداتهم إلى ما يجهلهم في الشرك ، وقالوا . وهل هناك شرك أكثر من أن تدعى الربوبية لبشر ؟ والموقف الثاني : أجاز بعض العلماء أن يتزوج الإنسان من كاتبة ويحب عليه أن يسأها أهى تدين بالوهمية أحد من البشر أم تدين بالله لوأحد الفهار ؟ فإن كانت المسألة مجرد الخلاف في الرسول فالأمر بهون ، أما إن كانت تؤمس بالوهمية أحد من البشر بجانب الله فقد دخلت في الشرك وعمل المؤمن أن يحتاط .

وإذا كان للرجل اولاية وله أن يتزوج بكتاتبة فهو غالباً ما ينقلها إلى بيته هو وستكون البيته المؤثرة واحدة ، ووجود الولاية للأب مع الوجود في البيته الإيمانية سيؤثر ويخفف من تأثير الأم لكتاتبة على أولادها ، وإن كان هل الانسداد أن يتنقط إلى أن هناك ممالك تلتطف وتسلل بأحية الشرك ، فمن الخير أن يتعد المسلم عن ذلك ، وأن يتزوج ويحسم ويعف فتاة مسلمة

وحين يحصى الحق سبحانه وتعالى الخصاصة الأولى للطفل هو يريد أن يرى في الطفل عدم التوزع ، وعدم التمرق ، وعدم التناظر بين ملكاته وحسن تصميم للطفل التواجد والنشأة في بيته منألفة فهو ينشأ طملاً سوياً . والإسلام يريد أن يحافظ على سوية هذا الطفل . ويفوق بعض الناس . ولماذا لا نوجد محامس جماعية ؟ وكأنهم بذلك يريدون أن يملوا الإشكال

نقول لهم ، إن الإشكال م يحل عند الذين فعلوا ذلك من قبل ، ولذلك فعندما نقرأ مؤلفاتهم مثل كتاب « أطفال بلا أسر » نستجد أن لطفولة عندهم معدية ولماذا

ندعهم بعيداً ؟ إننا عندما نتتبع كيفية الشاة الجماعية للأطفال في أسر ثيل والمحوث العلمية تؤكد على أن الأطفال يعيشون في بؤس رهيب لدرجة أن الشول اللا إرادى ينتشر بينهم حتى من الشباب .

وكيف ينبى عن بالنا أن الطفل يظل حتى تصل سه إلى عامين أو كثر وهو يظن ألا يشاركه فى أمه أحد ، حتى وإن كان أحاً له فهو يغار سه مما بالك بأطفال متعددين تقوم امرأة لبست أمهم برعايتهم ؟ ولا ينبى عن حان الأم حان مائة مربية ؛ وليس للمربيات حياً قلب الأم التى وبذت الطفل ، فاحسان الذى تعطيه لأم ليس حاناً شكلاً ولا وظيفياً ، ولكنه طبيعة حياة حبتها الله تمنحها العطاء الصحيح ، لذلك لابد من إعطاء الطفل فترة يشعر فيها بأن أمه لى ولدت له رحدة ، ولا يشاركه فيها أحد حتى لو كان أحاً له ، ونمر عليه فترة بعد أن يخرج من مهد الطولة الأولى إلى الشارع ليجد حركة الحياة ، ويجد لقائين على حركة الحياة هم الرجال وآءه أمثاله من الأطفال يحب بعد ذلك أن ينسب إلى أب له كيان معروف فى المجتمع الخارجى

ومن مقومات تكوين الطفل أن يشعر ن له أننا لا يشاركه فيها أحد ، وأن له أباً لا يشاركه فيه أحد ، وإن شاركه فيها أحد فهم إخوانه ويضمهم ويشملهم جميعاً حسان الأم ورعاية الأب ، لقد اعرف أهل العلم بربية الأطفال أن احتياج الطفل لأمه هو احتياج هام وأساسى لمرسه لمدة عامين وبصفة من الشهور ، ونحن نأرد ونعائى حين أبول على رسوله قبل أربعة عشر قرناً من الآن ؛ القول الحكيم الصادق بين هذه الحقيقة واصحة فى أجل صورها

﴿ رَوَّضَبَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِضْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَعَّ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْرِغْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي اتَّقِيتُ الْإِثْمَ وَالْإِسْكَ وَلِئَلِّي مِنَ الْمُتْلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

إن الأم هي الخاصة الطبيعية للطفل كما أرادها الحق . إذن ، فالحق يريد أن يحبس البنت الأولى في تكوين المجتمع وهي الأسرة في الباء العفدي من أن تتأثر بالشرك ، ويريد أن يحفظ للأسرة كياناً سليماً .

ويعالج الحق بعد ذلك قضية التواصل مع المرأة أثناء فترة الحيض فيأمر التشريع ليس هذه المسألة لأن الإسلام جاء وفي الحو الاجتماعي تياران :

تيار يرى أن الخائض هي امرأة تعاني من قذارة ، لذلك لا يمكن للزوج أن يأكل معها أو يسكن معها أو يعاشرها أو يعيش معها في بيت واحد وكذلك أبناؤه . وتيار آخر يرى المرأة في فترة الحيض امرأة عادية لا فرق بينها وبين كونها غير حائض أي تبشر حياتها الزوجية مع زوجها دون تحوط أو تحفظ . كان الحال - إذن - متارحفاً بين الإفراط والتضييق ، فجاء الإسلام ليضع حداً لهذه المسألة فيقول الحق سبحانه وتعالى :

وَسْتَأْتُونَكَ مِنَ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا  
النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ  
فَإِذَا نَطَّهَرْنَ فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ  
يُحِبُّ الْمُتَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

حين تقرأ « هو أذى » فقد أحدث الحكم من يؤمن على الأحكام ، ولا تناقض المسألة ، ومهما قال الطب من تفسيرات وتعليقات وأسباب نقل له لا ، الذي خلق قال . « هو أذى » . والمحيض يطلق على الدم ، ويراد به - أيضاً - مكان الحيض ، ويراد به زمان الحيض

وقوله الحق من المحيض إنه أذى يعني الدهن لأن ينلقى حكماً في هذا الأذى ،  
وبذلك يستعد الدهن للخطر الذي سيأتي به الحكم . وقد جاء الحكم بالخطر والنوع بعد  
أن سبقت حيثته .

إن الحق سبحانه وتعالى وهو الخالق أراد أن تكون عمية الحيض في المرأة عملية  
كحيوية ضرورية لحيتها وحياة الإنجاب . وأمر الرجال أن يعتزلوا النساء وهي  
حوائض ؛ لأن الحيض أذى لهم . لكن هل دم الحيض أذى للرجال أو للنساء ؟ إنه  
أذى للرجال والنساء معا ؛ لأن الآية أطلقت الأذى ، ولم تحدد من المقصود به  
والذي يدل على ذلك أن الحيض يعطى قذرة للرجل في مكان حساس هو موضع  
الإبرال عده ، فإذا وصلت إليه الميكروبات تصيبه بأمراض خطيرة

والذي يحدث أن الحق قد خلق رحم المرأة وفي مبيضها عدد محدد معروف له  
وحده سبحانه وتعالى من البويضات ، وعندما يقرر أحد المبيضين البويضة فقد لا يتم  
تلقيح البويضة ، فإن بطانة الرحم المكون من أنسجة دموية نقل فيها نسبة الهرمونات  
التي كانت تثبت بطانة الرحم ، وعندما تقل نسبة الهرمونات يحدث الحيض

والحيض هو دم يحتوي على أنسجة غير حية ، وتصبح منطقة المهبل والرحم في  
حالة تهيج ، لأن منطقة المهبل والرحم حساسة جداً لمسور الميكروبات المسببة  
للالتهابات سواء للمرأة ، أو للرجل إن جامع زوجته في فترة الحيض . وحيض  
بصيب المرأة بأذى في فونها وجسدها ؛ بدليل أن الله رحمها ألا تصوم وألا تصل  
إدن فالمسألة مبككة ومتعة لها ، فلا يجوز أن يرهفها الرجل بأكثر مما هي عليه

إذن فقوله تعالى : « هو أذى » تعميم بأن الأذى يصيب الرجل والمرأة وبعد تلك  
يبيّن الحق أن كلمة « أذى » حيثية تتطلب حكماً يرد ، إما بالإباحة وإما بالخطر ،  
ومدام هو أذى فلا بد أن يكون خطراً .

يقول عمر رجل : « فاعتزلوا النساء في الحيض ولا تقربوهن » والذي يقول إن  
الحيض هو مكان حيض يعني قوله بأن المحرم هو المباشرة الجنسية ، لكن ما فرق



السرة وما فوق الملابس فهو مباح ، ف قوله الحق : « ولا تقربوهن » أى لا تأتوهن في المكان الذي يأتي منه الأذى وهو دم الحيض « حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله » . « ويطهرن » من الطهور مصدر طهر يههر ، وعندما تأمل قوله : « فإذا تطهرن » نجد أنه لم يقل : « فإذا طهرن » ، فما الفرق بين « طهر » و « تطهر » ؟

إن « يطهرن » معناها امتنع عنهن الحيض ، و « تطهرن » يعنى اغتسلن من الحيض ، ولذلك نشأ خلاف بين العلماء ، هل بمجرد انتهاء مدة الحيض وانقطع الدم يمكن أن يباشر الرجل زوجته ، أم لابد من الانتظار حتى تتطهر المرأة بالاعتسال ؟

وخروجنا من الخلاف بقول : إن قوله الحق : « تطهرن » يعنى اغتسلن ولا مباشرة قبل الاعتسال . ومن عجائب ألفاظ القرآن أن الكلمات تؤثر في استنباط الحكم ، ومثال ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُ لَقَرَّاءٌ أَنْ يُحَرِّمَ ۖ فِي كِتَابٍ مُكُونٍ ۚ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ (٧٨)

( سورة الواقعة )

ما المقصود إذن ؟ هل المقصود أن لقرآن لا يمسه إلا الملائكة الذين طهرهم الله من الخبث ، أو أن للبشر أيضا حق الإمساك بالمصحف لأنهم يطهرون ؟ بعض العلماء قال : إن المائة لابد أن يدخلها في عموم الطهارة ، فيكون معنى « إلا المطهرون » أى الذين طهرهم من شرع لهم التطهير ، ولدلت فالمسلم حين يغتسل أو يتوضأ يكون قد حدث له أمران التطهر والتطهر .

فالتطهر بالعمل هو الوضوء أو الاعتسال ، والتطهر بتشريع الله ، فكما أن الله طهر الملائكة أصلا فقد طهرنا معشر الإنس تشريعا ، وبذلك بهم الآية على إطلاقها ويرفع الخلاف . وقول الحق في الآية التي نحن بصدد حواظرها هنا : « حتى يطهرن » أى حتى يأذن الله من التطهر ، ثم يغتسلن استجابة لتشريع الله لمن بالتطهر « فأتوهن من حيث أمركم الله » يعنى في الأماكن للحلال

« إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » وأراد الحق تبارك وتعالى أن يدخل عليك أنسا ، فكما أنه طلب منك أن تتطهر مادى فهو سبحانه قبل أبصاً منك أن تتطهر معنويا بالتوبة ، لذلك جاء بالأمر حيا ومعنويا . وبعد ذلك جاء الحق سبحانه وتعالى بحكم جديد ، هذا الحكم ينس إشكالا أثله اليهود .

وقد كان اليهود يشيرون أن الرجل إذا أن امرأته من حلف ولوى قُبها - بصم العاف - جاء الولد أحول . وه الفصل ، هو مكان الإتيان ، وليس معناه الإتيان في الدبر والعياد بالله كما كان يفعل قوم لوط . وبما كان هذا الإشكال الذى أثاره اليهود لا أساس له من الصحة فقد أراد الحق أن يرد على هذه المسألة فقال :

﴿ يَسْأَلُكُمْ خِثْلُ لَكُمْ فَاَنْتَوَا حَرِّثَكُمْ اَنْ يَشْتُمَ  
وَقَدْ مَوَّ لَانْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا  
اَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

إن الحق سبحانه وتعالى يصح المجال للتمتع للرجل والمرأة على أى وجه من الأوجه شريطة أن يتم الإتيان في محل الإتيان . وقد جاء الحق بكلمة « حرث » هنا بوضوح أن الحرث يكون في مكان الإتيان « فانتوا حرثكم » وما هو الحرث ؟ الحرث مكان استنابت لسات ، وقد قال تعالى

﴿ وَبَشِّرِ الْحَرَّ وَالنَّارَ ﴾

( من الآية ٢٠٤ سورة البقرة )

فانتوا امرأة في مكان الررج ، ررج الولد ، أما المكان الذى لا يسب منه الولد فلا تقربوه . وبعض الناس فهموا خطأ أن قوله « فانتوا حرثكم أن يشتم » معناها إتيان المرأة في أى مكان ، وذلك خطأ ؛ لأن قوله : « سألكم حرث لكم » يعنى محل

استنبات الزرع ، والزرع بالنسبة للمرأة والرجل هو الرلد ، فأتىها في المكان الذي يعجب انولد على أى جهة شئت .

ويتابع الحق : « وقدموا لأنفسكم » أى إياك أن تأخذ المسألة على أنها امتناع جنسى فحسب ، إنما يريد الحق سبحانه وتعالى بهذه اللمزة الجنسية أن يحصى متاع ما ينشأ من هذه اللمزة ، لأن الدرسه التى متأتى من اثر اللقاء الجنسى سيكون لها متاع وتكاليف ، ولو لم يربطها الله سبحانه وتعالى بهذه اللمزة لرهد الناس في الجماع

ومن هنا يربط الحق سبحانه وتعالى بين كدح الآباء وشقايتهم في تربيته أولادهم بلمزة الشهوة الجنسية حتى يضمن بقاء النسل الإنساني . ومع هذا يحذرننا الحق أن يعتبر هذه اللمزة الجنسية هي الأصل في إتيان النساء فقال « وقدموا لأنفسكم » ، يعنى نظروا جيداً إلى هذه المسألة على ألا تكون هي الغاية ، بل هي وسيلة ، فلا تفلتوا الوسيلة إلى الغاية ، « وقدموا لأنفسكم » أى ادخروا لأنفسكم شيئاً ينفعكم في الأيام المقبلة .

إذن ، فالأصل في العملية الجنسية الإحجاب . « وقدموا لأنفسكم » أى لا تأخذوا المتاع الدخلى المعجل على أنه هو الغاية بل خذوه لما مرأت رقيب يقدم لأنفسه ؟ أو ماذا يفعل ؟ حتى لا نشقى بحس يأتى ، وعليك أن تسيير هذه العملية فقدم لنفسك شيئاً يريحك ، والمعل ما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ساعة تأتي لهذه العمة وتقترب من روحك لا بد أن تسمى الله وتقول « اللهم جنبني الشيطان وجب الشيطان ما رزقتى » ، وعندما يأتى المسلم أهله وينشأ وليده فلن يكون للشيطان عليه دخل . وقال بعض العلماء لا يمكن أن يؤثر فيه سحر ، ماذا كل ذلك ؟

لأنك ساعة استنبته أى ورثته ، ذكرت الحبيب وهو الله عز وجل . وما دمت ذكرت الميت الخالق فقد جعلت لابنك حصانة أبدية . وعلى عكس ذلك ينشأ الطفل الذى ينسى والده الله عندما يباشر أهله فيقع أولاده فريسة لشياطين « وقدموا لأنفسكم » أى قلموا لها ما يريحكم وما يطيل أمد حياتكم وأعمالكم في

الحياة ، لأنك عندما تقبل على المسألة بية إنجاب الولد ، وتذكر الله وتستعبد من الشيطان فيعلم عليك الخالق بالولد الصالح ، هذا الولد يدعو بك ، ويعلم أولاده أن يدعوا لك ، وأولاد أولاده يدعون لك ، وتظل المسألة مسلسلته فلا ينقطع عملك إلى أن تقوم الساعة ، وهنا تكون قدمت لنفسك أفضل ما يكون التعليم

وهب أنت رزقت المولود ثم مات ففجعت به واسترحمت واحتبته عند ربك ، إنك تكون قد قدمت ، ليعلق عليك بابا من أبواب البراءة . إذن فكل أمر لا بد أن تذكره « وقدموا لأنفسكم »

ويقول الحق : « واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين » معنى « اتقوا الله » أي إياكم أن تعصروا ربكم في أي عمل من هذه الأعمال ، ولكن أيها المسلم في هذه التقوى على يقين من أنك ملاقي الله ، ولا تشك في هذا اللقاء أبداً . وما دمت ستتمى الله ويكون على يقين أنك تلاقيه لم يبق لك إلا أن تبشر بالجنة . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا  
وَتَقْتُلُوا وَتُضِلُّوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٢٤)

وفي الآية ثلاثة أشياء : أولاً أن تبروا ، أي أن تعملوا البر . والبر قد يكرمه الإنسان لأنه شاق على النفس ثانياً : أن تقتلوا ، أي أن تضلوا المعاصي ، والتقوى تكون أهما شاقة في بعض الأحيان ثالثاً : أن تضلوا بين الناس ، أي أن تضلوا ذات اليقين ، وقد يكون في الإصلاح بين الناس مؤنة وذلك بعد أن تمتموا أن تجعلوا الله عرضة للقسمة .

وحين يقول الحق : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم » فالعرضة هي الحجاب ،

وهي ما يعترض بين شيئين ، « وعرضة » هي - أيضاً - الأمر الصالح لكل شيء ،  
 فيقال : « فلان عرضة لكل المهمات » ، أى صالح - والعرضة - كما  
 عرفنا - هي ما يعترض بين شيئين ، كأن يضع الإنسان يده على عربة  
 فلا يرى الضوء ، هنا تكون اليد « عرضة » بين عيسى الإنسان والشمس  
 إن الإنسان يجب بذلك عن بصره الصواب .

كأن الحق يقول : « أنا لا أريد أن تحملوا اليمين عرضة بين الإنسان  
 وفصل الخير والبر والتقوى » فعندما يطلب منك واحد أن تبر من أساء  
 إليك فقد تقول : « أنا أقمت ألا أبر هذا الإنسان » إنك بذلك جعلت  
 اليمين بالله مانعاً بينك وبين البر

ويريد الحق بذلك القول أن يبها إلى أن القسم به لا يجوز في مع البر أو صلة  
 الرحم أو إصلاح بين الناس ومن حلف على شيء فرأى غيره خيراً منه فليحسن  
 الخير وليكفر عن يمينه ماذا ؟ لأن المؤمن عندما يحلف على ألا يفعل شيئاً فهو يضع الله  
 مانعاً بينه وبين الخير ، وبذلك يكون قد باعصى المؤمن نفسه بأن جعل المانع هو  
 احلف بالله إن الله هو صاحب الأمر بالبر والتقوى والإصلاح بين الناس . لذلك  
 فالحق يقول « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم » أى أن الحق يريد أن يحسن  
 عمليات البر والتقوى والإصلاح بين الناس .

إنك إن حلفت أيها المؤمن ألا تفعل هذه العمليات فالحق يريد لك أن تحث في  
 هذا القسم وأن تفعل البر والتقوى والإصلاح بين الناس حتى لا تتنافض مع تشريع  
 الله . ونحن عندما نجد المجمع وقد صبح فيه كل فرد البر ، وانفنى فيه كل إنسان  
 المعاصي ، ورأى فيه كل إنسان نواحي بين جماعتين فأصلح هذا النزاع ، أليس هذا  
 دخولاً في السلم كافة إذن فالحق يريد أن يستبقى للناس ينابيع الخير وألا يسدوها  
 أمام أنفسهم .

إن الحق هو الأمر بالآلا يجعل المؤمن اليمين مانعاً بين الإنسان والبر ، أو بين  
 الإنسان والتقوى ، أو بين الإنسان والإصلاح بين الناس ويساهل للإسلام في

مسألة التراجع والحث في البر فيقول السلف الصالح : لا حث خير من البر ، إلا أن  
فالمجتمع الذي فيه صرع البر ، وتقوى المعاصي ، والصالح بين المتحاصمين يدخل في  
إطار :

### ﴿ أَذْخَلُوا فِي السِّلَاحَةِ ﴾

( من الآية ٢٠٨ سورة البقرة )

والإنسان قد يتعلل بأي سبب حتى يتعدى عن البر أو التقوى أو الإصلاح بين  
الناس ، بل يعمل شيئاً يريجه ويحلم عليه أنه يمثل لأمر الله ، ولضرب لذلك مثلاً  
سيدنا أبو بكر لصديق رضى الله عنه بعد أن جاء مسطح بن اثاثه واشترك مع من  
حاصوا في الإفك الذي تهموا به أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها

وخلاصة الأمر أن عائشة رضى الله عنها زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم . كانت  
قد خرجت مع الرسول الكريم ل غزوة « بنى المصطلق » وكان الأمر بالحجاب قد نزل ،  
لذلك خرجت عائشة رضى الله عنها في هودج .

وقام الرسول بفروته وحنان وقت العودة وقددت عائشة عقداً لها وكانت رضى  
الله عنها خفيفة الوزن ؛ لأن الطعام في تلك الأيام كان قليلاً . راحت عائشة رضى  
الله عنها تحت عن عقدتها المفقود ، وعندما حموا هودج عائشة رضى الله عنها لم  
يعطوا أن عائشة ليست به . ووجدت عائشة عقدتها المفقود ، وكان جيش رسول الله  
قد اسعد عنها . وطيب أنهم سيعتقدونها ويرجعون إليها . وكان خلف الجيش صفوان  
ابن المعطل السلمي وعرفته عائشة وأماح راحلته وعادت عائشة إلى المدينة . ودار  
حديث الإفك بواسطة عبدالله بن أبي بن سلول رأس النفاق

وكان العم والحرر يهيبان أسيلة عائشة طوال مدة كبيرة وأوضح الحق كيف هذا  
الحديث . وداع ما دأع عن أم المؤمنين عائشة وهي زوجة رسول الله صلى الله عليه  
وسلم قبل أن تكون بنت أبي بكر . وأبو بكر صديق رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولو أن غير عائشة حدث لها ما حدث لعائشة لكان موقف أبي بكر هو موقفه عندما جاء قريبه مسطح بن أثاثه واشترك في حديث الإفك مع من اشتركوا ثم يبرئ الله عائشة وينزل القول الذي يثبت براءة أم المؤمنين في حديث الإفك ، وحين يبرئها الله يأتي أبو بكر وكان يفتق على مسطح فيقطع عنه النعمة ويقول : « والله لا أفتق عليه أبداً » لماذا ؟ لأنه اشترك في حديث الإثم . والمسألة في ظاهرها ورع . لذلك سبت عن النعمة على مسطح بن أثاثه لأن مسطحاً خاص في الإفك . بكر انظر إلى مقاييس الكمال والجمال والمصائل عند الله فقد أوضح الحق أن هذا طريق ، وذاك طريق آخر ، يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَصْلِ مِثْرَ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيُحَقِّقُوا وَلْيَصْغَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَزِيزٌ رَحِيمٌ ﴾

(سورة النور)

إذا كنت تحب أن يغفر الله لك ، ألا تغفر لمن فعل معك سيئة ؟ وما دمت تريد أن يغفر الله لك فاعف عن الناس خطاهم . قلها الحق عر رجل لأبي بكر : لأنه وقف موقفاً من رجل خاص في الإفك مع من خاص ومع ذلك يعلمه أن ذلك لا يضح

قوله تعالى : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله عن ألا يفعل ذلك الخيرة لا . افعله قاله يرحى لك أن تحنت وتكهر عن يمينك

« ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سمع عليم » إن الله عر وجل يبلها : أب لا أريد أن تجعلوا الخلف في عرصه ، يعني حاجراً أو مانعاً عن فعل الخير . مثلاً لو طلب منك أن تبر شخصاً أساء إليك فلا تقل . حنفت ألا أبر به لأنه لا يستحق ، عندها تكون قد جمعت اليمين بالله مانعاً للخير . وكان الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول لك : لا ، أنا متجاوز عن اليمين ، إن حنفت ألا تبر أو لا تتقى أو لا تصل رسماً أو لا تصلح بين اثنين ، أنا تسامحت في اليمين .

والحديث يقول . ( من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه )<sup>(١)</sup> وهكذا يحسم الله سبحانه وتعالى فعل البر ويحسم التقوى ويحسم عمليات الإصلاح بين الناس ، ولو كنت قد حلفت بالله ألا تفعلها ، لماذا ؟ لأنك عندما تحلف بالله ألا تفعل ، وتحمل الله سبحانه وتعالى هو المانع ، فقد ناقضت التشريع نفسه ، لأن الله هو الأمر بالبر والإصلاح والتقوى ، فلا تجعل بين البشر مانع من تنفيذ منهج رب البشر

« ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس » إن حلفت على ترك واجب وجب أن ترجع في اليمين ، احث فيه وكفر به ، والحكم نفسه يسرى على الذي يمنع ممتلكاته كالدابة أو الماكينة أو السيارة من انتفاع الناس بها بحجة أنه حلف ألا يعبرها لأحد ، وذلك أمر يحدث كثيراً في الأرياف

ويحتم الحق سبحانه وتعالى الآية بالقول الكريم . « والله سميع عليم » إنه سبحانه سميع باليمين الذي حلفته ، وعليم بنيتك إن كانت خيراً أو شراً فلا تتخذ اليمين حجة لأن تمنع البر والتقوى والإصلاح . والحق سبحانه وتعالى عندما يتكلم عن اليمين يعطيها أصلاً من أصول اعتبار اليمين هل هو يمين حقا أو لغو ، ومن رحمة الله أنه سبحانه وتعالى لم يأخذ إلا باليمين الذي عُقد القلب عليه ، أي الذي يقصد صاحبه ألا يحدث فيه ، أما لغو اليمين فقد تجاوز الله عنه .

مثلاً ، الأيمان لدرجة على الله الناس كمؤهم . « والله لو لم تفعل كذا لععلت معك كذا » ، « والله سأورثك » ، « والله ما كان قصدي » أو الحلف بناءً على الظن ، كأن تحلف بقولك « والله حدث هذا » وأنت غير متأكد من تمام حدوثه ، لكن ليس في مقصدك الكذب

أما اليمين الممسوس فهي الحلف والقسم الذي تعرف كذبه وتحلف بعكس ما تعرف ، كأن تكون قد شاهدت واحداً يسرق أو يقتل وتحلف بأنه لم يسرق أو لم يقتل . من أجل ذلك كره يحسم الله سبحانه وتعالى هذه القضية بقوله

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم والترمذي والإمام أحمد بن مسعود عن أبي هريرة



﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ  
بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٢٥)

وكان من المناسب ان تأتي هذه الآية بعد كل ما سبق لأنه سبحانه أوضح لنا اليمين التي لا تقع وكأنه قال لنا : «رجعوا فيها واحشوا وسأقبل رجوعكم في مقابل أن تتروا وتتفوا وتصلحوا» فإذا كان قد فعل تراجعنا عن هذا اليمين فلأن له مديلاً في فعل الخير . وقوله الحق : «بما كسبت قلوبكم» هو المعنى نفسه بقوله تعالى :

﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾

( من الآية ٨٩ سورة المائدة )

أي الشيء المعقود في النفس والذي رشح داخل نفسك ، لكن الشيء الذي يمر على اللسان فلا يؤاخذ الله به « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم » والأيمان جمع يمين ، واليمين : هو الخلف أو القسم ، وسمى يميناً ؛ لأنهم كانوا قديماً إذا تحالفوا ضرب كل امرئ منهم يمينه عن يمين صاحبه ، وذلك لأن اليمين هي الخارجة الفاعلة

وبأساسه ، فالخارجة الفاعلة إيالك أن تفعل أيها تفعل بالرياضة والتدريب ، وإنما هي تفعل بالخلق أي كما خلقها الله ، فهي بحيرة على الفعل حسب خلقها .

ولذلك عندما تجد إنساناً وبه اليمين لا تعمل ويحاول أعماله سوء السري فلا تحاول أن تجعله يستخدم اليمين بدلاً من اليسرى ؛ لأن محاولتك عبث لن يجدي ؛ لأن السبب في أنه يستخدم اليسرى بدلاً من اليمين سبب خلقه ، فالخيار الخاص بالتحكم في الحركة في المخ هو الذي يقر هذا الأمر : إن كان مخلوقاً في النصف الأيمن من المخ كانت اليد اليمنى هي الفاعلة ، وإن كان مخلوقاً في النصف

اليسرى من الخ فاليد اليسرى هي التي تعمل .

لذلك نجد الذى يكتب بيده اليسرى يتفن الكتابة بها أصمل من الذى يكتب يائيمنى لى بعض الأحيان ، ومن هنا نقول : إنه من الخطأ أن تحاول تغيير سلوكك الذى يعمل بيده اليسرى بدلاً من اليمنى ، لأن ذلك عبث لى بهل نتيجة .

وأحياناً نجد الجهاز المتحكم فى حركة اليدين موجوداً فى منتصف ووسط الخ ، فيرسل حركات متوازنة لليد اليمنى واليد اليسرى معاً ، ولذلك نجد شخصاً يكتب يديه اليمنى واليسرى معاً بالسرعة نفسها وبالاتقان نفسه ، ويؤدى بهما الأعمال بتلقائية عديدة ، والله لى خلقه شئون ، فهو يعطينا الدليل على أنه لا تحكمه قواعد ، فهو قادر على أن يجعل اليد اليمنى تعمل ، وقدر على أن يجعل اليد اليسرى تعمل ، أو يجعلهما يعملان معاً بالقوة نفسها ، أو يجعل كلتا اليدين غير قابلتين للعمل . إنها لست عملة آلية خارجة عن إرادة الله ، بل كل شىء خاضع لإرادته سبحانه .

« لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » المقصود به الخلف ، والخلف من معايه الثموية ، وهى مأخوذة من الخلف ، وهو أن يتحالف الناس على عمل ما ونحن عندما نتحالف على عمل فنحن نقسم العمل بينا ، وعندما نفعل ذلك يسهل علينا جميعاً أن نفعله .

« لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم » والكسب عملية إرداية لأنك ساهة تقسم بالله دون أن تفقد فهو لا يؤاخذك ، وهذا دليل على أن الله واسع حليم ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك

﴿ الَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ

أَرْبَعَةٍ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٧﴾

يؤلون . أى يحملون ألا يقربوا أزواجهن فى العملية المخصوصة ، ويريد الرجل أحيانا أن يؤدب زوجته فيهجرها فى الفراش بلايين ، وبدون أن يخلف وبعض الناس لا يستطيعون أن يمسحوا عن نساءهم من تنقذ أنفسهم ، فيحلقون ألا يقربوهن حتى يكون اليمين مانعا ومشجعا له على ذلك . وكان هذا الأمر مألوفاً عند العرب قبل الإسلام .

كان الرجل يمنع عن معاشره زوجته فى الفراش أى فترة من الزمن يريد ، وبعضهم كان يخلف ألا يقرب زوجته زما محدداً ، وقبل أن ينتهى هذا الزمن يخلف فيما آخر ليزيد المدة فترة أخرى ، وهكذا حتى أصبحت المسألة عملية إذلال للمرأة ، وإعصاها لها ، واستناعا من أداء حقها فى المعاشره الزوجية . وكان ذلك إهداراً لحق الزوجة فى الاستناع بزوجه .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن ينهى هذه المسألة ، وهو سبحانه لا ينهى الحساب طرف عن طرف ، وإنما يعدل الخالق الحكيم الرحيم بعباده . وكان من الممكن أن يجرمها ويحرمها نهائيا ويمنع الناس منها لكنه سبحانه عليهم بحضايا وطبيعة النور البشرية ، فقد ترى امرأة أن تشغل إقبال الرجل عليها ، إما لجمال فيها أو لتوقد شهوة الرجل ، فتحاول أن تتدله ، لذلك أعطى الله للرجل الحق فى أن يمنع عن زوجته أربعة أشهر ، أما أكثر من ذلك فامراة لا تطيق أن يمنع زوجها عنها

« للذين يؤلون من سائهم تربص أربعة أشهر فإن قاموا فإن الله عفو رحيم » والإسلام يريد أن يبنى الحياة الزوجية على أساس واقعى لا على أفكار مبنية ومجتمعة لا تتست أمام الواقع ، فهو يعترف بامبول فيعليها ولكن لا يهدمها ، ويعترف بالغرائر فلا يكتنمها ولكن يصطلها .

وهناك فرق بين الضبط والكبت ، فإن الكبت يترك المرصه للقاء ليستشرى حياء حتى يتفجر فى نوارع النفس الإنسانية تفجرا على غير ميعاد وبدون احتياط ، لكن الانضباط يعترف بالغريرة ويعترف بالبول ، ويحاول فقط أن يهدمها ولا يهدمها . ويضع البشر فى كل أعمالهم لهذه النظرية حتى فى صاحتهم ، فالذين يصنعون

المراجل البخارية مثلاً يجعلون في تلك المراحل التي يمكن أن يصطط فيها العار صنفاً فيصجرها يجعلون لها متنفساً حتى يمكن أن يجمع الضغط الرائد إن وُجد ، وقد يصممون داخلها نظاماً أبياً لا يتدخل فيه العقل بل تحكم لآلة نفسها

والحق سبحانه وتعالى وضع نظاماً واصحاً في خلقه الذين خلقهم ، وشرع لهم تكوين الأسرة على أساس سليم . وفي الإسلام هذا النظام أولاً على سلامة العقيدة وصاعتها ووحدتها حتى لا تتوزع المؤثرات في مكونات الأسرة ، لذلك مع المسلم من أن يتزوج من مشركة ، وحرم على المسلمة أن تتزوج مشركاً . وبعد ذلك علماً معنى الالتئام العبري بين الزوجين . ولقد أراد الحق سبحانه وتعالى ألا يطلق الممان للمريضة في كل زمان التواجد الزوجي ، فجعل المحيض فترة يحرم فيها الجماع وقال

﴿ فَانكِحُوا نِسَاءَ الْيَحْيَى ﴾

من الآية ٢٢٢ سورة البقرة

وهكذا يضبط الحق العلاقة الجنسية بين الزوجين ضغطاً سياسياً نظيفاً

الحق سبحانه وتعالى يعلم أن النفس البشرية ذات أغيار ، لأن الإنسان حادث له بداية ونهاية ، وكل ما يكون حاصلاً لا بد أن يطرأ عليه تغيير . فإذا ما التقى الرجل بالمرأة . كان لابد من أن يتحدد هذا اللقاء على ضوء من منحه الله ، لأن اللقاء إن تم على مسج الشر وعواطفهم كان المصير إلى الفشل ، لأن صاهج البشر متغيرة وموقوتة ، ولذلك يجب أن يكون لقاء الرجل بالمرأة على ضوء معايير الله

فالله يعلم أن للنفس نوازع ومتغيرات ، ومن الحدثز جد . أن يحدث خلاف بين الزوجين ، فيجعل الله سبحانه وتعالى متنفساً بتنفس فيه الزوج للتأديب الذي ينشد التهذيب والإبقاء ، فشرع للرجل إن رأى في امرأته إدلالاً له بجهلها وبحسنها ، وقد يكون رجل له مزاج حاصر وردعة جاذبة في هذه العملية ؛ لذلك شرع الله له فترة من الفترات أن يحلف ألا يقرب امرأته ، ولم يجعل الله تلك الفترة مطلقة ، إنما قيدها بالحلف حتى يكون الأمر مضبوطاً .

راجع أسفه ومخرج أحداث الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

فالحق يريد الملاح لا القسوة . فلو لم يكن الرجل مضطرا يمين فقد يُعير رايه بأن يأتي زوجته ، ولذلك قال الحق . : للذين يؤلون من سائهم تربص أربعة أشهر ، أى إنَّ لك أيها الزوج إن تحلف ألا تقرب زوجتك أربعة أشهر لكن إن رادت المدة على أربعة أشهر فهي لن تكون تلديا بل إصرارا . والخالق عز وجل يريد أن يؤدب لا أن يضر . فإذا ما تجاوزت المدة يكون الزوج متعديا ولا حق له

إن الحق سبحانه وتعالى هو خالق الميول والعواطف والعرائر ويقض لها التقدير السليم . إنه عز وجل يترك لنا ما يدلنا على ذلك ، فهي حلاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه . يمر عمر في جوف الليل فيسمع امرأة يقول الآيات الشهيرة .

تطاول هذا الليل واسود جانبه  
وأرقى إله خليل الأعمى  
فوالله لولا لله تخشى مواقفه  
لرلرن من هذا السرير جوائنه

معنى ذلك أن امرأة نعان من الوحشة إلى الرجل ، وتوشك المعاناة أن تدفعها إلى سلوك غير فويم ، لكن تقوى الله هي التي تمنعها من الانحراف ومن احاطر أن ننساء كيف سمع عمر هذه المرأة وهو يسير في الشارع ، وأقول إن المرأة التي تاتي عندها هذه الأحاسيس تترنم في سكوت الليل ، وعندما يسكن الليل لا تكون فيه ضجة هسهل سماع ما يقال داخل البيوت ، ألم يسمع عمر كلام المرأة التي تجادل ابنتها في غش اللبن ؟

ولما سمع الصاروق كلام هذه المرأة التي نعان من وحشة إلى الرجل ، ذهب بفطرته السليمه ولعبته المشرفة إلى ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وقال لها : كم بصر المرأة على بعد الرجل ؟ فقالت : من ست شهور إلى أربعة أشهر فسر عمر سنة أصبحت دستوراً حياً بعد ، وهي ألا يبعد جندي من جنود المسلمين عن أهله أربعة أشهر . إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : للذين يؤلون من سائهم تربص أربعة أشهر ، سبق حادثة عمر ، ثم ترك الحق لواقع الحياة أن يبين ك

مسق ماقه لآ ، وبأى عمر ليستببط الحكم من واقع الحياة .

« فإن ما عوا » أى فإن رجع الزوج ، وأراد أن يقترب من زوجته قبل مضي الأربعة أشهر ؛ فدل رجل أن يكفر عن يمينه وتنتهى المسألة ولكن إذا مرت اشهر الأربعة وتجاوزت المقاطعة مدتها يؤمر الزوج بالرجوع عن اليمين أو بالطلاق ، فإن امتنع الزوج طلقها الحاكم ، وقال بعض الفقهاء : إن مضي مدة الأربعة أشهر دون أن يرجع ويضئ يجعلها مطلقة طليقة واحدة بآئنة ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِنْ عَرَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٢٧)

واختلف العلماء : هل تطلق الزوجة طليقة بآئنة أو طليقة رجعية ؟ ومعنى « طلاق رجعى » ما حود من اللفظ نفسه ، أى أن الزوج له الحق أن يراجع امرأته دون إذن منها أو رصاً . أما الطلاق النائى فإنه لا عوده إلا إذا عقد عليها عقداً حديداً ومهر جديداً .

والطليقة فى الإبلاء يسيرة صغرى وهى التى تحتاج إلى عقد ومهر جديدين ، هذ إذا لم يسبق طلاقان واليسيرة الكبرى وهى التى توصف بأن ذات الثلاث ، فالزوجة فيها تطلق ثلاث مرات ، فلا يصح أن يعيدها الزوج إلا إذا تزوجت رجلاً غيره ، وعاشت معه حياة زوجية كاملة ، ثم طلقها لأى سبب من الأسباب ، وبعد ذلك يحق لزوجها القديم أن يراجعها ويعيدها إليه بمقد ومهر جديدين ، لكن بعد أن يكتوى بحيرة رواجها من رجل آخر والحق سبحانه وتعالى يعرض هذه المسألة فيقول :

﴿ الَّذِينَ يُؤْتُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ وَإِنْ عَرَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٢٨)

فالإسلام دين واقعي يعطى الزوج المسلم أشياء تنفس عن عصبه ، وأشياء تمكنه من أن يؤدب زوجته ، ولكن الإسلام لا يحب أن يتحدى الرجل في التأديب وإذا تمادى ونجاوز الأربعة الأشهر نقول له : لا بد أن يوجد حد فاصل

وبعد ذلك يتفقد الحق سبحانه وتعالى في التكليف إلى أن يتكلم عن الطلاق وقد تكلم من قبل عن الزواج والإيلاء حتى وصل الطلاق

وعندما نتأمل موقف الإسلام من الطلاق نعلمه يتكلم كلاماً واقعياً يتناسب الميول الإنسانية ، لأنها مادتها أقبلاً من الممكن أن يطرأ على حياة الزوجين أحداث أو مشاهد لم تكن في الحسبان ساعة الزواج . ويجوز أن يكون الإنسان في ساعة الروح جدهوعاً بحرارة ملكة واحدة ، وبعد ذلك عندما يحى ، واقع الحياة تملكه ملكات متعددة ، وقد تسيطر عليه المسألة الجنسية ، وتدفعه للزواج ، وفي سبيل إرضاء شهوته الجنسية قد يهمل بقية ملكات عصبه ، هذا ما دحج واقع الزواج وهدأت شدة وحرارة عرائز الإنسان تنبه نفس الإنسان إلى مقاييس أخرى يريد أن يراها في روحه فلا يجدها ويتساءل ما لدى أحفائها عنه ؟

أحفائها سمار وعرامة النظرة الجنسية ، فقد نظر للمرأة قبل الزواج من زاوية واحدة ، ولم ينظر لباقي الجوانب . مثلاً قد يجد الزوج أن أخلاق الزوجة تسهر مع أخلاقه ، وقد يجد تفكيرها وثقافتها تتناهر مع تفكيره وثقافته ، وربما وجد عدم التوافق العاطفي بينه وبينها ولم يحدث تألف نفسي بينهما ، والمواطن - كما نعلم - ليس لها قوانين .

من الحائز أن يكون الرجل غير قادر على الاكتفاء بوليمة جنسية واحدة ، فهو لذلك لا يبنى حياته على طهر ، وإنما يريد من امرأته أن تكون طاهرة عميقة في حياتها معه ، بينما يعطى لنفسه الحرية في أن يعدد ولائمه الجنسية مع أكثر من امرأة ، وربما يحدث العكس ، وذلك أن يجد الرجل أنه امرأة واحدة تكفيه ، لكن المرأة تريد أكثر من رجل .

ولقد يكون الرجل طاهر الأسلوب في الحياة ، وتكون روحه راقية في أن يأبىها بالمال

من أى طريق، فيختلفان . وقد تكون المرأة طاهرة الأسلوب فى الحياة فلا ترضى أن يتكسب زوجها من مال حرام

من هنا يأتى الشقاق، إن الشقاق يأتى عندما يريد أحد الزوجين أن تكون حياتهما نظيفة طاهرة، مستقيمة، ولا يرى الآخر ذلك . مثل هذه الصورة موجودة فى الواقع حولنا ، فكم من بيوت تشقى عندما تشقى عندما تختفى الوحدة لأسرية ، وتختلف نظرة أحد الزوجين للأمر عن آخر .

وهذا هو سبب الشقاق الذى يحدث بين الزوجين عندما لا يكتفى أحد الزوجين بصاحبه ولو اتفق رجل وامرأته على العفاف ، والطهر ، والخيرية لاستقامت أمور حياتهما . ولعلك يأتى الإسلام بتشريعاته السامية لتناسب كل ظروف الحياة فيقول الحق سبحانه :

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُعَوِّلُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

الآية كلها تتضمن أحكاماً تكسية، والحكم التكسية الأول هو «المطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء» ولنا أن نلاحظ أن الحكم لم يرد بصيغة الأمر ولكن جاء فى صيغة الخبر ، فقال : «المطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء» ، وحين يريد الحق سبحانه وتعالى حكماً لا يأتى له بصيغة الأمر الإنشائي ، ولكن يأتى به



بصيغة الخبر، هذا أكد وأوثق للأمر كيف ؟

معنى ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حوى بأمر فالأمر يصادف من المؤمنين به امتثالاً ، ويُطبق الامتثال في كل الخبريات حتى لا نشد عنه حالة من الحالات فصار واقعاً يحكى وليس تكليف يُطلب ، ومادام قد أصبح الأمر واقعاً يحكى فكأن المسألة أصبحت تاريخاً يُروى هو : « والمطلقات يرضعن بأنفسهن ثلاثة قروء » . ويجوز أن يأخذ الآية على معنى آخر هو أن الله قد قال : « والمطلقات يرضعن بأنفسهن » فيكون كلاماً خبرياً

وقلنا إن الكلام الخبرى يحتمل الصدق والكذب ، إن الله قد قال ذلك ممن أراد أن يصدق كلام الله فليصدق الحكم ، ومن أراد أن يبارز الله بالكذب ولا يصدقه فلا يصدق الحكم ، ويرى في نفسه أية عدم التصديق وهي الخبران المجزآن ، أليس ذلك أكثر إلزاماً من خبره ؟ ومثل ذلك قوله تعالى

﴿ الْحَبِشَتُ لِلْحَبِشِينَ وَالْحَبَشُونَ لِلْحَبِشَتِ وَالطَّيِّبَتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَتِ  
أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾

( سورة الرعد )

إن هذا وإن كان كلاماً خبرياً لكنه تشريع إنشائي يحتمل أن تطيع وأن تعصى ، ولكن الله يطلب من أن تكون القضية هكذا : « الحبشيات للحبشيين » يعنى أن ركنهم يريد أن تكون « الحبشيات للحبشيين » وأن تكون « الطيبات للطيبين » وليس معنى ذلك أن الواقع لا بد أن يكون كما جاء في الآية ، إنما الواقع يكون كذلك لو نمطنا كلام الله وسيختلف إذا عصينا الله وتمررنا على شرعه والمعنى نفسه في قوله تعالى

﴿ وَمَنْ دَخَلَ كَانَ مِنْهُ ﴾

( من الآية ٩٧ سورة آل عمران )

أى اجعلوا من يدخل البيت الحرام أمراً . ويحتمل أن يعصى أحد الله فلا يدخل البيت الحرام أمراً . إذن نقول الحق : « والمطلقات يرضعن بأنفسهن ثلاثة قروء » هو

حكم نكحي يستحق العاد لم يؤمن بالله ، وقوله « يترخص » أى يتصرف ،  
واللفظ هنا باسم المعام غاما ، فالمترخصه هى المصدق ، ومعنى مطلقه أى مرهون  
فيها ، وترخص وتنتظر انتهاء عدتها حتى ترد اعتبارها بصلاحتها للزواج من روح  
آخر . ولم يثنه القول الكريم بقوله « يترخص » وإما قال « يترخص بأنفسهن »  
مع أن المترخصه هى نفسها المطلقة ؛ ذلك لأن النفس الواعية المكلفة والنفس الأمارة  
بالسوء تكونان في صراع على الوقت وهو « ثلاثة قروء » ، « وقروء » جمع « قراء » وهو  
إما الحصة وما أظهر الذى بين الحصتين . وقوله الحق سبحانه وتعالى « ثلاثة  
قروء » ما المقصود به ؟

هل هو الحصة أو الظهر ؟ إن المقصود به الظهر ؛ لأنه قال : « ثلاثة » بالناء ،  
ويحس بعرف أن الناء تأني مع المذكر ، ولا تأني مع المؤنث ، وهى الحصة « مؤنة »  
وه الظهر « مذكر » ، إذن ، « ثلاثة قروء » هى ثلاثة أطهار متواليات والعلة هى  
استبراء الرحم وإعطاء مهلة للروحين في أن يراجعا نفسيهما ، فربما بعد الظهر « أو »  
أو الثانى يشناق أحدهما للآخر ، فتعود المسائل ما كانت عليه ، لكن إذا مرت ثلاثة  
أطهار فلا أمل ولا رجاء في الرجوع

ثم يقول الحق بعد ذلك « ولا يحس من أن يكتم ما خلق الله في أرحامهن »  
ومعنى الخلق ؟ الخلق هو إيجاد شئ كان معدوما ، وهذا لشيء الذى كان معدوم  
إما أن يكون حلاً وإما أن يكون حيضاً ، ولتحمل عدة حاءت في قوته الحق

﴿ وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾

(من الآية ٤ سورة البقرة)

أما المرأة الحامل وهى التى بدون من ، فعدتها أن تحيض وتطهر ثلاث مرات  
وهناك حالة ثالثة هى

﴿ وَالَّذِينَ يَبْنُونَ مِنَ الْبَيْتِ مِنَ الْمَحْضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّذِينَ  
لَمْ يَحْضُوا ﴾

(من الآية ٤ من سورة البقرة)

أي أن المرأة التي انقطعت عنها الدورة لشهريه فعدتها «ثلاثة أشهر» احكم نفسه للصغيرة التي لم تحض بعد ، أي عدتها ثلاثة أشهر . إذن فنظام العدة له حالات .

« إن كانت غير حامل فعدتها ثلاثة قروء أي ثلاثة أطهار إن كانت ممن يحض

« إن كانت حاملا فعدتها أن تصح حملها .

« وإن لم تكن حاملا وقد بلغت سن البأس ولم تعد تحيض ، أو كانت صغيرة لم تصل لسن الحيض ، هذه وتلك عدتها ثلاثة أشهر .

وقوله تعالى : « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن » يدل على أن المرأة لها شهادتها لنفسها في الأمر الذي يخصها ولا يطلع عليه سواها . وهي التي تقرر المسألة بنفسها ، فتقول : أنا حامل أولا ، وعليها ألا تكتم ذلك ، فقد يجوز أن تكون حاملا وبعد ذلك تكتم ما في بطنها حتى لا تنتظر طول مدة الحمل وتخرج رجلاً آخر فينسب الولد لغير أبيه ، فغالباً ما يستمر الحمل تسعة أشهر ولكن فيه استثناء فهناك حمل مدته سبعة شهور ، وأحياناً ستة شهور . وقد تروج المرأة ابطلاً بعد ثلاثة شهور وتدعى أنها حامل من الزواج الجديد وأن حملها لم يستمر سوى سبعة أشهر أو ستة أشهر .

وبعضنا يعرف قصة الحامل في ستة شهور ، فقد جاءوا بامرأة لسيدنا عثمان رضي الله عنه لأنها ولدت لستة أشهر ، فأراد أن يقيم عليها حد الزنى ، فتدخل الإمام علي ابن أبي طالب وقال : كيف تقيم عليها الحد لأنها ولدت لستة أشهر ، ألم تقرأ قول الحق سبحانه وتعالى ؟ قال عثمان : وماذا قال الحق في ذلك ؟ فقرأ الإمام علي قول الله :

﴿ وَأَتَوَلَّاتُ يَرْضَعُ آبْنَهُنَّ حَتَّىٰ يَكُونَنَّ كَالْإِنثَىٰ ذَاتِ عَصَىٰ ﴾

( من الآية ٢٣٣ - سورة النور )

أي أنها ترضع الولد مدة أربعة وعشرين شهراً ، وفي آية أخرى قال الحق

﴿ حَلَلَتْ أُمُّ كُرْهٍ إِذَا رَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَلَلَتْ لِمَنْ وَلَدَتْهُ حَلَالًا ﴾

( من الآية ١٥ - سورة الاحزاب )

إذا أخذنا من الآية الأولى أربعة وعشرين شهرا وهي مدة الرضاع وطرحناها من ثلاثين شهرا التي تجمع بين الحمل والرضاع في الآية الثانية فهذا أن الحمل قد يكون ستة أشهر . هنا قال سيدنا عثمان متعجبا : والله ما عرفت لهذا

إذن فحمل الستة الشهور أمر ممكن ، ومن هنا نفهم الحكمة في قوله تعالى : « ولا يحل من أن يكتنن ما خلق الله في أرحامهم » ، حتى لا تدعى المرأة أنها طيبت حاملا وتروح رجلا آخر وتب إليه ولذا ليس من صلته ويرتب على ذلك أكثر من إشكال ، منها ألا يرث الولد من الأب الأول ، وأب محارمه لم تعد محرمة عليه ، فأخته من أبيه لم تعد أخته ، وكذلك عمته وحالاته وتنقلب الموارس ، هذا من جانب الأب الأصلي .

أما من جانب الروح الثاني فالطفل يكتسب حقوق غير مشروعة له ، سيرث منه ، وتصح محارم الرجل الثاني محارمه فيدخل عديهم ملاحق ويرى عوراتهم ، وتحدث تداعلات غير مشروعة

إذن فقوله الحق : « ولا يحل من أن يكتنن ما خلق الله في أرحامهم » هو قول يريد به الحق أن تقوم الحياة على طهر وعلى شرف وعلى عفاف ، ولا يعتدى أحد على حقوق الآخر هذا بالنسبة للحمل فكيف يكون الحال بالنسبة للحيض ؟

أيضا لا يحل لها أن تكتنن حيضها لتطيل زمن العدة مع زوجها ويفوق الحق : « إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر » ، مما علاقة الإيمان هنا بالحكم الشرعي ؟ إنها علامة وثيقة : لأن الحمل أو الحيض مسائل حمية لا يحكمها قانون ظاهري ، إنما الذي يحكمها هو عملية الإيمان ، ولذلك قيل : « الغيب لا يحرمه إلا غيب » وما دام شيء عائداً فليس يحرمه إلا الغيب الأعلى وهو الله تعالى

ويتابع الحق : « ويعولنهن أحق بردهن في ذلك » والبعل هو لروح ، وهو الرب والسيد والمالك ، وفي أثناء فترة التربص يكون الروح أحق برده وروحه إن عصمت ، وقوله تعالى : « ويعولنهن أحق بردهن » هل يعني ذلك أن هناك أماساً يمكن أن

يشاركوا الزوج في الرد ؟ لأن الحق جاء بكلمة « أحق » وهي ظاهرها تعطى الحق لغير الأراج أن يراجعوا ؟ لا ، إنما لقصود هو أنه لا حق لأحد هنا إلا للزوج ، فالرد خلال العدة من حق الزوج ، فليس للزوجة أن تقول . لا ، وليس لولي الزوجة أن يقول . لا . فالزوج إذا أراد مراجعة زوجته وأبى وامتنعت هي وجب إشارتهم رغبتهم على رغبتها ، وكان هو أحق منها ، ولا ينظر إلى قولها ، فإنه ليس لها في هذا الأمر حق فقد رغبت به أولاً . أما إذا انتهت العدة فالضرورة تختلف ، لا بد من الولي ، ولا بد من عقد ومهر جديدين واشتراط موافقة الزوجة .

« ويمولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً » هذا إن أرادوا إصلاحاً والإرادة عمل فطري ، فكأنها تهديد للزوجين ، إن التشريع يجيز لهما العودة ، لكن إذا كان الزوج يريد أن يردّها ليقع به الضرر لسبب في نفسه هالدين يقول له . لا ، ليس لك ذلك . وإن كان القضاء يجيز له ردها ، إلا أن الله يحرم عليه ذلك الظلم إذ من حق الزوج أن يرد زوجته رداً شرعياً للعفة والإحصاء ولغرض الزوجية لا لشيء آخر ، أما غير ذلك كالإضرار بها ولانتقام منها فلا يجيز له الدين ذلك أما قضائياً ، فالقضاء يعطيه الحق في ردها ولا يستطيع أحد أن يقف أمامه مهما كانت الأسباب الكامنة في نفسه ، لكن عليه أن يتحمل وزر ذلك العمل . ويتابع الحق . « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » أي أن للزوجة مثل ما للزوج ، لكن ما الذي لهن وما الذي عليهن ؟

للثنية ما في الجنس ، فكل منهما له حق على الآخر حسب طبيعته ، الزوج يقدم للزوجة بعضاً من خدماته ، والزوجة تقدم له خدمات مقبلة ، لأن الحياة الزوجية مبنية على توزيع المسؤوليات ، إن الرجل عليه مسئوليات تقتضيها طبيعته كرجل ، والمرأة عليها مسئوليات تختصها طبيعتها كآثى . والرجل مطالب بالكسح والسعى من أجل الإتفاق . والمرأة مطالبة بأن توفر للرجل البيت للنصيب ليسكن إليها عندما يعود من مهمته في الحياة . ولذلك يقول الله عز وجل

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً

## وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

(سورة الروم)

والسكن إلى شيء هو نقيض التحرك ، ومعنى « لتسكنوا إليها » أى إنكم تتحركون من أجل الرزق طوال النهار ثم تعودون للراحة عند روجاتكم ، فالرجل عليه الحركة ، والمرأة عليها أن تنهى له حسن الإقامة ، وجمال العشرة وحسن وعطف المعاملة . فالمسئوليات موزعة توزيعاً عادلاً ، فهناك حق لك هو واجب على غيرك ، وهناك حق لغيرك وهو واجب عليك .

ويقول الحق : « وللرجال عليهن درجة » وهى درجة الولاية والقوامة ودرجة الولاية تعطى من هو أعم وأشمل ، فكل احتياج لابد له من قيس ، والقوامة مسئولية وليست نعلطاً ، والذي يأخذ القوامة عرضة للتسلط والتحكم فهو محرج بها عن غرضها ، فالأصل فى القوامة أنها مسئولية لتنظيم الحركة فى الحياة .

ولا غشاضة على الرجل أن يأمر بأمر امرأة فيما يتعلق برسالتها كأمراء وفى مجالات خدمتها ، أى فى الشؤون السائية ، فكما أن للرجل بحاله ، فللمرأة بحالها أيضاً . والدرجة التى من أحلها رُفَعَ الرجل هى أنه قوام أعلى فى الحركة الديبوية ، وهذه القوامة تقتضى أن يعق الرجل على المرأة تطبيقاً لقول الحق :

﴿ وَمِمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾

( من الآية ٢٤ سورة النساء )

إذن فالإعناق واجب الرجل ومسئولته ، وليعلم أن الله عزير لا يحب أن يسدد رجل امرأة هى مخلوق لله ، والله حكيم قادر على أن يقتصر للمرأة لفهم الرجل أن درجته فوق المرأة هى للاستعداد ، أو فهمت المرأة أن وجودها مع الرجل هى مئة منها عليه ، فلا استدلال فى الزواج ، لأن الزواج أساسه المودة والمعرف . ويقول الحق بعد ذلك

﴿الطَّلُوقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ  
وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَاءٍ مَاتَتْ أَتْنَتُهُمْ شَيْئًا  
إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا  
حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ  
اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ  
الظَّالِمُونَ﴾

هنا يتحدث الحق سبحانه وتعالى عن الطلاق بعد أن تحدث عن المطلق في عدتها  
وكيفية ردها ومراجعتها، وإنه سبحانه يتحدث عن الطلاق في حد ذاته والطلاق  
مأخوذ من الاطلاق والتحرر، فكانه حل عقدة كانت موجودة وهي عقدة الكاح،  
وعقدة الكاح هي العقدة التي جعلها الله عقداً معلطاً وهي ايثاق الغليظ، فقال  
تعالى:

﴿وَأَحْذَرْنَ مِنْكُمْ مَعْنَقًا غَلِيظًا﴾

[سورة النساء]

أنه ميثاق غليظ لأنه أباح للزوجين عورات الآخر، في حين أنه لم يقل عن الإيمان  
إنه ميثاق غليظ، قال عنه «ميثاق» فقط، فكان ميثاق الرواح أغلظ من ميثاق  
الإيمان. والحق سبحانه وتعالى يريد أن يربى في الناس حل المشكلات بأبسر الطرق.  
لذلك شرع لنا أن نحل عقدة التكاح، ونهاية العقدة ليست كبدايتها، ليست جنسية،  
فبداية التكاح كانت أمراً جنسياً، أحدهما بإيجاب وقبول وشهود وأنت حين تدخل  
في الأمر تدخله وأنت دارس لتبعاته وظروبه، لكن الأمر في عملية الطلاق يختلف،  
فالرجل لا يملك أعمار نفسه، فربما يكون السبب فيها شيئاً أو شيئاً

كان يمكن أن يمر بغير الطلاق ؛ فيشاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل للسلس أناة وروية في حل العقدة فقال : « الطلاق مرتان ، يعني مرة ومرة ، ولقائل أن يقول كيف يكون مرتين ، ونحن نقول ثلاثة ؟ » وقد سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال يا رسول الله قال الله تعالى : « الطلاق مرتان » فلم صار ثلاثاً ؟

فقال صلى الله عليه وسلم متنبهاً : « إمامك بمعروف أو تسريح بإحسان » . فكان معنى « الطلاق مرتان » ، أي أن لك في مجال اختيارك طنقتين للمرأة ، إما الثالثة ليست لك ، لماذا ؟ لأن من بعد ذلك ستكون هناك بشرة كبرى ومن تصح مسألة عودتك إليك من حقلك ، وإما هذه المرأة قد أصبحت من حق رجل آخر

﴿ حَقِّ تَشْكِيحَ زَوْجًا عَمْرًا ﴾

( من الآية ٣٣٠ سورة البقرة )

أما قول الرجل لزوجته أنت « طالق ثلاثاً » يعتبر ثلاث طلاقات أم لا ؟ نعم . إن اومن شرط أسامي في وقوع الطلاق ، يطلق الرجل زوجته مرة ، ثم تعصى فترة من الزمن ، ويطلقها مرة أخرى فتصح طينة ثانية ، وتعصى أيضا فترة من الزمن وبعد ذلك نصل لقوله : « إمامك بمعروف أو تسريح بإحسان » ولذلك فالآية نصها واضح وصريح في أن الطلاق ثلاث في لعط واحد لا يوقع ثلاث طلاقات ، وإن هي طينة واحدة ، صحيح أن سيدنا عمر رضي الله عنه جعلها ثلاث طلاقات ، لأن أساس استسهلوا المسألة ، فرأى أن يشدد عليهم ليحكموا ، لكنهم لم يكفروا ، وبذلك يعود لأصل التشريع كما جاء في القرآن وهو « الطلاق مرتان »

وحكمة توزيع لعلاق على المرات الثلاث لا في العدة الواحدة ، أن الحق سبحانه يعطي فرصة للتراجع وإعطاء الفرصة لا يأتي في نفس واحد وفي حلة واحدة ، إن الرجل الذي يقول لزوجته أنت طالق ثلاثاً لم يأخذ نفسه براجع نفسه وبواعثه فقلت هذه ثلاث طلاقات لتهدمت الحياء الزوجية بكلمة . ولتكر عظمة التشريع في أن الحق سبحانه ورع الطلاق عن موات حتى يراجع الإنسان نفسه ، وربما أحصا في المرة الأولى ، فمسك في المرة الثانية ويديم . وساعة تجد التشريع يورع أمراً يجوز أن يحدث ويجوز ألا يحدث ، فلا بد من وجود فاصل زمني



بين كل مرة . وبعض المتشدين يريدون أن يبرروا للناس عجزهم عن منهج الله فيقولون : إن الله حكم بأن تعدد الزوجات لا يمكن أن يتم فقال

﴿ وَلَوْ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تُعْدِلُوا بَيْنَ الْنِسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾

( من الآية ١٢٩ سورة النساء )

ويقولون : إن الله اشترط في تعدد العدد ، ثم حكم بأنا لن نستطيع أن نعذل بين الزوجات مهما حرصنا ، فكأنه رجع في التشريع ، هذا منطقتهم ويقول لهم أكملوا قراءة الآية ففهموا المعنى ، إن الحق يقول : « ولو تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ثم فرع على التمس فقال :

﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ ﴾

( من الآية ١٢٩ سورة النساء )

وما دام المعنى قد فُرع عليه فقد انتهى ، فالأمر كما يقولون : معنى التمس إثبات أن الاستطاعة ثابتة وباقية وكان قوله تعالى : « فلا تميلوا كل الميل » إشارة إليها وكذلك الأمر هنا : الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . وما دام قد قال : « إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » وقال : « الطلاق مرتان » أى أن لكل فعل رعباً ، فذلك يتناسب مع خالصات التأديب والتهديد ، ولا فالطلاق اثلاث بكلمة واحدة في زمن واحد ، يكون عملية قسرية واحدة ، وليس فيها تأديب أو إصلاح أو تهديد ، وفي هذه المسألة يقول الحق : « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما أتيتموهن شيئاً » لأن المهر وهن في الزوج أن يدفع المهر نظير اسماعه بالبضع ، وإذا ما حدث الطلاق لا يحل للمطلق أن يأخذ من مهره شيئاً ، لكن الحق استثنى في المسألة فقال : « إلا أب ينهاها ألا يقيها حدود الله فإن خفتم ألا يقيها حدود الله فلا جناح عليهما فيها افتدت به » .

فكان الحق سبحانه وتعالى أراد أن يجعل للمرأة مخرجاً إن أريد بها الضرر وهي لا تقبل هذا الضرر . هبأت الحق وشرع . ما دام قد حاشا ألا يقيها حدود الله ، فقد أدن لها أن اعتدى نصيبك أيتها المرأة بشيء من مال، ويكره أب يزيد على المهر إلا إذا كان ذلك ناشئاً عن شوز منها ومحالفة للزوج فلا كراهة يذن في الريادة عن المهر

وقد جاء الواقع مطابقاً لما شرع الله عندما وقعت حادثة « جميلة » أخت «عبدالله بن أبي» حينما كانت زوجة لعبد الله بن نيس ، فقد ذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : « أنا لا أنهمه في دينه ولا خلقه ولكن لا أحب الكفر في الإسلام » وهي تقصد أنها عاشت معه وهي تخفه ، لذلك لن تؤدي حقه وذلك هو كفر المشير أي إنكار حق الزوج وترك طاعته .

وهي قد قالت : إنها لا تتهمه لا في دينه ولا في خلقه لتعير بذلك عن معاني عاطفية أخرى ، فلما رد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلم منها ذلك ، فقالت لقد رفعت الخباء فوجدته في عدة رجال فرأيت أشدهم سواداً وأنصرهم قامة وأقبحهم وجهاً ، فقال لها صلى الله عليه وسلم « أنردين حديثه ؟ » فقالت . وإن شاء ردي ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا حاجه لنا بزيادة ، ولكن ردي عليه حديثه .

رُسمي هذا الأمر بالخلع ، أي أن تخلع المرأة نفسها من زوجها الذي تخاف ألا تزيد له حقاً من حقوق الزوجية ، إنها تخلع نفسها منه بما لا يصبه صرر ، فقد يريد أن يتزوج بأخرى وهو محتاج إلى ما قدم من مهر لَعَنَ تريد أن تخلع نفسها منه ويتبع الحق سبحانه : « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً » وهذا الشيء هو الذي قال عنه الله في مكان آخر .

﴿ وَأَتَيْتُمُوهُنَّ فَنُطْرًا (٢٠) ﴾

( سورة النساء )

ويتبع الحق الآية بقوله : « إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله » والمقصود هنا هما الروحانيان ، ومن بعد ذلك تأتي مسئولية آتوياً أمر الزوجين والمجتمع الذي يهمه أمرهما في قوله : « فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما اتفقت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » .

وحُدود الله هي ما شرعه بعباده حداً منعاً بين الحلال والحرام وحدود الله إما أن ترد بعد المساهي ، وإما أن ترد بعد الأوامر ، فإن وردت بعد الأوامر فإنه يقول

« تلك حدود الله فلا تعتدوها » أي أحر غايتكم هنا ، ولا تتعدوا الحد ، ولكن إن جاءت بعد انواهي يقول : « تلك حدود الله فلا تقربوها » ، لأن الحق يريد أن يجمع النفس من تأثير المحرمات على النفس ، فتلح عليها أن تعمل ، فإن كنت بعيداً عنها فالأفضل أن تظل بعيداً .

واظر جيداً فيما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشبهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه » (١) .

ومادامت الحدود تشمل ما هي الله وتشمل أوامر الله فكل شيء مأمور به وكل شيء مهيى عنه يجب أن يظل في مجاله من الفعل في « افعل » ومن النهي في « لا تفعل » . وإذا انتقل نظام ( افعل ) إلى دائرة ( لا تفعل ) وانتقل ما يدخل في دائرة « لا تفعل » إلى دائرة « افعل » ، هنا يتخل نظام لكون ، ومادام نظام الكون أصابه خلل فقد حدث الظلم ، فالظلم هو أن تنفل حق إنسان وتعطيه لإنسان آخر ، وتشرح الطلاق حد من حدود الله ، فإن حاولت أن تلقى بأمر لا ياسب ما أمر الله به في تنظيم اجتماعي فقد نظلت الأمور به إلى حيز انتهى عنه ، وبذلك تحدث ظلماً .

والحق سبحانه وتعالى حياً يعالج قصاي المجتمع بعلاجها علاجاً يجمع وتوقع المجتمع في الأمراض والأفات ، واليشر إن أحسن الظن بهم في أنهم يشرعون المحير والمصلحة ، فهم يشرعون على قدر عدمهم بالأشياء ، لكننا لا نأمن أن يجهلوا شيئاً يحدث ولا يعرفوه ، فهم شرعوا إلماً عرفوا ، وإذا شرعوا لما عرفوا وهو جنوا بأشياء لم يعرفوها ماذا يكون المرقف ؟ إن كانوا مخمضين بحق داسوا على كبرياء عرورهم التشرهبي وقالوا: نعدك ما شرعنا ، وإن ظنوا في عنواتهم فمن الذي يشقى ؟ إن المجتمع هو الذي يشقى بعنادهم .

والحق سبحانه وتعالى لا يهتم الناس جميعاً في أن منهم من لا يريد الخير ، ولكن هناك فرق بين أن تريد حيراً وألا تقدر على الخير . أنت شرعت على قدر قدرتك وعلمك . ونعرف جميعاً أن شقاء لتجارب في القوانين الاجتماعية الطرية تقع على المجتمع .

ونعرف جيداً أن هناك فرقاً بين العلم التجريبي المعمل والكلام النظري الأهوائي ؛ فالعلم التجريبي يشق به صاحب لتجربة ، إن العالم يكدر ويتعب في معمله وهو الذي يشق ويضحي بوقته وماله وبصحته ويعيش في دهول عن كل شيء ، إلا تجربته التي هو بصدها ، فإذا ما انتهى إلى قصية اكتشافية فالذي يسعد باكتشافه هو المجتمع . لكن الأمر يختلف في الأشياء النظرية ؛ لأن الذي يشق بأخطاء المفكرين من البشر هو المجتمع ، إلى أن يجهـم مقس يعطف على المجتمع ويعدل خطأ من سبقه .

أما الحق سبحانه وتعالى فقد جاءنا بتشريع يحمي الشر من الشقاء ، فلهذا - سبحانه - بتركنا في العالم المادي التجريبي أحراراً ادخلر لمس وسنتهون إلى أشياء قد تصفون عليها ، لكن إياكم واحتلافات الأهواء ؛ لذلك ترى الله عز وجل تشريع ما يختلف فيه الأهواء ، حتى يضمن أن المجتمع لا يشق بلخطأ من الشرعيين ، لعنة من الزمن إلى أن يجهـم مشرع غير يعدل للناس ما أخطأ فيه غيره

لذلك نجد في عالمنا المعاصر الكثير من القضايا البابعة من الهوى ، ويشمسك الناس فيها بأهوائهم ، ثم تصعط عليهم الأحداث صمعا لا يستطيعون بعدها أن يضعوا رءوسهم في الرمال ، بل لابد أن يواجهوها ، فإذا ما واجهوها فإنهم لا يجدون حلاً لها إلا بما شرعه الإسلام ، ومحد أنهم التقوا مع تشريعات الإسلام .

إن بعضاً من الكافرين للإسلام يقولون أسم يقولون عن دينكم . إنه جاء ليظهر على كل الأديان ، مرة يقول لقرآن

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا ۝٦٨﴾

(سورة النحل)

ومرة يقول القرآن :

﴿ يُرِيدُونَ لِيُظْلَمُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ۚ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ ۖ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٦٩ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ۝٧٠﴾

(سورة الصف)

ويستمر هؤلاء الكافرون للإسلام في قوخم ويضيفون : إن إسلامكم م يظهر على الدين كله حتى الآن بدليل أن هناك الملايين لم يدخلوا الإسلام ؟ ونقول هم ؟ أو يظهر على الدين كله بأن يؤمن الناس بالإسلام حياً ، لا ، لو فطنوا إلى قول الله : « ولو كره الكافرون » فاعلموا أن إظهار الإسلام عن الدين لابد أن يلزمه وجود كافرين كارهين ، رمادام الإسلام موجوداً مع كافرين كارهين ، فهو لم يظهر كدين ، ولكنه يظهر عليهم - أي يعلمهم - كنظام يضطرون إليه ليجدوا مشكلات مجتمعاتهم الكافرة ، فيأخذون من أنظمة ومبادئ الإسلام وهم كارهون ، ولذلك نجدهم يستفنون قوانينهم ومصالحاتهم الاجتماعية من تعاليم الإسلام

ولو كانوا سيأخذونه كدين لما قال الحق : « ولو كره الكافرون » أو « ولو كره المشركون » لأنهم عندما يحتفتونه كدين فليس يبقى كاره أو مشرك لكن حين يقول سبحانه : « ولو كره الكافرون » و« ولو كره المشركون » فذلك يعني أن اطمئنا بامن أمتهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وأحدثهم الإسلام ديناً ، إن تحارب الحياة ستأن لتثبت لدى الجاحدين صدق دينكم ، وصدق الله في نفسه لكم ، وسيضطر الكافرون والمشركون إلى كثير من فصاي إسلامكم يأخذوها كنظام يحبون به مشاكلهم رغم عداوتهم وإصرارهم على أن يكونوا ضد الإسلام .

وضربنا حل ذلك مثلاً بما حدث في إيطاليا التي بها الفاتيكان قبة الكاثوليك الروحية ؛ فقد اضطروا لأن يشرعوا قوانين تبيح الطلاق ، وحدث مثل ذلك في أسبانيا وغيرها من الدول . انظر كيف ترجعوا في مبادئهم كانوا يعيبرها عن الإسلام ! لقد اضطرتهم ظروف الحياة لأن يقتنوا إباحة الطلاق ثقيناً بشرياً لا بتقنين إلهي . ومثل هذه الأحداث تبين لنا مدى ثقافتنا في ديننا ، وأن مشكلات البشرية في بلاد الكفر والشرك لن يحلها إلا الإسلام ، فإن لم يأخذوه كدين فسيضطرون إلى أحدهم كظلم

ومن شرف الإسلام ألا يأخذوه كدين ؛ لأنهم لو آمنوا به لكانت أعمالهم وقوانينهم تطبيقاً للإسلام من قوم مسلمين . ولكن أن يظلوا كارهين للإسلام ثم يأخذوا من مبادئ الدين الذي يكرهونه ما يصلح مجتمعاتهم العسلة فذلك الفخر الأكبر للإسلام . إن هذا هو مفهوم قول الحق « ولو كره الكافرون » « ولو كره المشركون » وإذا ما جاء لك أحد في هذه المسألة يقل له : من شرف الإسلام أن يظل في الدنيا مشرك ، وأن يظل في الدنيا هؤلاء الكفار ثم يرجعوا ليحسوا مسائل مجتمعاتهم بقضايا الإسلام ، والإسلام يصح بأنه سلفهم منذ أربعة عشر قرناً إلى ما يلهثون وراءه الآن بعد مضي كل هذا الزمن . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ۚ ﴾

﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ طَنَّا أَنْ يُقِيمَا

حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

وسبق أن قال الحق « الطلاق مرتين » وبمدها قال « بإمساك بحروف أو سريخ بإحسان » وهنا يتحدث الحق عن التسريح بقوله « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره » . وذلك حتى يبين لنا أنه إن وصلت الأمور بين

الروحين إلى مرحلة اللا عودة فلا بد من درس قاس ، فلا يمكن أن يرجع كل مسهما للأخر بسهولة . لقد أمهلها الله تشريع البتونة الصعوى التى يعقنها مهر وعقد جديدان فلم يتردعا ، فكان لابد من لیسوة الكرى ، وهى أن يتزوج المرأة بزوج آخر وتجرى حياة زوجية أخرى . وبذلك يكون اندرس قسماً .

وقد يأخذ بعض الرجال المسألة بصورة شكلية ، فيتزوج المرأة سطمة ثلاثاً رواجاً كامل الشروط من عقد وشهود ومهر ، لكن لا يترتب على الزواج معاشرة حسية بينهما ، وذلك هو المحلل الذى يسمع عنه وهو مالم يفهمه للإسلام

فمن تزوج على أنه محلل ومن وافقت على ذلك المحلل فليعلم أن ذلك حرام عن الاثنين ، فليس فى الإسلام محلل ، ومن يدخل بنية المحلل لا تجوز له البروجة ، وليس له حقوق عليها ، وفى لوقت نفسه لو طلقها ذلك الرجل لا يجوز لها الرجوع لتزوجه السابق ، لأن المحلل لم يكن روحاً وإنما هو تمثيل روج ، والتشكيل لا يثبت فى الواقع شيئاً . ولذلك قال الحق : « فلا نحل له من بعد حتى تنكح روحاً غيره » .

والمقصود من الكاح الطبيعى الذى ساقى إليه الظروف دون افتعال ولا قصد للتحليل . وعندما عظمها ذلك الرجل بطروق خارجه عن الإرادة وهى استحالة العشرة ، وليس لأسباب متفق عليها ، عندئذ يمكن لتزوج السابق أن يتزوج المرأة التى كانت فى عصمتها وطلقات من قبل ثلاث مرات .

« فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقبها حدود الله وبذلك حدود الله بينهما ليقوم يعلمون » أى أن يعلم عن الظن أن المسائل التى كانت منار خلاف عما مضى قد انتهت ووصل الاثنان إلى درجة من التقص والاحترام المتبادل ، واحداً درساً من الشجرة تجعل كلا منهما يرضى بصاحبه . وبعد ذلك يقوى الحق .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيَبَيِّنَنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ

سَرِيحُوهُنَّ يَمْعُرُوهُنَّ وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّلْعَدُوِّ وَأَمَنَ يَفْعَلُ  
 ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَلَا تَنْخِذُواْ أَيْتِ اللّٰهِ هُزُوًا وَاذْكُرُواْ  
 يَمَعَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ  
 يَمِظْكُم بِدِينِ اللّٰهِ وَأَعْلَمُواْ أَنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣٦﴾

وللاحظ قوله : « وإذا طلقتم النساء فبعض أجلهن » وسأل هل إذا بلغت  
 الأجل وانتهت العدة ، هل يوجد بعدها إمساك معروف أو سريع بوجاهة ؟ هل  
 يوجد إلا السريع ؟ إن هناك آية بعد تلك تقول

﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْصِلُوهُنَّ أَلْ يَكْفِيكُمْ أَرْأَيْتُمْ إِنْ  
 تَرَضُواْ بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

( من الآية ٢٣٦ من سورة النور )

إذن نحن أمام آيتين كل منهما تبدأ بقوله : « وإذا طلقتم النساء فبعض أجلهن »  
 لكن تكملة الآية الأولى هي : « فامسكوهن معروف أو سريحوهن معروف » وتكملة  
 الآية الثانية هي : « فلا تعصلوهن أن يكفن أرواجهن » ما سر هذا الاختلاف  
 إذن ؟

يقول إن البلوغ يأتي بمعنىين ، المعنى الأول أن يأتي البلوغ بمعنى المفارقة مثل  
 قوله تعالى : « إذا لمستم إلى الصلاة فغسلوا وجوهكم » أي عندما تقارب الغيم  
 إلى الصلاة فافعل ذلك . والمعنى الثاني يطلق البلوغ على الوصول الحقيقي  
 والفعل ، إن الإنسان عندما يكون مسافرا بالطائرة ويهبط في بلد الوصول فهو يلاحظ  
 أنه الطيار يعلن أنه قد وصل إلى البلد لعلنا . إذن مره يطلق البلوغ عن القرب  
 ومرة أخرى يطلق على البلوغ الحقيقي .



وفي الآية الأولى « وإذا طلقتم النساء فلهن ما أسكنوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » هنا طلق الرجل زوجته لكن عدتها لم تنته بل قاربت على الانتهاء قريبا يمكنه أن يسرحها أو يحكمها بإحسان ، وأصبح للزوج قدر من زمن العدة يسمح له أن يحكم أو يسرح ، لكنه زمن قليل ، إن الحق يريد أن يتمسك الزوج بالإبقاء إلى آخر لحظة ويستبقى أسباب الالتقاء وعدم الانفصال حتى آخر لحظة ، وهذه علة التعبير بقوله « فلهن ما أسكنوهن » أي قاربين بلوغ الأجل ، إن الحق يريدنا أن نتمسك باستبقاء الحياة الزوجية إلى آخر فرصة تسمح للإسكان ، فهي لحظة قد ينطق فيها الرجل بكلمة يترتب عليها إما طلاق ، وإما عودة الحياة الزوجية

أما الآية الثانية وهي قوله تعالى « وإذا طلقتم النساء فلهن ما أسكنوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » فائدة سبحانه وتعالى يريد أن يحدد مناقشة الأسباب في الانفصال أو الاستمرار بين الزوج والزوجة فقط فلا تتعدى إلى غير الزوج والزوجة ، لأن بين الاثنين من الأسباب ما قد يجعل الواحد منهما يلبس حايبه للآخر

يكن إذا ما دخل طرف ثالث ليست عنده هذه فسوف تكبر في نفسه الخصومة ولا توجد عنده الحاجة فلا يبقى على عشرة الزوجين ، فإذا ما دخل الأب أو الأخ أو الأم في الرع فسوف تشتعل الخصومة ، وكل منهم لا يشعر بإحساس كل من الزوجين للآخر ، ولا يلبس الروح زوجته ، ولا بمهادنة الروح لزوجها ، فهذه مسائل عاطفية ونفسية لا توجد إلا بين الزوج والزوجة ، أما الأطراف الخارجية فلا يربطها بالروح ولا بالزوجة إلا صلة القرابة ومن هنا فإن حرص تلك الأطراف الخارجية على طاء عشرة الزوجين لا يكون مثل حرص كل من الزوجين على التمسك بالآخر

ولذلك يجب أن نفهم أن كل مشكلة تحدث بين زوج وزوجته ولا يتدخل فيها أحد تنتهي بسرعة بدون أم أو أب أو أخ ، ذلك لأنه تدخل طرف خارجي لا يكون مالكا للدوام العاطفية والنفسية التي بين الزوجين ، أما الزوجان فقد تكفي نظرة واحدة من أحدهما للآخر لأن تعبد الأمور إلى مجاريها فقد يعجب الرجل بجمال

المرأة ويشتنق إليها ، فينسى كل شيء . وقد ترى المرأة في الرجل أمراً لا تحب أن تفقده منه فتسعى ما حدث بينهما ، وهكذا

لكن أين ذلك من أمها وأمه ، أو أبيها وأبيه ؟ ليس بين هؤلاء وبين الزوجين أسرار وعواطف ومعاشرة وغير ذلك .

ولهذا قلنا أنصح دائماً بأن يظل الخلاف محصوراً بين الروح والروح : لأن الله قد جعل بينهما سبباً عاطفياً . والسيال العاطفي قد يسيل إلى بروع ورعة في شيء ما ، وربما تكون هذه الرعة هي التي تصح وتعمل كلاً من الطرفين يساراً من الخصومة والطلاق . ولذلك شاءت إرادة الله عز وجل ألا يطلق الرجل زوجته وهي حائض . فلماذا ؟

لأن المرأة في فترة الحيض لا يكون لزوجه رعية فيها ، ويرى يفر منها ، لكن يريد الحق عز وجل ألا يطلق الرجل زوجته إلا في مله لم يسبق له أن عشرها فيه معاشره الزوج زوجته وبعد أن تعتسل من الحيض ، وذلك حتى لا يطلقها إلا وهو في أشد الأوقات رعية لها

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن تكون العلاقات بين الزوج ولزوجة في إطار الحياة الزوجية ، حتى يحفظها من سبب المحبة والمودة والرحمة . لكن تدخل الأطراف الأخرى يحطم هذا السبب ، أي كان الطرف أما أو أب أو أخا

ويقول الحق : « ولا تحسبوه صراراً لتعتدوا » أي لا تبق أيها الرجل على الحياة الزوجية من أجل الإضرار بالمرأة ودلالها ، ومعنى الصرار أنك تصنع شيئاً في ظاهره أنك تريد الخير وفي الباطن تريد الشر . ولذلك أطلق اللغز على « مسجد الصرار » معناه بأنه مسجد بين للصلاة فيه ، وفي الباطن كان المهدف منه هو الكفر والتفريق بين المؤمنين . وكذلك الصرار في الزواج ، يقول الرجل أنا لا أريد طلاقها وسأعطيها لبيتها ، يقول ذلك ويبيت في نفسه أن يعيدها ليدلها ويتقم منها ، وذلك لا يقره الإسلام ، بل وينهى عنه

إن الحق عز وجل يحذر من مثل هذا السلوك فيقول : « ولا تمسكوهن ضرورا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه » فإياك أن نظن أنك حين تعتدى على زوجتك بعد أن تراجمها أنك ظلمتها هي ، لا ، إنما أنت تظلم نفسك ، لأنك حين تعتدى على إنسان فقد جعلت ربه في جانيه ، فإن دعا عليك قبل الله دعونه ، وبذلك تحرم نفسك من رضا الله عنك ، فهل هناك ظلم أكثر من لظلم لذي يأتيك بسخط الله عليك .

ويتابع الحق سبحانه وتعالى : « ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتحدوا آيات الله هروا » أي حذروا نظام الله على أنه نظام جاء ليحكم حركة الحياة حكمها بلا مراوغة وبلا تخليق في حيل كاذب ، إنما هو أمر واقعي ، فلا يصح أن يهزا أحد بما أنزل الله من أنظمة تصون حيلة وكرامة الإنسان رجلا كان أو امرأة

« واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به » ونعمة الله عليهم التي يذكرهم الله بها في معرض الحديث عن الطلاق هي أنه - سبحانه - يلفتهم إلى ما كانوا عليه قبل أن يشرع لهم أين كان حظ المرأة في الجاهلية في أمور الزواج والطلاق ، وما أصبحت عليه بعد برول القرآن ؟ لقد صارت حقيقتها مصونة بالقرآن .

إن الحق عز وجل يمتن على المؤمنين ليلفت نظرهم إلى حالهم قبل الإسلام ، فقد كان الرجل يطلق امرأته ويعيدها ، ثم يطلقها ويعيدها ولو ألف مرة دون ضابط أو رابط وكان يحرم عليها المباشرة الزوجية شهورا ويتركها تتعذب بلوعة السعد عنه ، ولا تستطيع أن تتكلم

وكانت امرأة إذا مات زوجها تسمى من المحتسح فلا تظهر أبدا ولا تخرج من بيتها وكأنها جرثومة ، وقيل ذلك كله كانت مصدر عار لأبيها ، فكان يقتلها قبل أن تصل إلى سن البلوغ بدعوى الخرص على مرصه وشرفه

باختصار كان الزواج أقرب إلى المهال من إلى الحد ، فحاء الإسلام ، فحسم

الأمور حتى لا تكون فرضي بلا ضوابط وبلا قوانين . فادكروا أيها المأمون بعمه الله عليكم بالإسلام ، وانظروا إلى ما أنعم به عليكم من نظم أسرى يلهث العالم شرقه وغربه لبصل إلى مثله

كنتم أمة بلا حضارة وبلا ثقافة ، تعبدون الأصنام وتقيمون الحرب وتشعنونها ببيكم على أئمة الأسباب وادونها ، وتجهلون القراءة والكتابة ، ثم يرب الله عليكم هذا التشريع الراقى الناصح الذي لم تصل إليه أية حضارة حتى الآن . ألا تذكرون هذه النعمة التي أنتم فيها بفصل من الله ؟ لذلك قال سبحانه : « وادكروا نعمه الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعطكم به » والكتاب هو القرآن ، والحكمة هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويحتم الحق ثلث الآية لكرمه بقوله : « واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم »

فياكم أن تهملوا دينكم بأنه قد فاتته شيء من التشريع لكم ، فكل تشريع حاصر في الإسلام ، لأن الله عليم بما يكون عليه أحوال الناس ، فلا يستدركه كون الله في الواقع على ما شرع الله في كتابه ، لأنه سبحانه خالق الكون ومول تشريع . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجْلِهِنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

« فليس آجلهن » هنا أي فانتهاه العدة ، ولم يستبعد الروح مرات الطلاق ، ولم يعد للروح حق في أن يراجعها إلا بعد عقد ومهر جديدتين . هب أن الروح أراد أن

يعيد زوجته إلى عصمتها مرة أخرى ، وهذا قد يتدخل أهل اللدد والخصومة من الأقارب ، ويقعون في وجه إنكسار الزواج ، والزوجان ربما كان كل منهما يميل إلى الآخر ، ويبقى سؤال عاطفي ونفسي لا يعلمه أحد ، لكن الدين دخلوا في الخصومة من الأهل يقعون في وجه عودة الأمور إلى مجاريها ، خوفا من تكرار ما حدث أو لأسباب أخرى ، ويقول هؤلاء : مادام الزوجان قد تراصبا على العودة فلا يصح أن يقف أحد في طريق عودة الأمور إلى ما كانت عليه .

وقوله الحق . « فلا تعضلوهن » يعرف منه أن العضل هو المانع ، والكلام للأهل والأقارب وكل من يهجم مصلحة الطرفين من أهل المشورة الحسنة . وه أن يكس أزواجهن ، أي الذين طلقوهن أولا .

والمعنى لا تمنعوا الأزواج أن يعيدوا إلى عصمتهم زوجاتهم اللاتي طلقوهن من قبل . وليعلم الأهل الذين يضرون على منع بياتهم من العودة لأزواجهن أنهم المتهاذي في الخصومة بمنعوا مائدة الترحيل في الطلاق التي أراد . حكمه الله

إن حكمه التشريع في جعل الطلاق مرة ، ومرتين هي أن من لم يصلح في المرة الأولى قد يصلح في المرة الثانية ، وإذا كان الله العليم بموس البشر قد شرع لهم أن يطلقوا مرة ومرتين ، وأعطى فسحة من الرقة في المرة الأولى ألا يعطى في الثانية ، لذلك فلا يصح أن يقف أحد حجاب عثرة أمام إعادة الحياة الزوجية من جديد .

وقوله الحق . « أن يكس أزواجهن » ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى ينسب الكس للنسوة ، فقال . « يكس » وهذا يفهمى رضاء المرأة عن العودة للزوج فلا يمكن أن يطلقها أولا ثم لا يكون لها رأى في العودة إليه .

« إذا تراصوا بينهم بالمعروف » وما داموا تراصوا وراوا أن عودة كل منهما للآخر أفضل ، فليستعد أهل النسوة الذين يقعون في وجه رضا الطرفين ، وليتركوا الخلاص يعود إلى مجاريه . « ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فلكم أركى

لكم وأطهر» إن هذا تشريع ربكم وهو موعظة لكم يا من تؤمنون بالله رباً حكيماً مشرعاً وعالماً بنوازع الخير في نفوس البشر .

وكلمة « وأطهر » تلقتنا إلى حرمة الوقوف في وجه المرأة التي تريد أن ترجع لزوجها الذي طلقها ثم انتهت العدة ، وأراد هو أن يتزوجها من جديد ، إن الحق يلفت لا تفقروا في وجه رعتها في العودة لأي سبب كان ، لماذا يارب ؟

وتأتى الإجابة في قوله الحق « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » تأمل حال السباغ انقراى وكيف حدم قوله تعالى : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » المعنى الذى تريد الأيات . إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون أن في عودة الأمور لمجاريها بين الزوجين أذى واضح وأصهر . ويقول الحق بعد ذلك .

وَالْوَالِدَتُ يُرَضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّصَاعَةُ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ يَدْفَعُهَا وَيَكْسُوْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تَكْلَفُ نَفْسٌ إِلَّا أَوْسَعَهَا لَا نَصْكَارَ وَلِذَلِكَ يُؤَلِّدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولَدُ لَهُ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

انظر إلى عظمه الإسلام ما هوذا الحق سبحانه يكلم عن إرضاع الوالدات لأولادهن بعد عمليه الطلاق ، فالطلاق يررث الشقاق بين الرجل والمرأة ، والحق

سبحانه وتعالى ينظر للمسألة بنظرة الرحيم العليم بمصادره، فيريد أن يحمي الثمرة التي نتجت من الزواج قبل أن يحدث الشقاق بين الأبوين، فيبلغنا : لا تجعلوا شقاقكم وخلافكم وطلائعكم مصدراً تعاسة للطفل البريء الرضيع .

وهذا كلام عن المطلقات اللاتي تركن ميوت أرواجهن ، لأن الله يقول بعد ذلك «وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف» ومادامت الآية تحدثت عن «رزقهن وكسوتهن» فذلك يعني أن المرأة ووليدها بعيدة عن الرجل، لأنها لو كانت معه لكان رزق الوليد وكسوته أمراً مفروضاً منه . والحق سبحانه يفرض ما حقا للرضيع ، رآه لم تكن تستحقه لولا لرضاعه . وبعض الناس فهموا خطأ أن الرزق والكسوة للزوجات عموماً ونقول بهم : لا . إن الرزق والكسوة هنا للمطلقات اللاتي يرضعن فقط .

ليريد الحق سبحانه أن يجعل هذا الحق أمراً مفروضاً منه ، مشرع حق الطفل في أن يتكفله والده بالرزق والكسوة حتى يكون الأمر معلوماً لديه حال الطلاق .

وقوله تعالى : «والوالدات يرضعن أولادهن حوليين كاملين» تلحظ فيه أنه لم يأت بصيغة الأمر فلم يقل : «والوالدات أرضعن» ، لأن الأمر ضرورة لأن يرضع وأن يعصى ، لكن الله أظهر المسألة في أسلوب خبري على أنها أمر واقع حتمي ولا يحالف .

ويقول الحق : «وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن» ولنتأمل عظيمة أداء القرآني في قوله : «وعلى المولود له» إنه لم يقل : «وعلى الوالد» وجاء - «المولود له» ليكلمه بالتبعات هي الرزق والكسوة ، لأن مسئولية الإتيان على المولود هي مسئولية الوالد وليست مسئولية الأم ، وهي قد حملت وولدت وأرضعت وأولاد يُسب للآب هي النهاية يقول الشاعر :

فإنما أمهات الناس أوعية

متوعدات وللآباء أيساء

ومادام المولود منسباً للرجل الآب، فعلى الآب رزقه وكسوته هو وعليه أيضاً رزق

وكسوة أمه التي ترضعه بالمعروف المتعارف عليه بما لا يسبب إجحافاً وظلماً للأب في كثرة الإنفاق ، ويقول الحق : « لا تكلف نفس إلا وسعها » هنا الحديث عن الأم والأب فلا يصح أن تهرق المطلقة والد الرضيع بما هو فوق طاقتها ، وعليها أن تكتفى بالمعقول من النفقة

ويتابع الحق : « لا تضار والدته بولدها ولا مولود به بولده » ولا زان الحق يُذكر الأب بأن المولود له هو ، وعليه ألا يضر والدته الطفل بمنع الإنفاق على أبيه ، وألا يتركها تتكفف الناس من أجل رزقه وكسوته ، وفي الوقت نفسه يُذكر الأم - لا تجبى رصعك مصدر إصرار لأبيه بكثرة الإلحاح في طلب الرزق والكسوة

إنه عر وجل يصح لنا الإطار الدقيق الذي يكفل للطفل حقوقه ، فهناك فرق بين رصيع يعم ندفة الحياة بين أبوين متعاشرين ، ووجوده بين أبوين عر متعاشرين

والحق سبحانه وتعالى يعطيا لفئة أخرى هي أن والد المولود قد يموت وإذا ما مات الوالد فمن الذي يسق على الوليد أسى في رعيه أمه المطلقة ؟ ها يأتيها قول الحق بالجاب اسريع : « وعلى الوارث مثل ذلك »

إن الحق يقرر مسئولية الإنفاق على من يرث ولد الرضيع ، صحيح أن الرضيع سيرث في والدته ، لكن رعيه الوليد اليتيم هي مسئولية من يرث لوصاية وتكون له الولاية على أموال الأب إن مات . وهكذا يضمن الله عز وجل حق الرضيع عند المولود له وهو أبوه إذا كان حياً ، وعند من يرث الأب إذا توفي

وبذلك يكون الله عز وجل قد شرع لصيانة أسس حياة الطفل في حال وجود أبويه ، وشرع له في حال طلاق أبويه وأبوه حي ، وشرع له في حال طلاق أبويه ووفاة أبيه ويتابع الحق : « فإن أرادوا فصلاً عن تراص منها وتشاور فلا جناح عليهما »

انظر إلى الرحمة في الإسلام ، فطلاق الرجل كزوجته لا يعنى أن ما كان بينهما قد



انتهى ، ويصبح الأولاد ويشقون بـ لطلاق ، ففوله تعالى « عن تراص منها وتشاور ، دليل على أن هناك قضية مشتركة مازالت بين الطرفين وهي ما يتصل برعاية الأولاد ، وهذه القضية المشتركة لابد أن يلاحظ فيها حق الأولاد في عاطفة الأمومة ، وحظهم في عاطفة الأبوة ، حتى يشاء الولد وهو غير محروم من حنان الأم أو الأب ، وإن احتلما حتى لطلاق .

إن عليهما أن يلتقيا بالتشاور والتراص في مسألة تربية الأولاد حتى يشعروا بحنان الأبرين ، ويكبر الأولاد دون آلام نفسية ، ويفهمون أن أمهم تقدر ظروفهم ، وكذلك والدهم ويرحم وجود الشقاق والخلاف بينهما فقد اتفقا على مصلحة الأولاد تراص وتشاور .

إن ما يحدث في كثير من حالات لطلاق من تجاهل للأولاد بعد الطلاق هي مسألة خطيرة : لأنها تترك دواست وأتارا سلبه عميقه في نفوس الأولاد ، وينرب عليها شقاؤهم ودعا تشريدتهم في الحياة . وما دبت أولاد كان الكبار هم السب المباشر في عيبتهم للحياة ؟ أليس من الأمصل أن يقرر الأباء لهم الظروف النفسية والحياة التي تكمل لهم النشأة الكريمة ؟ إن مهبج الله أمامنا فليذا لا نطقه لسعد به وتسعد به الأحيال القادمة ؟

والحق سبحانه وتعالى قال في أول الآية « والوالدت برصعن أولادهن حولين كاملين » لكن ماذا يكون الحال إن نشأت ظروف تقلل من فترة الرصاعة عن العامين ؟ أو نشأت ظروف خاصة جعلت فترة الرصاعة أطول من العامين ؟ هنا يقول الحق . « فإن أرادا فصلا عن تراص منها وتشاور فلا جناح عليهما »

إنه جل وعلا يبين لنا أن الفصل أي العظام يجب أن يكون عن تراص وتشاور بين الوالدين ولا جناح عليهما في ذلك . ويقول الحق . « وإن أردتم أن تسترصعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتهم بالمعروف » ، « وإن استرصعوا أولادكم » أي أن تأتروا للطلعن برصعة ، فإن أردتم ذلك فلا لوم عليكم في ذلك

إن المطلق حين يوكل إلى الأم أن ترصع وليدها فالطعل يأخذ من حنان الأم

الموجود لديها بالفطرة ، لكن هب أن الأم ليست لديها القدرة على الإرضاع أو أن ظروفها لا تسعفها على أن ترصعه لصعب في صحتها أو موتها، عند ذلك فالوالد مُطالب أن يأتى لابنه بمرصعة ، وهذه المرصعة التي ترصع الوليد تحتاج إلى أن يعطيها الأب ما يُسحبها ويجعلها تعمل على إرضاع الولد بأمارة ، والإشراف عليه بضيق .

ونختم الحق هذه الآية الكريمة بقوله : « واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير » ، إن الحق يحذر أن يأخذ أحد أحكامه ويدعى بظاهر الأمر تطبيقها ، لكنه غير حريص على روع هذه الأحكام ، مثال ذلك الأب الذي يريد أن يدلس على المجتمع ، فعندما يرى الأب مرصعة ابنه أمام الناس فهو يدعى أنه يفتق عليها ، ويعطيها اجرها كاملا ، ويقبلها بالحنانة والتكريم بينما الواقع يخالف ذلك .

إن الله يحذر من يفعل ذلك أنت لا تعامل المجتمع وإنما تعامل الله « والله بما تعملون بصير » . ويحول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ  
بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ  
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ  
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١٣٦ ﴾

والعدة - كما عرفنا - هي العترة الرسمية التي شرعها الله بعد زواج انتهى بطلاق أو وفاة الزوج . والعدة إما أن تكون بعد طلاق ، وإما بعد وفاة زوج ، فإن كانت العدة بعد طلاق فمدتها ثلاثة قروء ، والقروء - كما عرفنا - هو الحيضة أو الطهر ، فإن كانت المطلقة صغيرة لم تحض بعد أو كانت كبيرة تعدت من الحيض فالعدة تنقلب من القروء إلى الأشهر وتصح « ثلاثة أشهر » .

وعرفها أن من حق لروح أن يراجع روحه به وبين نفسه دون تدخل البروجة أو ولي أمرها به ذلك في أثناء فترة العدة في إطلاق الرجعى ، فإن انتهت عدتها فقد سقط حقه في مراجعة البروجة بنفسه ، وبه أن يراجعها ، ولكن بمهر وعقد جديدين مادام قد بقي له حق أى لم يستعد مرات إطلاق .

وقد قسا . إن عدت المطلقات اثنتين وأصبحت هناك طئفة ثالثة فلا بد من روح آخر يتزوجها بالطريقة الطبيعية لا يقصد أن يحللها للروح الأول . وأما عدة المتوفى عنها زوجها فقد عرفنا أن القرآن ينص على أنها تبرئ بنفسها أربعة أشهر وعشرا ، هذا إن لم يكن حاملا ، فإن كانت حاملا فعدتها أربع أشهر ، وإن كان لأجل الأبعد هو أربعة أشهر وعشرا فذلك عدتها ، وإن كان الأجل الأبعد هو الحمل فعدتها أن ينتهى الحمل . لكن أليس من الخائر أن يموت زوجها وهي في الشهر التاسع من الحمل فتد قبل أن يدفن ؟ وهل يعنى ذلك أن عدتها تسبب لا ، إنها تنتهى بأبعد لأجلين وهو في هذه الحالة مرور أربعة أشهر وعشرا ، وإن قال بعض الفقهاء إن عدة الحامل بوضع الحمل .

لكن إذا لم يكن زوجها متوفى عنها فعدتها أن تصح حينها ، وإن شامت أن تزوج بعد ذلك فهذا ذلك ولو بعد لحظة . وبعض الناس يفسرون الحكمة من حمل عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا ، فيقولون لأنها إن كانت حاملا بذكر سيظهر حملها عندما يتحرك بعد ثلاثة أشهر ، وإن كانت حاملا بأنثى فستتحرك بعد أربعة أشهر وتعطىها مهلة عشر ليال .

ويقول لهم : حرّم الله حبرا على تفكيركم ، لكن العدة هنا ليست لاستبراء الرحم ؛ لأنها لو كانت لاستبراء الرحم لانتبه عدة امرأة بمجرد ولادتها ولو كان الأمر لتأكد من وجود حمل أو عذمه ، لكأن عدتها ثلاث حيضات إن كانت من ذوات الحيض ، وإن كانت من غير ذوات الحيض لصغر أو تكبر من لكأن عدتها ثلاثة أشهر . لكن الله احتصها بأربعة أشهر وعشرا وهذه لحق زوجها عليها وإكرامها لحياتها البروجية .

إذن قاله عز وجل جعل للمتوفى عنها زوجها فترة أقصى مدة يمكن أن تصبر عليها

المرأة . فالمرأة ساعة تكون متوفى عنها زوجها لا تخرج من بيتها ولا تزين ولا تلبس أحداً وفاة الزوج ، فإذا انتهت عدتها أى مفسدت عليها الأربعة الأشهر والعشرة ، « فلا جناح عليكم فيها فعلن في أنفسهن » وهو معنى أن تزين في بيتها وتخرج دون إبداء زينة وأن يتقدم لها من يريد خطبتها . وقوله تعالى : « أربعة أشهر وعشرا » والمقصود بهذه المدة أربعة أشهر وعشر ليال .

وهنا لعنة تشريعية إيمانية تلزم على استطراد كل حكم شرعى في جميع المكلفين وإن لم يكن الحكم ماحدا لهم ؛ فالتزنى عنها زوجها تربعت أربعة أشهر وعشرا وبلغتها في مدة العدة ، وكان من حكم الله عليها ألا تزين وألا تكتحل وألا تخرج من بيتها وفاة لحق زوجها فإذا بلغت الأجل وانتهى قال : « فلا جناح عليكم فيها فعلن في أنفسهن » ، ولم يقل : فلا جناح عليهن .

لقد وجه الخطاب هنا للرجال ؛ لأن كل مؤمن له ولاية على كل مؤمنة ، فإذا رأى في سلوكها أو أسلوب عنايتها بنفسها ما ينافي العدة فله أن يتدخل . مثلاً إذا رآه تزين قال لها أو أرسل إليها من يقول لها : ماذا تزينين ؟ إن قول الله : « فلا جناح عليكم » يجعل للرجال قوامة على المتزنى عنها زوجها ، فلا يقولون : لا دخل لك ؛ لأن الحكم الإيماني حكم مستطرق في كل مؤمن وعن كل مؤمن فالحق سبحانه وتعالى يقول .

﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

( من الآية ٣ سورة العصر )

إن قوله الحق : « تَوَاصَوْا » لا يعنى أن قوماً حُصوا بأنهم يُوصون غيرهم وقوماً آخرين يُوصيهم غيرهم ، بل كل واحد منكم في وقت ؛ وموصى من غيره في وقت آخر ، هذا هو معنى « تَوَاصَوْا » .

فإذا رأيت في غيرك ضعفاً في أى ناحية من نواحي أحكام الله ، فلك أن توصيه . وكذلك إن رأى صديقك ضعفاً في أى ناحية من النواحي فله أن يوصيك ، وعندما توصي جميعاً لا يبقى لمؤمن بيت خطأ ظاهراً .

إذن فالآية لا تُخصُّ بالوصية جماعة دون أخرى إنما الكل يتواصون ، لأن الأعيار البشرية تتناوب الناس أجمعين . فأتت في فترة ضعفى وقيب عى ، فتوصى وأما في فترة ضعفك وقيب عليك ، فالوصيك . ولذلك جاء قول الحق : « فلا جناح عليكم » إنه سبحانه لم يوجه الخطاب للنساء ، ولكن خاطب به المؤمنين ولم يخص بالخطاب أولياء أمور النساء فحسب وإنما ترك الحكم للجميع حتى لا يقول أحد : لا علاقة لي بالمرأة التي توفى عنها زوجها ولتعمل ما تشاء . إن هذا أن تتزين بالمتعارف عليه إسلاميا في الزينة ، ولها أن تتجمل في حدود ما أذن الله لها فيه .

ويختتم الحق هذه الآية بقوله : « والله بما تعملون خبير » أى والله أعلم بما في نفسها وما في نيتها . وهب أنها فعلت أى فعل هل خير مرأى من أحد فلا تعمد أن المجتمع وإن لم يشهد منها ذلك أن المسألة انتهت . لا ، إن الله عليم بما تفعل وإن لم يطلع عليها أحد من الناس .

إن الحق سبحانه وتعالى قد حمى بكل التشريعات السابقة حق الزوج حتى تنتهى العدة ، وحق المتوفى عنها زوجها في أثناء العدة ، وحمى أيضا بكل التشريعات كرامة امرأة . وجعل المرأة حرما لا يقترب منه أحد يخشع حجباها ، إن عليها عدة عموية في هذا الوقت لرجل آخر ، فلا يحق لأحد أن يقترب منها .

لماذا ؟ لأن المرأة خاصة إذ كانت مطلقة قد تنملكها رغبة في أن تنثر لنفسها ولكرامتها ، وربما تعجلت التزوج ، وربما كانت مسائل الافتراق أو الخلاف ناشئة عن اندساس رغبة راغب فيها ، وبمجرد أن يتم طلاقها وتميش فترة العدة فقد يحوم حولها الراغبون فيها ، أو تستشرف هي من ناحيتها من نراه صالحا كزوج لها . ولذلك يفرض الحق سياجا من الزمن ويجعل العدة كمناطق حرام ليحمى المرأة هاية موضوعية لا شكلية .

التشريع - لأنه من إله رحيم - لا يلد عواطف النفس البشرية - لا من ناحية الذي يرغب في أن يتزوج ، ولا من ناحية المرأة التي تستشرف أن تتزوج ، فهالج هذه المسألة بدقة وبحزم وبحسم معا فيقول - جل شأنه - :

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النَّسَاءِ  
 أَرَأَيْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ  
 وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا  
 وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ الْيَكَاجِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْرَهُ  
 وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا  
 أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ ﴿١٣٥﴾

ودعرضتم : ماخوذة من التعريض والتعريض : هو أن تدل على شيء لا  
 بما يؤديه نصا ، ولكن تعرض به تلميحاً .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يجعل للعواطف تنفيساً من هذه الناحية ،  
 والتنفيس ليس مجرد تعبير عن العاطفة ، ولكنه رعاية للمصلحة ، فمن الجائز أنه  
 لو حزم التعريض لكان في ذلك صياح فرصة الزواج للمرأة ، أو قد يفوت - هذا  
 المنع - انفرصة عن من يطلبها من الرجال ، لذلك يضع الحق القواعد التي تفرض  
 على الرجل والمرأة معا أدب الاحتياط ، وكأنه يقول لنا : أن أمنعكم أن تخطبوا في  
 العدة أو تقبوا كلاماً صريحاً وواضحاً فيها ، لكن لا مانع من التلميح من بعيد

مثلاً يشق الرجل على المرأة ؛ ويعدد محاسنها بكلام لا يعد خروجاً على آداب  
 الإسلام مثل هذا الكلام هو تلميح وتعريض ، وفائدته أنه يعبر عن نفس فائده تجاه  
 المطلقة تصرف رأيه فيها ، ولو لم يقل ذلك فربما سبقه أحد إليها وقطع عليه السبل  
 لإفادته في نفسه ، ومنه من أن يتقدم خطبتها بعد انتهاء العدة ، وقد يدغمه ذلك  
 لأن يفكر تفكيراً آخر للتعبير بأسلوب وشكل خاطيء .

إذن فالتمريض له فائدة في أنه يُعرف المخطئة رأي فلان فيها حتى إن جاءها غيره لا توافق عليه مباشرة وهكذا نرى قيساً من رحة الحق سبحانه وتعالى بنا ، بأن جعل العدة كمسئلة حرام تحمي المرأة ، وجعل التمريض فرصة للتعبير عن العاطفة التي تؤمن مصلحة من بعد ذلك .

إن الحق يقول : « ولا جناح عليكم فيها عرضتم به من خطبة النساء » والخطبة مأخوذة من مادة « الخاء » و « الطاء » و « الدال » وتدل على أمور تشترك في عدة معالم منها خطبة بضم الخاء ، ومنها خطب وهو الأمر العظيم ، ومنها المعنى الذي نحن بصدده وهو الخطبة بكسر الخاء . وكل هذه المعالم تدل على أن هناك الأمر العظيم الذي يُعالج ، فالخطبة أمر عظيم يبرز الكيان ، وكذلك الخطبة لا يلتقيها الخطيب إلا في أمر ذي بال ، فيعظ المجتمع بأمر ضروري .

والخطبة كذلك أمر عظيم ، لأنه أمر فاصل بين حيتين ، حياة الانطلاق ، وحياة التقيد بأسرة ونظام . وكلها معان مشتركة في أمر ذي بال ، وأمر حطير . وهو سبحانه وتعالى يقول : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكنتم في أنفسكم » أي لا جناح عليكم أن وصعتم في أنفسكم أمراً يُنفى على المرأة ، وللحسم أن يكن ويصفي في نفسه ما يشاء ، ولكن ما الذي يُدري ويعلم المطلقة أنها في مالك يا من أسرت امرها في نفسك ؟ إنك لا بد أن تلمح وأن تعرض بأسلوب يلحق باحترام المرأة .

ويقول الحق : « علم الله أنكم ستذكرون » ، إن الذي خلقك يعلم لها مدامت في بالك ، ومات زوجها عنها أو طلقها فقد أصبحت أملاً بالنسبة لك ، فوائه خبير عليك لعوق عواطفك ، ولضاعت منك الفرصة لأن تتخذها زوجة من بعد ذلك ، ولهذا أباح الحق التمريض حتى لا يقع أحدكم في المحذور وهو « لا تواعدوهن سرا » بأن تاحلوا عليهن العهد ألا يتزوجن غيركم ، أو يقول لها : تزوجي بل عليه أن يعرض ولا يقصح ولا يهرج . إن المواجهة في أسر أمر مهم عنه ، لكن المسموح به هو التمريض بأدب ، « إلا أن تقولوا قولاً معروفاً » كأن يقول : « يا سعادة من ستكون له زوجة مثلك » . ومثل ذلك من الشاء الذي يُطرب المرأة .

ونعلم جميعاً أن المراد في مثل حال المطلقة أو المتوفى عنها زوجها تلك شفافته والمعنى  
تلفظ بها معنى الكلام ومراد .

ويتابع الحق : « ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله » وهكذا يرى أن  
مجرد العزم الأكيد أمر نهى عنه . ولعزم مقدم على الفعل وإذا نهى عنه كان النهى عن  
الفعل أهوى وأشد وأنهى ، فلو أن تنوى الروح منها وتتوكل على الله ، نكر  
لا تجعله أمراً مفروضاً منه ، إلا بعد أن تتم عدتها ، فإن بلغ الكتاب أجله وانتهت  
عدتها فاعزموا عقدة النكاح . مكان عقدة النكاح ثمر بثلاث مراحل .

المرحلة الأولى . وهي العريضة أى التلميح  
والمرحلة لثانية هي العزم الذى لا يصح ولا يستقيم أن يسم إلا بعد انتهاء  
فترة العدة .  
والمرحلة الثالثة : هي العقد .

والمقصود بهذه المراحل أن يأخذ كل طرف فرصته للتفكير العميق في هذا الأمر  
الحادث ، فإذا كان التفكير قد هدى إلى العزم فإن للإنسان أن يعقد بعد انتهاء العدة ،  
وإن كان التفكير قد اهتدى إلى الابتعاد وحسب النظر عن مثل هذا الأمر فبالإنسان  
ما يريد .

ويريد الحق من هذه المراحل أن يعطى الفرصة في التراجع إن اكتشف أحد  
الطرفين في الآخر أمراً لا يعجبه . وكل هذه الخطوات تدل على أن العقد لا يكون  
إلا بعزم ، فلا يوجد عقد دون عزم ، إن الحق يريد من المسلم ألا يقدم على عقد  
لنكاح إلا بعد عزم . والعزم معناه التصميم على أنك تريد الزواج بحق الزواج  
ويكفل مسئولياته ، ويكفل مهر الزواج ، ومشروعيته ، وعفافه ، فالزواج بدون  
أرضية العزم مصيره الفشل .

وسمى العزم . أن تفكر في المسألة بعق وروية في نفسك حتى تستقر على رأى  
أكيد ، ثم لك أن تقل على الزواج على أنه أمر له ديمومة وبقاء لا مجرد شهوة طارئة  
ليست لها أرضية من عزيمة النفس عليها .



ولذلك فإن الزواج القائم على غير روية ، والمعلق على أسباب مؤقتة كفضاء الشهوة لا يستمر ولا ينجح . ومثل ذلك روج المتعة ، فالعنة في تحريم رواج المتعة أن المقدم عليه لا يريد به الاستمرار في الحياة الزوجية ، ومادام لا يقصد منه الديمومة فمعناه أنه هدف للمتعة الطارئة .

والذين يباحون رواج المتعة مصابون في تفكيرهم ، لأنهم يباسون عصر الإقبال بدمومة على الزواج ، فها الداعي لأن نقيد زواجك بمدة ؟ إن الكناح الأصيل لا يقيد بمثل هذه المدة . وتأمل حق هؤلاء لتعلم أن المسألة ليست مسألة رواج ، إنما المسألة هي تمييز زى ، وإلا لماذا بشرط في زواج المتعة أن يتزوجها لمدة شهر أو أكثر ؟

إن الإنسان حين يشترط تقييد الزوج بمدة فذلك دليل على غياب تفكيره وسوء نيته ، لأن الزواج الأصيل هو الذي يدخل فيه بدمومة ، وقد يسيرة بعد ساعة من وحد أن الأمر يستحق ذلك ، ولن يعترض أحد على مثل هذا السلوك ، فلماذا نقيد نفسك بمدة ؟ إن المتزوج لستمعة يستخدم الذكاء في غير محله ، قد يكون ذكيا في ناحية ولكنه قليل القطة في ناحية أخرى

إن على الإنسان أن يدخل على الزواج بعزيمة بعد تفكير عميق وروية ثم يعد العزم إلى عقد . حذار أن تضع في نفسك مثل هذا الزواج المربوط على مطامع وأهداف في نفسك كعدم الديمومة أو لهدف لمتعة فقط ، فكل ما يكثر فيه بعض الناس من أطمع شهوانية وديوية هي أطمع رائلة . اصرف كل هذه الأفكار علك ، لأنك إن أردت شيئا غير الديمومة في الزواج ، وإرادة الإعفاف ، فافه سبحانه وتعالى بعدمه وسيرد تمكبرك نقمة عليك فاحذره

إن الله سبحانه لا يحذر الإنسان من شيء إلا إذا كان مما يعصمه سبحانه . لذلك بدليل الحق هذه الآية الكريمة بقوله : « واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حلیم » وهو سبحانه يعلم صعب النفس الشرية وأها قد تضيق في بعض الأحيان ، فإن كان قد حدث منها شيء فافه يعطيها انفرصة في أن يتوب صاحبها لأنه سبحانه هو الغفور الحلیم . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِصُوهُنَّ  
لَهُنَّ فَرِيضَةٌ وَمِمَّا عَوَّضْتُمْ عَنْهُنَّ عَلَى التَّوَسُّعِ قَدْرُهُمْ عَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُمْ  
مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٨﴾

نحن نلاحظ أن لكلامهما تقدم كان عن الطلاق للمدخل بها ، أو عن المرأة التي دخل بها زوجها ومات عنها ولكن قد تحدث بعض من المسائل نسوج الطلاق لامرأة غير مدخول بها وثاني هذه الآية لتحدث عن المرأة غير المدخول بها ، وهي إما أن يكون الزوج لم يعرضها صداقاً ، وإما أن يكون قد عرضها صداقاً .

والطلاق قبل الدخول له حكمان فُرِصَتْ في العقد فريضة ، أو لم تعرض فيه فريضة ، فكان عدم عرض المهر ليس شرطاً في النكاح ، بل إذا تزوجته ولم يعرض في هذا لزوج مهر فقد ثبت لها مهر المثل والعقد صحيح . ودليل ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول : « لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِصُوهُنَّ فَرِيضَةً » ومعنى ذلك أنها كانت زوجة ولم يحدث دخول للزوج بها

ولنا أن نسأل ما هو المس ؟ ويقول به مس ، وفيه لمس ، وفيه ملامسة للإنسان قد لمس شيئاً ، ولكن الماس لا يتأثر باللمس ، أي لم يدرك طبيعته أو حاله هل هو حشن أو ناعم ؟ دافئ أو بارد ، وإلى غير ذلك .

أما اللبس فلا بد من الإحساس بالشيء الملموس ، أما الملامسة فهي حدوث التداخل بين الشئين إذن فعدنا ثلاث مراحل لأولى هي مس . والثانية لمس . والثالثة ملامسة كلمة المس هي ذلك على الدخول والوطء ، وهي أخف من اللبس ، وأيسر من أن يقول لا مستم أو باشرتم ، ونحن نأخذ هذا

المعنى : لأن هناك سياقاً غريباً في مكان آخر قد جاء ليكون نصاً في معنى ، ولذلك نستطيع من سياقها أن نهم المعنى المقصود بكلمة « المس » هنا ، فقد قالت السيدة مريم :

﴿ أَنِّي نَكَوْتُ لِي غُلَامًا وَرَيْمَسِي بِشَرِّ رَزَاكَ نَعِيًا ﴾

( من الآية ٢٠٠ سورة مريم )

إن القرآن الكريم يوضح على لسان سيدتنا مريم أن أجداً من الشر لم يتصل بها ذلك الاتصال الذي شأ عنه علام ، والتعير في منتهى الدقة ، ولأن الأمر به تعرض لعورة وأسرار ، بذلك جاء القرآن بأجمل لفظ في وصف تلك المسألة وهو المس ، وكأن الله سبحانه ومعالى يريد أن يثبت لها عفافاً حتى في اللفظ ، فعلى مجرد من الشر لها ، وليس الملازمة أو المباشرة برغم أن المقصود باللفظ هو المباشرة ، لأن الآية بصدد إثبات عفة مريم .

ولسأمن أدب القرآن في تناول المسألة في الآية التي نحن بصدد ، فكان الحق سبحانه ونعالى يميز عن اللفظ نهاية مدلوله وبأجمل التعبير

والحق يقول : « أو تعرضوا لمن فريضة » وتعرب أن « أو » عندما ترد في الكلام بين شيئين فهي تعني « إما هذا وإما ذاك » ، فهل تعرض لمن فريضة مقبل المس ؟ إن الأصل المقبل في « ما لم تمسوه » هو أن تمسوه ومقابل « تعرضوا » من فريضة « هو أن لا تعرضوا لمن فريضة » كأن الحق عز وجل يقول : لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن سواء فرختم لمن فريضة أو لم تعرضوا لمن فريضة . وهكذا يحرص الأسلوب القرآني على تبيين الدفن في ملاحظة المعاني

ول أن نلاحظ أن الحق قد جاء بكلمة « إن » في احتياك وفرع الطلاق ، وإن « ك » تعرب - تستخدم لفك - فكأن الله عز وجل لا يريد أن يكون الطلاق محرماً عليه ومحققاً ، فلم يأت به إذاً ، بل جعلها في مقام الشك حتى تُعرر الآية قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أبغض الخلال إلى الله الطلاق »

ثم يقول الحق عز وجل بعد ذلك : « ومنعهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » أي إنك إذا طلقت المرأة قبل الدخول ، ولم تفرض لها فريضة فأعطاها منعة . وقال العلماء في قيمة المنعة : إنها ما يوازي نصف مهر مثيلاتها من النساء ؛ لأنه كان من المفروض أن تأخذ نصف المهر ، وما دام لم يحدد لها مهر فلهذا مثل نصف مهر مثيلاتها من النساء . ويقول الحق : « على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » أي ينبغي أن تكون المنعة في حدود تناسب حالة الزوج ؛ فالموسع الغني : عليه أن يعطي ما يليق بمعطاء الله له ، والمقتر الفقير : عليه أن يعطي في حدود طاقته .

وقول القرآن « الموسع » مشتق من « أوسع » واسم الفاعل « موسع » واسم المفعول « موسع عليه » ، فأى اسم من هؤلاء يطلق على الزوج ؟ إن نظرت إلى أن الرزق من الحق لله « موسع عليه » ، وإن نظرت إلى أن الحق يطلب منك أن توسع حركة حياتك ليأتيك رزقك ، وعلى قدر توسيعها يكون اتساع الله لك ، فهو « موسع » .

إذن فالموسع . هو الذي أوسع على نفسه بتوسيع حركة أسانه في الحياة والإقتار هو الإقلال ، وعلى قدر السعة وعلى قدر الإقتار تكون المنعة . والحق سبحانه وتعالى حينما يطلب حكماً تكليفاً لا يقصد إنفاذ لحكم على المطلوب منه محسب ، ولكنه يورع المسؤولية في الحق الإيماني العام ؛ فقوله : « ومنعهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » يعني إذا وجد من لا يفعل حكم الله فلا بد أن تتكاتفوا على إنفاذ أمر الله في أن يتمتع كل واحد طلق زوجته قبل أن يدخل بها والجميع في الأمر وهو قوله . « ومنعهن » دليل على تكاتف الأمة في إنفاذ حكم الله وبعد ذلك قال :

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ  
لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصِفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوا أَوْ يَعْفُوا  
الَّذِي يَدِيهِ عَقْدَةُ الزَّكَاءِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ

## وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٢٧﴾

أى مادام لم يدخل بها ولم يتمتع بها فلا تأخذ المهر كله ، إنما يكون لها النصف من المهر . ولعلهم أن هناك فرقاً بين أن يوجد الحكم بقاوى العدل ، وبين أن يُطرق الحكم بأحية الفضل ، وأحكى هذه الواقعة لتعلم منها

ذهب اثنان إلى رجل ليحكم بينهما فقالا : احكم بيننا بالعدل قال : أتنبون أن احكم بينكما بالعدل ؟ أم بما هو خير من العدل ؟ فقالا : وهل يوجد خير من العدل ؟ قال : نعم . الفضل .

إن العدل يعطى كل ذي حق حقه ، ولكن الفضل يجعل صاحب الحق يتنازل عن حقه أو عن بعض حقه . إذن فالشرع حين يصع موازين العدل لا يريد أن يحرم التبع الإيجابي من أيجابية القليل ، فهو يعطيك العدل ، ولكنه سيحانه يقول بعد ذلك : « ولا تنسوا الفضل بينكم » ، فالعدل وحده قد يكون شافئاً وثقى البغضاء في النفوس ، ولكن عملية الفضل تنهى المشاحة والمحاصرة والبغضاء

والمشاحة إنما تأتي عند أظن أنى صاحب الحق ، وأنت تظن أنك صاحب الحق ، ومن الخائر أن تأتى ظروف تزيى لى فهمى ، وتأتى لك ظروف تزيى لك فهمك ، فحين تسمك بفضية العدل لن تصل إلى صلح التراعى فى النفوس الشريه . ولكن إذا جئنا للفضل تراعىنا واتهينا

واحق سبحانه وتعالى يقول : « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن » أى من قبل أن يدخلوا من « وقد فرصتم لهن فريضة » يعنى سميتن المهر « فنصف ما عرستم إلا أن يعمن » والمقصود به « يعفون » هو الروجة المطلقة .

إن بعض السخلة يقولون والعياذ بالله : إن القرآن به حر . وظنوا أن الصحيح فى اللغة أن يأى القول إلا أن يعفوا بدلاً من « إلا أن يعمن » وهذا اللون

من الجهل لا يفرق بين « واو الفعل » و « واو الجمع » إنها « واو الفعل » فقول الحق : « لا أن يعفوا » مأخوذة من الفعل « عفا » و « يعفو »

وهكذا نفهم أن للروحة أن نعفو عن نصف مهرها وتنزل عنه لزوجها وتنام الحق . « أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح » والمقصود به الزوج وليس الولي ، لأن سياق الآية يفهم منه أن المقصود به هو الزوج ، مع أن بعض المفسرين قالوا : إنه ولي الزوجة ولما أن يعرف أن الولي ليس له أن يعفو مسألة مهر المرأة ، لأن لمهر من حق الروجة ، فهو أصل مال ، وأصل رزق في حياة الناس ؛ لأنه نظير التمتع بالبيع

ولذلك نجد بعض الناس لا يصنعون شيئاً بصدائق المرأة ، ويدخرونها لها بحيث إذا مرض واحد شترت له من هذا الصداق ولو قرص أسيرين مثلاً ؛ لأنه علاج من رزق حلال ، فقد يجعل الله فيه الشفاء . فالمرأة تحتعط بصدائقها الحلال لمثل هذه المناسبات لتصنع به شيئاً يجعل الله فيه خيراً ، لأنه من رزق حلال لا غش فيه ولا تدليس .

وأرد على المفسرين الذين نادوا بأن ولي الروحة هو الذي يعفو وأقول . لماذا يأتي الله بحكم تنزل فيه المرأة عن حقها وأن نعفو عن النصف ، والرجل لا يكون أرحماً ليحفر عن النصف ؟ لماذا نجعل النساء الغرم كله على المرأة ؟ هل من المطلق أن يعفو النساء أو يعفو الذي بيده عقد النكاح يعني أولياء الروجة ، نجعل العفو يأتي من الزوجة ومن أوليائها ؛ أي من جهة واحدة ؟

إن علينا أن نحسن الفهم سياق الفصل الذي قال الله فيه . « ولا تسوا الفضل بيكم » ، إن التقابل في المعنى يكون بين الاثنين ، بين الرجل والمرأة ، ونفهم منه المقصود بقوله تعالى « أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح » أنه هو الزوج ، فكما أن للمرأة أن تعفو عن النصف المستحق لها فالزوج أن يعفو أيضاً عن النصف المستحق له .

ويقول الحق : « وأن دعوا أقرب لتتقوا » ، لأن من الخائر جداً أن يظن أحد الظالمين أنه مظلوم ، وإن أخذ النصف الذي يستحقه . لكن إذا لم يأخذ شيئاً فذلك أقرب للتقوى وأسلم للنفوس ولذا أن نذكر دائماً في مثل هذه المواقف قول الحق

« ولا تنسوا الفضل بينكم » فحق في مقام الخلاف الذي يؤدي إلى أن يفرق رجل عن امرأة لم يدخل بها يقول الله . « ولا تنسوا الفضل بينكم » أي لا تجعلوها حصومة وثأر وأحقاداً ، واعلموا أن الحق سبحانه يحسن من بعض الأشياء أشياء مقدورة للقدور لم نعلمه . وهذه المسألة تجعل الإنسان لا يعتقد أن أصله هي الفاعلة وحدها .

ومثال ذلك . قد نجد رجلاً قد أعجب بواحدة رآها فتزوجها ، أو واحدة أخرى رآها شاب وم تعجبه ، ثم جاء لها واحد آخر فأعجب بها ، معنى ذلك أن الله عز وجل كتب لها القول ساحة رأت الشاب أهلاً لها ورآها هي أهلاً له . ولذلك كان الملاحون قديماً يقولون : لا تحزن عندما يأتي واحد ليخطب ابنتك ولا تعجبه ، لأنه مكتوب على جبهة كل فتاة: أيها الرجال عنوا - بكسر الميم وتشديد الفاء - عن سوء الرجال ، فهي ليست له . ولذلك عيسى هذا الرجل من نصيبها . وعلمنا ألا نهمل أسباب انقراض هذه الأمور ، لأن هذا ادعى أن نحفظ النفس البشرية من الاحقاد والضغائن

ويختتم الحق الآية بقوله : « إن الله بما تعملون بصير » إنه سبحانه يعلم ما في الصدور وما وراء كل سلوك . وبعد ذلك تأتي آية تثبت قصة إيمانية ، هذه القضية الإيمانية هي أن تكاليف الإسلام كلها تكاليف مجتمعة ، فلا تستطيع أن تفصل تكليفاً عن تكليف ، فلا تقل : « هذا فرض عبدي » و « هذا مبدأ مصلحي » و « هذا أمر جنائي » ، لا . إن كل قضية مأمور بها من الحق هي قصة إيمانية تكون مع غيرها منها متكاملة .

فبعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الطلاق يقول :

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصُّلُوحِ وَالصُّلُوحِ أَلْوَسُنَى وَهَيُّوا  
لِلَّهِ قَنِينِينَ ﴾ فَإِنْ جَفَّكُمْ فَرَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنْتُمْ

فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ



ثم يعود إلى الأسرة وإلى الخرق عنها زوجها فيقول :

﴿وَالَّذِينَ يَمُرُّونَ مِنكُمْ وَيُكَذِّبُونَ أَنفُسَهُمْ يَوْمَ يَقُولُ الْمَوْلِيُّ إِلَى نِكَاحِ خَبْرٍ أَرَجَ  
فَإِنْ تَرَاجَعَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ فِي مَا فَعَلْتَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ  
حَكِيمٌ﴾

(سورة البقرة)

إذن فالخلق سبحانه وتعالى فصل بآية «حافظوا على الصلوات» بين قصة واحدة هي قصة الفراق بين الزوجين وقسمها قسمين ، وأدخل بينهما الحديث عن الصلاة ، وذلك لئيبها إلى وحدة التكليف الإيمانية ، ونظرا لأن الحق يتكلم هنا عن أشياء كل مظهرها إما شقاق اختياري بالطلاق ، وإما افتراق قسري بالوفاة ، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يدخل الإنسان في لعملية التعدية التي تصله بالله الذي شرع الطلاق والصلاة وقدر الوفاة .

ولماذا اختار الله الصلاة دون سائر العبادات ليقطع سياق الكلام عن تشريع الطلاق والفرق ؟ لأن الصلاة هي التي تهب المؤمنين الإحسان ، إن كانت أمور الزوج ولطلاق حرمتهم وأهمتهم في شقاق الاختيار في الطلاقات التي وقعت أو عنه الافتراق بالوفاة . ولن يربط على قلوبهم إلا أن يقوموا لربهم يؤدوا الصلاة ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من يفعل ذلك ، كان إذا ما حزبه أمر فام إلى الصلاة

إن المؤمن يذهب إلى الخالق الذي أجرى له أسباب لزواج والطلاق والفراق ؛



ليسأله أن يخفف عنه الهم والحزن . وما دام المؤمن قد احتار الذهاب إلى من يُجبرى  
الأقدار فله أن يعرف أن الله الذى أجرى تلك الأقدار عليه لم يتركها بلا أحكام ، بل  
وصح لكل أمر حكما مناسبا ، وما على المؤمن إلا أن يأخذ الأمور القدرية برضا ثم  
يدهب إلى الله قائتا وحاشما ومصليا . لأن المسألة مسألة الطلاق أو الوفاة فيها فزع  
وفراق اختيار أو فراق الموت القدرى .

ويأتى قوله تعالى - « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » فنعلم أن المقصود في الآية هي الصلوات الخمس ، فما المقصود بالصلوة الوسطى ؟

ساعة بات حاص وعام مثل قوله تعالى .

﴿ رَبِّ اغْصِرْهُ لِي وَلِيْلَكَ ۖ وَلَمْ يَدْخُلْ يَتِي مُؤْمِنًا وَنُفُوسِيْنَ وَآمَنَاتٍ وَلَا تَرِدَ  
الْمُؤْمِنِيْنَ اِلَّا تَارًا ۝ ﴿٢٨﴾ ﴾

(مسودہ طرح)

فكم مرة دخل الأب والأم هنا ؟ فقد دخلوا في قوله تعالى : « اعمرني ولولدي » ،  
وفي قوله : « ولي دخل ببق » ، وفي قوله : « وللمؤمنين والمؤمنات » ، أي دخلوا  
ثلاث مرات .

إذن لا يجاد عام بعد خاص ، يعنى أن يدخل الخاص فى العام فيكرر الأمر بالسبب  
للخاص تكراراً يناسب خصوصيته .

وَحَرَكَهُ تَعَالَى : وَحَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى ، تَعْلَمُونَ ذَلِكَ اللَّهُمَّ  
 إِذَا سَأَلْنَا : مَا مَعْنَى حَافِظُوا ؟ الْحَوَاطِ - إِذَنْ - يَنْتَهِي أَنْ يَفْهَمَ أَنَّ عِبَادًا وَحَفِظًا ،  
 يُقَابِلُ « السَّيَّابِ » ، وَ« حَفِظَ » يُقَابِلُهُ « التَّصْبِيحُ » ، وَالْإِثَارُ يَنْتَقِيانِ ، فَالَّذِي حَفِظَ  
 شَيْئًا وَنَسِيَهُ فَإِنَّهُ قَدْ ضَيَّعَهُ ، وَالَّذِي حَفِظَ مَا لَا ثُمَّ بَدَدَهُ ، لَقَدْ ضَيَّعَهُ أَيْضًا ، إِذَنْ كَيْفَا  
 مَعَابٍ تَلْتَقِي فِي فَقْدِ الشَّيْءِ ، فَالْحَفِظُ مَعَهُ أَنْ تَبْصُرَ بَقَاءَ شَيْءٍ كَانَ عِنْدَكَ ، فَإِذَا  
 مَا حَفِظْتَ آيَةً فِي الْقُرْآنِ فَلَا يَدُّ أَنْ تَحْفَظَهَا فِي بَعْضِكَ ، وَلَوْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ بِمَا  
 فَلَا يَدُّ أَنْ تَحْفَظَ عَلَيْهِ

وقوله : « حافظوا على الصلوات » معناه لا تنسوها . ويُحتمل أيضاً معنى آخر هو أنكم قد دقتم حلالة الصلاة في القرب من معية ربكم ، وذلك أجدر وأولى أن تمسكوا بها أكثر ، وذلك لقول يسرى على الصلوات الخمس التي يعرفها .

قوله تعالى : « والصلاة لوسطى » ذكر للحاض بعد العام ، فكان الله أمر بالحاطة على ذلك الحاض مربي ، مرة في دائرة الصوم ومرة أخرى أمرها الله بالخصوص . وما لمة هما في تعدد الصلاة الوسطى بالخصوص ؟ إن « وسطى » هي تأنيث « أوسط » ، والأوسط والوسطى هي الأمر بين شيئين على الاعتدال ، أي أن الطرفين متساويان ، ولا يكون الطرفان متساويين في العدد - وهي انصلوات الخمس إلا إذا كانت الصلوات وترأ ، أي مفردة ، لأنها لو كانت زوجية لما عرفنا الوسطى فيها ، وما دام المقصود هو وسط الخمس ، فهي الصلاة الثالثة التي يسبقها صلاتان ويقتبها صلاتان ، هذا إن لاحظت العدد ، باعتبار ترتيب الأول والثاني والثالث والرابع والخامس

وإذا كان الاعتبار بفرصة الصلاة فإن أول صلاة أفرصها الله عز وجل هي صلاة الظهر ، هذا أول فرص ، وبعده العصر ، فالمغرب ، والعشاء ، فالبحر ، فإن أحلت الوسطى بالتشريع فهي صلاة المغرب وهذا رأى يقول به كثير من العلماء .

وإن أحدث الوسطى بحسب عدد ركعات الصلاة فتجد أن هناك صلاة قوامها ركعتان هي صلاة الفجر وصلاة من أربع ركعات هي صلاة الظهر والعصر والعشاء ، وصلاة من ثلاث ركعات هي صلاة المغرب والوسط فيها هي الصلاة الثلاثية ، وهي وسط بين الزوجية والرباعية فتكون هي صلاة المغرب أيضاً . وإن أخذتها بالنسبة لنهار فالصبح أول النهار وظهر بعده ثم العصر والمغرب والعشاء ، فالوسطى هي العصر .

وإن أحدثها على أنها الوسط بين الجهرية والسرية فيحتمل أن تكون هي صلاة الصبح أو صلاة المغرب ، لأن الصلوات السرية هي الظهر والعصر ، والجهرية هي المغرب والعشاء والفجر . وبين العشاء والظهر تأتي صلاة الصبح ، أو صلاة المغرب باعتبار أنها تأتي بين لظهر والعصر من ناحية ، والعشاء والصبح من ناحية أخرى .

وإن أخذتها لأن الملائكة تجتمع فيها فهي في طرق النهار والليل فذلك يعنى صلاة العصر أو صلاة الصبح إذن ، فالوسط يأتى من الاعتبار الذى نحسب به إن كان عدداً أو تشريفاً ، أو عدد ركعات ، أو سرية أو جهرية أو بحسب نروب ملائكة . ر . والليل ، وكل اعتبار من هؤلاء له حكم

ولماذا أثنى الله ذكرها عنا ؟ نقول : أخصها لئيبته كل ما يعرف أن هناك فرقاً بين الشيء لذاته ، والشيء الذى يهتم به غيره سواء ؛ ليكون كل شيء هو الشيء فيؤدى ذلك إلى المحافظة على جميع الصلوات

فما دامت الصلاة الوسطى تصلح لأن تكون الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء فذلك أدعى للمحافظة على الصلوات جميعاً . فربما الشيء إنما جاء للإشاعة بيباته . ولذلك أهتم الله ليلة لقدر للعلة نفسها والسبب نفسه ، فبدل أن تكون ليلة قدر واحدة أصبحت ليالى أقدار .

كذلك قوله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » أى على الصلوات الخمس بصفة عامة وكل صلاة تنفرد بصفة خاصة . ويريد الحق سبحانه أن نقوم لكل صلاة ونحضر قانتون ، والأمر لأوضح هو « وقوموا لله قانتين » وأصل الضوت فى اللغة هو المداومة على الشيء ، وقد حضر وحش القرآن الكريم على ديمومة طاعة الله ولزوم الخشوع والخضوع ، ونرى ذلك فى قول الحق الكريم .

﴿ أَمِنْ هُوَ قُنْتُ ۖ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْتَزُّ الْأَحِرَّةَ وَيَسْجُودُ رَحْمَةً رَبِّهِ قُلْ قُلْ يَسْتَوِ الَّذِينَ يَعْصُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ ۝١٠٢٥﴾

(سورة الزمر)

إن الحق سبحانه يبلغ رسوله صلى الله عليه وسلم ليبلغنا نحن المسلمين المؤمنين برسائله أن نقارن بين الذى يخشع لله فى أثناء الليل فيقضيه قائماً وساجداً يرحو رحمة ربه ، وبين الذى يدعو ربه فى الضراء وينسأ فى السراء ، هن يستوى الذين يعلمون خلق الله فيطيعوه ويوحدهون والذين لا يعلمون فيتركوا النظر والتصرف فى أدلة قدرات

الله ؟ إن السبيل إلى ذكر الله هو تجديد الصلة به والوقوف بين يديه مقبلاً للصلاة .

ونحن نلتقي الأمر بإقامة الصلاة حتى في أثناء القتال ، لذلك شرع لنا صلاة الخوف ، فالقتال هو المسألة التي تخرج الإنسان عن طريق أمنه ، فيقول سبحانه .  
« فَإِنْ حَفَمَ فَرَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا » ، إننا حتى في أثناء القتال والخوف لا نسي ذكر الله ،  
لأننا أخرج ما نكون إلى الله أثناء مواجهتنا للعدو ، ولذلك لا يصح أن نجعل السبب  
الذي يوجب أن نكون مع الله مبرراً لأن نسي الله .

وكذلك المريض ، ملء مريضاً فهو مع معية الله ، فلا يصح أن يتقطع عن  
الصلاة ، لأن لا عذر لئاركتها ، حتى المريض إن لم يستطع أن يصلي واقفاً يصل  
قاعداً ، فإن لم يستطع قاعداً ، فليصل مضطجعا ، ويستمر منه الأمر حتى لو اضطر  
للصلاة بزموش عيه . كذلك إن خفتم من عدوكم صواباً رجلاً ، يعني سائرين على  
أرجلكم أو ركبنا أو رجلاً ، جمع « راجل » أي يمشي على قدميه ، ومثال ذلك قوله  
الحق :

﴿ وَإِذْ فِي الْأَنْفُسِ الْخَوْفُ أَنْ يَنْزِعَهُ رَبُّهُمْ مِنْ كُلِّ مَوْجِعٍ عَمِيٍّ ﴾ (سورة الحج ٢٧)

( سورة الحج )

لقد كان الناس يؤذون فريضة الحج سيراً على الأقدام أو ركبنا على إبل بضمها  
السفر من كل مكان بعيد . إذ قال الرجل هو من يمشي على قدميه ، والأرجل مخلوقة  
لتحمل بني الإنسان : اواقف منهم ، ويقوم بتحريك المتحرك منهم ، فإن كان  
الإنسان واقفاً حملته رجلاه ، وإن كان ماشياً فإن رجليه تتحركان . والمقصود هنا أن  
الصلاة واجبة على المؤمنين سائرين على أقدامهم أو ركبنا

هذه المسألة قد فصلها الحق سبحانه وتعالى في صلاة الخوف بأن قسم المسلمين  
قسمين : قسم يصل مع النبي عليه الصلاة والسلام في الركعة الأولى ، ثم يتمون  
الصلاة وحدهم وبأن القسم الآخر ليأتهم بالرسول في الركعة التي بعدها حتى تنتهي  
الصلاة بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وينظرون حتى يمرغوا من صلاتهم  
وسلم بهم ، فيكون الفريق الأول أخذ فصل البس مع الرسول ، والفريق الآخر  
أخذ فصل الانتهاء من الصلاة مع الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان ذلك في غزوة ذات الرقاع

فكل من القرتين كانت تلف في وجه العدو للحراسة في أثناء صلاة القرنة الأخرى .  
وأي رأي في هذه المسألة هو أن صلاة الخوف بالصورة التي ذكرها الفقهاء إنما كانت للمعارك التي يكون فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لا يصح أن يكون هناك جيش يصح خلف النبي صلى الله عليه وسلم ويحرم الباقي من أن يصلي خلفه ، لذلك جعل الله بركة الصلاة مع رسول الله للتقسيم

لكن حينما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرميح الأعلى فمن الممكن أن يكون للواقفين أمام العدو إمام وللآخرين إمام ، إذن كان تقسيم الصلاة وراء الإمام في صلاة الخوف إنما كان لأن الإمام هو الإمام الأعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يشأ الله أن يحجب قوما عن الصلاة مع رسول الله عن قوم آخرين ، فسم الصلاة الواحدة بينهم لكن في وقتنا الحالي الذي انتظمت فيه المسائل ، وصار كل الناس على سواء ، ولم يعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا ، بذلك يصح أن تصلي كل جماعة بإمام خاص بهم

وقوله الحق : « فإن خفتم فرجالا أو ركباناً » نفهم منه أن الصلاة لا تسقط حتى عند لقاء العدو ، فإذا حان وقت الصلاة فعلى المؤمن أن يصليها إذا استطاع فإن لم يستطع فليكبركم تكبيرتين<sup>(١)</sup> ويتابع الحق فيقول : « فادكروا الله كما علمكم ما لم تذكروا تعبدون » أي اذكروا الله على أنه علمكم الأشياء التي لم تذكروا نعبدونها ، فلو لم يعلمكم فهذا كنتم تصنعون ؟

وبعد ذلك يعود الحق لسباق الحديث عن المتولي عن روجها فيقول .

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً  
لَا زَوْجَهُمْ مَتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ  
مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤﴾

في آية سابقة قال الحق :

﴿ وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ رَبَّكَ وَيُؤْتُونَ أَزْوَاجَهُمْ بِمَنْ يَنْفُسُهُنَّ أَرْبَعَةً أَشْهُرًا وَعَشْرًا فَإِذَا  
بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا نَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ يَمَسُّ  
مَعْمُولُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

( سورة البقرة )

إذن نحن أمام حكمين للذين يتوفون ويلدرون أزواجا ، حكم أن تترخص بنفسها  
أربعة أشهر وعشرا ، وحكم آخر بأن للزوج حين تحضره الوفاة أو أسائها أو مقدماتها  
أن ينصح ويوصي بأن تغل الزوجة في بيته حولا كاملا لا تنهاج ، وتكون الأربعة  
الأشهر والعشر مريضة وبقيّة الحول والعام وصية ، إن شاءت أخذتها وإن شاءت  
عدلت عنها .

« والذين يتوفون منكم ويلدرون أزواجا وصية ، هذه وصية من الزوج عندما  
تحضره الوفاة »

إذن فالمتوفى عنها زوجها بين حكمين : حكم لارم وهو فرص عليها بأن تغل  
أربعة أشهر وعشرا ، وحكم بأن يوصي الزوج بأن تغل حولا كاملا لا تنهاج إلا أن  
تخرج من نفسها . « لا يخرج » أي لا يخرجها أحد . « فإن خرجن فلا جناح  
عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف والله عرير حكيم » . إن لها الخيل أن تغل  
عاما حسب وصية زوجها ، ولها الخيار في أن تخرج بعد الأربعة الأشهر والعشر

ويقول الحق بعد ذلك :

وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى

الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾

إن لكل المطلقات في أي صورة من الصور متاعاً ، ولكنه سبحانه قد بين المتاع في كل واحدة بدليل أنه أوضح لنا : إن لم تفرضوا لها فريضة فقال : « ومنعهن عن الموصع قلوه وعلى المقر قلوه » . وإن كنتم فرضتم لها مهراً فنصف ما فرضتم ، فكان الله قد جعل لكل حالة حكماً يناسبها ، ولكل مطلقة متعة بالقدر الذي قاله سبحانه . وعندما تأمل قول الحق من بعد ذلك :

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

فنحن نعرف بما سبق أن الآيات هي الأمور العجيبة ، والحق سبحانه وتعالى حين يسه العقل إلى استنبال حكم بالتعقل يكون العقل المحض لو وجه فكره إلى دراسة أسباب هذا الموضوع على انتهى إلا إلى هذا الحكم . ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى يترك لبعض المشاهدات في التعامل والثرات في الخصومة أن تخرج عن حكم ما شرع الله في أي شيء من الأشياء التي تقدمت ، ثم يصيب المجتمع شر من المخالفة ، وكأنه بذلك يؤكد حكمته في تشريع ما شرع . وإلا لو لم تحدث من المخالفات شرور لقال الناس : إنه لا داعي للتشريع ولتركوا التشريع دون أن يصيرهم شر .

إذن حين لا يلتزم بالتشريع فالمنطق والكهال الكون أن تحدث الشرور ؛ لأنه لو لم تحدث الشرور لأتيم الناس منهج الله وقالوا . إنا لم نلزم يارب منبهج ، ومع ذلك لا شرور عندما فكان الشرور التي بعده في المجتمع تلمتت إلى صدق الله وكهال حكمته في تحديد منهجه . وهكذا يكون المعالغون منهج الله مؤيدون لمهج الله . وبعد ذلك يتغل الخديث إلى علاج قصيه إيمانيه وهو أن الله حين يقدر لدا لا يمكن لمخلوق أن يعلت من هذا القدر ، يقول سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَسِرْ إِلَى الدِّينِ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ  
حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَخَذَهَا رَبُّ  
اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ  
لَا يَشْكُرُونَ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن ما يتعلق بالأسرة المسلمة في حالة علاج الفراق في الروح إما بالطلاق وإما بالوفاة ، أراد الحق سبحانه وتعالى للامة الإسلامية أن تعرف أن أحداً لن يفر من قدر الله إلا إلى قدر الله ، فالامة الإسلامية هي الامة التي أمتب على حمل رسالة ومنهج السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة ، فلم يعد محمد صلى الله عليه وسلم باق ولا من تبعه . ولا بد لمثل هذه الامة أن تفرق تربية تنسب مهمتها التي حبها الله إياها . ولا بد أن يضع الحق سبحانه وتعالى بين يدي هذه الامة كل ما لاقته وصاحته مواكب لرس في الأمم السابقة ليأخذوا بحبره من المواقف ويمثلوا المنهج لأمس نظريات قتلى ولكن من واقع قد دُرس ووقع في المجتمع

أراد الحق سبحانه وتعالى أن يلعننا إلى أساس المسألة وهو أنه سبحانه وأهت الحياة ولا أحد غيره ، وواقع الحياة هو الذي يأخذها . ولم يضع هذه الحياة سبباً عند



التاسر . وإنما هو سبحانه لدى يحيى ويميت . وفي الحياة والموت استيقاظ للنوع  
الإنسوى ، ولكن استيقاظ حياة الأفراد إنما ينشأ بالقبول الذى ينشأ من التمول .

وبعالم الحق هذه المسألة بواقع سبق أن عاشه موسى عليه السلام مع قومه وهم  
بنو إسرائيل ، ويعرف أن قصة موسى مع قومه قد أخذت أوسع قصص القرآن ،  
لأنها الأمة التى أنصبت الرسل ، وأنصبت الأنبياء ، وكان لا بد أن يعرض الحق هذا  
الامر بوجه على أمة محمد صلى الله عليه وسلم من واقع ما حدث ، فقال سبحانه  
: ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . ويعرف من هذا  
القول أن علة الخروج إنما كانت مخوفة أن يموتوا . أما عن سبب هذا الموت فلم  
تعرض له الآيات ، وإن تعرض المفسرون له وقالوا كلاماً طويلاً ، فمنهم من قال  
: هم خرجوا هرباً من وباء يجل بالبلد خشية أن يموتوا ، وبعضهم قال : إنهم خرجوا  
مربوا من عدو قد سُلط عليهم ليتأصلهم ، المهم أنهم أرادوا أن يفرو خوفاً من  
الموت

إذن فالقرآن يعالج تلك المسألة من الراوية التى هم ، ولكن ما هو السبب ولماذا  
الخروج ؟ بذلك أمر لا يهم : لأن القرآن لا يعطى تاريخاً ، ولم يقل متى كانت  
لوقائع ولا زمنها ، ولا على يد من كان هذا ، ولا يحدد أشخاص القصة . كل ذلك  
لا يهم به القرآن . والذين يتعبدون أنفسهم فى البحث عن تفاصيل تلك الأمور فى  
القصاص التفرغ إنما يحاولون أن يربطوا الأشياء برمن مخصوص ، ومكان مخصوص ،  
وأشخاص مخصوصة .

ونقول لهم : إن القرآن لو أراد ذلك لعمل ، ولو كان ذلك له أصل فى العبره  
واحظة لبيته الحق له ، وأنتم تريدون إصعاف مدلول القصة بتلك التفاصيل ؟ لأن  
مدلول القصة إن حدد زمنها ، فربما قيل : إن الرمن الذى حدثت فيه كان يحتمل أن  
يحدث تلك المسألة والرمن الآن لم يعد يحتملها ، وربما قيل : إن هذا المكان الذى  
وقعت فيه يحتمل حدوثها ، إنما الامكنة الأخرى لا تحتمل . وكذلك لو حددتها  
بشخصيات معينة لقليل : إن القصص لا يمكن أن تحدث إلا على يد هذه  
الشخصيات ، لأنها ملئت فى الكون لا تتكرر .

إن الله حين يبهيم في قصة ما عناصر الرمان والمكان والأشخاص وعمومية الأمكنة إنه - سبحانه - يعطى لها حياة في كل زمان وفي كل مكان وحياة مع كل شخص ، ولا يستطيع أحد أن يقول إنها مشخصة . أحسرت ذاتها هذا المثل بالذين يحاولون أن يعرفوا ركن أهل الكهف ومكان أهل الكهف وأسماء أهل الكهف وكتب أهل الكهف . يقول هؤلاء : أنتم لا تترزون القصة ، لأنكم عندما تتحدون لها زمانا ومكانا وأشخاصا فسيفال . إنها لا تنفع إلا للزمان الذي وقعت فيه .

وبذلك إذا أراد الحق أن يبهيم فقد أبهم ليعلم ، وإن أراد أن يحدد فهو يشخص . ومثال ذلك قوله تعالى .

﴿ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَلَمَّا ضَلَّاهُمَا هَمَّ بِيَسَاءٍ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْءٌ وَقِيلَ ادْخُلَا اسْرَافِعَ الذَّالِمِينَ ﴾

( سورة التحريم )

لم يحدد الحق هنا اسم أى امرأة من هاتين المرأتين ، بل ذكر فقط لأمر المهم وهو أن كلا منهما كانت زوجة لرسول كريم ، ومع ذلك لم يستطع نوح عليه السلام أن يستلب العقيدة الكافرة من روحه ، ولم يستطع لوط عليه السلام أن يستلب العقيدة الكافرة من روحه ، بل كانت كل من المرأتين تنمر ضد روحها - وهو الرسول - مع قومها ، لذلك كان مصير كل منهما النار ، والعبرة من القصة أن احتيار العميدة هو أمر متروك للإنسان ، فحرية العقيدة أساس واضح من أسس المبعج

وابها قال سبحانه في امرأة فرعون :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِصًا يَبَاقِي الْجَنَّةِ وَيُخَيِّرْ بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَخَلْقِهِ وَيُخَيِّرْ بَيْنَ الْفَرِغَمِ وَالْغُلَامِينَ ﴾

( سورة التحريم )

لم يذكر اسمها ؛ لأنه لا يهمنا المسألة ، المهم أنها امرأة من أذى الألوهية ،

ومع ذلك لم يستطع أن يقع امرأته بأنه إله ، لكن حينما أراد أن يشخص قال في مريم عليها السلام :

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتِ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصِيتْ فَرْجَهَا نَنفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنِيَءَ وَكَانَتْ مِنَ الْقَائِمِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

( سورة النجم )

لقد ذكرها الحق وذكر اسم والدها ، ذلك لأن الحدث الذي حدث لها لم يتكرر في امرأة أخرى ، هانذين يحاولون أن يُقَوِّوا القصة بذكر تعاصيلها بقول لهم : اسم تفقدوا القصة ، فإلهم هو أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول : نعم خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، ويريد أن يصف موقفها لتوبيا عند قول الحق : لم تر ؟

أنت تقول للإنسان : ألم تر ؟ يعني ألم ير عينيه ، وبالله هل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل المؤمنون معه وللمؤمنون بعده إلى أن تقوم الساعة رأوا هذه المسألة ؟ لا ، لقد وصلتهم بوسيلة السماع وليس بالرؤية ، ونحن نعلم أن الرؤية تكون بالعين ، والسماع يكون بالأذن ، والتذوق يكون باللسان ، والشم يكون بالأنف ، واللمس يكون باليد ، إن هذه هي الوسائل التي تعطى للعقل إدراكا وإحساسا لكي يعطى معنويات ، وفي ذلك اقرا قوله تعالى

﴿ وَاللَّهُ أَتَرْجِمُ مَن يَظُنُّ مَهَيِّتَكَ لَا تَقْنُوءُ شَهْقًا وَّجَعَلَ نَكَرُ السَّمْعِ وَالْأَبْصَرِ وَالْأَفْئِدَةِ نَعْلَكَ تَسْكُوتَ ﴿٥٧﴾ ﴾

( سورة الحجر )

إذن فوسيلة العلم تأتي من الحواس ، وسيدة الحواس هي العين ، لأنه من الممكن أن تسمع شيئا من وحدث تجربته هو ، لكن عندما ترى أنت نفسك فتكون انتحرية خاصة بك ، ولذلك يقال : ليس من رأى كمن سمع ، فإذا أراد الحق أن يقول : ألم تعلم يا من أحاطيك بالقرآن حذر هؤلاء القوم ؟ فهو سبحانه يأتي بها على هذه الصورة : ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم ، ويعني ألم تعلم والعلم هنا بأي وسيلة ؟ بالسمع .

ولمّا لم يختصر سبحانه اسماؤه ويقول : « ألم نسمع ، بدلا من « ألم تر » ؟ . إنه في قوله : « ألم تر » يخبرك بشيء سابق عن وجودك أو شيء متأخر عن وجودك ، فعليك أن تعضله استقبالك لما رأيته ؛ لأن الله الذي خلق الخواص هو سبحانه . أصدق من الخواص ، ولذلك جاء قوله تعالى في سورة الفيل .

﴿ أَلَمْ نَكُفِّ فَعْلَ رَبِّكَ بِمُحَمَّدٍ الرِّبِيلِ ① ﴾

( سورة الفيل )

إننا نعرف أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد في عام الفيل ولم ير هذه الحادثة فكيف يقول الله له ألم تر ؟ إن المعنى من ذلك هو « ألم تعلم » ؟ « ألم نسمع مني » ولم يقر « ألم تسمع » ؟ لكن يؤكد له أنه يقول له حدثنا هو لم يره ولكن الحق سبحانه به ، وإخبار الحق له كأنه يراه فكان الله يقول : إن هذه مسألة معروضة منها وساعة أحبرك بها فكانك رايتها

وبحق نسمع في حياتنا قلوب الناس : إن فلانا ألمى ومعنى ذلك أنه يحدثك حديثا كأنه رأى أو سمع .

الأنبياء الذين يظن بك الظن كان قد رأى وقد سمع

ويحدثنا الحق عن هؤلاء القوم فيقول : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » . إنه سبحانه يحبرنا بأن الأمر الذي يفرون منه لا جنى بهم ، لأنه لا يتحاط من قدر الله أحد ، لذلك أضافهم الله ثم أحياهم ليتمظروا ولو أنكر الله الإحياء إلى يوم البعث قلن تؤذون العبدة ، لأنه بعد يوم القيامة لا اختار ولا تكليف ، ركن ذلك لا قيمة له .

وقوله تعالى : « حذر الموت » بيان لعل الخروج ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لهم أن هذه قضية لا ينفع فيها الحفر ، أنتم خرجتم خوفا من الموت سامعينكم ، والذي كنتم تطلبونه بعد الموت سأحدث لكم غيره ، لذلك أحياهم إحياء آخر حتى يتحسروا ، ويأمنوا أجلهم المكتوب ، ثم أحياهم حتى يبين لكم أن أمر الموت بيده

سبحانه سواء كان خوفهم من الموت نابعا من أعدائهم أو من ولاء وطاعون ، فالأمر  
فى جوهره لا يختلف ، وبأن الآية ذكرت أنهم خرجوا خوف من ولاء م كما فهموا  
منها احتمال خروجهم خوفا من أعدائهم . إذن إبهام لسبب المباشر فى القصة  
أعطاهما ثراء .

وقوله تعالى : **فَوَهُمَ الْوَفاءُ** بين لنا مدى الخيبة والغباء الذى كانوا فيه ، لأنهم  
كيف يخرجون خائفين من الأعداء وهم الوف مؤلفة ولم يظهر واحد من هؤلاء  
الأنوف ليقول لهم : إن الموت والحياة بيد الله . ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم  
وهم الوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ؟

ومسألة تأمر مأمورا ملك بأمر فلا بد أن يكون عندك طلاقة قدرة أن تفعل ، وهل  
إذا قلت لأحد . مت ، سيموت ؟ إذا أمات نفسه فقد قتلها ، وفرق كبير بين الموت  
واقتل . إنما الموت يأتى بلا سبب من الميت ، ولكن القتل ربما يكون سبب الانتحار  
أو بأى وسيلة أخرى ، المهم أن قتل للنفس وليس موتا

ويوضح لنا الحق الفرق بين القتل والموت حين يقول :

**﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْجَسَمَ عَلَى  
أَعْيُنِكُمْ وَمَنْ يَقُولُ عَلَى عَفْوٍ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾**

(سورة البقرة : ٢٥٠)

ولقد جاءت هذه الآية فى مجاز استخلاص العبر من هزيمة أحد حيز شاع بين  
المسلمين أن رسول الله ﷺ قد قتل ، ففكر بعض منهم فى الارتداد ، وجاء قول الحق  
سبحانه موضحا أن رسول الله ﷺ هو نبي سبقة رسل جاءوا بالمنهج ، والأمة المسلمة  
التي آمنها الله على تمام المنهج لا يصح أن يهتر الإيمان فيها بموت الرسول الكريم ؛ لأن  
من ينقلب ويرتد فلن يضر الله شيئا ، إنما الخراء سيكون للشاكرين العارفين فصول  
سبح الله

وك أن نعرف أن الحق سبحانه جاء بالموت كمقابل للقتل ، وأوضح فى الآية

التالية أمر الموت حين قال :

﴿ وَمَا كُنَّا لِنَقُصَّ أَنْ نَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُزْجِلًا وَمَسْ بُرْدَ ثَوَابِ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِه  
مِنْهَا مَنْ بُرْدَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَجَرَى الشُّكْرِ ۝١١٦﴾

( سورة النجم )

إذن فامر الموت مرهون بمشيئة الله وطلاقة قدرته وتحديد له لكل أجل بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ، وسيلقى كل إنسان نتيجة عمله ، فمن عمل للدنيا فقط نال جزاءه فيها ، ومن عمل للآخرة فسجريه الله في دنياه وآخرته .

لذلك يصدر الأمر من الخلق بقوله : « وقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » فلم يكن بإرادتهم أن يصنعوا موتهم ، أو أمر عودتهم إلى الحياة ، لكنه أمر تسخيرى . إهم يموتون بطلاقة قدرته المتمثلة في « كن فيكون » ويعودون إلى الحياة بتام طلاقة القدره المتمثلة في « كن فيكون » . فليس لهم رأى في مسألة الموت أو العودة للحياة ، إنه أمر تسخيرى ، كما قال الحق من قبل للأرض والسماء :

﴿ ثُمَّ أَسْرَوْنِي إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا  
نَعَمْ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١٧﴾

( سورة فصلت )

لقد شابت قدرته أن يخلق السماء على هيئة دخان فوحدت ، وحلقه للسموات والأرض على وفق إرادته وهو هين عليه ممترله ما يقال للنهي ، احتضر راضيا أو كرها ، فيسمع الأمر ويطيعه ، وهذه أمور تسخيرية من الخالق الأكرم ، وليس للمخلوق من سموات وأرض وما بينهما إلا الامتثال للأمر التسخيرى من الخالق عز وجل . فعندما يقول الحق سبحانه : « موتوا ثم أحياهم » فهذا أمر تسخيرى بالموت ، وأمر تسخيرى بعودتهم إلى الحياة .

واليس الموت هو ما شافوه وفروا منه واحتاطوا بالهرب منه ؟ نعم ، لكن لا أحد

بقادر على أن يحتاط على قدر الله ، لأن الحق أراد لهم أن يعرفوا أن أحداً لا يفر من قدر الله إلا لقدر الله . ولذلك فبدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أراد للناس ألا تذهب إلى أرض فيها الطاعون . قالوا له :

- أتفر من قدر الله ؟

قال عمر : نعم . يفر من قدر الله إلى قدر الله

إن ذلك يجعل الإنسان في تسليم مطلق بكل حوارحه لله . صحيح على الإنسان أن يحتاط ، ولكن القدر الذي يريد الله سوف يتم . والمؤمن يأخذ بالأسباب ، ويسلم أمره إلى الله .

وقد يقول قائل . لماذا لم يترك الله هؤلاء القوم من بني إسرائيل ليعصونوا وإلى أن يأتي البعث يوم القيامة ليحاسبهم ؟

وأقول . لقد أراد الحق سبحانه بالأمر التسخيري بالإحياء ثانية أن توجد العبرة والعظة ، ولتظل ماثلة أمام أعين الخلق ومحفوظة في أكرم كتاب حفظه الله مبهما للناس وهو القرآن الكريم . إن الحق أراد بالأمر عظة واعتباراً وتحجيرة بموتون بأمر تسخيرى ، ويعودون إلى الحياة بأمر تسخيرى آخر ، ثم يعيشون الحياة المفدرة لهم ويموتون بعدها حتى أتوفهم ، ولتظل حرة ماثلة أمام كل مؤمن حق ، فلا يخاف الموت في سبيل الله .

لقد أراد الله بهذه التجربة أن تستخدم قصة الجهاد في سبيل الله ، فلا يطمس ظان أن القتال هو الذي يسب الموت ، إنما أمر الموت والحياة بيد واحد الخالق . وهما هو ذا قول خالد بن الوليد على فراش الموت بأقبا ليعرفه كل مؤمن بالله

- لقد شهدت مائة رحب أو زهاعها وما في جسدى شبر إلا وفيه صربة مسيف أو طعنه رمح ، وهابذا أموت على فراشى كما يموت العبد ، فلا نمت أعين الحناء

• إذن فأمر الحياة والموت ليس مرهوبا بمقتل أو غيره ، إنما هو محدد بمشيئة الله

ولننظر إلى تذييل الآية حين يقول الحق . وإن الله يلو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . وما الفضل ؟ إنه أن تتلقى عطاءً يريد على حاجتك . والحق سبحانه وتعالى لا يعطي الناس فقط على قدر حاجتهم إنما يعطيهم ما هو أكثر من حاجتهم . إذن قلوب مات هؤلاء القوم الذين خرجوا من ديارهم خوفاً من وباء أو عدو لكان هذا الموت فضلاً من عند الله ؛ لأنهم لو ماتوا بالوباء لما اتوا شهداء ، وهذا فضل من الله . ولو ماتوا في لقاء عدو وحاربوا في سبيل الله لقاتلوا الشهادة أيضاً ، وذلك فضل من الله .

لماذا يكون مثل هذا موت فضلاً من الله ؟ لأنك جميعاً سوف تموت ، فإن مات الإنسان استشهداً في سبيله فهذا عطاء زائد لكن أكثر الناس لا يشكرون ؛ لأنهم لا يعلمون مدى النعمة فيما يجريه الحق سبحانه وتعالى عليهم من أمور ؛ لأن الناس لو علمت مدى النعمة فيما يجريه الحق عليهم من أحداث بما فيها الإحياء والأموات ، لشكروا الله على كل ما يجريه عليهم ، فالحق سبحانه وتعالى لا يجري على البشر ، وهم من صنعه إلا ما يصلح هذه الصنعة ، وإلا ما هو خير لهذه الصنعة

لقد استبقى الحق سبحانه هذه العبرة بما أجراه على بعض من بنى إسرائيل لنرى أن القتال في سبيل الله هو من نعم الله على العباد ، فلا مهرب من قضاء الله وما هو ذا الشاعر العربي يقول :

ألا أيها الزاحري أحضر الوضي وأن أشهد اللذات هل أنت محلي  
بأن كنت لا تستطيع دفع مبتى فدعني أبصرها بما ملكت يدي

إن الشاعر يأل من يوجه له الدعوة لا إلى القتال ، ولكن إلى الاستمتاع بلذات الحياة قائلاً : مادمت لا تموتك لي خلوداً في هذه الحياة ولا أنت بقادر على رد الموت عني فدعني أقاتل في سبيل الله بما تملكه يداي

وبعد الحديث عن محاولة هرب بعض من بنى إسرائيل من قدر الله فأجرى عليهم الموت تسجيلاً وأعادهم إلى الحياة تسجيلاً ، وهذا درس واضح للمؤمنين الذين سيأتي



إليهم الأمر بالقتال في سبيل الله فلا تبايوا أيها المؤمنون إن كان القتال يجلب لكم الموت ، لأن الموت يأتي في أي وقت بعد ذلك يقول الحق .

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

إيه الأمر الواضح بالقتال في سبيل الله دون مخافة للموت لماذا ؟ لأن واهب الحياة و كاتب الأجل سميع عليم ، سميع بأقوال من يقاتل وعليم بهواياه

وكان الجهاد قديما عبثا ثقيلا على المجاهد ، لأنه كان يتحمل نفقة نفسه ويتحمل المركبة - حصانا أو جملا - ويتحمل سلاحه ، كان كل محاهد يعدّ عدته للحرب ، فكان ولا بد إذا سمح لنفسه أن تموت فمن باب أولى أن يسمح بماله ، وأن يجهر عدته للحرب ، وعين ذلك كان القتال بالنفس والمال أمر ضروريا

وقوله تعالى : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أي قاتلوا بأنفسكم ثم عرج إلى الأموال فقال

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

ساعة تسمع « يقرض الله » فذلك أمر عظيم ؛ لأنك عندما تقرض إنسانا فكأنك تقرض الله ، ولكن المسألة لا تكون واضحة ، ماذا ؟ لأن ذلك الإنسان سيستفيد استعادة مباشرة ، لكن عندما تنفق في سبيل الله فليس هناك إنسان يعينه تعطيه ، وإنما أنت تعطى المعنى العام في قصة التدين ، وتعاملك فيها يكون مع الله . كأنك تقرض الله حين تنفق من مالك لتعد نفسك للحرب .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يشهد بكلمة القرض على أنه يطلب ما عملية ليست سهلة على النفس البشرية ، وهو سبحانه يعلم بما طبع عليه النفوس . والقرض في اللغة معناه قضم لشيء بالناب ، وهو سبحانه وتعالى يعلم أن عملية الإقراض هي مسألة صعبة ، وحتى يبين للناس أنه يعلم صعوبتها جاء بقوله . « يقرض » ، إنه المقدر لصعوبتها ، ويقدر لجزاء عن قدر الصعوبة .

ومن ذا الذي يقرض الله قرصا حسنا ؟ وما هو القرض الحسن ؟ وهل إذا أقرضت عبداً من عباد الله لا يكون القرض حسناً ؟

أولاً إذا أقرضت عبداً من عباد الله فكأنك أقرضت الله ، صحيح أنت تعطى الإنسان ما يسر له الفرج في موقف متأزم ، وصحيح أيضاً أنك في عملية الجهاد لا تعطى إنساناً يعينه وإنما تعطى الله مباشرة ، وهو سبحانه يعلم . أن من يقرض عبادي فكأنه أقرضني كيف ؟ لأن الله هو الذي استدعى كل عبد له للوجود ، فهذا احتاج العبد فإن حاجته مطلوبة ليرق في الدنيا ، فإذا أعطى العبد لأخيه المحتاج فكأنه يقرض الله المتكامل بررق ذلك المحتاج

وقوله تعالى : « يقرض الله » تدلنا على أن القرض لا يصح ، لأن القرض شيء تخرجه من مالك عن أمل أن تستعيده ، وهو سبحانه وتعالى يعلم أنك على أنه هو الذي سيقترض منك ، وأنه يريد ما أقرضه ، لكن ليس في صورة ما قدمت وإنما في صورة مستمرة أضعافاً مضاعفة . إن الأصل محموط ومستثمر ، ولذلك يقول : « من ذا الذي يقرض الله قرصاً حسناً مضاعفاً له أضعافاً كثيرة » ، إنها أضعاف كثيرة بمقاييس الله عز وجل لا بمقاييسنا كبشر .

والتعبير بالقرض الحسن هنا يدسأ على أن مصدر المال الذي تقرض منه لا بد أن يكون من حلال ، ولذلك قيل للمرأة التي تصدق من مال الرفا . « ليسها لم ترون ولم تصدق » .

وقيل : إن القرض ثوابه أعظم من الصدقة ، مع أن الصدقة بوجودها فيها الإنسان بالشيء كله ، في حين أن القرض هو دين يسترجعه صاحبه ، لأن الألم في إخراج الصدقة يكون مرة واحدة فأنت تخرجها وتنفق الأمل فيها ، لكن القرض تعلق نفسك به ، فكلما صيرت مرة أنتك حسنة ، كما أنه المتصدق عليه قد يكون غير محتاج ، ولكن المقرض لا يكون إلا محتاجا .

والمقرض من المال الذي يديك يجعل المال يتاقص ، لذلك قاله يعطيك أضعاف مضاعفة نتيجة هذا القرض ، وذلك مناسب تماما لقوله تعالى « يقبض ويبسط » التي جاء بها في قوله تعالى : « والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون » أي ساعة تذهب إليه ويأخذ كل ما حقه بالحساب أي أن المال الذي تقرض منه يتقص في ظاهر الأمر ولكن الله - سبحانه - يريد ويبسط أضعافا مضاعفة إلى الأخرة يكون الجزاء جريلا .

ثم ينقل الله عز وجل إلى قصته أخرى يستلها بقوله سبحانه : « ألم تر » تأكيداً للعبير الذي سبق بعدها على أنه أمر واقع ووقع الشيء المرئى . يقول سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِ سَالِمٍ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ آتِنَا مِلْكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا

مِنْ دُونِنَا وَأَنْبَأَيْنَا قَلَمًا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا  
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٦﴾

إن الحق سبحانه يدعنا بوسيلة الساع عنه ، وعيب أن تلقى ذلك الأمر كأنه براء بالعين ، فهذا يرى ؟ « ألم تر إلى الملا » ، ما معنى الملا ؟ هي من ملا يعني اردحم الإباء ، ولم يعد فيه مكان يتحمل رائداً ، وأن العرف قد شغل بالمظروف شغلا م بعد تسع لسواء وكلمة « ملا » تطلق على أشرف القوم وأشرف القوم كأنهم هم لدير ملاور حياة الوجود حوهم ولا يستطيع غيرهم أن يراهم وه الملا من أشرف الوجوه والقوم يجلسون منشاور .

« ألم تر إلى الملا من بنى إسرائيل من بعد موسى » أي ألم تأت خبر وجوه القوم وأشرفهم من بعد موسى عليه السلام مثلا في عصر « يوشع » أو « حرقيل » أو شمويل ، أو أي واحد منهم ، ولا بعيا ذلك لأن القرآن لا يذكر في أي عهد كانوا ، المهم أنهم كانوا بعد موسى عليه السلام « إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا يقاتل في سبيل الله »

لقد اجتمع أشرف بنى إسرائيل للمشاور ثم ذهبوا إلى النبى ادى كان معاصرا هم وقالوا له ابعث لنا ملكا . وتفهم من ذلك أنه لم يكن لهم ملك وماذا يستفيد من ذكر وجود نبى هم وعدم وجود ملك لهم ؟

نعم من ذلك أن النبوة كانت تشرف على نماد الأعمال ولا تباشر الأعمال ، وأما الملك فهو الذى يباشر الأعمال ولو كانت النبوة تباشر أعمالا لما طلبوا من بينهم أن يبعث لهم ملكا . وسبب ذلك أن الذى يباشر عرصة لذكراهية من كثير من الناس وعرصة أن يمثل في تصرف بعض الأمور ، فبدلا من أن يوجهوا العسل للقيمة العليا ، يتقلون ذلك لمن هو أقل وجه الملك ولذلك طلبوا من النبى أن يأتى بملك يعيد تصرف الأمور فتكون السوة مرجعا للحق ، ولا تكون موطنا للوم في أي شيء .

الحق سبحانه وتعالى يبلغنا إنه قال لبي بنى إسرائيل .

أنتم الذين طلبتم القتال وأنتم المأثم - أى أشراف القوم - وأنتم بالعلة الموحدة للقتال وهي أنكم أخرجتم من دياركم وأماكنكم أى بلغ بكم الهوان أنه لم نجد لكم ديار ، وبلغ بكم الهوان أنه لم نجد لكم أباء بعد أن أسرمهم عدوكم . إذن علة طلب القتال موحدة ، ومع ذلك قال لهم السبي . هل سيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ لقد أوضح لهم سببهم الشرط وقال . إني أخاف أن آتي بكم بمذلة كي تقاتلوا في سبيل الله ، وبعد ذلك يعرض الله عليكم القتال ، وعندما تأتى بالأمر الواقع لا نجد لكم عزم على القتال وتتخاذلون .

لكنهم قالوا : « وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبائنا » . انظر إلى الدقة في قولهم . « في سبيل الله » وتعلق ذلك السبيل على أنهم أخرجوا من ديارهم وأبائهم . لقد أرادوا أن يقبلوا المأثم وأن يقولوا . إن القتال في سبيل الله بعد أن عصيتهم التجربة فيما يجنون من الديار والأباء ، إذن فالله هو الملجأ في كل أمر ، وقبل سبحانه بهم قولهم . واعتبر قتلهم في سبيله

وكان إخراجهم من ديارهم أمرا معقولا ، لكن كيف يخرجون من أبائهم ؟ ربما كانوا قد تركوا أبناءهم للعدو ، وربما أخذهم العدو أسرى لكنهم هم الذين أخرجوا من ديارهم ، ونطق عبيهم في علاقتهم بالأبناء هو الشاعر .

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا الاتصافهم بالراحلون هو

وانظر إلى السبب ، إنهم مأثم من بنى إسرائيل وذهبوا إلى نبي وقالوا له : امض لنا ملكا حتى يجعلوها حريا مشروعة ليقاتلوا في سبيل الله ، وقال لهم النبي ما قال وذهبوا عليه هم . « وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله ، يعنى وكيف لا نقاتل في سبيل الله ؟ »

وجاء لهم الأمر بالقتال في قوله تعالى . « فلما كتب عليهم القتال تولوا » ، أى قوله : « كتب » لأنهم هم الذين طلبوا تشريع القتال فجعلهم الله داخلين في العقد فجاء

التعبير به « كُتِبَ » ولم يأت به « كُتِبَ » ، ومع ذلك تولوا أى اعرصوا عن القتال

لقد كان لنبيهم حق فى ن ينشكك فى قلوبهم عن القتال ، ويقول لهم : « هل عسىم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا » ولكن هل اعرصوا جميعا عن القتال ؟ لا ؛ فقد كان فيهم من ينطبق عليه قول الشاعر :

إن الذى جعل الحقيقة حلقاً لم يحل من أهل الحقيقة جيلاً

لقد كان منهم من لم يعرض عن التكليف بالقتال لكنهم قلة ، وهذا تمهيد مطلوب ، حتى إن انحسرت الحمرة ، واضطرب الجمع من حولك إنك أن تقول : « إلى قليل » لأن المقاييس ليست بكثرة الجمع ، ولكن بصره الحق سبحانه وتعالى .

وقد يكون عدوك كثيراً لكن ليس له رصيد من الوهبة عالية ، وقد تكون فى قلة من العدد ، لكن لك رصيد من الوهبة عالية ، وهذا ما يريد الحق أن يلمتنا إليه بقوله : « فيما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً » . كلمة « إلا قليلاً » جاءت لتخدم قضية ، لذلك جاء فى آخر القصة قوله تعالى :

﴿ تَمَّ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ قَدْ خَسِرْتُمْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

( من الآية ٢٤٩ سورة البقرة )

أى أن الغلبة تاتى بإذن الله ، إذن فالشئ المرئى واحد ، لكن وجهة نظر الرائى فيه تختلف على قدر رصيدهم الإيمانى أنت ترى زهرة جميلة ، والرؤية قدر مشترك عند الجميع ، وراها عيرك ، أعجبت أنت وحافظت عليها ونوكتها رينة لك ولعيرك ، سناها رآها إنسان آخر فقطعها ولم يبال منك من هو ، وهكذا تعرف أن العمل الزوجى يختلف من شخص لآخر ، فالعدو قد يكون كثيراً أمامنا ونحن قلة ، وكلنا رأى العدو كثيراً ورأى نفسه قليلاً ، لكن المواجهيد تختلف . أنا صاحب نفسى ومعى رى ، وغيرى وأهم كثيرين وقال لا بقدر عليهم ؛ لأنه أخرج ربه من الحساب .

« فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين » إذن قالتولى ظلم للنفس ، لأن الظلم فى أبسط معانيه أن تنقل الحق لغير صاحبه ، وأنت أخرجت من ديارك وظللت على هذا الحال ، إذن فقد ظلمت نفسك ، وظلمت أولادك الذين خرجوا منك ، ولم تستردهم ، وفوق ذلك كله ظلمت قضيتك الديبة .

إذن فالجماعة الذين تولوا كانوا ظالمين لأنفسهم ولأهلهم ولمجتمعاتهم وللنقصة المقدية . وقوله الحق : « والله عليم بالظالمين » هو إشارة على أن الله مطلع على هؤلاء الذين تخاذلوا سرا ، وأرادوا أن يقتلوا الروح المعنوية للناس وهم الذين يطلق عليهم فى هذا العصر « الطابور الخامس » الذين يفتنون الروح المعنوية دون أن يراهم أحد ولكن الله يعرفهم .

لقد طلب هؤلاء النجوم من بنى إسرائيل من بينهم أن يبعث لهم ملكا ، وكان يكفى النبي المرسل إليهم أن يختار لهم الملك ليقاتلوا تحت رايته ، لكنهم يريدون أن التلذذ واللحاجة ويريدون أن ينقضوا الأمر بقلة ليست من قصايا الدين .

ويقول الحق بعد ذلك :

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ  
مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ  
مِنْهُ وَلَمْ يَأْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ ابْتَلَاكُمْ  
بِالنَّهَرِ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي  
مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٧﴾

هم الذين طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكا . وكان يكفى - إذن - أن يختار نبيهم شخصا ويؤليه الملك عليهم . لكن سيهم أراد أن يفرس الاحترام منهم في المبعوث كملك لهم . لقد قال لهم : « إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا » . والنبي القائل ذلك يسمي إليهم ، وهو منهم ، وعندما طلبوا منه أن يبعث لهم ملكا كانوا يعلمون أنه مأمون أنه مأمون على ذلك

ويسجل أدب النبوة في التلويح ، فقال : « إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا » إنه يريد أن يطعشهم على أن مسألة اختيار طالوت كملك ليست مت - لأنه بشر مثلهم ، وهو يريد أن يحى قضيتة البشرية عن هذا الموضوع ، فقال : « إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا » . فماذا كان ردهم ؟ « قالوا أن يكون له الملك علينا و نحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال » . وهذه بداية التفكير والدجاجة ونقل الأمر إلى مسألة ليست من قضايا الدين

إسهم يريدون الوجاهة والعنى . وكان يجب عليهم أن يأخذوا لمسألة على أن الملك جاء لصالحهم ، لأنهم هم الذين طلبوه ليقودهم في الحرب - إذن فأمر اختيار الملك كان لهم ولصالحهم ، فلماذا يتصورون أن الاختيار كان صدمهم وليس لصالحهم ؟

شيء آخر نفهمه من قولهم : « أن يكون له الملك علينا » ، إن طالوت هذا لم يكن من الشخصيات المشر إلىها ، من العادة حين يجرى الأمر في جماعة من الجماعات أن تفكر قبم يقر ، فعادة ما يكون هناك عدد من الشخصيات اللامعة التي يدور التفكير حوها ، وتظل الجماعة أنه من الممكن أن يقع على واحد منهم الاحتيار ، وكان اختيار الساء لطالوت على عكس ما توقعت تلك الجماعة - لقد جاء طالوت من عمار القوم بدليل أنهم قالوا : « أن يكون له الملك » أي لم يؤت الملك من قبل

ولقد كانوا ينتمون إلى صلبين - سل أخذ النبوة وهو سل بنيامين ، وسل أحد الخلوكية وهو سل لاوى بن يعقوب - فلما قال لهم : « إن الله بعث لكم طالوت ملكا » ، بدأوا يبحثون عن صحيفة السبب الخاصة به فلم يجدوه متعيا لا لهذا ولا لذلك ، ولذلك قالوا : « أن يكون له الملك علينا » وهذا يدلنا على أن الناس



حين يريدون وضعا من الأوصاف لا يريدون الرجل المناسب للموقف ، ولكن يريدون الرجل المناسب لنفوسهم ، دليل قولهم : « أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه »

وهل الملك بائى فطرسة أو كبرياء ؟ ومندام طالت رجلا من غير الناس فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يضع قضية كل مؤمن وهى انك حين تريد الاختيار فإياك أن يفشك حسب أو نسب أو جباه ، ولكن اختر الأصلح من أهل الخبرة لا من أهل الثقة . لقد تناسوا أن لقضية التى طلبوها من نبيهم تحتاج إلى صفتين رجل جسيم ورجل عليم ، والله اختار لهم طالت رجلا جسيما وعليها معا

وعندما نتأمل سياق الآيات غائبا نجد أن الله قال لهم فى البداية : « بعث لكم » حتى لا يخرج أحدا منهم فى ن طالت أقص من ، ولكن عندما حدث الخراج قال لهم : « إن الله اصطفاه عليكم » وهو هذا القول يؤكد أنه لا يوجد فيكم من أهل البسطة والجسامه من يتمتع بصمه العلم وكذلك لا يوجد من أهل العلم فيكم من يتمتع بالبسطة والجسامه « إن الله اصطفاه عليكم وراده بسطه فى العلم والجسم » . وكان يجب أن يستقبلوا اصطفاه الله طالت للملك بالقبول والبرصى فما بالك وقد راده بسطه فى العلم والجسم ؟

والسطه فى العلم والجسم هى المؤهلات التى تناسب المهمة لى أرادوا من أهلها منكاهم . ولذلك يقول الحق : « والله يؤز ملكه من يشاء » وكان الحق يقول لهم . لا بطوا أنكم أنتم الذين ترشحون لنا الملك المناسب ، يكميكم أنكم طلبتم أن أرسل لكم ملكا فانركو بمقيسى آخر لنك المناسب

ويحتم الحق الآية بقوله : « والله واسع عليم » أى عنده لكل مقام مقال ، ولكل موقع رجل ، وهو سبحانه عليم بمصنح هذه المهمة . ومن يصلح لتلك ، لا عن ضيق أو قلته رجال ، ولكن عن سعة وعلم .

لقد استقبلوا هذا الاختير الإلهى بالذجاج ، واللعاج نوع من العدد ولا يبيه

إلا الأمر المشهودى العزى الذى يلزم بالحجة ، لذلك كان لابد من حجة معجزة  
لذلك بآى قوله الحق

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ  
التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا  
تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ  
إِن فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (١٨)

لقد أرسل الحق مع الملك طالوت آية تبرز على أنه ملك من اختيار الله تعالى لهم  
بهم ، إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت ، أى إن العلامة الدالة على ملكه هي ، أن  
يأتيكم التابوت ، وهذا القول يستدل به على أن التابوت كان عائداً ومفقوداً ، وأنه  
أمر معروف لديهم وهناك تنبؤ منهم على مجيئه

وما هو التابوت ؟ إن التابوت قد ورد في القرآن في موضعين أحدهما في الآية  
التي نحن بصددنا الآن ، والموضع الآخر في قوله تعالى :

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٢٨﴾ أَنْ قُبِّحَ فِي أَنْفُسِهِ فِي أَنْفُسِهِ فِي أَنْفُسِهِ  
فَلْيَقِ أَلِيمٌ بِالسَّاحِلِ يَلْعَدُهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّهُ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِّنِّي وَنُصِّعُ  
عَلَىٰ مَبْنَىٰ ﴿٢٩﴾﴾

(سورة طه)

إذن فالتابوت معناه من أيام قصة موسى وهو رضيع ، عندما جاءت عليه أمه ،

ناوحى لها الله : « فإذا خفت عليه فالنبيه فى الهم » فهل هو الثابت نفسه الذى تتحدث عنه الآيات التى نحن بصددنا ؟

غالب الظن أنه هو ، لأنه ما دام جاء به على إطلاقه فهو الثابت المعروف ، وكان المسألة التى نحا بها موسى لها تاريخ مع موسى وعرعون ومع نبيهم ومع طالوت . وهذه عملية تأخذ منها أن الآثار التى ترتبط بالأحداث الجسيمة فى تاريخ العقيدة يجب أن معنى بها ، ولا نقول إنها كهرات روثيات ، لأن لها ارتباطاً بأمر عقدي ، وبمسائل تاريخية ، ولربطاً بالمقدسات . انظر إلى الثابت الذى فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون وتحملة الملائكة ، إن هذا دليل على أنه شيء كبير ومهم . إذن ، فالآثار التى لها أساس ورباط بأحداث العقيدة وأحداث النبوة ، هذه الآثار مهمة للإيمان ، وكان القرآن يقول : اتركوها كما هى ، وخذوا منها حكمة وهبة ، لأنها تذكركم بأشياء مقدسة . لقد كان الثابت مفقوداً ، وذلك دليل على أن عدواً غلب على السواد الذى سكنوها ، والعدو عندما يغير على بلاد يحارب أولاً طمس المقدسات التى تربط البلاد بالعقيدة . فإذا كان الثابت مقدساً عندهم بهذا الشكل ، كان لابد أن يأخذ الأعداء . وهؤلاء الأعداء هم الذين أخرجوهم من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . وإذا كانوا قد أخرجوهم من ديارهم فمن باب أولى أنهم أجبروهم على ترك الثابت .

والله سبحانه وتعالى يعلمهم بأن آية الملك لطالوت هى محبىء الثابت الذى تتلفزون عليه ، وترتبط به مقدساتكم . « أن يأتىكم الثابت فيه سكينه من ربكم » فكان الاستقرار النفسى سيأتىكم مع هذا الثابت ، لأن الإنسان حين يجد الثابت الذى نحا به نبي ، وفيه الأشياء التى منعرفها فيها بعد ، إن الإنسان يستروح صلبه بالسماء ، وهى صلة مادية تجعل النفس تستريح .

وعلى سبيل المثال تأمل مشاعرك عندما يقال لك : « هذا هو المصحف الذى كان يقرأ فيه سيدنا عثمان » . إنه مصحف مثل أى مصحف آخر ، ولكن ميزته أنه كان يقرأ فيه سيدنا عثمان ، إنك تستريح نفسياً عندما تراه . وأيضاً حين تلعب إلى دار

الحلقة في تركيا ، ويقال لك : « هذا هو السيف الذي كان يجارب به الإمام علي » .  
فتنظر إلى السيف ، وتجد أن وزنه وثقله يساوي عشرة سيوف ، وتتعجب كيف كان  
يحملة سيدنا علي كرم الله وجهه وكيف كان يجارب به ؟

وكذلك عندك يقال لك : « هذه شعرة من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم  
أو المكحلة التي كان يكتحل بها » ، لاشك أن مثل هذه المشاهد مستترك لإثراق  
وطمأنينة في نفسك . وعندما يراها إنسان به بعض الشكوك والمحاروف فإن العقيدة  
تستقر في نفسه .

ومن هذا كله أقول : إن ولاء الأمر يجب ألا يعتبروا مقدسات الأشياء صربا من  
الشركيات والوشيات ، بل يجب أن يولوها عناية ورعاية وبرزوها للناس ؛ لتكون  
مصدر سكونة وأمن نفس للناس ، وعليهم أن ينصحوا الناس ألا يقتنوا بها ، ولكن  
عليهم أن يتركوها لتذكركم بأمر يتصل بعقيدتنا وديننا .

وانظر إلى حديث القرن عن التابوت . إن خلق سبحانه لم يقل : إن التابوت  
سيأتي كاملا ، ولم يقل كذلك إنه التابوت الذي وضع فيه موسى ، وإنما قال : « فيه  
سكينه من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون » كأل آل موسى وهارون قد  
حافظوا على آثار أسيانهم ، وأبى قوله تعالى : « نحملة الملائكة » يؤكد لنا أنه لاشك  
أن الأثر الذي نحملة الملائكة لابد أن يكون شيئا عظيما يوجب العناية 'عائفة' . إن آية  
ملكه أن يأتيكم التابوت » .

ونلاحظ في قوله : « أن يأتيكم التابوت » أنه سبحانه قد نسب الإتيان إلى  
التابوت ، فهل كان من ضمن العلامة أن يأتيهم التابوت وهم جالسون ينتظرون ،  
ولأن التابوت نحملة الملائكة فليس يراهم القوم لأنهم كانتات غير مرئية ، هل يراهم  
أحد وإنما سبى القوم التابوت آتيا إليهم ، ولذلك أسند الحق أمر المعجزة لتابوت .

وهذا المشهد يجمع القلوب ويجمع أصحاب أشد القلوب قبادة يحرون سجدا  
ويقولون : يا طالوت أنت الملك ، ولي نختلك عليك » ويريد الآن أن يعرف

الاشياء التي يمكن لآل موسى أن يحملوها من آثار موسى عليه السلام ، والآثار التي يحافظ عليها آل هارون من هارون عليه السلام .

قال بعض الناس إنها عصا موسى ، وهي الأثر الذي تبقى من آل موسى ، وذلك أمر معقول ، لأنها أداة من أدوات معجزة موسى عليه السلام ، ألم تكن هي المعجزة التي انقلبت حية تسعى وابتلعت بسرعة ما صغره السحرة ؟ إن مثل هذه الأداة المعجزة لا يمكن أن يحملها موسى ، أو يحملها المؤمنون به بعد ما حدث بها . وليس من المعقول أن يفرط آل موسى في عصا تكلم الله فيها وقال :

﴿ وَمَا نِلَكَ بِيَعِينِكَ يُسُوعَى ۖ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّفُ عَلَيْهَا ۖ ﴾

( لاه ١٧ ، من الآية ١٨ سورة طه )

إن هناك قصة طويلة استغرقها الحديث عن هذه العصا ، فكيف يفرط فيها موسى وقومه بسهولة ؟ لاشك أنهم حافظوا عليها ، وقادسوها ، وجعلوها من أعلامهم .

وبربنا الحق سبحانه وتعالى أن هؤلاء القوم أهل الحج وأهل جدل وأهل تنكّر ، فهم لا يؤمنون بالأمور إلا إذا كانت حسنة كالتابوت الذي يأتيهم وحدهم ، صحيحاً تحمله الملائكة ، لكنهم لا يرون الملائكة ، وإنما رأوا التابوت يسير إليهم ، أن يأتيكم التابوت فيه سكين من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ، وليس هناك آيات أعجب من مجيء التابوت حتى يشت صلف السبي أن الله قد بعث طالوت ملكاً ، فإن لم يؤمنوا بهذه المسألة فاعلموا أن يراجعوا إيمانهم

والسياق القرآني يدل على أن الله مهتهم بالحجة ، وبيتهم بالآية ، وبيتهم بالقرآن ، بدليل أنه حذف ما كان يجب أن يقال وهو فقبوا طالوت ملكاً وبقم طالوت الحرب فقدم وقسم الحدود وروىهم ، وكل هذه التفاصيل لم تذكرها الآيات والحق يقول بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ  
بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ  
مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۖ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا  
مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا  
لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ  
يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ  
غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَّا ذُنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢٤٩)

الفصل هو أن تنزل شيئاً عن شيء آخر ، ومثل ذلك قوله تعالى .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾

( من الآية ١٤ سورة يوسف )

« قصت العبر » أي غادرت مصر وخرجت منه . ونحن نستخدم كلمة « فصل »  
في تبويب الكتب ، ونقصد به قدراً من المعلومات المترابطة التي تكون وحدة واحدة ،  
وعندما تنضم الفصول مع بعضها في الكتب تصير أبواباً ، وعندما تتعلم الأبواب  
الموضوعة في مجال علم واحد مع بعضها بقول عنها : هذا « كتاب »

وبحسب مستخدم كلمة « فصل » في وصف مجموعة من التلاميذ المتقاربين في العمر  
والمستوى الدراسي ونقسمهم إلى فصل أول وثاني وثالث ، على حسب سعة الفصول  
وعدد التلاميذ . وهكذا معهم معنى قول الحق « علي فصل طالبو الجود » أي

فصلهم عن بقية غير المقاتلين ، وقسمهم إلى جماعات مرتبة ، وكل جماعة لها مهمة .

وكلمة « جود » من جمع « جند » وهي مفردة لكنها تدل على جماعة ، وأصل الكلمة من « جند » وهي الأرض الغابضة لصلابة القوة ، ونظرا لأن الجنود مفروض فيهم المملطة والقوة فقد أطلق عليهم لفظ : جند . ويرحم أن كلمة « جند » مفرد ، إلا أنها تدل على القوم مثل « رهط » و « طائفة » ويسمونها اسم جمع . « فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر ، أي عندما حرج إلى مكان إقامة الجيش بدأ في مباشرة أولى مهامه كملك ، لقد أراد أن يختبرهم ، فهم قوم وقفوا صد تعينه ملكا ، لذلك أراد أن يدخل لحكم على أرض صلبة فقال لهم عن الحق : « إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اعترف عرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم »

لقد أوضح لهم : أنهم مقبوضون على مهمة لله في سبيل الله ، وهو سبحانه الذي سيجرى عليكم الاختبار ، ولست أنا لأن الاختبار يكون على قدر المهمة ، أنا مشرف فقط على تنفيذ الأمر ، والله مبتليكم بنهر من شرب منه فليس مني إلا من اعترف عرفة بيده .

وساعة نسمع كلمة « مبتليكم » فلا تفسرها على أنها مصيبة ، ولكن فسرنا على أنها اختبار ، قد ينجح من يدخله وقد يفشل . والاختبار هنا بنهر . وما دام كان الاختبار بنهر فلا بد أن هذه الكلمة موقعا وأثر نفسيا عندهم ، لا بد أنهم كانوا عطاشا ، وإلا لو لم يكونوا عطاشا لما كان النهر اسلاء . « إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني »

إنهم عطاش ، وساعة يرى الماء فيسفلون عليه بنهم شربا ورثا ، ومع ذلك يختبر الحق صلاتهم فيطالبهم بأن يمتنعوا عن الشرب منه ، لقد جاء الاختبار في مشهم مما نصبو إليه نفوسهم « فمن شرب منه فليس مني » لماذا ؟

لأنهم ساعة يرون ما يحسنونه ويشتهونه فيسندعون إليه وينسون أمر الله ومن ينس

أمر الله ويفضل نفسه ، فهو غير مأمون أن يكون في جند الله . لكن الذي يرى الماء ويتنع عنه وهو في حاجة إليه ، فهو صابر قادر على نفسه ، وسيكون من جند الله ، لأنه أثر مطلوب الله على مطلوب بطنه ، وهو أهل لأن يُنزل .

ومع ذلك لم يَنْسُ الله في الابتلاء ، فأباح ما يفتك العطش ولم يحرمهم منه نهائياً . إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده ، لقد سمع هم معرفة يد سد الرمق وسبق الحياة ، أباح لهم ما تقتضيه الضرورة لكن ماصلة هذا الابتلاء بالعملية التي سيفعلون عليها ؟

إن العملية الحربية التي سيدخلونها سيقاتلون فيها الويل وسيعرضون لنفاد المراد ، وهم أيضاً عرضة لأن يحاصروهم عندهم ، وعن الإنسان المقاتل في مثل هذه الأمور أن يقوى على شهوته ويأخذ من زاده ومائه على قدر ضرورة استغناء الحياة ، لذلك تكفي غرفة واحدة لاستبقاء الحياة . كان التدريب هنا ضرورة للمهمة . فهل فعلوا ذلك ؟

يأتينا الحذر من الحق « شربوا منه إلا قليلاً منهم » . وهكذا تتم التصفية ، فهي ابتداء سبق لهم أن تولوا وأعرضوا عن القتال إلا قليلاً ، وهت امتنع عن الشرب قليل من القليل ، وهذه غرايل الاصطفاء أو مصافي الاختبار ، فقد يقوى واحد على نصف المشقة ، ويقوى آخر على ثلث المشقة ، ويقوى ثالث على ريسها . لقد بقي منهم القليل ، لكنه القليل الذي يصلح للمهمة ، إنه الذي ظل على الإيمان .

وانظر كيف تكون مصافي الابتلاء في الجهاد في سبيل الله ؟ حتى لا يحصل ردة الجهاد إلا المأمون عليها الذي يعرف حضها « فلما جاوزوه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » أي عندما عبروا النهر واجتازوا كل الاختبارات السابقة قال بعضهم . « لا طاقة لك اليوم بجالوت وجنوده » لقد خاف بعض منهم من الإحتار الأخير ، ولكن الذين آمنوا بالله لم يخافوا ، ويقول الحق « قال الذين يظنون أنهم ملائكة الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .



لقد اختلفت المواجيد وإن التحدث المرائي ، فالذين جاوزوا النهر انقسموا قسمين ، قسم رأى جالوت وجنوده ، والمسلم الآخر رأوه أيضا ، ولم ينقسموا عند الرؤية لكنهم انقسموا عند المواجيد التابعة للرؤية ، فقسم خاف وقسم لم يخف ، والذين خافوا قالوا : « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » لقد وجد الخوف من جالوت وجنوده في نفوسهم فقالوا : « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » ، لقد مرو بثلاث مراحل : المرحلة الأولى هي إدراك الجالوت وجنوده ، والثانية : هي وجدان متوجس من قوة جالوت وجنوده ، والأخيرة : هي نزوع إلى الخوف من جالوت وجنوده ، لكن القسم الذي لم يخف رأوا المشهد أيضا وجاء فيهم قول الله : « قال الذين يظنون أنهم ملأوا الله كرم من ثمة قليلة غلبت ثمة كثيرة بإذن الله »

كأنهم أدخلوا ربحهم في حسابهم فاستهزأوا بعدوهم ، لكن الثمة لسابقة هزلت نصها عن ربها فرأوا أنفسهم ثمة فحاربوا ، لقد كان مجرد ظل الثمة المؤمنة أنهم ملاقوا الله قد جعل لهم هذه العقيدة ، وإذ كان هذا حال مجرد انظر فيها بالك باليقين ؟ « كم من ثمة قليلة غلبت ثمة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » ونعرف أن هناك معارك يهزم فيها الأعداء على الصبر ، ودليلا على ذلك قول الحق .

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْسِلِينَ ﴾ (١٦١)

( آل عمران )

• هذا هو الوعد لكن إذا صبرتم كم يكون المدد ؟ يقول الحق .

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَبِرُوا وَرَتَّبُوا لِلَّذِينَ هُم مِّنْ قَوْمِهِم هَٰذَا عَمْدَةٌ كَمَا كُنْتُمْ بِحَمْسَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (١٦٢)

( آل عمران )

فكان البدء بثلاثة آلاف لسانة أهل الإيمان ويريد العدد في المدد إلى خمسة آلاف إن صبروا واتقوا . إذن فالمدد يأتي على قدر الصبر ، لأن جنات الفردوس الإلهية عليك

يزداد ساعة يهدك تتحمل المشقة فيحس عليك ويغطيك جزءا أكبر . فالله يريد من عبده أن يستنفذ أسباب قوته الخاصة ، وحين تستنفذ لأسباب برجولة وثبت ، تأتيك معونة الله ، ويقول الله لللائكة : هذا ينحق أن يعان فأعيوه . ولذلك جاء قوله الحق عل السنة المؤمنين : « كم من فئة قليلة علت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبِّنَا أَمْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٥٥﴾﴾

هذه هي الشحنة الإيمانية لم يريد أن يواجه عدوه فهو ينادي قائلا « ربنا » إنه لم يقل : يا الله ، بل يقول . « ربنا » لأن الرب هو الذي يتولى التربية والعطاء ، بينما مطلوب « الله » هو العبودية والتكاليف . لذلك ينادي المؤمن ربه في موقف الصبر « ياربنا » أى يامن حلفتنا وتولانا وعندما بالأسباب ، قال المؤمنون مع طالوت . « ربنا أفرغ علينا صبرا »

وعندما تأمل كلمة « أفرغ علينا صبرا » نعيدنا أنهم طلبوا أن يملا الله قلوبهم بالصبر ويكون أثر الصبر تثبيت الأقدام « وثبت أقدامنا » حتى يواجهوا العدو بإيمان ، وعند نهاية الصبر وتثبيت الأقدام يأتى نصر الله للمؤمنين حل القوم الكافرين ، وتلقى النتيجة للعزم الإيماني والقتال في قوله الحق .

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَكَانَتْ

اللَّهُ الْمَلِكُ وَالْحَكِيمُ وَعَلَّمَهُ بِمَا يَشَاءُ وَلَوْلَا  
دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ  
وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾

إن الحق يلعبنا أنه قد نصر المؤمنين به ويحيى الحق بكلمة « هزموهم » وهي تدل على فرار من كان يجب أن يكون مهاجداً والمخارب يجب أن يكون مهاجداً كاراً دائماً ، فحين يلجأ إلى أن يمر ، ها نتوقف لتبين أمره ، هل هذا الفرار بحرق لفتال وانعطافاً وميلاً إلى موقف آخر هو أصلح للقتال فيه ؟ لو كان الأمر كذلك فلا نكون الهزيمة ، لكن إذ كان الفرار لغير كرم ومخدمة للعدو بل كان لمخوف هنا تكون هزيمة

وقول الله « هزموهم ياد الله » يدل على أن حدود جالوت لم يقتلوا كلهم ، ولكن الذين قتلوا هم أئمة الكفر فيهم ، يدلل قوله بعد ذلك « وقتل داود جالوت » ، وجالوت هو زعيم جيش انكمار الذي هرب ، فطرده داود وقتله . ولأول مرة يظهر لنا اسم « داود » في هذه القصة الطويلة ، وهو اسم لم يكن عدنا فكرة عنه من قبل ، وستأتى الفكرة به بعد هذه لقصة في قوله تعالى

﴿ وَبَقِيَ دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً بَنِي إِسْرَءِيلَ وَرَأْسَهُ الْحَبِيدَ ۚ إِنَّ  
أَعْمَلَ سَابِقِينَ وَيَقْتَرِي الشَّرَّ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِلَىٰ يَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرَةً ۝ ﴾

(سورة سبأ)

إذن فداوية داود جاءت من هذه المعركة بعد قتل جالوت ، وكان « داود » أنثى لعشرة وهو أصغرهم ، وقال النبي للقوم : إن من يدخل المعركة ضد جالوت لا بد أن يأتي درع موسى على مقاسه ، وهنا استعرض واند « داود » الدرع على جميع أبناءه ، فلم يأت على مقاس أي واحد منهم إلا على أصغرهم ، وهو « داود » . جاء الدرع على مقاسه ، ودخل « داود » المعركة بقتل جالوت قائد المشركين ، وشاعت

بحكمة الله أن يكون أصغر المؤمنين هو الذي يقتل أكبر جيش المشركين .

كانت هذه المعركة بداية تاريخ داود ، وقد جاءت له هذه المعركة بالفتح العظيم ، ثم أنعم الله عليه بالملك والحكمة وجعل الجبال والطير تردد وترجع معه تسبيح الله وتنزيهه ، كل ذلك نتيجة قتل جالوت . وأحب داود الدرع وصار أملاً أن يعطيه الله صناعة الدروع ، ولذلك لم يتخذ صنعة في حياته إلا عمل الدروع . وجعل الله له الحديد ليناً يصنع منه ما يشاء كما جاء في قوله تعالى

﴿ وَطَعْنَتْهُ صَنَعَةُ لِبُورٍ لَّكَرٍ لُّحِصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾

( من الآية ٨٠ سورة الأنبياء )

وهذا دليل على أن الإنسان يجب أن يثق بالله الذي له حملة برهنة شانه ولقد كان قتل جالوت هو البداية لداود . وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه بما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ، إن الحق يأبى أنهما بقصبة كونه في الوجود ، وهي أن الحرب ضرورة اجتماعية ، وأن الحق يدفع الناس بالناس . وأنه لولا وجود قوة أمام قوة لفسد العالم ، فلو سيطرت قوة واحدة في الكون لفسد

فالذي يعمر الكون هو أن توجد فيه قوى متكافئة ، فوه تقابلها قوة أخرى . ولذلك نجد العالم دائماً محروساً بالقوتين العظيمين ، ولو كانت قوة واحدة لعم الفصل . ولو تأملنا التاريخ منذ القدم لوحدنا هذه الثنائية في القوى لمحض الاستقرار في العالم .

في بداية الإسلام كانت الدولتان العظيمتان هما الفرس في الشرق ، والروم في الغرب . والآن سقطت قوة روسيا من كفة ميزان العالم ، وتتسابق ألمانيا واليابان لهوازيبا قوة أمريكا .

إن قول الله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » جاء تحقيقاً على قصة الصراع بين بني إسرائيل وبين أعدائهم الذين أخرجوهم من ديارهم وعندما نتأمل هذه القصة من بدايتها نجد أنهم طلبوا أولاً من الله الإذن بالقتال . وبعد أن لهم ملكاً ليقاتلوا تحت رايته ؛ وكانت علامة هذا الملك في الصدق أن يأمر الله بالتأبوت . ثم جاءت قضية اجتماعية ينتهي إليها الناس عادة بحكيم الرأي ولوبدون الوحي ، وهي أن الإنسان إذا ما أقبل على أمر يجب أن يعد له إعداداً بالأسباب البشرية ، حتى إذا ما استوى لإعداده كل الأسباب ساء إلى معونة الله ، لأن الأسباب - كما قلنا - هي من يد الله ، فلا ترد أنت يد الله بأسبابها ، لتطلب معونة الله بذاته ، بل نجد الأسباب أولاً لأنها من يد ربك

وبعلمنا الحق أيضاً أن من لأسباب تمحيص الذين يدفعون عن الحق تمحيصاً يبين لنا قوة ثباتهم في الاختيار الإيماني ؛ لأن الإنسان قد يقول قولاً بلسانه ؛ ولكنه حين يتعرض للعمل لمحدثه نفساً بالأيدي ، وقد نجح قلة من القوم في الابتلاءات المتعددة . فعلا دارت المعركة ؛ وهزم هؤلاء المزمعون أعداءهم ، وانتصر داود بقتل جالوت

إذن فنلك قضية دفع الله فيها ألباب بأبأس ، ويطلقها الحق سبحانه قضية عامة « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » أي لولا أن الله دفع بالقلة المأزمة الكثرة من عدوهم لفسدت الأرض ، فالدفع هو الرد عن المراد ، فإذا كان المراد للناس أن يوجد شر ، فإن الله يدفعه . إذن فالله يدفع ولكن بأيدي خلقه ، كما قال سبحانه .

﴿ قَتَلُوهُمْ يَعْبُدُهُمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُسَفِّسُ صُورَ قَوْمٍ

مُؤْمِنِينَ ۝۱﴾

(سورة النوبة)

إنه دفع الله المؤمنين ليقاتلوا الكافرين ، ويعدب خلق الكافرين بأيدي المؤمنين وعندما نتأمل القول الحكيم « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض »

فلما نجد مقالة سابقة تشهد لهذا القول ، لقد أخرجوا من ديارهم وأبائهم ، فكان هذا هو مبرد القتال . ونجد آية أخرى أيضا تقول :

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبِحَجٍّ وَصَلَوَاتٍ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَنْتُمْ اللَّهُ كَثِيرًا وَلَيُصْرَبَنَّ اللَّهُ مِنْ يَصْرَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ عَزِيزٌ ﴾

( سورة الحج )

والسياق مختلف في الآيتين ، السابق الذي يأتي في سورة القرة عن أناس يحاربون بائعهم ، والسابق الذي يأتي في سورة الحج عن أناس مؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا وهم المستضعفون من مكة ليضربوا إلى إخوانهم المؤمنين في دار الإيمان ليحولوا الكفرة ، ويدخلوا مكة فاتحين .

صحيح أننا نجد وحدة جامعة بين الآيتين . وهو الخروج من الديار . إذن فمرة يكون الدفاع بأن نفرض لغيرك أي أن نخرج من ديار الكفر مهاجرا لتجتمع أمر نفسك أنت ومن معك ونعود إلى بلدك مقاتلا فاتحا ، ومرة يكون الدفاع بأن تقاتل بالفعل ، فالآية التي نحن بصدد حواظنا عنها هنا تعيد أنهم قاتلوا بالفعل ، والآية الثانية تعيد أنهم خرجوا من مكة يرجعوا إليها فاتحين ، فالخروج نفسه نوع من الدفع ، لماذا ؟ لأن المسلمين الأوائل لو مكثوا في مكة جرى أفعالهم خصومهم فلا يبقى للإسلام حيزه ، فذهبوا إلى المدينة وكونوا الدولة الإسلامية ثم عادوا منتصرين فاتحين :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾

( سورة النصر )

إن السياق في الآيتين واحد ولكن النتيجة مختلف ، هنا يقول الحق ( ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، لماذا تصد الأرض ؟ لأن معنى دفع الناس بعضهم بعض أن هناك أناسا ألغوا الفساد ، وقبلهم أناس خرجوا على من ألغى الفساد ليردوهم إلى الصلاح . وبطيت الحق سبحانه وتعالى في الآية الثانية السبب فيقول :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوْمِعُ وَيَبِعُ وَصَلَوَاتُ وَمَسْجِدُ  
بُذَكَرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾

(من الآية ١٠ سورة الحج)

والصوامع هي ما يقابل الآن الدبر للبصري وكانوا يتعدون لله فيها ، لأن فيه  
تمتعاً بعمل بالتكليف العام ؛ ومتعبداً آخر قد أئرم نفسه بشيء فوق ما كلفه الله  
به . فالذين يعبدون الله بهذه الطريقة يجلسون في أماكن بعيدة عن الناس يسعون  
الصوامع ، وهي تشبه الدبر الآن . والمعنى العام في العبد للبصري هو التمتع في  
الكائنات وهو المقصود بالبيع ، والمعنى الخاص هو التمتع في الصوامع

إذن « لهدمت صوامع » هذه لخاصة المتدينين . وكائنات أو بيع لعامة المتدينين  
وقول الحق « وصلوات » ، من صلوات ، وهي مكان العبادة لليهود ،  
ومساجد « وهي مساجد المسلمين

إن قوله تعالى : « فهدمت لأرض » في هذه الآية ، وقوله تعالى هناك « لهدمت  
صوامع وبيع وصلوات ومساجد » أي أنه ستهدم الأرض إذا لم تقم الصوامع والبيع  
والصلوات والمساجد ، لأنها هي التي تربط المخلوق بالخالق . ومادامت تلك الأماكن  
هي التي تربط المخلوق بالخالق فإن هدمت يكون أساس على غير ذكر ربهم  
وتفتتهم أسباب الدنيا

فالأديرة والكنائس والصوامع - حين كانت - والمساجد الآن هي حارب القيم في  
الوجود ، لأنها تذكرك دائماً بالعبودية وتمنع عنك الغرور ، وهي من السجود الذي هو  
منتهى الخضوع للرب ، يخلص بها الله خمس مرات في اليوم واليلة ؛ فإن كان عبد  
العبد شيء من الغرور لا بد أن يدوب ، ويعرف العبد أن الكون كله فضل من الله  
على العباد ؛ فلا يدخلك أيها المسلم شيء من الغرور . فإذا لم يدخلك شيء من  
الغرور أستعملت أسباب الله في مطلوبات الله . أما أن تأخذ أنت أسباب الله في غير  
مطلوبات الله فهذه قحة منك . فإذا كان الله قد أقدر يدك على الحركة فلماذا تمنع  
الله بها وتضرب بها لناس ؟ والله أقدر لسانك على الكلام ، فلماذا تؤذى فمك

بالكلمة ؟ إن الله قد أعطاك النعمة فلا تستعملها في المعصية .

قال الله تعالى في هذه الآية « ففسدت الأرض » وشرح ذلك في قوله تعالى « ولولا دفع الله للناس بعضهم ببعض لفسدت صوامع وبيع وصلوات ومساكن يذكر فيها اسم الله كثيرا » فهذه الأماكن هي التي تبقى أصول القيم في التدبير . « وأصول القيم في التدبير » غير « كل القيم في التدبير » . ولذلك نحن قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى جعل للإسلام خمسة أركان ، وهي التي بُني عليها الإسلام . ولا بد أن تقيم بيان الإسلام على هذه الأركان الخمسة ، فلا تغفل : إن الإسلام هو هذه الأركان الخمسة ، لا ؛ لأن الإسلام مبني عليها فقط فهي الأعمدة أو الأسس التي بُني عليها الإسلام . فإنت حين تصنع أساسا لمزل وتقيم الأعمدة فهذا المزل لا يصح بذلك للمسكر ، بل لا بد أن تقيم بقية البيان ، إذن فالإسلام مبني على هذه الأسس

والحق سبحانه وتعالى يوضح ذلك فيما مر بالمحافظة على أماكن هذه القيم ؛ لأن المساجد - ونحن نتكلم بالعرف الإسلامي - هي ملتقى ميوصبات الحق السورانية على خلقه ، فالذي يريد مبني الحق سورة يذهب إلى المسجد . إذن لكيلا تصد لأرض لا بد أن توجد أماكن العبادة هذه ، فمرة جاء الحق بالسجدة ومرة جاء بالسب

ولماذا يدفع الله الناس بعضهم ببعض ؟ لأن هناك أماسا يريدون الشر وأماسا يريدون الخير ، فمن يريد الشر يدفع من يريد الخير ، وإذا وقعت المعركة بهذا الوصف فإن يد الله لا تتحل عن الحجاب المؤمن الساحت عن الخير ، فهو سبحانه القاتل

﴿ وَلَيَبْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَسْعُرُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ نَقَرِي عَزِيزٌ ﴾

( من الآية ٤٠ سورة الحج )

أى إن المعركة لا تطول وننلك قلنا سابقا : إن المعارك التي ترها في الكون لا نجد فيها معركة بين حقين ؛ لأنه لا يوجد في لوجود حقان ، فالحق واحد ، فلا يقول أحد : إنه على حق وخصمه على حق . لا ، إن هناك حقًا واحدًا فقط . والمعركة - إن وجدت - توجد بين حق وباطل ، أو بين باطل وباطل . والمعركة بين



الحق والباطل لا تطول ، لأن الباطل رهوق ، ولدى يطول من المعارك هي المعارك بين الباطل والباطل ، فليس أحترهما أوليهما أن يصره الله . فهذا على فساد وذاك على سعاد ، وسعانه يدك هذا الفساد بذاك السعاد . ونحن يدك هذا السعاد بذاك الفساد ، فجنحنا الفساد في الكون يتهبان . وثاني من بعد ذلك أساس ليس عندهم سعاد ويعصرون الكون

والمعارك التي يدور في أي مكان تجد أن هذا الطرف له هوى والآخر له هوى مختلف . ولا يقف الله في أي جانب منهما ؛ لأنه ليس هناك جانب أحق بالله من الآخر ؛ لذلك يتركهم يصطرع بعضهم مع بعض ، ومادام الحق قد تركهم لبعضهم البعض فلا بد أن تطول المعركة . وكو كان الله في مال جانب منهم لوقف سبحانه في جانبه . وكذلك نرى في معارك العصر الحديث أن المعركة تطول وتطول ، لأنها لا نجد القسم الثالث الذي جاء في قوله سبحانه

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بِهِمَا ۚ فَإِنْ تَكَّأْتِ إِحْدَهُمَا عَلَى  
الْآخَرَى فَقَاتِلَا إِلَى تَنْبَهِ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاتَتْ فَأَصْلَحُوا بِهِمَا  
بِالْعَدْلِ وَأَقِطُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝﴾

( سورة الحمرات )

إن الحق سبحانه وتعالى يأمر عبد اقتتال طائفتين من المؤمنين أن يصلح بينهما قوم مؤمنون ، فإن تعدت إحداهما على الأخرى ، ورعيت الصلح فالحق يأمر المؤمنين أن يقاتلوا الفئة التي تعدى إلى أن يرجع إلى حكم الله ، وإن رجعت إلى حكم الله فالإصلاح بين العتتين يكون بالإيصال ؛ لأن الله يحب العادلين المنصفين

ونحن نجد الباطل يتمايز مع الباطل ؛ لذلك لا نجد من يصلح بين الباطلين ، بل نجد أهواء تتعارك ، وكل حسب ينفع في لطائفه ابي تناسب هواء

ومهد هي الحياة في الكون المعاصر ، إن المعارك تطول لأنه ليس في مال المتقاعين

شيء، جامع، ولو كان في عالم شيء، جامع، لما حدثت الحرب، وما داموا قد عملوا عن هدف  
اشيء، الجامع، فمن المفروض أن تتدخل الفئة القادرة على الإصلاح، ولكن حتى  
هؤلاء لم يدخلوا للإصلاح، وهذا معناه أن الخيبة في العالم كله وسيظل العالم في  
خيبة إلى أن يرفعوا ويرتدعوا، إنهم يطبلون على أنفسهم أمد التجربة وسيطبلون في  
هذه الخيبة حتى يفتطوا إلى أنه لا سبيل إلى أن تنتهي هذه المشاكل إلا أن يرجعوا جميع  
عن أهوائهم إلى مراد خالقهم

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » ، نعم تفسد الأرض فيها  
جعل الله للإنسان بدءاً فيه ، أما الشيء الذي لم يجعل الله للإنسان بدءاً فيه مستغل  
البواميس كما هي لا يؤثر فيها أحد ، فلا أحد يؤثر في الشمس أو القمر أو الهواء أو  
المطر ، إنما العباد جاء فيها للإنسان فيه يد

انظر إلى الكون ، إنك تجد لمسات إلهي لا دخل للإنسان فيها مستغيمه عن  
أحسن ما يكون ، وإنما يأتي العباد من الواسع الذي تدخل فيها الإنسان عبر منج  
الله ، ولو أن الإنسان دخل فيها بمنهج الله لاستقامت الأمور كما استقامت البواميس  
العليا تماماً

في سورة الرحمن قوله تعالى

﴿ وَالنَّجْمَ إِذَا هَوَىٰ ۝ وَوَسِعَ الْجِبْرَانِ ۝ ﴾

( سورة الرحمن )

وما دام الحق قد رفع أسماء ووسع الميراث ، فالسما لا تقع على الأرض والنظام  
محكم تماماً ، الشمس تطلع من الشرق وتغرب في الغرب ، والقمر والنجوم تسير في  
منتهى الدقة والإبداع ، لأنه لا دخل لأحد من البشر فيه ، فإن أردتم أن تصلح  
حياتكم ، وأن تستقيم أموركم كما استقامت هدمه السماء والأرض فخذوا الميراث  
من السماء في أعمالكم ، واتقوا القول الحق

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَسِعَ الْجِبْرَانِ ۝ الْأَشْقَىٰ ۝ الَّذِي يَدْعُوا فِي الْجِبْرَانِ ۝ وَيَتَّبِعْ ۝ الْوَرْنَ ۝ ﴾

## بِالْقِسْطِ وَلَا تُحْسِرُوا الْبَزَانَ ﴿١﴾

( سورة البقرة )

ومادمتم قد رأيتم أن الأمور الموحدة التي تسير بنظام لا تحكمون فيه تعمل باستقامة وثروب أن الفساد قد جاء من ناحية الأمور التي دخلتم فيها ، فلماذا لا نتبع منهج الله في الأمور التي لم ندخل فيها ؟ إنك إن عملت في الحياة بمنهج الله الذي خلق الحياة فإن أمورك تستقيم لك كما استقامت الأمور العليا في الكون واحفظ جيداً قوله تعالى :

﴿ وَالسَّاعَةَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٢﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٣﴾ ﴾

( سورة البقرة )

ليحفظ كل ما هذا القول ليعرف أن الأمور العليا موروثة لأن يد الإنسان لا تدخل فيها . إن السماء لا تقع على الأرض لأنها محكومة بنظام محكم تمام

والأرض لا تدور بعيد عن مركزها ، لأن خالقها قد قدر لها العظم المحكم تمام ولهذا يقول الحق سبحانه عن نظام الكواكب في الكون

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْفِي هَآءَ أَنْ تَدْرِكَ الْفَجْرَ وَلَا اللَّيْلُ مَالِكٌ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤﴾ ﴾

( سورة يس )

إن نظام دقيق محكم لأنه لا دخل للإنسان فيه . اصنعوا ميزان في كل الأمور التي لكم فيها اختيار حتى لا تطغوا في الميزان

ومادام الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان ومجه الاختيار ، وبعض الناس اختار مذهباً ، والبعض الآخر اختار مذهباً مضاداً ، وكل من المذاهب يخرج عن منهج الله ، فالخلق سبحانه وتعالى يترك الفتيين للفتنة والتأخر . ولأنه سبحانه ذو رحمة على العالمين ، ينفى عناصر الخير في الوجود ، لئلا أحداً يرى ويتنبه ويتلمذ

ويذهب ليأخذها فعندما تطعم جماعة يأتي لهم الحق بجماعة يردونهم ، حتى تبقى عناصر الخير في الوجود لعل إنساناً يأتي ليأخذ عصراً منها يحرك به حياته ، وصاحب الخير يثما بأق من فصل الله على العالمين ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

ومعروف أن تلك إشارة يخاطب الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويشير إلى الآيات التي سفت والتي تدل على عطمة الحق وقبوت ، فقد قال الحق من قبل :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَزَّوَّجُوا مِن دِينِهِمْ وَهُمْ أَوْفَ حُدُودِ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَخَذْنَاهُمْ إِنَّا اللَّهُ نُظَلِّلُ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

( سورة البقرة )

وساعة طلبوا أن يقاتلوا ، وأن يبعث لهم ملكاً ، وبعث لهم انتابوت فيه سكينه ، أليست هذه آيات أخرى ؟ ومن بعد ذلك أراد الحق أن يأتي مقتل حالوت المصلاق الضحيم على يد داود الصبي الصغير أليست هذه آية ؟ وآية أخرى هي أن جماعة قليلة - بإقرارهم - حيث قالوا : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » هذه الجماعة القليلة تدخل المعركة وتهزم الكثرة ، أليست هذه آية ؟

وهل الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعرف الآيات التي سمعت رسائله ؟ لا ، وبكها من حبار الله له مع قرار الجميع ، وخاصة الذين كهروا بحمد صلى الله عليه وسلم ، بأنه لا فرا ولا كتب ولا جلس إلى معلم ، ولا أحد قال له شيئاً ، حتى الرحلة التي ذهب فيها للتجارة كان يصحبه فيها أناس غره ، ولو كانوا قد رأوه حالاً إلى أحد يعلمه شيئاً ، لأذاعوا أن عمداً قد جلس مع فلان ، وتعلم منه كذا

وكذا . ولكن هذا لم يقله أحد ؛ لأنه لم يحدث أصلاً ، ولذلك كان إخباره صلى الله عليه وسلم به يعجزونه هم عندهم هو بعضا من أسرار معجزته ، إنه قد عرف الأحبار السابقة رغم أنه لم يقرأ ولم يكتب ولم يتلق علما من أحد . وقد غامحك بعض المشركين وقال . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجلس إلى فتي عنده المروة بعينه هذه الأحبار ، فهل القول الحق يذحض هذا الاعتراء :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّا بِعِلْمِهِ إِنَّا لَنَكِيدُكَ الَّذِي تُبْعِدُونَ إِلَيْهِ أَعْبُدُ ﴾  
وَهَذَا يَأْتِي مَرَّةً مِثْلَ ١٢ ﴿﴾

( سورة النحل )

لقد أثبت الحق أنها جملة ياطية ، ودعم كادب من حجتهم لأن الذي ادعوا أنه علم الرسول كان أعجميا . ويقول الحق سبحانه لمحمد صلى الله عليه وسلم . « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق » إن كلمه « آيات الله » تعنى الأشياء المعجيه ، و« نتلوها » أى نجعل كلمه بعد كلمه ، وهى من « ولى » أى جاء بعده فلا حاصل . « نتلوها عليك بالحق » والحق هو النطق الذى وقع موقعه حيث لا يتغير عنه ، فلا يتصلب أبدا

فهب أن حادثة وقعت أمامك ، ثم سُئِلت عنها ألف مرة في طفلة حياتك ستجد أن حوتك لن يحدف عليها أبد : لأنك تمكّي واقعا رأيته ، لكن لو كانت الحكاية كذبا ، فسجد أن روايتك لها في المرة الثانية تتغير : لأنك لا تذكر حادا قلت في المرة الأولى : لأمك لا تمكّي عن واقع يأحدك وتلتزم به ، وكذلك الحق لا يتغير ، ولا يتصارب ، ولا يتعارض

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق » ، وما دام الحق سبحانه هو الذي يقوها ، فسيكونها لك حقيقة ، وعدد يعرف الآخرون أنك عرفت ما عندهم مما يحقونه في كتبهم بقوله بعضهم لبعض : « ها يعرفون أنك من المرسلين » ، ولذلك نحن نجد في « ما كانت القرى » التي يقول فيها تعالى : « ما كنت » ، « ما كنت » ، « ما كنت » ، ومثل قوله الحق :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَيْكَ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ١١ ﴾

( سورة النقص )

أى ما كنت يا محمد حاضراً مع موسى في المكان الغربى من الجبل حين عهد الله إليه بأمر الرسالة ، ولم تكن معاصراً لموسى ولا شاهداً تبينه للرسالة فكيف يكذبك قومك وأنت تتلو عليهم أنباء السابقين ؟ ومثال ذلك قوله الحق .

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَسِيخَ إِذْ يُلْقُونَ أَكْلَهُمْ أَهُمْ

بِسَعْلٍ مَرِيٍّ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ١٢ ﴾

( سورة الانعام )

إن الذى رواه القرآن لك يا محمد من الاحبار الجليله عن اصطفاهم الله من الغيب الذى أوحى الله به إليك . وما كنت حاضراً معهم وهم يفترون بالسهام ليعلم بالفرقة من يقوم بشئون مريم ، وما كنت معهم وهم يختصمون في بيل هذا الشرف البيل . ومثال ذلك قوله الحق سبحانه .

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَئِنْ رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ لُنُذِرٌ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ

مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ١٣ ﴾

( سورة النقص )

أى ما كنت أياً الرسول حاضراً في جانب الطور حين نادينا موسى لما أتى الميقات وكلمه ربه ونجاه ، ولكن الله أعلمك بهذا عن طريق الوحي رحمة بك وبأمتك . ولتبعه لقوم لم يأتهم رسول من قبلك لعلهم يتذكرون ويؤمنون . ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا أَمْرًا مَا كُنْتَ تَقْرَى مَا أَنْكَبْتَ وَلَا

الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنِ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَفِيضٌ

## إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥١﴾

(سورة النور)

إن القرآن هو وحي منزل من عند الله ، يُعَرِّفُ الْمُؤْمِنِينَ أنور إلى الهداية وتكاليف الحق ، ويهدي من اختار الهدى ، وتلك يا محمد لتدعو بهذا القرآن إلى صراط مستقيم . إن كل « ما كنت » في القرآن الكريم هي دليل على أن ما أحرك به جبريل رسولا من عند الله إليك ، وحاملا للوحي من الله هو الحق ، فتعلمه أنت يا محمد بطريقة خاصة وعن منبع مخصوص ، رغم أنك لم تقرأ كتابا ولم تجلس إلى معلم وما تحركهم به من آيات هي موافقة لما معهم ، وكان من الواجب أن يهولوا إن الذي علمت هذا هو الله سبحانه وتعالى ، وكان يجب أن يقرأوا ويشهدوا بأنك من المرسلين . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ  
وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ  
وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا الَّذِينَ  
مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا  
فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنُوا  
وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٥٢﴾﴾

إن الحق سبحانه وتعالى يشير إلى الرسل بقوله « تِلْكَ الرُّسُلُ » و« الرسل » هي جمع لمفرد هو « رسول » والرسول هو المكلف بالرسالة والرسالة هي الحملة من الكلام التي تحمل معنى إلى هدف . وبإدام الرسل جماعة فلماذا لم يقل الحق « هؤلاء

الرسول . وقال « تلك الرسل » ؟ ذلك ليدلّك القرآن الكريم على أن الرسل مهيأ  
اختلّعوا فهم مرسلون من قبل إله واحد وبمجيء واحد . وكما عرفنا من قبل أن  
الإشارة بـ « تلك » هي إشارة لأمر بعيد . فعندما تشير إلى شيء قريب قاساً نقول  
« ذاك » ، وعندما نستحدث صيغة الإشارة مع الخطاب نقول : « ذاك » . وعندما تشير  
إلى مؤث مثقول « ت » . وعندما تشير إلى خطاب مؤث نقول : « تلك »  
وه اللام . كما عرفنا هذا للبعد أو للمترّة العالية .

إذن فقوله الحق . « تلك الرسل » هو إشارة إلى الرسل الذين تعلّمهم سيدنا محمد  
عليه الصلاة والسلام ، أو الرسل الذين تقدموا في السباق الفرائى . والسباق الفرائى  
الذى تقدم تحدث عن موسى عليه السلام ، وعن عيسى عليه السلام ، وتكلم  
انسياق عن أولى العرم من الرسل

إن أردت الترتيب الفرائى هنا ، فهو يشير إلى الذى تقدم في هذه السورة ، وإن  
أردت ترتيب النول تكون الإشارة إلى من علمه الرسول من الرسل السابقين ،  
ولما كانت « وإنك لمن المرسلين » تفيده بعبارة بقوله هناك : « وإنك لمن المرسلين » ،  
ولما كانت « وإنك لمن المرسلين » تفيده بعبارة صلى الله عليه وسلم لكنية عامة ، كأنه  
يقول : إياكم أن تطورا أنهم ماداموا قد اتفقوا في أنهم مرسلون أو أنهم رسل الله ،  
أهم أيضا متساوون في المراتة ، لا ، بل كن واحد منهم له مرتبة العامة في العفلية  
والخاصة في التفصيل . إهم جميعا رسل من عند الله ، ولكن الحق يعطى كل واحد  
مهم مترّة خاصة في التفصيل .

علما كان قول الله : « وإنك لمن المرسلين » يؤكد لنا أن سيدنا رسول الله صلى الله  
عليه وسلم من بين الرسل فلا تأخذ هذا الأمر على أسام أن كل الرسل متساوون في  
المكنة ، ونقول إهم متماثلون في الفصل . لا . إن الله قد فصل بعضهم على  
بعض .

وما هو التفصيل ؟

إن التفصيل هو أن تأتي للعبير وتعطيه ميرة ، وعندما تعطى له ميرة عمن سواه قد



يقول لك إنسان ما : هذه محبة ، لذلك نقول لمن يقول ذلك : الرم تدف ، ولتعرف أن التفصيل هو إشار لغير مجرية بدافع الحكمة ، أما المحبة فهي إشار لغير مجرية بدافع الهوى والشهوة ، فمثلا إذا أردنا أن نختار أحداً من الناس خص كبير ، نحن نختار عدداً من لشخصيات التي يمكن أن تنطبق عليهم المواصفات ويقول : هذا يصلح ، وهذا يصلح ، وهذا يصلح ، وهذا فيه ميزات عن ذاك ، وهكذا ، فإن بطر إليهم وقيمتهم بدافع الحكمة والكفاءة فهذا هو التفصيل ، وبكسر إن احترما واحداً لأنه قريب أو صهر أو غير ذلك فهذا هو الهوى والمحابة

إن التفصيل هو أن يؤثر وتعطى مزية ولكن حكمة ، وأما المحبة فهي أن يؤثر وتعطى مزية ، ولكن الهوى في نفس ، فمثلا أنت اشتريت قارب بحرياً وركبته أنت وأنت الصغير ، ومعك سائق القارب البحري ، وأراد أنك الصغير أن يسوق لقارب البحري ، وحل مكان السائق وأخذ يسوق ، وبكى جند أمواج عالية واضطرب البحر فمضت أنت مسرعاً وأحدث الولد وأمر السائق أن يولي الميعة ، رهبا قد يصرح الولد ، فهل عند محبة منك للسائق ؟ لا ، فهو كانت محبة بكونك لا بكونك ، لكنك أنت قد أثرت السائق لحكمة تفرها وهي أنه أعلم بالقيادة من الولد الصغير ، إذن إذا نظرت إلى حيشة الايثار وحيشة التمييز لحكمة فهذا هو التفصيل ، وبكسر في المحابة يكون الهوى هو الحاكم

وكل أعمال الحق سبحانه وتعالى تصدر عن حكمة ، لأنه سبحانه ليس له هوى ولا شهوة ، فكنا جميعاً بالة إليه سوء ، إذن هو سبحانه حين يعطي مزية أو يعطي حسراً أو يعطي فضيلة ، يكون القصد فيها إلى حكمة ما

وحبها قال الحق : وإليك من المرسلين : جاء بعدها بالقول الكريم : تلك لرسول فضلنا بعضهم على بعض ، وأعطينا نجادح التفصيل فقال : منهم من كلم الله . وساعة تسمع : منهم من كلم الله ، يأتي في الدهر مباشرة موسى عليه لسلام ، وإلا فانه جل وعلا قد كلم الملائكة

وبعد ذلك يقول الحق : ورفع بعضهم درجات ، ثم قال : وآبأ عيسى ابن

مريم البينات « إنه سبحانه قد حدد أولا موسى عليه السلام بالوصف الغالب فقال .  
« كتم الله » وكذلك حدد مبدا عيسى عليه السلام بأنه قد وهبه الآيات البينات .  
وبين موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام قال الحق « ورجع بعضهم درجات »  
والخطاب في الآيات لمحمد عليه الصلاة والسلام إذن فيه كلام عن المعبر لمخاطب  
هو محمد صلى الله عليه وسلم .

وساعة يأتي الشخص بالاسم أو بالوصف الغالب ، فقد حدد المراد بالقضية ،  
ولكن ساعة أن يأتي بالوصف ويترك لفظة السامع أن يرد الوصف إلى صاحبه مكانه  
من المفهوم أنه لا ينطق قوله « ورجعنا بعضهم درجات » بحق إلا عن محمد صلى  
الله عليه وسلم وحده . وجاء بها سبحانه في الوسط بين موسى عليه السلام وعيسى  
عليه السلام ، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت في الوسط ، وإنما جاء آخر  
الأنبياء ، ولكن نجد أن مبعده صلى الله عليه وسلم هو الوسط . فاليهودية قد  
أسرفت في المادية بالارواحانية ، والنصرانية قد أسرفت في الروحانية بالمادية ،  
والعالم يحتاج إلى وسطية بين المادية والروحانية ، فعاء محمد صلى الله عليه وسلم ،  
فكان محمدا صلى الله عليه وسلم قطب الميزان في قضية الوجود

وإذا أردنا أن نعرف صاغات التفضيل ، فإنا نجد رسولا يرسله الله إلى قريته مثل  
سيدنا نوح مثلا . وهناك رسول محدود الرسالة أو عمر رسالته محدود ، ونذكر هناك  
رسول واحد قيل له . أنت مرسل للإنس والجن ، ونذكر من يوجد من الإنس والجن  
إلى أن تقوم الساعة إنه هو محمد صلى الله عليه وسلم .

فلذا كان التفضيل هو مجال العمل فهو لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وإذا  
 نظرنا إلى المعجزات التي أنزلها الله لرسوله ليشتوا للناس صدق بلاغهم عن ربهم ،  
نجد أن كل المعجزات قد جاءت معجزات كونية ، أي معجزات مادية حية الذي  
يراهم يؤمن بها ، فالذي رأى عصا موسى وهي تضرب البحر فانملق ، هذه معجزة  
مادية آمن بها قوم موسى ، والذي رأى عيسى عليه السلام يبرئ الأكف والأبرص  
فقد شهد المعجزة المادية وآمن بها ، ولكن هل هذه المعجزات الآن وجود غير الخبر  
عنها ؟ لا ليس لها وجود .

لكن محمد صلى الله عليه وسلم حين يشاء الله أن يأتيه بالمعجزة لا يأتي له بمعجزة من جنس المعجزة التي تحدث مرة وتنتهي ، إنه سبحانه قد بعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة ، برسالة غير محدودة ، ولابد أن تكون معجزته صلى الله عليه وسلم غير محسنة وإنما تكون معقولة ، لأن العقل هو القدر المشترك عند الجميع ، لذلك كانت معجزته القراب . ويستطيع كل واحد الآن أن يقول محمد رسول الله وثلاث معجزته

إن معجزة رسولنا صلى الله عليه وسلم هي واقع محسوس ، وفي مناط التطبيق للمصحح نجد أن الرسل ما جاءوا ليشرعوا ، إنما كانوا يفعلون الأحكام من الله ، وليس هم أن يشرعوا ، أما الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فهو الرسول الوحيد الذي قال الله له

﴿ وَمَا أَرْسَلُكَ مُخْضًوۢةً وَمَا نَهَيْتُكَ عَنْهُۢ فَاتَّبِعُوۡهُ ﴾

( من الآية ٧ سورة النجم )

فهو صلى الله عليه وسلم قد احتضنه الله بالتشريع أبصا ، أليس هذه مرة ؟ إن المراد من المصحح السماوي هو وضع القوانين التي تحكم حركة الحياة في الخلافة في الأرض ، وتلك القوانين بوعان نزع جاء من الله ، وفي هذا نجد أن كل الرجل فيه سوء ، ولكن هناك نوع ثان من القوانين فوص الله فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضع من التشريع ليلآتم ما يرى ، وهذا تفصيل للرسول صلى الله عليه وسلم

إذن حين يقول الله تعالى : « ورمح بعضهم درجات » فهذا لا يطلق إلا لعل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وهذه أكثر من التصريح بالاسم . وأضررت هنا لمثل - والله المثل الأعلى - أنت أعطيت لولئك قلما عديا ، ولولئك الثاني قلما مرتفع القيمة ، ولولئك الثالث ساعة ، أما الولد الرابع فاشترت له هدية عالية جدا ، ثم تأتي الأولاد ويقول هم : أما اشترت لفلان قلما جافا ، ولفلان قلم حبر ، واشترت لفلان ساعة ، وبعضهم اشترت له هدية ثمينة . وهذا قد عُرِف بأنه الابن الرابع الذي لم تذكر اسمه ، فيكون قد تعين وتحدد .

« تلك لرسل فصلنا بعضهم عن بعض منهم من كلم الله » وحين نقول كلم الله  
بإياك أو تفعل عن قصيدة كنية تحكم كل وصف لله يوجد في الشر ، فأنا أتكلم والله  
يتكلم ، لكن أكلامه سبحانه مثل كلامي ؟ . ن كنت تعتمد أن وجودي مثل وجوده  
فاجعل كلامي ككلامه ، وإن كان وجودي ليس كوجوده فكيف يكون كلامي  
ككلامه ؟

ربما يقول أحد: إن الكلام صوت وأحبال صوتية وغير ذلك، نقول له: لا، أنت  
لا تأخذ ما يخص الله سبحانه إلا في إطار «ليس كمثله شيء» ونحن نأخذ كل  
وصف يرد عن الله بواسطة الله، ولا نضع وصفا من عندنا، وبعد ذلك لا تقارنه  
بوصف للبشر فقله حياة ولك حياة لكن أحياة أي منا كحياته سبحانه ؟ لا، إن  
حياته ذاتية، وحياة كل منا موهوبة مسلوقة، فليست مثل حياته

وعندما يقول الحق

﴿ اللَّهُ أَعْلَى كُلِّ شَيْءٍ مَّا نَسُودُ مِنَ الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهَا فِي بَعْدٍ يُعْرَى عَلَى الْقَرْشِ  
مَا كُنْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَبَرٍ وَلَا شَمِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ① ﴾

(سورة النجم)

فهل جلوس الحق كجلوس الخلق؟ أو هل يكون ككرسي الخالق ككرسي  
المخلوق؟ طبعاً لا. ونحن المؤمنون نأخذ كل صفة عن الله في نطاق التشبيه  
سبحان الله وليس كمثله شيء، فليس استواء الله مثل استواء البشر، وليس  
جلوس الحق مثل جلوس الإنسان

ونصرب هذا المثل - والله المثل الأعلى من قبل ومن بعد - هب أن صاحباً لك  
دعاك لتأكل عندما تم دعاك أحد كراء القوم لتأكل عنده، لا بد أنك تجهد الطعام  
منقائاً في جودته وأصنافه بين كل مائدة من موائد من دعوك، فإذا كان البشر  
أنفسهم تتفاوت بينهم الأمور الوصفية تبعاً لمقاماتهم وقدراتهم وإمكاناتهم، فإذا ما  
ترقيت بالصفة إلى خالق كل الأنبياء أيقنت أنه سبحانه منزّه عن كل من سواه،  
وليس كمثله شيء.



مسخر فيها ، لا تستطيع - مثلاً - أن تتحكم في يوم ميلادك ، ولا في يوم وفاتك ، ولا فيما ينزل عليك من الأحداث الخارجة عنك ، ولا فيما يدور من الحركة في بدنك ، كل ذلك أنت مسخر فيه فلا تغلت من قبضة ربك ولكنك تختار في أشياء .

ويعرف أنه سبحانه وتعالى قهر أجانب على أن تكون كما يريد ، وكما يحب ، وتلك صفة القدرة ؛ لأن صف القهر بعيد السيطرة . فإذا ما ترك جسا تختار أن يؤمن ، ويختار ألا يؤمن ، وإن آمن يجبر أن يطيع ويختار أن يعصى ، فهذه ثمة المحبوبة لله سبحانه وتعالى لم خيار وأثر طاعة الله على المعصية .

وبحق يعرف أن القهر يخضع القلوب لكنه لا يخضع القلب . فأت تستطيع أن تهدئ إنسانا بمسدس وتقول له : « اسجد لي » فاسجد لك ، لكك لا تستطيع أن تقول له : « وهو تحت التهديد - « أحبني » . فالحق سبحانه وتعالى يتركنا بالإيمان بالاختيار ، ويترك لنا الطاعة والمعصية اختياراً ، لعدم من يأتيه حياً ومن يأتيه قهراً

والعالم كله يأتي لله قهراً . وأنت أيها الإنسان في ذلك أشياء أنت مقهور فيها ومن هنا نشته لله تعالى القدرة . ونرى أن ثمة له الحب . والعبد الصالح هو الذي يطيعه من حب . ونحن قد سبق لنا أن قهرنا مثلاً - ولله المثل الأعلى - « قسا إن إنساناً عنده خادمان واحد اسمه سعد وآخر اسمه سعيد ، سعد عبده صاحبه بحبل ويجرّه قائلاً : « يا سعد » فهل لسعد ألا يجي ؟ لا لكن صاحب العبدتين ترك لسعيد الحرية ، وعندما يناديه فهو يأتيه

إذن ، أيبي محبه . الذي جاء باخيل أم الذي جاء بالمحبة ؟ إذن ، فمن كرامة لإنسان أن يشهد لله صفة المحبة إن آمن بالله ؛ لأنه سبحانه وتعالى لو شاء أن يهدي لمن جميع ما استطاع أي واحد منهم أن يكفر به ، ولو شاء أن يكون مطاعاً دائماً ما استطاع واحد أن يعصيه أبداً . ولذلك قل : إن إبليس كان عالماً حينها قال أمام الله تعالى .

﴿ قَالَ فَبِمَا زِدَتْ لَأَعْرَيْتَهُمْ أَتَمَعِينَ ﴾

أقسم الشيطان أنه يعثره سبحانه على خلقه ، وكأنه قال أنت يارب لو كنت تحتاج عبادك فانا لا أستطيع أن آخذهم ، ولكن لأنك عزيز عليهم ، إن أرادوا أن يؤسوا آهوا ، وإن أرادوا ألا يؤمنوا لم يؤمنوا ، فهذا هو المدخل الذي سادخل منه . ولذلك استثنى الشيطان بعضا من العباد لأنه لم يستطع أن يجد لوسوسته لديهم مدخلا :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴾ (١٧)

( سورة هـ )

أى إن الذى يريد الله أن يستخلصه لنفسه فلن يستطيع الشيطان أن يقترب منه . إذن إبليس ليس داخلًا في معركة مع الله تعالى ، ولكنه في معركة معنا نحن . ولقد أوضح الحق ذلك حين جاء على لسان إبليس في القرآن :

﴿ قَالَ قَبِرْتُكَ لِأَعُوبَهُمْ أَحْمِقٌ ﴾ (١٨) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴾ (١٧)

( سورة ص )

إذن لو أراد الله أن يكون طائعين حيما ، أيسطيع واحد أن يعصى ؟ لا يستطيع ولو أرادوا مؤمنين حيما ، أيسطيع واحد أن يكفر ؟ لا يستطيع . نعم شاء الله تعالى لبعض الأمور والأفعال أن يتركها لاختيارك ، لأنه يريد أن يعرف من الذى يأتيه طوعا ولظن العبد بين الخوف والرجاء ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : ( لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما ضيق بوجه أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قط من جته أحد ) (١)

ولهذا فإن مطلوب الارتفاع الإيماني ، والارتفاع اليقيني أن تحب الله لذات الله . وهو سبحانه يجرى عليك من الأحداث ما يشاء . وتظل تحبه فيأبى الله بك الملائكة فتقول الملائكة يارب حبك لنعمتك عليه فيقول لهم : وأسلم بعمى ولا يزال يحبى ، ويسلب الحق النعمة لكن العبد لا يزال يحب الله ، فهو يحب الله ولا يحب نعمته لأنه سبحانه ذات المحب لذاتها بصرف النظر عن أنه يعطينا النعم

(١) رواه مسلم بسنده عن ابن عمر

إذن الحق سبحانه وتعالى قد أرسل الرسل بحملون منهج الله لمن يريد أن يعلن حبه لله ، وأن يكون خليفة في الأرض بحق ، وأن يصلح في الكون ولا يفسده .  
وعرف أن الإصلاح له مرتبتان أن تترك الصالح طبيعته فلا تفسده ، أو أن تزيد الصالح صلاحاً . فلا تأتي على عين الماء التي تتدفق للناس وتردها ، ولكنك تتركها على صلاحها إن لم تستطع أن تزيدها إصلاحاً . وقد تستطيع أن تزيد عين الماء صلاحاً ؛ بدلاً من أن يذهب الناس متعبين إلى العين ويحملون منها الماء ، قد تصنع لهم مضخة عالية لها عرمان ترفع إليه الماء وعند « المواشير » وتوصل المياه إلى منازلهم . هأت بدلك تريد الأمر الصالح صلاحاً ، وهذه خلافة وعمارة في الوجود فإن لم نستطع أن نزيد الصالح صلاحاً فجنبنا شر إفسادك ، ودع الحال كما هي عليه ، واقعد كما أنت حالة في الكون

ولو أن الإنسان كان متصفاً في الكون لسأل نفسه : من الذي امتدى إلى صناعة الرغيف الذي يأكله الآن ؟ وسيعرف أنه قد أخذ تجارب الناس من أول آدم حتى وصل إلى صناعة هذا الرغيف ، فهناك إنسان زرع القمح ، وهناك إنسان آخر هداه الله أن يطحن هذا القمح ، وهو مبعثاته هدى الإنسان أن يصنع متخللاً ليفصل الدقيق عن النخالة ، ثم هداه أن يعجن الدقيق حتى يجد له طعاماً أفضل ولا شك أنه ترك مرة قطعة من العجين ثم شغل عنها بأي شغل أو بأي سبب ثم رجع لها مرة أخرى فوجدوها متحجرة ، فلما خبزها خرج له العيش أفضل طعاماً ، إنه سبحانه قدير فهى ، وإلا كيف تأتي هذه التجربة لطويلة ؟

ومثال آخر إن الإنسان حين ينظف ثوبه ، لو أنه استعرض أحوال من سبقوه في هذا الموضع منذ آدم ، لعلم أن كل واحد سبقه في الوجود أعطاه مرحلة من النفع إلى أن وصل للغسالة الكهربائية التي تغسل له بدون تعب ، كل هذه الأشياء جاءت له بهدايات من الله .

وقد قلت مرة : لماذا طبخت الناس « الكوسة » ولم تطبخ « الخيار » ؟ إن هذه دليل على أن هناك تجارب كثيرة مرت على الإنسان حتى يميز طعم الكوسة المطبوخة عن الخيار ، وكذلك طبع الناس الملوحة ولم يطبخوا التمتع ، مع أن التمتع أحسن



منها ، حدث ذلك ؛ لأن هناك تجارب وصلنا بأن النفع لا يُباع طعمه مطبوخا .

وأنت لو نظرت إلى أي شيء تستعيد به اليوم ، وفكرت الأعمال التي تداولته من يوم أن وُجد ، ستجد أن الحق قد قدر لكل إنسان عملاً ومحالاً ، وظلّ يخدمك أنت . وما دمت قد خدمت هؤلاء لناس كلهم من أول آدم وحتى اليوم ، فلا بد أن نظرك ترى ماذا ستقدم لمن يأتي من بعدك ، فلا تكن كسولاً في الحياة ؛ تأخذ خير عبرتك كله في الوجود ، وبعد ذلك لا تعطي أي شيء ، بل لا بد أن يكون لك عطاء ، فكما أخذت من بيتك لا بد أن تعطي هذه البيت ، ولو لم يوجد هذا ما وثقت الحياة ؛ لأن معنى ارتقاء الحياة أن إسماً أحد حبرة من سقوطه ، وحاول أن يربد عليها ، أي أن يأخذ أكبر ثمرة بأقل مجهود

فوق قدر الناس جهد الإنسان الذي ابتكره العجلة ؛ مثلاً التي تسير عليها السيارة فكان عليهم أن يستنفروا الله به بمقدار ما أراحهم ، فبعد أن كان الإنسان يحمل على اكتافه نصاري ما يحمل ، وفّر عليه من اختراع هذا أن يحمل ويثبت ، وجمعه يحمل أكبر كمية وينقلها بأقل مجهود .

إذن لا بد أن تنظر إلى النعم التي تستعيد بها الآن وترى كم مرحلة مرت بها ، وهل صنعها الناس هكذا أم نعموا وكدوا واجتهدوا منذ بدء الوجود على الأرض ، وعرف الإنسان جيلاً بعد جيل كيفية تطوير تلك الأشياء ، وقد يحدث خطأ في مرحلة معينة فيبدأ الإصلاح أو التحسين وهكذا . فانت عندما تجد أن العالم قدم لك كل هذه المنتجات ، لا بد أن تسأل نفسك : ما الذي ستقدمه أنت لهذا العالم ، وبذلك تعطي الحلقة الإنسانية مرتبة متصلة .

والحق سبحانه وتعالى يرسل الرسل ويضع المنهج : « افعل كذا » ولا تفعل كذا ، حتى تستقيم حياة الناس على الأرض ، تكن الناس علبت عليهم العجلة عن أمر المنهج ؛ ولذلك تظهر في الوجود سادات بقدر العجلة ، وعندما يرداد الفساد يبعث الحق سبحانه رسولا جديداً يذكرهم بالمنهج مرة أخرى ، وعندما يأتي الرسول

يؤمن به بعض من الناس ومخادبون معه ، وبصبر الرسول وتسخر مبادئ الله في الأرض ، ثم تمر فترة وتأتي الحقبة فيحدث الخلاف ، فهناك أداس يستكون جميع الله ، وأداس يهرطون في هذا المبح ، ويحدث الخلاف ونجوم المعارك

ولو كان الحق سبحانه وتعالى يريد الكون بلا معارك بين حق وباطل لجعل الحق مسيطرا سيطرة تسخير . لكن الله تعالى أعطانا تمكينا ، وأعطانا اختاراء ؛ لذلك نجد من يشأ مؤمنا ، ومن يشأ كافرا لمجد الطائع ، ولجند العاصي ، هذا فريق ، وهذا فريق وإياك أن تفهم أن وجود الكافرين في الأرض ، أو وجود العصاة في الكون دليل على أنهم خير داخلين في حوزة الله ، لا . بل إن الله تعالى هو الذي أعطاهم هذا الاختيار ، ولو شاء الله أن يجعل الناس أمة واحدة لما استطاع إنسان أن يخرج على مراد الله .

وفي الآية التي نحن بصدد ما جاء الحق بأولى الحرم من الرسل سيدنا موسى عليه السلام ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيدنا عيسى عليه السلام وبعد ذلك بقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتُلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتُلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَقَعُ مَا يُرِيدُ ﴾

( من الآية ٢٥٢ سورة البقرة )

إذن ما الذي جعل الناس تقتل فيما بينها؟ إنه الاختلاف بين الناس ، لقد اختلفوا فاقْتُلُوا . لكن ألا يمكن أن يكونوا قد اختلفوا ولم يقتلوا؟ إن ذلك لو حدث لكان إجماعا على الفساد . والحق سبحانه لا يريد أن يحدث هذا الإجماع على الفساد ، فإن لم يسيطر الخير على أمور البشر فلا أكل . من أن يظل عنصر الخير موجود ، ويأتي واحد ليحد عنصر الخير وينميه .



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا مَنَازِقَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن  
يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ  
هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥﴾

ويعن نعرف أن كل بدء من الحق يبدأ بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » إنما يدل على أن ما يأتي من بعد هذا القول هو تكليف لمن آمن بالله ، وليس تكليفا للناس هل إعتاقهم ؛ لأن الله لا يكلف من كفر به ، إنما يكلف الله من آمن به ، ومن اجتاز ذلك وأصبح في اليقين الإيمان فهو أهل لمخاطبة الله له ، فكانه يجد في القول الرباني بدءا بقوله له : يا من آمن بربنا حكيمها قادر مشرع لك ، أما أريد منك أن تفعل هذا الأمر .

إذن الإيمان بالله هو حثية كل حكم ، فانت تفعل ذلك لماذا ؟ لا تقل لأن حكمته كذا وكذا . لا ولكن قل لأن الله الذي أمته به أمرى بهذه لأفعال ، سواء فهمت الحكمة منها أو لم تفهمها ، بل ربما كان إقبالك على أمر أمرك الله به وأنت لا تفهم به حكمة أشد في الإيمان من تنفيذك لأمر تعرف حكمته

ولو أن إنسانا قال له الطبيب : إن الخمر التي تشربها تفسد كبدك وتعمل فيك كذا وكذا ، وبعد ذلك امتنع عن الخمر ، صحيح أن امتناعه عن الخمر صادق طاعة لله ، لكن هل هو امتنع لأن الله قال ؟ لا ، لم يمتنع لأن الله قال ، ولكنه امتنع لأن الطبيب قال ، فإيمانه بالطبيب أكثر من إيمانه برب الطبيب . أما المؤمن فيقول : أنا لا أشرب الخمر ؛ لأن الله قد حرمها ، ولماذا أنتظر حتى يقول لي الطبيب : إن كبدك سيضيع بسبب الخمر ، فالرحمة هي الإيماء الداء .

إن الحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا مَنَازِقَكُمْ » أي أما لا أطلب منكم

أن تنفقوا على ، ولكن أنفقوا من رزقي عليكم ؛ لأن الرزق يأتي من حركة الإنسان ، وحركة الإنسان تحتاج طاقة تتحرك في شيء أو مادة ، وهذه الحركة تأتي على ترتيب فكر ، وهذا الفكر رتبة من خلقه ، والجوارح التي تنفعل ، واليد التي تتحرك ، والرجل التي تمشي خلقها الله ، والمادة التي تفعل بها مخلوقة لله . وسنأخذ الزرع نموذجاً ، نجد أن الأرض التي فيها العناصر مخلوقة لله ، إذن فالإنسان يعمل بالعقل الذي خلقه الله ، ويعطى بالجوارح التي خلقها الله لتأتي له بالصفة التي يعمل بها في المادة التي خلقها الله لتعطى للإنسان خيرها . . . فأي شيء للإنسان إذن ؟

ومع ذلك إن حصل للإنسان خير من هذا كله فهو سبحانه لا يقول : إنه لي ؛ بل أمنحه لك أيها الإنسان ، ولكن أعطى حتى به ، وحتى لن أخذه لي ولكن هو لأحيك المسكين ، وأحق يقول :

﴿ سَأَأَيِدُهُمْ مِنْ رِزْقِي وَمَا أَرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴾ (٣٧)

( سورة الزمرات )

وياك أن تقول : وما دخل أنا بالمسكين ؟ عليك أن تعلم أن المسكين غرس ، والعرض من الممكن أن يلحق بك أنت . فلا تقدر أنك معطٍ دائماً ، ولكن قدو أنك ربي حدث لك ، يجعلك تأخذ لأن أعطى . الحق يقول لك أعط المسكين وأنت عني ؛ لأنه سبحانه سيقول للناس أن يعطوك وأنت فقير ، فقدّر حكمكم الله ساعة يطلب منك ، ليحميك ساعة أن يطلب بك ، وبذلك تتوارى المسألة .

ومع أنه سبحانه هو الذي يرزق ، فهو يريد منكم أيها العباد أن تتعاونوا وأن يحب بعضكم بعضاً ، حتى تمنح الضعفاء من قلوبكم ؛ لأن الإنسان الضعيف - صعباً طبيعياً وليس ضعف التسول أو الكسل أو الاحتراف ، بل ضعف عدم القدرة على العمل - هو مسئولية المؤمنين ، فسبحانه وتعالى يحسن القوى مسئولاً أن يساعدك وأنت ضعيف .

وأنت حين ترى . وأنت ضعيف لا تقدر الأقوياء الذين قدروا لم يسروا ، وذكروك بما عندهم ، عندك تعلم أنك في بيئة متساندة تحب لك الخير ، فإن رأيت

نعمة تلك إن عجزت فانت لا تحسدها أبداً ، ولا تحقد على معطيها ، بل تتمنى من حلالة وقعها في نفسك - لأنها جلاءك عن حاجة - تتمنى لو أن الله قدرك لئردھا ، فيكون المجتمع مجتمعا متكافلا متضامنا .

حين يقول الله تعالى : « أنفقوا مما رزقناكم » فأنتم لا تترعون لذات الله بل تظفون بما رزقكم ، ومن فضل الله عليكم أنه احترم أثر عملكم وسبه لكم حتى وإن احتاج أخوك ، فهو سبحانه يقول :

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لِّيُضَاعِفَهُ لُكُمُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾

( سورة البقرة )

إن الحق سبحانه قد اعتبر النفقة في سبيل الله هي قرض من المعبود للرب الخالق الوهاب لكل رفق . وحتى نفهم معنى النفقة أقول : قد قلت من قبل : إن الكلمة مأخوذة من مادة « النون والعاء والقاف » ، ويقال نفقت السوق أي انتهت بسرعة وتم تبادل البضائع فيها بالأثمان المقررة لها ، ونحن نعرف أن التجارة تعنى مقبضة بين سلع وأثمان . والسلعة هي ما يستفاد بها مباشرة . والنس ما لا يستفاد به مباشرة .

فحينما تكون جائعا أبيعك أن يكون عندك جبل من ذهب ؟ إن هذا الجبل من الذهب أنت لا تستفيد منه مباشرة ، أما فائدتك من وعيب الخبز فهي استفادة مباشرة ، وكذلك كوب الماء المثلج ، تستفيد منه مباشرة ، والملابس التي ترتديها أنت تستفيد منها مباشرة [دع فالذي يستفاد منه مباشرة اسمه سلعة ، والذي لا يستفاد منه مباشرة نسميه ثمتاً . ولذلك يقول لما الحق إنذاراً ونهيّاً من الاعتزاز بالمال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَمِيتُوا مَا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا حُلَّةَ وَلَا شَفِيعَةٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا سَاهِدِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾

( سورة البقرة )

إن الحق سبحانه ينهانا أن ننفق من رزقه لنا من قبل أن يأتي اليوم الآخر الذي لا بيع فيه ؛ أي لا مجال فيه لاستبدال أثمان بسلع أو العكس ، وأبدا لا يكون في هذا اليوم « حيلة » ، ومعنى « حيلة » هي الود الخالص ، وهي لعلاقة التي تقوم بين اثنين فيصير كل منهما موصولا بالآخر بالحنانة ؛ لأن كلا منهما منفصل عن الآخر ، وإن ربطت بيكما العاطفة وفي الآخرة سيكون كل إنسان مشغولا بأمور نفسه .

إن اليوم الآخر ليس فيه بيع ولا شراء ولا حيلة ولا شفاعات ، وهذه هي المائدة التي يمكن للإنسان أن يستند عليها . فأنك لا تملك ثمننا تشتري به ، ولا يملك غيرك سلعة في الآخرة ، إذن فهذا الباب قد سد . وكذلك لا يوجد حيلة أو شفاعات ، والشفاعة هذه مأذون فيها . إن كانت ممن أدن له الله أن يشفع فليس في يد الله ، ومعنى « شفيع » مأخوذة من الشفع والوتر . الوتر واحد والشفع اثنان ، فكأن الشفيع يضم صوته لصوت لشفيع هذه الحاجة عند فلان . فيتشفع الإنسان بإنسان له حاجة عند المشفوع عنده حتى ينقل له ما يطلب . ولكن هذه الوسائل في الآخرة غير موجودة . فلا بيع ولا حيلة ولا شفاعات ؛ فأنتم إذا أنعمتم أنفسكم ذلك اليوم ، فأنتهزوا الفرصة من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا حيلة ولا شفاعات .

وهذه هي أبواب النجاة المطلوبة عند البشر التي تعلق في هذا اليوم العظيم . وكان الحق سبحانه وتعالى يقول : أنا لم أفوت فرصة على خلقي ؛ خلقهم هم الذين ظلموا أنفسهم ووقفوا أنفسهم هذا الموقف ، فلأنهم ظلموا أنفسهم . لذلك يذيل الحق الآية بقوله : « والكافرون هم الظالمون » .

وبعد أن تكلم الله سبحانه وتعالى عن الرسل ، وعن الاختلاف ، وعن القتال لتثبيت منهج الحق ، وعن الإنفاق ، يوضح لنا التصور الإيمان الصحيح الذي في ضوئه جاءت كل هذه المسائل . فقد جاء موكب الرسائل كلها من أجل هذا المنهج فقال سبحانه

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ  
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ  
إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ  
بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥﴾﴾

ونقف بالتأمل الآن عند قوله الحق : « الله لا إله إلا هو » . إن كلمة « الله » هي  
علمٌ هل واجب الوجود . وعندما نقول « الله » فإن الله يصرّف إلى الذات  
الواجبة الوجود .

ما معنى « واجبة الوجود » ؟ إن الوجود قسمان : قسم واجب ، وقسم ممكن  
والقسم الواجب هو الضروري الذي يجب أن يكون موجوداً ، والحق سبحانه وتعالى  
حين أعلمنا باسمه « الله » أعطانا فكرة على أن كلمة « الله » هذه يتجلى بها  
- سبحانه - أن يُسمى بها سواء . ولو كما جِئنا مؤمنين لكان احترامنا لهذا  
التجلى نابع من لإيمان . ولكن هناك كافرون بالله ومتمردون وملحدون  
يقولون . « الله حرافة » ، ومع ذلك هل يمرز واحد من هؤلاء أن يسمى نفسه  
« الله » ؟

لم يفعل أحد هذا ، لأن الله تحدى بذلك ، فلم يمرز واحد أن يدخل في هذه  
التجربة . وعدم جرأة الكفار والملحدة في أن يدخلوا في هذه التجربة دليل على أن  
كفرهم خبر وطيد في نفوسهم ، فلو كان كفرهم صحيحاً لقالوا سسمى ونرى  
ما يحدث ، ولكن هذا م يحدث .

إذن « الله » علم واجب الوجود المتصف بكل صفات الكمال وبعد ذلك جاء



بالفضية الأساسية وهي قوله تعالى : « لا إله إلا هو » وهنا نجد النفي ونجد الإثبات ، النفي في « لا إله » ، والإثبات في « إلا هو » . والنفي تحلية والإثبات تحمية . حل سبحانه نفسه من وجود الشريك له ثم أثبت لنا وحدانيته . « لا إله إلا هو » أى لا معبود بحق إلا الله . ونعرف أن بعضا من البشر في فترات الغفلة قد عبدوا أصناما وعبدوا الكواكب ولكن هل كانت آلهة بحق أم بباطل ؟ لقد كانت آلهة بباطل ودليل صدق هذه القصص التي هي « لا إله إلا الله » ، أى لا معبود إلا الله أن أحدا من تلك الآلهة لم يعرض على صدق هذه القصص . إذن فهذا الكلام هو حق وصدق .

وإن ادعى أحد غير ذلك ، يقول له . إن الله قد أحبرنا أنه لا معبود بحق غيره ، لأنه هو الذى خلق وهو الذى رزق ، وقال أنا الذى خلقت . إن كان هذا الكلام صحيحا فهو صادق فيه ، فلا بعد إلا هو . وإن كان هذا الكلام غير صحيح ، وأن أحدا غيره هو الذى خلق هذا الكون فأين هذا الأحد الذى خلق ، ثم ترك من لم يخلق ليأخذ الكون منه ويقول « أنا لى خلق الكون » ؟ إنه أمر من اثنين ، الأمر الأول : هو أنه ليس هناك إله غيره فالفضية - إذن - متتهية . والأمر الآخر : هو أنه لو كان هناك إله آخرى ، وبعد ذلك جاء واحد وقال : « أنا الإله وليس هناك إله إلا أنا » فأين هذه الآلهة الأخرى ؟ ألم تعلم بهذه الحكاية ؟

إن كانوا لم يعلموا بها ، فهم لا يصلحون أن يكونوا آلهة ، وإن كانوا قد علموا فليماذا لم يقولوا . لا نحن الآلهة ، وهذا الكلام كذب ؟ وكما بعث الله رسلا بمعجزات كان عندهم أن يبعثوا رسولا بمعجزات فصاحب الدعوة إذا ادعاهما ولم يوجد معارضا له ، تثبت الدعوى إلى أن يوجد مُعارض

إذن كلمة « لا إله إلا الله » معها دليل الصدق ؛ لأنه إما أن يكون هذا الكلام حقا وصدقا فتنتهى المسألة ، وإن لم يكن حقا فأين الإله الذى خلق والذى عجب أن يُعبد بعد أن سمع من جاء ليأخذ منه هذه الفضية ؟ وبعد ذلك لا سمع له حس ولا حركة ، ولا يتكلم ، ولا نعم عنه شيئا ، فما هو شأنه ؟ إما أنه لم يعلم فلا يصلح أن يكون إله ، لأنه لو كان قد علم ولم يرد فليجست له قوة . ولذلك ربما

سبحانه يأتي بهذه القصيدة من ناحية أخرى يقول

﴿ قُلْ تَرَكُنَّ مَعَ إِلَهِكَ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا تَشْفَعُوا إِلَىٰ دِي الْعَرْشِ مَبِيلًا ۝١٢١  
مُسْحَةً وَتَعْنَتِي مِمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝١٢٢ ﴾

( سورة الإسراء )

فلو كان عند تلك الألهة المزعومة مظاهر قوة لذهبوا إلى الله سبحانه وتعالى وأنكروا  
الوحيته ، ولو كان هناك إله غير الله لحدثت معركة بين الألهة ، ولكن هذا لم يحدث  
بالكلمة « لا إله إلا الله » صدق في ذاتها حتى عند من ينكرها ، والدليل فيها هو عدم  
وجود المتنازع لهذه الدعوى ؛ لأنه إن لم يوجد متنازع فقد ثبت أنه سبحانه لا إله  
إلا الله . وإن وجد المتنازع يقول أين هو ؟

وأصرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - هو أما في اجتماع ، وبعد ذلك وجدنا  
حافضة نقود ، فمرصاتها على الموحدين ، فلم يجد لها صاحب ، ثم جاء واحد كان  
معا وخرج ، وقال : يا قوم بينما كنت أجلس معكم صاعنت حافضة نقودي . وأنا لم  
بدعها واحد منا لنفسه فهي إذن ساقطة هو

إذن « لا إله إلا الله » هي قضية تقتل بالصدق والحق ، والله هو المعبود الذي  
يُتَوَجَّه إليه بالعادة ، والعادة هي لطاعة . فمعنى عباد أي طائع ، وكل طاعة  
تقتضي أمرا وتقتضي سببا ، ومادامت العادة تقتضي أمرا وتقتضي سببا ، فلا بد أن  
يكون المأمور والمنهي صالحا أن يفعل وصالحا ألا يفعل فعندنا نقول له افعل كذا  
كمنهج إيمان ، فهو صالح لئلا يفعل وعندما نقول له لا تفعل فهو صالح لأن  
يفعل ، وإلا لو لم يكن صالحا ألا يفعل أيقول له « افعل » ؟ لا ، لا يقول له ذلك  
ولو كان صالحا ألا يفعل أيقول له « لا تفعل » ؟ إن ذلك غير ممكن

إذن لا بد أن يكون صالحا لهذا ، وتلك وإلا لكان الأمر والهي عشا ولا طائل من  
ورائهما . لذلك عندما أرادوا أن يقصروا الإسلام في العبادات الطقسية التي هي  
شهادته لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، والصلاة ، والصوم ، والركعة ،

والحج ، قالوا : هل هذا هو كل الإسلام ، وقالوا : إنه دين يعتمد على المظهر فقط ، قلنا لهم : لا ، إن الإسلام هو كل حركة في الحياة تناسب خلافة للإنسان في الأرض ، لأن الله يقول في كتابه الكريم :

﴿ هُوَ أَنَا كُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمِرُكُمْ فِيهَا ﴾

( من الآية ٦١ من سورة هود )

« واستعمركم فيها » أي طلب منكم أن تعمروها ، على حركة في الحياة تؤدي إلى عمار الأرض من المادية ، فلا تأخذ العبد على أنها صوم وصلاة فقط ، لأن الصوم والصلاة وغيرهما هي الأركان التي ستقوم عليها حركة الحياة التي سببها الإسلام ، فلو جعلت الإسلام هو هذه الأركان فقط لجعلت الإسلام أساسا بدون مبنى ، فهذه هي الأركان التي يبنى عليها الإسلام ، فإذن الإسلام هو كل ما سبب خلافة الإنسان في الأرض يبين ذلك ويؤكد قول الله تعالى :

﴿ هُوَ أَنَا كُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمِرُكُمْ فِيهَا ﴾

( من الآية ٦١ من سورة هود )

ويخرج إليها أناس يقولون نحن ليس لنا إلا أن نعد ولا نعمل ويقول لأي منهم : كم تأخذ الصلاة منك في اليوم ؟ ساعة مثلا ، والركعة كم تأخذ منك في العام يوما واحدا في العام ؟ والصوم كم يأخذ منك من وقت ؟ شهر أيام شهر واحد . ومريضة الحج أنتأخذ منك أكثر من رحلة واحدة في عمرك ؟ فبالله عليك ماد تفعل في الباقي من عمرك من بعد ذلك وهو كثير ؟ إنك لا تأخذ أكثر من ساعة في اليوم للصلاة ، ولا تأخذ أكثر من يوم في السنة لإحراج الركعة ، وتقضي شهر في سنة تصوم نهاره وتخرج مرة واحدة في عمرك ، فهذا تفعل في نية إيمان ، متأكلا وتبني ، ستطلب رعيه الخير للنعام فمن الذي سيصنعه لك ؟ إن هذا الرعيه يمر بمرحل حتى يصير لقمة تأكلها . ويحتاج إلى أكثر من عدم وأكثر من حركة وأكثر من طاقة

إن المحل الذي يبيعه فقط ولا ينجزه يحتاج إلى واجهة من رجاج أو غيره ، ولا بد أن يحصل فيه من يذهب بعرضه إلى المحر ليحمل الخبر ، وينقله إلى اسحل ويبيعه ،

وإذا نظرت إلى العرن فسوف تجد مراحل عدة من تسليم وتسليم للبقيق ، ثم إلى المعجون ، وإلى النار التي توفد بالمزوت ، ويومئذ بذلك عمال يحتاجون لمن يحفظ لهم ، وقبل ذلك كان الدقيق مجرد حبوب ، وتم طحنها لتصبح دقيقا ، وهناك مهندسون يديرون الماكينات التي تطحن ، ويعملون على صيانتها ، وبعد ذلك الأرض التي نبت فيها القمح وكيف تم حرثها ، وتهيئتها للزراعة ، وربما ، وتسميدها ، وررعها ، وحصدها ، وكيف قُرس القشر والسنايل ، وكيف تتم تلويته من بعد ذلك ، لفصل الحبوب عن التبن ، وتعتة الحبوب ، إلى غير ذلك ؟

انظر كم من الجهد أحد رعيه الخير الذي تأكله ، وكم من العاقات وكم رجال يعمل ، فكيف تستطيع لبسك أن يصعوه لك ، وأنت فقط جالس لتصل وتصوم ؟ لا ، إياك أن تأخذ عن غيرك دون جهد منك .

مثال آخر ، أنت تلبس جلبابا ، كم أخذ هذا الجلباب من حر وسمح وخيط ؟ إذن فلا تقعد ، وتنتفع بحركة المتحرك في الحياة ، وتقول: أما مخلوق للعبادة فقط ، فليست هذه هي العبادة ، ولكن العبادة هي أن تطيع الله في كل ما أمر ، وأن تنهى عن كل ما نهى في إحد قوله تعالى : « هو أشاكم من الأرض واسمركم فيها » إن كل عمل يعتبر عبادة ، ولا مستكبر ، تبلا ، في الوجود والإيمان الحق يفتنى منك أن ستع بعملك ولا تعتمد على عمل غيره

إن الحق سبحانه وتعالى قد استخلفنا في الأرض من أجل أن نعملها ومن حسن العبادة أن ينش كل عمل وبذلك لا نقيم أركان الإسلام فقط ، ولكن نقيم الأركان والسيار معا ويكون قد أدينا مسئولية الإيمان ، وطابق كل فعل من أفعالنا قولنا : لا إله إلا الله .

ولقد عرفنا أن كلمة « الله » هي علم على واجب الوجود ، وهي الاسم الذي اختاره الله لنفسه وأعلمنا به ، والله أسماء كثيرة كما روى في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأل الله بكل اسم هو له أنزله في كتابه أو علمه أحدا من خلقه أي خصه به - أو استأثر به في علم الميب عنه ، فلا تظن أن أسماء الله هي

كلها هذه الأسماء التي نعرفها ، ولكن هذه الأسماء هي التي أدرك الله سبحانه وتعالى بأن نعلمها

ومن الحائز ، أو من لفظ الحديث يعلم أن الله قد يعلم بعضها من حقيقته أسماء له ، ويتأثر لنفسه بأسماء سخرها يوم القيمة حين تلقاه ، ونحن نتكلم عن الأسماء الأخرى نجد أنها ملحوظ فيها الصفة ، ولكنها صارت أسماء ، لأنها الصفة العالمة ، فهذا قيل ، « قادر » نجد أننا نستخدم هذه الكلمة لوصف واحد من البشر ، ولكن « القادر » إذا أطلق فنصرف إلى القادر الأعلى وهو الله وكذلك « لسميع » ، « البصير » ، « العليم » .

إن نجد أن بعضاً من أسماء الله سبحانه وتعالى له مقابل ، ومن أسماء الله الحسنى ما لا تجد له مقابلاً فهذا قيل « المحيي » تجد « المميت » ، « الممير » تجد « المدلل » ، لأنها صفة يظهر أثرها في العير ، فهو يميت لعيره ، ويمرّ لعيره ، ومدل لعيره ، لكن الصفة إن لم يوجد لها مقابل سميها صفة ذات ، فهو « حي » ولا تأتي بالمقابل إنما « يحيي » تأتي بالمقابل وهو « المميت » ، فهذه اسمها صفة فعل فصاعداً الفعل يتصف بها وبمقابلها لأنها في العير لكن صفة الذات لا يتصف إلا بها .

وحينما قال الحق « الله » فهو سبحانه يريد أن يعطيا بعض تجليات الله في أسمائه ، فقال « الله لا إله إلا هو » ليحقق لنا صفة التوحيد ، ويجب أن نعلم أن « إلا » هنا ليست أداة استثناء ، لأنها لو كانت أداة استثناء فكأنك تنفي أن يوجد آلهة ويكون الله من ضمن هذه الآلهة التي نفىها وذلك غير صحيح وإنما المراد أنه لا إلهة أبداً غير الله فهو واحد لا شريك له ، وأنه لا مسمود بحق إلا هو فكلمة « إلا » ليست للاستثناء وإنما هي بمعنى خير ، أي لا إله غير الله

وقد عرف أن هذه القصيدة معها دليلها ، وإلا فلو كان هناك إله آخر لقال لنا إنه موجود لكن لا إله إلا هو سبحانه أبليها : الله لا إله إلا هو . وأعجبني ما قاله الدكتور عبدالوهاب عزام - رحمه الله عليه - وكان متأثراً بالشاعر الباكستاني « إقبال » ، كان للشاعر إقبال شيء اسمه « الخيال » ، أي أن يقول بيتين من الشعر في

معنى ، ويتبين من الشعر الى معنى ، وكان يعلب على شعر إقبال الفلسفة الإسلامية والمكر الإسلامي ، وقد تأثر الدكتور عبدالوهاب عزام بشعر إقبال فجعل له مثالي أيضا يناظر فيها « إقبال » ، فيقول :

إنما التوحيد إيجاب وسلب وفيها للنفس عزم ومضاء

وقوله : « إنما التوحيد إيجاب وسلب » هو قول متأثر بالفنزية الكهرية . يقول :  
 إنما التوحيد إيجاب وسلب فيها للنفس عزم ومضاء . فأنت عندما تقول :  
 « لا إله » ، قد لا ، للنفس ، وعندما تكمل قولك : « إلا الله » فـ « إلا » للإنيته ،  
 ويكمل الدكتور عزام قوله : لا وإلا قوة قاهرة . فيها في القلب قطبا الكهرياء  
 كان الكهرياء تأتي بأنك تسلب وتوجب . فالإيجاب في « إلا » والسلب في « لا » .  
 ومادام فيه إيجاب وسلب ، إذن فيه شرارة كهرياء

« الله لا إله إلا هو الحي القيوم » ، وه « الحي » هو أول صفة يجب أن تكون لذلك  
 الإله ، لأن الفترة بعد الحياة ، والعلم بعد الحياة . فكل صفة لابد أن تأتي بعدها في  
 الذكر والإلا فليست صفة من صفات الله أسبق من صفة ولا متقدمة عليها فكلها قديمة  
 لا أول لها ، فلو كان عدم فكيف تأتي الصفات على عدم ؟ ، وكلمة « حي » عندما  
 سمعها نفوس : ما هو الحي ؟ . إن الفلاسفة قد احتاروا في تفسيرها فمنهم من  
 قال : الحي هو الذي يكون على صفة نجعله مذكرا إن وجد ما يذكر

كان الفيلسوف الذي قال ذلك : يعنى بالحياة حياتنا نحن ، ومادون كانه ليس فيه  
 إدراك . ونقول لصاحب هذا الرأي : لا ، إن أردت الحياة بالمعنى الواسع الدقيق  
 فلا بد أن تقول : الحياة هي أن يكون الشيء على الصفة التي تنفي صلاحيته لمهته ،  
 هذا هو ما يجب أن يكون عليه التعريف ، فـ « الحي » : هو الذي يكون عن صفة  
 تنفي له صلاحيته لمهته ، مثال ذلك النبات ، مادمت نجده يعمو ، إذن فيه حياة  
 تبقى له صلاحية مهته . فلو قطع لانتبهت الصلاحية . ومثل الإنسان عندما يموت  
 تنتهي صلاحيته لمهته ، والناصر الجمامدة عندما تأتي مع بعضها تتفاعل ، هذا  
 الصاحل فرع وجود الحياة ، لكنها حياة مناسبة لها وليست مثل حياتنا .

أنت مثلاً ترى « الزلزال » لناعم الأملس ، تجده على مقدار واحد ؟ لا ، إن أشكاه مخدفة ، وهذا دليل على أن هناك مراحل للحجر الواحد منها ، ولو استمرت تلك الأحجار في بيتها الطبيعية فلاشت أن هذه لكبيرة تنفس يوماً وتصير صغيرة ثم تكبر مرة أخرى ، تكن الإنسان حين يستخدم هذه الحجارة ليضعها على سبيل المثال بين انقصاب اثني تسير عليها القطارات فهذه الأحجار تكون قد خرجت من بيتها ومن حكمة الله أنه لا يوجد شيء تنتهي جدواه أبداً ، من هو سبحانه يعني لكل شيء مهمه أخرى .

إذن فكل كائن يكون على صفة تنفي له صلاحيته لمهمة ، وتكون له حياة مناسبة لتلك المهمة . نحن لا نأكل بهذا الكلام من عندما ، ولكننا نأكل بهذا الكلام لأننا نقرأ لقرآن بإمعان وتدبر ، ونقول : ماذا يقابل الحياة في القرآن ؟ إنه الهلاك بدليل أن الله قال

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

( من الآية ١٢ سورة الأنفال )

إذن فالحياة مقابلة للمهلك . وه الحى ، غير هالك ، وهالك لا يكون حياً ، ويقول تعالى في الآخرة :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

( من الآية ٨٨ سورة القصص )

ومعنى ذلك أن كل الأجاس من أعلاها إلى أدناها ، سواء الإنسان ، أو الملائكة ، أو الحيوان أو النبات ، كلها ستكون هالكة ، ومادام كل شيء سيهلك يوم القيامة فكأنه لم يكن هالكاً قبل ذلك ، وله حياة مناسبة له . أليست الحجارة شيئاً ، ومستدحل في الهلاك يوم القيامة ؟ . إذن فهي قبل ذلك غير هالكة . لكنا نحن البشر لا نلفظ إلى ذلك ونفهم الحياة فقط على أنها الحس والحركة الظاهرة . مع أن العلماء قد أثبتوا أنه حتى النرة فيها دوران ، ولها حياة . وأنت عندما تنظر بالمجهر على ورقة من نبات ، وترى ما بها من خضر وخلايا ، وتشاهد العمليات التي تحدث بها . وتقول : هذه حياة أرقى من حياتنا ، وأدق منها

إذن فكل شيء له حياة . وإياك أن تظن أنك أنت الذي تهلكها ، فعندما تأق بحجر وتذقه أو تصعه في القرن لتصنع الخير ، إياك أن تقول: إنك أفهت من الأحجار الحياة المناسبة لها ، أنت فقط قد حولت مهمتها من حجر صلب ، وصارت لها مهمة أخرى ، فالمسائل تتسلسل إلى أن يصير لكل شيء في الوجود حياة تناسب المهمة التي يصلح ها

وانظر إلى مهمة الحق ، ما شكلها ؟ إنها الحياة العليا ، وهو الحق الأعلى وحى لا تسلب منه الحياة ، لأن أحد لم يعطه الحياة ، بل حياته سبحانه ذاتية ، فهذا هو الحق على إطلاقه

إذن فالحق على إطلاقه هو الله والحق سبحانه وتعالى قال : « الله لا إله إلا هو الحي » وأثر صفة هذه موجود في كل الصفات لأخرى فقال : « القيوم » والقيوم هو صفة سالعة في قائم ومثلها قولنا : « الله عمور » لكن ألا يوجد عاقر ؟ يوجد عاقر ، لكن « عمور » هي صفة سالعة .

وقد يقول قائل . هل صفات الله فيها صفة قوية وأخرى ضعيفة ؟ . يقول : لا ، صفات الله لا يصح أن توصف بالضعف أو بالقوة ، صفات الله نظام واحد ، وحتى نفهم ذلك فلنصرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - بحر نقول : كذا نأكل كى نستبقى حياتنا ، فكل واحد منا « أكل » ، لكن عندما نقول : فلان أكل ، فمعنى ذلك أنه أخذ صفة الأكل التي كلنا شركة فيها وراى فيها فنقول عليه : « أكل » أو « أكل »

من أى ناحية تأتى هذه الريادة ؟ قد تأتى الزيادة من أنك تأكل في اعبدة رغبيا ، وهو يأكل رغبين أو ثلاثة ، إذن فالحدث به في الأكل أثر كبير ، فنقول عليه : أكل . وقد يأكل معك رغبيا في الوجبة الواحدة ، لكنه يأكل خمس وجبات بدلا من ثلاث وجبات ، فيكون أيضا أكلوا ، إذن فـ « أكل » إما مبالغة في الحدث نفسه وإما بتكرار الحدث .

وبحر ينظر إلى صفات الله ويقول: إنها لا تحتمل القوة والضعف في ذات الحدث ،



إنما في تكررها بالنسبة للمخلوقين جميعاً ، فالله غافر لهذا ، وغافر بذاك ، وغافر لكل عاص يتوب ، إذن فالحدث يتكرر ، فيكون « غفوراً » و « عاصراً » وهذا ما يحل لنا الإشكال في كثير من الأمور ، فعندما يقول سبحانه :

﴿ وَمَا رُبَّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

( من الآية ٤٦ سورة نصلت )

فحسن ما نجد قصبة لغوية تقول : إنك إذا جئت بصيغة المبالغة ، وأثبتتها ، تكون الصيغة الأخرى الأقل منها ثابتة بالضرورة ، مثال ذلك عندما نقول : فلان « علام » أو « عالم » ، فهاهنا أثبت له الصفة القوية ، تكون الصفة الضعيفة موجودة ، لكن إذا غيبت الصفة المبالغ فيها قد تكون الصفة الأخرى موجودة ، فهو ليس « علامة » لكنه قد يكون « علاماً » أو « علماً » ، فإذا قلت : فلان « علامة » فقد أثبت له الأدنى أيضاً ، فيكون « علاماً » و « علماً » . لكن إذا ثبت عنه « علامة » انتمى عنه الباقي ؟ لا ، إذن فهي الأكثر لا ينسب الأقل .

لكن إذا أثبت الأكثر ثبت الأقل ، وإذا ثبت الأكثر هل ينسب الأقل ، فإذا قلت : الله ليس بظلام للعبيد ، ثبت الأكثر . صحيح أنه غير مبالغ في الظلم ، فهل يمكن أن يكون ظالماً ؟ عن حسب ما قلنا : إذ فيها الأكثر لا ينسب الأقل بقول لا ، لأنها يجب أن يأخذ القصبة الأولى في أن المبالغة في الحدث والمبالغة في الفعل تأتي مرة في ذات الحدث ، ومرة في تكرار الحدث ، ولحق سبحانه لو أراد أن يظلم هذا ويظلم هذا ، فقد تكرر الحدث ؛ فيكون معاذ الله - ظالماً ، ولذلك لم يقل : بظلام للعبيد ، بل قال : بظلام للعبيد .

إذن فهذا العبد يحتاج ظلاماً ، والعبد الآخر يحتاج ظلاماً ، وذاك يحتاج ظلاماً ! فعندما يظلم كل هؤلاء يكون ظلاماً ، ولذلك نفاها سبحانه وقال : « وما ربك بظلام للعبيد » .

والحق هو يقول : « قيرم » وهذه صفة مبالغ من قائم ، فالأصل فيها القائم على أمر بيته ، والقائم على أمر رعيته ، والقائم على أمر المدرسة ، والقائم على أمر

هذه الإدارة ، ومعنى قائم على أمرها ، أنه متولى شئونها ، فكان انقيام هو مطهر الإشراف ، نحن لا نقول ، فاعده عن إدارتها ، . وعندما نقول : قيوم ، فمعناها أنه أوسع في انقيام ، كيف جاء هذا الاتساع ؟ لأن القائم قد يكون قائماً بمعيره ، لكن حين يكون قائماً ببداته ، وعبره يستمد قيامه منه ، فهو قائم على كل من هو سبحانه الفائت

﴿ أَقْسَمُ حَاقًّا بِمَا عَنِّي كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ شَرَّكَاءَ فَمَنْ يَسْكُتُهُمْ  
بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَضِلُّهُمْ أَمْ يَهْدِيهِمْ مِنَ الْقَوْلِ فَنَزِّلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي  
وُجُوهِهِمْ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّهُمْ يُصِلُونَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا مِّنْ رَبِّهِمْ هَادٍ ﴿١٠﴾

( سورة النجم )

إن الشركين قد سعوا السعة في حدودهم فحعلوا لله شركاء في العانة ، فهل يستطيع أحد أن يبلغ تلك المرتبة العلية ، برئته حتى لعالم والقيام على كل أمر فيه ، صغر أو كبر ؟ إنه الحافظ المرقب لكل من ، العالم بكل ما حصى وظهر ، وهذه الأوثان لا نصر ولا نفع ، فكيف تتوهمون يد من أشركتم بالله له بدا ، إن الحق مُبره عن ذلك بقيامه على كل من ركن الخلق ، لكن أهل الضلال أعوامهم صلاحهم فلم يعد لهم هاد بعد الله

إن الحق سبحانه قائم ببداته ، وقائم على غيره ، والعبرون كان قائماً بما يستمد منه القيام ، فلا بد أن يكون « قيوماً » ، ومن قيومته أنه ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، . وقبل في كتب العلم إن قوم بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام : أيام رب ؟

فأوحى الله إليه : إن ات برحاحتين وضعهما في يد إنسان ، ودعه إلى أن ينام ، ثم انظر الجواب ، فلي وضع في يده الرحاحتين ونام . انكسرت الرحاحتان فقال : هو كذلك ، هو قائم على أمر السماء والأرض ، ولو كانت تأخذه سنة أو نوم لتخطمت الدنيا

وهو سبحانه « لا تأخذه سنة ولا نوم » ، « السنة » هي أول ما يأتي من

النعاس ، أى النوم الخفيف ، فالواحد ما يكون جالساً ثم يغمض ، لكن النوم هو « انسبات العيين » ، فلما قال : « لا تأخذه سنة » قالوا : إنه يتعبد على النوم الخفيف لكن ، هل يقدر على مقاومة النوم العميق ؟ فقال الحق عن نفسه : « لا تأخذه سنة ولا نوم » . وعرفنا أن اسمة هي العاس الذى يأتى فى أول النوم ، ومظهرها يبدو أولاً فى العين وفى الحن ، فعندما يذهب إنسان فى النوم ، فإن أثر ذلك يظهر فى عينه ، ولذلك يقولون : إن العين هي الحارسة التى يمكن أن تعرف به أحوال الإنسان ، وقد اكتشفوا فى عصرنا الحديث أن الشرايين لا يمكن أن يعرفوا حالتها بالضبط إلا من العين . فالفتور لدى يأتى فى عين أولاً هو السنة أو مفدمات النوم ونسميه : اننعاس

« لا تأخذه سنة ولا نوم » اتريدون تطمينا من إله خائوه ، ومن معبود عبده ، ومن خالق لمخلوق أكثر من أنه يقول للعابد المحسوس : « سم أنت مرة جفوتك » واسترح : لأن ربك لا ينام . ماذا يريد أكثر من هذا ؟ هو سبحانه يعلم أنه خلقتك ، وأنت تحتاج إلى النوم ، وأثناء نومك فهناك أجهزة فى جسمك تعمل : إذا نمت وقف قلبك ؟ إذا نمت انقطع تنفسك ؟ إذا نمت وقعت معدتك من حركتها الدودية التى تهضم ؟ إذا نمت توقفت أمعاذك عن امتصاص المادة الغذائية ؟ لا ، بل كل شيء فى دولتك يقوم بعمله . فمن الذى يشرف على هذه العمليات لو كان ربك نائماً ؟

إذن فانت تنام وهو لا ينام . والله هل هذه عبودية تدك أو تعرف ؟ يا عبودية تعرف ، فالذى نعبد يقول : يا ربنا أنتم ، لأننى لا تأخذنى سنة ولا نوم . ويك أن تدبهم أنه لا تأخذه سنة ولا نوم . وأن شيك فى كونه يجرى عود مرده ، لا . لأن كل ما فى السموات والأرض له ، فلا شيء ولا أحد يجرى عن قدرته . ولذلك يقول الحق : « له ما فى السموات وما فى الأرض »

ويتابع سبحانه بقوله : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » إنه سبحانه وتعالى يوضح : أنا أعطيتك الراحة فى الدنيا ، وحتى الكافر جعلته يتعمق بعمى ، ولم أجعل الأسباب تضر عيه ، وأعطيته عذاباً قد اجتهد فى تلك الأسباب من بدل على أننى ليس عندى محابة ، قلت للأسباب : يا أسباب من تحسبك بأحدك ولو كان

كافرا ي . لكنه سيأتى يوم القيامة وليس للكافر إلا العذاب ، لأنه مادام قد عمل في الدنيا وأحسن عملا فقد أخذ جزاءه ، فليأكم أن تطنوا كما قالوا : « هؤلاء شفَعُونَا عند الله » ، وجاء فيهم قول الحق :

﴿ رَيَّبُون مِّن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَصُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنُتَبِّهُونَ اللَّهُ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

( سورة يونس )

إن هؤلاء الذين افرو على الله بالشرك به ، واتخذوا أصناما باطلة لا نصبرهم ولا ينفعهم يقولون عن هذه الأصنام . إنها تشفع لهم عند الله في الآخرة ، ويأمر الحق سبحانه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يبلغ المشركين . قل لهم يا محمد . هل تخبرون الله بشريك لا يعلم الله له وجودا في السموات ولا في الأرض ، وهو الخالق لكل ما في السموات والأرض ومُسَبِّحُه سُبْحَانَهُ عن أن يكون له شريك في الملك .

لقد أرادوا أن يخلوا بقضية التوحيد ويجعلوا لله شركاء ويقولوا : إن هؤلاء الشركاء هم الذين سيشفعون لنا عند الله . فيقول الحق سبحانه . إن الشفاعة لا يمكن أن تكون عندى إلا لمن أدت به أن يشفع . إن الشفاعة ليست حقا لأحد . ولكنها عطاء من الله ، بذلك يقول : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » .

ويقول الحق « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » . ساعة يتمرص العلماء ، إلى « ما بين أيديهم وما خلفهم » يشرحون لنا أن ما بين اليدين أى ما أمامك ، وما خلفك أى ما وراءك ، وما بين يدي الإنسان يكون موجهها لألة الإدراك الرائدة وهى العين ، فهو أمر يشهد

والذى في الخلف يكون غيبا لا يراه ، كأن ما بين اليد يراد به المشهود والذى في الخلف يراد به الغيب ، فهو « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » أى يعلم مشاهدتهم

وعبيهم ، ويطلق « ما بين اليد » إحصافاً آخر . إننا قد نسال عما بين يديك . هل هو مواجه لك أو غير مواجه ؟ فلو كان أمامك بشر ، مهل هم قادمون إليك أو راحلون عنك ؟

إنهم إذ كانوا رحلين عث قد سبقوك وقد حثت أنت من بعدهم ، ومن وراءك  
سائق من بعدك أى أن الحق سبحانه يجبرنا أنه يعلم الماضي والمستقبل . فمرة يعلم  
الحق ما بين أيديهم ، أى العالم المشهود ويسمونه « عالم الملك » . وما خلفهم أى  
الغيب ، ويسمونه « عالم الملكوت » . إنه يعلم المشهود لهم والخفى عنهم وكلها  
يقول الحق .

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ  
مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا يَدْرِي وَلَا يَابِسُ إِلَّا فِي  
كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٥٩)

(سورة الاحقاف)

إن عبد الله علم جميع العيب وبحيث علمه بكل شيء . ولا تخفى عليه حاية إياها  
إحاطة من كل ناحية . « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه  
إلا بما شاء » . إنه الحق يعلم مطلق العلم . وكون الحق يعلم فإن ذلك لا ينفي أن  
يكون غيره يعلم أيضا ، لكن علم البشر من بعض علم موهوب من الخالق لعاده .

معدما يقول واحد : أنا أقول الشعر . فهل مع ذلك القول أحداً آخر من أن يقول الشعر ؟ لا إنه لم يقل : ما يقول الشعر إلا أنا

ويقول سبحانه : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » ، وه العلم ، هو الصفة التي تعلم الأشياء على وفق ما هي عليه ، هذا هو العلم . وصفة الله وعلمه أعظم من أن يحاط بها ، لأنها لو أحيطت لحدت ، وكلمات الله لا تحدد ، مثلما ترى شيئاً يعجبك فتقول : هذه قدرة الله ، هل هي قدرة الله أو مقدور الله ؟ إنها مقدور الله أي أثر القدرة ، فعندما يقول : « ولا يحيطون بشيء من علمه » أي من معلومه .

« ويجعلون » هي دقة في الأداء ، لأنك قد تدرك معلوما من جهة ونجهله من جهات ، فلو وضع سبحانه : أنت لا تقدر أن تحيط بعلم الله أو قدرته ، لأن معنى الإحاطة أنك تعرف كل شيء ، مثل المحيط على الدائرة ، لكن ذلك لا يمنع أن يعلم جزئية ما ، ونحن نعلم بما آتانا الله من قوايين الاستنباط ، فهناك مقدمات تستنبط منها نتائج ، مثل الطالب الذي يحل مسألة جبر ، أو تمرين هندسة ، أيعلم هذا الطالب غيبا ؟ لا ، ولكنه يأخذ مقدمات موضوعة له ويصل إلى نتائج معروفة سلفا لأستاذه وأنت لا تحيط بعلم إلا بما شاء لك الله أن تحيط ، « لا يجعلون بشيء من علمه إلا بما شاء » .

وقول الله : « إلا بما شاء » هو إذن منه سبحانه بأنه سيختار على حلقه بأن يشاء لهم أن يعلموا شيئا من معلومه ، وكان هذا المعلوم خفيا عنهم ومستورا في أسرار الكون ، ثم يأذن الله للسر أن ينكشف ، وكل شيء اكتشفه العقل السري ، كان مضمورا في علم الغيب وكان سرا من أسرار الله ، وبعد ذلك أذن الله للسر أن ينكشف يعرفناه ، بمشيئته سبحانه . فكل سر في الكون له ميلاد كالإنسان نمعا ، أي أن له مياعدا يظهر فيه ، وهذا الميعد يسمى مولد السر . لقد كان هذا السر موجودا وكان العالم يستفيد منه وإن لم يعلمه . لقد كنا نحن نستفيد - على سبيل المثال - من قانون الجاذبية ولم تكن نعلم قانون الجاذبية ، وكذلك النسبية كنا نستفيد منها ولم تكن نعلمها ، وهذا ما يبينه لنا الحق في موضع آخر من القرآن الكريم ، قال تعالى .

﴿ سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَقْنَ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ أَلْخَقَ أَوَّلَ رِيبٍ ﴾

يَرِيكَ أَنَّهُ عَلَّ كَرَّ شَيْءٍ وَشَيْءٍ ﴿١١٠٠﴾

( سورة فصلت )

علام قال سبحانه : « سرريهم » ، فهذا يعني أنه سبحانه سيولد لنا أسراراً جديدة ، وهذا الميلاد ليس إيجاباً وإنما هو إظهار ، ولذلك يقول الناس عن الأسرار العلمية : إنها اكتشافات جديدة ، لقد تأدبوا في القول مع أن كثيرا منهم خير متبهيين ، قالوا : اكتشفنا كذا ، كأن ما اكتشفوه كان موجودا وهم لا يقصدون هذا الأدب . إنما هي جاءت كذلك ، أما المؤمنون فيقولون - لقد أدن الله لذلك السر أن يولد .

وقوله . « لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » فيه تحد واضح . فحق إذا  
اجتمع البشر مع بعضهم البعض فلن يحيطوا بشيء إلا بإذنه . وهذا تحد لكل ،  
حيث يشاء سبحانه أن يوجد إظهار سر في اوجود ، فهذا سر يولد ، وقد يكون  
إظهار السر موافقا لبحث الناس مثل العالم الذي يجلس في معمله ليحرب في العناصر  
والتماعلات ، ويستدق هذه وهذه ، إنه يتعب كثيرا كي يعرف بعضا من الأسرار ،  
ويحزن لا يدري بتعبه وجهده إلا يوم أن يكتشف سره .

لقد أخذ المقدمات التي وضعها الله في الكون حتى إذا تتبعناها نصل إلى سره ،  
مثليا نريد أن نصل إلى الولد فتروح حتى يأن ، وقد يلدن الله مرارا كثيرة أن يولد  
السر بدون أن يشتغل الحق بمقدماته ، لكن ميعاد ميلاد السر قد جاء ولم يشتغل  
العلماء بمقدماته ، فيخرجه الله لأي مخرج كنتيجة خطأ في تجربة ما .

وعندما نبحث في تاريخ معظم الاكتشافات نجدها كذلك ، لقد جاءت مصادفة ،  
فهناك عالم يبحث في مجال ما ، فتخرج له حقيفة أخرى كانت محفية عما جيم . لقد  
جاء ميعاد ميلادها على غير بحث من الخلق ، فجاء الله بها في طريق آخر لميرها ،  
وفي بعض الأحيان يوفق الله عالما يبحث المقدمات ويكشف له السر الذي يبحث  
عنه

إذن ، « لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » تعني أن الإنسان قد يصادف  
السر بالبحث . ومرة يأتي سر آخر في مجال البحث عن غيره ، فالحق لا يصح يكتشف  
السر حتى لو لم يشتغلوا به وسميها نحن - مصادفه - إن كل شيء يجري في الكون إنما  
يجري بمقدار ، وهذا هو الذي يعرق لنا بين معرفه غيب كان موجودا وله مقدمات في  
كون الله يستطيع أن يصل إليه بها ، وشيء مستور عند الله ليست له مقدمات ، إن  
شاء سبحانه أعيناه من عبده تفضلا ؟ من باب فصل الحدود لا يدل المجهود وهو  
سبحانه يعينه في « المصادفة » هـ ويعينه فيما لا مقدمات له على بعض أصمياته من  
خلقه ، ليعلم الناس جميعا أن الله فيوضات عن بعض عباده الذين والأهم لله بحبته  
واشراقاته وتجليه

لكن هل هذا يعني أن باستطاعتنا أن نعرف كل الغيب ؟ لا ، فالغيب قسمان .

عيب جعل الله له في كونه مقدمات ، إن استعملناها نصل إليه ، ككثير من الاكتشافات ، وإذا شاء الله أن يولد سر ما ولم يحدث عنه فهو يعطيه لنا « مصادقة » من باب فيض الجود لا بذل المجهود . ونوع آخر من الغيب ليست له مقدمات ، وهذا ما استأثر الله بعلمه إلا أنه قد بعض به على بعض خلقه كما يقول سبحانه .

﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ لَشَيْئًا ﴾ (٦٦) إِلَّا مَن أَرَادَ مِن رَّسُولِهِ فَمَا يُسَلِّكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٦٧﴾

( سورة الاحقاف )

إن الله هو عالم الغيب فلا يُطلع أحدا من خلقه على شيء إلا من ارتضاء وأعطاه من بشر . لذلك فلا أحد يستطيع أن يتعلم هذا اللون من الغيب ولذلك فلا يوجد من يفتح دكانا لعلم الغيب يذهب إليه الإنسان ليسأله عن الغيب إن الحق بهول

﴿ وَعَدُّ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ لَا يَحِيطُ بِهَا إِلَّا هُوَ رَءِيفٌ ذَا لُبِّ الْبَاسِ وَمَا يَنْسُقُ مِنْ ذُرَّةٍ إِلَّا يُعْصِفُهَا وَلَا يَخِيبُ فِي حُشْنِ الْأَرْضِ وَلَا وَطْبِ وَلَا بَابِينَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٦٨)

( سورة الاحقاف )

وهو سبحانه لا يعطي المفتاح لأحد من خلقه . وقد يريد الله أن يعطي لواحد كرامة ، فأعطاه كلمة على لسانه قد يكون هو غير مدرك لها فيقول : من يسمع هذا القول ويستمع به فلا يقل لي كذا وكذا . يا سلام ! وهذا فيض من الله على عبده حتى يبين الله لنا أنه يوالى هؤلاء المباد الصالحين .

وقوله الحق : « ولا يحيطون بشيء » نجد أن كلمة « شيء » تعني أقل القليل . وقوله سبحانه : « من عنده إلا بما شاء وسع كرميه السموات والأرض » يعلمنا أن الحق هيا يتكلم به عن نفسه وخلقته فيه نظائر ، كالوجود ، هو سبحانه موجود وأنت موجود ، وكالغنى هو غني وأنت غني ، كالعلم هو عالم وأنت تكون عالما ، فهل



يقول : إن الصفة لله كالصفة عبد ؟ لا ، كذلك كل ما يرد بالنسبة لمضيف فيها يتعلق بالله إضافة أو وصفاً ، لا تأخذها بالماسب عندك ، بل خذها في إطار : ليس كمثله شيء .

فإذا قيل لله يد ، قل هو له يد كما أن له وجوداً ، وبما أن وجوده ليس كوجودي فبده ليست كيدي بل افهمي في إطار : ليس كمثله شيء . إذا قال : وسع كرسيه يقول هو قال هذا ، ومادم قال هذا فسأخذ هذه الكلمة في إطار : ليس كمثله شيء . فلا نقل له كرسى وسيفقد عليه مثلاً ، لا لقد وحدنا من قال أين يوجد الله ؟! متى وحد ؟! قلنا ويقول : متى ؟ وه أين ؟ لا تأخذ بالنسبة لله ، إنها تأخذ بالنسبة لكم أسم ، لماذا ؟ لأن متى ؟ زمان وه أين ؟ مكان والزمان والمكان طرفان للحدث ، فاشيء الحدث هو الذى له زمان ومكان ، مثال ذلك أن أقول : أما شربت ؟ ومادم قد حدث الشرب فيكون له زمان ومكان ، لكن هب أنى لم أشرب ، أليكون هناك زمان أو مكان ؟! لا ، مادم الله ليس حدثاً وليس متعلقاً به زمان أو مكان ، لأن الزمان والمكان نشأ عندهم خلق الله وأحدث هذا الكون ، فلا نقل : متى ؟ لأن متى ؟ حلفت به ، ولا نقل : أين ؟ لأن أين حلفت به ولأن متى وه أين ؟ طرفان : هذه للزمان ، وهذه للمكان ، والزمان والمكان فرعاً للحدث . وعندما يوجد حدث فنقل زمان ومكان

إذن مادم الله ليس حدثاً ، فإياك أن تقول فيه متى ، وإياك أن تقول فيه أين ، لأن متى وه أين ؟ ولادة الحدث وقوله الحق : وسع كرسيه ، مأخذه : كما قلب في إطار : ليس كمثله شيء ، الكرسى : في اللغة من الكرسي والكرسى هو التجميع ، ومنه الكرسيه وهي عدة أواني مجمعة ، وكلمة كرسى : استعملت في اللغة بمعنى الأساس الذى يبنى عليه الشيء ، فماده : الكرسى ( لكاتب والراء والسيور ) تدل على التجميع وتدلل على الأساس الذى نشأت عليه الأشياء ؛ فنقول اصنع لهذا الخدار كرسيًا ، أى صاع لهذا الخدار أساساً يقوم عليه . ويطلق أيضاً هل القوم العلماء الذين يقوم بهم الأمر فيها يشكل من الأحداث ، والشاعر العربي قال : وكراسي في الأحداث حين سوب : أى يقتصد عليهم في الأمور الخسيسة

وحين يُسب شيء من ذلك للحق سبحانه وتعالى فإن السنف هم فيها كلام

والخلف لهم فيها كلام ، والسلف يقولون كما قال الله فأخذها ولكن نصنع كيبتها  
وتصورها في إطار ليس كمثله شيء ، وبعضهم قال ' يؤوها بما يُؤثت لها صفة من  
الصفات ، كما ينتون قدرة الحق بقوله الحكيم

﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾

(س الآية ١٠ سورة المفتح)

أى أن قدرة الله فوق قدرتهم ، وكما قال سبحانه عن قدرته في الخلق

﴿ وَالسَّمَاءَ سَبْعَ بِأَيِّدٍ وَإِنَّا لَمُرْسِعُونَ ١٧ ﴾

سورة الحديد

إن كمال قدرة الله لمحكمت حتى السماء ، والحق سبحانه معقد ومُزَّع عن أن  
يتصور المخلوق كلمة ' يد ' بالسبب لله ، ونحن نقول : الله قال ذلك ، وأخذها من  
الله ، لأنه أعلم مداته وبنيته ، ونُحِيلها إلى ألا يكون له شبيه أو نظير ، كما أثبتنا لله  
كثيراً من الصفات ، في خلق الله مثلاً ومع ذلك نقول : علمه لا يعلمنا ، وبصره  
لا كبصرنا ، فلماذا يكون كرسيه مثل كرسي ؟ فتكون في إطار ' ليس كمثله  
شيء ' .

والعلماء قالوا عن الكرسي إنه ما يعتمد عليه ، فهل المقصود علمه ؟ نعم .  
وهل المقصود سطوته وقدرته ؟ نعم ، لأن كلمة ' كرسي ' تروحي بالجلوس فوقه ،  
والإنسان لا يجلس عن قيام إلا إذا استتب له الأمر ، ولذلك يسمونه ' كرسي  
الحق ' ، لأن الأمر الذي يحتاج إلى قيام وحركة لا يجعلك تجلس على الكرسي ،  
فعندما نقعد على الكرسي ، فعلى ذلك أن الأمر قد استتب ، إذن فهو بالنسبة لله  
السلطان ، والقهر ، والعلة ، والقدرة .

أو نقول : مادام قال ' وسع كرسيه السموات والأرض ' فوسع شيء ، أى  
دخل في وسعه وأحاط به ' والسموات والأرض ' نحن نعلمها أنها كائنات كبيرة  
بالنسبة لنا ، إنه سبحانه يقول

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(سورة غافر)

وصدعا يقول : إن الكرسي وسع السموات والأرض ، إذن ، فهو أعظم من السموات والأرض أى دخل في وسعه السموات والأرض . ولذلك يقول أبو فراس الغماري رضي الله عنه :

( سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الكرسي فقال : يا أبا ذر ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة . وإن فصل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحقة )<sup>(١)</sup> .

والشربة بكل ما وصلت له من إنجذاب علمية قد وصلت إلى القمر فقط وهو مجرد صاحة من ضواحي الأرض ، وموصول عما بمسافة تقاس بالثواني الضوئية ، ونقد نعودنا في حياتنا أن نستخدم وحدات الميل والكيلومتر لقياس الأطوال والأبعاد الكبيرة ، لكننا اكتشفنا أن هذه الوحدات ليست ذات نفع في قياس أبعاد النجوم ، لأنها تعرف متراً أن الشمس تعد من الأرض ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال ، ولكن عندما نريد أن نرصد المسافة بيننا وبين أحد النجوم فلسوف نضطر إلى استخدام أعداد كثيرة من الأصغر أمراً رقم ما ، وهذا يجعل التعبير غير عملي ، ولهذا السبب وضع علماء الفلك وحدة ملائمة لقياس أبعاد النجوم وهي ما تسميه السنة الضوئية . ونحن نعرف أن سرعة الضوء حوالي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية . ولذلك فقياس أى مسافة بيننا وبين أى نجم في السماء أمر يحتاج إلى حسابات دقيقة وكثيرة ودراسة علوم متعددة .

فالشمس بيننا وبينها ثلاثة وتسعون مليوناً من الأميال ويصلنا صوؤها في خلال ثمان دقائق وثلث الدقيقة . والشعري الميائية وهي ألمع نجوم السماء يصل إليها صوؤها في تسع ساعات ضوئية .

(١) حديث شريف أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة

إذن فالسنة الضوئية هي وحدة لقياس المسافات المكنية ونحن ندخل عندما نعرف أن بعض النجوم يصل ضوؤها إلينا في خمسين سنة ضوئية ! كل ذلك ونحن لم نصبل بعد إلى السماء الدنيا ، فما بالكنا ببقية السموات ؟ إنا فحدود ملك الله فوق تصورنا . ولنا أن نعرف أى تكريم من الحق للمؤمنين حين بصور لنا صحابة الجنة يفوق سبحانه .

﴿ سَاقِبُوا إِلَى مَعْقِرَةٍ مِّن رَّيْكَرٍ وَحَتَّىٰ عَرَصَهَا كَعَرَصِ السَّاءِ وَالْأَرْضِ أُعِيتَ  
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ  
الْعَظِيمِ ۝ ﴾

( سورة الحديد )

هذه هي الجنة التي أعدّها الله للمؤمنين بالله ورسوله الذين يسارعون إلى طلب غفران الله فإذا كان عرّص الجنة هو السموات والأرض ، فما طولها إذن ؟ وكم يكون بعدها ؟ والعرّص كما نعرف هو أفق البعدين .

إذن يجب أن نفهم أن هناك عوام أخرى غير السماء والأرض ، لكن عيوب لا تبصر فقط إلا ماأراده الحق لنا من السماء والأرض ، ولذلك فعندما نسمع قول الحق : « وسع كرسيه السموات والأرض » قلنا أن نتخيل أى عظمة هي عظمة كرسي ذي الجلال والإكرام .

إن الحق يقول : « وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما » ، ومعنى آية النجم : « أى أثقله » . وحتى نفهم ذلك فبأن إنسان يستطيع أن يحمل عشرة كيلوجرامات ، فإن زدنا هذا الحمل إلى عشرين من الكيلوجرامات فإن الحمل يشغل عليه ، ويحمل حموده المعقري معرجا حتى يستطيع أن يقاوم الثقل . فإن زدنا الحمل أكثر فقد يقع الرجل على الأرض من فرط زيادة لوزن الثقل .

إذن فمعنى « ولا يؤوده حفظهما » أى أنه لا يشغل على الله حفظ السموات والأرض .

إن السماء والأرض وما فوق اتساع رؤية البشر قد وسعها الكرسي الرباني . وقال بعض المفسرين . إذا كان الكرسي لا يتحمل عليه حمط السموات والأرض فما بالنا بصاحب الكرسي ؟!!

ها هو ذا الحق سبحانه وتعالى بطمئنا فيقول

﴿إِنَّ اللَّهَ تَمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكُنَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهٗ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝﴾

(سورة فاطر)

إله الحق وحده سبحانه وتعالى الذي يحفظ السموات والأرض أن توازن عجيب ومدهل ، ولئن قلنا أنها أن تزولا . فلن يحفظها أحد بعد الله ، أى لا يستطيع أحد إمساكها ؛ فهما قائمتان بقدرة الواحد القهار ، وإذا أراد الله أن تزولا فلا يستطيع أحد أن يمسكها ويمسحها من الروال .

وإذا كانت هذه الأشياء الضخمة من صنع الله وهو فوقها ، فإنه عديم وصف اسمه بأنه «علی» و«عظیم» فذلك أمر طبيعي . إن الحق سبحانه وتعالى يعطينا تدبيرا منطقيا يقتضيه ما تقدمت به الآية الجليلية آية الكرسي ، إنه الحق يقول : «وهو العلي العظيم» وكلمة «علی» صيغة مبالغة في العلو . و«العلی» هو الذي لا يوجد ما هو أعلى منه فكل شيء دونه .

هذه الآية الكرسي التي نحن بصدد معرفتها بآية الكرسي ؛ لأن كلمة «الكرسي» هي اظاهرة فيها وكلمة «الكرسي» فيها : تسمى السلطان والقهر والقدرة والمنكية وكلها مأخوذة من صفات الحق جل وعلا .

إنه لا إله إلا هو . إنه الحي . إنه القيوم . إنه الذي لا تأخذه سنة ولا نوم .

والشعاعة عنه مأخوذة فيها بإرادته هو وحده وليس بإرادة غيره . وهو العليم بكل

شيء ، الذي يسع كرمه السموات والأرض وهو العلى فلا أعى منه ، وهو العظيم يطق المظمة . وتجمع كل هذه الصفات لتصح أماما أصول التصور في العقيدة الإيمانية ، وقد وردت فيها أحداث كثيرة ، ومنها نستخلص أنها آية لها قدرها ومقدارها عند الله . فمن أبي هريرة رضى الله عنه قال

« وكلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ ركاة رمضان فأتاني أب فجعل يحثو الطعام فأخذته وقلت والله لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : إني محتاج ، وعلى عيال ، ولى حاجة شديدة ، قل: فحليت عمه ، فأصبحت فقال النبي صلى الله عليه وسلم - يا أبا هريرة - « ما فعل أسيرك البارحة ؟ » قال : قلت يا رسول الله : شكاً حاجة شديدة وعيالا ، فرحمته ، فحليت سبيله ، قال : « أنا إيه كذبتك وسيمود » فرحمته أنه سيمود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه سيمود . فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال: دعني فإنى محتاج ، وعلى عيال لا أعود ، فرحمته وحليت سبيله ، فأصبحت فقال لى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يا أبا هريرة: « ما فعل أسيرك ؟ » فقلت يا رسول الله : شكاً حاجة شديدة وعيالا فرحمته فحليت سبيله قل : « أما إنه قد كذبتك وسيمود » فرصدته اشكاً ، فجاء يحثو من طعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود ، قال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها قلت : ما هي ؟

قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي « الله لا إله إلا هو الحي القيوم » حتى تختم الآية ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فحليت سبيله ، فأصبحت فقال لى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « ما فعل أسيرك البارحة ؟ » قلت يا رسول الله . زعم أنه يعلمى كتابات يسمى الله بها فحليت سبيله قال : « ما هي » قلت : قال لى : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم « الله لا إله إلا هو الحي القيوم » ، وقال لى : لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، وكانوا ( أى الصحابة ) أحرم من شيء هل تعلم الخبر ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم : « أما إنه قد



صدقك وهو كذب ، تعلم من تحاطب مد ثلاث ليال يا أيا هريرة ؟ قال . لا ،  
قال صلى الله عليه وسلم . « ذاك الشيطان »<sup>(١)</sup> .

وعن أبي هريرة قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « سورة البقرة فيها  
آية سيده أي القرآن لا تقرأ في بيت فيه شيطان إلا خرج منه . آية الكرسي »<sup>(٢)</sup> .

وعن أبي أمامه قال . « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » من قرأ دُبُرَ كل  
صلاة آية الكرسي لم يمسه من دخول الجنة إلا أن يموت »<sup>(٣)</sup> .

وعن عليّ - كرم الله وجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : « من قرأها  
- يعني آية الكرسي - حين يأخذ مصحفه آمنه الله تعالى على داره ، ودرجته ، وهل  
دويرات حوله »<sup>(٤)</sup> .

كل هذه المعاني قد وردت في أفعال هذه الآية الكريمة ، وقد جنس العلماء  
بمحتوى من سر هذه أسئلة فقال واحد منهم انظروا إلى أسماء الله الموجودة فيها .

وبالفعل قام أحد العلماء بحصر أسماء الله الحسنى فيها ، فوجد أن فيها ستة  
عشر اسماً من أسماء الله ، وبعضهم قال : إن بها تسعة عشر اسماً من أسماء الله  
الحسنى ، وبعضهم قال أن فيها واحداً وعشرين اسماً من أسماء الله ، كل ذلك من  
أجل أن يستنبطوا منها أشياء ، ويعلموا فضل وفصائل هذه الآية الكريمة والذين  
قالوا إن بها ستة عشر اسماً من أسماء الله قالوا :

إن بها اسم علم واجب الوجود « الله »  
واسم « هو » في لا إله إلا هو : هو الاسم الثاني

١ - من صحيح البخاري في كتاب فضائل القرآن وكتاب الوكالة وفي صفة إمام

٢ - الحاكم أبو عبد الله في مستدرقه

٣ - السائق في اليوم واليلة وابن حبان في صحيحه

٤ - البيهقي في شعب الإيمان

وه الحى ، هو الاسم الثالث .  
 وه القيوم ، هو الاسم الرابع .  
 وعندما ندقق في قول الحق « لا تأخذه سنة ولا نوم » نجد أن الصمير في  
 « لا تأخذه » عائد إلى ذاته - جل شأنه - .  
 وه ما في السموات وما في الأرض ، فيها صمير عائد إلى ذاته سبحانه .  
 وكذلك الضمائر في قوله : « عله » و « يذنه » و « يعلم » و « من علمه » و « ي شاء »  
 و « كرسبه » كلها تعود إلى ذاته جل شأنه .  
 و « لا يؤوده حفظها » فيها صمير عائد إلى ذاته كذلك .  
 و « هو » في قوله سبحانه « وهو العلى العظيم » اسم من أسمائه تعالى  
 و « العلى » اسم من أسمائه جل وعلا .  
 و « العظيم » كذلك اسم من أسمائه سبحانه وتعالى .

لكن عائد آخر قال : إنها سبعة عشر اسماً من أسماء الله ؛ لأنك لم تحسب الصمير  
 في المصدر المشتق من الفعل الموجود بقوله : « حفظها » إن الصمير في « هما » يعود إلى  
 السموات والأرض . و « الحفظ » مصدر . فمن الذى يحفظ السموات والأرض ؟ إنه  
 الله سبحانه وتعالى . وهكذا أصبحنا سبعة عشر اسماً من أسماء الله الحسنى في آية  
 الكرسي

وعالم ثالث قال : لا ، أنتم تجاهلتم أسماء أخرى ؛ لأن في الآية الكريمة أسماء  
 واصحة للحق جل وعلا ، وهلك أسماء مشتقة ، مثال ذلك -  
 الله لا إله إلا هو الحى هو . القيوم هو العلى هو العظيم هو .  
 ولكن العلماء قالوا رداً على ذلك . صحيح أنها أسماء مشتقة ولكنها صارت  
 أعلاماً .

المهم أن في الآية الكريمة ستة عشر اسماً ، وإن حسبنا الصمير المستتر في  
 « حفظها » نجد أنها سبعة عشر اسماً ، وإذا حسبنا الصمير الموجود في المشتقات مثل  
 « الحى هو » و « القيوم هو » ، و « العلى هو » و « العظيم هو » صارت أسماء الله  
 الحسنى الموجودة في هذه الآية الكريمة وحداً وعشرين اسماً . إذن هي آية قد جمعت  
 قلماً كبيراً من أسماء الله ، ومن ذلك جاءت عظمتها .





وهذه الآية الكريمة قد بيّنت ووصحت قواعد التصور الإيماني ، وأنشأت عقيدة متكاملة يمتز المؤمنين أن تكون هذه العقيدة عقيدته ، والآية في ذاتها تتضمن حيثيات الإيمان ، إنه ما دام هو الله لا إله إلا هو ، وما دام هو الحي القيوم على أمر السماء والأرض ، وكل شيء بيده ، وهو العليّ العظيم ، فكل هذه مبررات لأن يؤمن به سبحانه وتعالى ، وأن نعتز بأن نعتقد هذه المحققات ، ونكون هي الدليل على أن المؤمن فخور بهذا الدين الذي كان أمر الألوهية المطلقة واضحاً ربيّاً فيه .

وبذلك ، فمن الطبيعي ألا يقهر الحق أحداً على الإيمان به إكراهاً ، لأن الذي يقهر أحداً على عقيدة ما ، هو أول من يعتقد أنه لولا الإكراه على هذه العقيدة لما اعتنقها أحد ، ونحن في حياتنا اليومية نجد أن أصحاب المبادئ الباطلة هم الذين يمكنون الشياطين من أجل إكراه الناس على السير على مبادئهم . وكل من أصحاب هذه المبادئ الباطلة يعلم تمام العلم أنه لو ترك السوط والقهر ما سار إنسان على مثل هذه المبادئ الباطلة .

ولو كان أحد من أصحاب هذه المبادئ الباطلة يعتقد أن مبداه سليم لقال : أصرح هذا المبدأ على الناس ، وأترك لهم الخيار ، لأنه في هذه الحالة سيكون اتفاقاً من مبداه . أما الذي يقهر الناس إكراهاً بالسوط أو السلطان ليعتقدوا مبدأ ما ، فهو أول من يشك في هذا المبدأ ، وهو أول من يعتقد أنه مبدأ باطل . مثل هؤلاء نراهم عندما تضعف أيديهم عن استعمال السوط أو السلطان ، فإن أمر مبادئهم ينهزم ويسقط بياضه

والحق سبحانه وتعالى بعد ذلك يقول

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ

مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ

اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٦﴾

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا معنى العباد المؤمنين ولما أثر البشرية أنه  
« لا إكراه في الدين » . والإكراه هو أن تحمل الغير على فعل لا يرى هو حيراً في أن  
يفعله . أي لا يرى الشخص المكروه فيه خيراً حتى يفعله .

ولكن هناك أشياء قد يفعلها مع من حولنا لصالحهم ، كأن نرغم الأبناء على  
المذاكرة ، وهذا أمر لصالح الأبناء ، وكان نجبر الأطفال المرضى على تناول الدواء  
ومثل هذه الأمور ليست إكراهاً ، إنما هي أمور نقوم بها لصالح من حولنا ، لأن أحداً  
لا يسره أن يظل مريضاً .

إن الإكراه هو أن تحمل الغير على فعل من الأفعال لا يرى فيه هو الخير بمنطق  
أفضل السليم . ولذلك يقول الحق سبحانه : « لا إكراه في الدين » . ومعنى هذه  
الآية أن الله لم يكره خلقه - وهو خالفهم - على دين ، وكان من الممكن أن الله يفهر  
الإنسان المختار ، كما قهر السموات والأرض والحيوان والنبات والجنات ، ولا أحد  
يستطيع أن يعصى أمره . فيقول سبحانه :

﴿ تَوَيْتَآءُ اللَّهِ كَذَى النَّاسِ جَمِيعًا ﴾

( من الآية ٢١ سورة الرعد )

لكي الحق يريد أن يعلم من يأتيه عبداً مختاراً وليس مقهوراً ، أن الحق ، فهدراً يثبت  
له القسرة ، ولا يثبت له المحبوبة ، لكن من يدفع له طواعية وهو قادر ألا يذهب  
فهذا دليل على الحب ، فيقول تعالى : « لا إكراه في الدين » أي أنا لم أضغ منذاً  
الإكراه ، وأنا لو شئت لأمن من في الأرض كلهم جميعاً . فهل الرسل الذين أرسلهم  
سبحانه يتطوعون بأكراه الناس ؟ لا ، إن الرسول جاء لينقل عن الله لا ليكره  
الناس ، وهو سبحانه قد جعل خلقه مختارين ، وإلا لو أكرههم لما أرسل الرسل ،  
وبذلك يقول المولى عز وجل :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآتَىٰ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِبًّا أَقَاتَ تُكْرِهَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

( سورة يونس )

إن الرسول له مهمة البلاغ عن الله ؛ لأن الله لم يرد خلقه مكرهين على التدين ، إذن فالخلق منه لا يُكره خلقه عن التدين ، إلا أن هنا لبساً . فهناك فرق بين القهر على الدين ، والفهر على مطلوب الدين ، هذا هو ما يحدث فيه الخلاف .

تقول مسلم : لماذا لا تصلى ؟ يقول لك : لا إكراه في الدين ، ، ويدعي أنه متصف ، ويأتيك بهذه الآية ليحكمك بها ، فتقول له : لا إكراه في الدين ، عقيدة وإيماناً ، إنما إن آمنت وأعلنت أنك آمنت بالله وصرت معنانياً فلا بد أن تعرف أنك إن كسرت حكماً من أحكام الإسلام بطلب منك أن تؤديه ، أنت حر أن تؤمن أو لا تؤمن ، لكن حين التزمت بالإيمان ، فعليك مسئولية تنفيذ مطلوب الإيمان ، والاحتساب تصرفت أنه من تصرفات الإسلام ، فإذا كنت تشرب خمرًا فأنت حر ، لأنك كافر مثلاً ، لكن أنؤمن ثم نشرب خمرًا ؟ لا أنت بذلك تكسر حداً من حدود الله ، وعليك العقاب .

ولما كانت قد علمت كمال رتبة مطلوب الإسلام ، فعلمت أن نقد مطلوب الإسلام ، ولذلك لم يكلف الله الإنسان قبل أن ينصح عقله بالسور : حتى لا يقال : إن الله قد أخذ أحدا بالإيمان والرمه به قبل أن يكتمل عقله بل ترك الكليف حتى يضيح الإنسان ويكتمل ، حتى إذا دخل إلى دائرة الكليف عرف مطلوباته ، وهو حر أن يدخل إلى الإيمان أو لا يدخل ، لكن إن دخل سيحاسب .

إذن فلا يقل أحد عندما يسمع حكماً من أحكام الدين : « لا إكراه في الدين » ؛ لأن هذه الآية نزلت بشأن العقيدة الأساسية ، فإن اتبعت هذه العقيدة صدر لزاماً عليك أن تؤمن بمطلوباتها . وقد أراد حصوم الإسلام أن يصعدوا هذه العملية فقالوا كذباً وافتراءً : إن الإسلام لانتشر بسيف .

وتقول لهم : لقد شاء الله أن ينشأ الإسلام ضعيفاً ويضعهد السابقون إليه بكل أنواع الاضطهاد ، ويُعذبون ، ويخرجون من ديارهم ومن أموالهم ومن أهلهم ، ولا يستطيعون عمل شيء . إذن هجرة الصعف التي ميث بالإسلام كولا فترة مقصودة .

ويقول لهم أيضا من الذي قهر وأجبر أول حامل للسيف أن يحمل السيف ؟  
 راسلمون صغاف ومخلوبون على أمرهم ، لا يقدرّون على أن يحملوا أنفسهم ، إنكم  
 تقعون في التناقضات عندما تقولون : إن الإسلام بشرٌ بالسيف . وينحذرون عن  
 الجزية رفضاً لها ، فنقول : وما هي الجزية التي يأخذها الإسلام من غير المسلمين  
 كضريبة للدفاع عنهم ؟ لقد كان المسلمون يأخذون الجزية من البلاد التي دخلها  
 الفتح الإسلامي ، أي أن هناك أمثالا بما هو على دينهم . وما دام هناك أناس باقون على  
 دينهم فهذا دليل على أن الإسلام لم يكره أحداً

وقول الله : « لا إكراه في الدين » علمته أن الرشد واضح والغى واضح ، وما دام  
 الأمر واضحاً فلا يأتي الإكراه لأن الإكراه يأتي في وقت اللبس ، وليس هناك  
 لبس ، لذلك يقول الحق : « قد تبين الرشد من الغي » . وما دام الرشد بات من  
 الغي فلا إكراه . لكن الله يعطيك الأدلة ، وأنت أيها الإنسان بعلمك يمكنك أن  
 تخبر ، كي تعرف أنك لو دخلت الدين لالتزمت ، وحوسنت على دحورك في  
 الدين ، فلا تدخل إلا وأنت مؤمن واثق بأن ذلك هو الحق ؛ لأنه سيزن عليه أن  
 تقبل أحكام الدين عليك .

« لا إكراه في الدين » قد تبين الرشد من الغي ، والرشد هو طريق النجاة ،  
 والغى ، هو طريق الهلاك . ويقول الحق إيصاحاً للرشد والغى في آية أخرى من  
 آيات القرآن الكريم

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ  
 لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّبِعُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ  
 يَتَّبِعُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِقَايَتِهِ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الحق يعلم أن المتكبرين في الأرض بغير حق لن يستطيعوا الفوز برؤية آيات  
 الله ودلائل قدرته ، وحق إن رأوا السبل الصحيح لن يسبروا فيه ، وإن شاهدوا  
 طريق الضلال سلكوا فيه لأنهم يكذبون بآيات الرحمن ويعفلون عنها .

والغى - أيضاً - هو ضلال الطريق ، فعندما يسير إنسان في الصحراء ويضل الطريق يقال عنه : « فلان قد غوى » أى فقد الاتجاه الصحيح في السير ، وقد يتعرض لمخاطر جمة كلفاء الوحوش وغير ذلك . ويوضح لنا الحق طريق الرشـد بمنطوق آخر في قوله الحق :

﴿ وَإِنَّمَا لَدَيْكَ أُشْرَارٌ يَمْنَنُ فِي الْأَرْضِ فَأَمَّا أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾

(سورة الجن)

إن الجن قد ظنوا كما ظن بعض من معشر الإنس أن الله لن يبعث أحداً بعد الموت أو لن يرسل رسولا من البشر لهداية الكون . وقد طلب الجن بلوغ السماء فوجدوها قد مُلئت حرساً من الملائكة وشهاً عرقة . وإن الجن لا يعلمون السر في حراسة السماء وهم في ذلك شرٌّ بالبشر أو أراد الله بهم خيراً وهدى . إذن فالرشـد - بضم الراء ونسكين الشين - - والرشـد بفتح الراء وفتح الشين - كلاهما يوضح الطريق للوصول للنجاة . ويقابل الرشـد العى .

ويتابع الحق : « من يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » أولاً . لاحظ أن الحق هنا قد قدم الكفران بالطاغوت ، ثم جاء بالإيمان بالله ، لأن الأمر يتطلب التخلي أولاً والتخلي ثانياً ، لا بد أن يتحلى الإنسان من الطغوت ، فلا بد حل على أنه يؤمن بالله وفي قلبه الطاغوت ، فمن قبل أن يكوى الثوب بفسله ونظفه ، التخلي قبل التحلية .

وما هو « الطاغوت » ؟ إنه من مادة « طعى » ، وكلمة « طاغوت » مبالغة في الطغيان . لم يقل : طغ ، بل طغوت ، مثل جبروت ، والظهور إم أن يُطلق على الشيطان، وإما أن يُطلق على من يعطون أنفسهم حق التشريع فيكفرون وينسبون من يشاءون إلى الإيمان حسب أهوائهم ، ويعطون أشياء سلطة زمنية من عندهم ، ويُطلق أيضاً على السحرة والدجالين ، ويُطلق على كل من طعى وتجاوز الحد في أى شىء ، فكلمة « طاغوت » مبالغة ، وقد تكون هذه الميالة متعددة الألوان ، فمرة يكون الطاعى شيطاناً ، ومرة يكون الطاعى كاهناً ، ومرة يكون ساحراً أو دجالاً ، ومرة يكون حاكماً .

ومادة « الطاعوت » تدل على أن الموصوف بها هو من تزيده الطاعة له طغيانا ،  
عندما يجربك في حاجة صغيرة ، فطبعه فيها فيزداد بتلك الطاعة طغيانا عليك . والحق  
سبحانه يقول :

﴿ فَاتَّخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ٥١ ﴾

( سورة الزخرف )

ويزيد في الأمر حتى يصير طاعيه ، ولا يوجد أحد استهل عمله بالطغيان لعلى ،  
إنما يبدأ الأمر خطوة خطوة ، كأي نظام ديكتاتوري فهرى ، إنه يبدأ به (جس بهس)  
فإن صبر الناس ، أرداد هذا النظام في القسوة حتى يصير طاعونا ، إذن الطاعوت هو  
الذي تزيده الطاعة طغيانا ، ويطلق على الشيطان ؛ لأنه هو الأساس ، وعلى  
الذين يكلمون باسم الدين المستطعة الرسمية ( سواء كانوا كهانا أو غيرهم ) ، وتطلق  
على الذين يسحرون ويدجلون ، لأنهم طغوا بما علموه ؛ [هم يستعملون أشياء  
يتمون بها الناس ، وقد جاءت الكلمة هنا بصيغة المبالغة لاشتغالها على كل هذه  
المعاني ، وإذا استعرضنا الكلمة في القرآن نجد أن « الطاعوت » ترد مذكورة في بعض  
الآحيان ، وقد وردت مؤنثة في آية واحدة في القرآن .

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادَ ٥٢ ﴾

( سورة الزمر )

لقد أوصحت هذه الآية أنهم تركوا كل أنواع الطغيان وأصنافه ، أي إن الذين  
اجسوا الألوان المتعددة من الطغيان هم الذين يتجهون بالعادة لخالفه الله ، وهم  
النسرى « فمن يكفر بالطاعوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » وكلمة  
« استمسك » غير كلمة « تمسك » . لأن « استمسك » تدل على أن فيه مجاهدة في  
المسك ، والذي يتدين يحتاج إن مجاهدة في الدين ؛ لأن الشيطان لن يتركه ،  
فلا يكفي أن تمسك ، بل عليك أن تستمسك ، كلها وسوس الشيطان لك بأمر  
فعلبك أن تستمسك بالدين ، هذا يدل على أن هناك مجاهدة وأخذا وردا .

« فقد استمسك بالعروة » والعروة هي العلاقة . مثلما نقول : « عروة الدلو » ،  
التي تمسكها منه . وهذه عادة مانكون مصبوعة من الحبل الملقوف المتين .

وهو الوثقى « هي تأنيث ( الأوتن ) أى أمر موثوق به ، وقوله « فقد استمسك بالعروة الوثقى » ، قد يكون تشبيهاً بعروة الدلو لأن الإنسان يستخدم الدلو ليأتى بالماء ، وبالماء حياة البدن ، وبالدن حياة القيم .

« فقد استمسك بالعروة الوثقى » كأنه ساعة جاء بكلمة « عروة » يأتى بالدلو فى بال الإنسان ، والدلو تأنيث بالماء ، والماء به حياة البدن ، إذن فهذه تعطينا إحصاءات التصور واضحة : « فقد استمسك بالعروة الوثقى » ، وما دامت « عروة وثقى » التى هى الدين وإيمان بالله ، وما دامت هى الدين وحبل الله فهذه وثقى ، وما دامت « وثقى » فلا انفصام لها ، وعليها أن نعرف أن فيه انفصاماً وفيه انفصام الأول بالفناء والثانى بالثبات .

الانفصام . يسمح الاتصال الداخلى ، مثلما تنكسر اليد لكنها تظل معلقة ، والانفصام : أن يذهب كل جره بعيداً عن الآخر أى فيه بينونة ، والحق يقول : « لا انفصام بها والله سميع عليم » توحى بأن عملية الطاغوت ستكون دائماً وسوسة ، وهذه الرسوسة هى ، الصوت الذى يُغرى بالكلام المعسوس ، ولذلك أخذت كلمة «وسوسة الشيطان» من وسوسة الحمار ، ووسوسة الذهب هى زين الذهب ، أى وسوسة معربة مثل وسوسة الشيطان ، والله عليم بكل أمر ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ  
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُهُمْ مِنَ  
النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا  
خَالِدُونَ ﴾

إن الله وليّ الذين آمنوا ما دم « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك

بالعروة الوثقى ، وكان الحق يشرح ذلك بهذه الآية ، فإدام العبد سيتصل بالعروة الوثقى ويستمسك بها ، وهذه ليست لها انحصام فقد صارت ولايته لله ، وكلمة « ولى » إذا سمعتها هي من « ولى » أى : جاء الشيء بعد الشيء من غير فاصل ؛ هذا يليه هذا ، وما دام يليه من غير فاصل فهو الأقرب له ، وما دام هو الأقرب له إذن فهو أول من يهزغ لينتقد ، فقد بسير جمى ، تسان فإيا الثوب قدسى أناده ؛ لأنه الأقرب منى ، وهو الذى سينجلى .

فلا يوجد فاصل ، وما دام لا يوجد فاصل فهو أول من تناديه ، وأول من يصرخ إليك بدون أن تصرح له ؛ لأن من معك لا تفل له : حذ بيدي ، إنه من نفسه يأخذ بيدك بلا شعور ، إذن فكلمة « الله ولى الدين آمنوا » إذا نظرت إليها وجدتها تصجم أيضاً مع « سمع وعلم » ، فلا يربك أن تناديه ؛ لأن هناك من تصرح عليه لينجلك ، وهو من تصرخ عليه ؛ لأنه سمع وعلم ، « الله ولى الدين آمنوا » .

وكلمة « ولى » أيضاً منها ( مولى ) ومنها ( وال ) ، « ولى » الذين آمنوا ، أى هو الذى يتولى شئوهم وأمورهم ، كما تقول : الوالى الذى تولى أمر الرحمة ، وكلمة « مولى » مرة تطلق على السيد ، ومرة تطلق على خادمه ، ولذلك يقول الشاعر :

مولاك يا مولاي طالب حاجة

أى عندك يا سيدى طالب حاجة ، فهى تستعمل فى معان مترابطة ؛ لأننا قلنا . « ولى » نعى القريب ، فإذا كان العبد فى حاجة إلى شيء فمن أول من ينصره ؟ سيده ، وإذا نادى السيد ، فمن أول مجيب له ؟ إنه خادمه ، إذن فيطلق على السيد ويطلق على العبد ، ويطلق على الوالى ، « الله ولى الدين آمنوا » وقوله الحق : « الدين آمنوا » يعنى جماعة فيها أفراد كثيرة ، كأنه يريد من الدين آمنوا أن يجعلوا إيمانهم شيئاً واحداً ، وليسوا متعددين ، أو أن ولاية الله لكل فرد على حدة تكون ولاية لجميع المؤمنين ، وما داموا مؤمنين فلا تضارب فى الولايات ؛ لأنهم كلهم صادرون وعاعلون عن إيمان واحد ، وسمع واحد ، وعن قول واحد ، وعن فعل واحد ، وعن حركة واحدة .

وكيف يكون « الله ولى الدين آمنوا » ؟ إنه وليهم أى ناصرهم . وعيهم وحييهم



ومعهم ، هو وليهم بما أوصح لهم من الأدلة على الإيمان ، هل هناك حب أكثر من هذا ؟ هل تركنا لسحت عن الأدلة أو أنه لفتنا إلى الأدلة ؟

وتلك هي ولاية من ولايات الله فضل أن يؤمن أوجد لنا الأدلة ، وعندما ما والاما بالمعوم ، وإن حاربنا حصومنا بكن معا ، وبعد ذلك يستمر الولاية إلى أن يعطينا الخراء الأولى في الآخرة ، إذن فهو ولي في كل المراحل ، بالأدلة قبل الإيمان ولي . ومع الإيمان استصحاباً يكون ناصرنا على حصومنا وخصومه وفي الآخرة هو ولياً بالحب والعطاء ويعطينا عطاء غير محدود ، إذن غولايته لا تنهى .

« الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » إنه سبحانه يخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان ، لأن الظلمات عادة تنطس فيها المرائي ، فلا يمكن أن ترى شيئاً إلا إذا كان هناك ضوء يمتد من المرائي أي أشعة تصل إليك ، فإن كانت هناك ظلمة مسمى ذلك أنه لا تأتي من الأشياء أشعة فلا تراها ، وعندما يأتي لنور فأنت تستبين الأشياء ، هذه في الأمور المسحبة ، وكذلك في مسائل لقيم ، « يخرجهم من الضلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجهم من النور إلى الظلمات »

هل هم دخلوا النور يا ربنا ؟ لنا أن نفهم أن المقصود ها هم المرتدون الذين وسوس هم الشيطان فأدخلهم في ظلمات الكفر بعد أن كانوا مؤمنين ، أو « يخرجهم من النور إلى الظلمات » ، أي يحولون بينهم وبين النور فيصنعهم من الإيمان كما يقول واحد .

أما دويت أن ابن أرحم من ميراثه ؟ إن معنى ذلك أنه كان له الحق في التوريث ، وأخرجه والده من الميراث وهذا ينطبق على الذين تركوا الإيمان ، وفصلوا الظلمات . والقرآن يوصح أمر الخروح من الظلمة إلى النور ومن الكفر إلى الإيمان في مواقع أخرى ، كقول سيدنا يوسف للشاين اللذين كانا معه في السجن :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَبَانِ قَالَ لَاحِدُ مِمَّا إِنِّي آرِسْتِي أُخْرِجُ خَيْرًا وَقَالَ الْآخَرُ

إِنِّي آرِسْتِي أَنُحِلَ فَرَّقَ رَأْسِي خَيْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَلَوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ

مِنَ الْمُتَحْسِنِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأٌ شَكٌّ يَخْشَوْنَهُ قَبْلَ  
أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَيْكُمَا مَعْنَى رَبِّي إِنْ رَزَعْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ  
هُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴿

(سورة يوسف)

فهل كان سيدنا يوسف في ملة القوم الكافرين ثم تركها ؟ لا ، إنه لم يدخل أساساً  
إلى ملة القوم الذين لا يؤمنون بالله . إن هذه الملة كانت أعلامه ، لكنه تركها ورفض  
الدخول فيها ونسك بملة ابراهيم عليه السلام . وفي التعبير ما فيه من تأكيد حرية  
الاحتيار . وهناك آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَسَوِّيْكُمْ وَيُمْسِكُ مِنْ يَدِّهِ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ نَفْسٌ  
عَلَيْهِ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٢٥﴾﴾

(سورة النحل)

إن معنى الآية أن الله قد خلقنا جميعاً ، وقدر لكل منا أجلاً ، فما من يموت  
صغيراً ، وما من يبلغ أَرْدَلِ العمر ، فيعود إلى الضعف ونقل حلايا مشاطه فلا يعلم  
ما كان يعلمه . وليس معنى الآية أن الإنسان يوجد في أَرْدَلِ العمر ثم يرد إلى الطفولة

وعندما يقول الحق : «والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى  
الظلمات» فالخلق أورد هـ كلمة أولياء عن طاعوت ، لأن الطاغوت كما قلنا ألوان  
متعددة ، الشيطان طاعوت ، والدجال طاعوت ، والساحر طاعوت . وجاء الحق  
بالخير مفرداً وهو الطاغوت لئلا جمع وهو أولياء ، ووصف هؤلاء الأرباء للطاغوت  
بأنهم يخرجون الذين كفروا من النور إلى الظلمات .

لقد أورد الله الطاغوت وأورد بالجمع الأفراد الذين ينضم الطاعوت إلى  
الظلمات . ولذلك لم يقل الله هنا : «طواعيت» بدلاً من طاعوت ؟ إن الطاعوت كلمة  
تم معاملتها هنا كما نقول : «قلان عدل» أو «الرجلان عدل» أو «الرجال  
عدل» . وعلى هذا القياس جاءت كلمة طاعوت ، فالشيطان والدجال والكاهن



للولد . أتصرب أمك ! ها الهمزة جاءت لا لتستفهم وإنما أتت تنكر هذه العملة ، لأن الفعل بعدها مثبت وهو : تضرب . ، وجاءت الهمزة قبله تنعى : همزة إنكار ، للتقريع . إذن فالإنكار نعى بتقريع إذا دخلت على فعل منعى .

ومدام الإنكار نعى والفعل بعدها منعى فكأنك سميت النعى ، إذن فقد أثبتته ، كأنه سبحانه عندما يقول للرسول صلى الله عليه وسلم . « ألم تر » فالمقصود « ألب رأيت » . ولماذا لم يقل له : أرايت ؟ لقد جاء بها بأسلوب النعى كى تكون أوقع ، فقد يكون مجيئ الإثبات تلقياً للمسئول ، فعندما يقول لك صديق : أنت لم تسأل - غنى وأنت تهملنى . فأنت قد ترد عليه قائلاً : ألم أسألك وأنت صعب ؟ ألم آخذ بيدك وأنت مريض ؟

لقد سبق أن قدمت خدماتك لهذا الصديق ، ولكك تريد أن تنكر النعى الذى يقوله هو ، وهكذا نعلم أن نعى النعى إثبات ، ولذلك نحن نأخذ من قوله تعالى من هذه العبارة « ألم تر » على معنى : أت رأيت ، والرؤية تكون بالعين . فهل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو المحاطب الأول بالقرآن الكريم من ربه - هل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحادثة أيام إبراهيم ؟ طبعاً لا ، فكان « ألم تر » ها تأتى بمعنى : ألم تعلم .

ولماذا جاء بـ « ألم تر » ها ؟ لقد جاء بها لنعلم أن الله حين يقول : « ألم تعلم » فكأنك ترى ما يحرك به ، وعليك أن تأخذه على أنه مصدق كأنك رأيت بعينك . فالعين هى حاسة من حواسك ، والحاسة قد تحدع ، ولكن ربك لا يحدع ، إذن فد « ألم تر » نعى . « ألم تعلم علم يقين » ، وكأنك قد رأيت ما يحرك به الله ، وبذلك يقول نعالى للرسول .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَعَلْ رَبُّكَ يَتَخَبَّ الْعَيْلَ ﴾

( سورة العيل )

والرسول ولد عام العيل . فلم ير هذه الحادثة ، وكان الله يحمره بها ويقول له : ألم تعلم ، وكأنه يقول له . اعلم علما يقيناً كأنك تراه ؛ لأن ربك أوثق من عييك ،

وعندما يقال . « ألم تر » فالمراد بها « ألم تر كذا » ، لكن الحق قال . « ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه » واستعمال حرف « إلى » هنا يشير إلى أمر عجيب قد حدث ، ومثال ذلك ما يقوله أحيانا . « ألم تر إلى ريد يفعل كذا » .

فكان ما فعله ريد أمر عجيب ، وكأنه يبه ها إلى الالتفات إلى نهاية الأمر ، لأن « إلى » تفيد الوصول إلى غاية ، فكأنها مسألة بلغت النفاذ في العجب ، فلا تأخذها كأنت رأيها فقط ، ولكن انظر إلى نهايتها فيما حدث والحق يقول هنا . « ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه » وه إلى « جاءت هنا ليدل على أنه أمر يبلغ من العجب غاية بعيدة ، وهو بالفعل قد بلغ من العجب غاية بعيدة ، والحق سبحانه وتعالى لم يقل لنا من هو ذلك الإنسان الذي حاج إبراهيم في ربه ، لأنه لا يعنى الشخص سواء كان السمروذ أو غيره .

فإذ ذهب بعض المفسرون إلى القول : إنه ملك واسمه السمروذ . فإننا نقول لهم : شكراً لاجتهادكم ، ولكن لو شاء الله لتحديد اسم الرجل لحدده لنا ، والذي يحتمل هو أنه واحد خرج عن رسول الله إبراهيم عليه السلام وجادله في هذه المسألة ، والشخص هنا ليس ضرورياً ، والحق سبحانه وتعالى حينما يريد شيوع الأمر وإمكان حدوثه في أي زمان أو مكان فإن الله لا يشخص الأمر ، فأي إنسان في أي مكان قد يحتاج أي مؤس . وليس كذلك الأمر بالسمة لأي شخص أو تحديد ، ومثال ذلك هؤلاء الذين يريدون أن يرموا قصة أهل الكهف ، ويتساءلون أين ومتى ، وكم عندهم ، ومن هم ؟

ونقول : لو جاءت واحدة من هؤلاء لعادت القصة ، لأنه لو حدثنا زمانها متى واحد يقول لك مثل ذلك الرمان الذي حدثت فيه القصة كان يسمع بها . ولو حدثنا المكان فيقول آخر : إن المكان كان يسمع بهذه المسألة . ولو حدثنا الأشخاص بأسمائهم فلان وفلان ، فيقول ثالث : إن مثل هذه الشخصيات يمكن أن يصدر منها مثل هذا السلوك وأرى له بقوة إيمان هؤلاء ؟

والحق لم يحدد الرمان والمكان والأشخاص وجاء بها مبهمه ليدل على أن أي فتية في

أى زمان وفى أى مكان يقولون ما يقولون ، ولو شخصها فى واحد لصد المراد . لنظر  
إلى دقة الحق حين صرنا مثلاً للذين كفروا بامرأة نوح وامرأة لوط حين قال جمل  
وعلا :

﴿ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قُلُوبَيْنِ كَفَرُوا أَزْوَاجُ نُوحٍ وَأَزْوَاجُ لُوطٍ كَانَتِ تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا  
صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ اقْنَطِي عَنِ الدُّهُوبِ ۝ ﴿١﴾ ﴾  
( سورة النجم )

ولم يحدد لنا اسم امرأة من هاتين المرأتين ، بل ذكر الأمر المهم فقط ، وهو أن كلا  
منها روحه لرسول كريم ، ولكن كلا عنها أصرت على الكفر فدخلتا النار . ولكن  
الحق سبحانه وتعالى حين أراد التشخيص بحادث لن يتكرر فى أى زمان أو مكان  
جاء بذكر لسيده مريم بالتشخيص والتحديد الوصح حين قال :

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتَ قَرْنَهَا فَمَنَحْنَاهُ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ  
رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الظِّمْمُ ۝ ﴿١٢﴾ ﴾

( سورة النجم )

لتحديد الحق مريم بالاسم والحادث لماذا ؟ لأن الواقعة غير قابلة للتكرار من أية  
امرأة أخرى . التشخيص هنا واجب ، لأنه لن تلد امرأة من غير زوج إلا هذه ، إنما  
إذا كانت المسألة متكررة فى أى زمان أو مكان فهو سبحانه يأتى بوصفها العام ، ومثال  
ذلك قول الحق : « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم » فلم يقل لنا : من هو ؟ و « حاج »  
أصلها « حاجج » ، مثل « ناس » و « شارك » . وعندما يكون هناك حرفان مثلاً ،  
صحن نسكى الأول وندغم الثانى فيه وذلك للتخفيف ، فتصير ( حاجج ) ، و « حاج »  
من مادة « فاعل » التى تأتى للمشاركة ، وحتى معهم معنى « المشاركة » . إليكم هذا  
المثال :

نحن نقول : قاتل زيد عمراً ، أو نقول : قاتل عمرو وريداً ، ومعنى ذلك أن كلا  
منهما قد قاتل ، وكلاهما فاعل ومفعول فى الوقت نفسه ، لكنا غلبنا جانب الفاعل  
فى واحد ، وجانب المفعول فى الثانى . برغم أن كلا منهما فاعل ومفعول معاً

ومثال آخر ، حين نقول ، شارك ريد عسراً ، وشارك عمرو زيداً ، إذن فالمفاعلة جاءت من الاثنين ، هذا فاعل وهذا مفعول ، لكننا عادة نغلب القاعية فيمن بدأ ، والمفعولية في الثاني ، وإن كان لكى فاعلاً أيضاً ، ولذلك يقول الشاعر عندما يريد أن يشرح حال إنسان يعيش في مكان فيه حيات كثيرة ومتحرراً من أن حية تلدعه فقال :

قد سالم الحيات منه القدم  
الأفعوان والشجاع القسم

إن الشاعر هنا يصف لنا إنساناً سار في مكان ملء بالحيات ، وعادة ما يخاف الإنسان أن تلدعه حية ، لكن هذا الإنسان الموصوف في هذا البيت يجد أن الحيات قد سالت قدمه ، أى لم تلدعه لأنه لم ينجح ، والشعاع عادة لا تندع إلا من يبدأها بالإهانة . نجد هنا أن الفاعل هو الحيات ؛ لأنها سالت قدمه ويصح أيضاً أن نقول : إن القدم هى التى سالت الحيات

وبحين نعرف من قواعد اللغة ما درسناه قديماً ما يسمى بالبدل ، والبدل يأخذ حكم البدل منه ، فإن كان البدل منه مرفوعاً جاء البدل مرفوعاً ، وإن كان البدل منه منصوباً جاء البدل منصوباً ، وإن كان البدل منه محروفاً كان البدل كذلك . هنا جاء بـ « الحيات » في هذا البيت من الشعر مرفوعة ولكن الأفعوان جاء في البيت منصوباً مع أنها بدل من مرفوع هو « الحيات » لأنه لاحظ ما فيها أيضاً من المفعولية فأتى بها منصوبة . كما أن بالإمكان أن نقرا « الحيات » بالنصب و « القدم » بالرفع لأن كلا منهما فاعل ومفعول من حيث المسألة .

وكذلك في قول الحق سبحانه : « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم في ربه » نحن نلاحظ أن كلمة « إبراهيم » تلى في الآية الكريمة منصوبة بالفتحة ، أى يغلب عليها المفعولية . فمن إذن الذى حاج إبراهيم ؟ إنه شخص ما ، وهو الفاعل ؛ لأنه الذى بدأ بالمناجاة ، وهكذا تدلنا الآية الكريمة ، وتصف الآية ذلك الرجل « أن آتاه الله الملك ، أى أن الرجل قد وهبه الله الملك وقد حاج هذا الرجل إبراهيم في ربه ، فكان هذا الرجل هو الذى بدأ الحجاج قائلا لإبراهيم من ربك ؟

فقال إبراهيم عليه السلام : « ربى الذى يحى ويميت » وهذه هى براعة القرآن فى أن يترك الشيء ثقة بأن السمع يرد كل شيء إلى أصله ، فقوله الحق : « إذ قال إبراهيم ربى الذى يحى ويميت » فكأن الذى حاح إبراهيم سألته : من ربك ؟ فقال إبراهيم : « ربى الذى يحى ويميت » .

ولما أن يلاحظ أن هذه الآية قد جاءت بعد قوله الحق فى الآية السابقة : « الله ولى الذين آمنوا » ، والولاية هى النصر والمحبة والمعونة ، فيريد سبحانه أن يبين لنا كيف أعان الله إبراهيم على من حاجه ، إلا أن الذى حاح إبراهيم دخل فى متاهات السفسطة بعد أن سمع قول إبراهيم : « ربى الذى يحى ويميت » ، وقد جاء الحق بـ « يحى ويميت » ؛ لأن تلك القضية هى التى لم يدع أحد أنه معها ، ولم يدع أحد أنه شريك فيها ، حتى الكافرون إذا سألتهم : من الذى نخلق ؟ يقولون الله .

إذن فهذه قضية ثابتة إلا أن الخصم الذى حاح إبراهيم أراد أن ينقل المحاجة نقلة سمطائية والسفسطة كما نعلم هى الكلام الذى يطيل اجتره بلا نهاية

وقال الرجل الذى يحاج إبراهيم عليه السلام : إذا كان ربك الذى يحى ويميت فلما أحى وأميت

فسأله إبراهيم عليه السلام : كيف تحى أنت وتميت ؟

قال الرجل : أنا أقدر أن أقتل ما عدى من مساحين وأقدر ألا أقتلهم ، فالذى لم أقتله كائن حى ، والذى قتلته فقد أمته

ولم يقل سيدنا إبراهيم لتفق أولاً ما الحياة ؟ وما الموت ؟ ذلك أن إبراهيم حليل الرحمن لم يشأ أن يطيل هذه المحادثة ، فجاءه له بأمر يلجمه من البداية وينتهى الحد ، فقال له : « إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأنت ما من المغرب فبهت الذى كفر » وهكذا انتهى سيدنا إبراهيم هذا الحد كان من الممكن أن يدخل معه سيدنا إبراهيم فى جدل ، ويقول له : ما هى الحياة ؟



ونحن نعرف أن الحياة هي إعطاه المادة ما يجعلها متحركة حساسة مرنة مخشاة ، أما الموت فهو إخراج الروح من الجسد ، فالذى يقتل إنساناً ، إنما يخرج روحه من جسده ، والقتل يحتلف عن الموت ، لأن الموت خسوف الروح من الجسد بدون جرح ، أو نقض بنية ، أو عمل يفعله الإنسان في بدنه كالانتحار وقد يكون الإنسان جالساً مكانه ويتنهد صريراً فيموت ، ولا أحد قادر قبل ذلك أن يقول له : مت فيموت ، هذا هو الموت ، لكن إلهاق الروح بجرح جسم أو نقض بنية فهذا هو القتل وليس الموت ، ولذلك يجعل الله القتل مقابلاً للموت ، في قوله تعالى

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ قُلْنِ بِعُزِّ اللَّهِ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَنْ كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُرَجَّلًا وَمَنْ يُؤَدِّ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُورَتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُؤَدِّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُورَتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)﴾

( سورة آل عمران )

وقد أوضح لنا الله سبحانه وتعالى الفرق بين الموت والقتل ، وجعل كلا منهما مقابلاً للآخر ، فعندما أتبع أن رسول الله قد قتل ، فم بعض المسلمين بالارتداد إلى الكفر ، فأنكر الله عليهم ذلك قائلاً : إن محمداً رسول من عند الله قد مات من عبه المرسلون أفإن مات أو قتل رجعت من الإيمان للكفر ، ومن يعمل ذلك فلنما يضر نفسه ، والثواب عند الله لثلاثين على مهج الله الشاكرين لنعمة ، أوضح لنا الحق أن موت أى إنسان لا يمكن أن يحدث إلا بإذن الله ، وقد كتب الله ذلك في كتاب مشتمل على الأجل

ويريد الله أن يُنبها ويُلفتنا إلى حقيقة مهمة وهي أن الرسل في جملهم مع أهمهم أو مع المناقشين لهم لا يكون الهدف أن النبي يظهر بالعلية وإنما يكون الهدف بالنسبة للرسول أو النبي أن يصل إلى الحقيقة ، ولذلك لم يتوقف إبراهيم عليه السلام مع

الرجل الذي يحأجه في الله عند نقطة الإحياء والإماتة ؛ لأنه رأى في منقشة الرجل لوبا من السفطة .

وعلياً ونحن نتدبر آيات القرآن بالخواطر الإيمانية أن نفهم الفرق بين الإماتة والقتل . الصحيح أن الإماتة والقتل يشتركان في أمر واحد وهو خروج الروح من الجسد . والإماتة تختلف عن القتل بأنه لا يفقد عليها إلا واجب الحياة الذي وضع مقومات خاصة في الية الإنسانية حتى تسكنها الروح ، وهو القادر على أن يلب الروح بأمر غير محس

أما القتل فهو أن تخرج إنساناً فيموت ، أو تنفص بينته ، تكسر له رأسه مثلاً ، أما الإماتة ، فهي أن تنفص حياته بمجرد الأمر دون أن نقره ، هل أحد من البشر يقدر على هذه ؟ لا . إذن فالذي حاج إبراهيم لم يحس الذي قال ، إنه سيتركه بدون حقوة ، إنه لم يقتله ، لكنه أبقي الحياة التي كانت فيه ، هذا إذا أردنا أن ندخل في جدل \*

والله قد جعل القتل مقابلاً للموت ، صحيح أنها يستهين بأن لا روح ، لكن هناك فرق بين أن تؤخذ الروح بدون هذه الوسائل وأن تترك الروح البدن لأن بيته قد تهدمت . وإياك أن تظن أن الروح لا تنصع لقوانين معينة ، إن الروح لا تحل إلا في مادة خاصة ، فإذا انتهت المقومات الخاصة في المادية فالروح لا تسكنها ، فلا تقل إنه عندما صر به على رأسه أماته ! لا ، هو لم يخرج الروح لأن الروح بمجرد ما انتهت الية تنحس .

والمثال الذي يوضح ذلك لنعرض أن أمامنا نوراً ، إذا كسرت الزجاجه يذهب النور هل الزجاجه هي النور ؟ لا ، لكن الكهرباء لا تظهر إلا في هذه الزجاجه ، كذلك الروح لا توجد إلا في بنية لها مواصفات خاصة ، إذن فالقاتل لا يخرج الروح ولكنه يهدم الية بأمر محس ، فالأمر الغيبى وهو الروح لا يسكن في بنية مهدومة .

« ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك » ، انظر إلى الطغيان ،

أنجعل إيتاء الملك وهو نعمة وسيلة إلى التمرد على من أنعم عليك هذا ؟ أنجعل شكر النعمة بأنك تخالف المعجم ؟ من اندى أطره ؟ أأطره أن آتاه الله الملك ؟ وكيف يعين الله واحداً ليس مؤثماً به ؟ والنك - بمعنى الأمر والسب - إنما يكون للمسلم عن الله ، إنما الملك الآخر منك السلطان بأن يحكمكم إسائنا على جماعة ، فمن الحائر أن يكون مؤثماً ، وأن يكون كافرأ

وقوله « أن آتاه الله الملك » إذ قال إبراهيم ربى الذى يحى ويميت « هو جواب على من قال « من ربك » فجاءته إجابة إبراهيم عليه السلام « ربى الذى يحى ويميت فقال أنا أحى وأميت » وعرفنا ما فى هذا الأمر من سفسطة ، فلم يقل له إبراهيم أنت تحى وتميت ، بل ينفقه إن أمر آخر ، كأنه قد قال له - انرا الأمر العيبى وهو الروح ، وتعال للأمر المشهود « قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر »

ولأن الله ربى الدين أمرو فهو سبحانه لم يلهم المخاح أن يرد ؛ كان يستطيع أن يقول له « اجعل من يأتى بها من المشرق يأتى بها من المغرب ، لكنه لم يفعل » بل يدل على أنه عيبى أو يكون دكياً فيقول « رب الرب الذى معه هذا الشكل قد فعله ، فخاف « إذن قد والله ربى الدين موا » حملاً . وهو سبحانه « بحرحهم من الظلمات إلى النور »

وما معنى كلمة « بهت » ؟ إن البهت يأخذ ثلاث صور . الصورة الأولى . الدهشة ؛ نقله فيما يكر أن تحدث فيه محادثة إلى ما لا تحدث فيه محادثة وجدل ، أراد أن يجد أمراً يرد به فلم يقدر ، مثلما قال أنا أحى وأميت ، لقد دهش ، وأول ما فاحشه هو الدهش ، ثم كان المحير ، أراد أن يجد فى مخرج من هذه الورطة فلم يجد ، إذن فقد هُزم . فهذه هى نهاية البهت . فبهت « تعنى أنه دهش أولاً ، فتعبرنى أن يرد ثانياً ، فكان نتيجة ذلك أنه هُزم ثالثاً ، وهذا أمر ليس بعجيب ؛ لأنه مادام كاهراً فليس له ولى ، أو وليه من لا يقدر « أوليؤهم الطغوت » ، أما إبراهيم حليل الرحمن فولى الله

ويختم الحق الآية بقوله : « والله لا يهدي القوم الظالمين » لا يهديهم إلى برهان ،

ولا إلى دليل ، ولا إلى حجة ، لأن وليهم الشيطان ، والله لا يهدي العموم الضالين ، ولاية التي نأت من بعد ذلك كلها ستتدخل في الحياة والموت ، ومن المهم أن الآيه تدخل في الحياة والموت كي لا نفهم أن إبراهيم إنما ترك الحاجة مع ذلك الذي حاحه في أمر الموت والحياة هرباً من الكلام فيها ، بذلك يريد الله أن يسترق تلك القصص استنبه في قصص متعددة ، ويسط الحق القصص التي عدل عنها إبراهيم وهي الموت والحياة يقول سبحانه

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا  
قَالَ أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ نَعْدُ مَوْتَهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ  
ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَيْفَ لَيْتَ قَالَ لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ  
قَالَ نَلَّ لَيْتُكَ مِائَةَ عَامٍ فَأَنْظِرْ إِلَى طَعَامِكَ  
وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظِرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلْيَجْعَلَكَ  
آيَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظِرْ إِلَى الْوَعْدِ كَيْفَ  
تُنِيرُهَا ثُمَّ تَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ  
أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥﴾

وعندما نظر إلى بداية الآية مجدها تبدأ بـ « أو » ، وما بعد « أو » يكون معطوفاً على ما قبلها ، مكان الحق يريد أن يقول لنا « أو » ( ألم تر ) إلى مثل الذي مر على قرية

وعندما تسمع كلمة « قرية » فإنها تعيد تجمع جماعة من الناس يسكنون في مكان

محدود ، ونفهم أن الذي مر على هذه القرية ليس من سكانها ، إنما هو قد مر عليها سياحة في رحلة . ولاحظ كذلك أن الحق سبحانه لم يشأ أن يأتي لها باسم القرية أو باسم الذي مر عليها .

قال البعض : إنه هو أرميلاء بن حلفيا أو هو الخضر ، أو هو عرير ، وقد قلنا من قبل : إنه إذا أجمع الحق فمعتاة لا شحص الأمر ، فبمكس لأى أحد أن يحدث معه هذا .

« أو كالتى مر على قرية » . وقالوا . إنها بيت للقدس ، وهى خاوية على عروشها » وحتى نفهم معنى خاوية على عروشها ، لنا أن نعرف أننى عندما أقول : « أنا خويان » أى « أنا بطنى خاوية » : « جوهان » ف « خاوية » المقصود بها أنها قرية خالية من السكان ، وقد تكون أبنيتها منصوبة ، لكن ليس فيها سكان ، والحق بقوله من تلك القرية . إنها خاوية على عروشها ، وه العرش « يُطلق على البيت من الخيام ، ويطلق كما نعرف على السقف ، فإذا قال : « خاوية على عروشها » أى أن العرش قد سقط أولا ، ثم سقطت الجدران عليه ، مثلها نقول فى لغتنا العامة « جاب عاليها على رجليها »

وعندما يمر إنسان على قرية مثل هذه القرية فلا بد أن مشهدها يكون شيئاً لافتاً للأنظر ، قال « أو يُجيبى هذه الله بعد موتها » فكأنه يسأل عن القرية ، وعن إماتة وإحياء الناس الذين يسكنون القرية . والحق حين يذكر القرية فى القرآن فهو يقصد فى بعض الأحيان الحديث عن أهلها مثل قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُفَّ فِيهَا وَآمَرَ أَلَيْهِ أَقْلًا فِيهَا وَإِنَّا لَنَصِفُونَ ﴾ (٨٧)

( سورة يوسف )

إن أناء يعقوب عليه السلام حين عادوا من مصر وتركوا أحابهم الأصغر مع يوسف عليه لسلام قالوا لأبيهم : أرسل من يأتيك شهادة أهل مصر وأسان بنقت رملاء الذين كانوا معن فى القافلة ، وسيقولون لك إما قد تركنا أحابنا بمصر لكن سؤال الذى مر على القرية الخاوية على عروشها هو سؤال عن أهلها .

«أَنْ يُجِىَ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَسَاعَةً تَسْمَعُ «أَنْ» فَهِيَ تَأْتِي مَرَّةً بِمَعْنَى «كَيْفَ» ، وَمَرَّةً تَأْتِي بِمَعْنَى «مِنْ أَيْنَ» ، وَالْمُنَاسِبُ لَهَا هَا هُوَ أَنْ يَكُونَ السُّؤَالُ كَالْتَالِي . «كَيْفَ يُجِىَ اللَّهُ هَذِهِ بَعْدَ مَوْتِهَا» ؟ وَقَوْلُهُ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُؤْمِنٌ ، فَهُوَ لَا يَشْكُ فِي أَنَّ قَضِيَّةَ الْإِحْيَاءِ مِنَ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا يَرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ الْكَيْفِيَّةَ ، فَكَانَ مُؤْمِنًا بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يُجِى وَيُحْيِي ، وَهَذِهِ سَنَأَتِي فِي قِصَّةِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ

### ﴿لَوْ زِدَ كَيْفَ تَحْيِ الْمَوْتُونَ﴾

(مِنْ آيَةِ ٢٦٠ سُورَةِ الْبَقَرَةِ)

هُوَ لَا يَشْكُ فِي أَنَّ اللَّهَ يُجِى الْمَوْتُونَ ، إِنَّمَا يَرِيدُ أَنْ يَرَى كَيْفَ تَسْمُ هَذِهِ الْحِكَايَةُ ، لِأَنَّ الَّذِي يَرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفِيَّةَ الشَّيْءِ ، لَا يَدَّ أَنَّهُ مُتَعَجِّبٌ مِنْ وَجُودِ هَذَا الشَّيْءِ ، فَيَتَسَاءَلُ . كَيْفَ نَمَّ عَمَلُ هَذَا الشَّيْءِ ؟ مِثْلُهَا يَرَى الْأَهْرَامَ ، وَيَحْسُ لَا يَشْكُ أَنَّ الْأَهْرَامَ مَبْنِيَّةٌ بِهَذَا الشَّكْلِ ، لَكِنَّا نَتَسَاءَلُ فَقَطْ . كَيْفَ بَنَوْهَا ؟ كَيْفَ بَنَوْا الْحِجَارَةَ بِضَخَامَتِهَا لِأَعْلَى وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَقَالَاتٌ أَوْ رَوَافِعٌ آلِيَّةٌ ؟ إِذَا فَحَسَّ نَتَعَجَّبُ فَقَطْ ، وَنَتَعَجَّبُ فَرَعَ الْإِيمَانَ بِأَحْدَثِ .

وَلِسُّؤَالُ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ مَعْنَاهُ التَّيَقُّنُ مِنَ الْحَدِثِ ، فَقَوْلُ الْحَقِّ «أَنْ يُجِىَ هَذِهِ اللَّهُ» . . . يَعْنِي : كَيْفَ يُجِىَ اللَّهُ هَذِهِ الْفَرِيَّةَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَكَانَ الْقَائِلُ لَا يَشْكُ فِي أَنَّ اللَّهَ يُجِى ، وَلَكِنَّهُ يَرِيدُ الْكَيْفِيَّةَ ، وَالْكَيفِيَّةُ لَيْسَتْ مَنَاطُ إِيمَانٍ ، فَالَّذِي لَمْ يَنْهَ عَنْ لَتَعْرِفَ عَلَى الْكَيْفِيَّةِ ، فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّنَا نُوَسِّسُ بِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِجْبَادِ هَذَا الْحَدِثِ .

وَأَضْرَبَ هَذَا الْمَثَلَ - وَفِي الْمَثَلِ الْأَعْلَى - فَمُصَنِّمُ الْمَلَابِسِ عِنْدَمَا يَقُومُ بِتَمْصِيلِ أَرْبَاعِ جُمْلَةٍ ، أَنْتَ تَرَاهُ ، فَأَنْتَ تَتَيَقَّنُ مِنْ أَنَّ صَانِعَهَا ، وَلَكِنَّكَ تَتَعَجَّبُ فَقَطْ مِنْ دَقَّةِ الصَّنِيعَةِ ، وَتَقُولُ لَهُ : يَا اللَّهُ كَيْفَ عَمِلْتَ هَذِهِ ؟ كَأَنَّكَ قَدْ عَشَقْتَ الصَّنِيعَةَ ! فَتَشَوَّقُ إِلَى مَعْرِفَةِ كَيْفِ صَارَتْ ، فَمَا بَالُنَا بِصُنْعَةِ الْحَقِّ تِبَارَكَ وَتَعَالَى ؟ إِنَّكَ تَتَذَهَّشُ وَتَتَعَجَّبُ تَتَمَشَّشُ فِي ظِلِّ السَّرِّ السَّائِعِ مِنَ الْخَالِقِ فِي الْمَخْلُوقِ ، وَتَرِيدُ أَنْ تَتَنَعَّمَ بِهَذِهِ النِّعَمِ

وَمِثَالُ آخَرٍ - وَفِي الْمَثَلِ الْأَعْلَى مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ - أَنْتَ تَرَى مِثْلًا لَوْحَةً رَسَمَهَا رَسَامٌ ، فَتَقُولُ لَهُ : يَا اللَّهُ كَيْفَ مَزَجْتَ هَذِهِ الْأَلْوَانِ ؟ أَنْتَ لَا تَشْكُ فِي أَنَّهُ قَدْ مَزَجَ

الألوان . بل نريد أن تسعد نفسك بأن تعرف كيف رسمها ، إذن فقله وقل  
إبراهيم بالسؤال في الإحياء والإماتة فيما يأتي ليس معناه أنه غير مؤمن بل هو عاشق  
ومشتاق لأن يعرف لكيفية ، ليعيش في جو الإبداع الجمالي الذي أنشأ هذه الصنعة

ونعلم أن إحياء الناس سببته عليه إحياء القرية ، فالإنسان هو باعث الحركة  
التي تعمّر الوجود ، والناس لهم حياة ولهم موت ، والقرية بأنقاصها وجدوانها  
وعروشها لها حياة ولها موت . وعندما سأل العبد هذا السؤال ، أراد الله أن تكون  
الإجابة تجربة معاشة في ذات السائل ، لذلك يأتي القرآن بالقول « فأما الله مائة  
علم »

إن صاحب السؤال قد أراد أن يعرف الكيفية ، وطلبه هو إيمان دليل ، ليصبح فيما  
بعد إيماناً بواقع مشاهد « فأما الله مائة علم » لقد جعل الله الأمر والتجربة في السائل  
ذاته وهذا إخبار الله . لقد أماته مائة عام ، والعام هو الخول ، وقد سموا « الخول »  
عاماً ، لأن الشمس تعوم في الملك كله في هذه الليلة ، والعموم شخ ، والحق يقول :

﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

( من الآية ٢٠ سورة النمل )

ولذلك نسبه عاماً . « فأما الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت يوماً أو  
بعض يوم » ، فكان الله قال له كلاماً كما كلم موسى ، أو سمع صوتاً أو ملكاً أو أن  
أحدًا من الموجودين رأى التجربة . فالله أن هناك سؤالاً وجواباً . ويصير الحق  
سبحانه بحوار دار في هذا الشأن ، السؤال هو : كم لبثت ؟ فأجبت الرجل لبثت  
يوماً أو بعض يوم .

وإجابة الرجل تعني أنه قد تشكك ، فقد وجد اليوم قد قارب على الانتهاء أو  
انتهى ، أو أنه عندما رأى الشمس مشرقة أجاب هذه الإجابة : « لبثت يوماً أو بعض  
يوم » أو يكون قد قال ذلك ، لأنه لا يستطيع أن يتحكم في تقدير الزمن . فهل هو  
صادق في قوله أو كاذب ؟ إنه صادق ، لأنه لم ير شيئاً قد تغير فيه ليحكم بمقدار  
التغير ، فلو كان قد خلق لحيته مثلاً ، وفهم بعد ذلك ليجد لحيته قد طالت ، أو قد

نام بشعر أسود ، وقام بعد ذلك بشعر أشيب ، فلو حدثت أية تعيرات فيه لكان قد لسهاء ، لكنه لم يجد تغيراً .

فيذا كان جواب الحق ؟ قال الحق : « بل لبثت مائة عام » . إننا هنا أمام طرفين ويتكاد الأمر أن يصبح لغزاً ، طرف يقول : « لبثت يوماً أو بعض يوم » . ورف يقول : « بل لبثت مائة عام » . ويريد أن نحل هذا اللغز . إن الحق سبحانه صادق ومُزّاء ، والعبد المؤمن صادق في حدود ما رأى من أحواله

ونريد دليلاً على هذا ، ودليلاً على ذلك . يريد دليلاً على صدق العبد في قوله . « لبثت يوماً أو بعض يوم » . ونريد من الحق سبحانه وتعالى دليل احتمنان لا دليل برهان على أن الرجل قد مات مائة عام وعاد إلى الحياة .

ونقول : إن في القصة ما يزيد « لبثت يوماً أو بعض يوم » ، وما يزيد « بل لبثت مائة عام » ، فقد كان مع الرجل حمارة ، وكان معه طعامه وشرابه من عصير وعجب ونبي . فقال الحق سبحانه وتعالى : « لبثت مائة عام » ، وأراد أن يدل على الصدق في النسيب معاً قال . « فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه » ، ونظر الرجل إلى طعامه وشرابه فوجد الطعام والشراب لم يتغيرا ، وهذا دليل على أنه لم يمكث إلا يوماً أو بعض يوم ، وبذلك ثبت صدق الرجل ، بقيت قضية « مائة عام » .

فقال الحق : « وانظر إلى حمارك ونحوها لك آية للناس » ، وهذا القول يدل على أن هنا شيئاً عجيباً ، وأراد الله أن يبين له بنظرة إلى الحمار دليلاً على صدق مرور مائة عام ، ووجد الرجل حمارة وقد تحول عظاماً مبعثرة ، ولا يمكن أن يحدث ذلك في زمن قصير ، فإن موت الحمار أمر قد يحدث في يوم ، لكن أن يرم جسمه ، ثم يتهى لحمه إلى رماذ ، ثم يبقى العظام مبعثرة ، فذلك قضية تريد زماناً طويلاً لا يتسع له إلا مائة عام ، فكان النظر إلى الحمار هو دليل على صدق مرور مائة عام ، والنظر إلى الطعام دليل على صدق « يوماً أو بعض يوم » ،

فالقضية إذن قضية عجيبة ، وكيف طوى الزمن في مسألة الطعام ، وكيف بَط



الرمس في مسألة الحمار إنه سبحانه يظهر لنا أنه هو القابض الباسط ، فهو الذي يقبض الرمن في حق شيء ، ويبسط الزمن في حق شيء آخر ، والشيطان متعاصر ن معا . وتلك العملية لا يمكن أن تكون إلا لقدرة حليلة لا تملكها النواميس الكونية ، وإنما هي التي تملك النواميس .

وقد قال الحق سبحانه « ولجعلك آية للناس » ، فمن هم الناس الذين سيجعل الله من قضية الذي مر على قرية آية لهم ؟ كان لا بد أن يوجد أساس في القصة ، لكن القرية حاوية على عروشها ، وليس فيها إنسان أو بيان ، أهم الدين كانوا في القرية أم سواهم ؟ قال بعض المفسرين هذا ، وقال البعض الآخر الرأي المضاد .

وأصدق شيء يمكن أن يتصور صدق الله في قوله . « ولجعلك آية للناس » هو قصص الله للرمس في حق شيء ، وبسطه في حق شيء آخر ، وعزير كما قال جمهرة العلماء هو الذي مر على قرية ، وعزير هذا كان من الأربعة الذين يحفظون التوراة ، فلم يحفظ التوراة إلا أربعة موسى ، وعيسى ، وعمر ، ويوشع ، وقد أراء الله العظام وكيف يشزها ويرفعها فلتتعم ثم يكسوها لحما ، أي أراء عملية الإحياء مشهدياً ، وفي هذا إجابة للسؤال : « أي يحيى هذه الله بعد موتها ؟ »

والحق يقول : « وانظر إلى العظام كيف نشزها » وه يشزها ، أي يرفعها ، ورأى « بحرير » كل عظمة في حماره ، وهي تُرفع من الأرض ، وشاهد كل عظمة تُركب مكانها ، وبعد تكوير الهيكل العظيم للحمار بدأت رحمة كسوة العظام لحماً ، وبعد ذلك تأتي الحياة .

قد وجد عزير إجابة في نفسه ، ووجد إجابة في الحمار ، ومن بعد ذلك تذكر قرينه التي خرج منها ، وأراد العودة إليها ، فلما عاد إليها وجد أمرها قد تغير بما يتناسب مع مرور مائة عام ، وكان في تلك القرية مولاة لهم ، أي أمة في أسرته ، وكانت هذه الأمة قد صميت وأصبحت مقعدة ، فلما دخل وقال : أنا العزير قالت الأمة : ذهب العزير من مائة عام ولا ندري أين ذهب ولم يعد ؟

قال . أنا العرير . قالت . إن للعرير علامة ، هذه العلامة أنه محاب الدعوة ، ولم تنس نفسها . قالت : فإن كنت لعزير فادع الله أن يرد علي بصري وأن يخرجني من عبودي هذا . فدعا عزير الله فبرئت ، فلما برئت ، نظرت إليه فوجدته هو العزير فذهبت إلى قومها وأعلنت أن العرير قد عاد . وبعد ذلك ذهب العزير إلى ابنه ، فوجده رجلاً قد تجاوز مائة سنة ، وكان العرير لا يزال شاباً في سن خمسين سنة

ولذلك ترى الشاعر يقول مُلحزاً : وما ابنُ رأى أباه وهو في صعب عمره ؟ والمقصود ههنا العرير هو العزير الذي أمّانه الله وهو في الخمسين تم أحياء الله في عمره نفسه بعد مائة عام ، والتقى العزير بابه قال الابن كنت أسمع أن لابي علامة بين كتفيه « غمامة » فلما كشف العرير كتفه لابنه وجد الشامة .

وثبت أهل القرية من صدق عرير . بشيء آخر هو أن ( يختصر ) حبسها جاء إلى بيت المقدس فحرق التوراة ، إلا أن رجلاً قال . إن أباه قد دفن في مكان ما نسحة من التوراة ، فجهادوا بالنسحة ، قال العرير . وأنا أحفظها وتلا العرير التوراة كما وجدت في النسحة ، فصدق لقوم أنه العرير ، وتعجب الناس وهم يشاهدون اننا تغطي المائة وأباً في سن الخمسين . ولذلك بديل الحق الآية بالقول . « قال أعلم أن الله على كل شيء قدير » .

ألم يكن قبل ذلك يعلم أن الله على كل شيء قدير ؟ نعم كان يعلم علم الاستدلال ، وهو الآن يعلم علم المشهد ، علم الضرورة ، وليس مع العين أين .

إذن فـ « أعلم أن الله على كل شيء قدير » هي تأكيد وتعريف بقدرة الله على أن يسطر الزمزم ويقيضه ، وقدرة الله على لإحياء وإلimate ، فصار يعلم حق اليقين بعد أن كان يعلم علم اليقين .

وهذه المسألة تصر ما يقوله العلم الحديث عن تصيق الحياة ومعنى تعليق الحياة هو ينشأ ما تعمله بعض الثعابين عندما تقوم باليات الشتوى ، أى تنكمش في الشتاء

في ذاتها ولا تبدى حركة ، وتظل هكذا إلى أن يذهب الشتاء ، ومدة البياض الشتوي لا تحسب من عمر النعيم ، ولذلك يقال : إن ذلك هو عملية تعليق الحياة . وهذه العملية التي قد نفسر بها مسألة أهل الكهف فاعل الكهف أيضا مرت عليهم العملية نفسها

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَدِ ابْلَغْتُم مِّنْهُمْ كَذِبًا قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ

يَوْمٍ

( من الآية ١٩ سورة الكهف )

لأنهم لم يروا شيئاً قد تعبر فيهم وبعد ذلك قال الحق سبحانه

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَارْدَاهُمَا نَسْفًا ۝٢٥﴾

( سورة الكهف )

إن الله حدد الزمن الذي لشوه ، يساهم قالوا : إن الرمس هو يوم أو بعض يوم ومعنى ذلك أنهم عندما ناموا هذا اللون من النوم واستيقظوا وجدوا أنفسهم على حالتهم التي كانت قبل هذا اللون من النوم . إذن فقد علق الله حياتهم وتلاحظ أن كل هذه العمية قد جاءت هنا في قصة العرير بعد آية الكرسي التي تصور العقيدة الإيمانية :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمْ يَلَمْ الْقَبُومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٢٦﴾

( سورة البقرة )

وتصور قضية الحياة وقضية الموت ونعلم أن إبراهيم حين حنجه الرجل وقال له .

« أنا أحيى وأميت » نقل إبراهيم الحجة إلى الليل والنهار ، وطلب منه أن يعكس آية الليل والنهار ، فقال للرجل : « فإن الله يأتي بالشخص من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر »

وحتى لا يظن أحد أن إبراهيم عليه السلام إذا ترك الكلام عن الإحياء والإماتة فروا من الجدل ونقل الأمر إلى الشخص ، لكن أراد الله أن يأتي بقصة هذا الإنسان الذي مر على قرية وهي حاوية ، فيحدث له كل ما تقدم ليثبت الحق لنا أن قصة الحياة وقصة الموت بيده وحده . ولبحرح الحق سبحانه أمر الحياء والموت عن مجال السفسطة الخدلية وعرفنا من قبل معنى السفسطة الجدلية حين تعرضنا لقول الذي حجاج إبراهيم في ربه ثنتين من المسجوبين وقال : « أستطيع أن أقتل واحدا ، وأن أتترك الثاني بلا قتل »

هذه هي السفسطة . به لم يخس ، بل أبغى حياة . وعرفنا أنه الإحياء ضد الإماتة ؛ لأن الإماتة هي أن تخرج الروح من الجسد بدون حرج ، أو نقص بنية ، أو عمل بفعله الإنسان في لبدن . أما إذا فعل إنسان أي شيء من هذه الأفعال ضد إنسان آخر فلا يقال إنه أماته بل يقال لقد قتله . ولموت كلهما عرفنا غير القتل

وتأتى بعد ذلك قصة إبراهيم أيضا بعد أن نقل الجدل مع الرجل إلى الشمس ، فبهت الرجل الذي كفر ، أما إبراهيم عليه السلام فهو مؤمن بقلوة الله ، لكنه يريد أن يعرف الكيفية . إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكاً لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

( نحن أحن بالشك من إبراهيم إذ قال : « رب أرني كيف تموت » قال : أو لم تؤمن قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي » )<sup>(١)</sup> .

( ١ ) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان

راجع أصله ونشره أستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ونحن المسلمين لم شك في هذا الأمر . إذن ، إبراهيم عليه السلام لم يشك من باب أولى بدليل منطوق الآية حين قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تَوَاقِنٌ قَالِ بَلَىٰ وَلَئِنْ لَيْسَ لِي طَمَئِنٌّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾

إن إبراهيم عليه السلام يسأل : كيف تحيي الموتى ؟ أي أنه يطلب الخيال التي نفع عليها عملية الإحياء . إبراهيم عليه السلام لا يتكلم في الإحياء ، وإنما كان شكه - عليه السلام - في أن الله سبحانه قد لا يستجيب لطلبه في أن يريه ويطنعه على كيفية إحياء الموتى ؟ ولتضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى من قبل ومن بعد - والمثل لتقريب المسألة من العقول ؛ لأن الله سره عن أي تشبيه

إن الواحد منا يقول للمهندس . كيف يبيت هذا البيت ؟ إن صاحب السؤال يشير إلى حدث وإلى عُدَّت وهو البيت الذي تم بناؤه . فهل معرفة الكيفية تدخل في عقيدة الإيمان ؟ لا .

ولنعلم أولاً ما معنى - عقيدة ؟ . إن العقيدة هي : أمر معقود ، وإذا كان هذا فكيف يقول - ليطمئن قلبي ، ؟ فهل هذا دليل على أن إبراهيم قبل السؤال ، وقبل أن يجاب إليه ، لم يكن قلبه مطمئن ؟ لا ، لقد كان إبراهيم مؤمناً ، ولكنه يريد أن يرداد اطمئنناً ؛ لأنه أدار بفكره الكيفية التي تكون عليها عملية الإحياء ، لكنه لا يعرف على أية صورة تكون

إذن فالأطعمتان جاء لمراد في كيفية مخصوصة تخرجه من متاهات كفيات منصورة ومتخيلة ، ومادمت تريد الكيفية ، وهذه الكيفية لا يمكن أن تشرحها لك بكلام . بل لا بد أن تكون تجربة عملية واقعية ، فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، وا صرهن ، أى ألهن وأصمهن إليك لتأكد من ذوات الطير ، ومن شكل كل طير ، حتى لا تتوهم أنه قد جاء لك طير آخر .

وقال المفسرون : إن الأربعة من الطير هي . الغراب ، الطاووس ، الذبذبة ، الحياطة ، وهكذا كان كل طائر له شكية مختلفة

و ثم اجعل على كل جبل من جرداً ثم ادعهن يأتينك سعياً ، فهل أجرى سيدنا إبراهيم هذه العملية أو اكتفى بأن شرح الله له الكيفية ؟ إن القرآن لم يتعرض لهذه الحكاية ، إنما أن يكون الله قد قال له الكيفية ، فإن أراد أن يتأكد منها فليعمل . وإنما أنه قد يتيقن دون أن يجري تلك العملية . إن القرآن لم يقل لما هل أجرى سيدنا إبراهيم هذه العملية أم لا ؟ والحق يقول محامداً إبراهيم بخطوات التحربة : ثم ادعهن يأتينك سعياً ، وكان المفسرون أن يقول يأتينك طيرانا

فكيف نسعى الطيور ؟ إن الطير يطير في أسماء وفي الجو لكن الحق أراد بذلك ألا بدع أى محال لاحتلاط الأمر فقال : « سعياً » أى أن الطير يأتى أمامه سائراً ، لقد نقل الحق الأمر من الطيران إلى السعى كى يتأكد منها سيدنا إبراهيم ، إذن فلكى تتأكد يا إبراهيم ويزداد اطمئنانك جئت بها من طيور مختلفة وأنت لدى قطعتها ، وأنت الذى جعلت على كل جبل جرداً . ثم أنت الذى دعوت الطير فبعاء بك سعياً .

وهنا ملحظة في طلاقة القدرة ، وفي الفرق بين القدرة الواجبة لواجب الوجود ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، والقدرة المنوحة من واجب لوجود وهو الله - سبحانه - . لمبتكر واجب الوجود وهو الإنسان ، هذا له قدرة ، وذلك له قدرة ؛ إن قدرة الله هي قدرة واجبة ، وقدرة الإنسان هي قدرة ممكنة ، وقدرة الله لا يتزعها منه أحد ، وقدرة الإنسان يتزعها الله منه ؛ فالإنسان من البشر ، والبشر تتفاوت قدراتهم ، فحين



تكون لأحدهم قدرة فهناك آخر لا قدرة له ، أى عاجز . ويستطيع القائد من الشر أن يعنى أثر قدرته إلى العاجز ؛ فقد حمل القائد كرسيه ليجلس عليه من لا يقدر على حمله . لكن قدرة الحق تختلف .

كان الحق سبحانه وتعالى يقول : أنا أهدى من قدرى إلى من لا يقدر ، فيقدر ، أنا أقول للضعيف : كن قادراً ، فيكون . وهذا ما يفهمه من قوله سبحانه لإبراهيم : « ثم ادعهم بأئنيك سعياً » . إن إبراهيم كواحد من الشر عاجز عن كعبه الإحياء ، ولكن الحق يعطيه القدرة على أن ينادى الطير ، فيأتى الطير سعي .

إن الحق يعطى القدرة لإبراهيم أن يدعو الطير فيأتى الطير سعياً وهذا هو الفرق بين القدرة الواحدة ، وبين القدرة الممكنة . إن قدرة الممكن لا يعديها أحد الخالق منها ، ولكن قدرة واجب الوجود تعديها إلى من لا يقدر فيقدر ، ولذلك يأتى القول الحكيم بخصائص عيسى ابن مريم عليه السلام :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْرِئُ النَّاسَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَكُونُونَ وَمَا تَخْرُجُونَ فِي يَوْمِ تَكْرُرُ إِلَيْ ذَٰلِكَ لَآيَةٌ لِّكُم مِّنْكُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن خصائص عيسى ابن مريم لا تكون إلا بإذن من الله ، فقدرة عيسى عليه السلام أن يصنع من الطير ما هو على هيئة الطير ، وإذا نفخ فيه بإذن الله لأصبح طيراً ، وكذلك إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، إن ذلك كله بإذن من ؟ بإذن من الله .

وكذلك كان الأمر في تجربة سيدنا إبراهيم ، لذلك قال له الحق . « واعلم أن الله عزيز حكيم ، إن الله عزيز أى لا يغلبه أحد . وهو حكيم أى يضح كل شئ . في موقعه .

وكذلك يسطر الحق قصة الحياة وقصة الموت في تجزئة مادية ؛ ليضمن قلب سيدنا إبراهيم ، وقد جاءت قصة الحياة والموت ؛ لأن الشك عند الذين عاصروا الدعوة المحمدية كان في مسألة البعث من الموت ، وكل كلامهم يؤدي إلى ذلك ، فهم تعجبوا من حدوث هذا الأمر

﴿ قَالُوا أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (٧٧)

( سورة الزمر )

وفي قول آخر

﴿ وَخَرَّبَ لَنَا مَثَلًا وَبَيَّنَّا خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٩)

( سورة يس )

لقد أمر الحق سبحانه عمداً صلى الله عليه وسلم ليحيب على ذلك . قل يا محمد يحييها الذي أنشأها أول مرة ؛ فقد خلقها من عدم ولذلك يقول الحق سبحانه

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٨٠)

( سورة الروم )

إن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يبدأ الخلق على غير مثال ، ثم يعيده بعد الموت ، وإعادته أهون عليه من ابتدائه بالنظر إلى مقاييس اعتقاد من يحن أن إعادة الشيء أسهل من ابتدائه ؛ فالله له مطلق القدرة في حقيقته ، وهو العالِم في ملكه ، وهو الحكيم في فعله وتقديره .

إن الذي يعيد إنما يعيد من موجود ، أما الذي بدأ فمن معلوم فالأهون هو الإعادة ، أما الابتداء فهو ابتداء من معدوم ، وكلاهما من قدرة الحق سبحانه



وتعالى . إن هذه القضية إنما تثبت ليوم الآخر ، لأن الإيمان باليوم الآخر هو الميراث العقدي فإن استقر في القلب فالإنسان بكل جوارحه يتجه إلى الأعمال التي تسير على ضوء منهج الله ليبال الإنسان الجزء الأوفى .

إن الإنسان حينما يفهم أن هناك حساباً وهناك جزاء ، وهناك بمثا ، فهو يعرف أنه لم ينطلق في هذا العالم ، ولم يعلت من الإله الواحد القهار ، إن للإنسان عودة ، فالذي يفتر بما آتاه الله نقول له . لا ، إنك لن تملت من يد الله ، بل لك عودة بالموت وعودة بالبعث . وإذا ما استقرت في أذهان المسعفين تلك العودة ، فكل إنسان يقيم حسابه عن هذه العودة .

وبعد أن استقر الأمر في شأن الحياة والموت أراد الحق سبحانه وتعالى أن يحيى بشيء هو ثمرة الحياة في الكائن الحي وأول مظهر من مظاهر الحياة هو نخس والحركة . والحركة في الوجود أرادها الله للإنسان ، لأنه وهو الحق قد أراد الإنسان للحياة في الأرض والحياة في الأرض تقتضي أن يعمر الإنسان الأرض ، كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ اَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْتُمْ تَرْضَوْنَ الْأَرْضَ وَأَنْتُمْ عَلَيْهَا قَائِمُونَ ﴾

( من الآية ٦١ سورة هود )

إن حياة الإنسان في الأرض تقتضي أن يتحرك ويعمر الأرض . وحيث يريد الله منا أن نتحرك ونعمر الأرض فلا بد من أعمال تنظم هذه الحركة ، ولا بد من فون متعددة تقوم على العبارة ويورع الله الطاقات الماعنة لهذه الفون المتعددة ويجعلها مواهب مفكرة ومحطه في البشر . إن الحق سبحانه لم يجعل من إنسان واحد مجمع مواهب ، بل نثر الله المواهب على الخلق ، وكل واحد أخذ موهبة ما .

لمادا ؟ لأن الله قد أراد أن يكامل العام ولا يتكرر ؛ فالتكامل يوحى بالانتماع . فإذا كنت أنت تعرف شيئاً خاضعاً لموهبتك ، وأنا لا أعرفه فأنا مضطر أن ألتحم بك ، وأنا أيضاً قد أعرف شيئاً وأنت لا تعرفه ، لذلك تضطر أنت أن تلتحم بي . وهذا اللون من الانتماع ليس التلحم تفضيل . إنما هو التلحم تعايش ضروري .

لكن لو أن كل واحد صار مجمع مواهب ، لاستعنى عن غيره من البشر وأقام وحده بمفرده ، وينتهى احتياجه بالمجتمع الإنساني . فكان الله حين وزع أسباب الفصل على الخلق يريد منهم أن يتكاملوا ويلتصم بعضهم ببعض لا النحام فضل ، ولكن النحام تعايش ضروري ؛ لأن واحداً يريد ما يتجده الآخر بموهبته ، والآخر يريد من إنسان غيره ما هو موهوب فيه . ولذلك فالناس بحير ما تباينوا ، لأن كلا منهم يحتاج إلى الآخر .

ولذلك لا نجد أى تقدم فى مجتمع إلا إذا كانت المواهب فى هذا المجتمع مختلفة ومتأثرة . أما حين يوجد قوم هم مواهب متحدة فلا بد أن يقاتل بعضهم بعضاً لكن عندما يكون كل واحد فى حاجة موهبة الآخر ، فهم يتعايشون ؛ لأن الحياة لا تسير إلا بالكل ، ولذلك إذا اسوب جماعة فى المواهب فلا بد أن يتعاونوا لأنهم يتعاضدون فيها ويريد كل واحد منهم أن يستأثر بها لنفسه ، لكن لا أحد فى المواهب المتكاملة يقول : إنه يكون فلان أفضل منى ، لأنه يعرف أنه من الضروري أن يوجد المهندس والعبيط والصانع ، وبذلك نجد الوجود منظم بذاته التنظيم الطبيعي الذى يوجد قاعدة ويوجد قمة ، فالقمة الصغيرة تحملها القاعدة الكبيرة ولو عكست أهرم لصارت مشككة ؛ لأن الأمر فى هذه الحالة سيجد به حوائب كثيرة ليس لها أساس ولا تتركز على شيء ، ولذلك فمن الحكمة إذا رأيت فى المجتمع واحد قد ذهب إلى القمة فأعنه على أن يستمر متوقفاً ، ولا تصطرع معه فتسقطوا جميعاً ، فلا بد من اتصال كل بشأ التكامل .

والحق سبحانه وتعالى يعرض لنا هذه القصص عروساً ، احتياجاً وعرضاً اقتصادياً ، ليبين لنا أن أصل الوجود يجب أن يشأ على أمر اجتماعي وأمر اقتصادي ، لماذا ؟ لأن الإنسان مشغول أولاً باستبقاء حياته ، ثم باستبقاء نوعه . واستبقاء حياة الإنسان بالقوت ، واستبقاء نوعه بالزواج واستبقاء الحياة بالقوت يحتاج إلى حركة فى الحياة ، والحق يحرم ثمرتها ، وعندما يريد الحق أن يرقى قلب المتهرك على أحبه العاقر فهو يقول .

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

من الآية ٢٥ سورة البقرة

كما صرنا المثل من قبل - والله المثل الأعلى - وقلنا . إن الإنسان يعطى أولاده مصروف ، وكل واحد منهم يصعه في حصالته ، فبأن واحد من الأولاد اضطر إلى شيء عاجل كجراحه ، فما يذهب الرجل إلى أولاده ويقول لهم : أقرصوني ما في حصالاتكم لأن أغناكم يحتاج إلى صليحة ، وسأرده لكم بعد ذلك مضاعفا . إن الأب لم يرجع في هذه ليقول إن ما في الحصالات هو مالى وسأحده . لا ، هو مالكم ، لكنه سيكون نيا على

كذلك يصنع الله مع الخلق فيوضح : بعضكم عاجز وبعضكم قادر ، وسأتكفل أنا بالعاجز ، وأقرص من القادر . وكان ضروريا أن يكون بعضنا عاجزا ، حتى لا يظن أحد أن القوة ذاتية في النفس البشرية . لا ، إن القوة موهوبة ، ويستطيع من وهب أن يسلبها . وحتى يعرف صاحب القوة أن القوة ليست ذاتية فيه ، يجد بجانبه إنسانا آخر عاجزا . لكن هذا العاجز الذى سبقت القوى إن أن القوة ليست ذاتية ، مادنيه ؟

إن الله قد جعله وسيلة . يصاح في الكون وكأن الحق يقول . سنضمن لك أيها العاجز المستوى اللائق من الحياة من أثر قدره القادر ، ومادام من أثر قدرة القادر ، فهل سيتحرك العادر في كون على قدر حاجته ، أو على قدر طاقته ؟ لابد أن يتحرك على قدر طاقته ، لأنه لو تحرك على قدر حاجته من يجد ما يعطيه للعاجز

ويتكلم الحق سبحانه وتعالى عن تلك القضية المهمة في الباء الاحتمالى والباء الاقتصادى بعد إثبات فضيه البعث والإحياء والإماتة لكون تكون مثله أصميا ، ويتقرر بنا الحق سبحانه وتعالى كى يعطيا الكيان الإسلامى الاقتصادى والاحتمالى فيقول حل شأنه :

يَوْمَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ  
أُتْبِيتَ سَعْيَ سَابِلٍ فِي كُلِّ سُنَّةٍ مِائَةً حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ

## لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

إن الله ينسب المال للبشر المتحركين ، لأنهم أخذوا هذه لأموال بحركتهم . وفي موضع آخر من القرآن يقول الحق :

﴿ رَأَيْتُمْ مِمَّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ ﴾

( من الآية ٣٣ سورة النور )

إن المال كله مال الله ، وقد أخذ الله الإنسان مالهركة ، فاحترم الله هذه الحركة ، واحترم الله في الإنسان قانون النعمة ، فجعل المال المتبقى من حركتك ملكا لك أي الإنسان ، لكن إن أراد الله هذا المال فسيأخذه ، ومن فصل الله على الإنسان أنه سبحانه حين يطلب من الإنسان بعضا من المال المتبقى من حركته فهو يظلمه كمرص ، ويرده مضاعفا بعد ذلك

إذن فالإنفاق في سبيل الله يرد الله مضاعفا ، ومادام الله يصاعفه فهو يزيد ، لذلك لا تخزن ولا تحف على مالك ؛ لأنك أعطته لحقنر قادر واسع عليم . إنه الحق الذي يقدر على إعطاء كل واحد حسب ما يريد هو سبحانه ؛ إنه يعطي على قدر به العبد وقدر إيمانه . وهذه الآية تعالج قصة الشح في النفس الإنسانية ؛ فقد يكون عبد الإنسان شيء زائد ، وتشح به نفسه ويبخل ، يخاف أن ينفق منه فيقص هذا الشيء .

وهنا تقول لك قصة الإيمان : أمتق لأنه سبحانه سيربك ، والحق سيعطيك مثليا يعطيك من الأرض التي تزرعها . أنت تضع الحبة الواحدة فهل تعطيك حبة واحدة ؟ لا . إن حبة القمح تعطى كمية من العيدان وكل حود فيه سلة وهي مشتملة على حبوب كثيرة ، فإذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تصاعف لك ما تعطيه أفلا يصاعف العطاء لك الذي خلقتها ؟ وإذا كان يحسن من خلق الله يصاعف لك ، هي بالك بالله جل وعلا ؟

إن الأرض لعطاء بعاصرها تعطيك ، فإذا ما أخذت كيلة القمح من مخزنك

لتبذرهما في الأرض أيقال - إنك أنقصت مخزنك بمقدار كمية القمح ؟ لا ؛ لأنك ستدع بها ، وأنت تتظر كم ستأت من حبوب ، وهذه أرض صياء مخلوقة لله ، وإذا كان المخلوق قد استطاع أن يعطيك بالحنة مسهقة ، ألا تعطيك الذي خلق هذه الأرض أضعاف ذلك ؟

إنه كثير العطاء . والحق قد نسب للمؤمنين الأموال التي رزقهم الله بها فقال : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله » وكلمة « في سبيل الله » كلمة عامة ، يصح أن يكون معاشها لجهاد ، أو مصارف الصدقات ؛ لأن كل هذا في سبيل الله ؛ لأن الضعيف حين يجد نفسه في مجتمع متكافل ، ويجد صاحب القوة قد عنتى من أثر قوته وحركته إليه ، أيجد على نى القوة ؟ لا ؛ لأن خيره يأتيه ، تضرب المثل في الرب نفول :

الهمة التي تدرك لنا ساعة تسير في الحارة . فالكل كان يدعو الله طاً ونفول : « بجميكي » لماذا ؟ لأن صاحبها يعطى كل من حوله من لئها ومن جبتها ومن سمها ، لذلك يدعو لها الجميع ، ولا يربطها صاحبها ، ولا يملها ، ولا ينشل عليها ، والخير القادم منها ينهب إلى كل الأهل ، وجين يجد مجتمعاً بهذا الشكل ويجد العاجر من القوى معياً له ، ما يقول العجز : إني في عالم متكامل

وإذا ما وُجد في إنسان قوة وفي آخر ضعف ؛ فالضعيف لا يجحد وإنما يقول : إن خير خبرى يصلى . وكذلك يطمش الوهب أنه إن عجز في يوم ما سيجد من يكمله - والقدرة أفيار - مادام الإنسان من الأفيار فقد يكون قوما اليوم صعباً غداً .

إذن يقول الحق سبحانه وتعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم » هو قايون يريد به الله أن يجارب الشح في نفس المخلوقين ، إنه يقول لكل من : انظر النظرة لواعية ؛ فالأرض لا تنقص من مخزنك حين تعطى كمية من القمح ؛ صحيح أنك أنهضت كمية من مخزنك لتزرعها ، ولكنك تتوقع أن تأخذ من الأرض أضعافها . وإياك أن تظن أن ما تعطيه الأرض يكون لك فيه ثقة ، وما يعطيه الله لا نفع لك فيه .

« مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حنة أنشت سبع سبيل في كل

سنبلة مائة حبة والله بضائع لمن يشاء والله واسع عليم ، إن الآية تعالج الشح ، وتؤكد أن الصدقة لا تنقص ما عند الإنسان بل ستزيده . وبعد ذلك يقول تعالى :

الَّذِينَ يُفْقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَتَّخِذُونَ  
مَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ  
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٩٢﴾

إنها لفظة أخرى يوضح فيها الحق : إياك حين تنفق مالك في سبيل الله وأنت  
جائع في عطاء الله أن تمر على من تعطيه أو تؤذيه . والمَنُّ هو أن يعتد على من أحس  
إليه بإحسانه ويريه أنه أوجب عليه حقاً له وأنه أصبح صاحب فضل عليه ، وكما  
يقولون في الريف ( تعير بها ) ، والشاعر يقول :

وإن اقرأ أسدى إلى صبيحة ودكرتها مرة للثيم

ولذلك فمن الأدب الإيمان في الإنسان أن يسي أنه أهدي ويسى أنه أنفق ،  
ولا يطلع أحداً من دونه على إحسانه عن الفقير أو تصدقه عليه وخاصة الصغار الذين  
لا يفهمون منطق الله في الأشياء ، فعندما يعرف بني أمية أعطى لحارث كذا ، ربما  
دل ابنه ومن هل ابن حارث ، ربما أحله عروده فغيره هو ، ولا يمكن أن يفكر هذا  
الأمر إلا مكلف يعرف الحكم بحبيته من الله

إن الحق يوضح لنا . إياك أن تسع الصدقة مائة أو أذى ، لأنك إن أتيتها بالمال ماذا  
يكون الموقف ؟ يكرهها المعطى الذي تصدقت بها عليه ويتولد عنده حقد ، ويولد  
عنده بنص ، ولذلك حينما قالوا : « اتق شر من أحست إليه » شرحوا ذلك بأن  
اتقاء شر ذلك الإنسان بالألا تذكره بالاحسان ، وإياك أن تذكره بالإحسان ، لأن ذلك  
يولد عنده حقداً

ولذلك نحمد كثيرا من الناس يقولون : كم صنعت بفلان وفلان الحميل ، هذا كذا  
وهذا كذا ، ثم خرجوا على غائكره . وأقول لكل من يقول ذلك : ما دمت تذكر  
ما أسديته إليهم من العدالة من الله أن ينكروه ، ولو أنك هاملت الله لما أنكروه ،  
ما دمت لم تعامل الله ، فإنك تقابن بنكران ما أسفقت .

فكان الحق سبحانه وتعالى يريد أن يسحق بالآية الأولى قلب المنقوس ليسقط عنه  
بالصفة ، لذلك قال : « ثم لا يتبعون ما أمعقوا ما ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم  
ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

فالحق سبحانه وتعالى طماننا في الآية الأولى عن أن الصدقة والصفة لا تنقص المال  
بل تزيد ، وصبر لما الحق سبحانه المثل بالأرض التي تؤثريا بذل الحبة الواحدة  
معهانة حبة ، ثم يوضح الحق لك أن آفة الإنفاق أن يكون مصحوبا به المن ، أو  
« الأذى » ، لأن ذلك يفسد قضية الاستطراق الصفات في الضمنا والماجرير ،  
ولذلك يقول الحق سبحانه

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا وَلَا أذى لهم أجرهم عند  
رَبِّهِمْ ﴾

( من الآية ٢٦٢ من سورة التوبة )

انظر إلى الدقة الأدائية في قوله الكريم . « ثم لا يتبعون ما أمعقوا ما ولا أذى »  
قد يستقيم الكلام لو جاء كالآتي . « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ولا يتبعون  
ما أنفقوا ما ولا أذى » ، لكن الحق سبحانه قد جاء به ثم « ها ، لا ، ها ، موقعا  
إن المنفق بئال قد لا يبن ساعة العطاء ، ولكن قد يتأخر المنفق بئس ، فكان الحق  
سبحانه وتعالى يبينه كل مؤمن :

يجب أن يطل الإنفاق عبر مصحوب بئس وأن يتعد المنفق عن المن ذاتي ،  
فلا يتسع عن المن فقط وقت العطاء ، ولكن لابد أن يستمر عدم المن حتى بعد العطاء  
وإن طال الزمن

إن «ثم» تأتي في هذا المعنى لوجود مسافة زمنية تراعى فيها الإنسان عن فعل  
المن . فالخلق يجمع المرمعاً متصلاً متراخياً ، لا ساعة العطاء بحسب ، ولكن بعد  
العطاء أيضاً . وشوقى أمير الشعراء - رحمه الله - عندما كتب الشعر في حمل الأثقال ،  
وصنع آياتاً من الشعر في مجال حمل الأثقال النفسية ، فقال :

أحملت ذنباً في حياتك مرة ؟

أحملت يوماً في الضلوع عيلاً ؟

أحملت مَ في النهر مَكراً ؟

والليل من مُنيد إليك جيلاً ؟

وبعد أن عدد شوقى أوجه الأحمال الثقيلة في الحياة قال :

تلك الحياة وهذه أثقالها

ويزن الحديد بها معد فضيلاً

كان المرمع عبه نفسى كبير . ويطمئن الحق سبحانه من يتفقون أموالهم دون  
مَنْ ولا أنفى في سبيل الله بأن لهم أجراً عند ربهم . وكلمة «الأجر» - والإيضاح من  
عند الرب - هي طمأنينة إلى أن الأمر قد أحيل إلى مرنوق بأفئته ، وإلى قلادة على هذه  
الأداة . أما الذى يمن أو يؤذى فقد أحده بالمرن أو الأنفى ، وليس به أحر عند  
الله ، لأن الذى يمن أو يؤذى لم يتصور ربّ لصعيف ، وإنما تصور لصعيف

والمصر في سبيل الله حين يتصور ربّ الصعيف ، وأن ربّ الصعيف هو الذى  
استدعاه إلى الوجود ، وهو الذى أحرى عليه الضعف ، فهو يؤمن أن الله هو الكميل  
بررق الصعيف ، وحين تنفق القوى عن الصعيف فإنما يؤدى عن الله ، ولذلك نجد  
في أقوال المقربين

«إننا نضع الصدقة في يد الله قبل أن نضعها في يد الصعيف» ولنتطر إلى ما فعلته  
سيدتنا فاطمة - رسول الله صلى الله عليه وسلم - لقد راحت تجلو الدرهم  
وتطيه ، فلما قيل لها ماذا تصنعين ؟ قالت أجلو درهماً وأطيه لأنى بويت أن



أتصدق به . فقل ها . أتصدقون به علواً ومعطراً ؟

قالت لرهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأن أعلم أنه يقع في يد الله قبل أن يقع في يد الفقير . إن الأجر يكون عند من يغليه ويغليه ويرتفع بقيمته وهو الخالق الربّاه .

ويستعمل قوله الحق : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، لهذا لم يقل الله : ولا خوف منهم ؟ . لأن الحق يريد أن يوضح لنا بقوله : « ولا خوف عليهم » أن هناك عنصر ثالثاً سيدخل . أنه تدخل من شخص قد يظهر للإنسان انه الحق أنه محب له ، فيقول : دحر للأيام لفدعة ، ادحر لأولئك .

لنل هذا العنصر يقول الحق : « ولا خوف عليهم » أي : بك يا صاحب مثل هذا الرأي . تدخل باسم الحب ، ولتوفر كلامك : لأن التيق في سبيل الله إنما يجد العطاء ، والحب من الله . ولا خوف على التيق في سبيل الله ، وليس ذلك فقط ، إنما يقول الحق عن المتيق في سبيل الله دون من ولا أدى . « ولا هم يحزنون » ومعناها أنه سوف يأتى في تصرفات الحق معهم ما يفرحهم بأنهم يصدقوا به بسرعة الخلف عليهم . أو يرضى النفس ، أو يورق السلب ، فأية لاس أنهم يظنون إلى ررق لايجب داتها ، أى أن يقيس الشر الررق بما يدخل له من مال ، ولا يقيسون الأمر ررق السلب ، وورق السلب هو محط البركة .

هنا أن إسناد راته خمسون جنيتها ، وبعد ذلك يسلب الله من مصادر تطلب منه مائة حية ، كأن يدخل فيجد ولده متعباً وحرارته مرتفعة ، ويررق الله قلب الرجل الاطمئنان . ويطلب من الأم أن تعد كوباً من الشاي للاس ويعطيه قرحاً من الأسبرين . وتذهب الوعكة وتنتهى المسألة .

ورجل آخر يدخل ويجد ولده متعباً وحرارته مرتفعة . وتستمر الحرارة لأكثر من يوم . فيعدف الله في قلبه الرعب ، وتأت الخبالات والأوهام عن الموصى في ذهن لرجل . فيذهب ناسه إلى الطبيب فيعق خمسين أو مائة من جنيهاً .

الرجل الأول ، أبرأ الله ابته بقرش . والثاني ، أبرأ الله ابته بجبهات كثيرة  
إن رزق الرجل الأول هو رزق السلب ، فكما يورق الله بالإيجاب ، فانه يورق بالسلب  
أي سلب المصروف ويدفع البلاء . وهناك رجل دخله مائة جبه ، وباقى له الله  
بمصارف تأخذ مائتين ، وهناك رجل دخله خمسون جبهها فيسلب الله عنه مصارف  
تزيد على مائة جنبه ، فليها الأعمى ؟

إنه الرجل الذي سلب الله عنه مصارف تزيد على طاقته . إذن فعل الناس أن  
تنظر إلى رزق السلب كما تنظر إلى رزق الإيجاب . وقوله الحق عن المتقين في سبيله  
دون من أو أدى . ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . هذا القول دليل على أن الله  
سيأتي بشيعة المنة بدون من أو أدى بما يصرح له طلب المؤمن ، إما بالبركة في الرزق  
وإما بسلب المصارف عنه . فيقول القلب المؤمن : إياها بركة الصدقة التي أعطيتها .

إنه قد تصدق بشيء فرجع وصرف عنه الله شيئاً ضاراً . فيصرح بذلك القلب  
المؤمن . وبعد ذلك يسبها الحق سبحانه وتعالى في قضية مهمة هي : إن لم تجد أيها  
المؤمن بمالك فأحسن تقالك . فإن لم تسعوا بأموالكم تسعوا بهم بحسن الرد .  
والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

( انقوا النار ولو بشو نمرة ، فمن لم يجد فكلمة طيبة )<sup>(١)</sup>

والحق سبحانه وتعالى يحدد القضية في هذه الآية

قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا

أَذًى ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٦٧﴾

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة

ما معي « قون معروف » ؟ إن في العادة بعد أن المعروف مقابل للمنكر ، كأن الأمر الخبير أمر متعارف عنده بالسجية ، وكان المتعارف عنده ذاتي من جنس الجاهل ومن جنس الخير ، أما الأمر الذي تنكره نفس من جنس الشر وجنس الفصح ولذلك يقول الحق « قون معروف » فكأن من شأن الجاهل ومن شأن الحسن أن يكون معروفاً ، ومن شأن بعض أن يكون منكراً ، يدين بالقول المعروف هو لا ترد المسائل الرد لجميع بحيث لا يعتل به ما بالحقيقة عنك ، وبحيث لا يوبخه لأنه سألك ، وإذ كان مسائل قد نجهم عناء نجهم صاحب مدعته ذلك ، لماذا ؟

لأن هلك إنسانا تلهب ظهره سياط احداه ويراك أهلاً لعن أو يسر أو جده وسعة من المال وقد يريد بالقول ولسان قليلاً عنك ، ويرى تخور أدب الحديث معك ، فعليك أن تتحمله .

وإذا كنت أنت أيها العبد تصنع المعاصي التي يعضب الله ، ويحرم الحق عينك ، ويعبرها ذلك ولا يعذبك بها ، فإذا ما صنع إنسان معك شيئاً فكن أيضاً صاحب قول معروف ومعرفة وحلم ، إن الحق سبحانه يقول له : « ألا تحبون أن يعبر الله لكم » ؟

إن جميعاً يحب أن يعبر الله له ، ولذلك يجب أن نفر لغيرنا وحسبنا للمحتاج . والحق حين يقول « والله عني حليم » معنى ذلك نبيه للصدر الذي حرم الفقير ، وكأنه يقول له : إنما حرمت نفسك أيها القادر من أجر الله إنك أيها القادر عني تحرم فقيراً ، فأنت المحروم ، لأن الله عني عك ، وهو سبحانه يقول

﴿ مَا تَسْأَلُهُمْ هَتُّؤَالَهُمْ دَعْوُونَ لِيُفْتَحُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَسْأَلُ مِنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَلْيَأْتِ

يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ وَأَنَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَسْتَدِلُّ قَوْمًا غَيْرَكُمْ

ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْتًا لَكُمْ ﴿٧٨﴾

( سورة محمد )

إن الله عني بقدرته المطلقة ، عني وقادر أن يستبدل بالقوم البخلاء قوماً يسبحون بما أداه الله عليهم من رزق في سبيل الله . فالذي يملك من المعطى إلى من منع عن نفسه

بل رحمة . ولذلك يقول الحق :

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَانِّيَطُلُوا صدَقْتِكُمْ بِالْمَنِّ  
وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ  
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَنْدُكُمْ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ  
فَأَصَابَهُ وَاِبْلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى  
شَيْءٍ ؕ مِمَّا كَسَبُوا وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ



فالذى يتصدق وينفق صدقته بالمن والاذى ، بما يُعطى صدقته ، وخسارته تكون  
حسارته : الخسارة الاولى أنه أنقص ماله بالفعل ، لأن الله لم يعرض عليه لأنه  
اتبع الصدقة بما يظنها من المن والاذى ، والخسارة الأخرى هي الحرمان من  
الثواب ، فالذى يتفق ليقول اسام عنه انه يتفق ، عليه أن يعرف أن الحق يوضح  
لنا : أنه يعطى لأجر على قاعده أن الذى يدفع الأجر هو من عملت به العمل

إن الإنسان على محدودية قدرته يعطى الآخر لمن عمل له عملاً ، والذى يعمل من  
أجل أن يقول الناس إنه عمل ، فيأخذ أجره من القدره المحدودة للبشر ، ولذلك  
قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الذى يفعل الحسنة أو الصدقة ليقال عنه  
إنه عمل ، فإنه يأتي يوم القيمة ولا يجد أجر له . وقد جاء في الحديث الشريف

( ورجل أتاه الله من أنواع المال فأتى به فعمره بعمه معروفا فقال ما عملت فيها ؟  
قال ما تركت من شيء تحب أن أنفق فيه إلا أنفقت فيه لك ، قال : كذبت إنما

أردت أن يقال : فلان جواد فقد قيل ، فأمر به فسحب على وجهه حتى أنفى في النار<sup>(١)</sup>

يلاك إذن أن تقول أنا أعتقت ولم يوسع الله رزقي ؛ لأن الله قد ينليك ويمتحنك ، فلا تفعل الصدقة من أجل توسيع الرزق ، فمطاء الله للمؤمن ليس في الدنيا فقط ، ولكن الله قد يريد ألا يعطيك في العاوية وأبقى لك المطاء في الباقية وهي الآخرة . وهو خير وأبقى .

والحق يقول : « ولا يؤمن بالله وانيوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب » ولصفوان هو الحجر الأملس ، ويسمى المروة والذي يسميه بالعامية « الرنطة » . ويقال للأصع « صفوان » ، أي رأسه أملس كالمرورة . والشيء الأملس هو الذي لا مسام له يمكن أن ندرکہا العين المتحركة ، إلما يدرك الإنسان هذه المسام بوضع الحجر تحت المجهر . وعندما يكون الشيء ناعما قد يأتي عليه تراب ، ثم يأتي المطر فيبرل عن التراب ويمزلق انتراب من على الشيء الأملس ، ولو كان بالحجر يعض من الحسونة ، لبقى شيء من التراب بين التسووات ، فالذي ينفق ماله رثاء الناس ، كالصفوان يتراكم عليه التراب ، وينزل المطر على التراب فيزيله كله فيصير الأمر : « لا يقدررون على شيء مما كسبوا » أي فقدوا القدرة على امتلاك أي شيء ؛ لأن الله جعل ما لهم من عمل هباء مشورا

وهؤلاء كالحجر الصفوان الذي عليه تراب فنزل عليه وابل أي مطر شديد فتركة صلدا تلك هي صفات من قصدوا بالإنفاق رثاء الناس ، فيطلب الله جزءهم ؛ لأن الله لا يوقعهم إلى الخير والثواب . ويأتى الله بالفتائل ، وهم الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله فيقول :

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ

(١) من حديث به قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين وقد خرجه مسلم

وَتَلْبَسُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ  
فَقَامَتْ أَكْطُهَا ضَعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ  
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٦٩﴾

إن ابتغاء مرضاة الله في الإنفاق تعنى خروج الرياء من دائرة الإنفاق ، فيكون  
خالصاً لوجهه - سبحانه - وأما التثبيت من أنفسهم ، فهو لأنفسهم أيضاً فكان  
النفس الإيمانية تتصادم مع النفس الشهوانية ، فعندما تطلب النفس الإيمانية شئاً  
فإن النفس الشهوانية تحاول أن تمنعها . وتتغلب النفس للإيمانية على النفس الشهوانية  
وتتصر لله .

والمراد به تثبيت من أنفسهم ، هو أن يتثبت المؤمن على أن يحب نفسه حياً أعمق  
لا حياً آخر . إذن فعملية الإنفاق يجب أن تكون أولاً إنفاقاً في سبيل الله ، وتكون  
تثبيت النفس بأن وهب المؤمن أولاً دمه ، وثبت نفسه ثانياً بأن وهب ماله ، وهكذا  
يتأكد التثبيت فيكون كما تصوره الآية الكريمة

﴿ كَذَلِكَ جَنَّاتُ رَبِّكَ رَبَّوَةٌ مُصَبَّوَةٌ فَأَنْتُمْ أَكْطُهَا ضَعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ  
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(من الآية ٢٦٥ سورة النور)

والجنة كما عرفنا نطلق في اللغة على المكان الذي يوجد به رزق كثيف أحضر  
لدرجة أنه يستر من يدخله ومنها دجن أي دسرة ، ومن يدخل هذه الجنة  
يكون مستوراً .

إن الحق يريد أن يصرب لنا المثل الذي يوضح انصف الثاني من اسقفين في سبيل  
الله ابتغاء مرضاته ونشيتا من أنفسهم الإيمانية ضد النفس الشهوانية ، فيكون الواحد  
مهم كمن دخل جنة كثيفة الرزق ، وهذه الجنة توجد برتبة عالية ، وعندما تكون

الجنة بربوة عالية بمعنى ذلك أنها محاطة بأمكنة وطينة ومنحصة عنها ، فإذا بفعل المطر بهذه الجنة التي توجد على ربوة ؟ وقد أحرنا الحق بما يحدث لمثل هذه الجنة قبل أن يتقدم العلم الحديث ويكتشف آثار المياه الجوفية على الزراعة

فهذه الجنة التي بربوة لا تعانى مما تعانى منه الأرض المستوية ، فهي لأرض المستوية قد توجد المياه الجوفية التي تنهب إلى جذور النبات الشجرية ونملدها بالعطن ، فلا تستطيع هذه الجذور أن تمتص الغذاء اللازم للنبات ، فتنهب النبات بالاصفرار أولاً ثم يموت بعد ذلك ، إن الجنة التي بربوة تستعمل المياه التي تنزل عليها من المطر ، ويكون لها مصارف من جميع الجهات الوطنية التي حولها ، ويربى هذه الجنة بأحدث ما يوصل إليه لعلم من وسائل الري ، إنها تأخذ المياه من أعلى ، أي من المطر . تنزل المياه على الأوراق تتودي وظيفه أولى وهي غسل الأوراق .

إن أوراق النبات - كما نعلم - مثل أثره بالنسبة للإنسان مهمها النفس ، فإذا ما نزل عليها ماء المطر فهو يعمل هذه الأوراق مما يجعلها تؤدي دورها فيما نسميه نحن في العصر الحديث بالتمثيل الكلوروفيل . وبعد ذلك تنزل المياه إلى الجذور لتدبب العناصر اللازمة في تربيته لغذاء النبات ، فتأخذ الجذور حاجتها من الغذاء المتدفق في الماء ، ويرتل الماء الزائد عن ذلك في المصارف المنحصة ، وهذه أحدث وسائل الزراعة الحديثة ، واكتشفوا أن المحصول يتضاعف بها

إن الحق يحبرنا أن من يتفق ماله اسعد مرضاه لله ونسباً من انفسهم كمثل هذه الجنة التي تروى بأسلوب ربي ، فإن نزل عليها وابل من المطر - يحدث منه حاجتها وانصرف بها المطر عنها ، فإن لم يصبها وان غفل - نزل على وهو المطر وتزداد اجفأ بكفها لئلا يصعب من ماحها وإذا كان المصعب هو ما يسوى الشيء مرتين ، فالصعب يساويين شيء أربع مرات . والله يصرف له مثلاً ليريد به الإيصال لحالة من يتفق ماله ربه الناس فيسأل عناده الموصي وهو عدم هم فيقول حل شأنه

﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ  
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ  
وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ  
نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ  
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣٨﴾﴾

إن الحق سبحانه يشركنا في الصورة كأنه يريد أن يأخذ منا الشهادة لواقعته  
فهل يود أحدكم أن تكون له جنة من نجيل وأعنان تجري من تحتها الأنهار له فيها من  
كل الثمرات . ونعلم أن النجيل والأعنان هما من أهم ثمار وتاج المجتمع الذي يزل  
به القرآن الكريم . ونعرف أن هناك حقائق فيها نجيل وأعنان . ويصعب إليها  
صاحبها أشجاراً من الخرج وأشجاراً من لوزة الأخرى . ولذلك يقول الحق في  
أصحاب الجنة :

﴿وَأَصْرِبَ لَهُم مِّثْلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْ لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ  
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٩﴾ كَذَلِكَ الْيُسْتَبَيَّنُ لَأَنَّ الْكُفْرَ يَكْبَرُ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْ  
حُكْمِهِمْ ظُهُرًا ﴿٤٠﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِلًّا مَّا لَكَ  
وَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴿٤١﴾ وَفَعَلَ خِيَتَهُ وَهُوَ طَائِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أُمًّا  
﴿٤٢﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ حِزْبًا مِّمَّ مَقْلَبًا ﴿٤٣﴾﴾

(سورة الكهف)



كان الخطين هنا فيها أشياء كثيرة ، فيها أعصاب ، ورادها الله عطاء الخليل ، ثم الرزق ، وهذا يسمى في اللغة عطف العام على الخاص ، أو عطف الخاص على العام ، يذكر الشيء مرتين ، مرة بخصوصه ، ومرة في عموم غيره . وعندما يتحدث الحق سبحانه عن جنة الآخرة فإنه يقول مرة .

﴿عَدَّةٌ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَتُورُ الْعَظِيمُ ۝﴾

(سورة النور)

قد هنا الله للمؤمنين به ، المقاتلين في سبيل نصرته دية وإعلاء كلمته حبات تتجلىها الأنهار ، وذلك هو لعموم والسجاح الكبير . ومرة أخرى يتحدث الحق عن جنة الآخرة بقوله

﴿رَأْسُفُونَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ

اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

أَذْكَاءَ ذَلِكَ أَتُورُ الْعَظِيمُ ۝﴾

(سورة النور)

إن الحديث عن الأنهار التي تجري تحت الجنة يأتي مرة مسوقاً به من « . » ومرة أخرى غير مسوق به من « . » فبعد ما يأتي الحديث عن تلك الأنهار التي تحت الجنة مسوقاً به من « . » فإن ذلك يوحى أن سعيها ذات فيها ولذاتيه ممنوعة ها

وعندما يأتي الحديث عن تلك الأنهار التي تجري تحت الجنة غير مسوق به من « . » ، فمعنى ذلك أن سعي هذه الأنهار غير ذاتي فيها ، ولكنه يجري تحتها بمرادة الله . فلا يجوز أحد أن يجمع الماء من هذه الجنة التي عدها الله للمؤمنين . وعدم يشركا الخس في الساقول .

﴿أَيُّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ حَظٌّ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَعْيَابُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمِنْ

كُلِّ شَعَرَةٍ وَأَصْلَانَهُ أَكْبَرُ مِنْ ذُرِّيَةِ شَجَرَةٍ مُسْتَعْمِلًا قَصَابَهَا إِعْصَارُ لِيهِ نَارُهَا حَرَّتْ

## كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكَ الْآيَاتِ لَعَنَّا تَمَكَّرُونَ ﴿١٦٦﴾

(سورة البقرة)

إن الجملة التي بهذه الصفة وفيها الخبر الكثير ، لكن صاحبها يصبه الكبر ، وه تعد في صفة فتوة الشاب ، إنه محاط بالخبر وهو أحرص ما يكون إلى ذلك الخير ، لأنه أصبح في الكبر وليس به طاقة بعمل بها ، وهكذا يكون نفسه معنقة بمعصاء هذه الجملة ، لا لنفسه فقط ولكن لذريته من الضعفاء ، وهذه قمة التصوير للاحتياج للخبر ، لا للنفس فقط ولكن للأساء الضعفاء أيضا

إننا أمام رجل محاط بثلاثة أطراف العطف لأول هو أخيه لبي فيها من كل حيز

واطرف لثاني هو الكبر وضعف والعجز عن العمل  
والطرف الثالث هو الدرية من الضعفاء

فيطرح هذه الأخيه بعصار فيه نار فاحترقت ، فأى حسرة يكون فيها الرجل ؟ إنها حسرة شديدة كذلك تكون حسرة من يبيع الخبر رثاء لناس ولا عصار كما يعرف هو الريح الشديدة لمصحوبه برعد وبرق ومطر وقد يكون فيه نار ، هذا يد كذبت الشجاعت والكهر رثية ناعمة من تصادم السحب أو حاميه لقلباته نارية من بركان قاتل . هكذا يكون حال من يبيع ماله رثاء للناس ابتداء مطمع ونشأه مؤنس أى ميثوس منه

إذن فكل إنسان مؤنس عليه أن يذكر ساعة أن يبيع هذا الابتداء بشر لنطمع ، وذلك الانتهاء الملء باليأس . إنها المحببة الشديدة ويصورها الشاعر بقوله

فأصبحت من ليل الغداة كقناضر  
على الماء حانت فروح الأصابع  
ويقول آخر  
كما أبرقت قسوما عطاشا عمامة  
فلما رأوها انشمت ونجبت

إن الذي يرانى بحسر كل حاجاته ، ولا يقدر على شيء مما كسب . ويقول الحق من بعد ذلك .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَؤُاْ أَنْفِقُواْ مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ  
وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ  
مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِتَّائِدِيهِ إِلَّا أَنْ تَنْفِقُواْ فِيهِ  
وَأَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ غَفِيْرٌ حَكِيْمٌ ﴿٢٧﴾

إن هذه الآية تعطى صورة تحدث في المجتمع لشرى . وكانت هذه الصور تحدث في مجتمع الملائنة بعد أن أسس فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم دولة الإسلام . بعض من الناس كانوا يحضرون العلق من السحل ويعتقه في المسجد من أجل أن يأكل منه من يريد . والعلق هو فرع قوي من السحل يضم أكثر من الفروع الصغيرة المعلقة عليها ثمار السلع . وكان بعضهم يأق علق غير ناضج أو بالحشف وهو أردأ لمرء ، فأراد الله أن يجسم هذا الموت ، حتى لا يجعلوا لله ما يكرهون ، فأمر في هذا القول الحكيم : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَؤُاْ أَنْفِقُواْ مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ .

إن الإنسان يجب أن يكون من الكسب الطيب الحلال . فلا تأق بهال من مصدر غير حلال لتتفق منه على أوجه الخير . فإله طيب لا يقبل إلا طيب . ولا يكون الإنفاق من رُدال وردى المال .

ويحدد الحق سبحانه وتعالى وسيلة الإنفاق من عطائه فيقول : « وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » وهو سبحانه يذكرنا دائماً حين يقول : « أَنْفِقُواْ مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ » . لأنظر انكسب هو الأصل في الرزق لا ، إن الكسب هو حركة موهوبة لك من الله . إنك أيها العبد إنما تتحرك بطلاقة موهوبة لك من الله ، وبفكر ممنوح لك من

الله ، وفي أرضه سحره لك الله ، إنها الأدوات المُنَعَّدَة التي حصَّكَ بها الله وليس فيها ما تمكِّكه أنت من دينك ولكن الحق يحرم حركة الإنسان وسعيه إلى رزق فيقول « أنفقوا من طيات ما كنتم »

ويتحدروا الحق من أن يختار الخبيث وغير الصالح من متاع عمسا لتفق منه بقوله سبحانه « ولا تهمموا الخبيث منه تفتقون » أي لا يصح ولا يدين أن يأخذ لأعب طسات الكسب ويعطى الله رضى الكسب وحيثه ، لأن الواحد ما لا يرضى له أن يأخذ لظعامه أو لعياله هذا الخبيث غير الصالح يفتق منه أو لتأكله . « وستم بأحديه إلا أن تعصوا عنه » واعلموا أن الله على حميد « أي أهلك أيها العبد المؤمن من مرضى لنفسك أن تأكل من الخبيث إلا إذا أعصمت عبيدك ، أو تم تبريل سعره لذنه ، فكان يعرض عليك البائع شيئاً من وسط اخوة أو شيئاً رديئاً بسعر يعل عن سعر الخبيث

- لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا هذه الصور لوجه الإنسان
- إن الفقة لا تنفص المال ولا تريد مسعائه مرة .
  - إن الفقة لا يصح أن يظلمها الإنسان ماله والأدى
  - إن القول لمعروف خبر من الصدقة المتبرعة ماله أو الأدى
  - إن الإنفاق لا يكون رثاء الناس أي يكون انتقاء مرضه الله

هذه الآيات لكريمة تعالج أفعال الإنفاق سواء أمة الشيع أو همة المله أو الأدى ، و الإنفاق من أجل انتظام أمام الدس ، أو الإنفاق من رضى المال وبعد ذلك سموا سبحانه

وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَقَصْلًا ۖ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١٨﴾

إن الشيطان قد يوسوس لكم بأن الإنفاق إفتقار لكم ، ويحاول أن يصرفكم عن الإنفاق في وجوه الخير ، ويغريكم بالعاصي والفحشاء ، فالحق حين يقبض يده عن المحتاج فإنه يُنخل في قلب المحتاج الحقد . وأى مجتمع يدخل في قلبه الحقد يجد كل المنكرات تنتشر فيه . ويعالج الحق هذه المسائل بقوله :

﴿ إِنَّمَا الْحَيَوةُ لَنفْسٍ لَّيْبٌ وَهوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ  
أَمْوَالَكُمْ ۚ إِنْ يَسْقُكُمْوهَا فَيُخْرِجْكُمْ تَبَحَّلُوا وَبُخْرَجَ أَصْنَعُكُمْ ۗ ﴾

( سورة محمد )

إن الحق سبحانه وتعالى لا يسألك أن ترد عطاء لك من المال ، إنما يطلب الحق تطهير المال بالإتفاق منه في سبيل الله ليزيد ولبنمو ، وليخرج الضمن من المجتمع ، لأن الضمن حين يدخل مجتمعا فعل هذا المجتمع السلام ولا يُبقى المجتمع من هذا الضمن إلا بأن تأتيه صربة قوية تزلزله ، فيتبه إلى ضرورة إخراج الضمن منه .  
لذلك يحذرنا الله أن نسمع للشيطان :

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ۚ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۚ وَاللَّهُ  
وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾

( سورة الفرقة )

فالسبى بسمع لقول الشيطان ووعده ، ولا يستمع إلى وعد الله بصبح كمن رجع عدو الله على الله - أعداء الله وإياكم من مثل هذا الموقف - إن الشيطان قد وسوس لكم بالفقر إذا أنعمتكم ، وحيرة الإنسان مع الشيطان تؤكد للإنسان أن الشيطان كاذب مصل . وحيرة الإنسان مع الإيمان بالله تؤكد للإنسان أن الله واسع المعفرة ، كثير العطاء لعبده . ولحكمة تقتضي أن نعرف إلى أى الطرق نهتدى وسير . وبعد ذلك يقول الحق

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ

## أَوْفَى خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٦٦﴾

والحكمة هي وضع الشيء في موضعه النافع فكان الحق يقول : كل ما أمرتكم به هو عين الحكمة : لأن أريد أن أؤمن حياتكم الدنيا فيمن تتركون من الدرية الصعفاء ، وأؤمن لكم سعادة الآخرة فإن صنع العبد المؤمن ما يأمر به الله فهذا وضع الأشياء في موضعها وهو أحد بالحكمة

وقد أراد الحق أن يعلم الإنسان من خلال عاطفته على أولاده ، لأن الإنسان قد تمر عليه فترة يهون فيها عنده أمر نفسه ، ولا يشغل إلا تأمر أولاده ، فقد يجوع من أجل أن يشبع الأولاد ، وقد يعرى من أجل أن يكسوهم . ولما مثل الوصع في سيدنا إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ، لقد ابتلاه ربه في بداية حياته بالإحراق في النار ، ولأن إبراهيم قوى الإيمان فقد جعل الله النار برداً وسلاماً .

وابتلاء الله في آخر حياته برؤيا دبح ابنه ، ولأن إبراهيم عظيم الإيمان فقد امتثل لأمر الرحمن الذي امتلى إسماعيل بكبش عظيم . ولإنسان في العمر المتأخر يكون تعقه بأبنائه أكبر من تعلقه بنفسه . وهكذا كان الترقى في سلاء الله لسيدنا إبراهيم عليه السلام ، ولذلك أراد الله أن يصرب للبشر على هذا الوبر وقال :

﴿وَلْيَحْشَ الَّذِينَ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ إِذْ هُمْ يَقْتُلُونَ﴾

قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٦٧﴾

(سورة النجم)

إن الحق سبحانه يريد من عباده أن يؤمنوا على أولادهم بالعمل الصالح ولقول السديد

ومثال آخر حين أراد الحق أن يحمي مال اليتامى ، واعتلما بدحول مومي عليه السلام مع العبد الصالح الذي أرق العلم من الله ، يقول : سبحانه .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَبَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَفْعَمَا إِلَيْهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصِيعُوهُمَا فَجَاءَ جَدًّا مِنْهُمَا  
يُتِيمًا أَنْ يَقْعَمَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتُ لَمُتَّ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ ﴿١٦٥﴾

( سورة الكهف )

كان موسى عليه السلام لا يعلم علم العدد الصالح من أن الحداد كان تحت كمر  
ليتيمين ، كان أبوهما رجلاً صالحاً ، وأهل هذه القرية لكثام ، فقد رفضوا أن يصحبوا  
العدد لصالح وموسى عليه السلام ، بذلك كان من الضروري إقامة الحداد حتى  
لا يكشف الكفر في قرية من الكثام ويستولوا عليه ولا يأخذ الغلامان كمر أبيهما الذي  
كان رجلاً صالحاً

إذن فاحتق سبحانه يعلمنا أن تؤمن على أساتك بالعمل الصالح ، وهذه هي  
الحكمة غيبها التي لا يصل إليها إلا أصحاب العقول القادرة على الوصول إلى عمق  
التفكير السديد

وسيدنا الحسن البصري يعطى المثل في العمل الصالح عندما يهرب من يدخل عليه  
مالاً حاجه ، مرحباً بمن جاءه يحسن رادى إلى الأجرة بغير أجرة إن سيدنا الحسن  
لبصري قد أوتي من الحكمة ما يجعله لا ينظر إلى الخير بمقدار ربه ، ولكن بمقدار  
ما يعود عليه بعد الرمن

وقد صرحت من قبل المثل باللميذ الذي يجتهد ويتعب في دروسه ليحصل على  
النجاح ، يبي أخوه يحب له الراحة والكسل ثم يجد اللميذ الذي يتعب هو  
الذي يرفض في المجتمع ، بينما الذي ارتضى به الكسل يصير صعلوك في  
المجتمع . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه

﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ

## يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧﴾

وقد عرفنا النعقة من قبل ، فما هي مسألة النذر ؟ إن النذر هو أن تُلزم نفسك بشيء من جنس ما شرع الله فوق ما أوجب الله . فإذا نذرت أن تصلي لله كل ليلة عددا من الركعات فهذا بذر من جنس ما شرع الله ؛ لأن الله قد شرع الصلاة وفرضها خمسة فروض ، فإن نذرت فوق ما فرضه الله فهذا هو النذر . ويقال في الذي يذُر شيئا من جنس ما شرع الله فوق ما فرضه الله : إن هذا دليل على أن العادة قد حلت له ، فالحبها وعشقها ، ودليل على أنه قارب أن يعرف قدر ربه ، وأن ربه يستحق منه فوق ما افترضه عليه ، فكأن الله في اعتراضه كان رحيمًا بنا ، لأنه لو لمصر ما يستحقه ما لما استطاع واحد أن يفنى بحق الله .

إذن فعندما تنذر أيها العبد المذموم بذر ، فإنك تُلزم نفسك بشيء من جنس ما شرع الله لك فوق ما فرض الله عليك . وأنت تخبر أن تقبل على بذر ما ، أو لا تقبل . لكن إن نطقت بذر فقد لزم . لماذا ؟ لأنك ألزمت نفسك به . ولذلك ممن التعقل ألا يورط الإنسان نفسه وبسرف في البذر ، لأنه في ساعة الأداء قد لا يقدر عليه .

وأهل العرب من الله يقولون لم يحل بالبذر بعد أن نذر . هل حربت ربك فلم تجده أهلاً لاستمرار ابود . وليس بها من يخرج عن ذلك ؛ لأن الله أهل لعميق ابود . وهذا مما الأفصل أن بتريت الإنسان قبل أن يذُر شيئا .

ونقف الآن عند تفصيل الآية . « وما للظالمين من أنصار » . إن الظالمين هم من ظلموا أنفسهم ؛ لأن الحق عرما أن ظلم الإنسان إنما يكون لنفسه ، وقال لنا :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الشَّيْقَ وَلَكِنَّ أَشَاسَ أَنفُسَهُمْ يَهْدِيُونَ ﴾ ﴿١١﴾

(سورة يونس)

ومن أشد الظلم للنفس الإغراق وبقاء ، أو الإغراق في المعاصي ، أو عدم الوفاء



بالسر ، فليس لمن بعض دلت أعوان يدفعون عنه عذاب الله في الآخرة ويقولون الحق من بعد ذلك .

﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَبِعَمَاهُمْ وَإِنْ تُحْفُوها  
وَتُؤْتُوها الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ  
مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٧١)

فإن أظهرتم الصدقة فعم ما تعملون ، لنكونوا قدوة لعبركم ، ولتردوا الصعر عن المجتمع . وإن أخفيت الصدقة وأعطيتها للفقراء فإن الله يكفر عنكم بذلك من سيئاتكم ، والله خير الناس وراء إعلان الصدقة ووراء إخفاء الصدقة ، والمبدل في هذه الآية التكرير يخدم قضية إساءة الصدقة وقضية إخفاء الصدقة ، فالحق خير منه من أبقى الصدقة ، فإن كان عب فعليه أن يبدى الصدقة حتى يحصى عرصه من وقوع الناس فيه ، لأن الناس حين يعلمون بمعنى فلان أن يعطوا يوافق لهم ، وإلا فقد تحسب الناس على معنى عطف الله له ، ولا يحسبون له النعمة في سبيل الله لماذا ؟ لأن الله يريد أن يحصى أعراض الناس من الناس

أما إن كان الإنسان غير طاهر المعنى فمن المستحسن أن يحصى الصدقة ، وإن أظهرت الصدقة كما قلت لبأسى الناس لك ، وبسر في دمهك الرياء فهذا أيضا مطلوب ، والحق يقول : والله لا تعملون خيرا ، أي أن الله مجازي على قدرية العمل في الإبداء أو في الإخفاء

إنه باستقراء الآيات التي تعرضت للإعناق نجد سبحانه يسد أمام النفس الشرية كل مفاضة الشح ، ويقطع عنها كل سبيل تحدته به إذا ما أرادت أن تبجل بما أعطتها الله ، والخالق الذي وهب للمخلوق ما وهبه يطلب منه الإعناق ، وإذا نظرتنا إلى الأمر في عرف المنطق وجدناه أمراً طبعياً ، لأن الله لا يسأل خلقه النعمة في حقن

ولكنه يسألهم الثقة بما خلقه لهم .

إن الإنسان في هذا الكون حين يُطلب إيماناً منه أن يثق فلازم ذلك أن يكون عنده ما يثق به ، ولا يمكن أن يكون عنده ما يثق به إلا إذا كان مالك لشيء زاد عن حاجته وحاجة من يعوله ، وذلك لا يتأتى إلا بحصيلة العمل . إذن فامر الله للمؤمن بالثقة يقتضي أن يأمره أولاً بأن يعمل على قدر طاقته لا على قدر حاجته ، فلو عمل كل إنسان من القادرين على قدر حاجته ، فكيف توجد مقومات الحياة لمن لا يقدر على العمل ؟ . إذن فالحق يريد منا أن نعمل على قدر طاقتنا في العمل لنعمل أنفسنا ولنعمل من في ولايتنا ، فلماذا ما زاد شيء على ذلك وهباء لمن لا يقدر على العمل

ولفائس أن يقول . إذا كان الله قد أراد أن يحس قلوب المنفقين على العاجرين فلماذا لم يجعل العاجرين قادرين على أن يعصوا هم أيضاً ؟

يقول لصاحب هذا القول إن الحق حين يخلق . يخلق كوناً متكاملًا مسجماً دانت له الأسباب ، ربما أطعمه أن الأسباب تخص له . فقد يظن أنه أصبح حالقاً لكل شيء ، فعين تستجب له الأرض إن حرث وورع ، وحسب تستجب الماء له إن أملى دلوه ، وحسب تستجيب له كل الأسباب . ربما طر نفسه أصيلاً في الكون فبشاء الله أن يحس القوة التي تعمل في الأسباب لتستجيب ، بشاء . سبحانه . أن يجعلها عرصاً من أعراض هذا الكون ، ولا يجعلها لازمة من لوازم الإنسان ، فمرة نجده قادراً ، ومرة نجده عاجراً

ولو أنه كان هدائمه قادراً لم يُوجد عاجراً . إذن فوجود العاجرين عن الحركة في الحياة نكت للناس على أنهم ليسوا أصلاء في هذا الكون ، وأن الذي وهبهم القدرة يستطيع أن يسلبهم إياها ليعيدها إلى سواهم ، فيصبح العاجر بالأمس قادراً اليوم ، ويصبح القادر بالأمس عاجراً اليوم وبذلك يظل الإنسان مستبهاً إلى القوة لواهبه التي استخلفته في الأرض .

ولذلك كان الفارق بين المؤمن والكافر في حركة الحياة أهي يجمعان في شيء ، ثم يفرد المؤمن في شيء ، يجمعان في أن كل واحد من المؤمنين ومن الكافرين يعمل في أساس الحياة ليسج ما يقوته ويقوت من يعمل ، ذلك قدر مشترك بين المؤمن والكافر والكافر يعتصر على هذا السبب في العمل ليعمل لنفسه ولن يعمل .

ولكن المؤمن يشرك معه في ذلك ويريد أنه يعمل لشيء آخر هو : أن يفيض عنه شيء يمكن أن يوجهه به إلى غير التقدير على العمل . هذا ذلك عند الله

ولذلك قلنا سابقا : إن الحق سبحانه حين تكلم من الزكاة تكلم عنها مرة مطلوبة أداء ، وتكلم عنها مرة أخرى مطلوبة غاية فتن : « والذين هم للزكاة فاعلون » ولم يقل للزكاة مؤدون ، صامسون لا يعملون لفصد الزكاة إلا إن عملوا عملا على قدر طاقاتهم ليقوتهم ويقوت من بعدهم ، ثم يفيض منهم شيء يؤدون عنه الزكاة .

وحق سبحانه وتعالى يقول في أمر الزكاة

﴿ وَأَقِيمُوا زُكَاةَ مَا كَسَبْتُمْ مِنْ حَرْثِكُمْ وَأَنْتُمْ سَاهُونَ ۚ وَالزُّكَاةُ يُغْنِيكُمْ عَنْ أَنْتُمْ وَتَنْصَرِفُونَ ۚ وَإِنْ أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ بَصِيرَةً ۚ ﴾

( سورة البقرة )

إذن وحسيلة الأمر أن الزكاة مفصولة هم حين يقضون على أي عمل ولقد صارت الزكاة بذلك الأمر الإلهي مطلوبة غاية ، فهي أحد أركان الإسلام وبذلك تتميز المؤمن على الكافر

والحق سبحانه وتعالى حين تعرض لمذبح النجس في النفس الشريفة أوضح : أن أول شيء يتعرض له النفس لشريفة ل الإنسان يخاف من انقطة لأنها تنقص

ما عده ، وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشح في قوله : « انقروا الظلم » فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، وتقرأ الشح ، وقد الشح أهلت من كس قبلكم منهم على أن سفعوا دماءهم واستحبوا محرمهم <sup>(١)</sup> هي كذلك ، ولكن الحق سبحانه أوضح لكل مؤمن أنها تنقص ما عندك ، ولكنها تزيدك بما عده الله ، فهي إن أنقصت ثمرة فعلت فقد أكملتك بعمل الله لك . وحيث تكملك بعمل الله لك ، يجب أن تقارن بين قوة مخلوقة عاجزة وقوة مخلقة قادرة

ويلمت سبحانه . أن ينظر جيداً إلى بعض خلقه وهي الأرض ، الأرض التي يصح فيها البذرة الواحدة - أي الحبة الواحدة - لأنها تغطي سبع سبائين في كل سنة مائة حبة ، فهو ينظر الإنسان أول الأمر إلى أن ما يرضعه في الأرض حين يحرث ويررع يقلل من عازله له روع ولما غرس ، ولكنه عندما ينظر لما تغطيه الأرض من سميانة صعب أقبل على الدر ، وأقبل على الحرث غير هاب ، لأن ستعوصه أصعاف أصعاف ما أعطى

وإذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تعطي هذا العطاء ، فكيف يكون عطاء خالق الأرض ؟

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُبْذِرُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَعِيًّا سَائِلٌ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝١٣﴾

(سورة البقرة)

إذن فقد ساء الحق بهذا المثل على الناس البشريه من بعد الشح وشيء آخر يتعرض له الآيات ، وهو أن الإنسان قد يخرج في مجتمعه من سائل يسأله فهو في حرصه على ماله لا يحب أن ينفق ، والحرص على مكنته في الناس لا يحب أن يجمع ، فهو يعطى

ولكن يتدفق ، وربما تعدى تأفقه إلى غير الذي سأله ورجوه ، فقال الحق سبحانه وتعالى لئلا ذلك الموقف :

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا إِذًى وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ ٢٤٧ ﴾

( سورة البقرة )

وقول الله : « قول معروف ومغفرة » يدل على أن المسئول قد أحفظه سؤال لسائل وأعطاه الإحراج ، ويطلب الحق من مثل هذا الإنسان أن يغفر لمن يسأله هذه الزلة إن كان قد اعتبر سؤاله له ذنباً :

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا إِذًى وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ ٢٤٨ ﴾

( سورة البقرة )

وبعد ذلك يتعرص الحق سبحانه وتعالى إلى « الم » الذي يفسد العطاء ؛ لأنه يجعل الآخذ في ذلة وانكسار ، ويريد المعطى أن يكون في حزة العطاء وفي استعلاء المفق ، فهو يقول : إنك إن فعلت ذلك ستعدي الصدقة منك إلى المير فقيد ، ولكنت أنت الخاسر ؛ لأنك لن تغيد بذلك شيئاً ، وإن كان قد استفاد السائل . إذن فحرمنا على نفسك لا تشع الصدقة بلبي ولا بالأذى

ثم يأتي الحق ليعالج مفدا من منافذ الشح في النفس البشرية هو : أن الإنسان قد يحب أن يعطى ، ولكنه حين تمتد يده إلى العطاء يعز عليه إنفاق الجيد من ماله الحسن ، فيستيقبه لنفسه ثم يعزل الأشياء التي تزهد فيها نفسه ليقدمها صدقة ، فيبانا - سبحانه - عن ذلك فيقول :

﴿ وَلَا تَحْسَبُوا الْحَيَاةَ مَبْعُوثًا وَلَا تَحْسَبُوا الْحَيَاةَ مَبْعُوثًا إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾

( من الآية ٢٦٧ سورة البقرة )

أي إن مثل هذا لو أعطى لك لم صلته إلا أن تغمض وتسامح في أشغله وكأنك

لا تبصر عيه لتأخذه ، فما لم تقبله لفبك فلا يصح أن تقبله لسواك ثم بعد أن نكلم القرآن عن منافذ الشح في النفس الإنسانية بين لنا أن الذي يشج هذه المناهض ويغذيها إنما هو الشيطان .

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْمَعْصِيَةِ وَاللَّهُ يَعْزِمُكُمْ مِّنْهُ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَصْلًا مِّنْهُ ﴾  
وَأَسْعُ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

( سورة البقرة )

إِنَّ سَوْتَكُمْ بَيْنَ عَذَّةِ الشَّيْطَانِ وَوَعْدِ اللَّهِ لَكُمْ بِالرِّضْوَانِ كَالْخُسْرَانِ وَلِضِياعِ مَوَاجِعِهِمْ إِيمَانُكُمْ ، وَعَلَيْكُمْ أَنْ تَحْمِلُوا عَذَّةَ الشَّيْطَانِ مَذْحُورَةٌ أَمَامَ وَعْدِ اللَّهِ لَكُمْ بِالْمُفْلِ وَالْمَغْفِرَةِ

ثم يتكلم بعد ذلك عن رمى الصدقة وعن حال إنفاقها - ظاهرة أو باطنة - وتكون النية عذرة هي المرجحة لعمل على عمن ، فإذا كنت إنساناً غنياً فدرهم عرسك من أن يتأوله الناس وتصدق صدقة علية فيها هو واجب عليك لتحمي عرسك من مقلوبهم ، وأن أردت أن تتصدق تطوعاً فلا مانع أن تسرها حتى لا تعلم سواك ما أنفقت بميتك . فعن ابن عباس رضي الله عنهما : صدقات السر في التطوع تفضل علانيتها سبعين صاعاً ، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بحمسة وعشرين صاعاً .

وكان الله فتح أمام النفس البشرية كل مهاد العطاء وسد منافذ الشح . انظروا بعد ذلك إلى الحق سبحانه حيناً يحمي مصعاف المؤمنين ليجعلهم في حماية أقوياء المؤمنين . اعلم أيها العبد المؤمن أنك حين تتلقى حكم الله لا تتلفاه على أنه مطلوب منك دلياً ، ولكن عليك أن تتلقى الحكم على أنه قد يقصر بتصرفات الأعيار مطلوباً لك ، فإن كنت عيا فلا تعتقد أن الله بطالك دائماً ، ولكن فذكر أنك إن أصحبت تعرض الأعيار في الحياة فقيراً سيكون الحكم مطلوباً لك . فمدر - حال كونه مطلوباً منك الآن - لأنك غني - أنه سيطلب لك إن حصلت لك أعيار ، فحشرت بها فقيراً

إِنَّ قَالَتُ شَرِيحَ بَكَ وَعَلَيْكَ ، فَلَا تَحْتَرِ عَالِيكَ دَائِماً لِأَنَّكَ إِنْ احْتَرَتْ عَالِيكَ دَائِماً



وسلم قلت . قدمت على أمي وهي راغبة . أفأصل أمي ؟ قال . « نعم صلى عليك » (١) . ولقد أراد بعض من المؤمنين أن يضيقوا على أقاربهم ممن لم يؤمنوا حتى يؤمنوا ، لكن الرحمن الرحيم بزل القول الكريم . « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء » .

بأنه الذي لم يسمى . دين يريد أن يعول المخلوق في الأرض من عطاء الربوبية وإن كان لا يستحقه . عطاء الألوهية ؛ لأن عطاء الألوهية تكليف ، وعطاء الربوبية رزق وربية .

والرزق والربية مطلوبان لكل من كان على الأرض ؛ لأننا نعلم أن الله في الوجود لم يستدع نفسه في الوجود ، وإنما استدعاه خالقه ، ومادام الخالق الأكرم هو الذي استدعى العبد مؤمناً أو كافراً ، فهو المكفل برزقه والرزق شيء ، ومنطقه الإيمان بالله شيء آخر ، فيقول الحق « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء » .

أو أن الآية حينما نزلت في الحث على النفقة ربما إن بعض الناس تكاسل ، وربما كان بعض المؤمنين يعمدون إلى الرديء من أموالهم فيعاقبوه

وبما كان الإسلام قد جاء لينتجبه النفس الشريفة بكل أغيارها ويكمل خواطرها ، وليس عجيب أن يعاجبهم من ذلك ويردهم إلى الصواب إن خطرت هم خاطرة تسيء إلى سلوك الإيمان .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب حين ينزل أي أمر أن يكففت المسلمون إليه لعتة الإقبال بحرارة عليه ، فإذا رأى تهاوياً في شيء من ذلك حزن ، فيوضح له الله عليك أن تلعبهم أمر الله في النفقة ، وما عليك بعد ذلك أن تطيعوا « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء » .



ولفائل أن يقول : ماذا الله هو الذي ينبغي أن نترك الناس على ما هم عليه من إيمان أو كفر ، وما علينا إلا البلاغ ، ونقول لأصحاب هذا الرأي : تبهوا إلى معطيات القرآن فيما يتعلق بقضية واحدة ، هذه القضية التي نحن بصدد حلها هي الهداية ، ولنستقرئ الآيات جميعا ، فنجد أن الدين يرون أن الهداية من الله ، وأنه ما كان يصح له أن يعذب عاصيا ، هم وجهة نظر ، ولدين يقولون : إن له سبحانه أن يعذبهم ، لأنه ترك لهم الخيار لهم وجهة نظر ، فما وجهة النظر المختلفة حتى يصير الأمر على قدر سواء من الفهم ؟

إن الحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم في قوائمه الكلام الموحى ، فهو يطلب من أن تدبره ، ومعنى أن تدبره ألا تنظر إلى واجهة النص ولكن يجب أن تنظر إلى حللية النص . « أفلا يتدبرون » يعنى لا تنظر إلى الوجه ، ولكن انظر ما يواجه الوجه وهو الخلف .

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ آيَةً أَنْ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة السجدة)

فالحق سبحانه وتعالى قد قال .

﴿ وَأَمَّا نُنُورُهُمْ فَبِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة ص)

كيف يكون الله قد هداهم ، ثم بعد ذلك يستحيون العصى على الهدى ؟ إذا معنى « هداهم » أى نلهم على الخير . ونحن نلهم على الخير فقد ترك هدم قوة الترجيح بين البدائل ، فلهم أن يختاروا هذا ، ولهم أن يختاروا هذا ، فلما هداهم الله ودلهم « استحيوا لعصى على الهدى » والله يقول لرسوله في نصيب آخرين في القرآن الكريم :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

ففى عنه أنه يهذى . وأنت له الحق الهداية فى آية أخرى يقول فيها .

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

( من الآية ٥٢ سورة لشورى )

فكيف يثبت الله فعلاً واحداً لماعل واحد ثم يعطى الفعل ذاته عن الماعل ذاته ؟  
يقول هم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه أن يدل أساس على منهج الله  
ولكن ليس عليه أن يجعلهم على منهج الله ، لأن ذلك ليس من عمله هو ، فإذا قال  
الله « إنك لا تهدي » أى لا تجعل بالقدر والفهم من أحبيت ، وإنما أنت « تهدي »  
أى تدل فقط ، وعليك ابلاغ وعلمنا الحساب

إذن يقول الحق « ليس عليك هدايتهم ولكن الله يهدي من يشاء » ليس فيه حجة  
عن القسرية الإيمانية التى يريد بعض المتحليلين أن يدخلوا منها إلى مبدأ التحلل  
النفسى عن منهج الله ويقول هؤلاء فيه فرق بين هداية الدلالة وهداية المعونة ، والله  
يهدى المؤمنين ويهتدى لكافر أى يدهم ، ولكن من أمر به يهديه هداية المعونة ، ويهديه  
هداية التوفيق ، ويهديه هداية تخفيف أعمال الطاعة عليه

« ليس عليك هدايتهم ولكن الله يهدي من يشاء » وما نفقوا من خير فلا بأسكم  
تلك قصية تعالج الشح منطقياً ، وكل معطى من الخلق عطوة عائد إليه هو ،  
ولا يوجد معطى عطاه لا يعود عليه إلا الله ، هو وحده الذى لا يعود عطاه لخلق  
عنه ، لأنه - سبحانه - ألا وقدما وقبل أن يخلق الخلق له كل صناعات الكمال ،  
عطاء الإنسان يعود إلى الإنسان وعطاء رب يعود إليه

ولذلك قال بعض السلف الذين لهم لجة إيمانية ما فعلت لأحد حيراً قط ؟  
فجبل له أقول ذلك وقد فعلت لعل كذا ولعل كذا ولعل كذا ؟ فقال إنما  
فعلته لنفسى فكأنه يظن حينها فعل للغير أنه فعل لنفسه ولقد قلب سابقاً إن  
المعروف بالله « الحسب العسرى » كان إذا دخل عليه من يسأله شئ فى وجهه وبش ،  
وقال له « مرحباً بمن جاء يحمل رادى إلى الآخرة بعير آخرة

إذن فقد نظر إلى أنه يعطيه وإن كان يأخذ منه فالحق سبحانه وتعالى يعالج في هذه القضية « وما نسقوا من خير فلا أنفسهم » أي يياكم أن تقولوا أني أطلب منكم أن تعطوا غيركم ، لقد طلست منكم أن تنفقوا لأريدكم أنا في النفقة والمطعم ، ثم يقول . « وما نسقوا من خير يوفّ إليكم » ومعنى التوفية : الأداء لكامل . ولا تقولوا أنكم نسقون على من سكر معروفيكم ؛ لأن ما أمضت من خير فانه به عليم . إذن فاجس نفقتك عند من يجحد ، ولا تجعل نفقتك عند من يجحد ، لأنك بذلك قد أسدلت جوارك من يملكك وليس لذي الله جوار لك

كنت أقول دأبها للذين يشكون من أمور تكران الحميل وسبيان المهروب : أنتم المستحقون لذلك : لأنكم جعلتموه في بالكم ساعة أنعمت عليهم ، ولو جعلتم الله في بالكم ما حدث ذلك منهم أبداً . « وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم ، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله » أهذه الآية تزكية لعمل المؤمنين ، أم نحر أريد به الأمر ؟

إِذَا الْإِنْسَانُ مَعَا ، هَلْ يَنْصَرِفُ أَنْفَقُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّقُ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْكُرُونَ ، أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مِنْ خَلْقٍ ، وَلَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْخَالِقِ ، أَمْ مِنَ الْخَلْقِ فَقَدْ اسْتَوَاتُمْ دِينَكُمْ وَعَرَصَكُمْ حَيَاتُكُمْ بَعْضُ حَقُوقِ اللَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ ، فَلَنْ يَنْتَدِي أَحَدٌ عَلَيْكُمْ لِيَقُولَ مَا يَقُولُ ، وَأَمَّا عِنْدَ اللَّهِ فَمَنْ سِجَّاتُهُ بِوَيْهِ الْخَيْرِ أَصْعَافُ أَصْعَافٍ مَا أَنْفَقْتُمْ فِيهِ .

وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه ويعلى عن مصرف من مصارف اللفظ كان في صدر الإسلام :

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ  
الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْقُفِ يَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ

## لَا يَسْتَلُوكَ النَّاسُ الْحَافَاؤَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبُكُمْ

ساعة أن سمع « حراً » ومحروراً « قد استهلت به آية كريمة معلّم أن هناك متعقاً . ما هو الذي للفقراء « هو هنا استغنى ، أي أن النعمة بالفقراء الذين أحصروا في سبيل الله . وإذا سألنا ما معنى « أحصروا » فإننا نجد أن هناك « حصر » وهناك « أحصر » وكلاهما فيه منع ، إلا أن المع مره يأتي بما لا يقدر أنت على دفعه ، ومره يأتي بما تقدر على دفعه

فإنّذي مرص مثلاً وحُصِر عن الضرب في الأرض ، أكنت له قدرة أن يفعل ذلك ؟ لا ، ولكن الذي أراد أن يضرب في الأرض فصعبه إسان مثله فإنه يكون عموماً ، إذن ميثوب الأمر في الأمرين إلى المنع ، فقد يكون المنع من انفس دعماً أو منع من وجود فعل العبر ، فهم أحصروا في سبيل الله حُصِرُوا لأن الكافرين يصيغون عليهم منافع الحياة ، أو حُصِرُوا أنفسهم على جهاد ، وه عمو أن يشتعلوا بغيره ، لأن الإسلام كان لا يزال في حاجة إلى قوم يجاهدون . وهؤلاء هم أهل الصفة « للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض » وعدم استطاعتهم نشيء من أمر خارج عن إرادتهم أو من أمر كان في بيهم وهو أن يراطلوا في سبيل الله ، هذا من الحائر وذات من الجائر

وكان الأمصار يأنون بالنمر ويتكوه في سياطه ، ويعلقون في حبال مشددة إلى صوري المسخذ ، وكلب حجاج واحد من أهل الصفة أحد عصاه وضرب سياطه النمر ، فبرل بعض التمر فيأكل ، وكان البعض يأتي إلى احدى من اشتر وشيخص ويضعه ، وهذا هو ما قال الله فيه : « ولا سمعوا الخبيث منه تنفقون ولستم بأحديه إلا أن تفضوا فيه » .

وإذا نظرنا إلى قول الحق : « لا يستطيعون ضرباً في الأرض » وه الضرب « هو

جعل من جوارحه بشدة على متأثر بهذا الصرب ، وما هو الصرب في الأرض ؟ إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أن الكفاح في الحياة يجب أن يكون في منتهى القوة ، وإنك حين تذهب في الأرض فعليك أن تفريها حوثاً ، ونفريها بذرأ ، لا تأخذ الأمر سهوادة ولين وللطك يقول الحق :

﴿ هُوَ الَّذِي حَـصَلَ لَكَ الْآرَضُ فَلَوْلَا فَاتَسَوَّىٰ مَآكِهَا وَكُلُّوا مِنْ رِزْقِهِ ۚ وَاللَّهُ  
الْمُشَوِّرُ ۝﴾

( سورة النك )

إن الأرض مسخرة من الحق سبحانه للإنسان ، يسعى فيها ، ويصرب فيها ويأكل من رزق الله الناتج حب .

وحين يقول الله سبحانه في وصف الذين أحصروا في سبيل الله فلا يستطيعون الصرب في الأرض « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » أي يظنهم الجاهل بأحوالهم أنهم أغنياء ، وسب هذا الظن هو تركهم للمسألة ، وإذا كان التعفف هو ترك المسألة قلنا يقول بعدها « تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً » والسمة هي العلامة المميزة التي تدل على حال صاحبها ، فكأنك ستجد فيهم خشوعاً وانكساراً وراثته هيثة وإن لم يسألوا أو يطلبوا ، ولكنك تعرفهم من حالتهم التي تستحق الإمداد عليهم ، وإذا كان التعفف هو ترك المسألة فانه يقول بعدها : « لا يسألون الناس إلحافاً » فكأنه أباح مجرد السؤال ولكنه نهى عن الإلحاح والإلحاف فيه ، ولو أنهم سألوا مجرد سؤال بلا إلحاف ولا إلحاح أما كان هذا دليلاً على أنهم ليسوا أغنياء ؟ نعم ، لكنه قال : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » إذن فليس هناك سؤال ، لا سؤال على إطلاقه ، ومن باب أولى لا إلحاف في السؤال ؛ يدلل أن الحق يقول « تعرفهم بسيماهم » ، وبوأنهم سألوا لكأن قد عرفناهم سؤلهم ، إذن فالآية تدلنا على أن المنهى هو مطلق السؤال ، وأما كلمة « الإلحاف » فجاءت بمعنى من المعاني التي يقصد إليها أسلوب القراء الإعراري ، ما هو \*

إن « السمة » - كما قلنا - هي العلامة المميزة التي تدل على حال صاحبها ، فكأنك ستجد خشوعاً وانكساراً وراثته هيثة وإن لم يسألوا ، أي أنت تعرفهم من حالتهم

البائسة ، فإذا ما سأل السائل بعد ذلك اعتبر سؤاله إلحاحاً ، لأن حاله تدل على الحاجة ، وبما دامت حالته تدل على الحاجة فكان يجب أن يجهد من يكفيه السؤال ، وإذا ما سأل مجرد سؤال فكانه الخف في المسألة وألح عليها .

وأيضاً يريد الحق من المؤمن أن تكون له فراسة نافذة في أخيه بحيث يتبين أحواله بالظرة إليه ولا بدعه بسأل ، لأنك لو عرفت به « السبيا » فانت ذكي ، أنت فطر ، ثم لو لم تعرف به « السبيا » وتنتظر إلى أن يقول لك ويسألك ، إذن فعندك تقصير في فطنة النظر ، وهو سبحانه وتعالى يريد من المؤمن أن يكون فعن النظر بحيث يستطيع أن يتعسس في وجه إخوانه المؤمنين ليرى من عليه هم الحاجة ومن عنده حواطر العوز ، فإذا ما عرف ذلك يكون عنده فعانة إجابة .

ولما عبره في تلك الواقعة ، فقد دق أحدهم الباب على أحد العارفين فخرج ثم دخل وخرج ومعه شيء ، فأعطاه الطارق ثم عاد باكياً فقالت له امرأته . ما يبكيك ؟ قال . إن فلاناً حرق بابي . قالت . وقد أعطيتك في الذي أبكاك ؟ قال : لأني تركته إلى أن يسألني .

إن العارف بالله حكيم ، لأنه أحسن بمسئولية ما كان يجب عليه أن يعرفه بعراسته ، وأن يتصرف على أخيار إخوانه . وبذلك شرع الله اجتماعات الجمعية حتى يتفقد الإنسان كل أح من إخوانه ، ما انتهى أفعده . أحاجة أم مرض ؟ أحدث أم مصيبة ؟ وحتى لا يحوجه إن أن يذل ويسأل . وحسن يعمل ذلك يكون له فطنة للإيمان .

« وما تنتقوا من خير فإن الله به عليم » يجب أن تعلم أنه قبل أن تعطى قد علم الله أنك ستعطى ، فالأمر محسوب عنه بغير أن ، ويجيء تصرف خلقه على وفق قدره ، وما قدره قديماً يلزم حاله ، وهو سبحانه قد قدر ؛ لأنه علم أن عنده سيعص وقد فعل . وكل فعل من الأفعال له رسم يحدث فيه ، وله هيئة يحدث عليها . والزمن ليل أو نهار

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى مبيناً حالات الإصاف والأيمان التي يحدث فيها وذلك في قوله تعالى

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا  
وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ  
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يُخْزَوْنَ ﴿٢٧﴾

إن المسألة في الإنفاق تقتضي أمرين إما أن تنفق سرّاً ، وإما أن تنفق علانية .  
والزمن هو الليل والنهار ، فحصر الله الزمان والحال في أمرين ، الليل والنهار هياكل  
أن تحجز عطية تريد أن تعطيتها وتقول : « بالنهار أقبل أو في الليل أعمل » لأنه  
أفضل ، وتتعلل بما يعطيك العسكرة في تأخير العطاء ، إن الحق يريد أن تتعدى  
الشفقة من إلى الفقير ليلاً أو نهاراً ، ومسألة الليلية والنهارية في الزمن ، ومسألة  
السرية والعلنية في الكيفية لا مدخل لها في إخلاص النية في العطاء .  
« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم » أضافت  
آية الذين ينفقون أموالهم بالليل أو النهار ؟ لا ، لقد طلب من كل ما أن يكون  
بنفاق ليلاً ونهاراً وقال : « سرّاً وعلانية » فأنفق أنت ليلاً ، وأنفق أنت نهاراً ، وأنفق  
أنت سرّاً ، وأنفق أنت علانية ، فلا تحدد الإنفاق لا ميل ولا بنهار ، لا برمس ولا  
بكمية ولا بحال .

إن الحق سبحانه استوعب من الإنفاق ليلاً ونهاراً ، واستوعب أيضاً الكيفية التي  
يكون عليها الإنفاق سرّاً وعلانية ليشيع الإنفاق في كل زمن بكل هيئة ، وهذا يقول  
لحق سبحانه وتعالى عن هؤلاء : « فلهم أجرهم عند ربهم » وهذا القول يدل على  
عموم من يتلقى منه الإنفاق ليلاً أو نهاراً ، سرّاً أو علانية

وإن كان بعض القوم قد قال إنها قيلت في مناسبة خاصة ، وهي أن الإمام عليّاً  
كرم الله وجهه ورضي عنه كانت عنده أربعة دراهم ، فتصدق بواحد نهاراً ، وتصدق  
بواحد ليلاً ، وتصدق بواحد سرّاً ، وتصدق بواحد علانية ، فنزلت الآية في هذا

الموقف ، إلا أن قول الله : « هلهم » يدل على عموم الموصوع لا على خصوص السب ، فكان الحراء الذى رتبته سبحانه وتعالى على ذلك شائع على كل من يتأذى منه هذا العمل .

وقول الله « هلهم أجرهم عند ربهم » هنا نجد أن كلمة « أجر » تعطينا لمحة في موقف المؤمن من أداءات الإلهاق كنه : لأن الأجر لا يكون إلا عن عمل فيه ثمن لشيء ، وفيه أجر لعمل . فالذى تستأجره لا يقدم لك شيئا إلا بمجهود . هذا المجهود قد يشاء عت ثمن ، أى شيء له ثمن ، فقول الله « هلهم أجرهم عند ربهم » يدل على أن المؤمن يجب أن ينظر إلى كل شيء جاء عن عمل فانه يطلب منه أن ينطق به

إن الله لا يعطيه ثمن ما أعتق ، وإنما يعطيه الله أجر العمل ، لماذا ؟ لأن المؤمن الذى يصرب فى الأرض يحطط بعكره ، والمكر مخلوق لله ، وبعد التحطيط الذى خططه بعكره برساسة طقانه وأجهزته ؛ وطاقاته وأجهزته مخلوقة لله ، ويتفاعل مع المادة التى يعمل فيها ، وكلها مخلوقة لله ، فإى شيء يمكنك الإنسان أن هذا كله ؟ لا الفكر الذى يحطط ، ولا الطاقة التى تفعل ، ولا المادة التى تعمل ؛ فكلها لله . إذن فأت فقط لك أجر عملك ؛ لأنك تعمل فكرا مخلوقا لله ، بطاقة مخلوقة لله ، فى مادة مخلوقة لله ، فإن نتج منها شيء ، أراد الله أن يأخذ منك لأحييك العاجز المغير فإنه يعطيك أجر عملك لا ثمن عملك . لكن المساوى لك فى الخلق وهو الإنسان إن أخذ منك حصية عملك فهو يعطيك ثمن ما أخذ منك ، فهو من المخلوق المساوى « ثمن » ، وهو من الخالق الأعلى أجر ؛ لأنك لا تملك شيئا فى كل ذلك

وبعد ذلك يقول الحق : « ولا تخوف عليهم ولا هم يحرنون » والخوف هو الخزر من شيء يأتى ، فمن الخائف ؟ ومن الخوف ؟ ومن المحوف عليه ؟ « ولا تخوف عليهم » من ؟

يجوز أن يكون « ولا خوف عليهم » من أنفسهم ؛ فقد يخاف الطالب على نفسه من أن يرمسب ، فالتمس واحدة خائفة وخوف عليها ، إنها خائفة الآن وخوف عليها بعد الآن . فالتلميذ عندما يخاف أن يرمسب ، لا يقال . إن الخائف هو عن المحوف ،



لأن هذا في حالة ، وهذا في حالة .

أو : لا خوف عليهم ، من غيرهم ، فمن الخائز أن يكون حول كثير من الأعياء  
أناس حمقى حين يرون أيدي هؤلاء ، مبسوطة بالخير للناس فيغزومهم ليسحبوا منها  
أن يفتقروا كأن يقولوا لهم : « استعملوا لدرم فوراكم عيالكم » لكن أهل الخير  
لا يستمعون هؤلاء الحمقى

إذن قد لا خوف عليهم ، لا من أنفسهم ، ولا من الحمقى حولهم . ويسمع  
الحق : « ولا هم يحربون » أي لا خوف عليهم الآن ، ولا حول عندهم حين  
يواجهون حقائق الخير التي ادحرها الله سبحانه وتعالى لهم بل إنهم سيبرحون .

بعد ذلك يتعرض الحق سبحانه وتعالى إلى قصبة من أخطر قصايا العصر ، وهذه  
القصبة كان ولا بد أن يتحرس لها القراء ؛ لأنه يتكلم عن اسمة وعن الإعتاق .  
ولاشك أن ذلك يقتضي منف ومنف عليه ؛ لأنه عاجز ، فهو أن الناس شحوا ، ولم  
يتفقوا ، فمادا يكون موقف العاجر الذي لا يجد ؟ إن موقفه لا يتعدى أمرين إما أن  
ينهب فيقرص ، وإن لم يفل أحد أن يقرصه فهو يأخذ بالربا والريادة ولا فكيف  
يعيش ؟

إذن فالآيات التي نحن بصددتها تعرضت للهيكلة الاقتصادي في أمة إسلامية  
حديثة ، أو أمة إسلامية بخيلة شحيحة ، لماذا ؟

لأن الذي خلق الخلق قد صنع حساب دقيقا لذلك الخلق ، بحيث لو أحصيت  
ما يجب على الواحد من ركاة ، وأحصيت ما يحتاج إليه من لا يقدر لأن به عجز  
طبيع عن العمل ، لو جدت العاجرين يحتاجون لمثل ما يقرص عن القادرين  
ولا ريادة أو نقص ، ولا كان هناك خطأ والعباد بالله في حساب الخالق ، ولا يمكن  
أن يأتى ذلك أبد

وحين ننظر إلى المجتمعات في تكوينها نجد أن إنسانا عينا في مكان قد بنا به  
مكانه ، وحتار أن يقيم في مكان آخر ، فيعجب الناس لماذا ترك ذلك المكان وهو في

يسر ورخاء وظئ ؟ ربما لو كان فقيراً لقلنا طلباً للسعة ، فلماذا خرج من هذا المكان وهو واجد ، وهو على هذا الحال من اليسر ؟ إيهم لم يفتنوا إلى أن الله الذي خلق الخلق يُدير كونه بتسخير وتوجيه لطواظ التي تخطر في أذهان الناس ، فتجد مكانه قد بنا به ، وامتلات نفسه بالقلق ، واختار أن يذهب إلى مكان آخر .

ولو أن صدفا أجهوة إحصائية دقيقة وحسبنا المحاجين في البيئة التي انتقل منها لوجدنا قدراً من المال رائداً عن حاجة لذين يعيشون في هذه البيئة ، فوجهه الله إلى مكان آخر يحتاج إلى مثل هذا الكم منه . وهكذا نجد الشاغل منظرها . فإن رأيت إنساناً محتاجاً أو إنساناً يريد أن يرابي فاعلم أن هناك تقصيراً في حق الله المعلوم ، ولا أقول في الحق عبر المعلوم . أي أن المني بحسب ما يجب عليه ، يفاقه للمحتاج .

والقرآن حين يواجه هذه المسألة فهو يواجهها مواجهة تُشعّ العمل الربوي بشيئا يجعل النفس الإنسانية المستقيمة التكوين تنفر منه فيقول سبحانه وتعالى .

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢٧٥)

وانظر إلى كلمة « يأكلون » ، من كل حاجات الحياة أكل ؟ لا ، فحاجات الحياة كثيرة ، الأكل بعضها ، ولكن الأكل أهم شيء فيها ، لأنه وسيلة استبقاء النفس و« الربا » هو الأمر الرائد ، وما دام هو الأمر الرائد بمعنى هو لا يحتاج أن يأكل ، فهذا

تقرع له .

إن الحق يريد أن يشرح هذا الأمر فيقول : لهم سمة . هذه السمة قال العلماء أهى في الآخرة يتميزون بها في المحشر . كما يقول الحق

﴿ يُعَرِّفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَمِهِمْ ﴾

( من الآية ١١ سورة الرحمن )

فهؤلاء غير لمصدين هم علامة مميزة . وهؤلاء غير المزكين لهم علامة أخرى مميزة بحيث إذا رأيتهم عرفتهم بسيماهم ، وأنهم من أى صنف من أصناف العصاة ، فكأنهم حين يقومون يوم القيمة يقومون مصروعين كالذى يتخبطه ويصربه الشيطان من المس فيصرعه ، أو أن ذلك أمر حاصل لهم في الدنيا ، ولبحث هذا الأمر :

« الذين يأكلون الرب لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس »  
يريد أن يعرف كلمة « التخبط » وكلمة « الشيطان » وكلمة « المس » . « التخبط » هو الصرب على غير استواء وهدى ، أنت تقول : فلان يتخبط ، أى أن حركته غير رتيبة ، غير منطقية ، حركة يس لها ضابط ، ذلك هو التخبط . « الشيطان » جس من خلق الله ، لأن الله قال لما : إنه خلق الإسن والحسن ، والجن منهم شياطين ، وحين مطلق ، ولشيطان هو عاصى الجن . وحين لم ير الشيطان ، ولكن علم به بواسطة إعلام الحق الذى آمننا به فقال : أن لى خلق مستر ، ولذلك سميت الجن ، من الاستتار ومنه المجهول أى المستور عقله ، والعاصى من هذا الخلق اسمه « شيطان »

إذن قايما بنا به لا عن حس ، ولكن عن إيمان يغيب أخبرنا به من أما به . وحين نجد شيئا اسمه الإيمان يجب أن نعرف أنه متعلق بشيء غير محس ، لأن المحس لا يقال لك : آمن به ، لأنه مشهود لك ، فانا لا أقول : أنا أؤمن بأن الصباح مير الآن ، أنا لا أؤمن بأنا مجتمعون فى المسجد الآن ، لا أقول ذلك لأن هذا واقع مشهود ومحس . إذن فالأمر الإيمان يتعلق بالغيب ، مثل الإيمان بوجود الملائكة وإذا ما كنا قد آمننا بالغيب نجد الحق سبحانه وتعالى يعطينا لنا صورة للشيطان ،

ولكنه حين يعطيا صورة للشيطان أو لرأس الشيطان المميزة له ، كما نرى وسنا نحن  
هي التي نغيرها بتكلم سبحانه عن شجرة الرقوم فيقول جل شأنه

﴿ إِنَّا نَجْعَلُ الشَّجَرَةَ تُخْرُجُ مِنْ أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝ ﴾

( سورة الصافات )

وشجرة الرقوم في الآخرة في النار ، إذن نحن لا نراها ، ورؤوس الشياطين  
لا نراها ، فكيف يشبه الله ما لم نره ، يشبه شيئا مجهولاً بشيء مجهول ؟ يقول  
نعم ، وذلك أمر مقصود للإعجاز القرآني ؛ لأن للشيطان صورة متحيلة بشعة ،  
بدليل أنك لو طلبت من رسامي العالم في من انكاريكاتير ، وقلت لهم ارسموا  
صورة الشيطان ، ولم تعطهم ملامح صورة محددة ، فكل منهم رسم دفن تخيله كيداً  
عائيه في القبح - فهذا بصوره بالقبح من ناحية ، وذاك بصوره بالقبح من ناحية  
أخرى بحيث لو جمعت الرسوم لما اتحد رسم مع رسم .

إذن فكل واحد يستشع صورة يرسمها ، وساعة يعطى الجائزة لمن رسم صورة  
الشيطان أعطى اجازة لأحدهم صورة أم لأقبحهم صورة ؟ إما يعطى الجائزة  
لصاحب أشد الصور قبحاً إذن فصورة الشيطان المتمثلة صورة بشعة قبيحة ،  
ولو جاء على صورة واحدة من القبح لاحتف الناس حول هذه الصورة فلعل أحد  
يكون قبحاً عنك ولا يكون قبحاً عند آخر ، ولكن حين يُطلق الله أحيلة الناس في  
صور القبح ، يكون القبح ماثلاً وواضحاً في عمل كل إنسان فتكون الصورة أكمل وأولى ،  
فالأكمل والأولى أن يكون قبح شائعا بها حيناً

ويقول الحق « الذي يتحفظه الشيطان من المس » الشيطان قلنا به العاصي  
من الجن ، قلنا . إن ربنا سبحانه وتعالى حكى ما كثير أن الشياطين هم الاتصال  
واتصال بكثير من الإنس

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِيسَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝ ﴾

( سورة الجن )

وه لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس . فكأن الشيطان قد  
مس التكوين الإنسانى مساً أفسد استقامة ملكاته ، فالتكوين الإنسانى له استقامة  
ملكات مع بعضها البعض ، فكل حركة لها استقامة ، فإذا ما مسه الشيطان فسد  
تأزر الملكات ، فملكاته النفسية تكون غير مستقيمة وغير منسجمة مع بعضها  
البعض ، فتكون حركته غير رتيبة وغير منطقية .

وما المناسبة بين هذه الصورة وبين عملية الربا ؟ . إن أردنا فى الآخرة ميزة ، فاعة  
نرى واحداً مصروعاً فاعرف أنه من أصحاب الربا ، هذا فى الآخرة ، وفى الدنيا نجد  
أيضاً أن له حركة غير منطقية ، هستيرية ، كيف ؟

انظر إلى لعالم الآن ، لقد حقق الله العالم على هيئة من التكامل . فهد إنسان  
يتمتع بإمكانات ومواهب ، وذلك يتمتع بمواهب وإمكانات أخرى ، حتى يحتاج  
صاحب هذه الإمكانيات إلى صاحب تلك الإمكانيات فيكتمل الكون ، ولو أن كل  
إنسان كان وحيداً متكررة لاستغنى الكل عن الكل . ولو أن الأفراد متساوون فى  
إمواهب لما احتاج الناس لبعضهم البعض . لكن المواهب تختلف ، لأنك إن أحدثت  
منا من هوى الحياة فقد أجاد موارك فتونا أخرى أنت محتاج إليها ، فإن احتاجوا إليك  
فما أجذب ، فقد احتجت إليهم فيما أجادوا ، وهكذا يتكامل العالم . وكذلك خلق  
الله الكون مناطق حارة ، ومناطق باردة ، ومناطق بها معادن ، ومناطق بها  
رياح : حتى يضطر العالم إلى أن يتكامل ، ويضطر العالم إلى أن ينعيش مع بعضه ،  
ولذلك يقول الحق فى سورة الرحمن :

﴿ وَالْأَرْضَ وَصَّعَهَا أُنَامٌ ﴾

(سورة الرحمن)

« رضعها » من ؟ « والأرض » ، أى أرض ، وأى أنام . الأرض كل  
الأرض ، والأنام كل الأنام ، فإن تحددت محواجر فسدت . إن منع الإنسان من  
حرية الانتقال من مكان إلى مكان يفسد حركة الإنسان فى الكون ، فقد يربعب إنسان  
فى أن ينتقل إلى أرض بكر ليعمرها ، فيرفض أهل تلك الأرض ، فلو أن الأرض كل  
الأرض كانت للأنام كل الأنام بحيث إن صافى العمل فى مكان قعبت إلى مكان

آخر ، بدون قيود عليك ، تلك القيود التي نشأت من السلطات الزمنية التي تمنعز الأماكن لأنفسها ، فهذا ما يفسد الكون . فهناك بيئات تشككي قلة القوت ، وبيئات تشككي قلة الأيدي العاملة لأرض خراب وهي تصيح أن نزرع ، هلو أن الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام لما حدث حيز .

وبلاحظ ما يقال . ازدحام السكان أو الازدحام السكاني ، بيها توجد أماكن تتطلب حلقاً ! ويوجد حلق تتطلب أماكن ، فلماذا هذا الاحتلال ؟ هذا الاحتلال بائس من أن السلوك البشري غير منطقي في هذا الكون . والكون الذي نعيش فيه ، فيه ارتفاعات عقلية شتى ، وطموحات ابتكارية صعدت إلى الكواكب ، وتغزو الفضاء ، ووحدت في كل بيت آلات الترفيه ، أما كان المطلق يقتضي أن يعيش العالم سعيداً مستريحاً ؟

كان المطلق يقتضي أن يعيش العالم مستريحاً هادئاً ، لأنه في كل يوم يتكرر أشياء تعطى له أكبر الثمرة بأقل مجهود في أقل زمن ، فهذا يريد بعد هذا ؟ ولكن هل العالم الذي نعيش فيه منطقي مع هذا الواقع ؟ لا ، بل نحن نجد أعنى بلاد العالم وأحسنها ووفرة اقتصادية هي التي يعاني الناس فيها لنقص ، وهي التي تمتلئ بالاضطراب ، وهي التي ينتشر فيها الشذوذ ، وهي التي تشكو من ارتفاع نسبة الجنون بين سكانها .

إذن فالعالم ليس منطقياً . وهذا المحض يؤكد ما يقوله الحق . « إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » إنها حركة هستيرية في الكون تدل على أنه كون غير مستريح ، كون غير مسجع مع طموحاته واستكراهه .

أما كان عن هذا الكون بحقلاته أن يبحثوا عن السبب في هذا ، وأن يعرفوا لماذا يشقى كل هذا الشقاء وعند هذه الطموحات الابتكارية ؟ كان يجب أن يبحثوا ، فالمصيبة عامة ، لا نعم الدول المتحضرة أو النامية فقط ، بل هي أيضاً في الدول المتقدمة ، كان يجب أن يعتقد المفكرون المؤثرات لبحثوا هذه المسألة . فإذا ما كانت المسألة عامة تصم كل البلاد متقدمة ومتأخرها وحب أن تبحث عن سبب مشترك ، ولا تبحث عن سبب قد يوجد عند قوم ولا يوجد عند قوم آخرين ، لأننا لو بحثنا لقلنا : يوجد في هذه البيئة وكذلك هو موجود في كل البيئات ، فلابد أن يوجد

## القدر المشترك .

فالأرزاق التي توجد في الكون تنقسم إلى قسمين : رزق أنتفع به مباشرة ، ورزق هو سبب لما أنتفع به مباشرة . أنا أكل رغيف الخبز ، هذا اسمه رزق مباشر ، وأشرب كوب الماء ، وهو رزق مباشر ، واكتسى بالثوب وذلك بصار رزق مباشر ، وأسكن في البيت وهذا رزق مباشر ، وأتبرع بالمصباح رزق مباشر . ولكن المال يأتي بالرزق المباشر ، ولا يفنى عن الرزق المباشر . فإذا كان عندى جبل من ذهب وأما جوهري ، ماذا أفعل به ؟ إذن مرغيف العيش أحسن منه ، هذا رزق مباشر ، فالنقود أو الذهب تشتري بها هذا وهذا ، لكن لا يعينى عن هذا وهذا .

وقد جاء وقت أصبح الناس يرون فيه أن المال هو كل شيء حتى صار هذا وتعلق الناس به . . . وفي الحق أن المال ليس غاية ، ولا يفيح أن يكون غاية بل هو وسيلة فإن فقد وسيلته وأصبح غاية فلا بد أن يفسد الكون : فعلة فساد الكون كله في القدر المشترك الذي هو المال ، حيث أصبح المال غاية ، ولم يعد وسيلة .

والحق سبحانه ويعلى يريد أن يظهر حياة الاقتصاد للناس طهارة تضمن جن ما يطعمون ، وما يشربون ، وما يلبسون ، حتى تصدر أعمالهم عن غليات إيمانية طاهرة مصفاة : ذلك أن الشيء الذي يصدر عن حلية إيمانية طاهرة مصفاة لا يمكن أن يشأ عنه إلا الخير .

ومن العجيب أن نجد القوم الذين صدروا ل النظام الرئوى يقولون الآن جاهدين أن يتخلصوا منه ، لا لأنهم يطرون إلى هذا التخلص على أنه طهارة دنية ، ولكن لأنهم يرون أن كل شرور الحياة ناشئة عن هذا الرب . وليست هذه الصيغة حديثة عهد ، فقدما أى من عام ألف وتسعمائة وحين قام رجل لاقتصاد العالمى « شاخت » في ألمانيا وقد رأى احتلال النظام فيها وفي العام ، فوضع تقريره بأن الفساد كله ناشئ من النظام الرئوى ، وأن هذا النظام يضمن للناس أن يريد غنى ، وما دام هذا النظام قد ضمن للناس أن يريد غنى ، فمن أين يرداد غنى ؟ لاشك أنه يرداد غنى من الفقير . إذن فستكون المسألة إلى أن المال سيصبح في يد أقلية في الكون تحكم في مصائره كلها ولا سيما المصائر الخلقية . لماذا ؟ .

لأن الذين يحبون أن يستثمروا المال لا ينظرون إلا إلى النعمة المالية ، فهم يسيرون المشروعات التي تحقق لهم تلك النعمة . وهناك رجل اقتصاد آخر هو « كينز » الذي يتزعم فكرة « الاقتصاد الحر » في العالم يقول قولته المشهورة : إن المال لا يؤدي وظيفته في الحياة إلا إذا انحصرت العائدة إلى درجة الصغر . ومعنى ذلك أنه لا ربا .

وإذا ما نظرنا إلى عملية عقد الربا في ذاتها وجدناها عقداً باطلاً ، لأن كل عقد من العقود إنما يوجد لحماية الطرفين المتعاقدين ، وعقد الربا لا يحمي إلا الطرف الدائن فقط ، وهناك أمر حلقى آخر وهو أن الإنسان لا يعطى ربا إلا إذا كان عنده فائض رائد على حاجته

ولا يأخذ إنسان من المرابي إلا إذا كان محتاجاً . فانظروا إلى الحكمة الخلقية في الكون . إن المعدم الفقير الذي لا يجد ما يسد جوعه وحاجته يضطر إلى الاستدانة ، وهذا الفقير المعدم هو الذي يتكفل بأن يعطى الأصل والرائد إلى العني غير المحتاج

إنها نكسة خلقية توجد في المجتمع ضيقاً ، وتوجد في المجتمع حقداً ، وتقضي على بقية المعروف وقيمه بين الناس ، وتنعدم المودة في المجتمع . فإذا ما رأى إنسان فقيراً إنساناً عنياً عنده مال ، ويشترط العني على الفقير المعدم أن يعطيه ما يأخذه وأن يربد عليه ، فعلى أية حال ستكون مشاعر وأحاسيس الفقير « كان يكفى العني أن يعطى لفقير ، وأن يسترد العني بعد ذلك ما أخذه الفقير ، ولكن اشئى المرابي يطلب من الفقير أن يسد ما أخذه ويريد عليه . وكانوا يتعلمون ويقولون : إن الصن القران إنما يتكلم عن الربا في الأصعاة ، فصاعقة ، فإذا ما سبنا القيد في الأصعاة لمصاعقة لا يكون حراماً ١١

أي أنهم يريدون تبرير إعطاه الفقير مالاً ، وأن يرده أصعافاً فقط لا أضعافاً مصاعقه . حتى لا يصير ذلك الاسترداد بالريادة حراماً . ولهذا نقول - إن الدين يقولون ذلك يحاولون أن يتلصصوا على النص القراني ، وكأن الله قد ترك النص ليتلصصوا عليه ويسرقوا منه ما شاءوا دون أن يصح في أصل ما يحاولون دون هذا التلصص ، ولو فعلوا إلى أن الله يقول في آخر الأمر .





ذهب أن واحداً لا يملك شيئاً ، وواحداً آخر يملك ألفاً ، والذي يملك ألفاً هو ملكه ، ودلر ب عملاً من الأعمال ، وحين يدير صاحب الألف عملاً المطلوب له أجر عمله ليعيش من هذا الأجر أما الذي لا يملك شيئاً إذا ما أراد أن يعمل مثلي عمل صاحب الألف ، فذهب إلى راسد واحد من ألف ليعمل عملاً كعمل صاحب الألف ، فيشترط من يعطيه هذه الألف من الأمور أن يريده مائة حين السداد ، ويكون المطلوب من الذي اقترض هذه الألف أجر عمله كصاحب الألف الأول ومطلوب منه أن يريده على أحده تلك المائة المطلوبه من اقترضه بالرب

فمن أين يأتي من اقترض ألفاً هذه المائة الزائدة ؟ إن سلعته لو كانت تساوي سلعة الآخر فإنه يحسم ، وإن كانت سلعته أقل من سلعة الآخر فإنها تكسده وتبوء

إس فلا بد له من الاحتيال المكدر ، وهذا الاحتيال هو أن يحل على سلعته وصفاً شكله يساوي به سلعة الآخر ، ويعتمد إلى بعض الخواص الفعالة في صنع سلعته ، فيسحب منها ما يوازي مائة المطلوب سداده ليدبر في نفس الذي سيدفع ربحاً إليه يستهلك

بدن مستهلك قد أصبح بهذا التراضي ، فهو الذي سعدم ، لأنه هو الذي يدفع أجيراً قيمة اقترضه ليرحل المتأخر بالسعة وفيه النسبة لربونه من حنقه الخرب بدن فاعقد بين المتدبر والمزبد - حتى أن عرقهم - عقد باطل ربحهم أن الاثني بقرض والمراي - قد اعتبر هذا العقد تراضياً

دال فيالحق سبحانه وتعالى أراد أن يشيع في الناس الرحمة ، سرده - و - يشيع في الناس انصاف - به الحق - سبحانه - صاحب كل انعمه أراد أن يشيع في الناس أن يعرف كل صاحب نعمه في الدنيا أنه يجب عليه أن تكون نعمته متعدية إلى غيره ، فإن ربه محرم عدم أنه مستفيد منها - وقد كان مستفيد منها فإنه لم ينظر إليها بحد ، ولا أن يحد ربحها بحد ، ولا يتمي أن تربو لأن أمرها عائد إليه

ولكن إذا كان المائد هو أن يريد صاحب النعمة في الدنيا أن يأخذ بالاستخود على كل عائد نعمه ، ولا يواهي حتى الله في مهمة النعمة ، ولا تتعدى هذه النعمة

إلى غيره ، فالمحروم عندما يرى ذلك يتمي أن تزول العمة عن صاحبها وينظر إليها بحسد . ويشيع الحقن ومعه الصميه ، ويحد المساد فرصة كاملة للشروع في المجتمع كله .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يسيطر على الاقتصاد عناصر ثلاثة :  
العصر الأول : الرهد والعطاء الخالص ، فيحد الفقير المعدم عنها يعطيه ، لا يقاوم حق للمعلوم المقروض في لركة ، ولكن يقاوم الحق غير المعلوم في لصدقة ، عدا هو الرهد .  
العصر الثاني : يكون بحق نعرض وهو الركة .  
العصر الثالث : هو بحق نعرض وهو المداينة .

إذن فأمور ثلاثة هي التي تسيطر على الاقتصاد الإسلامي : إما تطوع بصدقة ، وإما أداء لمقروض من ركة ، وإما مدينة بالمقرض الحسن . وذلك هو ما يمكن أن يشأ عليه الطم الاقتصادي في الإسلام . ويطر إلى قول الحق سبحانه وتعالى حين عرص هذه المسألة وشيع هيهم لذين يكون الرب بهم لا يقومون إلا كما يقوم الذي بحبته ويصرعه الشيطان من لس .

لماذا ؟ لأن الحق قد هيهم ، ذلك بأنهم قالوا بما سبيع مثل الرب ، فهل الكلام في لبيع ، أو الكلام في الرب ؟ إن الكلام في الربا وكان اسطق يقتضى أن يقول : « الرب كالبيع » ، فم الذي حقهم يعكسون الأمر »

إن اسمن القرآن هو يوحى إلى التحيط حتى في القصبة التي يريدون أن محتجوا بها كأنهم هانوا . ماذعت تريد أن تحرم الرب ، فالبيع مثل الرب ، وعليك تحريم البيع أيضا

وكان القياس أن يقولوا : « إنما الربا مثل البيع » ، لكن الحق سبحانه أراد أن يوضح له تحبطهم فجاء على لسانهم : « إنما لبيع مثل الرب » ، من كسم قد حرمم الربا فحرموا لبيع ، وإن كنهم قد حطلم البيع فحطلوا الربا . إنهم يريدون قياسا إما بالطرد ، وإما بالعكس .

مقال الله القول الفصل الخامس .

﴿وَأَسْأَلُ اللَّهَ اتَّبِعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّبِعْهُنَّ ۚ﴾ (٥٧٥)

( سورة البقرة )

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْلَ الرِّبَا وَمُرْكَبَهُ » (١) .

إنها موعظة من الله جاءت ، الموعظة إن كانت من غير مستعبد منها ، فالملطق أن تقبل - بنفسم التاء - أما الموعظة التى يُشك فيها ، هى الموعظة التى تعود على الواعظ بشيء ما - فإذا كانت الموعظة قد جاءت ممن لا يستفيد بهذه الموعظة ، فهذه حيثية قهرلها « فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى » ، ولتر كلمة « ربه » حياء تاتى هنا فلفهم منها أن المقصود بها الحق سبحانه الذى تولى تربيتمكم ، ومتولى التربية خلقاً بإيجاد ما يستينى الحياة ، وإيجاد ما يتبقى النوع ، ومحافظة على كل شيء - بتسخير كل شيء لك أيها الإنسان ، يجب أن تكون أيها الإنسان مهذباً أمام ربك فلا توقع نفسك فى اتهام الرب الخالق فى شبهة الاستمادة من تلك الموعظة - معاد الله - .

لماذا ؟ لانه الخالق رب ، وما دام الخالق رباً فهو المتولى تربيتمكم ، فإياك أيها الإنسان أن تتأبى على عظة للرؤى . « فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّبِعْهُنَّ فله ما سلف » ومعنى ذلك أن الأمر لن يكون بأثر رجعى فلا يؤخذ بما مضى منه ، لانه أخذ قبل نزول التحريم ، تلك هى الرحمة ، لماذا ؟

لانه من الجائز أن يكون المرابى قد رتب حياته ترتيباً على ما كان يناله من رب قبل التحريم ، فإذا كان الأمر كذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يعفو عما قد سلف . وعلى المرابى أن يبدأ حياته فى الوعاء الاقتصادى الجديد .

تلك هى عظمة التشريع الربانى « فانتهى عنه ما سلف وأمره إلى الله » أى أن له

(١) رواه مسلم ورواه الترمذى فى روايه صحيحه ( وشاهديه وكاتبه )

ما سبق وما مضى قبل تحريم الربا . ونفيد كلمة « وأمره إلى الله » أن الله سبحانه وتعالى حينما يعفو عما سلف فله طلاقة الحرية في أن يقض ما شاء ، فيجب أن تتعلق دائماً باستدانة الفضل من الله . « وأمره إلى الله » إن مثل هذا الإنسان ربما قال سأهبط اقتصادياً ومركزي ميسر عزع ، وسأصبح كذا وكذا . لا . اجعل سندك في الله ، ففى الله عوص عن كل فائت ، هو سبحانه لا يريد أن يؤزل مراكز اناس ، ولكن يريد أن يقول لهم . إني إن سلبتكم نعمتي فاجمعوا أنفسكم في حضانة المتعم بالعممة .

ومادمت قد حملت نفسك في حضانة المتعم بالعممة ، فخذ بالعممة لا شيء ، لأن المتعم عوص عن هذه العممة ، والربا من البيع الموفقات التي أمر الرسول صلى الله عليه وسلم باجتنابها حيث قال « اجتنبوا البيع الموفقات قالوا يا رسول الله وما هي ؟ قال : الشراء بالله والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله لا ملحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم » ، والتولى يوم الرحف ، وقذف الحصوات لمؤمات العاقلات <sup>(١)</sup> « وأمره إلى الله ومن عده » أى عاد بعد الموعظة ماذا يكون أمره ؟ « فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . وكان تكفى أن يقول عنهم . إنهم « أصحاب النار » فلعل واحداً يكون مؤمناً وبعد ذلك عاد إلى معصية ، فباخذ حظه من النار .

إنما قوله . « هم فيها خالدون » يدل على أنه خرج عن دائرة الإيمان وإنهم السابق جيداً لتهم التدليل اللاحق ، لأن هذا أمرين . ما ربا حرمه الله ، وأناس يريدون أن يحملوا الرب عدهم قالوا « إنما البيع مثل الربا » ، فإن عدت إلى الربا حاكمها بحرمة فانت مؤمن عاصر تدخل النار

إنما إن عدت إلى ما سلف من المناقشة في التحريم ، وقلت البيع مثل الربا ، وماقشت في حرمة الربا وأردت أن محلله كالبيع فقد خرجت عن دين الإسلام . وحيى نخرج عن دين الإسلام فبك الخلود في النار

ومن هنا يجب أن نعلم الذين يقولون بالربا ، ويقول هم قولوا إن الربا حرام ، ولكننا لا نقدر على نكسها حتى بطله وبركه ، وعليكم أن تجاهدوا أنفسكم على الخروج منه حتى لا تتعرضوا لحرب الله ورسوله . إسم باعتقادهم أن الرب حرام يكونون عاصين فقط ، أما أن يجادلوا نبرير الرب ويحللوه في دائرة أخرى شر من ذلك ، وهي دائرة الكفر والعياد بالله

وقد عرفنا أن آدم عليه السلام عصي ربه ، وأكل من الشجرة ، وإبليس عصي ربه ، فلما تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، أما إبليس فقد طرده الله ، ولماذا طرد الله إبليس وأحل عليه اللعنة ؟

لأن آدم أقر باندب وقال : « رنا ظلمنا أنفسنا » . لقد اعترف آدم : حكمك يارب حكم حق ، ولكني ظلمت نفسي . ولكن إبليس عارض في الأمر وقال : « السجد لمن خلقت طينا » ، فكانه رد الأمر على الأمر

وبعد ذلك حين بين الله الحكم في الربا ، وبين أن من انتهى له ما سلف ، فهذا من الذي يعود ؟ « ومن عاد » وهي المقابل « فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ، يريد سبحانه أن يقول إياكم أن يجدهم الربا بلفظه ، فالألفاظ تحدع البشر ، لأنكم سميتموه « رب » بالسبطحية الباطنة لأن الربا هو الريادة ، والركاة نقص ، فمائة في الربا تكون مائة وعشرة مثلا حسب سعر الفائدة ، وفي الركاة تصبح المائة ( ٩٧,٥ ) ، في الأموال وعروض التجارة ، وتختلف عن ذلك في الزروع وغيرها ، وفي ظاهر الأمر أن الربا راد ، والركاة أبقت ، ولكن هذا النقص وتلك الريادة هي في اصطلاحكم وفي أعرافكم . ولحق سبحانه وتعالى يحسن الرائد ، ويسئ النقص : فهو سبحانه يقول :

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿١٧٦﴾

وكلمة « يحق » من « حق » أى صانع حالاً بعد حال ، أى لم يضع فجلة ، ولكن تسلى فى الصياح بدون شعور ، ومنه « المحلق » أى الذهاب ليهلال . « يحق الله الربا » أى يجعله رابها أمام صاحبه ثم يتسلى إليه الخراب من حيث لا يشعر .

وبعنا إد دققنا النظر فى البيئات المحيطة بنا وجدنا مصداق ذلك . فكم من أناس رابوا ، ورأباهم ، وعرفاهم ، وبعد ذلك عرفنا كيف انتهت حياتهم . « يحق الله الربا ويرى الصدقات » ويقول فى آية أخرى

﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِيُرِيَا أَنْ أَمْوَالِ أَنْسِ فَلَا يَرِيَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾

(سورة الروم ٣٩ آية ٣٩)

ماياكم أن تعتقدوا أنكم تحذعون الله بذلك ما هو المقابل ؟

﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَّكْعَةٍ تُرِيضُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الضَّعِيفُونَ ﴾

(سورة الروم ٣٩ آية ٣٩)

و الضعفون هم الذين يحملون الشئ ، أصعافاً مصعفة وعندما يقوى الحق . « يحق الله الربا » فلا تستهن بنسبة الفعل لله ، إن نسبة الفعل لفاعله يجب أن تأخذ قيمته من ذات الفاعل ، فإذا قيل لك فلان الضعيف يصعك ، أو فلان الملاك يصعك ، فلابد أن نفيس هذه الصعفة بفاعلها ، فإذا كان الله هو لدى قال . « يحق الله » أى يوجد بحق فوق هذا ؟ لا ، لا يمكن .

وأبصاحين يقول الله « يحق الله الربا ويرى الصدقات » فى القرآن الذى ينلى وهو معجز ، وعقود ومتحدى بحفظه ، فهذه قصة مصونة « يحق الله الربا ويرى لصدقات » لأن الذى فاعها هو الله فى كتاب الله المحفوظ ، الذى ينلى متعذابه ، أى أن القصص على ألسنة الجهاير كلها ، وفى قلوب المؤمنين كلها ، أيقول الله نصية بمعظمها ذلك الحمط لبقى واقع الرمس ليكذبها ؟ لا ، لا يمكن . فالإنسان لا يجمع إلا لمسد الذى يؤيده ! أنا لا أحفظ إلا ، التكميالة ، التى تحصى ! فإدام هو حافظه وهو الثائل :

## ﴿ إِنَّمَنْ تَزَلَّ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَحِيطُونَ ﴾ (١٠١)

( سورة الحجر )

فمعنى ذلك أنه سبحانه سيطلق فيه قصايا ، وهذه انقصيا هو الذى تعهد بحفظها ، ولا يتعهد بحفظها إلا لتكون حجة على صدق في قولها قالشيء الذى لا يكون فيه حجة لا يحافظ عليه وهو سبحانه العاتل

## ﴿ وَإِنْ حُذِرْنَا لَمْ يَعْلَمُوا ﴾ (١٠٢)

( سورة الصافات )

إن هذه قضية قرآنية تعهد الله بحفظها ، فلا بد أن يأتي واقع الحياة ليؤيدها ، فإذا كان واقع الحياة لا يؤيدها ، ماذا يكون الموقف ؟ أنكذب القرآن - وحاشانا أن نكذب القرآن - الذى قاله الحق الذى لا إله سواه ليذير كوناً من ورائه .

« يحق لله الرما ويرى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » ولما قال الحق : « كفار » ولم يقل : « كافر » ، ولماذا قال « أثيم » وليس مجرد « أثيم » ؟ لأنه يريد أن يرد الحكم على الله ومادام يريد أن يرد الحكم على الله ، فعبد كافر كافرين الذين كفر لإله لم يعترف به ، وكفر لأنه رّد الحكم على الله ، وهو « أثيم » ، ليس مجرد « أثيم » ، وفي ذلك صيغة المبالغة لتستدل على أن القضية التى نحن بصددتها قضية عمرانية اجتماعية كربية ، إن لم تكن كما أرادها الله هيترزّل أركان المجتمع كله .

وبعد أن شرح لنا الحق مرارة المذلة في « كفار » وفي « أثيم » يأتي لنا بالمقابل حتى ندرك خلاص هذا المقابل ، ومثال ذلك ما يقوله الشاعر :

فالوجه مثل أصبح مبهر  
والشعر مثل الليل مسود  
صندان لما اسحما خسا  
والصد يظهر حسه لهد

فكان الله بعد أن تكلم عن الكفار والأثيم يرجعنا خلوا لإيمان بقول



﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ  
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ  
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٧٧)

وفك . إن كلمة « أجر » يقتضى أنه لا يوجد مخلوق يملك مدعة ، إنما كل  
مستأخرون ، لماذا ؟ لأننا نشغل الملح المخلوق لله ، بالطاقة المخلوقة لله . و المادة  
المخلوقة لله ، فإذا تمكك أنت أيها الإنسان إلا عملك ، ومادمت لا تملك إلا عملك  
فلك أجر « لهم أجرهم عند ربهم » . وكلمة « عند ربهم » لها ملحظ ، فعلى يكون  
لك الآخر عند المساوى لك قد ياكلك ، أما أحرك عند رب تولى هو تربيتك ، قد  
يضيع أبداً .

ويتابع الحق : « ولا خوف عليهم » لا من أنفسهم على أنفسهم ، ولا من أجسامهم  
عليهم ، « ولا هم يحزنون » لأن أى شئ ، فاتهم من الخير سيحدونه محصر  
أمامهم . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا  
مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢٢٨)

وعين يقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا » فنحن نعرف أن الداء بالإيمان جبهة كل  
تكيف بعده ، وساعة ينادى الحق ويقول : « يا أيها الذين آمنوا » أى يا من اتمتم

إلهاً قادراً حكيماً ، عزيزاً عليكم غالباً على أمرى ، لا تصرفى معصيتكم ، ولا تنصحن طاعتكم ، فإذا كنتم قد آمنتم بى وأنا إله قادر حكيم واسمعوا منى ما أحبه لكم من الأحكام .

إذن مكل « يا أيها الذين آمنوا ، فى القرآن هى حيشة كل حكم باتى بعدها ، وأنت تفعل ما يأمرك به الله ، وإن سألك أحد : وقال لك : ماذا فعلت هذا الأمر ؟ فقل له فعلته لأنى مؤمن ، والذى أمر به هو الذى آمنت بحكمته وقدرته . وأنت لا تدخل فى متاهة علم الأحكام ، لأنك آمنت بأن الله إله حكيم قادر ، أمر لك تلك التكليف ، وإياك أن تدخل فى متاهة علم الأحكام ، لماذا ؟ لأن هناك أشياء قد تريب علمها عك ، أكنت تؤجلها إلى أن تعرف العنة ؟ .

أما مؤجل تخريم حرم الخنزير إلى أن يثبت حالياً بالتحليل أنه صار ؟ لا ، إذا كان قد ثبت حالياً بالتحليل أنه صار محرم بمراد ثقه فى كل حكم كلفه الله به ، ولم يهتد إلى علمه ، واختر يقول « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله » ومن عجائب كلمه « اتقوا » أنها تأتى فى أشياء سدر أهم متناقضه ، إنما هى ملتقى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله » ولم يقل ها . اتقوا النار كما قال فى انه أخرى « اتقوا النار » إذن فكيف يقول « اتقوا الله » ويقول « اتقوا النار » ؟ لأن معنى « اتقوا » أى اجعلوا وقاية بيسكم وبين ربكم .

كيف يجعل وقاية بيس وبين ربنا مع أن المطلوب من إيماناً أن يلتزم بجميع الله لتكون دائماً فى معية الله ؟ نفور الله سبحانه وتعالى له صفت حلال كالقهار ، ولينقم ، والنجار ، ودى الطوب وشديد العقاب ، فهو يطلب من عبده المؤمن أب يجعل بينه وبين صفات جلاله وقاية ، فالرجد من جود صفات الحلال ، وحين يقول سبحانه : « اتقوا الله » يعنى : اجعلوا وقاية بيسكم وبين صفات الحلال التى من جودها النار . إذن « اتقوا الله » مثل « تقوا النار » أى اجعلوا وقاية بيسكم وبين النار .

ويتابع الحق « ودروا ما يقى من الربا إن كنتم مؤمنين » ، وه ذروا ، أى اتركوا ، ودعوا ، وتناموا ، واطلبوا الخير من الله فيما يقى من الربا إن كنتم مؤمنين

حقاً باه . كان الله أراد أن يجعلها تصفية فصلة ، يولد من بعدها المؤمن طاهراً نقياً

إنه أمر من الحق : دعوا الربا الذي لم تقبضوه ؛ لأن الذي قبضتموه أمره . فله ما سلف ، والذي لم تقبضوه اتركوه : « اتقوا الله وفروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين » فإن قلتم إن اتعاقد قد صدر قبل التحريم ، والاتعاقد قد أوجب لث الحق في ذلك ، تذكر أنك لم تقبض هذا الحق ليصير في يدك ، ولا نقل إن حياى الاقتصادية مترتبة عليه ، فترتيب الحياة الاقتصادية لم ينشأ بالاتفاق على هذا الربا ، ولكن ينشأ بقبضه وانت لم تقبضه ويتابع الحق .

﴿ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾  
وَإِنْ تُبْتِغُوا فَتَكُفُّمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ  
لَا تُظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٧١﴾

في هذه الآية قصية كونية يتعاضل عنها كثير من الناس . لقد جاء نظام ليحصى طائفة من ظلم طائفة ، ولم يأت هذا النظام إلا بعد أن وجدت طائفة المراهين الذين ظلموا طائفة العمراء المستضعفين . وحسب هؤلاء المستضعفين الذين استجلو من المراهين أن ينصفهم القرآن وأن يمس قصية الرب إساءة يعطى الدين رايها ما سلف لأنهم بوا حياتهم على ذلك .

« فاذنوا بحرب » كلمة ( الألف والذال والنون ) من « الأذن » وكل المادة مشتقة من « الأذن » والاذن هو الأصل الأول في الإعلام ؛ لأن الإنسان ليس مفروضاً أنه قارىء أولاً ، إنه لا يكون قارئ إلا إذا سمع ، إذن فلا يمكن أن ينشأ إعلام إلا بالسمع . والحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن أدوات التعلم للإنسان قال

﴿ وَاللَّهُ لَتَرْحِمَكُم مِّنْ ظُلُمٍ أَمَنَكُم بِهِ لَا تَعْمُونَ شَيْئًا وَحَمَلٌ نَّكَرٌ لَّثَمٌ وَالْأَبْصَرُ  
وَالْأَفْهَمُ لَعَنَكُم نَسَكُوتٌ ﴾

(سورة النكه)

ولذلك عندما جاء علم وظائف الأعضاء لبحث ذلك وجدوها طبق الأصل كما قال الله عنها فالوليد الصغير حين يولد إن جاء أصمع إنسان عند عينه فلا يهتز له رمش ؛ لأن عينه لم يؤد مهمتها بعد ، ولكن إن تصرح بجواب أدبه فإنه يتفعل

وعرفنا أن أذن أداة تؤدى مهمتها بالنسبة للإنسان ابوليد هي أدبه ، وهي أيضا الأداة التي تؤدى مهمتها بالنسبة للإنسان مستيقظا كان أو نائما . إن العين تغمض في النوم فلا يرى ، لكن الأذن مسعدة طوال الوقت لأن تسمع ؛ لأنها آلة الاستدعاء بدون قيادة ، الأداة ، وه الأذن ، كلها جاءت من مهمة السمع ، وقال الله سبحانه وتعالى

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُفَّتْ ﴾

(سورة الاشفاق)

ما معنى ادبت ؟ أبت حين تسمع من مساوئك ، فقد تنعد وقد لا تنعد ، لكن حين تسمعه من إله قادر فلا مباح لك إلا لا تنعد ، فكأن الله يقول : إن الأرض تشق حين تسمع أمرى بالاشفاق فيسجد أن تسمع الأرض أمر الحق فيها تفعل ، وحقها أن تفعل ذلك ؛ إنها أدبت لأمر الله ، أى حصعت ؛ لأن المائل لها هو الله

إذن كل المادة ما جاءت من الأذن ، ولذلك فأنه يقول لمن لا يفعل ما أمر به الله في الرما ؛ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، أما حرب الله فلا يقول عليها إلا قول الله .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ خُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٢١ سورة المدثر)

ولا يستطيع أحد أن يحتاط لها . وأما حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذه هي الأمر الظاهر . كان الله سبحانه وتعالى يجرد على المرابين غيرينة هائلة من جنونه التي لا يعلمها إلا هو ، وحرب رسول الله حنودها هم المؤمنون برسوله ، وعليهم أن يكونوا حرباً على كل ظاهرة من ظواهر الفساد في الكون ؛ ليظهروا حياتهم من حسن الرب

وهكذا وضع الله نهاية لأسلوب التعامل ، حتى يظهر المال من ذلك الربا ، فإذا قال الحق : « هل لكم رهوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » بمعنى هذا أنه سبحانه يبين لنا بهذا القول أنه لا حق للمرابين في ضعف ولا ضعفين ، ولا في أضعاف مضاعفة . وحيث « لا تظلمون » من رايهم ، بأن تأخذوا منهم رثداً عن رأس المال

ويكنى ما موقع « ولا تظلمون » ، ومن الذي يظلمهم ؟ قد يظلمهم الضعيف الذي ظلم لهم سابقاً ، ويأخذ منهم بعض رأس المال مدعوى أنهم ظلموا منعوا ، فأنخذوا منه قدرأ رثداً على رأس المال إن المشرع يريد أن يجمع الظلم السابق بيني ظلمه ، وأن يسمع المظلوم اللاحق فيعطيه حقه ، وهو سبحانه لا يريد أن يوجه ظلماً يستغل به من ظلم فيظلم الذي ظلمه أولاً ، بل سبحانه يشاء بهذا الحكم أن ينهي هذا النوع من الظلم على إطلاقه ، وأن يجعل الجميع على قدر سواء في الانتفاع بمزيا الحكم

وكثير من النظريات التي تأتي لتقلب ظلاماً في مجتمع ما تمهد إلى الصائفة التي ظلمت ، فلا نكتفي بأن تكفها عن الظلم ، ولكن نمكن للمظلوم أن يظلم من ظلمه ، وذلك هو الإجحاف في المجتمع ، وهذا ما يجب أن يتبناه إليه الناس جيداً ؛ لأن الله الذي أنصفك أيها المظلوم من ظلمك ، فمنع ظلمه لك ، ما يجب أن تحترم حكمه حينما قال : « وله ما سف ، وبهذا القول انتهت القضية

وستأنف سبحانه الأمر بعدالة جديدة تجمعك وتجمعه على قدم المساواة بدون ظلم منك أيها المظلوم سابقاً بحجة أنه ظالمًا ظلمت . والمجتمعات حين تسير على هذا النظام « لا تظلمون ولا تظلمون » إلى تسير على خط معتدل لا على ظلم موجه

فنحن نحب من قوم أنهم ظلموا ، ثم تأتي بقوم لنجعلهم يظلمون ، لا . إن  
الجميع على قدم المساواة من الآن .

• وفساد أي نظام في المجتمع يأتي من توجيه الظلم من فئة جديدة إلى فئة قديمة ،  
فيذلك يظل الظلم قائما ، طائفة ظلمت ، وتأتي طائفة كانت مظلومة تتظلم الطائفة  
الطائفة سابقا ، نقول لهم : ذلك ظلم موجه ، ونحن نريد أن تتظم العدالة وتشمل  
كل أفراد المجتمع بأن يأخذ كل إنسان حقه ، فالذي ظلم سابقا منعاه عن ظلمه ،  
والمظلوم سابقا أنصفناه ، وبذلك يصير الكل على قدم المساواة ، ليسير المجتمع  
مسيرة عادلة تحكمه قضية إيمانية . إنا لا نكافي من عصي الله فيها بأكثر من أن يطيع  
الله فيه .

وبعد ذلك يهيء القرآن ليدفع بابا جديدا من الأمل أمام المظلومين وليضع حدا  
للذين كانوا ظالمين أولا ، وحكم هم برأس المال ومنعهم من الزائد على رأس المال ،  
فنحن نلومهم على هؤلاء . أي ليست صرية لازب أن تأخذوا رأس المال الآن ،  
ولكن عيبكم أن تنظروا وتعملوا المدين إن كان معسرا ، وإلا تسلمتكم في النصح  
الإيماني اليفيى وارتضيتكم الله بديلا لكم عن كل عوض يهوتكم ، فعليكم أن  
تتجاوزوا وتتجاوزوا حتى عن رموس أموالكم التي حكم الله لكم بها شرفوها بها وعيوبها  
لن لا يقدر . فيأتي قول الحق :

﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ

تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨)

وإن كان ذو عسرة ، حكم بأن للدائن رأس المال ، ولكن هب أن المدين ذو  
عسرة ، هنا قضية بشريها بعض المشرقين الذين يدهون أنهم درسوا العربية ، لقد  
درسوها صاعدا ، ولكنها عزت عليهم ملكة ؛ لأن اللغة ليست صناعة فقط ، اللغة

طبع ، اللغة ملكة ، اللغة وجدان ، يقولون : إن القرآن يموت بعض التفعيدات التي تفعلها لغته . فمثلا جاءوا بهذه الآية : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة » وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم نعمون » .

قال بعض المستشرقين . نريد أن نبحث مع علماء القرآن عن خبر « كان » في قوله . « وإن كان ذو عسرة » ، « صحيح لا نجد خبر « كان » ، ولكن الملكة العربية ليست عنده ؛ لأنه إذا كان قد حرم العربية كان يجب أن يعرف أن « كان » تحتاج إلى اسم وإلى خبر ، سم مرفوع وخبر منصوب وهذه هي التي يقال عنها كن الناقصة ، كان يجب أن يفهم أيضا معها أنها قد تأتي تامة أي ليس لها خبر ، وتكتفى بالمرفوع ، وهذه تحتاج إلى شرح بسيط

إن كل فعل من الأفعال يدل على حدث ومن ، وكلمة « كان » إن سمعتها دلت على وجود وحدث مطلق لم تبيّن فيه الحالة التي عليها اسمها ، كان مجتهدا ؟ كان كسولا ؟ مثلا فهو يدل على وجود شيء مطلق أي ليس له حالة ، ومعنى ذلك أن ( كان ) دلت على الزمن الوجودي المطلق أي على المعنى المجرد الناقص ، والشيء المطلق لا يظهر المراد منه إلا إذا قيد ، فإن أردت أن تدل على وجود مفيد لينضج المعنى ، ويظهر ، فلا بد أن تأتيها بحبر ، كأن تقول كان يريد مجتهدا ، هنا وجد شيء خاص وهو اجتهدا يريد . إذن « كان » هنا ناقصة تريد أكثر يكملها وليعطى الوجود الخاص ، فإذا لم يكن الأمر كذلك وأردنا الوجود فقط تكون ( كان ) تامة أي تكتفى بمرفوعها فقط مثل أن تقول عاد اغائب فكان افرح أي وجد ، أو أشرقت الشمس فكان النور ، والشاعر يقول :

وكانت وليس الصبح فيها بأيّمن  
وأضحت وليس الليل فيها بأسود

بحقوله « وإن كان ذو عسرة » أي وإن وجد ذو عسرة أي إن وجد إسار يس-عنه قدرة على السداد ، « فنظرة » من الدائى « إلى ميسرة » أي إلى أن يتسر ، ويكون رأس المال في هذه الحالة « فرصا حسبا » ، وكل من صبر عليه لحظه أعطاه الله عليها ثوابا

ولنا أن نعرف أن ثواب القرض الحسن أكثر من ثواب الصدقة ، لأن الصدقة حين تعطيتها فقد قطعت أمل نفسك منها ، ولا تشغل بها ، وتأخذ ثوابا على ذلك دليعة واحدة ، لكن القرض حين تعطيه فقلبك يكون متعلقا به ، فكلما يكون التعلق به شديدا ، رغب عليك حب المال وتصبر فانت تأخذ ثوابا . لذلك يجب أن تلاحظ أن القرض حين يكون قرضا حسنا والمقرض معذور بحق ؛ لأن فيه فرقا بين معذور بحق ، ومعذور بباطل ، المعذور بحق هو الذي يحارل جاهدا أن يسدد دينه ، ولكن الظروف تقف أمامه وتحول دون ذلك ، أما المعذور بباطل فيجده عنده ما يسد دينه ولكنه بمباطل في السداد ويبقى المال يتضخم به وهو بهذا ظالم

ولذلك جرب نفسك ، ستجد أن كل دين يشتغل به قلبك فاعلم أن صاحبه - حر على السداد وم يسدد ، وكل دين كان بردا وسلاما على قلبك فاعلم أن صاحبه معذور بحق ولا يقدر أن يسدد ، وربما استحييت أنت أن تزعجه مخافة أن تخرجه بمجرد رؤيتك . وهؤلاء لا يطول بهم الدين طويلا ، لأن الرسول حكيم في هذه القضية حكما ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله » (١) .

فيهام ساعة أحدها في نيته أن يؤدي فإن الله ييسر له سبيل الأداء ، ومن أحدها يريد إتلافها ، فالله لا ييسر له أن يسدد ؛ لأنه لا يقدر على ترك المال يسد به دينه ، وهذه حادثة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم تمر لنا هذا الحديث ، فقد سمع رجل عليه دين ، فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه عديم ؛ قال لأصحابه : صلوا على أنبيكم .

إذن مهم لم يصل ، ولكنه طلب من أصحابه أن يصلوا ، لماذا لم يصل ؟ لأنه قال قضية سابقة . « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه » ، مادام قد مدت ولم يؤد إذن فقد كان في نيته أن يباطل ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يمنع أصحابه من الصلاة عليه





﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٦٥﴾ إِخْضِرَ مَا أَنشَبَ لَهُمْ رُبُّهُمْ إِنْهُمْ كَانُوا فِي  
ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿٦٦﴾ كَانُوا قَبِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَنِيبِينَ ﴿٦٧﴾ وَوِلاَئُهَا تَخَارِجُ  
يَسْتَفْعِرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

( سورة الداريم )

هل التشريع يلزم المؤمن أن يقوم بالسحر ليستمفر ؟ لا ، إن المسلم عليه أن يؤدي  
الفروض ، ولكن إن كان المسلم يرغب في دخول مقام الإحسان فعليه أن يعرف  
الطريق :

﴿ وَوِلاَئُهَا تَخَارِجُ يَسْتَفْعِرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

( سورة الداريم )

والكلام هنا في مقام الإحسان ويضيف الحق عن أصحاب هذا المقام :

﴿ وَلِأُولَئِكَ أَتُوعَدُ لَلْآبِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٦٩﴾ ﴾

( سورة الداريم )

إن الله سبحانه قد حدد في أموال من يدخل في مقام الإحسان حقا للسلاتل  
والمحرور ، ولم يحدد الله قيمة هذا الحق أولونه . هل هو معلوم أو غير معلوم . لكن  
حين تكلم الله عن المؤمنين قال سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْنُونٌ ﴿٧٠﴾ لِّلْآبِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٧١﴾ ﴾

( سورة المدارج )

وهكذا نجد في أموال صاحب مقام الإحسان حقا للسلاتل والمحرور ، لكن في  
أموال صاحب الإيمان حق معلوم وهو الرقاة . ومقام الإحسان يعلم مقام الإيمان ،  
لأن الحق في مال المؤمن معلوم ، أما في مقام الإحسان فإن في مالهم حقا للإحسان إلى  
الفقير وإن لم يكن معلوما ، أي لم يحدد

وقد رأينا بعض الفقهاء قد اعتبر الزكاة - مادامت حقاً للمقر عند الغنى - فإن مع الغنى ما نلده نصاب سرقة تُقطع يد الغنى ، لأنه أخذ حق الفقير . ومصاب السرقة ربح دينار ذهباً ، فينبى الإسلام قصايه الاجتماعية إما على النعمة غير المفروضة وإما على النعمة المفروضة . فإذا ما شحنت نفوس الناس ، ولم تستطع أن تبرع بالقدر الرائد عن المفروض ، وتمكن حب مالها في نفسها تمكناً قوياً بحيث لا تتأزل عنه يقول الله سبحانه لكل منهم .

أنت لم تتأزل عن مالك ، وأنا حرمت الربا ، فكيف نلتقى لنضع للمجتمع أساساً سليماً ؟ سنحتفظ لك بمالك ونمنع عنك فائدة الربا ، وهكذا يلتقى في منتصف الطريق ، لا أخذنا مالك ، ولا أخذت من غيرك الرائد على هذا المال .

وشرح الحق سبحانه آية الدين ، وأخذت هذه الآية أطول حيز في حجم آيات القرآن ، لماذا ؟ لأن على الدين هذا تبنى قضايا المجتمع الاقتصادية عند من لا يجد مورداً مالياً يُسير به حركة حياته . ونحن وضع الحق آية الدين لم يضعها وصفاً تقنياً جافاً جامداً ، وإنما وضعها وصفاً وجدانياً . أى مرج التقنين بالوجدان ، مرج الحق جود القانون بروح الإسلام ، فلم يجعلها عملية جافة .

والمرحون من الشر عندما يقتنون لهم يضعون القانون جافاً ، فمثال ذلك : من قتل يقتل ، وغير ذلك . لكن الحق يقول غير ذلك حتى في أعنف قضايا الخلاف ، وفي خلافات الدم ، فقال سبحانه :

﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ أَحْيَيْتَهُ ۖ فَاتَّبِعْهُ بِمَعْرُوفٍ وَأَدَا ۚ إِنَّهُ بِإِحْسَنٍ ۚ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكَ وَرَحْمَةٌ ۖ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

والحق سبحانه وتعالى قل أن يأبى بآية الدين ، يقول :

# ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٨١)

ولقد أوضحنا من قبل أن تقوى الله تقتضى أن نقوم بالأفعال التى تقينا صفات الحلال فى الله ، وأرضعنا أن الله قال « اتقوا النار » أى أن نضل ما يجعل بيننا وبين النار وهمايه ، فالنار من متعلقات صفات الحلال . وهذا هو ذا الحق سبحانه هنا يقول « اتقوا يوماً » ، فهل نبقى اليوم ، أم نبقى ما يتشأ فى اليوم ؟ إن اليوم ظرف زمان ، والأزمان لا تُخاف بذاتها ، ولكن يخاف الإنسان عما يقع فى الزمن

لكن إذا كان كل شيء فى الزمن مخيفاً ، إذن فالخوف ينصب على اليوم كله ، لأنه يوم هول ؛ كل شيء به مفرع ومخوف ، وقابا الله وإياكم ما فيه من هول ، وانظر إلى الدقة القرآنية المتناهية فى قوله « تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ »

إن المرجع فى هذا اليوم لا يكون بطوعية العباد ولكن بإرادة الله . وسبحانه حين يتكلم عن المزمى الذين يحملون المصالح من الأعمال ، فإنه يقول عن رجوعهم إلى الله يوم القيامة

﴿وَامْتَعِنُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾

( سورة البقرة )

ومعنى ذلك أن العبد المزمى يشنق إلى العودة إلى الله ، لأنه يرغب فى أن يبال

المورد

أما غير المؤمنين فيقول عنهم الحق :

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴾

( سورة الطور )

إن رجوع غير المؤمنين يكون رجوعاً قسرياً لا مرغوباً فيه . والحق يقول من هذا اليوم : « ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون » . وبعد ذلك يقن الحق سبحانه للنفس فيقول سبحانه :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكُنْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكُتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ مَفِيقاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِكْ وَلْيَكُتُبْ بِالْعَدْلِ وَامْشُحُوا بِأَشْهُدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَفَسَطَ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَذْنُ الْآلَاءِ تَرْتَابُهَا إِلَّا أَنْ تَكُونِ

نَجْوَ حَاضِرَةٌ تَذِيرُوهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ  
أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ  
وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا  
اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٦﴾

إنها أطول آية في آيات القرآن رستهلها الله بقوله . « يا أيها الذين آمنوا » وهذا لاستهلال كما تعرف يوحى بأن ما يأتي بعد هذا الاستهلال من حكم ، يكون الإيمان هو حوثية ذلك الحكم ، فما دمت قد آمنت بالله فأنب تطبق ما كلمك به ، لأن الله لم يكلف كافراً ، فالإنسان - كما قلنا سابقاً - حر في أن يقبل على الإيمان بالله أو لا يقبل

فإن أقبل الإنسان بالإيمان فليستفل كل حكم من الله بالتزام . وبضرب هذا المثل - وفيه المثل الأعلى - إن الإنسان حين يكون مريضاً ، هو حر في أن يذهب إلى الطبيب أو لا يذهب ، ولكن حين يذهب الإنسان إلى الطبيب ويكتب له الدواء فالإنسان لا يسأل الطبيب وهو مخلوق مثله : ماذا كتبت هذه العقاقير ؟

إن الطبيب يمكن أن يرد : إنك كنت حرّاً في أن تأتي إلى أو لا تأتي ، لكن ما دمت قد جئت إلى فاسمع الكلام ونفقه . والطبيب لا يشرح التفاصيل والمعادلات ، لا ، إن الطبيب يشخص المرض ، ويكتب الدواء . فما بالنا إذا أقبلنا على الخالق الأعلى بالإيمان ؟

إننا ننفذ أمره سبحانه ، والله لا يأمر المؤمن إلا عن حكمة ، وقد تتحل للمؤمن بعد ذلك آثار الحكمة ويزداد المؤمن ثقة في إيمانه بالله . يقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا إذا تدابرتهم فدين إلى أجل مسمى فاكسبوه » وعندما نتأمل قول الحق : « تدابرتهم » نجد فيها « دين » ، وهناك « دين » ، ومن معنى الدين الحراء ، ومن معنى الدين

منهج السماء ، وأما الدين فهو الاقتراض إلى موعد يسدد فيه هكذا نجد ثلاثة معان واضحة : الدين : وهو يوم الجزاء ، والدين وهو المنهج السماوي ، والدين هو المال المقرض .

والله يريد من قوله : « تدانتم بدين » أن يزيل اللبس في معنيين ، ويعني معنى واحداً وهو الاقتراض فقال : « بدين » فالتفاعل هنا في مسألة الدين لا في الجزاء ولا في المنهج ، والحق يحسد الدين بأجل مُسمى . وقد أراد الله بكلمة « مُسمى » مريداً من التحديد ، فهناك فرق بين أجل لزوم ، وبين أجل لحدث يحدث ، فإذا قلت : الأجل عندي مقدم الحجيج . فهذا حدث في زمن ، ومقدم الحجيج لا يضعه أحد ، فقد تأخر الطائفة ، أو بهاب بعض من الحجيج بمرض فبقي حجرو الباقون في الحجر الصفي .

أما إذا قلت : الأجل عندي شهران أو ثلاثة أشهر فهذا يعني أن الأجل هو الرمس نفسه ، لذلك لا يصح أن يزجل أحد ديه إلى شيء يحدث في الرمس ، لأنه من الخائز ألا يحدث ذلك الشيء في هذا الزمن . إن التدانين بدين إلى أجل مُسمى يقتضي تحديد الزمن ، والحق يوضح لنا : « إذا تدانتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » وكلمة « فاكتبوه » هي رفع لخرج الأحياء من الأحياء .

إنه تشريع سماوي ، فلا تأخذ أحد الأريحية ، فيقول لصاحبه : « نحن أصحاب » ، إنه تشريع سماوي يقول لك : اكتب الدين ، ولا تقل . « نحن أصدقاء » فقد يموت واحد مكملاً فإن لم تكتب الدين خرجاً فيأذا يفعل الأبناء أو الأرامل ، أو الورثة ؟ .

إذن فالإزام الحق بكتابة الدين هو تنفيذ لأمر من الله يحقق رفع الخرج بين الأحياء . وينظر كثير من الناس أن الله يريد بالكتابة حماية الدائن لا ، إن انقصود بذلك والمهم هو حماية المدين ، لأن المدين إن علم أن الدين عليه موثق حرص أن يعمل ليؤدي دينه ، أما إذا كان الدين غير موثق فمن الجائز أن يكسل عن العمل ومن سدد الدين . وبذلك يحصل هو وأسرته على حاجته مرة واحدة ، ثم يرضى المجتمع الغنى على المجتمع الفقير فلا يفرضه ، ويأخذون عجز ذلك الإنسان عن السداد دربعة لذلك ، ويقع

هذا الإنسان الذي لم يؤد دينه في دائرة تحمل الوزر للمعاصي ، لأنه صَبَقَ باب القرض الحسن .

إن الله يريد أن يسير دولا ب الحياة الاقتصادية عند من لا يملك ، لأن من يملك يستطيع أن يسير حياته ، أما من لا يملك فهو المحتاج . وبذلك فهناك مثل في الريف المصري يقول : من يأخذ ويمطى يصير المال ماله . إنه يفترض ويسدد ، لذلك يثق فيه كل الناس ، ويرونه أميناً ويرونه مجداً ، ويرونه مخلصاً ، ويعرفون عنه أنه إذا أخذ وفي ، فكل المال يصبح ماله .

إذن قلناه - سبحانه - بكتابة الدين يريد حمية حركة الحياة عند غير الواحد ، لأن الواحد في حاجة إلى القرض . لذلك جاء الأمر من الحق سبحانه : « إذ تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » . ومن الذي يكتب الدين ؟

انظر المدقة : لا أنت أيها الدائن الذي تكتب ، ولا أنت أيها المدين ، ولكن لابد أن يأتي كاتب غير الاثنين ، فلا مصلحة هذا لثالث من عملية الدين . وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله . وفي ذلك إيضاح بأن الإنسان الذي يعرف الكتابة إن طلب منه أن يكتب ديناً ألا يتع عن ذلك ، لماذا ؟ لأن الآية - آية الدين - قد نزلت وكانت الكتابة عند العرب قليلة ، كان هناك عدد قليل فقط هم الذين يعرفون الكتابة ، فكان هناك طلب شديد على من يعرف الكتابة .

ولكن إن لم يطلب أحد من الذين يعرفون الكتابة أن يكتب الدين فيها يفعل ؟ . إن الحق يأمره بأن يتطوع ، وفي ذلك يأتي الأمر الواضح « فليكتب » ، لأن الإنسان إذا ما كان هناك أمر يقتضي منه أن يعمل ، والطرف لا يشمل تجرئة ، فالشرع يلزمه أن يندب نفسه للعمل .

هـب أنكم في رورق وبعد ذلك جاءت عاصفة ، وأعرقك الذي يمسك بدقة الزورق ، أو هو غير قادر على إدارة الدفة ، هنا يجب أن يتقدم من يعرف ليدبر الدفة ، إنه يندب نفسه للعمل ، فلا مجال للتجربة . والحق سبحانه وتعالى حين عرّض قضية الجهد في قصة سيدنا يوسف قال :



﴿ تَزْعُورُونَ سَعِ سَبِينَ دَايَا قَمَا حَصَدْتُمْ فَذُرُوهُ فِي سُبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُوتُ ١٧ ﴾  
 ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَعِ شَدَادٌ يَا أَكْلَرُ مَا قَدَّمْتُمْ هُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ١٨ ﴾

(سورة يوسف)

وقال سيدنا يوسف

﴿ اسْمَعْني عَنْ حَرَّيْنِ الْأَرْضِ إِلَى حَبِيطِ عَيْشٍ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة يوسف)

إن المسألة جدت فلا تخجل التجربة ، وهو كفه هذه المهمة ، تملك موهبة الحفظ والعلم ، فتهذب نفسه للعمل . كذلك ها ، ولا يأت كاتب أن يكتب كما علمه الله ، إذا طلب منه وإن لم يطلب منه وتعين « فليكتب »

وهذه حلة الأمرين الاثنين ، ومادامت الكتابة للتوثيق في الدئين ؛ فمن الضعيف ؟ إنه المدين ، والكتابة حجة عليه للدائن ، لذلك يحدد الله الذي يملل : الذي عليه الدئس ، أى يملل الصيغة التى تكون حجة عليه « وليملل الذى عليه الحق » ولماذا لا يملل الدائن ؟ لأن المدين عادة فى مركز الضعف ، ففعل الدائن عندما تأتى لحظة كتابة ميعاد لصداء فقد يفلل هذا الميعاد ، وقد ينجعل المدين أن يكلم ويصمت ؛ لأنه فى مركز الضعف . ويختار الله الذى فى مركز الضعف ليحمل صيغة الدئس ، يملل على راحته ، ويضرس الأئوخذ بسيف الحاجة فى أى موضع من المواضع .

لكن ماذا نعمل عندما يكون الذى عليه الدئس سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو ؟ إن الحق يضع القواعد « فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل » والسفيه هو البالغ مبلغ الرجال إلا أنه لا يمتلك أهلية التصرف والضعيف هو الذى لا يمتلك القدرة التى تبطنه أن يكون ناصحا النصح العقل للتعامل ، كأن يكون طفلا صغيرا ، أو شيخا بلغ من الكبر حتى صار لا يعلم من بعد علمه شيئا ، أو لا يستطيع أن يمل . أى أنحرس فنقوم بالإملاء الولي أو القيم أو الوصى .

ويأتى التوثيق الرائد : بقوله - تعالى - . « واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » .

ولننظر إلى الدقة في التوثيق عندما يقول الحق : « واستشهدوا » نستشهد ومكتب ، لأنه سبحانه يريد بهذا التوثيق أن يؤمن الحياة الاقتصادية عند غير الواحد ، لأن الحاجة عندما تكون مؤنة عند غير الواحد فالدولاب يمشى ونسير حركة الحياة الاقتصادية ، لأن الواحد هو القليل ، وغير الواحد هو الكثير ، فكل فكر جاد ومفيد يحتاج إلى مائة إنسان ينفذون التخطيط .

إن الجهد الواحد الذي يصرف يحتاج إلى مائة ليخذوا ، ولهذا نكون الجمهرة من الذين لا يجدون ، وذلك حتى يسير نظام الحياة ؛ لأن الله لا يريد أن يكون نظام الحياة تفصلا من الخلق على الخلق ، إنما يريد الله بظام الحياة نظاما ضروريا ؛ فالعالم الذي لا يعمل أسرة قد لا يخرج إلى العمل ، لذلك فالخلق يربط خروج العامل بعمله . إنه يحتاج إلى الطعام ورعاية نفسه وأسرته فيخرج اضطرارا إلى العمل ، ويتكرر الأمر بعشق عمله ، وحين يعشق العمل فهو يحب العمل في ذاته

وبذلك يتقل من الحاجة إلى العمل ، إلى حب العمل في ذاته ، وإذا ما أحب العمل في ذاته ، فعمله الحياة تسير والحق سبحانه حين يحدد اشهود بهذا القول : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » .

ولماذا قال الحق « شهيدين » ولم يقل « شاهدا » ؟ لأن مطلق شاهد قد يكون زورا ، لذلك جاء الحق بصيغة المبالغة . كأنه شاهد عرفه الناس بعدالة الشهادة حتى صار شهيدا . إنه إنسان تكررته الشهادة العادلة ؛ واستأنسه الناس على ذلك ، وهذا دليل على أنه شهيد . وإن لم يكن هناك شهيدين من الرجال فالحق يحدد لنا « فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء » .

إن الحق سبحانه وتعالى قد طلب منا على قدر طاقنا أى من مرضى نحن عنهم ، وحلل الحق عبيء المراتب في معاني رجل بما يلي : « أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » ؛ لأن الشهادة هي احتكاك بمجتمع لشهد فيه وتعرف ما يحدث . والمرأة

بعيدة عن كل ذلك غابا .

أن الأصل في المرأة ألا علاقة لها بمثل هذه الأعمال ، وليس لها شأن بهذه العمليات ، فإذ ما اضطرت الأمور إلى شهادة المرأة فلتكن الشهادة لرجل وامرأتين ، لأن الأصل في فكر المرأة أنه غير مشمول بالمجتمع الاقتصادي الذي يحيط بها ، فقد فصل أو تسمى إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، وتتدارس كلتاهما هذا الموقف ، لأنه ليس من واجب المرأة الاحتكاك بمجموع الناس وبخاصة ما يتصل بالأعمال

وبعد ذلك يقول الحق : « ولا يأت الشهود إلا ما دعوا » فكيف قال الحق عن الكتاب ألا يمتنع عن توثيق الدين ، كذلك الشهادة على هذا الدين . وكيف تكون الشهادة ، هل هي في الأداء أو التحمل ؟ إن هنا مرحلتين . مرحلة لحمل ، ومرحلة أداء .

وعندما نطلب من واحد قائلين : تعال أشهد على هذا الدين . فليس له أن يمتنع ، وهذا هو التحمل . وعندما وثقنا الدين ، وسنطلب هذا الشاهد أمام القاضي ، ووقوف أمام القاضي هو الأداء . وهكذا لا يأتي الشهود إذا ما دعوا تحملا أو أداء .

لكن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن كل نفس بشرية لها مجال حركتها في الوجود ، ويجب ألا يطفى حركة حدث على حدث ، فالشاهد حين يُشَدعى - بضم الياء - ليتحمل أولا أو ليزدح ثانيا يسمى ألا تتعطل مصالحه ، إن مصالحه مستعطل ؛ لأنه عاجل ، ولأنه شهيد ، لذلك يصح الله لذلك الأمر حداً فيقول : « ولا يضار كاتب ولا شهيد »

إذن فالشهادة هنا تتطلب أن يحترم ظروف الشاهد . فإن كان عند الشاهد عمل أو امتحان أو صفة أو غير ذلك ، فلنا أن نقول للشاهد : إما أن تتعين في التحمل حيث لا يوجد من يوثق به ويطمأن إليه أما في الأداء فانت مضطر

إن الشاهد يمكنه أن يذهب إلى أمره الضروري الذي يجب أن يصعله ، فلا يطفى حدث على حدث ، لذلك علينا أن نسأل عن شاهد له قدرة السيطرة على عمله بدرجة ما . وإن لم نجد خبره ، فماذا يكون الموقف ؟

لقد قل الحق : « ولا يضر كاتب ولا شهيد » إذن فعلينا أن نبحث له عن  
« جعل » يعرض عليه ما فانه ، فلا يلزمه أن يعطل عمله وإلا كانت عداوته وبالأ  
عليه ، لأن كل إنسان يطيب للشهادة تنعطل أعماله ومصالحه والله لا يحصى الدائن  
والمدين ليضر الكاتب أو الشهيد

وقوله الحق لكلمة : « يضر » فمن الممكن أن تأتي الكلمة على وجهين في اللغة .  
فمرة تأتي « يضر » بمعنى أن الضرر يأتي من الكاتب أو الشهيد ، ومنه أخرى تأتي  
كلمة « يضر » بمعنى أن الضرر يقع على الكاتب أو الشهيد فاللفظ واحد ، ولكن  
حالة اللفظ بين الإدعاء الذي هو عليه حسب قواعد اللغة وبين فكه هي التي تبي لنا  
اتجاه المعنى . وإن قلنا : « ولا يضر كاتب ولا شهيد » - تكسر الراء - ، فالمعنى في  
هذه الحالة هو أن يقع الضرر من الكاتب فيكتب عن الحق ، أو أن يقع الضرر من  
الشهيد فيشهد بعير العدل .

وإن قلنا : « ولا يضر كاتب ولا شهيد » - بصح الراء - فانه هو أن يقع  
الضرر على الكاتب أو الشهيد من الذين يؤدى الكتابة عرصا لهم ، وتؤدى الشهادة  
واحبا بالسنة لهم ، ليضمن الدائن دينه ، وليستوثق أن أداءه محتم

والكاتب والشهيد شخصان لهم في الحياة حركة ، ولكل منهما عمل يقوم به يؤدي  
مطلوبات الحياة ، فإذا علم - بضم العين وكسر اللام وفتح ايم - أنه كاتب أو شهيد  
بأنه عادل عند ذلك يتم استدعاؤه في كل وقت من أصحاب المصلحة في المدينة ،  
وربما تعطلت مصالح الكاتب أو الشهيد .

وبريد الله أن يضمن لذلك الكاتب أو الشهيد ما يبقى على مصلحته ولذلك  
أخذت القوانين الرضعية من القرآن الكريم هذا المبدأ ، فهي إن استدعت شاهدا  
من مكان ليشهد في قضية فإنها تقوم له بالغة ذهب والتعقة إيانا ، وإن انقضى الأمر  
أن يبيت فله حق البيت وذلك حتى لا يضر ، وهو يؤدي الشهادة ، وحتى لا يتعطل  
المشاهد عن عمله أو أن يصرف من جيبه

ويريد الحق سبحانه وتعالى أيضا أن يضمن مصالح الجميع لا مصلحة جماعة على حساب جماعة .

ويقول الحق في هذه المضارة : « وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم » أى وإن تعملوا الضرر من هذا أو من ذلك فإنه فسوق بكم ، إنه سبحانه يحذر أن يقع الضرر من الكتب أو الشهود ، أو أن يقع الضرر على الكاتب أو الشهيد . ففعل الضرر فسوق ، أى خروج عن الطاعة .

والأصل فى « الفسق » هو خروج الرطبة من قشرتها ، فالبلح حين يرطب تكون القشرة قد خلعت عن الأصل من البلحة ، فتخرج الثمرة من القشرة فيقال : « فسقت الرطبة » . ومنها أخذ معنى الفسوق وهو الخروج عن طاعة الله فى كل ما أمر

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : « واتقوا الله » وعلمنا من قبل معنى كلمة « اتقوا » حين يقول الله : « واتقوا الله » أو يقول سبحانه : « واتقوا النار » واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ، وكل هذه المعاني مبنية على الوقاية من صفات جلال الله ، وجبروته ، وقهره ، وإذا قلنا : « اتقوا النار » فالنار من جنود صفات القهر لله ، لـ « اتقوا الله » هى بمعناها « اتقوا النار » هى بمعناها « اتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » .

ويقول الحق سبحانه . « واتقوا الله ويعلمكم الله » وهنا مبدأ إيماني يجب أن نأخذه فى كل تكليف من الله ، فإن التكليف إن جاءت من بشر لبشر ، فأنت لا تفعل لتكليف من البشر إلا إن أقمكت بحكمته وعلمه ، لأن التكليف يأتي من مسألك ، ولا توجد عقلية أكبر من عقلية ، وقد تقول من يكتفك . ولماذا أكون تبعا لك وأنت لا تكون تبعا لى ؟ إنك إذا أردت أن تكلفنى بأمر من الأمور وأنت مسألى فى الإنسانية والبشرية وعدم المعصية فلا بد أن تضعى بحكمة التكليف

لما إن كان التكليف من أعلى وهو الحق سبحانه وهو الله الذى أما بقدرته وعلمه وحكمته وتنزهه عن الغرض المعاند عليه فالأمر فى هذه الحالة يأخذ الأمر قبل أن

يبحث في الحكمة ، لأن الحكمة في هذا الأمر أنه صادر من الله ، وحين يمتد المؤمن التكليف الصادر من الله فسيعلم سر هذه الحكمة فيها بعد ؛ فإسرار الحكم عند الله تلقى للمؤمن بعد أن يقبل على تنفيذ التكليف الإيمانية .

إن الحق سبحانه - على سبيل المثال - لا يقطع العبد بإسرار الصوم ، ولكن إن صام العبد المؤمن كما قال الله - وعد بممارسة المؤمن لعبادة الصوم سيجد أثر حكمة الصوم في نفسه بما لا يمكن إقاعه به ألا - إن المؤمن حين يعمل التكليف الإيماني فإن الله يعلمه حكمة التكليف ولنا في قوله سبحانه الدليل الواضح :

﴿ يَتْلُوهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنْ تُتْلَوْا فَحَمْدٌ لَهُمْ أَفَلَا يُحْمَلُونَ لَهُمُ أَثَرٌ ﴾  
﴿ لَكَ وَاللَّهُ فَؤَادُ الْقَصْرِ الْعَلِيِّ ﴾

( سورة الأنعام )

إن الله سبحانه بعد عباده المؤمنين أنهم عندما يتقونه فإنه يجعل لهم دلائل تبين لهم الحق من باطل ويستر عنهم السيئات ويخبرهم . لماذا ؟ لأن الله الذي يعلمنا هو الحق سبحانه العليم بكل شيء . وعلم الله داني ، أما علم الإنسان فقد يكون أثرا من ضغط لأحداث عليه فيعكر الإنسان في تقبيل شيء يخرج به عما يكون فيه من شر ، ولكن علم العليم الأعلى سابق على ذلك لأنه علم داني

وقبها سبق علمنا أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى الدين هذه العنبة ليضمن للحياة حركتها الطاهرة ، حركتها السليمة ؛ لأن المعدم لا وسيلة له في حركة الحياة إلا أمور ثلاثة ، الأمر الأول - الرُفْدُ أي عطاء تطوعى يستعين به على حركة الحياة . والأمر الثاني - القرص الذي فرضه الله في الزكاة - والأمر الثالث - القرص الذي شرعه .

فعندما لا يجد المؤمن المعدم ارفد أو القرص فإذا يكون بعد ذلك ؟ إنه القرص . إذن فالقرص هو المخرج الثالث للحركة الاقتصادية عند المعدمين . وعرفنا أن القرص عند الله يفرق ويعمل الصدقة في الثواب ؛ لأن الصدقة حين تنصلق بها تكون قد خرجت من نفسك من أول الأمر فلا مشغولية لديك بعد ذلك ، ولكن القرص

نفسك تكون متعلقة به ، لأنك لا تزال مالكا له ، وكلما صبرت عليه أخذت ثواباً من الله على كل صبرة تصبرها على المدين

وعرفنا كذلك أن الحق سبحانه وتعالى قد استوثق لعملية الدين استيثاقاً يجب أن نفهمه من وجهيه ، الوجه الأول أنه يحفظ بذلك ثمرة حركة المتحرك في الحياة ، وهي أن يتمول ، أي أن يكون عنده مال ، فإن لم نحرم له ثمرة حركته في الحياة استهلك بالحركة ، وإذا استهان بالحركة تعطلت مصالح كثيرة ، لأن حركة المتحرك في الحياة تنمّع بشراً كثيرين قصد المتحرك ذلك أو لم يقصد ، وصربا المثل بمن يريد بناء عمارة ، وعنده مال ، فيسلط الله عليه حائطاً من حوائطه مصداقاً لقوله الحق

﴿ وَمَا يَعْلَمُ خُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

( من الآية ٣١ سورة النذر )

فيقول ولماذا أكره المال ؟ ولماذا لا أبقى عمارة استعيد من إيجارها ؟ وبذلك لا يشاقص المال بل يريد وليس في مال ذلك الرجل أن يمنع أحداً ، إن بآله مشغول بأن ينفع نفسه ، لكن حركته وإن لم يقصد بمنع الغير ستمنع الغير . . . فإلى يحفر الأرض سيأخذ أجراً لذلك ، والذي يصرب الطوب سيأخذ أجراً لذلك ، وكل من يشترك في عمل لإنفاة هذا البيان من ماء أو إدخال كهرباء أو توصيل مياه أو تحسين وتجميل كل واحد من هؤلاء سيأخذ أجره ، وبذلك يستفيد الجميع وإن لم يقصد المتحرك في الحياة

إذن فالحق يريد أن يحمي حركة المتحرك في الحياة لأنه لو لم يحم الله ثمرة حركته في الحياة ، لاكتفى المتحرك في حركته بما يفرقه ويقوت من يعول ، ويبقى الضعيف في الحياة ، فمن ذا يعوله ؟ إذن لابد أن نصمّن للمتحرك ماله حتى يشجع على الحركة . . . الله الذي وهب الناس أروافهم ، عندما يطلب من القوى المتحرك أن يعطي أحده لضعيف المحتاح قرصاً ، لا يقول الله « اقرص المحتاح » ، ولكنه جل وعلا يقول :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

( من الآية ٢٤٥ سورة البقرة )

إن الله سبحانه وتعالى قد أحترم حركة الإنسان المتحرك في الحياة وجعل المال مال المتحرك ، فلا يقول الله للمتحرك : أعط المحتاج من المال الذي وهبتك إياه . لا ، إنه مال المتحرك ، ويقول الله للمتحرك : اقترض لأن أخاك في حاجة إليه ، كما يقول للتقريب لا للتشبيه - والله لمثل الأعلى - أنت تأخذ من حصة ابنك لمصلحة أخيه ، وتعد ابنك الذي أخذت من حصته أنك سوف تعطيه الكثير والمال الذي أخذته من حصة ابنك فرب أنت الذي أعطيت له أولاً

إذن فأنه يريد أن يحمي حركة الحياة ، وإن لم نحم حركة الحياة ، لا يكون كل إنسان آمناً على ثمره حركته ، فتمسد الحياة كلها ويستشري الصعن والحمد ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى

﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ ۖ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَبِئْسَ الْكُفْرَافَ ۚ وَيُخْرِجْ

أَصْعَكُمْ ۖ﴾

( سورة محمد )

وساعة يتمنى الصغر في المجتمع فلا فائدة في هذا المجتمع أبداً . إذن فالحق حين يوثق الدين يريد أن يحمي حركة المتحرك ؛ لأن الناس تختلف فيما بينها في الحركات الطموحية ولا توجد الحركات الطموحية في كل الناس ، بل توجد في بعضهم . فلستعمل حركة لطموح عند بعض الناس ؛ لأنهم سيبدون المجتمع قصيدوا ذلك أو لم يقصدوا

وبعد ذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يحمي أيضاً الإنسان من نفسه ؛ لأنه إن علم أن الدين الذي عليه موثق ، ولا وسيلة لإنكاره حاول جاهداً أن يتحرك في الحياة ليؤديه . وحين يتحرك الإنسان ليؤدي عن نفسه الدين فإن ذلك يزيد الحركة في الحياة ، ويرداد النعم

وهكذا يرى أن الله أراد بالتوثيق للدين حماه المدين من نفسه ؛ لأن الدين قد تطراً عليه ظروف فيماطل ، وإذا ما عاقل هل تكون الحسارة فيه وحده ، وبكـ



يصبح أسوة عد جميع الناس وسبقول كل من عده مال لا أعطى أحداً شيئاً لآل  
فلاماً المعنى مثل قد أعطى فلاناً لغيره ومأطبه وأكله ، وعد ذلك تنوقف حركة الحياة  
ولكن إذا كان الدين موثقاً ومكتوباً فإن المدين يكون حريصاً على أدائه والله يريد أن  
يضمن لحركة الحياة دواماً واستمراراً شريعاً بطبعاً ولذلك سجد في آية الدين أن  
كلمة الكفاية ومادتها الكف والناء والياء ، تتكرر أكثر من مرة بل مرات كثيرة

﴿ يَنَابِئُ الدِّينَ أَسْوَأَ إِذَا تَدَابَعَهُمْ يَدْبِقُ لَكَ أَهْلٌ مُنَمًّى فَآخِذُوا بِهِ وَتَعْلَمُوا  
بِكُرِّ كَاتِبٍ بِالْعَدَبِ وَلَا يَنْبَغُ أَنْ يَكُنَّ فَا عِلْمُ اللَّهِ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَحْلِلْ  
لِقَائِي عَلَيْهِ الْحَقُّ رَبَّنِي اللَّهُ رَبُّهُ وَلَا يَمَسُّ مِنْهُ شَيْءٌ فَإِنْ كَانَ آخِرُ طَلَبِ الْحَقِّ  
مَفِيحاً أَوْ صَعِيقاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْلِلَ حَوْقَ حِلِّيلٍ وَلِيَهُ بِالْعَدَبِ وَأَسْتَبْدِرُوا نَبِيَّيْنِ  
مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ  
تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَنْبَغُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَدُّهُمُ وَلَا  
تَسْمَعُوا أَنْ تَحْكُمُوا صَعِيقاً أَوْ غَيْرَ إِلَى آخِرِهِ ذَلِكَ أَفْطَى مِنْهُ وَأَقْوَمُ  
لِلشَّهَادَةِ وَالَّذِينَ لَا تَرْضَوْنَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بَحْرَةً حَاصِرَةٌ يُدِيرُونَهَا يَكُفُّ عَنْكُمْ فَلْيَسِّرْ  
حُجَّاحُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَشْهَدُوا إِذَا نَبَّاهُمْ وَلَا يَصَارُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَمَا لَهُمْ  
سُوءٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَابْعَثُوا اللَّهَ وَأَكْفَى بِكُلِّ شَيْءٍ عَيْمٌ ﴿١٢٢﴾

(سورة النجم)

وهذا التكرار في هذه الآية لعملية الكتابة يوصل العلاقة بين الناس ، فالكتابة هي  
عمدة التوثيق ، وهي التي لا تفسد ، لأنها إن سجلت شيئاً على ورقة على ثلث الورقة  
لشكر ما كتبه أنت فيها ، ولكن الأمر في الشهادة قد يختلف ، فمن الجائز أن يجمع  
الشاهد لتأثير ما يكره الخسفة ، ولذلك فإن الحق يعطينا نصيحة إيمانية جديدة حين  
يقول : أن يكتب كما علمه الله ، أي أن يكتب الكاتب عن وفق ما علمه الله ،

فكانه لابد أن يكون فيها عالماً بأمور الكتابة ، أو به علمه الله ، لئى أن الله أحسن إليه وعلمه الكتابة دون غيره ، فكما أحسن الله إليه تعلم لكتابة فليحسن ولبعث أثر الكتابة إلى الغير .

وليت المائة مائة كتابة فقط ، إنما ذلك يشمل ويضم كل شيء أو موهبة حص الله بها فرداً من الناس من موهب الله على خلقه ؛ فالمؤمن هو من يعمل على أن يعدى أثر النعمة والموهبة إلى الغير . وعليك أن تعدى أثر مواهب الغير إليك فتتفع بها سواك ، ولذلك يشيع الخير ويسم النعم لألك إن أحدثت موهبة فستأخذ موهبة واحدة تكفيك في رابطة واحدة من روايا حياتك ، وعندما تعدىها للجميع وتنقلها إليهم فيعدى الجميع مواهبهم المجتمعة بصلحتك ، فأيتها أكسب ؟

حين تعدى وتنقل موهبتك إلى الناس ، تكون أنت الأكثر كسباً ؛ لأن الجميع يعدون وينقلون مواهبهم إليك . وإذا أنقست صفتك للناس فالصفة التي في يدك واحدة ، وعندما تنقلها فإن الله يسلط جود لخواطر على كل من يصنع لك شيئاً أن ينقله ، كما أنقست أنت لسواك . وبعد ذلك يعلم الحق سبحانه شدة الحرص على التوثيق فيقول :

وَأِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقُومَتَهُ  
فَإِنْ آمَنَ بِقِطْعِكُمْ بَعْضٌ فَلَئُوذُ الَّذِي أُوتِئْنَ آمْنَتُهُ، وَلَيْسَ  
اللَّهُ رَبَّهُ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ  
عِندَ اللَّهِ قَلْبُهُ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ

والسفر كما يعلم هو خروج عن رتبة الحياة في الوطن ، ورتابه الحياة في الوطن

نحمل الإنسان يعلم تمام العلم مقومات حياته ، لكن السر يخرج الإنسان عن رتبة الحياة فلا يتمكن من كثير من الأشياء التي يتمكن بها في الإقامة . فبذلك مسافر ، واضطرت إلى أن تستلين ، ولا يوجد كاتب ولا يوجد شهيد ، فهذا يكون الموقف ؟

ها هو ذا الحق يوضح لك : « رهان مضمونة » . إند فلم يترك الله مسألة الدين حتى في السفر فلم يشرع فقط للإقامة ولكن الحق قد شرع أيضا للسفر « رهان مضمونة » وهكذا الكتائب ، والشهادة في الإقامة والرهان المضمونة في السفر هدفها حماية الإنسان أمام ظروف ضغط المجتمع .

ولكن هل يمنع الحق سبحانه وتعالى طموحية الإيثار ؟ هل يمنع الحق سبحانه وتعالى رجولية التعامل ؟ هل يمنع الحق سبحانه وتعالى المروءات من أن تتدخل في الناس ؟ لا إنه الحق سبحانه يقول : « فإن آمن بعضكم ببعض فليؤد الذي أؤتمن أمانته » إنه الطموح الإيماني ، لم يسه الله مسألة المروءة والإيثار في التعامل . إن كتابة الدين والإشهاد والرهن ليس إلزاماً لأن الله قال : « فإن آمن بعضكم ببعض فليؤد الذي أؤتمن أمانته »

وأبصار قد نعلم أن الذي أؤتمن هو المدين ، وقت نقول : لا ، إن الأمر مختلف ، فهنا رهان ، وذلك معناه وجود مسألتين ، مسألة الأولى هي « الدين » ، ومسألة الثانية هي « الرهان لمضمونة » وهي مقابل الدين هو أحد مأمون على الرهن في يده . والآخر مأمون على الدين وهذا يكون لقول الحكيم مقصوداً به من بيده الرهن ، ومن بيده الدين ومعنى ذلك أن يؤدي من معه الرهن أمانته ، وأن يؤدي الآخر دينه . حين نرتقي إلى هذا المستوى في التعامل فإن ويرع الإنسان ليس في التوثيق الخارج عن ذات انفس ، ولكنه التوثيق الإيماني بالنفس ، ولكن أنضمن أن يوجد التوثيق الإيماني عند كل الناس ؟ .

أنفس الظروف ؟ . نحن لا نضمن الظروف ، فقد توجد الأمانة الإيمانية وقت التحمل والأخذ ، ولا تضمن أن توجد الأمانة الإيمانية وقت الأداء فقد يأمر واحد ويقول لك : إن عدي مائة جنيه وخذها أمانة عنديك .

ومعنى «أمانة» أنه لا يوجد منك ، ولا شهود ، وتكون الأمانة هي الحكم ، فإن شئت أقررت بهذه الخصيعة المائة ، وإن شئت أنكرتها . إن الرجل الذي يفعل معك ذلك إنما يطلب منك توثيق المائة جيه في الأمانة الإيجابية ، ومن الجائز أن تقول له لحظة أن يفعل معك ذلك . نعم سأحتمط لك بالمائة جيه بمنتهى الأمانة وتكون نيتك أن تؤديها له ساعة أن يطلبها ، ولكك لا تنسى ظروف الحياة بالسبب لك ، وأنت كإنسان من الأغيار . ومن الجائز أن تضغط عليك الحياة صعباً يجعلك تخاف معك في أداء الأمانة ، أو يجعلك تنكرها ، فتقول لم اتأكد

أبعد عني ، أنا لا أملك نفسي في وقت الأداء ، وإن ملكت نفسي وقت التحمل . والأمانة هي القضية العامة في الكون ، وإن كانت خاصة الآن بالسنة للآية الكريمة التي نحن بصددنا والحق - سبحانه - يعرضها بعمومها على الكون كله فيقول - حل شأنه - .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

(سورة الاحزاب)

إن الكون كله أشفق على نفسه من تحمل الأمانة وهذا يعني أن الأمانة سوف يكون عرضة للتصرف والاختيار ، ولا كائن في الكون قد صمم لنفسه القدرة على الوفاء وقت الأداء . لقد أعلنت الكائنات قوتها فأبى تحمل الأمانة وكانها قالت ، إنا بارما نريد أن نكون مسحرين مهوورين لا اختيار لنا ؛ ولذلك سجد الكون كله يؤدي مهمته كما أرادها الله ، ما عدا الإنسان . أي أنه الذي قل بما له من عقل وتفكير أن يتحمل أمانة الاختيار ، وبلسان حاله أو بلسان مقاله قال . إني قادر على تحمل الأمانة ، لأن أستطيع الاختيار بين البدائل

وهنا نذكر الإنسان إنك قد تكون قوياً لحظة التحمل ، ولكن ماذا عن حالك وقت الأداء ؟ لذلك قال الله عن الإنسان ، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ، لقد ظلم الإنسان نفسه حيث حمل الأمانة ولم يف بها فلذلك فهو ظلوم وهو جهول لأنه قدر وقت التحمل ، ولم يقدّر وقت الأداء ، أو صممها ثم حاس وحالف ما عاهد نفسه على أدائها .

إذن فالإنسان وإن كان واقعاً أنه سيؤدي الأمانة إلا أنه عرضة للأهيار ، لذلك قال الحق سبحانه : « ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أحبط عند الله » فالكتابة فرصة ليحمي الإنسان نفسه من الضعف وقت الأداء ، فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يوثق الأمر توثيقاً لا يجعلك أيها العبد خاضعاً لذمتك الإيمانية فقط ، ولكنك تكون خاضعاً للترتيب الخارج عن إيمانيتك أيضاً ، وذلك يكون بكتاب الدين صغيراً أو كبيراً إلى أجله .

ويقول الحق سبحانه : « ولا تكتبوا الشهادة » وهذه الكلمة « ولا تكتبوا » إنما هي أداء معبر ، لأن كلمة « شهادة » تعني الشيء الذي شهدته ، فبانت قد شهدت شيئاً فهو واقع ، والواقع لا يتغير أبداً ، ولذلك فالإنسان الذي يحكى لك حكاية صدق لا يختلف قوله في هذه الحكاية حتى وإن رواها ألف مرة ؛ لأنه يسوحي واقعاً

لكي الكذب يستوحي غير واقع ، فيقول كلمة ، ويسوي أنه كذب من قبل فيكذب كذبة أخرى ؛ لأنه لا يسوحي واقعاً . فكلمة الشهادة هي عن أمر مشهود واقع ، ومقدام الأمر مشهوداً وواقعاً ، فإنه يلح على نفس من يراه أن يخرج . بليلك أن تكتمه بالكتم ؛ لأن كلمة « الكتم » تعني أن شيئاً يحاول أن يخرج وأنت تحاول كتمه ، لذلك يقول الحق : « ولا تكتبوا الشهادة » فكان الطبيعة الإيمانية الفطرية تلح على صاحبها لتتطرق بما كان مشهوداً له لأنه واقع

لذلك يأتي الأمر من الحق : « ولا تكتبوا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » وقد يسأل الإنسان هل انكم ها صفة للقلب أو للإنسان الذي لم يقل الشهادة ؟ إن الشاعر يقول :

إن الكلام ليس الصواد وإنما

جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

ومسألة يؤكد الله شيئاً فهو يأتي بالجراحة التي لها علاقة بهذا الصدد ، فيقول : أن رأيته يعني وسمعت بأني ، وأعطينه بيدي ومثبت له برجل . إنك تذكر الجراحة التي لها دخل في هذه المسألة .

وعندما يقول الحق : « فإنه أثم قلبه » إن كل الحوارج تحصع للقلب . « والله بما تعملون عليم » أي أن كتمك للحقيقة لن يغير من واقع علم الله شيئاً ، وحيثما تنهى مسألة المداينة والتوثيق فيها وفطرونها سواء كانت في الوطن العادي أو في أثناء السفر فإن الله يضمن للإنسان المتحرك في الحياة حركة شريفة وطاهرة .

فإن لم تكن هذه المصالح تتوقف ، ويصحبها العطل ، فالذي لا يقدر على الحركة فإذا بصع في الحياة ؟ إن قلبه يمتلئ بالحقد على الواحد ، وحين يمتلئ قلبه بالحقد على الواحد فإن يكره النعمة عنده ، وحين يكره المعدم النعمة عند أخيه الواحد ، فالنعمة نفسها تكره أن تذهب إلى من كره النعمة عند أخيه . إنها مسائل قد رتبها الحق سبحانه بعضها متعلق بالمرض الآخر .

إن النعمة تحب للمعم عليه - نعم الميم وفتح الميم - أكلة من حب المعم عليه للنعمة وتذهب إلى من أكرم الله عليه بها بعض ، فمن كره النعمة عند معم عليه فالنعمة تستعصى عليه حتى كأنه تقول له : لن سام مني حيراً ، وليخرها كل إنسان

أحب النعمة عند سواك فسجد نعمة الكل في خدمتك ، إنك إن أحببت النعمة عند هيرك فإنها تأتي إليك لتخدمك . وأيضاً فعل المؤمن أن يعرف أن بعض النعم ليست وليدة كد وجهد ، قد تكون النعمة مجرد فضل من الله ، يفضل به بعض خلقه ، فحين تكرهها أنت عند المعم عليه تكون قد اعترضت على قدر الله في النعمة . وحين تعترض على قدر الله في النعمة فإن الحق - سبحانه - لا يجعلك تستمع منها بشيء .

فإن رأيت قريباً حبر نعمته عن أقاربه فاعلم أنهم يكرهون النعمة عنده . ولو أحببوا لسعت النعمة إليهم . إن المسيح الإلهي يريد أن يجعل الناس كتلة متكافلة متكاملة بحيث إذا رأيت أنا النعمة عندك وبلت منها ، أحببتها عندك ، وحين أحب النعمة عندك فإن العطاء يجرى من هذه النعمة إلى ، ولا تجد فارقاً بين الواحد ومعدم . إنك لا تجد فارقاً بين واحد ومعدم إلا في مجتمع لا يؤدي حكم الله في شيء .

لقد قلنا ذلك في مجال اضطراب الإنسان إلى الربا لأنه لم يجد من يقرضه قرضاً حسناً ، ولم يجد من يؤدي فرض الله له من الركة لتسع حاجته فاضطر أن يأخذ بالربا ، وبذلك يدخل المجتمع الربوي في حرب مع الله ، وهل لأحد جلد على أن يدخل في حرب مع الله ؟ لا . بالمجتمع الربوي يدخل في حرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم - الربا وقال في حجة الوداع : « إن كل ربا موصوع ولكن لكم رهوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون قهبي الله أنه لا ربا وإن ربا عبل بن عبدالمطلب موصوع كله » .

وتلك صفة سمو التشريع السماوي ، إن التشريع الشري يحى به صاحبه أقاربه من التقنين ، لكن التشريع السماوي يحرص تطبيقاته أولاً على الأقارب . وكان الأسوة في ذلك سيدنا عمر بن الخطاب ، فساعة يريد عمر أن يضع التشريع فإنه يجمع أهله وأقاربه ويقول :

« سأقوم بعمل كذا وكذا موافقاً لنفسي بيده من حالفني في شيء من هذا لأجمله نكالاً للمسلمين ويعلمها عمر أمام الناس ، ولماذا أعلن عمر ذلك ؟ لأن كثيراً من الناس يحاملون أولياء الأمور ، وقد لا يكون أولياء الأمور على دراية بذلك ، فقد نجد واحداً يدخل على قوم على أساس أنه فلان بن فلان ، وبالرعب يقضى هذا الإنسان مصالحه عند الناس برغم أنف الناس وقد يكون ولي الأمر لا يعرف عن مثل هذا التصرف شيئاً »

لكن حين يعلن ولي الأمر على الناس ولاقاربه أنه لا تعرفه أبداً فيما يقضى وأن القلقون سائر على نفسه وعمل أهله ممن استعمل اسماً بولي الأمر أو اصطنع شيئاً فالتبعة على من فعل له وعليه ، وبذلك تستقيم الأمور . لكن أن تظهر الحقائق في استغلال أقارب الحكام بعد انتهاء فترات حكم الحكام ، فهذا نقول . ولماذا لم نعرف كل شيء من البداية ؟ . وأين كانت الحقائق في وقتها ؟ .

إن الحاکم المسلم عليه أن يعلن للمحكومين أن لقوانين إنما تطبق عليه أولاً وهل

من يقول . هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ( وربنا الحاهلية موضوع ، وأول ربنا أضع ربانا ، ربنا عباس بن عبدالمطلب فإنه موضوع كله ) (١) .

وفي معرفة بدر ، أخرج الرسول صلى الله عليه وسلم أهل بيته ليحاربوا ؛ لأنه لو لم يخرج أحداً من أهل بيته لقال واحد من الكفار . إنه يحمي أهل بيته ، ولو أن أجور الاستشهاد هو الجنة فلماذا يقدم الأباعد ولا يقدم أحبائه للقتال ؟

لكن ما هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم أقاربه وأحبائه ، فهو العارف من ربه بأمر الشهادة وكيف أنها تقصر على الإنسان ماعب الحياة وتدخله الجنة . هكذا كانت المحابة في صدر الإسلام ، بها عناية في الباقي ، ولم تكن كمحابة الحمقى في لفاق .

وحين يعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك ويصرّب على أيدي المرائين بهذه هي الحرب التي يجب أن تقوم ، حرب من الله الملك القادر على المحاربة ، أما الصعاف الذين لا يستطيعون القتال فهم لا يحاربون ؛ لأنهم أمام خالقهم وقدرهم فلا يقدرّون على حربه ولذلك يجب أن تنته الدولة إلى مثل هذه الأمور وتقن تقبلاً إسلامياً وبعد ذلك إذا لم تتسع الزكاة المفروضة إلى ما يقوم بلود المحتاجين وتنفرض الدولة ما تشاء لتعي بحاجة المحتاجين .

والحق سبحانه وتعالى بعد أن أوضح الأمر عقيدة في قوله : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم » ، وتقريباً للعقيدة في قوله : « لا إله إلا الله » ، وحماية للعقيدة بأمره سبحانه المؤمنين أن يقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا ، وبعد ذلك تكلم الحق عن حماية حركة الاقتصاد في الإماق أولاً في سبل الله ، والإنفاق على المحتاجين . يقول سبحانه بعد ذلك .

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي



# أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨١﴾

استهلت الآية بتقديم « الله » على ما في السموات وما في الأرض ، والحق سبحانه يقول : « الله ما في السموات وما في الأرض » ذلك هو الطرف الكتانة فيه المخلوقات ، السموات والأرض لم يدع أحد أنها له ، لكن قد يوجد في السموات أو في الأرض أشياء يدعى ملكيتها المخلوقات ، فإذا ما بقروا إلى حيرات الأرض فإننا نجدها مملوكة في بعض الأحيان لأناس بما ملكهم الله ، والبشر الذين صعدوا إلى السماء وأدروا في حومها ما أداروا من أثمار صسعة ومركب فصائية فمن الممكن أن يعلموا ملكيتهم هذه الأثمار وتلك المراكب

وبلغنا الحق سبحانه ما يقوله ، « الله ما في السموات وما في الأرض » وهو يوضح لنا - إنه إن كان في ظاهر الأمر أن الله قد أعطى ملكية البية لخلق فهو لم يعط هذه الملكية إلا عرصاً يؤخذ منهم ، فإذا أن يزولوا عنه فيموتوا ، وإذا أن يروا عنهم فيؤخذ منهم عن بيع لوهة أو عصب أو هب

وكلمة « الله » تميد الاحتصاص ، وتميد القصر ، فكل ما في الوجود امره إلى الله ، ولا يدعى أحد بسببية ما تاه الله أنه يملك شيئاً لماذا ؟ لأن المالك من البشر لا يملك نفسه أن يلزم

نحن لم نر واحداً من تلك الأعيار ، ومادامت الأعيار تنال كل إنسان فعلياً أن يعلم أن الله يريد من خلقه أن يتعاطفوا ، وأن يتكاملوا ، ويريد الله من خلقه أن يتعاونوا ، والحق لا يفعل ذلك لأن الأمر خرج من يده - والعباد بالله - لا ، إن الله يعلمنا ، أما في ما في السموات وما في الأرض ، واستطيع أن أجعل المسألة دولا بين الناس

ولذلك يقول للذين يصلون إلى المرتبة العالية في النفي ، أو الحياه ، أو أى مجال ، هؤلاء يقول : احذروا حين تتم لك النعمة ، لماذا ؟ لأن النعمة إن نمت لك علواً وفنىً وعافيةً ولولاداً ، أنت من الأغيار ، وملاامت قد نمت وصارت إلى النهاية وأنت لاشك من الأغيار ، فإن النعمة تتعبير إلى الأقل فإذا ما صعد إنسان إلى القمة وهو متعبير فلا بد له أن يزل عن هذه القمة ، ولذا يقول الشاعر

إذا تم شيء مدام نقصه      سرقت روالاً إذا قيل تم

والتاريخ يحمل لنا قصة المرأة العربية التى دخلت على الخليفة وقالت له : أتم الله عليك نعمته      وسمعتها الجالسون حول الخليفة ففرحوا ، وأعلنوا سرورهم ، لكن الخليفة قال لهم      والله ما فهمتم ما تقول ، إنما تقول : أتم الله عليك نعمته ، فإنها إن نمت تزول ، لأن لاغير تلاحق الخلق      وهكذا فهم الخليفة مقصد المرأة

والشاعر يقول :

نفسى التى تملك الأشياء داهية

فكيف آسى على شيء لما ذهب

إن النصر المالكه هى نفسها داهية ، فكيف يحزن على شيء له ضاع به ؟

والحق سبحانه يطلب منا أن نكون دائماً على ذكر من قصية واضحة هى أن نكون كله لله ، والبشر جميعاً بدوائهم وبغوسهم وما طهر منها وما بطن لا ينهى على الله ، والحق سبحانه لا يحاسبنا على مقتضى ما علم فحسب ، بل يحاسبنا على ما تم سبحانه علينا .

إن كل إنسان يقرأ كتابه بنعمه . سبحانه يقول :

﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَعْنٌ فِي حَقِّهِ مَوْجُودٌ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١﴾ أَقْرَأَ كَتَبَتْ كُنَى بِصِيكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿٢﴾ ﴾

والحساب معناه أن للإنسان رصيداً ، وعليه أيضاً رصيد ، والحق سبحانه وتعالى  
يقرر لنا ( له وعليه ) بالميزان كما نعرف في موارد الأشياء عبداً وهو سبحانه يقول

﴿ وَاللَّوْزَنُ بِوَيْبِ الْحَقِّ قُلْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُ فَتَأْتِيكَ هُمُ الْمُتَعَبُونَ ﴾ ١

مَوَازِينُ تَأْتِيكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ كَذَبُوا بِعَهْدِي بِطُغْيَانٍ ٢

( سورة الأعراف )

إن حساب الحق دقيق عادل ، فالذين ثقلت كفة أعمالهم الحسنة هم الذين  
يهرعون بالغرور ، والذين ناعوا أنفسهم للشيطان وهوى النفس تنقل كفة أعمالهم  
السيئة ، فصاروا من أصحاب النار

إذ نحن أمام نوعين من البشر ، هؤلاء الذين ثقلت كفة الخير في ميزان  
الحساب ، وهؤلاء الذين ثقلت كفة السيئات والشرور في ميزان الحساب ، هذا عن  
الذين تسارت الكفائد في أعمالهم ، استوت حسنتهم مع سيئاتهم ، إنهم أصحاب  
الأعراف ، الذين يبالون بالمعصية من الله ، لأن المعصية لله وهو الرحمن الرحيم قد  
سقت غضبه جل وعلا ، ولو لم يبق أمر أصحاب الأعراف في القرآن لقال واحد :  
لقد قال الله لنا خير الذين ثقلت موازينهم ، وأخبار الذين حمت موازين الخير  
عندهم ، ولم يقل لنا خير الذين تسوت شرورهم مع حسناتهم

لكن الخليم الخبير قد أوضح لنا خير كل أمر وأوضح لنا أن المعصية نسق الغضب  
عنده ، لذلك فاحساب لا يكفى الحق به بالعلم فقط ، ولكن بالتسجيل الواضح  
الدقيق ، لذلك يطمئنا الحق سبحانه يقول :

﴿ إِلَّا مَنْ تَبَىٰ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٣ ﴾

( سورة الأعراف )

إن الحق يطمئنا على أن ما نصنعه من خير نجده في كفة الميزان ، ويطمئنا أيضاً  
على أنه - سبحانه - سيجازينا على ما أصابنا من شر الأشرار وأنا سنأخذ من حسناتهم

تضاف إلى ميزان ، إذن العظمانية جاءت من طرفين طمأننا الحق على ما فعلناه من خير ، فلا يُسئى أنه يدخل في حسابنا ، وطمأننا أيضا على ما أصابنا من شر الأشرار ، وسياحد الحق من حسناتهم لضعفها بنا

ومن نجد في الكون كثيراً من الناس قد يحسبهم الله لخصته من خصال الخير فيهم ، وقد تكون هذه الخصلة الأخيرة حجة فلا يراه أحد ، لكن الله الذي لا تخفى عليه خافية يرى هذه الخصلة في الإنسان ، ويحب الله من أحلها ، ويرى الحق أن حسنات هذا الرجل قليلة ، فيجعل بعض الخلق يصيرون هذا الرجل بشروهم وميثاقهم حتى يأخذ من حسنات هؤلاء ليزيد في حسنات هذا الرجل .

ومعنى « تدروا ما في أنفسكم » أي تصبروا الوجدانيات إلى نزوعات عملية ، ولكن هل معنى « أو تحموا » هو ألا تصبروا الوجدانيات النفسية إلى نزوعات عملية ؟ لا ، فليس لكل شيء نزوع عمل . ومثال ذلك الحب ؛ إن الإنسان قد يحب ، ولا يجد القدرة على النزوع ليعلم بهذا النزوع أنه يخترق في حبه ، وكذلك الذي يحقد قد لا يجد القدرة على النزوع ليعلم بهذا النزوع عن حبه ، إذن هناك أعمال تستقر في القلوب ، فهل يؤاخذ الله بما استقر في النفوس ؟

إن هذه المسألة تحتاج إن دقة بالغة ؛ لأنها وحدها بعضا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقفوا فيها موقفا أبكى بعضهم ، هذا عند الله من عمر رضى الله عنهما حينما سمع هذه الآية قال : لن أجد الله على ما أحبنا في نفوسنا ليهلكن . وبكى حتى شمع شيعته بالبكاء . وبلغ ذلك الأمر من عاس فقال يرحم الله أبا عبد الرحمن لقد وجد إخوانه المسلمون مثلياً وجد من هذه الآية فأمرني الله بملها « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » إلى آخر السورة

ولنعلم أن نوارع النفس كثيرة ؛ فهناك شيء اسمه « هاجس » وهناك شيء آخر اسمه « خاطر » وهناك ما يسمى « حديث نفس » ، وهناك « هم » وهناك « غم » ، إنها خمس حالات ، ولأربع الأولى من هذه الحالات ليس فيها شيء ، إنما الأخيرة التي يكون فيها القصد واضح يجب أن تنبه لها ولتداول كل حالة بالتفصيل

إن الهاجس هو الخطرة التي تخطر دفعة واحدة ، أما الخاطر فهو بخاطر .. أى يسير في النفس قليلا ، وأما حديث النفس من النفس تغل تتردد فيه ، وأما الهم فهو استجراح الوسائل ، وسؤال النفس عن كل الوسائل التي يتخذها الإنسان رعبانه ، أم العزم ( المقصد ) فهو الوصول إلى النهاية وأبد في تنفيذ الأمر .

والقصص هو الذي يعنى به قوله تعالى . « وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » وقد وجدنا كثيرا من العلماء قد وقفوا عند هذا القول وتساءل بعض من العلماء : هل الآية التي جاءت بعد ذلك والتي يقول فيها : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » هل هي نسخ للآية السابقة عليها ؟

ولكن نحن نعرف أن الآية هي خبر ، والأخبار لا تنسخ إنما الأحكام هي التي يتم نسخها ، وعلى ذلك يكون القصص والعزم على تنفيذ الأمر هو المعنى بقوله الحق : « وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » فهذا هو الذى يحاسبنا الله عليه .

وعندما يقول الحق سبحانه : « فيعلم لمن يشاء » فمن هم ؟ لقد بين الله من يشاء المغفرة لهم ، بهم الدين تابوا ، وهم الذين أتوا إلى الله ، هم الذين قال فيهم الحق :

﴿إِلَّا مَنْ تَلَبَّ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ  
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾

( سورة الفرقان )

وتبديل المغفرة حسنة مائة يجب أن يفهم عندها الإنسان المكلف من الله وقصة ليرى فصل الله ، لأن الذى صنع سيئة ثم آتته ، فكما آتته السيئة التي ارتكبها وحزن منها ، فإن الله يكتب له حسنة . ولكن الذى لم يصنع سيئة لا تفرغه هذه ، وبعض العارفين يقول : رُبَّ معصية أورثت دلا وانكسارا حير من طاعة . يورث عزاء واستكبارا .

إنك لتجد الخير الشائع في الوجود كله ربما كان من أصحاب الإسرار على أنفسهم في شيء ما قد اقترفوه وتابوا عنه ولكنه لا يزال يؤرقهم .

يكون الواحد منهم قويا في كل شيء ، إلا أنه صعب أمام مسألة واحدة ، وضعفه أمام هذه المسألة الواحدة جعله يعصى الله بها وهو يحاول جاهداً في الواسحى القى ليس صميماً فيها أن يريد كثيراً في حسباته ، حتى يحس ويذهب الله هذه هذه . فالتحيز الشائع في الوجود ربما كان من أصحاب السيئات الذين أسرفوا على أنفسهم في ناحية من الواسحى ، فبشاء الله سبحانه وتعالى أن يجعلهم متجهين إلى نواح من الخير قائلين : ربما هذه تحمل تلك .

لكن الذى يطل رتباً هكذا لا تندعه معصية ربما تظل المائل فائرة في نفسه ولذلك يجب أن ننظر إلى الذين أسرفوا على أنفسهم لا في رايه واحدة ، ولكن في زوايا متعددة ، وننادى أمامهم ويدعو الله أن يعفيهم من نعرته عنهم ، وأن يبارك لهم فيما قدموه ، ليرى الله عنهم أروار ما فعلوا .

ومعنى العلماء يرى في قوله الحق : « فيعفو لمن يشاء ويعذب من يشاء » أن الله قد جعل المعصية أمراً متعلفاً بالعائد لله ، فإن شئت أن يعفو الله لك فأكثر من الحسنات حتى يبدل الله سيئاتك إلى حسنات . وإن شئت أن يعذب - وهذا أمر لا يسأله أحد - فلا يصح الحسنات .

وهذه المسألة تجعل معروف أن الحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا الإيمان به فإنه يملكنا الزمام . وبمجرد إيماننا به فحس بتقوى منه زمام الاختيار ، والدليل واضح في الحديث القدسي « من أب هزيمة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله - عز وجل - .

« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني » إن ذكرى في نفسه ذكرته في نفسه ، وإن ذكرى في ملاء ذكرته في ملاءهم خيرٌ عنهم وإن تقرب مني شراً تقربك إليهم ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً ، تقربت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة (١)

إذن فبمجرد إيمانك ملكك الله الزمام ، فإن أردت أن تقرب الله إليك ذراعاً ،

فتعرب أنت إليه شبرا ، فالرعام في يديك . وإن شئت أن يتعرب الله منك باعاً ، فتعرب أنت ذراعاً . وإن شئت أنت أن يأتي ربك إليك مهرولاً - جرياً - فأت إليه مشياً . فبمجرد أن يراك الله وأنت تقبل وتتجه إليه ، كأنه يقول لك لا استرح أنت ، أنا الذي آتى إليك .

ولذلك قلنا من قبل في مسألة الصلاة حين تؤمن - أيها العبد - بالله وبعد ذلك يتبادى المزدن للصلاة ، فتذهب أنت إلى الصلاة ، صحيح أنت تلعب إلى الصلاة المقروضة ، لكن هل معك الله أن تقف بين يديه في أية لحظة ؟ فقد طلب الله منك أن تحضر بين يديه خمس مرات في اليوم ، وبعد ذلك ترك الباب مفتوحاً لك - أيها المؤمن - فأنه لا يمل حتى يمل العبد .

والإنسان في حياته العادية - والله مثل الأعلى - إذا أراد أن يقابل عظيمياً من العظماء من الإنسان يطلب الميعاد ، وإنما أن يقبل العظيم من البشر لقاء من يطلب الميعاد أو يرفض . وإذا قبل العظيم من البشر لقاء من يطلب الميعاد ، فإن العظيم من البشر يحدد الزمن ، ويحدد المكان ، وربما طلب العظيم من البشر أن يعرف سبب وموضع المقابلة . لكن الله يترك الباب مفتوحاً أمام العبد المؤمن ، يلتقى الله عبده في أي شيء ، وفي أي وقت ، وفي أي مكان ، وفي أي زمان .

حسب نفسي عراً سائراً عند محصى بسلامة عبد رب  
هو في قدسه الأعبر ولكن أبألقى متى وأين أحب

الزمام إذن في يد من ؟ . إن الزمام في يد العبد المؤمن لذلك فالدين قالوا في مهم ، فيعبر لمن يشاء . إن البشر في أيديهم أمر المعفرة لهم ، فإن شاء الشر أن يعبر الله لهم فزهم يفعلون أسباب المعفرة ، ويتوبون إلى الله ، ويكثرون من الحسنات ، ومن يريد أن يتعبد فليظل ساجداً في غيه في فعل السيئات . ثم بعد ذلك يقول الله عز وجل :

﴿وَأَمَّا الرُّسُلُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾

كُلُّ أَمَنٍ بِأَقْبِهِ وَمَلَّتِيكِيهِ وَكُنِّيهِ - وَرُسُلِهِ - لَا تُفَرِّقُ  
بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالَ الرَّاسِخُونَ وَأَطْلَعُوا  
عُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾

عندما نتأمل هذه الآية الكريمة نجد أن الإيمان الأول بالله كان من الرسول صلى الله عليه وسلم : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه » وبعد ذلك يأتي إيمان الذين بلغهم الرسول بالدعوة « والمؤمنون » . وبعد ذلك يمتزج إيمان الرسول بإيمان المؤمنين « كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا عفوانك ربنا وإليك المصير » .

أي أن كلا من الرسول والمؤمنين آمنوا بالله . إن للإيمان الأول هو إيمان الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإيمان أيضاً من المؤمنين بالرسالة التي جاء بها الرسول نداء على نوربيع الفاعل في « آمن » بين الرسول والمؤمنين . وبعد ذلك يجمعها الله - الرسول والمؤمنين - في إيمان واحد ، وهذا أمر طبيعي ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم آمن بالله أولاً ، وبعد ذلك بلغا الرسول صلى الله عليه وسلم وأمن بالله وبه ثم امتزج الإيمان فصار إيماناً هو إيمان الرسول وإيمان الرسول هو إيماننا ، وهذا ما يوضحه القول الحق - « كل آمن بالله » .

إذن فالرسول في مرحلته الأولى سبق بالإيمان بالله ، والرسول مطلوب منه حتى حين يؤمن بالله أن يؤمن بأنه رسول الله ، أم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم : أشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وكان الرسول إذا ما أعجبه أمر في سيرته ذاتها يقول : أشهد أني رسول الله ، إنه يقوفاً بعرجة .

مثال ذلك ما روى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : « كان بالمدينة يهودي وكان يسكن في قمرى إلى الجنداد ، وكان لجابر الأرض التي بطريق رومة فجلست<sup>(١)</sup> »

(١) جلست : تاحرت الأرض من الإبل ، وفي رواية : فحاسب أي خالفت ما كان معهوداً من النمر



فحلاً<sup>(١)</sup> عما فجأ من اليهودى عند الجدد<sup>(٢)</sup> ولم أجد منها شيئاً فجعلت أستطره إلى قائل : أى أطلب منه أن يمهلى إلى عام ثان ، فأتى فأحبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال لأصحابه : امشوا يستنظر لخبر من اليهودى فجاءوا في سحر ، فحمل النبي - صلى الله عليه وسلم بكلم اليهودى فيقول ( اليهودى ) يا الفاسم ، لا أنظره فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم قام فطاف في النخل ثم جاءه فكلمه فأبى ، فجعلت تقيل رطب فوصعته بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فأكل ثم قال أين عريشت يا حابر فأخبرته ، فقال : اعرش لي فيه عريشته ، فدحس فرقد ثم استيقظ فجعلته بقضة أخرى فأكل منها ، ثم قام فكلم اليهودى فأبى عليه ، فقام في الرطب في الحبل الثانية ثم قال يا حابر ، جدد واقص فوقك في الجدد فحدثت منها ما قضيته ، وحصل منه فخرجت حتى جئت النبي صلى الله عليه وسلم فشرته فقال : أشهد أني رسول الله<sup>(٣)</sup>

والحق سبحانه وتعالى يشهد أن لا إله إلا هو .

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَنَّكَ قَائِمٌ بِإِذْنِهِ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا وَلَا تَعْزِيزُ أَعْيِمُ ۝١٥﴾

( سورة الزمر )

إذن فالله يشهد أن لا إله إلا هو ، ورسول الله يشهد أن لا إله إلا الله ، وشهد أيضاً أنه رسول الله ، يبلغ ذلك ليؤمنين فيكتمل التكوين الإيمان ، ولذلك يقول الحق عز ذلك : كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والحق يأتي به كل من ياتون - أي كل من الرسل والمؤمنين

ويورد سبحانه عناصر الإيمان : كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا يفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا عفراتك رسا وإليك المصير ) ونحن نعرف أن الإيمان بالله وكل ما يتعلق بالإيمان لابد أن يكون عيباً ، فلا يوجد إيمان بحسن

(١) فحلاً : تأنس السبب

(٢) الجدد ( بكسر الجيم ) وتجدد ، والتجدد المعجمه ويجوز ( الجدد ) من قطع لمر الحبل

(٣) رواد البحري في الأطعمة ، وسلم في الإيمان

أبدأ . فالأشياء المحيطة لا يدخلها إيمان ، لأنها مشهودة . وعناصر الإيمان في هذه الآية هي :

إيمان بالله وهو غيب . وإيمان بالملائكة وهي غيب عن خلق الله ، ويؤمن بخلق الله أن له خلقاً هم الملائكة لما عرفنا ، إن الحق أخبرنا أنه خلق الملائكة وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهم غيب ، ولولا ذلك لما عرفنا أمر الملائكة إيمان بالكتب والرسول

وقد يقول قائل : من الرسول غيب ؟ وهل الكتب السماوية غيب ؟ إن الرسول بشر ، والكتب مشهودة . ولمثل هذا القائل نقول لا ، لا يوجد واحد مما قد رأى الكتاب يتزل على الرسول ، وهذا يعني أن عملية الوحي للرسول بالكتب هي غيب يعلمه الله ويؤمن به المؤمنون

وكيف يؤمن بكل الرسول ولا نعرف بين أحد منهم ؟ . ونقول . إن الرسول الملقين عن الله إنما يلعبون منهج عن الله في العقائد التي لا تختلف باختلاف العصور ، وفي الأحكام التي تختلف باختلاف العصور ومواقع القضايا فيها

إذن فالأصل العقدي في كل الرسائل أمر واحد ، ولكن المطلوب في حركة الحياة يختلف ، لأن أقصى الحياة تختلف ، وحين تختلف أقصى الحياة فإن الحق سبحانه يرسل التشريع المناسب ، لكن الأصل واحد والبلاغ من حال إلى حال ، ولذلك يأتي القول الحكيم : لا يفرق بين أحد من رسله ، فمن لا يفرق بين الرسل في أنهم يلعبون عن الله ما تنفق فيه مالهج لتبليغ من ناحية الاعتقاد ، وما تختلف من ناحية الأحكام التي تناسب أقصى كل عصر

وبعد ذلك يقول الحق : « وقالوا سمعنا وأطعنا » إذ السماع هو بلوغ الدعوة ، وإطاعة هي تفعل بالمطلوب ، وأن يمشي المؤمن أمراً ويمثل المؤمن غيباً في كل أمر يتعلق بحركة الكون . فالذين يريدون أن يعرفوا الدين عن حركة الحياة يقولون : إن الدين ينهم بالعبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحج . وبعد ذلك يقولون عزل حركة الحياة عن الدين .

لهؤلاء يقول : أنتم تتكلمون عما بلعكم من دين لم يحس ، لينظم حركة الحياة ، وإنما جاء ليعطى الحرية المفقودة عند اليهود وهى الحرية الروحية ، لكن الدين الإسلامى جاء جامعاً للأديان منظمهاً حركة الحياة ، فكل أمرى الحياة وكل حركة فيها داخله فى حدود الطاعة . ونحن حين نقرأ القرآن الكريم ، نجد القول الحكيم .

﴿ يَتْلُوهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَإِذَا وَدِىَ السَّجُودَ فَتَحُمِلَتِ إِلَيْهِ ذِكْرُ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ  
ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٥١ ﴾

( سورة الجمعة )

إذن الحق سبحانه يأمر المؤمنين ويحرجهم من حركة من حركات الحياة إلى حركة أخرى ، فهو لم يأخذهم من فرع ، إنما ناداهم لإعلان الولاء الجماعى ، وهو إعلان من كل مؤمن بالعبودية لله أمام بقية المخلوقات . وبعد أن نهض المؤمنون للصلاة نادى بقول لهم الحق سبحانه ؟ يقول لهم

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْشُرُوا فِي الْأَرْضِ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ٥٢ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ  
تُفْلِحُونَ ٥٣ ﴾

( سورة الجمعة )

إذن فالانتشار فى الأرض هو حركة فى الحياة ، تماماً كما كان بدء إن السعى لذكر الله وهكذا تكون كل حركة فى الحياة داخله فى إطار الطاعة ، إذن ، سمعوا وأطيعوا ، أى سمعوا كل المنهج ، ولكن نحن حين نسمع المنهج ، ونحن نطيع فهل لنا قدرة على أن نطيع كل المنهج أو أن لا نطيع ؟

ولأن أحداً لم يتم كل الطاعة ولما ههنا قوه الحق « عمارك وما وإليك المصير » فالعناية والنهاية كلها عائدة إليك ، وأنت الإله الحق ، بذلك فمن العباد يطلب منك المعرفة حق بملكك ، ونحن آمنون على أن رحمتك سمعت غصصك ويقول الحق

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا ۖ لَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ  
وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِيَ  
أَوْ أْخَطَا مَا رَبَّنَا وَلَا تَفْعِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا  
حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا وَلَا تُحْمِلْ  
مَّا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا  
أَنْتَ مَوْلَانَا فَاصْصِرْنَا عَلَىٰ غَلَاظِ الْكُفْرِ ۚ



١ لا يكلف الله نفساً ٢ لا وسعها ٣ إنه سبحانه لم يكلفكم إلا ما هو في الوسع  
لماذا ٤ لأن الأحداث بالنسبة لعمر النضر البشرية ثلاثة أقسام القسم الأول هو  
ما لا قدرة له عليه ، وهذا بعيد عن التكليف القسم الثاني ، له قدرة عليه لكن  
بحسبته أي بجهد طاقته قليلاً القسم الثالث ، التكليف بالوسع إذن ، لا يكلف  
الله بها إلا وسعها ، أي أن الحق لا يكلف لعن ، لا تكليف تكرر فيه طاقته  
أوسع من التكليف ، يكلف الحق كل مسلم بالصلاة خمسة فروض كل يوم ، وتتم  
أوقاتها بالصلاة وكان من الممكن أن تكون عشرة ، بدليل أن هناك أناساً تنقطع وهو  
سبحانه كلف كل مسلم بصوم شهراً ، ألا يوجد من يصوم ثلاثة أشهر ؟ ومثل هذا  
في الركاة ، هناك من كان يخرج عن ماله كله لله ، ولا يقتصر على ما يحب عليه من  
ركاة

إذن لهذا في الوسع ، ومن الممكن أن يزيد ، إذن فالأشياء ثلاثة شيء لا يدخل  
في القدرة فلا تكليف به ، شيء يدخل في القدرة شيء من التعمد ، وشيء في  
الوسع ، والحق حين كلف ، كلف ما في الوسع ومما دام كلف ما في الوسع فإن

تطوعت أنت نافر رائد فهذا موضوع آخر ، فمن تطوع حيراً فهو حر له ، مادمت تطوع من جسر ما فرص .

إذن فالتكليف في الوسع وإلا لو لم يكن في الوسع لما تطوعت بالريادة . فسبحانه يقول : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » ويأتى بعد ذلك ليعلما فيقول « ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الدين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » ، وهو القائل « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » إذن - سبحانه - يكلفنا بي بقدر عليه وطيفه .

فقد روى أن الله حينما سمع رسوله وسمع المؤمنين يقولون : « ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الدين من قبلنا » قال سبحانه . قد فعلت .

وعندما قالوا « ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » قال سبحانه قد فعلت ولم يكلفنا سبحانه إلا بما في الوسع ، وهو القدر المشترك عند كل المؤمنين . هناك أناس تكون همهم أوسع من همه غيرهم ، ومن تنبع همته فإنه يدخل بالعبادات التي يريد منها في باب التطوع ، ومن لا تنبع همته فهو يؤدي الفروض المطلوبة منه فقط وعندما يظراً على الإنسان ما يجعل الحكم في غير الوسع ، فإن الله يحفف التكليف ، فالمسافر تقول له الشريعة أنت تخرج من حياتك الرتبة ، وتذهب إلى أماكن ليس لك بها مستقر ، لذلك يحفف الحق عليك التكليف ، ولك أن ينظر في هار ومصاد ، ولك أن تقصر الصلاة

والحق سبحانه يعلم أن الوسع قد يصح بذلك فإنه - حل شأنه - يحفف حكم التكليف ويحج الرخص عند صيق الوسع ، ومثال ذلك قوله الحق .

﴿ الَّذِينَ خَفَوْا اللَّهََ عَسْكَرَ وَعَلِمَ أَن يَنْفِرَ مِنْهُمْ مَنَعًا فَإِن يَكُنْ مِنْكُمْ مَّنْأَمَةٌ سَاطِرَةٌ يَغْلِبُوا ﴾  
مَائِتِينَ ﴿

( من الآية ٦٦ سورة الأنفال )

كانت الة في القتال قبل هذه الآية هي واحداً عشرة ، وخففها الحق وجعلها

واحداً إلى اثنين لأن هناك ضعف ، وهكذا نرى أنه سبحانه سيخفف التكليف إذا ما راد عن الوسع . وكثير من الناس يحطون بالتفسير ، فيقولون عن بعض التكليف : إنها فوق وسعهم ولغزلاء نقول لا . لا تحدد أنت الوسع ، ثم تقبس التكليف عليه ، بل انظر هل كلمك أو لم يكلمك ؟ فإذا كان قد كلمك الحق فاحكم بأنه كلمك بما في الوسع ، وكل تكاليف الرحمن تدخل في الوسع « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » .

وهذا ، تفيد الملكية والاحتصاص وهي ما تفيد وتوجب النفس ثواباً ، وهـ عليها ، تفيد الوزر ، وملاحظ أن كل « لها » جاءت مع « كسبت » ، وكل « عليها » جاءت مع « اكتسبت » إلا في آية واحدة يقول فيها الحق :

﴿ يَلِيَّ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَوَيْلٌ لِلْمُصْحَبِ الَّذِينَ هُمْ مِثْلَ حَلِيقِهِ ﴾ (٨١)

( سورة البقرة )

وهنا وقع في الأسلوب ؛ لأن « كسب » تعني أن هناك فرقاً في المعالجة الفعلية الحديثة بينها وبين كلمة « كتسبت » ، لأن « اكتسب » فيها « اعتزل » أي تكلف ، وقام بفعل أحد منه علاجاً ، أما « كسب » فهو أمر طبيعي إذن « كسب » غير « اكتسب » وكل أفعال الخير تأتي كسباً لا اكتسباً .

مثال ذلك عندما ينظر الرجل إلى زوجته ، ويرى جمالها ، فهل هو يفعله شيئاً ، أو إن ذلك أمر طبيعي ؟ إنه أمر طبيعي ، ولكن عندما ينظر الرجل إلى غير عماره فإنه يرقب هل يرى أحد النظرة ؟ وهل رآه أحد من الناس ؟ وهل سيبدأ سحرية واستهزاء على ذلك الفعل أو لا ؟ لماذا ؟ لأنه ارتكب عملاً مفضلاً .

مثال آخر ، إنسان يأكل من ماله ، أو من مال أبيه ، إنه يأكل كغير طبيعي ، أما من يدخل بستاناً ويريد أن يسرق منه فهو يتكلف ذلك الفعل ، ويريد أن يستر نفسه ، فصاحب الشر يفعله ، أما صاحب الخير فإن أفعاله سهلة لا اعتمال فيها فالشر هو الذي يحتاج إلى اعتمال

والمصيبة الكبرى ألا يحتاج اشرف إلى ائتمان ، لأن صاحبه يصير إلى ثلاثة الخسائر الإيماني ، وتكون الشرور بالنسبة إليه سهلة ؛ لأنه تعود عليها كثير ، ويقول الحق « بل من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ، إن الخطيئة تحيط به من كل ناحية ، ولم يعد هناك منقذ ، وهو لا يفعل حتى تصارت له ملكة في الشر ؛ فاللهس مثلاً في بداية عمله يمتاف ويتوب ، لكن عندما تصح المصيبة مهته فإنه يحمل أدوات السركة ويصير حسه متبلداً .

في المرحلة الأولى من الشر يكون أهل الشرقي حياء من فعل الشر ، وذلك دليل على أن صيغتهم وقلوبهم مارأل فيها بعض من خير ، لكن عندما يعتريهم الشر حرفة وملكة فهنا المصيبة ، وتحيط بكل منهم خطيئته وتطوقه ولا تحمل به سمداً إلى الله ليتوب

فالذي يلعب الميسر ، أو طوقته خطيئة الفحش قد يقول مرحباً ، كانت مسهرة الأعراس رائعة ، أما الذي يرتكب الخطأ لأول مرة فإنه يقول « كانت ليلة سوداء يا ليتها ما حدثت » ، ويظل يؤنب نفسه ويلومها ، لأنه تعب وارهق نفسه ؛ لأنه ارتكب الخطأ .

إذن فقول الحق : « لما ما كسبت وعصيتها ما اكتسبت » يوضح لنا أن فعل الشر هو الذي يحتاج إلى مجهود ، فإن انتقلت المسألة من اكتسبت إلى كسبت فهذه هي انطاعة الكبرى ، ويكون قد أحاطت به خطيئته . ويكون على كل نفس ما اكتسبت والعاقلة هو من يكثر ما لنفسه ، لا ما عليها ؛ لأن الذي يقول ذلك هو الحق العام المالك الذي إليه انصير ، فليس من هذا الأمر فكذلك وبعد ذلك يقول الحق على لسان عباده المؤمنين : « وما لا تواحدنا إن سبنا أو أخطأنا » ، ولتأمل أن يقول : إن الرسول صلى الله عليه وسلم طمأن ، فقال (رفع عن أمتي الخطأ والسبان ، وما استكروها عليه) (١)

فكيف يأتي القرآن بشيء مرفوع عن الأمة الإسلامية ليدعوه الناس ربهم ليرفعه عنهم ؟

على مثل هذا القائل ترد : هل قال لك أحد . إن رفع الخطأ والسيئ والامتكراء كان من أول الأمر ؟ لعل الرفع حدث بعد أن دعا الرسول واسابقون من المؤمنين ، فيما دام قد رُفِعَ - بهم الرء وكسر الفاء وفتح العين - معنى ذلك أنه كان موجوداً ، إذن فلا يقولن أحد : كيف تدعوا بشيء غير موجود . لو أن ذلك بدل على منتهى الصفاء الإيمان ، أي الله يجب ألا يعصى إلا خطأ أو سيئاً ، وإن الله لا يصح ولا يستقيم أب يعصى قصداً ، لأن الذي يعرف قدر الله حقاً ، لا يتيق منه أن يعصى الله إلا سيئاً أو خطأ ، لأن الخالق هو المصمم بكل المصمم ، وبعد ذلك كلصاً ، وكان يجب ألا يقصد المعصية . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى قد سمى ما حدث من آدم معصية مع أنه يقول :

﴿ وَلَقَدْ هَمَمْنَا بِالْآدَمَ مِنْ قَبْلِ مَنِيَّ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ (١٣٠)

(سورة طه)

وسمى الله السيئ في قصة آدم معصية . « وعصى آدم ربه فغوى » فكان السيئ أولاً معصية ، وبكى الله أكرم أمة محمد ، فرجع عنها السيئ وفي مسألة آدم هناك ملحظ يجب على المؤمن أن يتنبه إليه ، فآدم حليق بيد الله ، ونفس مخلوقون بفانون التكائر ، وآدم تلقى التكليف من الله مباشرة وليس بواسطة رسول ، وكلف بأمر واحد وهو ألا يأكل من الشجرة

فلما كان آدم مخلوقاً من الله مباشرة ومكلفاً من الله مباشرة ، ولم يكلف إلا بأمر واحد وهو ألا يقرب هذه الشجرة ، ولم تكن هناك تكاليف كثيرة فلماذا نسي ؟ وماذا تذكر ؟ إنها معصية إله . لقد كان النسيان بالنسبة لآدم معصية ، لأنه مخلوق بيد الله .

﴿ قَالَ يَبْنَطِيلِسُ مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدْنِي ﴾

(من الآية ٧٥ سورة هود)

لذلك فلم يكن من المناسب أن ينسى هذا التكليف الواحد ، وما كان يصح له أن ينسى ، ولعل سيدنا آدم نسي الحكمة يعلمها الله ربنا نكون بعمير الأرض التي جعله الله حلوة فيها ، أما بالنسبة لآمة محمد فحينها يقول : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو



أخطأنا ، فكأنما يلرب تقدرك ، حق قدرك ، ولا نجترىء على عصيانك عمدا ، وإن  
عصينا وإنما يكون العصيان نسياناً أو خطأ ، وهذه معرفة لقدر الحق سبحانه وتعالى  
ولكن ما السببان ؟ وما الخطأ ؟

أولاً فيه « أخطأ » وفيه « خطييء » ، وهما الخطأ ، لا يكون إلا إنها ، لأنه تعدد  
ما لا يسمى ، فانت تعلم قاعدة ونحطىء ، والذي أخطأ قد لا يعرف القاعدة ، فانت  
تصوب له خطئه لأنه حاد عن الصواب

ومثال ذلك : عندما تتعلم في المدرسة أن الفعل مرفوع ، والمفعول منصوب ،  
وفي وسط السنة يصبحون لك القاعدة حتى تستقر في ذهنك ، إنما في أيام الامتحان  
أصبح لك المدرس أم يؤخذك ؟ إنه يؤخذك ، لأنك درست طوال السنة هذه  
القاعدة ، إذن فيه خطييء وفيه أخطأ ، فأخطأ مرة ثاق عن غير قصد ، لأنه لا توجد  
قاعدة أنا خالفتها ، أو لم أعرف القاعدة وإنما بطلت خطأ ، لأنهم لم يقولوا لي ، أو  
قالوا لي مرة ولم أتذكر ، أي لم تستقر مسألة كملكتك في نفسي ، لأن التلميذ يحطىء في  
الفاعل والمفعول مدة طويلة ، وبعد ذلك ينصح وتصير اللغة ملكة في نفسه إن كان  
مواظباً على صيانتها

كان التلميذ في البداية يقول : قطع محمد العصف ، ولا يفوها مُشكَّلة ولكن  
يسكن الآخر في نهاية بطقه لاسم محمد ، وساعة يتذكر القاعدة ينطقها « محمد »  
بالرفع وينطق « العصف » بالنصب لماذا ؟ لأنه ترد ثلاث قواعد عن ذهنه ، هذه فاعل  
والفاعل حكمه الرفع ، فهي مرفوعة ، فهو يعر بقضية عقلية ، لكن بعدما يمر عليها  
يقراها صحيحة وقد لا يتذكر القاعدة ، فقد صارت مسألة ملكة لمرية عنه ، هذه  
الملكة اللعوية مثلها نقول : « صارت الية » .

ومثال ذلك العصف الذي يتعلم الخطاطة ، انظر كم من الوقت يمر ليتعلم كيف  
يمسك بخيوط ليدخله في سم الإبرة ، وقد يصير به معلمه أكثر من مرة ليتعلمها ، وقتله  
الخيوط تشفى منه لأنها طويلة فيقصرها ثم لا تدخل في العين فيبرمها لتدخل ، إنه يأخذ  
وقتا كثيراً ثم يعمل العرزة فتخرج غير مستطمة وبعد ذلك يطل منه ، ثم يعمل كن .

هذه الأعمال بشقائية وهو يتكلم مع غيره ؛ لأن هذه لأعمال صلوات ملكة ذاتية أى صملاً آلياً

والتدريب على العمل الذهني - حسب قواعد محددة مثل تعلم اللغة - نسميه ملكة أم التدريب على عمل الحوارج - مثل إدخال الخيط في سم الإبرة - نسميه آلية .

وعلى سبيل المثال في العمل الذهني عندما تسأل سؤالاً في الفقه لطالب في الأهرم فإنه يختار قليلاً إلى أن يتعرف على الباب الذي فيه إجابة للسؤال ، أما إذا سألت السؤال نفسه لعالم مدرب بمجرد أن توجه له السؤال فإنه يقول لك الحكم والباب الذي فيه هذا الحكم ، لقد صار الفقه بالنسبة لعالم ملكة .

ويقول الحق من بعد ذلك : « وما ولا يحمل علينا إصراً كما حملت على الذين من قبلنا » والإصر هو الشيء الثميل الذي يثقل على الإنسان ، ومثال ذلك الإصر الذي نزل على اليهود « يا أردم التوبة فاقتلوا أنفسكم لو تصدقوا أو ركوا بربع أموالكم » لكن الله لم يعاملنا كما عامل الأمم السابقة علينا ، وعندما يقول : « وما ولا نحملنا ما لا طاقة لنا به » نحن نصدق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله نعم » ومعنى قال الله نعم أنه سبحانه وتعالى أجاب الدعاء برفع المشقة عن الأمة .

أى أن الله لن يحملنا ما لا طاقة لـ به . وعندما يقول : « واعص عني » فحين نتوجه إلى الله ضارعين . أنت يا حق تعلم أننا مهما أوتينا من البقطة الإيمانية والحرص الورعى قلن نستطيع أن يؤدى حقك كاملاً ، ولذلك لا مدخل عليك إلا من باب أن نعمو عتاً

ومعنى العفو هو الأثر ، كالسائر في الصحراء تترك قدماه علامة ، وناتى الريح لتزيل هذا الأثر كأن هناك ديباً والديب له أثر ، وأنت تطلب من الله أن يحجر الديب .

وعندما تقول : « واغفر لنا » فأنت تعرف أن من مظاهر التكوين البشرى النبى

التي تريد أن تحول الحرم إلى حيز السلوك والانفعال الزوجي ، فالمسألة نحتاج منك إلى تسريب ، ومثال ذلك ، عندما يذنب واحد في حقت فنتك أن ترد عليه الذنب بالذنب ، ولك أن تكظم الغيظ ، لكن يظل الغيظ موجوداً وأنت تحبسه ، ولك أن تعمو .

لكن ماذا عن مثل هذا الأمر بالنسبة للحالتي الذي له كمال القدرة ؟ إن الله قد لا يعذب العبد المذنب ولكنه قد يظل خاضعاً عليه ، ومن منا قادر على أن يتحمل غضب الرب ؟ لذلك نطلب المغفرة ، ونقول : « وغفر لنا وارحمنا » فنحن ندعوه سبحانه ألا يدخلنا في الذنب الذي يؤدي إلى غضبه - والعياذ بالله - علينا . فالحق هو أن نرتكب ذنباً ونطلب من الله المغفرة ، ولكن الرحمة هي الدعاء بالألا يدخلنا في الذنب أصلاً .

وعندما يقول الحق : « أنت مولانا فاصبرنا على القوم الكافرين » فهذا اعتراف بعبوديتنا له ، وأنه الحق خالفنا وبنوا أمورنا وناصرنا ، وما دام الحق هو ناصرنا ، فهو ناصرنا على القوم الكافرين ، فكان اختتام سورة البقرة مسجماً مع أول سورة البقرة في قوله : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، وما رزقناهم ينفقون » .

في أول السورة صرحت الله المثل بالكافرين والمذنبين ، وفي ختامها يقول الحق دعاء على لسان المؤمنين : « فاصبرنا على القوم الكافرين » هذا القول يدل على استدعاء المعركة بين الإيمان والكفر ، وأن المؤمن يأخذ أحكام الله دانياً ليبارك بها لكفر أباي وأجد ذلك الكفر ، وينش المؤمن تمام الثقة أن الله متولي ، لأن الله مولى لدين أموا ، أما الكافرون فلا مولى لهم . فإذا كان الله هو مولى المؤمنين ، وإذا كان الكافر لا مولى له ، فمعنى ذلك أنه يجب أن تغلب المعركة بين المؤمن والكافر قائمة ، بحيث إذا رأى المؤمن اجتراء عن الإسلام في أي صورة من صورته عيش بآن الله ناصر ، وليثق بأن الله معه ، وليثق المؤمن أن الله لا يطلب منه إلا أن يعمل بحكمه وتأنيده بالصر : لأنه هو الذي يطلب وهو القاتل جل وعلا : « فاثقلوهم بعدهم الله بأيديكم »

يجب أن تظل دائماً مؤمناً متيقظاً لعملية الكفر في أي لون من ألوانها ، فهذا الكفر بعملياته يريد أن يشوه حركة الحياة وأن ينعب الكون ، وأن يجعل القوانين الوضعية البشرية هي المسيطرة ، كما يجب عليك أيها المؤمن أن تكون من المتقين الذين استهل بهم الله سورة البقرة ، وبعد ذلك نال الله أن يصرك دائماً على القوم الكافرين هذا هو مك الختام من سورة البقرة ، فاصبرنا على القوم الكافرين »

وختام السورة بهذا النص يوحي بأن الذي أمر يجب أن يعنى إيمانه بربه إلى الخلق جميعاً ، حتى تتساند حركة الحياة ، ولا توحد فيها حركة مؤمن عن هدى لتصطدم حركة كافر على صلال ، لأن في ذلك إرهافاً للنفس البشرية ، ونعطيلاً للقوى والمواهب التي أمد الله بها ذلك الإنسان الذي سحر من أجله كل الوجود ، فلا يمكن أن يعيش الإنسان الذي سوده الله وكرمه على سائر الخلق إلا في إيمان واطمئنان وسلام وحركة تتعاون وتساعد لنهض بالمجتمع الذي تعيش فيه نهضة عمرانية تؤكد للإنسان حقاً أنه هو خليفة الله في الأرض

ولا يكفى الإيمان ما بأن يؤمن المرء إيماناً يحمله من بنية الوجود ، لأنه يكون في ذلك قد حسر حركة الحياة في الدنيا ، والله يريد به أن يأخذ الدنيا تحديه كما شاء الله لها أن تكون خادمة ، فحين يعنى المؤمن إيمانه إلى غيره يتمتع بحير الخير ، وإن اكتفى بإيمان نفسه فقط وترك الغير في صلالة ، انتفع الغير بحير إيمانه وأصابته مصرة الكافر وأداء

إذن فمن الخير له أن يؤمن الناس جميعاً ، ويجب أن يعنى ذلك الإيمان إلى الغير ولكن الغير قد يكون مستمعاً بالصلال ، لأنه يؤيد به طغيانه ، عندئذ نشأ المعركة ، تلك المعركة التي غاية كل من دخل فيها أن يتنصر ، فيعلمنا الله أن يطلب لنصر على الكافرين من ، لأن التنصر على الكافرين لا يعتبر نصراً حقيقياً إلا إن أصُل صمات الخير في الوجود كله ، وحين تتأصل صمات الخير في الوجود كله يكون المؤمن قد انتصر بحق

وحين يطلب من الله أن يسأله أن يصبرنا لا بد أن نكون على مطلوب الله منا في المعركة ، بأن نكون جيوشاً إيمانيين بحق ، وقد عرفنا أن المؤمنين حين يدخلون في

معركة مع غيرهم يستطيعون أن يحددوا مركزهم الإيمان من غاية المعركة فإن انتهت المعركة بصرهم وغيبتهم علموا أنهم من جنود الله ، وإن هُرموا وعُلبوا فليراجعوا أنفسهم ؛ لأن الله أطلقها قضية إيمانية في كتابه الذي حفظه فقال

﴿ وَإِنْ حُذِّثْتُمْ آلُ ثَالُوثٍ ﴾

[ سورة العنكبوت ]

فإن لم يعلب فليظفر في نفوس : ما الذي أحللتنا به من واجب الخندية لله ونحن يعلمنا الحق أن يقول : « فأنصرونا على القوم الكافرين » ، أي بعد أن أضلنا أسباب وجودنا من مادة الأرض المحلوة لنا بالمكر المخلوق لله ، يعمل بها بالطاقة المحلوة لله ، وحيث نكون أهلاً للنصر من الله ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد مد يده بأسباب النصر

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ  
وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْمَلُونَ لِنَفْسِكُمْ أَنْ يَبْغُوا بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾

( من الآية ٦٠ سورة الأنفال )

حيث لا تخافون أبداً ؛ لأن الله حنوناً لم تروها ، ولا يتدخل الله بالحنود غير الموثية لنا إلا إذا استعدنا نحن أسباب الله المهدودة لنا

وعين بحجم الحق سبحانه وتعالى سورة البقرة وهي الرهراء الأولى لتأتي بعدها الرهراء الثانية وهي سورة آل عمران نجد أن هذا هو الترتيب القرآني ( الآن ) وهو ليس على ترتيب النزل الذي حدث ، فللقراء ترتيبان : ترتيب نزول في حين نزلت الآيات لتعالج حدثاً وقع للأمة المسلمة في صراعها مع الكافرين برهم ، وفي ترتيبهم لهم . فكانت كل آية تأتي لتعالج حادثة والأحداث في الوجود إنما تأتي على أيدي البشر ، وليس من المعقول أن تنزل آيات من القرآن تعالج أحداثاً أخرى لا صلة بينها وبين ما يجري من أحداث في المجتمع الإسلامي أو ما ينشأ في الكون من قضايا

إذن فلا بد أن يوحد الأحداث أولاً ، ويأتي بعدها النص القرآني لمعالج هذه

الأحداث ، ولكن بعد أن اكتمل لدين كما قال الله :

﴿ الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

(س الآية ٣ سورة المائدة)

حاء الترتيب الذي يرتب القضايا ترتيباً كنياً ، لأنه عاجها من قل علاجاً حقيقياً .  
فحين نقول : إن هذه السورة نزلت بعد كذا ، أو فيها أية كذا ، نزلت بعد كذا ،  
ونجد أن ذلك يختلف عن السق النبوي نعلم أن الله سبحانه وتعالى في كتابه  
ترتيب :

الترتيب الأول : حسب النزل

والترتيب الثاني : الذي وجد عليه القراء الآن وتمت به كلمة الله في حكمة الهداه  
الإيمانية وهذا الأخير من عند الله أيضاً



# سورة آل عمران

مد سورة





وهذه السورة التي نحن بصدددها - سورة أن عمران - كان من السيان أن تأتي بعد سورة البقرة ؛ لأن سورة البقرة جاءت لتحدثنا في قضية الوجود الأول ، وتكلمت عن خلق آدم ، وتكلمت عن خلافته في الأرض ، وتكلمت عن تعليمه الأسياء ، ثم تكلمت عن بعض مواكب الرسل لذلك لإنسان الذي استخلف في الأرض وتعرضت لفصايا علمت بأحداث ، هذه الأحداث رسطت بأرميه محصورة والغران قد جاء بها ، ثم جاء مترتباً على الصورة النهائية - ناسب أن تأتي بعد سورة البقرة سورة آل عمران ، لأنها تكلمت عن نوع جديد من الخلق ، لم يأت على خلق الأول ، وإن جاء من الخلق الأول ، لأنها جاءت لتكلمنا عن خلق عيسى وخلق عيسى جاء بعد الناموس الذي خلق به آدم - فكيف أن آدم خلق بلا أب وبلا أم ، كان المنطق أن يأتي بخلق آخر واحد من نوع أب

قد استهل الحق سبحانه وتعالى سورة البقرة بأسماء ثلاثة من حروف المعجم وهي « ألف - لام - ميم » وتنت الحصة تعرضاً لها جويلاً عند استهلال سورة البقرة - وبها الحكمة في وورد بعض الحروف ، وعرفنا أن للحرف « ميم » وله « اسم » « المسمى » هو الذي ينطق به ، و« الاسم » هو الذي يُعتبر عنواناً على هذا المسمى - فأتت حينئذ بقراءة مثلاً ، نقول « قرأ » فلهذا نطق حرف « و » نطقه حرفاً متصلاً بقية الحروف ، وهذا النطق اسمه « المسمى » ولكن اسم ذلك المسمى « قاب »

إذن فلكل حرف اسم ، ومسمى - حين نتكلم جميعاً نتكلم بالمسمى ، وسواء من الأسمى أو المتعسم ، فكل واحد ينطق المسمى « ق ر أ » ولكن لا يعرف اسم « قاب » إلا من تعسم ؛ لأنه ميل له هذه اسمها « قاب » - فذلك هو الاسم

إذن فالتعليم يعطينا أسماء السمات ، والملمط الذي يلفظ به الأسمى والمتعلم هو

المسميات ، ونحن نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أمياً ، لم يجلس إلى معلم ولم يتعلم ، فمن الذي لقنه أسماء الحروف التي لا يعرفها إلا من تعلم ؟ هذه الحروف لقنت على صور مختلفة ، فتتعلق بالمسمى مرة ونطق مرة أخرى بأسماء الحروف ، فلما جاءت في أول سورة البقرة « الم » تلك هي أسماء الحروف ولكنا قلنا : إنما حين نقرا في أول سورة البقرة « الم تر » هي ( الألف واللام والميم ) ونقرأها كتلاثة حروف تُكوّن ساوياً . « الم تر » ، ولم تقرأ أسماء حروفها ، وإنما قرأتها بمسميات الحروف . فقلت : « الم » ، فمن الذي يفرق لها بين ألف ولام وميم وتقرأ مرة أخرى « الم » ؟ لا شك أنها توفيق من الله ، وهي حمداً توفيق من الله ، هذه تقرأ « الم » وهذه تقرأ ألف ، لام ، ميم

إن الحق يدلنا على أن هذا القرآن ليس من صمعه البشر ، وإلا فصعقة البشر ثم نأت قبل نزول القرآن لتتعلق بأسماء الحروف ، اللهم إلا بعض أسماء قالوا فيها : إنها أداة مثل « هاء التثنية » أي لتثنية السامع لماذا ؟ لأن المتكلم حري أن يتكلم وهو الذي يحدد وقت كلامه وبكى السامع بما جاء إذن فالكلام من المتكلم يحدده المتكلم ، يتكلم متى شاء . ولكن السامع لا يسمع متى شاء ، ولكنه يسمع بعد أن يتكلم المتكلم ، لكن السامع ليس عنده اختيار ، فكانوا يريدون لبعض الحروف أن يخرجوا بها إلى السامع كلوي من ألوان الانجذاب إلى المتكلم ، فهل أن يجيء بالكلام الذي يريد به يأتي به التثنية . كان المتكلم يقول : تبه لي فأنا أريد أن تكلم حتى لا يعوت مث بعض الكلمات التي أطلق بها . وبعضها يسموه « أداة افتتاح » مثل القول : ألا هي بصححك فاصحياً . « ألا » تبه لي أن كلاماً يقال ، ثم يقول : هي بصححك فاصحياً ؛ لأنه ربما نظر بعض الكلمات في شغل من السامع عن المتكلم ، فتصونه الفائدة .

إذن فكل الألفاظ التي تأتي بأسماء حروف أو بأسماء يراد بها ليه ، أي هي تهيئة للدهن . وما لدى يمعنا أن يكون أيضاً ذلك من باب تهيئة السامع إن ضرورة حضور الدهن ؟ وما يدل على أن هذه الحروف التوفيقية مواقع في النفس البشرية ، أن الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعواه لم يسدروا عليه شيئاً وهم أهل مصالحة وأهل نعمة .

هل سمعنا أن واحداً منهم قال : انظروا إلى محمد كيف يأتي بالفاظ وكلمات لا مدلول لها ولا معنى ، ثم يدعى أنه أفصح العرب ؟!

هل قال واحد منهم ذلك ؟ لم يقل ، وقبلوها ولم يستدركوا ، ولم يقولوا .  
« ما هذه » ، « الف » ، « لام » ، « ميم » ، التي جاء بها محمد ؟ عما يدل على أنها أخذت من أسماءهم موقفاً كما أرادها الله ، بدليل أنهم لم يستدركوها على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يجعلوها من النقد الذي وجّه إلى رسول الله ، وقلوب ذلك : إنه بعض من أسرار هذه الحروف .

ويريد الله حين يؤكد معنى من المعاني ألا يجه مرة واحدة ، فقد جاءت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من السنوات ، ومن خطابات السماء ، والمعنى الذي يريد الله أن يوضحه ويؤكد برده كثيراً حتى يستقر في ذهن المتلقى . وعلى هذا النمط جاء قول الحق سبحانه في أول سورة آل عمران :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة العنكبوت

وجاءت أيضاً في سور أخرى ، في سورة العنكبوت ، وفي سورة الروم ، ولقيان ، والسجدة ، وراد عليها راء في بعض السور ، وراد عليها صاد في بعض السور ، والميم ، ود المر ، كل ذلك جاء تأكيداً للمعاني أو تأكيداً للسمر الذي وضعه الله في هذه الحروف ، وإن لم يكن تدرك ذلك السمر

والإنسان يتفح بأسرار الأشياء التي وضعها من أوجد الأشياء وإن لم يعلم هذه

الأشياء فهو متعجب . وصرفنا مثل وقتنا . إن الربيعي الذي ليس عنده ثقافة في الكهرباء ، أيستفيد بالكهرباء أم لا ؟ إنه يستفيد بها ويحرك زر المصباح لينيره أو ليطفئه ، أهو يحسم سر ذلك ؟ لا ، لكنه إما يتمتع به ، فكذلك المؤمن حين يقول : « ألف - لام - ميم » . يأخذ سرها من قائلها ، فهمها أم لم يفهمها ، إذن فالمسألة لا تحتاج إلى أن نلتمسها ، صحيح أن العقل الشري يحوم حول شيء ليستأنس به ، ولكن عطاء الله وحكمته لمعطاء فوق ما يستأنس به وفوق ما نستوحش منه

وقول الحق سبحانه في حتام سورة البقرة : « فاصبر على العوم الكافرين » . باب أيضاً سورة آل عمران ، لماذا ؟ لأن الإسلام سياق ليواجه معسكر كفر ومعسكر أهل الكتاب ، فحق لا تنتشقر دعوة الله التي صدرت عن الله بمواكب الرسل جميعاً الذين سبقوا محمداً صلى الله عليه وسلم وأن هذا جاء ليناقض شيئاً منه ، إنه قد جاء ليعرّض دعوة الله ، ولتكون هذه الأمم التي تبعته هذه الديانات في صف الإسلام . ولذلك حيناً أنكر العرب رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله هم : « ومن عنده علم الكتاب » أي أن من عنده علم الكتاب يشهد أنك رسول الله

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا تَسْتَزِيلُ كَلِمَ اللَّهِ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَكِيدُ اللَّهُ لِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾

عَلَّمَ الْكِتَابَ (١٢٥)

( سورة النحل )

فكان المفروض في أهل الكتاب أنهم حينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكونوا هم أول المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه جاء ليؤكد موكب الإيمان ويأمرهم سورة يسعيها آل عمران حتى يعلم الجميع أنك يا محمد لم تأت لتهدم ديانة عيسى ، ولكن لتنفى ديانة عيسى ولتزيد ديانة عيسى ، فإن كنتم يا من آمنتم بعيسى مؤمنين بعيسى فاعلموا حالاً إن الإيمان بمحمد ، فقد سجد الله آل عمران ، وجعل لهم سورة في القرآن .

إن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لم تأت للمعصية ، أو لتمحو ما قبلها كما تأتي عصبية البشر حين يأتي قوم على أبقاص قوم ، ويهدمون كل ما يتصل بهؤلاء القوم



الكون ما يشئ صدق الملائكة ويؤكد صدق الله ، فإذا ما نظرتا نظرة أخرى نقول -  
إن الحق أطلقها عن نفسه وقال « لا إله إلا هو » ، وجعلها كلمة التوحيد وجعل  
الأمري غاية اليسر والسهولة والبساطة ، فلم يشأ الله أن يجعل دليل الإيمان بانقوة  
العليا دليلاً معقداً ، أو دليلاً فلسفياً ، أو لا يستطيع أحد أن يصل إليه إلا أهل  
الضخامة العالية ، لا ، إن الدين مطلب للجميع ، من راعى الشاة إلى الفيلسوف ،  
إنه مطلوب للذي يكس في الشارع كي هو مطلوب من الأستاذ الجامعي

فيجب أن تكون قصة الإيمان في مستوى هذه العقول جميعاً ، فلا فلسفه في هذه  
لمسألة ، لذلك شاء الحق أن يجعل هذه المسألة في متهى البساطة فأوضح الله أن  
شهدت ألا إله إلا أنا ، فيما أن يكون الأمر صدها وبذلك تنهى المشككة ، وليس من  
حق أحد الاعتراض ، وإن لم تكن صدقاً فقولوا يا أيى الإله الآخر الذى سمع  
التحدى ، وأحد الله مه ذلك الكون ، وقال أنا وحدى في الكون ، وأنا الذى  
حققت ، ثم لم يسمع رداً عليه ولا عن معارض له ، ألم بدر ذلك الإله الآخر ؟

إذن عدلت الآخر لا يسمع أن يكون إلهاً ، من علم ذلك الآخر ولم يدفع عن نفسه  
وملكيه للكون فإنه لا يصلح أن يكون إلهاً . وتصح القصة لله إلى أن يظهر مدع  
ليناقصها ، « لا إله إلا هو » كلمة حق ، وبالعقل والمنطق هو إله ولم يجد  
معارضاً . وقتنا سابقاً إن الدعوى حين تدعى ولا يوجد معارض حين نسمعها نكون  
لصاحبها إلى أن يوجد المعارض . وصرباً مثلاً : نحن مجتمعون في حجرة ، عشرة  
أشخاص ، وبعد ذلك انصرفوا فوجد صاحب البيت حافظة نقود ، فجاء واحد  
مثلها وقال : لقد ضاعت منى حافظة نقود . فقال له صاحب البيت : وجدنا حافظة  
ولكن كان هنا عشرة ، فليأجىء بالعشرة ، وستلوا لم يدعها أحد ، إذن فهم له

إن الله قد قال . « لا إله إلا هو » ، فإن كان هناك إله آخر فليظهر لنا ، لكن لا تظهر لنا  
إلا قوة الله « لا إله إلا هو » ونادى لا إله إلا هو . وهذا الكون يحتاج إلى قيرمة لطيفه .  
ولا بد أن يكون حيا حياة تناسبه ، لأنه سيهب حيوات كثيرة لكل الأجناس ، للإنسان  
والمحيوان والنبات والمعد ، إذن فالذى يوجدها لا بد أن يكون حيا ولا بد أن تكون حياته  
متلبة له .

وهـ قِيَوْمٌ هـذِهِ بِسْمِهَا صِيْعَةٌ مَّالَعَةٌ ؛ لِأَنِّ الْخُدْثَ إِذَا وَقَعَ فِيهِ يَقَعُ مَرَّةً عَلَى صُورَةٍ عَدِيدَةٍ ، وَمَرَّةً يَقَعُ عَلَى صُورَةٍ وَاحِدَةٍ . مِثْلُهَا تَقُولُ : فُلَانٌ أَكُولٌ ، وَهـ أَكُولٌ ، غَيْرُ « أَكَلٍ » ، فَكُلْنَا نَأْكُلُ ، وَكُلْنَا يُطْلَقُ عَلَيْنَا « أَكَلٌ » ، لَكِنْ لَيْسَ كُلُّمَا يُطْلَقُ عَلَيْنَا « أَكُولٌ » لِأَنِّ هَذِهِ اسْمُ صِيْعَةٍ مَّالَعَةٍ فِي الْخُدْثِ .

وإذا كان الله هو الذي يدير ويقوم على أمر كل عوالم الكون هل يكون قائما أو قتيما ؟ لا بد أن يكون قتيما . و« قتيوم » معناها أيضا . قائم بذاته . فما شك هذا القيام ؟ إنه قيام أروى كامل .

إذن فكلمة « قُبُوم » صيغة مبالغة من القيام على الأمر ، قائم بنفسه ، قائم بدائه ، ويُقِيم غيره ، والعبير متعدد مكرر ، فعندما يكون هذا العبير متعدداً ومتكرراً فهو يحتاج إلى صفة قوية في مخالفته ، فيكون الخالق قُبُوماً .

إِنْ قُوَّةُ الْحَقِّ . « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » هُوَ سَدُّ الْمَوْضِعِ فِي كُلِّ حَرَكَاتٍ  
حَيَاتِهِ . عَنْ أَبِي بَرْكَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .  
يَا أَيُّهَا الْمَدِينَةُ أَسْمَى أَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ ؟ قُلْتُ . « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ  
الْحَيُّ الْقَيُّومُ » فَصَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ « لَيْسَ بِكَ الْعِلْمُ يَا مَدِينَةُ »<sup>(١)</sup>

وقولوا لها بالله . حين يوجد ولد واب . هل يحمل الرلد هتالاي مسأله من مسائل الحياه ؟ لا ، لأن الاب متكفل بها ، والمثل العاصي يقول : الذي له أب لا يحمل مما . إذن والذي له رب عليه أن يستحي ، لأنه سبحانه يقول : أما حتى ، وأما قيوم ، وه قيوم ، معنى قائم بأمرك

ويؤكد سبحانه هذه القيومية في سورة الفراء ، فقال في آية الكرسي : لا تأخذه سنة ولا نوم ، كأنه يقول لنا : يا مومنا أنتم لأنى لا أنام ، وإلا فإن تحت آيت عن حراسة حركة حياتك فمن يحرسها لك ؟ إنه سبحانه يتفضل علينا بقيومته - والله لا إله إلا هو الحق القيوم - ، وما دام هو - الحق - وه القيوم ، فأمر مطعنى أنه قائم

بأمر الخلق جميعا وقد وضع لكل الخلق ما تقوم به حياتهم من مادة وحياتة مادة ، ومن قيم وحياتة قيم .

ومادام هو القيوم والقائم بالأمر والمتولى الشؤون للخلق فلا بد أن يؤدي هم مطالبات مادتهم وما يفيها ، ومعلومات قيمهم وما يفيها أما مطلوبات المادة فيقول فيها :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رُوحِي مِنْ قُوَّتِهَا وَبَشَرَ فِيهَا وَقَدَرِهَا أَهْوَتْهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٦﴾

(سورة فصلت)

إله سبحانه يطعمنا على الموت ، وأما مطلوبات القيم فقال سبحانه :

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝٢﴾

إذن فلم يعطنا سبحانه مقومات المادة فقط ، ولكن أعطانا مقومات القيم أيضا ، لأن المادة بدون قيم تكون شرسة هوجاء رعاء ، ف يريد الله أن يجعل المادة في مستوى إيماني إذن لابد أن تنزل القيم لذلك قال سبحانه : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۝ وَهُ نَزَّلَ ۝ نَعْبُدُ شَيْئًا قَدْ وَجِبَ عَلَيْكَ ۝ لَأَنَّ الرُّوحَ مَعَهُ ۝ شَيْءٌ مِنْ أَعْلَى نَزَّلَ ۝ وَهُ يَقُولُ لَكَ لَا تَنَابُ عَلَى الْقِيمِ الَّتِي جَاءَتْكَ مِنْ أَعْلَى مَكَ ۝ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ حَاوِلِكَ ۝ إِنَّمَا مِنْ خَالِقِ الْكَوْنِ وَالشَّرِّ ۝ وَالَّذِي يَمَكِّنُكَ أَنْ تَنَابُ عَلَيْهِ مَا بَاقٍ مِنْ هُوَ أَدْنَى مَكَ ۝

لكن حين يحى ، لك التقدير من هو أعلى منك فلا تناب عليه ؛ لأن حصولك له ليس ذلة بل عزة ، فقال : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ۝ وَهُ سِيَاقُ الْقُرْآنِ نَجْنَهُ سَبْحَانَهُ



يقول

﴿رَأَىٰ يَوْمَ الْوَعْدِ الْأَمِينُ﴾

(سورة السجدة ١٠)

ومرة أخرى يقول في القرآن الكريم

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَهُ وَمَا وَسَّعْتُمْ إِلَّا مُقَدِّرًا وَيَدِيرَ﴾

(سورة الاسراء ١)

ولكن هل نزل القرآن وحده ؟ لقد كان محمداً عليه السلام ينزل بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعنى ذلك خروج القرآن عن كونه « نزل » ، محمداً عليه السلام كان يرب بالقرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحق سبحانه وتعالى يقول

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَهُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُنْشِئًا وَبَدِيرًا﴾

(سورة الاسراء ٢)

وبذلك يسوى « أنزل » مع « نزل » ، وحينئذ لن يحدث في الفعل في أى وقت من الأوقات فإنا نسأل : أهو موقوف برسم م غير موقوف برسم ؟ ان القرآن الكريم قد نزل على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم في ثلاثه وعشرين عاماً ، وينزل القرآن حسب الاحداث ، فكل يوم من نجوم القرآن نزل حسب مقتضيات الاحداث ، وبكى الحق سبحانه وتعالى يقول

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾

(سورة القدر ١)

واحق هنا يحدد زمنا ، ول ان يعرف ان القرآن انزل في ثلاثه وعشرين عاماً هو الذي أنزل الله في ليلة القدر

إذن فليقرآن نزولان اثنان ، الأول انزال من « أنزل »  
الأخر تنزيل من « نزل »

إِنَّ هَذَا مَقْصُودٌ مِنْ مَوْلَاهُ - سَجَانَهُ - ، إِنْ أَنْزَلَهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ، أَنْ يَقْرَأَ نَزْلَ مِنَ  
الْبُرُوجِ الْمُحْفُوظِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا لِیُشْرِقَ بِهِ فِي الْكَوْنِ ، وَهَذَا هُوَ أَمْرُهُ اللَّهِ فِي لَيْلَةِ  
الْقَدْرِ

وَالْكِتَابَ الْكَرِيمَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَرْسَلٍ مُصْحَفٍ عَلَى  
حَسَبِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي تَتَطَلَّبُ تَشْرِيفًا أَوْ إِصْحَاحًا لِأَمْرِ

لَكِنَّ الْكِتَابَ الْآخَرَ ، يَكُونُ هَذَا ذَلِكَ أَمْرٌ مِنَ الْمَرْبُوعِ وَلِتُتَبَيَّنَ ، لَعَلَّكَ تَعْلَمُ مَرَّةً  
وَاحِدَةً ، لِأَحْسَبِ الْأَحْدَاثِ وَالْمُنَاسِبَاتِ - بِمَعْنَى مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ ، كَمَا يَرَى الْقُرْآنُ  
أَوَّلًا مِنَ الْبُرُوجِ الْمُحْفُوظِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا - وَنَسْطُرُ فِي الْأَدَاءِ لَعَلَّكَ تَعْلَمُ حِينَ يَقُولُ

﴿ تَزَالُ عَلَيكَ أَلْكِتَابَ يَاحْتَقِقْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنَّ تَنْوِينَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾

(سورة النازعات)

وَمَا يَحِبُّ أَنْ يَنْتَفِعَ بِأَنْ حَقَّقَ قَائِلٌ عَنِ الْقُرْآنِ - « نَزْلٌ » وَقَالَ عَنِ التَّوْرَةِ  
وَالْإِنْجِيلِ - « أَنْزَلَ » لَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ لَتَعْبُدِيَّةٍ وَحُجَّةٍ - سَجَانَهُ - بَيْنَ التَّوْرَةِ  
وَالْإِنْجِيلِ فِي الْإِبْرَالِ ، وَهَذَا يَوْمُ صَحَّحَ أَنْ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ إِنَّمَا أُنْزِلَتْ لَيْلَةَ مَرَّةٍ  
وَاحِدَةٍ ، هَذَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فَقَدْ أَنْزَلَهُ اللَّهُ فِي ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً مُصْحَفًا وَمُنَاسِبًا  
لِلْأَحْدَاثِ الَّتِي طَرَأَتْ عَلَى وَاقِعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَتَّصِمًا بِالْبَلَاغِ الشَّامِلِ مِنْ يَوْمِ الْخَلْقِ إِلَى  
يَوْمِ الْبَعْثِ

وَنَزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ مُصْحَفًا مُنَاسِبًا لِلْأَحْدَاثِ ، لَيْسَتْ هَذِهِ رِسَالَةُ اللَّهِ ، لِأَنَّهُ هُوَ الْقُرْآنُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَعَرَّضُ لِلْأَحْدَاثِ شَتَّى ، وَكُلُّهُ بِأَنْ حَدِثَ يَرِيدُ تَنْبِيْهُ يَنْزِلُ نَحْمَ مِنْ  
الْقُرْآنِ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ

فُؤَادَكَ وَرَتَّلَهُ تَرْتِيلًا ﴾

(سورة الفرقان)

وكان النجم من القرآن يتزل ، ويحفظه المؤمنون ، ويعملون بهديه ، ثم بزل  
نجم آخر ، والله سبحانه يقول :

﴿ وَلَا يَأْتُوكَ يَمْتَلِئُ إِلَّا جُحُشُكَ بِالْحَقِّ وَاحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾

سورة الفرقان

فمن رحمة سبحانه وتعالى بالمسلمين أن قطع لهم المجال لأن يسألوا ، وأن  
يستوضحوا الأمور التي تغمض عليهم

وجعل الحق سبحانه لأعمال المؤمنين الاختيارية خلال الثلاثة والعشرين عاما  
فرصة ليقيموا حياتهم في ضوء منهج القرآن ، وصوب هم القرآن ما كان من خطأ  
وذلك يدل على أن القرآن قد فرض الحدل وناقشه ، وفرض معنى الشيء في وقت  
طلبه ، لأن الشيء إذا ما جرى به وقت طلبه فهو المعنى نقل عليه وترصق به

ومثال ذلك في حياتنا اليومية أن الواحد منا قد يملك في مزرعة صدوقا للأتوية مملكتا  
بألوان شتى من الدواء ، ولكن عندما يصاب صاحب هذا الصدوق بقليل من  
الصداع فهو يبحث عن دواء أسير ، وقد لا يعرف مكانه في صدوق الدواء  
فيبحث في شراثة ، وذلك أسهل وأوثق ، والحق سبحانه قد جمع للقرآن بين « برز »  
وه « برز » فقال

﴿ مِنْ قَبْلُ هُذًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا  
لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْقِصَارٍ ﴾

ويأتي لقول الفصل في « برز الفرقان »  
هذا الجمع بين « برز » و « برز »

وساعة يقول الحق عن القرآن : « مصدق لما بين يديه » معنى ذلك أن القرآن

يوضح المنهج ؛ إنه مصدق لما قبله ولا سبقه . إنه مصدق للقضايا المعقدة الإيمانية التي لا يختلف فيها دين عن دين ؛ لأن الديانات إن اختلفت فإنما تختلف في بعض الأحكام . فهناك حكم يناسب زمناً وحكماً آخر لا يناسب ذلك الزمن . أما البعد فهو لا تتغير ولا تبدل ، وكذلك الأخبار وتاريخ الرسل . فليس في تلك الأمور تغيير

ومعنى « مصدق » أى أن يطابق الخبر الواقع . وهذا ما سمي « المصدق » . وإن لم يطابق الخبر الواقع فاسم « كذاب » . إذن ، فالواقع هو الذى يحكم . ولذلك قلنا من قبل . إن الصادق هو الذى لا يختلف روايته للأحداث ؛ لأنه يسوحي واقعاً ، وكلما روى حدثه فإنه يرويها بنفسها بأكملها وتفصيلها . أما الكاذب فلا يوجد له واقع يحكى عنه . بذلك نشتى في كل حدث واقعاً حقيقياً . ولذلك يقول الناس : « إن كنت كذوباً فكى ذكورا » أى . كنت تكذب . والعياد بالله . فتذكر ما قلت ، حتى لا ساقطه بعد ذلك . فالصادق هو من يستقرى الواقع . ومادام يروى عن صادق فهو يروى عن أمر ثابت لا تنوبه الأهواء . فلا يحكى مره بهوى ، مرة بهوى آخر

ومادام الخبر صادقاً فإنه يصحح حقاً ؛ لأن الحق هو الذى ثابت لدى لا يتغير . وسبحانه يقول : « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأمرل لتوراة والإنجيل . من قبل هدى للناس »

وقد تكلمنا من قبل عن التوراة . وثلاً . إن بعض من العلماء حين يتعرض للخط من الألفاظ فهو يحاول أن يجعله من اللغة العربية . ويحاول أن يعثر له من ورد من الأورال العربية . وأن يأتي له بصفة من الصفات العربية . فقال بعضهم عن التوراة : إنها من « الورى » . بسكون الراء . وكان الناس قديماً يشعلون النار بهرب عود في عود آخر . ويقولون : « الرود عودى » ، أى قد خرجت ناره . وقال بعض العلماء أيضاً : إن الإنجيل من « اسجل » . وهو الزيادة .

وأقول هؤلاء العلماء . لقد نظرم إلى هذه الألفاظ على أنها ألفاظ عربية ، لكن التوراة لفظ عبرى ، والإنجيل لفظ سريانى أو لفظ يونانى ، وصارت تلك الكلمات

علم على تلك الكتب وحملت إلى لغتنا ولا نطو أن القرن مادم قد برز عربيا فكل العاطة عربية ، لا صحيح أن لغز العرب ، وصحيح ايضا أنه قد جاء وهذه الألفاظ دائرة عن لسان العرب ، وإذا تم النطق بها يفهم معناها .

والثاب عل ذلك أننا في العصر الحديث أدخلنا في اللغة كلمة « سب » وتكلمنا بها ، فأصبحت عربية ، لأنها تدور عن لسان العرب ، بمعنى أن القرن عربى أن الله حببا خاطب العرب حاصهم بألفاظ يفهموها ، ومن دائرة في استهم ، وإن لم تكن أصلها عربية ، وحيثما كنتم الحق عن النوراة والإنجيل وقال : إن القرآن جاء مصدقا هما قال - جل شأنه -

﴿ مِنْ قَتْلِ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَرْكَانِ الْفُرْقَانِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝ ٢٤ ﴾

(سورة ل عمران)

فأى دس هؤلاء الدين قال عنهم : « هدى للناس » ؟ لاشك أنهم الناس الذين عاصروا الدعوة لتلك الكتب ، وإذا كان القرآن قد جاء مصدقا لما في تنورا والإنجيل ألا تكون هذه الكتب هداية لها أيضا ؟ نعم هى هداية لها ، ولكن هداية إنما تكون مصدين القرآن لها ، حتى لا يكون كل ما جاء فيها ومسبونا إليها حجة علينا ، فالتى يصدقها العرب هو الحجة علينا ، فيكون « هدى للناس » معناه الذين عاصروا هذه الديانات وهذه الكتب ، ونحن مؤمنون بما فيها مصديق بقرآن لنا

وحيث يقول الحق سبحانه وتعالى : « وأررب الفرقان » تدب عن أن الكتاب - أى القرآن - سيعاصر مهمة صعبة ، بكلمة « الفرقان » لا تأى إلا فى وجود معركة ، ومريد أن يعرف بين أمرين هدى وصلال ، حق وباطل ، شقاء وسعادة ، استقامة وانحراف ، إذن بكلمة « الفرقان » تدل عل أن القرآن إنما جاء ليأشر مهمة صعبة وهو أنه يعرف بين الخير والشر ، ومادم يعرف بين الخير والشر إذن فيه خير وله معسكر ، وفيه شر وله معسكر ، إذن فيه فريقان ، ويأتى للفريق الذى يدافع عن الحق بشالاً وجهادا بما يعرف له ويمر به بين الحق والباطل ويحتم الحق هذه الآية

يقوله ، « إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام » .

ولماذا جاء هذا التذييل على هذه الصورة في هذه الآية ؟ أي لماذا القرآن مرفأً فلا بد أن يفرق بين حق وباطل ، والحق له جوده ، وهم المؤمنون ، والباطل له جنوده وهم الكافرون ، والشر قد جاء من الكافرين فلا بد أن يتكلم عن الذين كفروا « إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد » والعذاب لإلام ، ويختلف قوة وضعفا باعتبار المزلّم المباشر للعذاب فصعقة طعل غير صعقة شاب غير صعقة وجل قوى ، كل واحد يواجه الصعقة ي بأسب قوته ، فإذا كان العذاب صادراً من قوة القوى وهو الله ، إذن فلا بد أنه عذاب لا يطاق « لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام » أي لا يُعْلَب عن أمره ، ولا توجد قوة أخرى صلبه ، وانتقامه لن يستطيع أحد أن يره .

وقوله الحق سبحانه وتعالى . إنه « قِيَوْمٌ » أي يقوم يستون حلفه إيجاباً وإمداداً ، بناء مادة وإيجاد قيم ، لا بد أن ينفرح من ذلك أنه يعلم كل الحق ويعلم الحاييا ، ولذلك يضع التفتين اساس لكل ما يجري لهم ، والتفتيت التي تأتي من البشر تختلف عن التفتيتات المرجوة من الله ، لماذا ؟

لأن الله حين يقن بكتاب ينزل على رسوله ليبلغ حكم الله فيه فهو سبحانه يقن لما يعلم ، وما يعلمه سبحانه قد يعلمه خلقه وقد لا يعلمونه وقد تأتي الأحداث بما لم يكن في بال المشرع البشرى المقن حين يقن . ولذلك يضطرون عادة إلى تعيير القانون ، لأنه قد جذت أحداث لم يلتفت إليها المشرع البشرى . ولماذا لم يلتفت إليها المشرع البشرى ؟ لأن علمه مقصور على المربيت التي توجد في عصره وغير معاصر للأشياء التي تحدث بعد عصره ، وأيضاً يقن للكيات حمية عنه .

إن الحق سبحانه وتعالى لكونه قيوماً وينزل ما يفرق بين الحق والباطل ، فهو سبحانه - يعلم علماً واسعاً ، بحيث لا يُستدرك عليه ، ولذلك فالدين محمولون أن يقولوا : إن هذا الحكم غير ملائم للعصر ، يقول هم أنستدركون على الله ؟ ! كأنكم تقولون . إن الله قد فاته مثل هذه الحكاية ويريد أن يصححها له !

لا ، لا تستدركو على الله ، وتحدوا حكم الله هكذا ؛ لأن هذا هو الحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ لأنه حكم من عالم لا يتجدد علمه ، ولا يطرأ شيء على علمه ، وهو كل ذلك فهو سبحانه لا يتعجب بما يفكر ، وهو سبحانه يقول

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝ ﴾

انظروا إلى حكمة الآية بكل الأغراض التي سبقتها ، مادام قُبُوما وفائيا بأمور الخلق ، فلا بد أنه يعلم كل شيء عن الخلق ، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ومادام سيفرق بين الحق والباطل ويرى بالكمالات عدائاً شديداً فلا يخفى عليه شيء . إن الآية تحذم كل الأعراض ، وهو سبحانه يعلم كل الأعراض ، فحين يقف بقيومته ، فهو يقف بلا استدراك عليه ، وحين يخرج أحد عن منهجه لا يخفى عليه . إذن فالآية حصاد على التشريع وعلى اخراء « إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء » . وبعد ذلك يتكلم الحق عن مظهر القيومية الأول بالسنة للإنسان يقول

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ﴾

والتصوير في الرحم هو إيجاد المادة التي سيوجد منها الإنسان هل هيئة خاصة ، هذه الهيئة تختلف نوعيتها : ذكورة وأنوثة ، والذكورة والأنوثة مختلفان اشكالاً ، بيضاء وسمرراء وقمحية وخمرية وقصيرة وطويلة ، هذه الأشكال التي يوجد عليها الخلق والتي منها

## ﴿وَاحْتَلَفَ الَّذِينَ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الروم)

هذا الاختلاف في الألوان والألسنة والأشياء المتعددة يذنب على أنها ليست من إنتاج مصمم يصنع قالباً ثم يشكل عليه ، لا ؛ فكل إنسان يولد يصمم بيد قديرة بقدرته ذاتية

إن الصانع الآن إذا ردت أن يصنع لك كوباً يصنع قالباً ويكرره ، لكرر في الخلق البشري كل واحد بقالبه الخاص ، وكل واحد بشكله المخصوص ، وبكر واحد بصوته لدى ثبت أن له بصمة كبصمة اليد ، وكل واحد بنوع ، إذن فهي من الآيات ، وهذا دليل على طلاقة القدرة ، وفوق كل هذا هو الخلق الذي لا يحتاج إلى عملية علاج ، معنى عملية علاج أي يجعل قالباً واحداً ليصب فيه مادته لا ، هو - جل شأنه - يقول

## ﴿يَدْبِقُ أَسْمَاتٍ وَالْأَرْضِ وَإِذَا نَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَفْقَرُ لَهَا كَيِّفَ يَكُونُ﴾

(سورة الفرقان)

إن الأب والأم قد يحددان في اللون ولكن الابن قد يمساً بلون مختلف ، ويخلق الله معظم أساس خلقاً صوتياً ، ويخلق قلبه من الناس خلقاً غير سوى ؛ فقد يولد طفل أعرج أو مصاب بعاهة ما أو ماصع زائدة أو إصبعين وهذا الشهود أراد الله في الخلق ليلفتنا الحق بل حسن وجمال خلقه لأن من يرى - وهو السوي - بأن آخر معوقاً عن الحركة فإنه يحمد الله على كمال خلقه

وحيث يرى إنسان له في كل يد خمس أصابع إنساناً آخر له سبع رائلة يعوق حركة يده ، يفرك حركته وجود الأصابع الخمس ، فإجمال لا يشت إلا بوجود الفج ، وبهذا تتأير الأشياء ، الإنسان الذي له سبع أصابع في يد واحدة ، يصع الطب أمام مهمة ينجذ نفسه ها ؛ حتى يستطيع الطبيب أن يتأصل الرائد عن حاجة الإنسان الطبيعي ولو خلق الله الإنسان بثلاث أصابع لما استطاع ذلك الإنسان أن يتحكم عند استعماله الأشياء الدقيقة .



إن الإنسان العادي في حركته اليومية لا يدرك جمال استواء خلقه إلا إذا رثى فرد من أفراد الشدود . والحق يفت الناس الساهين عن نعم الله عليهم لرتبتها فيهم بمقدراها في غيرهم . ساعة أن يرى مبصر مكفوقاً يسير عكار ، يعطي إلى نعمة البصر التي وهبها له الله فيشعر بنعمة الله عليه . إن الشدود في الخلق هو مادج لإصاحبه تلتفت الناس إلى نعم الله التي أنعم الله عليهم بها .

هذه المثل في الكون تلفت الناس إلى نعم الله فيهم ، ولدبت نحتها أمامك ، وأيضا كي لا تستدرك على خالفك ، ولا تقل مادب هذا الإنسان أن يكون محبوف هكذا ؟ فهو سبحانه سيعوضه في نحية أخرى ، فقد يعفيه عبقريه نفوق إمكانات البصر .

وبصرت هذا المثل - والله المثل لأعلى - عن الذي ساج في الدب « سمور لك الأعرج » وهو القائد الذي أدهل الدنيا شجاعة ، إن الله قد أعده موهبة التخطيط والقتال بعريضا له عن العرج . وبحر بحب العفريات تنفجر في السواد عالم ، لماذا ؟ لأن الله يجعل للعاجر عجز معبأ همة تحاول أن تعوض ما افتقد في شيء آخر ، فيأبى السوء . إذن وهو الذي بصوركم في الأرحام كيف يشاء ، وكل تصوير له حكمة . ومادام كل تصوير له حكمة فكل خلق الله جميل .

عيب ألا تأخذ لخلق معصولا عن حكمة خالقه ، بل أحد كل خلق مع حكمة . إن الذي يجعلك تعوز هذا قبيح ، إنك تحصل المخلوق عن حكمة ، ومثال ذلك . التلميذ الذي يرس قد يحزن والده ، ولكن لماذا يأخذ الربوب بعيدا عن حكمة ؟ لقد رسب حتى يتعلم معنى الخدية في الاستدكار ، فلو نجح مع له ماذا سيحدث ؟ كل أقرانه الذين عرفوا أنه لعب ونجح سيلعبون ويفنون . هذا لعب ونجح . إذن فلا بد أن تأخذ كل عمل ومعه حكمة وحزن .

كذلك لا تأخذ العقوبة معصلة عن الخربة ، فكل عقوبة علينا أن تأخذها ملتصقة بجريعتها ، ساعة ترى واحدا مثلاً مسبحكمون عنيه بالإعدام بأحدك الرحم به وتحزن ، ها يقول لك - أنت فضلت إعدامه عن لقتل الذي ارتكبه سابقا ، إنما

لو استحصرت جرمته لوجدته يُقتل عدالة وقصاصاً فقد قتل صيره ظلماً ، فلا تبع  
هذه عن هذه .

« هو الذى يصورك فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو » ومعنى « لا إله إلا هو »  
أى سبُّور وهو عالم أن ما يَصُورُه مَبْكُورٌ على هذه  
الصورة ؛ لأنه لا يوجد إله آخر يقول له : هذه لا تعجبني وما صور صورة  
أخرى ، لا ؛ لأن الذى يفعل ذلك عَرِيرٌ ، أى لا يُغلب على أمر ، وكل ما يريد  
يحدث وكل أمر عنده حكمه ، لأنه عندما يقول « يصورك فى الأرحام » قد يقول  
أحد من الناس : إن هناك مصوراً شاذاً وصوراً غير طبعه . وهو سبحانه يقول لك :  
أما حكمكم ، وأعملها لحكمه فلا تفصل الحدث عن حكمته ، حد الحدث بحكمته ،  
وإذا أردت الحدث بحكمته تجده الخيال عينه ، وهو سبحانه الصَّور فى الرحم كيف  
يشاء ، هذا من ناحية مادته

وهو سبحانه بوضح . فلو بترك المادة هكذا بل سيجعل هذه المادة فيما كفى تسجيم  
حركة الوجود مع بعضها يقول سبحانه

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ  
أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ  
زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ  
تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي  
الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ  
إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾

إذن فعندما صورنا في الأرحام كيف يشاء عن مقتضى حكمته لن يترك الصور بدون منح للقيم ، بل صرح منح القيم بأن أمول القرن وبه منح القيم ، ولا بد أن يأخذ لشيء بحوار الحكمة منه ، وإذا أحدا الشيء بحوار الحكمة منه يوضح كل أمر مستقيا كله جميل وكله حير فيقول سبحانه . « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه يات بحكمات »

ماذا يعنى الحق بقوله . « آتت بحكمات » ؟ إن الشيء المحكم هو الذى لا يتغير إليه حل ولا فساد فى الفهم ؛ لأنه محكم ، وهذه الآيات المحكمة هى النصوص التى لا يختلف فيها الناس ، فعندما يقول

﴿ وَاللَّيْلُ وَالنَّازِعَاتُ قَطَعُوا بَيْنَهُمَا ﴾

( من الآية ٢٨ سورة المائدة )

هذه آية تنص حكما واصحا وهو سبحانه يقول

﴿ الرَّايَةُ وَالْأَزَانُ فَاجِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ﴾

( من الآية ٢ سورة النور )

هذه أيضا أمور واصحة ، هذا هو المحكم من الآيات ، فالمحكم هو ما لا يختلف فيه الألفاظ ؛ لأن النص فيه واضح وصرح لا يحتمل سواه ، ود الشاهد هو الذى تتب فى فهم المراد منه ، ومادى سمعت فى فهم المراد منه فليأخذ أمره ؟

ويوضح لك سبحانه - كما قلت لك - حد الشيء مع حكمته كى تعرف ماذا نزل ؟ فالمحكم جاء للأحكام المطلوبة من الخلق ، أى اعمل كذا ، ولا تعمل كذا ، ومادامت أفعالا مطلوبة من الخلق فامدى فعلها بآيات عبيد ، والذى لم يفعلها يعاقب ، إذن فسيترتب عليها ثواب وعقاب ، فبأنها فى صورة واضحة ، وإلا لقال واحد : « أنا لم أفهم » ، إن الأحكام تقول لك « اعمل كذا ، ولا تعمل كذا » هى حين تقول : « اعمل » ، أنت صالح ألا تعمل ، فلو كنت مخلوق على لك تعمل فقط لا يقول لك اعمل ، لكن لأنك صالح أن تعمل وألا تفعل فهو يقول لك « اعمل » .

وساعة يقول لك : « لا تفعل » ، فأنت صالح أن تفعل ، فلا يقال : « افعل ولا تفعل » ، إلا لأنه خلق فبك صلاحه أن تفعل أو لا تفعل ، ويلاحظ أنه حين يقول لي : « افعل كذا ولا تفعل كذا يريد أن أقف أمام شهوة نفس في الفعل والترك ، ولذلك يقول الحق في الصلاة

﴿ وَإِنَّا لَكَثِيرٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة لقمان)

بعد ما يقول لي : « افعل ولا تفعل » معناها أن فيه أشياء تكون ثيلاً أن أتعهد ، وإن شيئاً ثقيلاً على أن أتركه ، فمثلاً لنصر حقيقة الله صالح لأن يرى كل ما في حيره على حسب قانون الضوء ، والحق يقول له

﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَا ذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة يونس)

ولكن عند المراء التي لا يحل لك النظر إليها يقول الحق اعصم

﴿ قُلْ لِلْمُزْمِنِينَ يَعْصُوا مِنْ أَنْصُرِهِمْ وَيَحْفَظُوا أَرْوَاحَهُمْ ذَلِكَ أَرْكَى لَهُمْ إِنْ أَلَّهَ خَيْرٌ لَنَا بَعْضُهُمْ ﷻ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْصُوا مِنْ أَنْصُرِهِمْ وَيَحْفَظْنَ أَرْوَاحَهُنَّ ﴾

(سورة النور)

ومعنى « يعصوا » و « يعصين » أنه سبحانه حدد حركة العين ، ومثال آخر ، اليد تتحرك بإمرتك - سبحانه - ألا تحركها إلا في ما أمر به ، فلا تضرب بها أحداً ، ولا تشعل بها ناراً تحرق وتفسد بل أشعل بها نار لتطبخ مثلاً

إذن فهو سبحانه يأمر في « فعل ولا تفعل » ويحدد شهوات النفس في الفعل أو الترك ، فإن كانت شهوة النفس بأنها نام ، يقول الأمر التعدي ثم وصل ، وإن كانت شهوة النفس بأنها تعصب يقول الأمر الإيمان لا تعصب

إذن فالحكم إنما جاء بالفعل ولا تعمل لتحديد حركة الإنسان ، فقد يريد أن يفعل فعلاً صار : فيقول له : لا تفعل ، وقد يريد ألا يفعل فعل فيقول له : افعل إذن فكل حركات الإنسان محكومة : افعل ولا تفعل ، وعقلك وسيلة من وسائل الإدراك ، مثل العين والأذن واللسان . إن مهمة العقل أن يدرك ، فتكليمه بدعوة إلى أن يفهم أمراً ولا يفهم أمراً آخر ، وجعل الله الآيات المحكمات ليرى العقل من مهمة البحث عن حكمة الأمر لمحكم ، لأنها قد تعلق الإدراك البشري . ويريد الحق أن يلزم أحد آداب الطاعة حتى في الشيء الذي لا تدركه حكمة شريعته ، وأيضاً لتحريك عقلك لترد كل التشابه إلى المحكم من الآيات وإذا قرأنا قول الحق :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ١٧ ﴾

(سورة الأنعام)

يرى أن ذلك كلام عام وفي آية أخرى يقول سبحانه

﴿ وَهُوَ يُؤَيِّدُ بِنُصْرَتِهِ الَّذِينَ لَهُمْ دِينُهُمْ وَأَن يَصْرِفَهُمْ سَعْيُهُمُ الْفَاسِدُ إِلَىٰ أَسَاوِرَ يَدَافِعُ لَهُمُ الْعَالَمُ لَمَّا يَفْجُرُ فِجْرًا ثَلَاثًا ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩ ١٤٩٠ ١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٤ ١٤٩٥ ١٤٩٦ ١٤٩٧ ١٤٩٨ ١٤٩٩ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥٠٢ ١٥٠٣ ١٥٠٤ ١٥٠٥ ١٥٠٦ ١٥٠٧ ١٥٠٨ ١٥٠٩ ١٥١٠ ١٥١١ ١٥١٢ ١٥١٣ ١٥١٤ ١٥١٥ ١٥١٦ ١٥١٧ ١٥١٨ ١٥١٩ ١٥٢٠ ١٥٢١ ١٥٢٢ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٥ ١٥٢٦ ١٥٢٧ ١٥٢٨ ١٥٢٩ ١٥٣٠ ١٥٣١ ١٥٣٢ ١٥٣٣ ١٥٣٤ ١٥٣٥ ١٥٣٦ ١٥٣٧ ١٥٣٨ ١٥٣٩ ١٥٤٠ ١٥٤١ ١٥٤٢ ١٥٤٣ ١٥٤٤ ١٥٤٥ ١٥٤٦ ١٥٤٧ ١٥٤٨ ١٥٤٩ ١٥٥٠ ١٥٥١ ١٥٥٢ ١٥٥٣ ١٥٥٤ ١٥٥٥ ١٥٥٦ ١٥٥٧ ١٥٥٨ ١٥٥٩ ١٥٦٠ ١٥٦١ ١٥٦٢ ١٥٦٣ ١٥٦٤ ١٥٦٥ ١٥٦٦ ١٥٦٧ ١٥٦٨ ١٥٦٩ ١٥٧٠ ١٥٧١ ١٥٧٢ ١٥٧٣ ١٥٧٤ ١٥٧٥ ١٥٧٦ ١٥٧٧ ١٥٧٨ ١٥٧٩ ١٥٨٠ ١٥٨١ ١٥٨٢ ١٥٨٣ ١٥٨٤ ١٥٨٥ ١٥٨٦ ١٥٨٧ ١٥٨٨ ١٥٨٩ ١٥٩٠ ١٥٩١ ١٥٩٢ ١٥٩٣ ١٥٩٤ ١٥٩٥ ١٥٩٦ ١٥٩٧ ١٥٩٨ ١٥٩٩ ١٦٠٠ ١٦٠١ ١٦٠٢ ١٦٠٣ ١٦٠٤ ١٦٠٥ ١٦٠٦ ١٦٠٧ ١٦٠٨ ١٦٠٩

إذن فالأمر هنا منسب إليه ، إن الله يُدرك - بضم الياء وفتح الراء - أو لا يُدرك ، مما الذي تغير من الأحكام بالنسبة لك ؟ لا شيء - إذن فهذه الآيات المتشابهات لم تلت من أجل الأحكام ، إنما هي قد جاءت من أجل الإيمان فقط ، ولذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم ينهى كل خلاف للعلية حول هذه المسألة بقوله وهو الرسول الخاتم : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعصه بعض ما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فأمنوا به » (١) .

إن التشابه من الآيات قد جاء للإيمان به ، والمُحكَّم من الآيات إنما جاء للعمل به ، والمؤمن عليه دائماً أن يرد التشابه إلى المُحكَّم - مثال ذلك عندما سمع قول الله عز وجل -

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ بَدِ اللَّهُ قَوَىٰ الْيُدْيَمِ ۚ فَمَن يُكْفُتْ فَمَا يَكُفُّ عَن نَّفْسِهِ ۖ وَمن أَوَّلَ مَا عٰهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فِى سُبُوْتِهِ أَجْرًا عَظِيْمًا ۖ ﴾

(سورة المص )

إن الإنسان قد يتساءل : « هل لله يد ؟ » على الإنسان أن يرد ذلك إلى نطاق « ليس كمثلته شيء » . وعندما يسمع المؤمن قول الحق :

﴿ الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اَسْوًى ۚ ﴾

(سورة طه )

هل لله جسم يستقر به على عرش ؟ هنا نقول : هذا هو التشابه الذى يجب على المؤمن الإيمان به ، ذلك أن وجودك أيها الإنسان ليس كوجود الله ، ويدك ليست كيد الله وأن استواءك أيضاً ليس كاستواء الله - ومدام وجوده سبحانه ليس كوجودك وحياته ليس كحياتك فلماذا تريد أن تكون يده كيدك ؟

هو كما قال عن نفسه « ليس كمثلته شيء » ولماذا أدخلنا الله إلى تلك المجالات ؟ لأن الله يريد أن يُلمت خلقه إلى أشياء قد لا تستقيم في العقول ؟ فمن

يتسع ظله إلى ن يزول ويردها إلى المحكم بأن الله ليس كمثله شيء . فله ذلك .  
ومن يتسع ظنه ويقول : أنا آمنت بأن الله بدأ ولكن في إحداه « ليس كمثله شيء » فله  
ذلك أيضا وهذا أسلم

والحق يقول : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب » ومعنى « أم » أي الأصل  
الذي يجب أن ينتهي إليه تأويل المتشابه إن أولت فيه ، أو ترجعه إلى المحكم فتقول  
إن الله بدأ ، ولكن ليست كأيدي البشر . إنما تدخل في نطاق

### ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾

( من الآية ١٦ سورة التوبة ) .

ولماذا قال الحق : « هن أم الكتاب » ؟ ولم يقل « هن أمهات الكتاب » لك أن  
تعرف أيها المؤمن أنه ليس كل واحد منهن أمًا ، ولكن مجموعها هو الأم ، ولو أصبح  
ذلك فليسمع قول الحق .

### ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَ مَرْيَمَ وَآمَتِهَا آيَةً وَتَآوِيَتُهُمَا إِلَى رُبْرَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾

( سورة المؤمنون )

لم يقل الحق : إلهما أيتان ، لأن عيسى عليه السلام م يوجد كاية إلا بيلاده من أمه  
دون أن أي بضميمة أمه ، وأم عيسى لم تكن آية إلا بيلاد عيسى أي بضميمة  
عيسى إذن فهي معاً يكونان الآية ، وكذلك « هن أم الكتاب وأحر متشابهات »  
فالمقصود بها ليس كل محكم أمًا بلكتاب ، إنما المحكمات كلها هي الأم . والأصل  
الذي يرد إليه المؤمن أي متشابه . ومهمة المحكم أن تعمل به ، ومهمة المتشابه أن  
يؤمن به ، بدليل أنك إن تصوره على أي وجه لا يؤثر في عملك . فقول الحق  
« لا تدركه الأبصار » لا يرتب عليه أي حكم ، وهذا يكفي الإيمان فقط .

نكن متدًا من أمر الدين قال عنهم الله : « فأما الذين في قلوبهم ريغ فينبعون  
ما تشابه منه ابتغاء لفتة وابتغاء تأويله » . ولما أن يعرف أن « لريغ » هو الميل ،  
فراع يعني مال ، وهي مأخوذة من ترايع الأسان ، أي اختلاف مايتها ، فبنة تظهر  
دجلة ، وأخرى بخارجة ، وعندما لا تستقيم الأسان في طريقة نحوها يصمون لها

الآن عمليات تحميل وتوزيع لجعلوها صفاً واحداً .

إن الذين في قلوبهم ريع أى ميل ، يسمعون ما تشاءه من الآيات استعاء الفتنة كان  
الربيع أمر طارىء على القلوب ، وليس الأصل أن يكون في القلوب ريع ، فالفطرة  
اسليمية لا ريع فيها ، لكن الأهواء هى التى تجعل القلوب تريخ ، ويكون الإنسان  
عارفاً لحكم الله الصحيح فى أمر ما ، لكن هوى الإنسان يغلب ويميل الإنسان عن  
حكم الله والميل صحة القلب ، فالإنسان قد يجمع منطق وفكره ليعدم ميل  
قلبه ، ولذلك فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول

( لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما حئت به )<sup>(١)</sup>

لمادا ؟ لأن أفة الرأى الهوى ، وحتى المحرفون يعرفون القصد السليم ، لكن  
الواحد منهم يتحرف لما يهوى ، ودليل معرفة المحرف لنقص السليم أنه بعد أن  
بأخذ شركه فى الانحراف يتوب ويعلم توبته ، وهذا أمر معروف فى كثير من  
الأحيان ؛ لأن الميل تكلف تفريرى ، أما القصد اسليم فأمر فطرى لا يُرهق ، ومثال  
ذلك عندما ينظر الإنسان إلى حلاله ، فإنه لا يجد أعمال ملكة يافض أعمال ملكه  
أخرى ، ولكن عندما ينظر إلى واحدة ليست روجته ، فإن ملكاته تتمازك ،  
ويتبدل عمل سبيل منه النظرة أو لا ؟ إن ملكاته تنصارب ، أما النظر إلى الحلال  
فالممتلكات لا تنب فيه لذلك فالإيمان هو اطمئنان ملكاب ، فكل ممتلكات الإنسان  
تتأثر فى تكامل ، فلا تسرق ملكة من وراء أخرى

مثال آخر عندما يذهب واحد لإحضار شيء من منزله ، فإنه لا يحس بنصارب  
ملكاته ، أما إذا ذهب بسان آخر بسرقة هذا شيء ، فإن ملكاته تنصارب ، وكذلك  
حوارجه ، لأنها خالفت مطلق الحق والاستقامة والواقع .

« فأما الذين في قلوبهم ريع فيسمعون ما تشاءه من استعاء الفتنة واستعاء تأويله » إذن  
فإنهم للمستشابه من ليؤزلوه تأويلاً يخالف الواقع ليعدموا الربيع الذى في قلوبهم

(١) روى فى شرح سنة النبوى ، روى كثر العهد ، ومشكاة لمصالح لسنبرى



فالليل موجود عند قلوبهم أولاً ، ثم بدأ الفكر ينقص للليل ، والعبارة تنصع  
للكسر ، وهكذا يرى أن الأصل في الليل قد جاء منهم ولنظر إلى أداء القرآن  
الكريم حين يقول :

﴿ فَتَنَّا أَهْلَهُمْ أَرَأَيْتُمْ أَفَّةَ قُلُوبِهِمْ ﴾

( من الآية ٥ سورة البقرة )

كانه يقول : مادمتم تريدون الميل فساملكم أكثر وأساعدكم فيه ، ولحق سبحانه  
لا يبدأ بسأناً بامر بنافس بكتيفه ، لكن الإنسان قد يميله هواه إلى الريح ، فيتحل  
الله عنه - ويدفعه إلى هاربة الزرع - وانه أخرى يقول فيها الحق

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ لَمَّا بَقِيَ مِنْهَا بَعْضٌ مِّنْ أَحَدِهِمْ ثُمَّ انصَرَفُوا

صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَإِنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۝١٧﴾

( سورة التوبة )

إنهم الذين بدأوا ، انصرفوا عن الله فصرف الله قلوبهم بعداً عن الإيمان  
وكذلك الذين يتبعون المشابه يتبعون به الفتنة أى يطلبون الفتنة ، ويريدون بذلك  
فتنة عقول الدين لا يفهمون ، وماداموا يريدون فتنة عقول من لا يفهمون فهم صد  
الخبير ، وماداموا صد الخبير فهم ليسوا مؤمنين إدد ، وماداموا غير مؤمنين فتس  
يهدبهم الله إلى الخير ، لأن الإيمان يطلب من الإنسان أن يسبح فقط إلى الإيمان بالرب  
الإله الحكيم ، ثم تأتي المعونة بعد ذلك من الله - لكن عندما لا يكون مؤث فكيف  
يطلب المعونة من الله ، إنه سبحانه يقول

( أنا أغنى الشركاء عن الشرك ) (١)

إنهم يتبعون الفتنة بالمشابه ، ويتبعون تأويله ، ومعنى التأويل هو الرجوع ، لأننا  
نقول : « آل الشيء إلى كذا » أى رجع الشيء إلى كذا ، فكان شيئاً يرجع إلى شيء ،  
فمن لهم عقل لا رجع فيه يحاولون جاهدين أن يؤولوا المشابه ويردوه إلى الحكم ، أو  
يؤسوا به كما هو

( ١ ) أغنى السادة الخبير بالربيع ، وسند الريح بن حبيب ، والريح والتهرب كسندى ، والأشياء  
والصمات للبهن .

ويقول الحق بعد ذلك : « وما يعلم تأويله إلا الله » إن الله لو أرد للمشابه أن يكون مُحْكَمًا ، لحاء به من المُحكَم ، إدد لإرادة الله أن تكون هناك آيات المتشابه ومهمتها أن تحرك العقول ، وذلك حتى لا تأق الأمور بمنتهى الرتابة التي يجسد بها عقل الإنسان عن التفكير والإبداع ، والله يريد للعقل أن ينحرف وأن يفكر ويستبط . وعدم ينحرف العقل في الاستساضا تتكون عند الإنسان الرياضة على الابتكار ، والرياضة على البحث ، وليجرب كل واحد من أن يستبط المتشابه إلى المحكم ولسوف يمتلك بالرياضة ناصية الابتكار والبحث ، والحاجة هي التي تمتق لحيلة

إن حتى يريد أن يعطى الإنسان دربة حتى لا يأخذ المسائل برتابة بليدة ويشاوطا تناول الخامل ويأخذها من الطريق الأسهل ، بل عليه أن يستقبلها باستقبال واع ويفكر وتدبر

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَفَرَأَى إِنْ أَمَّ عَلَى قُيُوبٍ أَقْفَاطًا ﴾

(سورة عمه)

كن ذلك حتى يأخذ العقل القبر الكاف من الشاط ليستفيل العقل لعقائد بما يريد الله ، ويستقبل الأحكام بما يريد الله ، فريد منك في العقائد ان تؤمن ، وفي الأحكام أن تعمل « وما يعلم تأويله إلا الله » ولدين في قلوبهم ريع يحاولون التأويل وتحكمهم أهوازهم ، فلا يصلون إلى الحقيقه والتأويل الخمي لا يعلمه إلا الله .

قد رأينا من يريد أن يعيب على واحد بعض تصرفاته فقال له : يا أحى أندعى أنك أحطت بكل علم الله ؟ فقال له : لا . قال له : ما من لذي لا نعلم . وكأنه يرحوه أن يصرف عنه

والعلماء لهم وقفات عند قوه الحق « وما يعلم تأويله إلا الله » . بعضهم يقف عندها ويعتبر ما جاء من بعد ذلك وهو قوله الحق « والراسخون في العلم » كلاماً مستأنفاً ، إنهم يقولون : إن الله رحمة هو الذي يعلم تأويل المتشابه ، والمعنى « والراسخون في العلم » أى الثابتون في العلم ، الذين لا تعربهم الأهواء ، إنهم

« يقولون أما به كل من عند ربنا » وهو ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم ، إن الراسخين في العلم يقولون : إن المحكم من الآيات سيعملون به ، والمتشابه يؤمنون به ، وكل من المتشابه والمحكم من عند الله

أما من عطف وقرأ القول الحكيم ووقف عند قوله : « والراسخون في العلم » يقول له : إن الراسخين في العلم علموا تأويل المتشابه ، وكان نتيجة علمهم قولهم « أما به » .

إن الأمرين متساويان ، سواء وقف عند حد عدم الله للتأويل أو لم تقف . فالمعنى ينتهي إلى شيء واحد . وحيثية الحكم للإيمان للراسخين في العلم من قوته الحق على لسانهم . « أما به كل من عند ربنا » فالمحكم من عند ربنا ، والمتشابه من عند ربنا ، وله حكمة في ذلك . لأنه ساعد أن يأمر الأعلى الأدنى بأمر ويبين له علته فيعلم الأدنى ويعمل . وبعد ذلك يلتقي الأعلى أمراً آخر ولا يبين علته ، فواحد بعد الأمر وإن لم يعرفه العلة ، وواحد حر يقول : لا ، عليك أن توضح لي العلة . فهل الذي آمن أمس بالأمر أو بالعلة ؟

إن الحق يريد أن يؤمن به وهو الأمر ، ولو أن كل شيء صار مفهوماً لما صارت هناك قيمة للإيمان . إنما عظمة الإيمان في تنبؤ بعض الأحكام وحكمتها عامة عندك ، لأنك إن قست بكل شيء وأنت تفهم حكمته فأت مؤمن بالحكمة ، وبسبب مؤمناً بمن أصدر الأمر

وعندما نأت إلى لحم الخنزير الذي حرمه الله من أربعة عشر قرناً ، ويظهر في العصر الحديث أن في أكل لحم الخنزير مصار ، ويمتنع الناس عن أكله لأن فيه مضار ، فهل امتناع هؤلاء أمر يثابون عليه ؟ طبعاً لا ، لكن الثواب يكون لمن امتنع عن أكل لحم الخنزير لأن الله قد حرمه : ولأن الأمر قد صدر من الله . حتى دون أن نقرأ الحكمة ، إن المؤمن بالله يقول : إن الله قد خلق ولا يمكن . وهو الخالق . أن يحدهنى وأما العبد الخاضع لمشيئته .

إن العبد الممتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر امتثالاً لأمر الله ، هو الذي

بان التواب . أما الذي يمتنع خوفاً من اهتراء لكبد و الإصانة بالمرص فلا ثواب له . وعتاك هرق بين النهاب إلى الحكم بالعتة . وبين النهاب إلى الحكم بالعتة للامر بأحكامكم

إذن فالتشبه من الآيات برل للإيمان به . والرسحون في العلم يقابلهم من ملوهم الأهواء . والأهواء تلوى إلى مرادات النفس ولي استعادت غير الحق ومداامت استعادت غير الحق . فعبر الحق هو الباطل . فكل واحد من أهل الباطل يجادل أن يأتي شيء يتفق مع هوى . ولذلك جاء التشريع من الله ليعصم الناس من الأهواء . لأن هوى إنسان ما يد ياقص هوى إنسان آخر . والباقون من الناس قد يكون لهم هوى يناقص بقية الأهواء . والحق سبحانه يقول

﴿ وَلَوْ أَتَمَّ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَمَسَّ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَنزَلْنَاهُنَّ فِي سَبْعِينَ آيَةً وَأَجَلًا أَلْفَيْنِ سَبْعِينَ نَجْمًا فَنَزَلَ فِيهَا الْقُرْآنُ فَهُنَّ أَهْلَ الْاِخْلَاقِ ﴾

يذكرهم هوى عن ذكرهم مفروضون ﴿١﴾

(سورة التهمزة)

إذن فلا بد أن سبع في حركتها ما لا هوى له إلا الحق . والدين إنما جاء ليعصما من الأهواء . فالأهواء هي التي تميلنا . والتي يدل عن أن الأهواء هي التي تميل إلى غير الحق إن صاحب هوى حكماً في شيء . ثم تأتي ظروف أخرى تجعله هوى حكماً مقابل . إنه تلوى المسألة على حسب هوى . وإلا فما الذي أحادينا الناس إلى أن يخرجوا من قانون السماء الأول الذي حكم الأرض عند آدم عليه السلام ؟

لقد خرجوا من قانون السماء حينما قام قوم بأمر الدين فأخذوا هم من هذا سلطة رمية . وأصبحوا يخضعون المسائل إلى أهوائهم . ونحن إذا نظرنا إلى تاريخ القانون في لعالم لوحدنا أن أصل الحكم في انقضايا إنما هو لرجال الدين والكهنة والقائمين على أمر المعابد . كان الحكم كله هم . لأن هؤلاء كانوا هم المتكلمين بفتح الله .

ولماذا لم يستمر هذا الأمر . وجاءت الفواين الرومانية والإنجليزية والعربية وغيرها ؟ لأنهم جربوا على القائمين بأمر الدين أنهم خرجوا عن نطاق التوجيه السماوي إلى خدمة أهوائهم . فلاحظ الناس أن هؤلاء الكهنة يتكلمون في قضية

بحكم ما يختلف عن حكم آخر في قضية مشابهة . إنهم انفضة أنفسهم والقضايا متشابهة متائلة ، لكن حكم اهوى يختلف من قضية إلى أخرى ، بل وقد يتناقض مع الحكم الأول ، فقال الناس عن هؤلاء الكهنة .

لقد خرجوا عن منطق الدين واتبعوا أهواءهم ، ليلبتوا لهم سلطة زمنية ، فنحن لم نعد نأمنهم على ذلك . وخرج التقين و الحكم من يد الكهنة ورجال الدين إلى غيرهم من رجال التقين . لقد كان أمر القضاء بين الكهنة ورجال الدين ، لأن الناس افترضت فيهم أنهم يأخذون الأحكام من منبر الله ، فلما تبين للناس أن الكهنة ورجال الدين لا يأخذون الحكم من منبر الله ، ولكن من لهوى البشرى ، عند ذلك أنعد الناس زمام التقين لأنفسهم بما يضمن لهم عدالة ما حتى ولو كانت قاصرة .

وبمناسبة كلمة اهوى نجد أن هناك ثلاثة ألفاظ .

أولا : الهواء وهو ما بين السماء والأرض ، ويراد به الريح ويحرك الأشياء ويملأها وجمعه : الأهوية وهذا أمر حمى .

ثانيا : الهوى : وهو ميل النفس ، وجمعه : الأهواء ، وهو ماعود من هوى بهوى بمعنى مال .

ثالثا : الهوى : بمعنى انحاء وضمها وتشديد الياء وهو السقوط ماعود من هوى بهوى . بمعنى سقط . وهذا يدل على أن الذى يسع هواه لا يد أن يسقط ، والاستغراق اللعوية تعطى هذه المعانى إنها متلاقية . إذن الراسخون فى العلم يقعون ثابتين عند منبر الله وأما الذين يتبعون أهواءهم فهم يمينون على حسب ميل الريح . فإن الريح مالت ، مالوا حيث قبيل

ويقول الراسخون فى العلم فى نهاية علمهم : آمنا والراسخون فى العلم يقولون أما به كل من عند ربنا . وهنا تلحق المسألة ، فنحن نعرف أن المحكم نزل للعمل به ، والمشاه نزل للإيمان به لحكمة يريد بها الله سبحانه وتعالى ، وهى أن نأخذ الأمر من الأمر لا لحكمة الأمر . وعندما نأخذ الأمر من الحق فلا نسأل عن علتها ، لأننا نأخذها من خالق محب حكيم عادل . والإنسان إن لم يمد الأمر القادم من الله إلا إذا علم علته وحكمته فإننا نقول لهذا الإنسان : أنت لا تؤمن بالله ولكنك تؤمن بالعلة

والحكمة ، والمؤمن الحق هو من يؤمن بالأمر وإن لم يفهم .

والراسخون في العلم يقولون : آمنا به ، كل من عند الله ، المحكم من عند ربنا  
والمتشابه من عند ربنا ؛

ويضيف سبحانه : « وما يذكر إلا أولو الألباب » وه أولو الألباب ، أي أصحاب  
العقول المحصورة من اهوى ، لأن آفة الرأي الهوى ، والهوى يشاغل به « وما يذكر  
إلا أولو الألباب » وه اللب ، هو : العقل ، يجربنا الله أن العقل يحكم لب الأشياء  
لا ظواهر الأشياء وعوارضها . فهال أحكام تأتي للأمر الظاهر ، وأحكام لب  
الحق يأمر بقطع يد السارق . وبعد ذلك يأتي من يمثل دور حامى الإنسانية والرحمة  
ويقول : « هذه وحشه ومسوة » !

هذا ظاهر المهم ، إنما لب المهم أن أردب أن تُقطع يد السارق حتى أصعبه أن  
يسرق ، لأن كل واحد يخاف على ذاته ، فيصعب ذلك أن يسرق . وقد قننا من قبل  
إن حادثة سيارة قد ينتج عنها مشوهون قدر من قطعت أيديهم بسبب السرعة في تاربع  
الإسلام كله ، فلا تصعب وتدعى أنك رحيم ولا تنظر إلى العقاب حين يرب  
بالدب ، ولكن انظر إلى الجريمة حين تقع منه فإن الله يريد أن يحصى حركة الحياة  
للناس بحيث إذا عملت وكددت وجهت وعرفت بنفس الله لك حصيلة هذا  
العمل ، فلا يأتي منسلخه يتسلط عليك ليأخذ دمه من عرقك أن

إذن فهو يحصى حركة الحياة وتحرك كل واحد وهو امر . هذا « لب » المهم .  
ولذلك يقول تعالى : « ولكم في القصص حياة » ، إياكم أن تقولوا إن هذا  
القصص اعتداء على حياة فرد لا ، لأن « لكم في القصص حياة » إن من عدم أنه  
إن قتل فيقتل ، سيمتنع عن القتل ، إذن فقد حيا نفسه رحيميا الناس منه ،  
وهكذا يكون في القصص حياة ، وذلك هو لب المهم في الأشياء : فانه سبحانه  
وتعالى يلفتنا إليها ألا نأخذ الأمور بظواهرها ، بل نأخذها بلبها ، ويدع القشور  
التي يحشكم إليها أناس يريدون أن يملتوا من حكم الله . وه الراسخون في العلم  
حينما فصلوا في أمر المتشابه دعوا الله بالقول الذي أنزله - سبحانه - :

﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ  
لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾

فكان قول الراسخين في العلم إن كل محكم وكل مشابه هو من عند الله ،  
والمحكم نعمل به ، والمتشابه نؤمن به ، فهذه هي الهداية ، ثم يكون الدعاء بالثبات  
على هذه الهداية ، والمعنى . يارب ثبتنا على عبادتك ولا تجعل قلوبنا غيلاً أو  
تريباً وهذا يدلنا على أن القلوب تتحول وتتغير ، بذلك يأتي القول الفصل بالدعاء  
على الثبات الإيماني :

﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾

(سورة التين)

نهم يطلبون رحمة هبة لا رحمة حق ، فليس هناك مخلوق له حق على الله  
إلا ما وهبه الله له . والراسخون في العلم يطلبون من الله الرحمة من الوقوع في الغي  
بعد أن هداهم الله إلى هذا الحكم السليم بأن أمثاله والمحكم كل من عند الله  
ويعلموننا كيف يكتوب الطريق إلى الهداية وطلب رحمة الهبة . والراسخ في العلم مادام  
قد علم شيئاً فهو يريد أن يشيعه في الناس ، لذلك يقول لنا .

إياكم أن تطمأنوا أن المسألة مسألة مهم لنص وننتهي ، إن المسألة يترتب عليها أمر  
آخر ، هذا الأمر الآخر لا يوجد في الدنيا فقط ، فهناك آخرة ، فالدب مقدور عليها  
لأنها محدودة الأمد ومنتهية ، ولكن هناك الآخرة التي تأتي بعد الدنيا حيث الخلود ،  
فيقول الحق على لسان الراسخين في العلم :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَمِيعُ السَّامِعِينَ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ

## فِيهِ آيَاتٌ لِّلَّذِينَ يَخْلَفُونَ الْبُعَادَ ﴿١﴾

وقولهم: ربنا ، نعمهم به أنه الحق المتولي التربية ، ومعنى التربية هو اتصال من تتم تربيته إلى الكمال المطلوب له ، فهناك ربٌ يرى ، وهناك عبدٌ تتم تربيته ، والرب يعطى الإنسان ما يؤهله إلى الكمال المطلوب له .

والمؤمنون يرجون الله قائمين . يارب من تمام تربيتك له أن نحيا من عباد الآخرة ، فإذا عاشنا لدينا وانتهت فحين يعلم أنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، وما دمت ربا ، وما دمت إلها فذلك لا تخلف البيعة ، فالذى يخلف البيعة لا يكون إلها ، لأن الإله سعة لوعده بعدم بنهم قدرته وكمال علمه أنه قادر على الإبعاد ، إنما الذى ليس لديه قدرة على الابتعاد لا يستطيع أن يعد إلا مشغولا شغلا يستند إليه ، كقولنا نحن العباد . « إن شاء الله » لماذا ؟ لأن الواحد منا لا يملك أن يعي بما وعد .

حيثما نحرصنا إلى قول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ ﴿١﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُرَنَّكَ إِذَا تَبَيَّنَ وَقِيلَ لَهُ سَيِّدُ الْوَعْدِ ۖ لَآ أَقْرَبُ مِنْ هَٰذَا رَسَدًا ۚ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

قلنا يملك أن تفوز: إن سأفعل شيئا إلا أن تشمله وتربطه بمشيئة الله ، لأنك أنت إن وعدت ، فأنت لا تضمن عمرك ولا إنفاذ وعدك ، إنك لن تفعل شيئا إلا بإرادة الله ، لذلك فلا تعد إلا بمشيئة ، لأنك تعد بما لا تضمن ، فأنت في حقيقة الأمر لا تملك شيئا ، فإن أردت فعل أى شيء أو الذهاب إلى أى مكان فالمعنى يحتاج إلى فعل ومفعول وزمان ومكان وسبب ، ثم يحتاج إلى قدرة لتعبد المفعول والإنسان لا يملك من هذه الأشياء إلا ما يشاء الله له أن يملكه . إن الإنسان لا يملك أن يظل فاعلا . والإنسان لا يملك إن وُجد الفاعل أن يوجد للمفعول . والإنسان لا يملك الزمن ، ولا يملك المكان ، بل لا يملك الإنسان أن يظل السبب قائما ليفعل ما كان





إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد ، ربما فكر الكافر أو المنافق أن هلاك شيئا قد سبقه بما سيحدث في ذلك اليوم ، كهروء الأولاد ، أو كثرة مال يشتري نفسه به ، أو حلة ، أو شفاعة ، ها يقول الحق لهم لا ، إن أولادكم وأموالكم لا تنعى عنكم شيئا .

وفي اللغة يقال : هذا الشيء لا ينعى فلاناً ، أى أنه يظل محتاجاً إلى غيره ؛ لأن المعنى هو ألا تحتاج إلى لغير ، فالأموال والأولاد لا تنعى أحداً في يوم انقيامه ، والمسألة لا عزوة فيها ، لا أسباب بينهم يومئذ والخنة ليست للبيع ، فلا أحد يستطيع شراء مكان في الجنة بمال يملكه .

وكان الكافرون على أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون ذلك المول الشاذ يقولون . مدام الله قد أعطانا أموالاً وأولاداً في الدنيا فلا بد أن يعطينا في الآخرة ما هو أفضل من ذلك . وليلت يعول الله لهم : إن الذين كفروا لن تنعى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، إذن فالأمر كله مردود إلى الله . صحيح في هذه الدنيا أن الله قد يخلق لأسباب ، والكافر تحكمه الأسباب ، وكذلك المؤمن ، وإذا ما أخذ الكافر بالأسباب فإنه يأخذ النتيجة . ولكن في الآخرة فالأمر يختلف ؛ فليس يملك أحد أسباباً ، وبذلك يقول الحق عن اليوم الآخر :

﴿ يَوْمَ هُمْ تَرْزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَنِ اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝١٦﴾

(سورة علقم)

إن البشر في الدنيا يملكون الأسباب ، ويعيشون مختلفين في العيم على اختلاف أسبابهم ، واختلاف كدحهم في الحياة ، واختلاف وجود ما يحقق للإسناد المتع ، لكن الأمر في الآخرة ليس فيه كدح ولا أسباب ؛ لأن الإنسان لمؤمن يعيش بالنسب في الآخرة وهو الله - جلت قدرته - فبمعزود أن يحطر الشيء على مال المؤمن في الجنة فإن الشيء يأتي له . أما الكفار فلا يعنى عنهم ما لهم ولا أولادهم ، لأنهم انشغلوا في الدنيا بلذات والأولاد وكفروا بالله .

﴿ سَبِّحُوا لِلَّهِ الْمُسْتَغْفِرُونَ مِنَ الْآثَرَابِ شِعْرَتَنَا آمُونًا وَأَعْلُونًا فَلَنُغْفِرَ لَنَّا يَقُولُونَ

## وَالسَّيِّئِينَ مَأَلَمٌ فِي قُلُوبِهِمْ ﴿١٧﴾

(من الآية ١١ سورة الفتح)

إذن لما اشعل به الكفار في الدنيا بن يمعهم ، وضيقت الحق من لكفر في  
تفصيل الآية التي نحن بصدد حلها « وأولئك هم وقود النار » إسم المعبدين ، وسوف  
يُعذبون في النار . ولما تكلم الشديدة بهم ، إن الدين يُعذبون ، هم الذين  
يُعذبون ؛ لأنهم بأنفسهم سيكونون وقود النار . إن المعذب - بمنح العين وفتح الدال  
مع التشديد - يكون هو المعذب - بمنح العين وكسر الدال مع التشديد -

فهذه ثورته الأبعاص . فلو أن لكافر مؤمنه ، ودرأت العاصي طائفة ، والذي  
جعل هذه الدرات تنجح إلى فعل ما يُغضب الله هو إرادة صاحبها عليها . وضربا  
قدما المثل - والله المثل الأعلى - قلنا . هب أن كمية لها فائد بالمفروض في الكمية أن  
تسمع أمر القائد ، وتقوم بتفدية ما أمر به ؛ فإذا ما جماعوا للأمر والقائد الأعلى بعد  
ذلك فإنهم يرفعون أمرهم إليه ويقولون له : نحكم لأمر بعدا العمل لدى صدورنا  
من قائدنا المباشر وكما عبر موافقين على رأيه . وفي الحياة الإيمانية بعد القول الحكيم  
من الخالق :

﴿ يَوْمَ قَاسَمُوكُمْ أَنَّكُم مِّنَ الْغَايِبِينَ وَأَرْحَلُوكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة النور)

فكان اللسان بطق بكلمة الكفر وهو لاعنٌ لصاحبه . ولقد نتقدم إلى المعصية  
وهي كارهة لصاحبها ولاعة له ، إن إرادة الله العليا هي التي جعلت للكافر إرادة  
عن يده ولسانه في الدنيا ، وسرع الله إرادة الكافر عن جوارحه يوم القيامة فشهد  
عنه أنه أجبرها على فعل المعاصي ، وتعدت الأبعاص بعضها ، وعندما يقول الحق :  
« وأولئك هم وقود النار » وهنا مسألة يجب أن نلتفت إليها ونأخذها من واقع  
التاريخ ، هذه المسألة هي أن الدين كهرور برسالات الله في الأرض تلقوا بعض  
المداب في الدنيا ، لأن الله لا يذخر كل العقاب للأخرة وإلا لشي الناس بالكافرين  
والمعاصين ، ولذلك فإن الله يُعجلُ بشيء من العقاب للكافرين والمعاصين في هذه  
الدنيا .

ويقول الحق مثلاً على ذلك .

﴿ كَذَّابٌ إِلَىٰ فرعونَ والأدين من قبلهم كذبوا بِآياتِنَا  
فأسأدهم الله بُدْؤَهُمْ والله شديد العقاب ﴾ ١١

وساعة تسمع « كذاب كذ » ، فالذاب هو العمل بكذب ولا انقطاع فنقول  
لأن دأبه أن يفعل كذا أى هو معتاد دائماً أن يفعل كذا أو يقول : ليس لفلان دأب  
إلا أن يعتب الناس

فهل معنى ذلك أن كل أفعاله محصورة في اعتياد الناس ، أو أنه يقوم بأفعال  
أخرى ؟ إنه يقوم بأفعال أخرى لكن المعتاد عليه هو الاعتياد ، وهذا هو الدأب .  
فالذاب هو السعي بكذب وتوالى حتى يصحح الفعل بالتوالى عادة إذن عقوله الحق .  
« كذاب آل فرعون » أى كعادة آل فرعون وآل فرعون هم قوم حاموا قبل الرسالة  
الإسلامية ، وقبلهم كان قوم شعور وعاد وغرهم

ولفت الحق سبحانه إلى أن نظر إلى هؤلاء ونرى ما الذى حدث لهم ، إنه  
سبحانه لم يؤخر عقابهم إلى الآخرة ، لأنه ربما طس الناس أن الله قد أدر عذاب  
لكافرين إلى الآخرة ، لأنه قال

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن تَعِيَ عَنَّمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَانَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً  
وَأُولَئِكَ هُم وَقُودُ النَّارِ ﴾ ١٢

( سورة آل عمران )

لا ، بل العذاب أيضاً في الدنيا مصداقاً لقوله الحق .

﴿لَمْ يَكُنْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾

(سورة فرعون)

إن العذاب لو تم تأجيله إلى الآخرة لشقى الناس بالاشقياء ، لذلك يأتي الله بأمثلة من الحياة ويقول : « كذاب آل فرعون ، أي كعادة آل فرعون ، ولا تعير مسألة عادة إلا بالكذب في العمل ، وكان دأب آل فرعون هو التكذيب والطغيان وأفعاله فرعون الألوهية

ويقول سبحانه : « والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا ، فأحلهم الله بدوهم والله شديد العقاب » فصر الدأب بهم ، وما وقع بهم ، فإذا كانوا قد اعتادوا الكفر والتكذيب فقد أوقع الله عليهم العذاب . لقد كان دأب آل فرعون هو التكذيب ، والخلق سبحانه - يحاربهم على ذلك بتعذيبهم ، ولنقرأ إن شئت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَأَنبَجِرُوا ۖ وَلَبِإِ عَنِّي ۖ وَالشَّمْعُ وَتَوَتَّرُوا ۖ وَأَنبَجِرُوا ۖ وَإِذَا بَسَرُوا ۖ مَلَأُوا ۖ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّدَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۖ أَلَّا تَرْكَبُوا مَعَلَ رَبِّكَ بِعَادٍ ۖ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۖ الَّتِي لَا يَخْتَقِ بِشُئْهَا فِي الْبَلَدِ ۖ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الْأَشْجَرَ بِأَنْوَادٍ ۖ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۖ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ۖ فَأَكْجَرُوا فِيهَا الْعَادَ ۖ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۖ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۖ﴾

(سورة العنكبوت)

قدأبهم التكذيب وجزاء الله لهم على ذلك هو العذاب والعقاب . إذن فقوله الحق : « فأحلهم الله بدوهم والله شديد العقاب » أي أوقع بهم العذاب في الدنيا ، وكانت النهاية ما كانت في آل فرعون و ثمود ومن قبلهم من الأمم الكافرين .

وعندما تسمع قول الله : « والله شديد العقاب » فالله يصرف إلى أن هناك دأباً يستحق العقاب . وكل الأمور من المصوبات مأخوذة دائماً من المحسّات ، لأن الأصل في إيجاب أى معلومات معوية هو المشاهد الحسية ، وتنقل الأشياء الحسية إلى

المعنويات بعد ذلك . لماذا ؟ لأن الشيء الحسي مشهود من الجميع ، أما الشيء المعنوي فلا يفهمه إلا المتفكرون ، والإنسان له أطوار كثيرة فهي طور الطفولة لا يفهم ولا يعقل الإنسان إلا الأمر المحسوس أمامه

وقلت قديماً في معنى كلمة « العصب » : إنه أحد وملب شيء من إنسان صاحب حق قوة ، وهذا أمر معنوي له صورة مشهدية ؛ لأن الذي يسلح الحديد عن الشاة سميها خاصاً . ولتر كيف يكون أحد الحق من صاحبه ، إنه كالسلاح تماماً ، فالكلمة تأتي للإيضاح .

وكلمة « ذنب » وكلمة « عقوبة » مترابطتان ؛ فكلمة « ذنب » مأخوذة من مادة ذنب ؛ لأن المادة كلها تدل على « التالي » والذنب يتلو المقامة في الحيوان والعقاب هو ما يأتي عقب الشيء .

إذن فهناك ذنب وهناك عقاب . لكن ماذا قبل الذنب ، وماذا يتلو العقاب ؟ لا يوجد ذنب إلا إذا وجد نص يُجرّم ، فلا ذنب إلا بنص . فليس كل من هو ذنب ، بل لابد من وجود نص قبل وقوع الذنب . يجرّم فعله ، ولذلك أحد التفسير الوضعي هذا الأمر ، فقال لا يمكن أن يعاقب إنسان إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص ، فلا يمكن أن يأت إنسان فجأة ويقول : هذا العمل جريمة يعاقب عليها . بل لابد من التنبيه والنص من قبل ذلك على تحريم هذا العمل

إنه لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص . فالنص يوضح تحريم فعل نوع ما من العمل ، وإن قام إنسان بهذا العمل فإنه عزم ، ويكون ذلك هو الذنب . فكان الذنب جاء تالياً لنص التجريم . والعقاب يأتي عقب الجريمة ، وهكذا نجد أن كلامنا الذنب والجريمة بأحضان واقع النعظ ومدلوله ومعناه ؛ فالذنب هو التالي للشيء . ولذلك يسمون الذنب الذي يلاونه بالماء « ذنباً » لأنه هو الذي يلو الخيل . وأيضاً الجزاء في الآخرة .

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا بِمَثَلٍ ذُنُوبِ الْمُجْرِمِينَ فَلَا يَسْتَعِيلُونَ ﴾ (٥)

أى دنوياً تتبع ، وتتلو جريمتهم . إذن فالنص القرآنى فى أى دىب وفى أى عقاب يؤكد لنا القضية القانونية الاصطلاحية الموجودة فى كل الدنيا : إنه لا عقوبة دون مجرم . فكان العقاب بعد الجريمة أى بعد الذنب ، والذنب بعص النص ، فلا تانى لواحد بدون نص سابق ونقول له : أنت ارتكبت دنأ . وهذه محل إشكالات كثيرة ، مثال ذلك :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ٥١ ﴾

(سورة النساء)

إن الله يعفو ما دون الشرك بالله ، فالشرك بالله قمة الحياه العظمى ؛ وهذا لا غمراى فيه وبعد ذلك يعفو لمن يشاء . ويقول الحق فى آية أخرى :

﴿ قُلْ يٰٓعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥٢ ﴾

(سورة الزمر)

فهناك بعض من الناس يقولون : إن الله قال: إنه لا يعفو أن يشرك به ، ويعفو ما دون ذلك لمن يشاء ، حتى إسم قالوا : إن ابن عباس ساءت جاءت هذه الآية اتى قال فيها الحق : « إن الله يعفو الذنوب جميعا » قال : « إلا الشرك » وذلك حتى لا تصطدم هذه الآية مع الآية الأخرى

والواقع أنه حين يدقق أولو الألباب على نجد اصطداما ، لأن الدين أسرفوا على أنفسهم . هم من عباد الله الذين آمنوا ولم يشركوا بربهم أحدا ، ولكنهم زلوا وغفوا ووقعوا فى المعاصى هؤلاء يقال عنهم : إنهم مذنبون ، لأنهم مؤمنون بالله ومعترفون بالذى أنزل ، أما الشرك فلم يعرف بالله ولا بما شرع وقتن من أحكامه هو عليه لا يسمى ذنبا وإنما هو كفر وشرك . فلا تعارض ولا تصادم فى آيات الرحمن .

وعندما يقول الحق :

﴿ كَذَّبَ إِلَهِ فِرْعَوْنُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَلَاخُذَهُمْ اللَّهُ بِنُفُوسِهِمْ  
وَأَنَّهُ قَبِيدُ الْعِقَابِ ١١ ﴾

(سورة النازعات)

بهذا القبول الحكيم متوارد ومتيقن ، فالذنب باق بعد نص ، وإعقاب من بعد  
ذلك . ويقول الحق أمرا رسوله بهلاع الكافرين :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ لَيُوتَ وَهُمْ عَلَيْهَا وَتَحْشَرُونَ  
إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيُتَسَّ إِلَيْهَا ١٢ ﴾

إنه أمر من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وهو المبلغ عن الله ، أن يحمل  
للكافرين خيرا فيه إندار . من هم هؤلاء الكفار ؟ هل هم كفار قريش ؟ الأمر  
جائر هل هم اليهود ؟ الأم جائز . فاللاع يشمل كل كافر

والنص القرآني حينما يأتي فهو يأتي على غير عادة الناس في الخطاب ، ولا ضرب  
هذا المثل - وفيه المثل الأعلى وسبحانه متزه عن تشبيه أو المثل - أنت تقول لابنتك  
اذهب إلى عمك ، وقل له - إن أبي سيحضر لزيارتك عدا - فإذا يكون كلام الابن  
للعم ؟ إن الابن يذهب للعم ويقول له - إن أبي سيوروك عدا . لكن الأمر وهو  
الاب يقول - قل لعمك إن أبي سيوروك عدا . فإذا كان الابن دقيق الأمانة فهو  
يقول :

- قال أبي - قل لعمك، إن أبي سيوروك عدا . وعندما يقول الحق سبحانه -  
« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ لَيُوتَ وَهُمْ عَلَيْهَا وَتَحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيُتَسَّ إِلَيْهَا »

فهذا معناه قمة الأمانة من الرسول المبلغ عن الله ، فنقل للكافرين النص الذي  
أمره الله بتلويحه للكافرين . وإلا كان يكفي الرسول صلى الله عليه وسلم أن يذهب



للكافرين ويقول لهم : مستغلبون وتحشرون . لكن من يدريهم أن هذا الكلام ليس من عند محمد وهو بشر ؟ لذلك يبلغهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أبلغه أن يبلغهم بقوله : « قل للذين كفروا مستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » .

إن الرسول لم يبلغهم بمقول القول : لا ، إنما أبلغهم نص البلاغ الذي أبلغه به الله . وساعة يأمر الحق في قرآنه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ أمرا للكافرين فإن الرسول صلى الله عليه وسلم مخاطب ، والكفار مخاطبون ، فعندما يواجههم فإنه يقول لهم : مستغلبون . . وفي آية أخرى يقول الحق :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ

الْأُولَى ﴾

( سورة الأنفال )

إن القياس أن يقول : إن انتهوا يغفر لكم ما قد سلف ، لكن الحق قال : « إن ينتهوا » ، فكان الله حينما قال كان الكفار غير حاضرين للمخاطب ورسول الله هو الحاضر للمخاطب ، والله يتكلم عن غائبين .

ولكن الله - سبحانه - في هذه الآية التي نحن بصددتها يحمل الرسول تمام البلاغ . فمرة يكون النفل من الأمر الأول كما صدر منه سبحانه كقوله : « إن ينتهوا » ومرة يأمره الأمر الأول أن يبلغ الكلمة التي يكون بها مخاطبا أي لا تغفل : مستغلبون وقل : « مستغلبون » لأنك أنت الذي ستخاطبهم . وهذه الدقة الأدائية لا يمكن إلا أن تكون من قادر حكيم .

إنه بلاغ إلى كفار فريش أو إلى مطلق الذين كفروا . والغلب سيكون في الدنيا . والحشر يكون في الآخرة .

فإذا ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل النص القرآني « مستغلبون » فمضى قائلها رسول الله ؟ لقد قالها والمسلمون قلة لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ولا يقدرון على شيء . وكل مؤمن بجها في كنف آخر ، أو يهاجر إلى مكان بعيد . فهل يمكن أن يأتي هذا البلاغ إلا من يملك مطلق الأسباب ؟

لقد قالها الرسول مبلغاً عن الله ، والمسلمون في حالة من الضعف واضحة ، وما دام قد قالها ، فهي حجة عليه ، لأن من أبدعه إياها وهو الله قادر على أن يفعلها .  
« قتل للذين كفروا مغلوبون » ليس العقاب في الدنيا فقط ، ولكن في الآخرة أيضاً  
« ونحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » هذه المسألة إشارة لرسول الله ولأصحابه ،  
واتذار للكافرين به ، ويتم تحقيقها في موقعة بدر . فسيبدأ عمر بن الخطاب لما نزل  
قول الله :

﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤْتُونَ الدُّبُرَ ۝٣٥﴾

(سورة النمل)

تساءل عمر بن الخطاب : أي جمع هذا ؟ إنه يعلم أن المسلمين ضعاف لا يقدرون على ذلك ، وأسباب انتصار المسلمين غير موجودة ، ولكن رسول الله لم يكن يكلم المؤمنين بالأسباب ، إنما برب الأسباب ، فلذا ما تحدى وأنذرهم ، مع أنه وصحبه ضعاف أمامهم ، فقد جاء الواقع ليثبت صدق الحق في قوله : « ستغلبون » ويتم انتصار المسلمين بالفعل ، ويغلبون الكافرين .

الآن نعمل صدق بلاغ الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يحدث في الدنيا دليل صدق على ما يحدث في الآخرة ؟ إن تحقيق « ستغلبون » يؤكد « ونحشرون إلى جهنم » . وفي هذه الآية شيان : الأول : بلاغ عن هزيمة الكفار في الدنيا وهو أمر يشهده الناس جميعاً ، والأمر الآخر هو في الآخرة وقد يكذبه بعض الناس . وإذا كان الحق قد أنبا رسولاً بأنك يا محمد ستغلب الكافرين وأنت لا تملك أسباب الغلبة عليهم . ومع ذلك يأتي واقع الأحداث فيؤكد أن الكافرين قد تمت هزيمتهم . وما دام قد صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في البلاغ عن الأولى ولم يكن يملك الأسباب فلا بد أن يكون صادقاً في البلاغ في الثانية وهي البلاغ عن الحشر في نار جهنم .

وبعض المفسرين قد قال : إن هذه المقولة لليهود ؛ لأن اليهود حينما انتصر المسلمون في بدر وُلزِلُوا وَلَزَالَا تُشْذِبُنَا ، فلم يكن اليهود على ثقة في أن الإسلام والمسلمين سيتصرون في بدر ، فلما انتصر الإسلام في بدر ، قال بعض اليهود : إن محمداً هو الرسول الذي وعدنا به الله والأولى أن تؤمن به ، فقال قوم منهم : انتظروا إلى معركة أخرى . أي لا تأخذوها من أول معركة ، فانتظروا ، وجاءت معركة أحد ،

وكانت الحرب سجالاتاً (١).

ولنا أن نقول : وما المانع أن تكون الآية لليهود وللمشركين وللمطلق الذين كفروا ؟ فاللفظ علم وإن كان قد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال لهم : يا معشر اليهود احذروا مثل ما نزل بفريش واسلبوا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم ، فقد عرفتم أني نبي مرسل . فماذا قالوا له ؟ قالوا له : لا نقرنك أنك لقيت قوماً أغياراً . أي قوماً من غيار الناس لم يجربوا الأمور . لا علم لهم بالحرب فأصبحت منهم فرصة ، لئن قاتلنا لعلمت أننا نحن الناس ، فانزل الله قوله : « قل للذين كفروا مستغلبون . . . » إلخ الآية .

والمهاد هو ما يُنهد عادة للطفل حتى ينام عليه نوماً مستقراً أي له قرار ، وكلمة « بنس المهاد » تدل على أنهم لا قدرة لهم على تغيير ما هم فيه ، كما لا قدرة للطفل على أن يقاوم من يضعه للنوم في أي مكان . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِئَةً سَبِيلُ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (١٣)

وحين يقول الحق : « قد كان لكم آية » . فمن المخاطب بهذه الآية ؟ لأشك أن المخاطب بهذه الآية كل من كانت حياته بعد هذه الواقعة ، سواء كان مؤمناً أو كافراً ، فالؤمن تؤكد له أن نصر الله يأتي ولو من غير أسباب ، والكافر تأتي له الآية

بالعبرة في أن الله يخذله ولو بالأسباب ، إن الله جعل من تلك الموقعة آية ، والآية هي الشيء العجيب ، أي إن واقعه ونتائجه لا تأتي وفق المقدمات البشرية .

نعم هذا خطاب عام لكل من يتسبب إلى أي فئة من الفئتين المتقاتلتين ، سواء كانت فئة الإيمان أو فئة الكفر . ففئة الإيمان لكي تفهم أنه ليست الأسباب المادية هي كل شيء في المعركة بين الحق والباطل ، لأن الله جنودا لا يرونها . وكذلك يخطيء هذا الخطاب فئة الكافرين فلا يقولون : إن لنا أسبابا من عدد وعُدّة قوية ، فقد وقعت المعركة بين الحق والباطل من قبل ؛ وقد انتصر الحق .

وكلمة « فئة » إذا سمعتها تصورت جماعة من الناس ، ولكن لها خصوصية ؛ فقد توجد جماعة ولكن لكل واحد حركة في الحياة . ولكن حين نسمع كلمة « فئة » فهي تدل على جماعة ، وهي بصدد عمل واحد . فهي غير الحرب كل واحد له حركة قد تختلف عن حركة الآخر . ولكن كلمة « فئة » تدل على جماعة من الناس لها حركة واحدة في عمل واحد لغاية واحدة .

ولاشك ، أن الحرب تصور هذه العملية أدق تصوير ، بل إن الحرب هي التي توحد كل فئة في سبيل الحركة الواحدة والعمل الواحد للغاية الواحدة ؛ لأن كل واحد من أي فئة لا يستطيع أن يحمي نفسه وحده ، فكل واحد يهنيء ويرجع إلى الجماعة ، ولا يستطيع أن يفصل عن جماعته . ولكن الفرد في حركة الحياة العادية يستطيع أن يفصل عن جماعته .

إذن فكلمة « فئة » تدل على جماعة من الناس في عملية واحدة ، وثائق الكلمة دائما في الحرب لتصور كل معسكر يواجه آخر . وحين يقول الحق : « قد كان لكم آية في فئتين التفتا » أي أن هناك صراعا بين فئتين ، ويوضح الحق ما هبة كل فئة فيقول : « فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة » . وحين ندقق النظر في النص القرآني ، نجد أن الحق لم يورد لنا وصف الفئة التي تقاتل في سبيل الله ولم يذكر أنها فئة مؤمنة ، وأوضح أن الفئة الأخرى كافرة ، وهذا يعني أن الفئة التي تقاتل في سبيل الله لا بد أن تكون فئة مؤمنة ، ولم يورد الحق أن الفئة الكافرة تقاتل في سبيل الشيطان اكتفاء بأن كبرها لا بد أن يقودها إلى أن تقاتل في سبيل الشيطان .